

من ذاكرة القلم

جملة من افتتاحيات ومقالات مجلة: «حضارة الإسلام»

بين ١٣٨٤-١٤٠١هـ / ١٩٦٤ - ١٩٨١م



بقلم

أ.د محمد أديب الصالح

رئيس تحرير مجلة «حضارة الإسلام»

أستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق

وقسم السنة وعلومها بجامعة الإمام سابقاً



عهد .. ووفاء^(١)

على مثل جمر الغضى يمسكني القدر المحتوم لأخط هذه السطور المتواضعة في مفتتح العدد الحزين الباكي من مجلة «حضارة الإسلام».

وتأتي تلکم الكلمات بعد معذرة وعلى استحياء لتشعر بمسؤولية الوفاء بمتابعة الطريق، طريق الاستاذ الرائد، والعالم الصابر المجاهد، الدكتور مصطفى السباعي -يرحمه الله- في هذه المجلة.

فلقد كانت الاعداد الماضية -وليتها لم تنقطع عن الأمة أسبابها- يزينها وهي في حرارتها ومضائها فكره المؤمن المستنير، وقلمه الصادق المعبر، وأسلوبه البارع الموجه.

أما هذا العدد فيوشحه سواد الألم، وتبلله دموع اللوعة وتحركه خفقات القلوب، القلوب التي هزتها يد الفاجعة فحركت كوامنها واعتصرتها حتى الثمالة.

ومنذا الذي يزعم لنفسه أن الفراغ الذي تركه مصطفى السباعي في هذه الساحة يمكن أن تملأه كلمات تكتب كل شهر وقول يدفع إلى المطبعة بين الحين والحين.

ولعل خير ما يذكر أمام هذه الحقيقة قول رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه: «إنما الناس كالإبل المائية لا يوجد فيها راحلة».

(١) حضارة الإسلام: الأعداد (الرابع، الخامس، السنة الخامسة، ١٣٨٤هـ جمادى الآخرة، رجب، شعبان، تشرين الأول والثاني وكانون الأول ١٩٦٤م).



ولكنه الحرص الصادق على أن تستمر هذه المجلة فلا تتوقف وأن يتصل حبها بأسرتها الكبيرة من القراء فلا ينقطع أداء لرسالة الإسلام والمعرفة، ووقوفاً عند أمر الله في أن يؤدي العالم الأمانة ولا يكتفم ما أنزل الله .

ولقد كنت وما زلت أعتقد أن هذه الطق التي رسم معالمها مصطفى السباعي وغذاها بروحه وأعصابه ، وأثمن ما لديه من مواهب وطاقات تفتقر -بعد الاستعانة بالله- وأن عناية الله معنا إذا كنا أمناء على متابعة السير بوحي صادق وأدراك سليم .

لقد علمتنا عقيدة الاسلام أن الخلود لله عز وجل ، وأن كل ما عليها فان ، وإن كتاب الله ليعد بحسن الصبر عمن نفقد حسن العوض منه ، وإننا لنستنجز الله وعده أن يهبنا -ونحن الضعفاء- قوة من عنده ورحمة من لدنه .

ألا وأن أعلام الأمة أمتحان لأبناء الأمة ، وحجة الله على عباده في مقدار استمساكهم بحبله المتين ، وصراطه المستقيم ، فكل واحد من هؤلاء الأعلام بشر من البشر ، ولكنه تعالى على حطام الدنيا ، وارتفع فوق ترابها وشواتها فكان المنار الهادي والقدوة الأمين .

وما أبو حسان -طيب الله ثراه- إلا واحد من هؤلاء الافداز ، فقد حمل راية العلم والجهاد صادقاً مخلصاً وصبر على البلاء وصابر حتى اختار الله له ما عنده وقبضه إلى رحمته .

وإذا كانت هذه المجلة في المقام الأول من الاهتمام عند الفقيد ، يوم كان

بيننا فهو بها حفي أكثر من المال والولد ، فإن الوفاء يقتضينا أن نجدد العهد على أن تتابع المجلة طريقها بالفكرة الواعية والكلمة الطيبة على هدي المعالم التي رسمها الأستاذ السباعي لخدمة دعوة الإسلام في رسالته الإنسانية المثلى .

فاللهم أمطر فقيدنا العظيم وأبل رحمتك ورضوانك ، وأنزل السكينة في قلوبنا حتى نبصر المعالم فلا نتعثر ، وهبنا من فضلك وعنايتك حتى تقوى سواعدنا على حمل الأمانة ، وأرزقنا إخلاصاً في العمل وصبراً على وعورة الطريق ، وأجعلنا في مرضاتك على كل حال . . والحمد لله رب العالمين .



وقفظة .. مع المسلم المعاصر^(١)

هل أتاك نبأ ما يفترض بالمسلم أن يعمل به وهو يود أربعة عشر قرناً تقضت مع دعوة الإسلام؟

إن الحديث عن هذه القضية بثقلها وأبعادها حديث عن مسؤولية جيل بكامفه عرف ما عرف وأنكر ما أنكر . . حديث عن جيل عاش على صعيد الفكر والثروة المدونة في الكتاب أبهى وأجمل ما عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل على كثرة شعابه وإهاده . . وأصابه لفح الهجير من أعداد الإسلام والمظاهرين على دعوته . . وكاد يضيع بين الفكر المدون والتاريخ، وبين واقع هو على النقيض من ذلك المدون في كثير من الأحيان .

ولكن الدين الذي تعبد الله به خلقه على لسان نبيه محمد عليه الصلاة والسلام، كان قادراً على أن يشد من تفتحت قلوبهم للخير من أبنائه إلى حظيرة الحق من جديد . . لقد شدّهم بالسواعد القوية الأمانة ودميت على الطريق أقدام، كان التيار الذي استعصى -على العواصف الهوج والأمواج العاتية- لما كان من بنيتة التي جمعت إلى شهادة عادلة في هذا المضممار . والله متم نوره ولو كره المشركون .

ولقد يكون عزيزاً على المرء أن يقنع باللحمة العابرة لهذه القضية لما أنها المطلب الذي تجعله رداءة الطقس عزيز المنال، ولكن ذلك لا يعفي من ملامسة الجوانب والتذكير بعظيم شأنها، خصوصاً حين يذكر العاملون،

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٧ هـ شوال، تشرين الأول ١٩٧٧ م.

واحدة من المسلمات الإيمانية وهي: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

إن المسلم المعاصر مدعو اليوم، إلى أن يدرك بعمق، ضرورة العمل بكل الوسائل الممكنة المشروعة، مما أقره العلم والتجربة، على إشاعة الوعي الإسلامي الذي يعرف المسلمين بحقيقة دينهم وأصوله الأولى في كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وفهوم أئمة الهدى، كيما يعلموا بهذا الدين، وينظروا إلى الواقع من خلال الإسلام وموازينه، ولا ينظروا إلى الإسلام من خلال الواقع المهترئ موازينه المهزوزة، لأن النظرة الأولى هي الخطوة الأولى على طريق عنوانه، لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، وبذلك تطمئن نفوسهم إلى أن المبادئ التي يتمون إليها - وهي الغاية في سلامة مصادرها وثبوتها - هي القادرة بوصفها تمثل الحق كما أراده الله - على الظهور على كل نحلة واتجاه «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا» وهي - في حقيقتها - ظاهرة وأن لم يكن للإسلام في هذا العصر سلطان قاهر على صعيد الحكم والتنفيذ.

وإلى جانب ذلك . . أن على المسلم المعاصر اليوم . . أن يعيد الثقة إلى نفوس المسلمين بأن الانفصام بين الواقع المتحرك، وبين المبادئ المقررة في مصادر ثقافة الأمة ليس هو صورة انهزام الإسلام، وعدم قدرته على أن يدير عجلة الحياة كما ينبغي، وإنما هو في حقيقته صورة تخلف المسلمين نتيجة



استخذائهم واتخاذهم دينهم ظهرياً ثم تأمر أعدائهم الذين عرفوا مقاتلتهم، فعمقوا الضربات فيها بشتى أنواع الأسلحة وصنوف التدمير والفتك، ومن هذه الأسلحة ما تردده البغاوات - في خواء من الثقافة - حكماً على إسلامهم اخترعوه وحكموا عليه، والإسلام الذي ارتضاه الله لعباده منه براء. ودونما موارد: لقد تخلى نفر كبير من المسلمين عن الذاتية وسلامة الانتماء، ورضوا بهوان التقليد الأعمى والانبهار الأبله بما عند الآخرين دونما تمحيص، لما أن ذلك لا يكلف صاحبه ما إلى تحقيقه يطمح الأمناء من أبناء الأمة. . . فلا عقلانية ولا بذل. . . ولا تضحية ولا عطاء، وإنما انحدار بارد ممقوت إلى حيث العداء المعلن أو ما هو دون ذلك، لكل ما هو من كائن الأمة ومقومات وجودها وتراثها بسبيل. وإذا لم تكن هذه من المقاتل. . .
قإلى أين تصدر العقول!!

ولقد أورث ذلك على صعيد البنية الحضارية وحكم التاريخ أن أصبح الكثيرون - حتى على صعيد الفكر والتصور - في حالة كئيبة من العجز عن أن يكونوا أبناء تلك القمة التي أعطيها أسلافهم في القرآن وهي الشاهدة على الناس ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وفي لفظ ﴿النَّاسِ﴾ هنا من العموم والشمول ما يكفي للدلالة على هذا التكريم الإلهي.

إن جانباً مما ينتظر المسلم المعاصر من مهمات: أن يعمل عمله في تبيان ذلك بموضوعية وحرقة كيما تكون الدعوة وإعادة الثقة على بصيرة، لما أن إعادة الثقة إلى المسلم بنفسه من خلال كونه مسلماً ينتمي إلى هذه الأمة الماجدة. . .

دعوة إلى تصور معنى التكليف، والالتزام بالمسؤولية.. دعوة إلى الرحلة الشاقة العسيرة اليوم.. وكذلك الرحلة إلى المطالب العالية الغالية.. والعون الكبير على ذلك: العمل على أن يربو الإيمان في النفوس وأن تستضيء بنور العقيدة القلوب.. تماماً على النهج الذي سلكه القرآن ونبيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في ميدان بناء المسلم الذي انيطت به أكبر قضية عرفها الإنسان وهي قضية التغيير التي يتبدى حجمها من خلال النظرة إلى ما كان عليه الإنسان قبل البعثة وما أصبح عليه بعدها.

وفي نقلة لم تعد بعيدة في منظار العلم ومنجزاته، ولم تكن بعيدة يوم كان الإيمان يفعل ما تفعله كثير من وسائل اليوم.. أقول: في نقلة غير بعيدة.. قد لا يكون المسلمون في حاضرمهم الذي نشهده اليوم على حال يشكو فيها المحلل التاريخي من قلة العدد، فهم كثير والحمد لله، هذه حقيقة ماثلة، ولكن ذلك لا يعني قعود المسلمين عن الدعوة ونشرها في غير دنيا الإسلام، أسودة بسلفنا الصالح حينما انساحوا في الأرض - على صعوبة الوسائل - يدعون إلى الله.

ذلك لأن غاية الدعوة في الأصل ليست إضافة عدد جديد إلى المسلمين، من أجل المكاثرة على صعيد السيطرة والسلطان وأن كانت المكاثرة العديدة اليوم تلعب دوراً لا يستهان به في ميادين الصراع. ولكن غايتها إيصال الهداية إلى القلوب وفتح البصائر على نور الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينا يسعدهم في الدنيا والآخرة.



ثم إن الدعوة واجب تشهد له نصوص الكتاب والسنة وواقع ما صنع الأولون في دنيا الإسلام على رحبها وحيازتها لكثير من أرجاء المعمورة .

على أن العلم على أن تأخذ الدعوة أبعادها -قدر المستطاع- في ديار الآخرين بدءاً من تلك البلاد التي تشاركنا عنوان ما يدعى بالعالم الثالث أو البلدان النامية وانتهاء بتلك البلاد المتقدمة مدنية وعلى صعيد العلم التقني وتمكن السلطان في الأرض . . وبخاصة في صفوف الشغولين بالفكر والثقافة على وجه العموم . . إن هذا قد يخفف -على الأقل- من تلك الويلات الموروثة من الحقد الصليبي ، والمكر اليهودي في الحملة على الإسلام ، لا لأن فيه ثغرات قام الدليل على أنها ثغرات ، ولكن لأنه الإسلام الذي خاضوا مع أبنائه المعارك وكفى . هذا بجانب أن بعض الاتجاهات في العالم يربحها أن --- الإسلام نظاماً كاملاً يتسم بالواقعية والشمول ، وينظر إلى الإنسان والكون والحياة نظرة لا تدع منصفاً إلا وتحمله على الإيمان بمن أنزل الكتاب والميزان سبحانه .

إن التاريخ يحمل -وما يزال- أنباء حروب طاحنة تقع بين دولة ودولة أو بين قوم وقوم ، وقد يكون ذلك على صعيد عالمي تتغير فيه الموازين ، ويعاد رسم الحدود والخرائط . إلخ وتنتهي الحرب وتعود الأمور إلى ما كانت عليه -مع هذا التغير- ، وتسير الحياة سيرها الطبيعي ، دون حقد يدخل في صميم الثقافة وتكوين الفرد ، ويتسع حتى يشمل بنية الأمة بكاملها . إلا ما كان من الحرب بين الإسلام وخصومه -وهم الذين بدؤوه العداء- فهي دائرة

توقد نارها تحت شتى العناوين والمبتدعات . . وإن لم تظهر هذه النار بعض الغافلين أو المغفلين .

وإذا كان الأمر كذلك : فإن ساحة متسعة الأرجاء للدعوة قد يكون كفاءها أولئك الذي كتب لهم أن يكونوا في تلك الأصقاع بحكم عملهم أو دراستهم ، أو أن جهات معينة توفدهم لهذا الغرض . والمهم أن يكون الداعية على شيء من المعرفة بأصول ما يعدو إليه والسلامة في السلوك . . خصوصاً وأن تلك البلاد المتحضرة والتي حقق فيها العلم التقني منجزات لو بعث الأولون ورأوها لوضعوها في عداد الأساطير هي في خواء روحي ونفسي يجعلها عطشى إلى المنقذ . . ولن يكون ذلك إلا بهذا الإسلام .

تلكم بعض اللمسات العجلى لما يفترض بالمسلم المعاصر أن يعلمه على الصعيد الداخلي في دنيا الإسلام ، وعلى الصعيد الخارجي نشر الدعوة وتبليغاً لرسالتها .

ولن تعفينا هذه العجالة من التذكير بأن كبر الغايات المطلوب تحقيقها توجب أن تتضافر كل الجهود ، كيما يكون المسلم في داخل نفسه وفكره وقدرته على العطاء ، أهلاً لما يفترض بداهة أن يكون ؛ فإوضاع العالم الإسلامي وأوضاع ذلك العالم المتحضر الذي ينشد الطمأنينة فلا يجدها بعد أن اخترع الآلة وتحول إلى عابد لها ، واستخدم المادة ثم أصبح مستخدماً لها ، فهي تحكم قيمه ومقاييسه ونظرتة إلى الحياة والناس قربوا أو بعدوا .



إن هذه الأوضاع كلها بأمر الحاجة إلى اليد الصانع القادرة على التغيير، فكلما أعد المسلم نفسه، وأعطت الأمة الأفضلية في الأعمال لتربيته ومعاونته على الأعداد بذاتية وأصالة وصدق انتماء.. كانت الخطوات على الطريق أشد ثباتاً. وأبعث على التفاؤل.. لأن ساحات الجهاد والمعرفة وميادين التعبير الحضاري الصادق عن وجود الأمة.. في لفهة إلى ذلك المسلم.

والآن: هل أتاك حديث الذين يحملون القناعة بهذا، ويعمدون تحويلها إلى عمل، فيوظفون الطاقات في هذه السبيل ويسخرون ما أعطوا من علم وثروة وفكر لتحقيق تلکم الغايات الکبار.. أن هؤلاء هم ممن يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا لأنهم على أرث النبوة واردون، ومن معبئها ينهلون ويسقون ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أرأيت إلى الذي حمله سيد العالمين صلوات الله وسلامه عليه: يتلو عليهم آيات تعالى، ويربيهم ويزكي نفوسهم ليكونوا الحركة الناطقة بما يعدوهم إليه ويعلمهم الكتاب والحكمة.. ومما يزيد الأمر أهمية أن هذه الآية سبقت بتنزيه الله تعالى بحيث يسبحه كل من في السماوات والأرض والتذكر بأنه العزيز، وهو الغالب على أمره -الحكيم سبحانه- ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

ولقد أثمر هذا الصنيع الذي تولاه نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- وهو الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب -ثلاثة وعشرين عاماً. تلك القاعدة

الصلبة التي أتمت بالإيمان والمعرفة وحب الجهاد على تفاوت بين أبناءها في هذه المزية أو تلك، ولكن القاسم المشترك بينهم جميعاً، صدق الإيمان والقدرة على العطاء في سبيل التغيير الذي كان إخراج العرب خاصة والناس عامة من الظلمات إلى النور، وأورجت الصر في أي بقعة استعلت منها كلمة التوحيد لرأيت أثر هذا الإخراج من الظلمات إلى النور كيف كانت دلائله وآثاره .

وهذا . . فبمقدار ما تتوافر لنا سلامة التصور لما ينتظر المسلم من مهمات، وما نحمل من حرقة صادقة على مصير الأمة نكون أقدر على وعي ما يجب أن نعمله الأمة في هذا السبيل . وكم هي مذكورة مشكورة عند الله أساس تلك الجهود التي تبذل في مرضاة الله على هذا الصعيد .

وماذا علي بعد هذا إذا ذكرت بأن كل هذا الذي نقول لا يعني الغفلة عن وعورة الطريق وكآبة المنظر، ووفرة المعوقات .

وأخيراً: هل أذاك حديث من حرموا هذا الخير، فكانوا في طاعة الشيطان تقاعساً عن العمل، أو تعويقاً لسبل العاملين؟ وأشدّهما الثانية، لأن لبوسها مدلول قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا﴾ . أن العمارة المعنوية للمساجد والتي من أجلها بنيت إنما تكون بأعداد الأجيال وتربيتها على الفكر النابع من روح المستبد، ولعل الموقف المناقض من أعتى أنواع منع المساجد أن يذكر فيها اسم الله وأشنع ألوان السعي في خرابها . .



وفي عود على بدء : أن المسلم المعاصر -والقرن الخامس عشر للهجرة يوشك أن يقعد مقعدة في التاريخ- مدعو إلى استشعار مسؤولياته الكبار . . والأمة من وراء ذلك مدعوة -لا تستثن إلا من سقط عنه التكليف- إلى أن تعد للأمر عدته بجد بالغ ووعي مكين . . كيما تبرهن بالعمل والممارسة على أن المسؤولية عما به كانت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس ، ليست حكرًا على فئة دون أخرى ، وأن التزام ذلك المفهوم لون من أولان التخلي عن الواجب ، وأحبولة من حبال الشيطان والهوى . وربما كان هيبة أن يكشف الخط المستقيم عوار الخطوط المنكسرة والمعوجة .

وكيما يدلل من تتوافر لديهم وسائل العمل المادية أو المعنوية أو هذه وتلك على صدق إيمانهم يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وَقَفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ وأن خطاب التكليف في القرآن والسنة لكل من هو أله للتكليف ذكرًا كان أو أنثى ، وإنما تعظم المسؤولية بعظم ما أعى الله صاحبها من القدرة ووسائل العمل .

اللهم أنا نسألك عزيمة الرشد والثبات في الأمر . . ونسألك ، وأنت الذي جمعت قلوب المؤمنين على محبتك -أن تبارك العمل وتسدد الخطأ وتفتح البصائر على نور معرفتك . . والقلوب على كريم عطائك .

اللهم أنا ضعفاء فقو في رضاك ضعفنا . . وخذ إلى الخير بناصيتنا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا ولا حول ولا قوة إلا بالله .

إلا بما صلح به أولها^(١)

هكذا تعمل السنون عملها في صياغة الخط البياني لهذه الأمة التي غفلت عن الله، واستبد بها الهوى، فاسلمها انحرافها عن نهج الكتاب وهدى النبوة إلى الضعف، حتى استنفذ اعداؤها الكثير مما كان في أيديها، وهان عليها أن تسام الخسف، وترضى بالاستجداء والاستخذاء، وكادت تقع في مهاوي الضياع.

ولكن الذي تقتضيه طبائع الأشياء أن الأمة التي أكرمها الله برسالة جعلت منها خير أمة أخرجت للناس، لا بد أن تصبر نفسها على وعثاء الطريق من جديد، ولا بد أن تفتح أعينها لنور الهداية بعد أن تنفض غبار الظلام الذي أثقل الكواهل سنين وسنين، فلا أمة صابحة الرسالة قد تتعثر وقد تضعب ولكنها لا تموت، فكيف إذا كانت الرسالة خاتمة مطاف المرسلين، والمنهج اذي أكمل الله به الذي وأتم النعمة، وجعله عنوان القوة بعد الضعف، والعلم بعد الجهالة والوحدة بعد الشتات والضياع، وصيحة النذير لتجديد طاقات العقول والقلوب والنفوس في سبيل حرية الإنسان وكرامته وإعداده إعداداً يأخذ بيده إلى مافيه سعادة الدارين، مصحوباً بالحسن الجماعي والشعور بما يعود على الجماعة بالخير، بعيداً عن اللامبالاة، والعبودية لأننا والشهوة، كل ذلك على أساس من العقيدة الصحيحة، والعبودية الخالصة

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد ٩-١٠، السنة الثانية عشرة، ١٣٩١ هـ ذو الحجة، آذار ١٩٧٢ م.



لله عز وجل ، وإطلاق العقل من إسهاره ، وجعله أداة التفكير في آلاء الله وتدبر ما جاء به الوحي ، وما صح ثبوته عن الصادق الأمين محمد بن عبدالله -عليه الصلاة والسلام- ، علماً بأن مضمونات ذلك تحولت إلى واقع حي يتحرك على وجه الأرض ، حتى أنشأت نماذج يعزُّ وجود نظيرها في التاريخ .

وإن رسالة تزينها تلك الملامح الربانية المعطاء ، والتي أشرنا إلى النزر اليسير منها ، وكان من أثارها الحضاري المتميزة عبر القرون للإنسان ما كان ، أن رسالة هذه سماتها ، وتلك ملامحها جديرة -بما تحمل من عناصر القوة والإنسانية والحياة مع الواقعية والشمول- أن تحمل هذه الأمة إلى حيث تنهض من الكبوة ، وتستيقظ بعد طول سبات ، وهي أنضر ما تكون عوداً وأشد ما تكون مراسا ، يضرب أبنائها بسواعدهم المؤمنة أغلال الأيام ، فيكسرون القيود ، ويقتحمون السدود ، وترتفع أصواتهم بآيات الله تشق عباب الظلام ، فإذا بعد الظلام فجر ساطع متألق الضياء ، تقرأ من خلاله على جباههم المؤمنة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ...﴾ . ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بِنَفْسِهِمْ﴾ . «ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» .

ولكن المهم هو تخطي العقبة من جديد ، وصياغة أول خطوة على درب العودة الصادقة الواعية إلى ذلك الذي صلح به أمر الأمة عندما أعلن النبي العربي الأمي عليه صلوات الله وسلامه كلمة التوحيد ، وقاد القافلة بأمانة

وحزم، وعلم رجالها كيف يحملون راية الإيمان، ويقودون ركب الإنسانية في ظل دعوة السماء.

وعلى هدي هذا الذي نقول ترى أن عبثاً من العبث ما تحاول النظرات السطحية أن تشخص الداء -بعيداً عن المنطلقات الحقيقية للأمة -لتصف له الدواء. وفي حديد بارد يضرب أولئك الذين ينسون أو يتناسون حقيقة المرتكزات التي يجب أن تمس ترابها أقدامهم الأولى حين ينوحون ويتباكون على ما حل بالأمة منادين بالويل والثبور على القدر الذي أغرقها في بحران التخلف، وحملها إلى متهاتات الفوضى والهوان.

لذا كان لزاماً أن تجند الطاقات في سبيل إعداد الفرد والجماعة من جديد على أساس من منطلقات تلك الرسالة التي بها كانت الأمة خير أمة أخرجت للناس. بعد أن نكون على قناعة بأن الاعتلال الذي يرمض جسم الأمة إنما كان من تخليها عن مواطن القوة التي رسمها القرآن، وجفوتها لمنهج الله تبارك وتعالى. ولقد يكون هذا الكلام عاماً توضح تفصيلاته الدراسة المنهجية التفصيلية. ولكن الخطوة الأولى هي التسليم بالمبدأ، والاتفاق على الخطوط العامة في التصور والسلوك.

ولا أحسب أن زاعماً يزعم بأن الطريق معبدة سلهة، وأن الإشراف على الغاية هيّن ميسور، فلقد علمتنا التجارب ووقائع التاريخ، أنها غاية بعيدة تتقطع دونها الأعناق، وتمتحن على صلابتها عزائم الرجال. خصوصاً إذا وضعنا في حسابنا -وهذا ما لا يصح تجاهله- ما يجُذ من أسلحة العدو



الماكر الذي لا تقتصر حربه على ساحة دون أخرى، بل يحاول أن يكون له في كل واد أثر، وعلى كل صعيد كومة أذى، حتى بتنا، ونحن نراه يستخدم كل وسائل المعرفة ومعطيات الحضارة، أن نقول: دائماً وراء الأكمة ما وراءها ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾. ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ﴿وَإِذَا لَقُّوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

من هنا كان لزاماً أن يعمل من ولاهم الله أمر الريادة والقيادة على تربية الشعور الصادق والحسن الأصيل عند الفرد بمصلحة الجماعة، والقيم التي ابنتي عليها كيان الأمة، والغايات التي حركت عزائم أجدادنا الأولين، وطبيعة الراية التي قاتلوا تحتها يوم خرجوا من الصحراء، فأضاءت الدنيا بسيوفهم، واهتزت الأرض تحت سنانك خيولهم في ساحات الجهاد.

إن كثيراً من مظاهر التخلف تكمن في فقدان هذا الحس العام عند الفرد، ذلك الحس الذي يبدأ من شعوره بأنه على شيء في أمر العقيدة والمنهج، والنظام الذي يجب أن يحكم تصرفاته وسوْلُكه الفردي والاجتماعي.

وإن كثيراً من الصوارف عن القضية العامة ربما كانت نابعة من ذلك التصلب الفردي، والنظر بمنظار الأنا والمصلحة الذاتية الضيقة إلى الأمور وإلى جميع الوقائع والأحداث.

وعندما تتلون الأحكام ومقاييس القيم بهذه النظرة فقد وقعت الكارثة، وحلت المصيبة، وبعد ما بين الأمة وبين الطريق الصاعدة من جديد.

ذلك أن من آثار هذه النظرة أن تكون اهتمامات المرء اليومية اهتمامات لا تتسم بشيء من سمو، وإنما هي اهتمامات هابطة بعيدة عن مصلحة الأمة، ومصيرها الذي تهدده الأنواء من هنا وهناك «ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم».

وماذا أنت قائل في حال يصل إليها الفرد، يرى معها أنه ما دامت مصالحه اليومية مضمونة، وطريق الثراء الدنيوي مفتحة أبوابه، فعلى الزمة ومبادئها ودينها السلام. والآنكين من ذلك، أن تستعبده الشهود، وما أكثر عناوينها وألوانها، فيستغني بها عن أمته ومبادئه، ويزكم أنفه عن كل رائحة عطرية تنبعث من ماضيه المشرق الذي كانت الأمة فيه ممسكة بزمام الإنسانية على وجه البسيطة.

إن ذلك أمرؤ باع دينه بدينه، وتلك هي الحماقة بعينها، ولكن أحق الحمقى من باع دينه بدينه غيره، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه، وهو المرجو سبحانه أن يعافينا من مسخ القلوب، والعقول. لأن ساعة ينكشف الغطاء يوم القيامة ساعة عسيرة شديدة الهول، هنالك. . حيث يتبرأ المتبوع من التابع ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾.



هذا : والناظر في شيء من مصادر معرفتنا الأولى يجد أن الأسلام قد عني أياً عناية بتنمية ذلك الحس الذي نشير إليه ، والجماعة الأولى التي عملت في تربيتها يد محمد - صلى الله عليه - الصنيع ، كان أول ما تتسم به بعد الإيمان والإخلاص لله عز وجل ، هذا الحس الذي يجعل اهتمامات الفرد بالغة السمو بحيث لا ينسى أنه واحد من الجماعة ، وأن العقيدة التي يقاتل تحت رايها تمثله ، وهي عنوان وجوده وكرامته ، فليست علاقته بها علاقة صناعية متكلفة ، وإنما هي ذاته وكيانه ؛ فالؤمن يسمو ويسمو حتى يحب لله ويبغض لله . وأنظر أية أمجاد تنتظر الأمة التي يستعلي الفرد فيها على الأنأ ---- والأغراض الشخصية القريبة ، ليكون حتى حبه وبغضه لله عز وجل . . هذا عنوان . . وهو عنوان عظيم وعميق وشامل بأن واحد . وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار» . ولعل في هذا بعضاً من البيان لما يدل عليه قوله تعالى : ﴿الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ وما أجمله بياناً .

ولقد بلغ استمساك المسلم بهذه العروة الوثقى حدا رأينا معه امرأة يقتل ثلاثة من أقرب الناس إليها في «أحد» زوجها وولدها وأخوها وهي تقول - وقد خرجت هائمة على وجهها بعد أن بلغها أن رسول الله قد قتل - ماذا فعل رسول الله ، حتى إذا رآته حيا ، ثابتاً يقود المعركة ، يجمع الشتات ويلوذ

به الأبطال : قالت : كل شيء بعدك جليل يا رسول الله . والجلل هنا الهين الحقير .

ومن هنا كان من صفات النبي -صلى الله عليه وسلم- أن كان خير قدوة في كل أمر يتعلق بشخصه الكريم عفواً وسماحة وصفحاً عن الأذى ، فإذا انتهكت حرمة الله لا يقوم لغضبه شيء حتى يعود الأمر إلى نصابه .

ولقد أخذ هذا الحس مجراه في طريق الأمة حاكمها ومحكومها ، وأصبح الصعود متناسباً مع ازدياده وغموه ، والهبوط والتخاذل في تناسب مع ضعفه أو فقدانه عند البعض من الحاكمين أو الرعية . وعمر بن عبد العزيز واحد من تلك النماذج التي أضاعت جنبات التاريخ في ظل ذلك الهدي النبوي الكريم ، حيث انعكس هذا الشعور على مصالح الأمة فكان هذا الخليفة العظيم مثلاً يحتذى في مخافة الله والرفق بالأمة .

قالت زوجته فاطمة : «دخلت يوماً عليه وهو جالس في مصلاه واضعاً خده على يده ودموعه تسيل على خديه ، فقلت : مالك؟ فقال : ويحك يا فاطمة ، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، ففكرت في الفقير والجائع ، والمريض والضائع ، والعاري المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة ، والمظلوم المقهور ، والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذو العيال الكثير ، والمال القليل ، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربي عز وجل سيسألني عنهم يوم القيامة وأن خصمي دونهم حمد -صلى الله عليه وسلم- ، فخشيت أن لا يثبت لي حجة عند خصومته فرحمت نفسي فبكيت» .



واليوم . . لقد كان حسناً ما تناقلته الأخبار من أن ذوي الجنود الباكستانيين الذي ما يزالون أسرى في الهند والذين يبلغون ثمانين ألفاً أو يزيدون . . لقد كان حسناً وعظيماً أن ذوي هؤلاء الجنود أوضحوا للمسؤولين بجلاد أنهم لا يريدون أن تكون عودة أبنائهم إلى الوطن من الأسر، سبباً في مساومات أو تنازلات وتساهلات على حساب ملحة البلاد العليا، وما يهم الأمة في وحدتها وكيانها .

أنه لحسن عظيم بعيد عن الأنانية والعواطف القريبة يدل على أن العقيد لا بد أن تعمل عملها، وأن روح هذه الأمة - إن شاء الله - ما تزال في عنفوانها وقوتها رغم الزلازل والأعاصير . وأن هزيمة في ساحة القتال تعاونت عليها أسباب داخلية وخارجية، ولا تعني اندثار أصالة الأمة، ونضوب ينابيع الحياة فيها، وأن ارتباطها بمرتكزات القوة المستمدة من عقيدتها وتاريخها قد أصبحت في مهب الريح .

أنه لخبر يستوقف الدارس لهذه الحقبة من حياة الأمة، ويحمل الباحث على أن يقرأ ما بين السطور، وأن يستشف ما وراء الكلمات . . وما كان ربك نسيا .

ولن نكون متكلفين لما نريد، إذا قلنا: أن هذا الموقف يشعرا بمزيد من أهمية ما قلناه في صدر هذا الكلام، وأن الشعور العام يكن أن يتناهى بصاحبه حتى يرتفع به فوق دواعي العاطفة، واهتمامات التراب . . وما أكثر ما يقدمه الإسلام كل يوم من الأدلة على أنه لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما

صلح به أولها . وكم نكون جادين مخلصين لهذه الأمة حين نعرض عن أولئك الناعقين من أشباه الرجال الذين ترهبهم عظام الأمور، فينادون بمحقراتها، وتضعف نفوسهم عن حمل العبء فلا يجدون ألا أن يتهموا الرجال بما يحلو لهم من الهوى، فرحين باللهو والعافية من الالتزام والعمل، فرح الوليد بالدمية يعبث بها أو تعبث به ساعة من نهار .

وملء السمع والبصر أولئك الذي يحملهم إيمانهم على أن يقتحموا العقبات رجالاً، ويلتزموا أبطالاً وهم يقتحمون الصعاب ما لا يعمله إلا الرجال . أما الذين يزغردون لقالة السوء على الإسلام، والذين أصبحوا شيئاً عندما استنوق الجمل : فهم مرضى المعرفة، والقلوب . ولحق سلطان لا بد أنه مستعل فيه ومدركه مهما طال الأمد وأشدت ديجور الظلام . ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ . وليذكر أولئك الذي أولاهم الله أمانة الريادة في دعوته، أنهم، بحمد الله، على هدى من ربهم، وهذا أعظم المنة والفضل، فليكونوا على مستوى أمانة تلك الدعوة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

وليذكروا أيضاً أن التمحيص كائن لا محالة ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ .



اللهم إنا نسألك إيماناً يباشر قلوبنا و يقينا صادقاً حتى نعلم أنه لن يصيبنا
إلا ما كتبت لنا، والرضا بما قضيت يا جبار الأرض والسموات . ونسألك -
يا من بيده نواصي العباد- ونحن نودع هذا العام من عمر المجلة المبارك إن
شاء الله- عزيمة الرشد والثبات في الأمر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار،
وأن تأخذ بأيدينا فلا نهن ولا نحزن، وأن توفقنا إلى ما فيه مرضاتك
والنصح لعبادك وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الرية الخادعة^(١)

الذين يرقبون سير الأحداث التي تلف حياة هذه الأمة من قرون، يجدون حرص الأعداء دائماً على أن يرافق التحول عن مواقع الفكر والتصور الصحيح للدعوة التي تحملها الأمة، والتي هي رمز حياتها وعنوان الحقب الذهبية لتاريخها الأصيل المعطاء. فتلهل الحکم وذهاب الخلافة، والتجزئة القتالة، وانفصام العرى، وما استتبع ذلك على الخط المهلهل الذي نعيش بعض ظلاله اليوم فيما يدبر الأعداء من مكائد وما يصنعون من أحابيل، كل ذلك يرافقه دائماً محاولة أن تضع الأمة بينها وبين الحقائق الأولية في وجودها وكيانها حجاباً مغلفاً بالكثير من البريق الخادع والزيف المصنوع الذي يخفي كثيراً من الافتراء والتضليل.

وأقول: «أن تضع الأمة» لأن هذه خطورة الثقافة المنحرفة التي يضع برامجها عقل يخطط للخراب والدمار، فالمراد عن هؤلاء المدبرين أن تقول الأمة -نفسها- كلمة السوء، في تاريخها ومعتقداتها، وأن تحكم الحكم الجائر على مبادئها وأسس فكرها في الحياة.

تقول وتحكم، والعدو الماكر من وراء ما تقول وما تحكم، ويبدو بثوب الحمل، كأنه ما صنع أحبولة ولا برّر مكيدة.. وكثيراً ما تبدأ القضية عند واحد من أبناء الأمة بمرحلة «هل هذا صحيح؟؟» ثم يتبعها: قال فلان: - وهو عدو فكري طبعاً- كذا وهو الحق.. وينتهي الأمر بأن يقول: رأيي كذا والأمر الفلاني حكمه كيت وكيت، يردد ما قاله العدو الفاجر الماكر، وينسبه



إلى نفسه رأياً ذاتياً، فهو ليس -على زعمه- طفلاً يلقي إليه ما يراد من التقاليد البالية والموروثات العتيقة، ولكنه إنسان مفكّر شب عن الطوق، فهو مطل على العالم، بصير بشؤون المدّ الحضاري، تنعكس على ذهنه الوقاد طاقات الصعود إلى القمر، وليس كأجداده الذين ولوا ظهورهم للحياة، ولما تشرق عليهم تلك الشمس التي أشرقت على ذهنه المتفتح الوضاء.

كانت هذه كلمات لا مندوحة عن تقديمها بين يدي واحد من سبل الشيطان التي تفتري، وقد زينها شياطين الإنس للكثير تذليلاً للفرار من ساحة العمل وتحمل تبعات دعوة الإسلام، ذلك السبيل هو زعم أن الإسلام منوط بما يسمى طبقة رجال الدين، أو ما يرادف ذلك، وكل ما يمتُّ إليه بصلة، ثم اعتبار ذلك مقدمة صحيحة، كل النتائج التي تنتج عنها صحيحة أيضاً.

ولسنا بسبيل أن ندير القول في ظل نظرات فلسفية إلى الموضوع، فذلك أمر موطنه غير هذه الصحفات القليلة المحدودة، ولكنها ملامح نرجو أن تشدّ أزر العامل، وتسهم في إيقاظ الغافل.

فعندما خاطب الإسلام فطرة الإنسان، وواجه عقله، بوضوح لا يشوبه التباس، وإعلان لا يعرف الغموض، كان معنى ذلك أن نوعاً من التحمُّل لذلك الخطاب لا بد أن يعمل في نفس الفرد - من ذكر وأنثى - عمله، لتكون هنالك حراسة أمينة على الإيمان الذي ملأ القلب، والقناعة التي استسلم لها العقل.

ولما كان خطاب الإسلام بتجاوز إرواء العطش الروحي إلى ساحة العمل والسلوك، لأنه يحمل -فيما يحمل- عناصر المواجهة العملية لكل شؤون الحياة، باعتباره رسالة الإنسان الذي خوّل الخلافة في هذه الأرض، أقول: لما كان خطاب الإسلام كذلك: كان من الطبيعي أن ينتفي عن الإسلام في فكره ومنهج سلوكه والتصور الذي رسمه لبينه، وجود طبقة معينة تختص بانتسابها إلى الدين، وتتميز بأنها صاحبة الحق في شؤونه وكل ما يتعلق به، وتكون هي المصدر الذي ينوب مناب النصوص ومعالم الهداية. . الأمر الذي يترتب عليه نتائج هي في غاية الخطورة بالنسبة للفرد والجماعة، وتحقيق ما من شأنه تصحيح نسبة الأمة إلى دينها اعتقاداً وفكراً وسلوكاً والتزاماً على كل صعيد.

فالحاكمية في الإسلام لله، وطبقة رجال الدين هي الدين نفسه، في مبادئه ونظمه، ومنهجه الذي وضعه للحياة، كما ترى ذلك العين المبصرة، والمملكة الواعية في الكتاب والسنة وبقية مصادر الشريعة. وخطاب التكليف قائم ما دامت السماوات والأرض، وما كان قدراً مشتركاً بين المكلفين جميعاً، تراه ميسراً مذلاً، بحكمة الحكيم سبحانه وإرادته، التي لا تحدّها حدود ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

ولكن هنالك العلماء الذين هم ورثة الأنبياء في حمل الشريعة وتبليغها للناس، يدلون على الطريق، ويعلمون أمور الدين، وهم مدعوون لأن يكونوا قدوة في العمل بما يعلمون، والصدع بالحق، والأمر بالمعروف،



والنهي عن المنكر دون مهاودة أو تقصير ضمن الحدود التي شرعها الإسلام ولهم في ذلك ما لهم من المنزلة في شرعته المباركة .

وهؤلاء العلماء العاملون المخلصون هم الذين عدّ لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم كشف عن مهامهم العظيمة بقوله : «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» .

وإذا انحرفوا عن ذلك ، فكتموا العلم ، أو تخالف عملهم مع ما يعلمونه للناس ، أو باعوا الدين بالدنيا ، فاسلموا أنفسهم للشيطان وسخروا علمهم للغرض العاجل ، والأرب العفن ، فتلك هي الطامة الكبرى ، وفي الكتاب والسنة ما يكشف عن شديد الهول الذي سيلقاه هؤلاء في الآخرة - فضلاً عن مغبة الدنيا - يوم يهتم على الأفواه وتشهد الأيدي والألسنة والأرجل ، وتندلق أقتاب بطن ذلك الذي سخر الدين للدنيا ، وتراه يدور في العذاب كما يدور حمار الرحى والعياذ بالله ، لما أنه كان يأمر بالمعروف ولا يتأتية ، وينهى عن المنكر ويأتية ، واستخدم مبادئ الخير في سبيل التمكين للانحراف والشر .

ولعل في تجلية هذه النقطة وتذكير المسلمين بشأنها ما ينبه إلى العديد من ألوان الخطورة في الموضوع .

١ - يأتي في مقدمة ذلك ما ينبني على توهم وجود طبقة رجال دين ، من إبعاد للدين عن الحياة ، لأنه يتمثل في هؤلاء الذين لا يعرفون من

الاختصاص إلا الدين، وهو من التهويمات الروحية التي لا علاقة لها بشؤون الحياة، تماماً كالذي كان يقال في أوروبا قبل عصر النهضة عندهم، يوم كانت أوروبا تن تحت وطأة استخدام الدين وسيلة لتثبيت دعائم الظلم والظالمين، وترسيخ جذور الجهالة في الأرض، كيما يتسنى لطبقة الحام وطبقة رجال الدين الاستمرار في التحكم برقاب تلك القطعان التي تدعى بشراً يومذاك.

أما نحن: فما شأننا وهذا، فالإسلام ليس من هذا الباب، في قليل ولا كثير، وما أحسب أن عاقلاً منصفاً يرضى لنفسه أن يحمل الإسلام تبعة ما حصل في أوروبا خلال القرون الوسطى، ولكن أدعياء السوء يريدون ذلك، والحديث معهم يطول، وكثيراً ما يتجاهلون أن الإسلام عقيدة وشرعية ونظام، وأنه منهج حياة يتسم بالواقعية والإنسانية والشمول وأنه طريق سعادة الدنيا والآخرة، وأن الحضارة الإنسانية مدينة له في الكثير الكثير وشواهد ذلك ماثلة للعيان. وتلك حقائق لا يغير هويتها ضعفنا اليوم.

٢- وفي لون آخر من ألوان الخطورة في تلك الفرية الخادعة يواجهنا ما يكون من الإساءة إلى الدين نفسه، بتحميله كل أخطاء من يزعمون أو يزعم لهم أنهم رجال الدين، والأوصياء على الإسلام، فانحرافهم ضعف في مبادئ الإسلام، وجهلهم دليل أن الإسلام يحارب العلم، وضيق الأفق عند وحم منهم، وانغلاق - وأن شئت - انسداد أذهانهم، دليل أن الإسلام لا



يقيم للعقل وزناً ولا يحترم الفكر ، وحدث ما شئت عن مثل هذه الدواهي التي كانت واحداً من الأسباب التي جعلت في الإسلام في أذهان أولئك البعيدين عن حقائقه ، وخصائص التصور فيه ، أناساً يجعلون أصابعهم في آذانهم ، إذا شئت أن تسمعهم دعوة الحق كما أرادها الله ، وكما نزلت وحياً على محمد - صلى الله عليه وسلم - لما أنهم لا يعرفون في الإسلام إلا تلك الصورة المنحرفة الشوهاء ، صورة تحركات الفئة من الناس .

وهذا لا يعني اعطاءهم العذر في بعدهم عن الإسلام فإن عليهم أن يدرسوا ويتفهموا ، ليتعرفوا على حقائق الإسلام من منابعه الخيرة ومصادره ، ولكن إثم الذين اسهموا في ابعادهم عن الإسلام واقع لا محالة .

٣- وإذا تجاوزنا ذلك -وكم للافتراء الخادع من ضحايا- وقعنا على ما يسوغه كثير من الناس لأنفسهم من الابتعاد عن الدين ، تحت عنوان أنهم ليسوا «رجال دين» . والمطالبون بالعمل بالدين إنما هم رجال الدين وكفى ، وقد أشرنا إلى هذه النقطة في صدد هذا الحديث ولعلها هي التي أثارت الموضوع في ذهن كاتب هذه السطور .

إن هذا الأمر ظاهرة سوء عند بعض الناس في المجتمع الإسلامي ، لما في ذلك من أبعاد للأمة عما به كانت خير أمة أخرجت للناس ، وعزلها عزلاً تاماً عن مصادر الحركة الفاعلة المؤثرة النابعة من الإسلام . وهي ليست دليل جهل فحسب ، ولكنها دليل حب المغنم ، والبعد عما قد يتوهم أنه مغرم ،

فنحن نفاخر بأن في تاريخنا الإسلامي من الشوامخ ما يعز نظيره في تاريخ أي أمة من الأمم، ونعتز بأن الإسلام قد حقق على مدى العصور انتصارات فكرية وحضارية، لا بد أن تعود إليها الإنسانية بعد رحلتها الشاقة الطويلة، وتجاربها المريرة التي تنتهي كل واحدة منها بنكسة هي أشد وأنكى من سابقتها التي وقعت بالأمس .

نقول ذلك كله -وهو حق لا مرية فيه- معترزين مفاخرين، حتى إذا جاء دور العمل افترينا على الإسلام فرية الطبقية، طلباً للعافية، وحباً للسلامة .

إن مما يذوب له القلب كمدأ، أن تكون تلك الدواهي والكواث التي تعاني منها أمتنا اليوم هي التي تولد عند الكثيرين نوعاً من الرغبة في الهروب من التبعة والمسؤولية، خصوصاً، في أمور الدين، فهم يريدون أن يجعلوا في الإسلام ما يسمى «رجال الدين» لا لأنهم يعتقدون أن الإسلام متسع لوجدها، ولكن لأن ذلك يعفيهم -ولو من الناحية النفسية- من تحمل الأمانة في دعوة الإسلام ونظمه ومبادئه .

ولكن . . ما هكذا يا سعد تورد الإبل . . وما كما هذا -يوماً من الأيام- صنيع الأوفياء!! . فعند الاعتزاز والمفاخرة بالماضي نقول ونشتد في القول . . حتى إذا جاء دور العمل : كان النكوص على الأعقاب، وانتحال الأعذار من طريق الافتراء . .

والآن . . أليس هذا الذي أشرنا إليه من خلال هذه الكلمات عوان أذى في ألوانه الثلاثة، تتكامل حلقاته من هنا وهناك؟!



إن الذي لا يسع مؤمناً صادقاً جهله . . أن الإسلام - كما أسلفنا - حين خاطب الإنسان بالتكليف ، وحملَّ الفرد والجماعة شرعة هي خاتمة الشرائع - دون أن يخصص فئة دون أخرى - جعل المسؤولية ركناً بارزاً في كيان المسلم على مدى الزمن ، نتيجة طبيعية لما حمل من أمانة الإسلام ، فليس له اختيار في أن يغير أن أو يبدل ، وتحريف الكلم عن مواضعه ليس من خلائق هذه الزمة ولكنه كان وما يزال من خلائق يهود الذين نعى عليهم القرآن ذلك في كثير من المواطن .

وفيما وراء ذلك : ليس للأمة اختيار - على صعيد الفرد والجماعة - أن تقول فيما قضى الله ورسوله : أريد أو لا أريد ، لأن المسلم - بوصفه مسلماً - لا بد أن يتحمل عبء الدعوة في وجوده وكيانه فكراً وسلوكاً وعملاً ، فكل مسلم - على هذا المعنى - رجل دين حين يحقق ما أمر الله ويتلزم شرعته في أي ميدان من ميادين اختصاصه وعلى أي نفر أقامه الله عليه وراء القدر المشترك بين أفراد الأمة وهو ما به يكون المسلم مسلماً .

ولقد نعطي مقاتلتنا للعود حين تنطلي علينا الحيلة ، ونقع في شرك البريق الخادع ، علماً بأن علعدو يريد أن يظل الإسلام بعيد عن الحياة ، كيلا تتصل الأمة بالعلم الذي يصلها بالحركة ، والمعرفة التي تسهم معها في البناء الحضاري ، وكي تنأى عن ساحات الجهاد . . تلکم الشرعة التي يعتبرها الإسلام في مقدمة الدعائم التي تمكن للأمة ومبادئها في الأرض ، وتحرر فكرها وأرضها من الغاصبين ومهرة اللصوص . ناهيك عن --- من الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر وهما في الدورة من صيانة المجتمع عن الفوضى والعبث والتخلخل .

وليس من المعاد المرور أن أعداءنا - وكثير منهم على صلة جيدة بالتاريخ - يريدون أن يظل الإسلام بلا أبناء بررة صادقين بتجانوزون أن يكون الدين مجرد نفحات روحية تروي ظمأ قريباً، أو ترفه عن نفس متعبة بهموم الحياة .

وأن أولئك الأعداء يودون - لو يتاح لهم - الصاق الدين بفئة معينة من الناس فقط ، كيما تكون من وراء ذلك ثمرات من الخبث والتضليل ليس أهونها اعتبار الدين أمراً منفصلاً عن الحياة ، وأنه جملة وتفصيلاً سلوك تلك المجموعة من الناس ، معرفة أو جهالة ، استقامة أو انحرافاً ، قدرة على تطبيق الإسلام أو ضعفاً عن ذلك .

أما الأمة بمجموعها : فلا علاقة تربطها بذلك . وشتان بين هذه الصورة وبين أن تظل النظرة إلى الإسلام - كما هو - نظرة إلى مبادئ تشكل وحدة متكاملة خوطب بها الإنسان دون تفريق ، وأنه كيان الأمة ووجودها ، ومنبع الأصالة والقوة في حياتها .

ألا إن هذا كله - وغيره كثير - مدعاة لمزيد من الشعور بجلال التبعة وكرامة الأمانة ، وامتحان لقدرة المسلم على الاستمسك رغباً ورهباً بحقائق دينه ومثله ، وتجاوز كل ما من شأنه أن يكون افتراءً وخداعاً ، والثبات على الطذريق الرائدة بقلب المؤمن ووعي المفكر : وساعد المجاهد .



وأقول: رغباص ورهباً، مذكراً بما أسلفت من أن وفاء الإيمان يقتضينا ذلك، وأن من غير المقبول أن يظل الأمر في دائرة المفاخرة والاعتزاز. ت وليس عسيراً عليك حين يدعوك داعي العمل أن تذكر أبداً. . وعلى المدى. . أن نداء بلال بـ «أحد أحد» -والأصفاد في قديمه ولاحجر الثقيل على صدره، وخنجر المشرك الظالم مشرع فوق رزسه يوم كانت الفئة المؤمنة القليلة مضطهدة معذبة- كان أعلى من أصوات الانتصار تحت رايات الفتوح. . ورجال بدر في التاريخ لما أنهم كانوا طليعة القافلة. . كان لهم ما كان بالنسبة لمن جاءوا وقد مهد السبيل. ولم يكن هملاً في تاريخنا، أن يتوسد الترب كثير من الشهداء الذي لم ييصور الإسلام يقود المجتمع، ولا رأوا جيوش الإسلام تفتح الدنيا هنا وهناك، وما نبتغي من ذلك -واللهم غفراً- تنقيصاً من أقدراهم فالغبار الذي ينعقد فوق رأس المجاهد في سبيل الله نور يشرق به التاريخ. والأمة التي هي على إرث من حقائق الإسلام مدعوة اليوم لأن تعي. . وتعي. . كيما تُسلم إليها -بعون الله وتأييده- مفاتيح التاريخ من جديد.

ساعة مع كتاب الله^(١)

بقلم أبي إقبال

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحابه ومن والاه .

وبعد فهذه كلمات يراد لها أن تأخذ مكانها في قلوب الإخوة الصادقين وعياً وشعوراً وإدراكاً، في إطار أداء لحق الله فيما افترض على عباده من النصيحة والعمل في مرضاته، وانهاج السبيل التي تؤدي إلى تحقيق العبودية الخالصة لله على هذه الأرض التي أكرم الله فيها الإنسان، فحمّله أمانة الخلافة فيها، وجعل منه أهلاً لحمل رسالة الخير والحق والفلاح، كيما تتواكب كل الطاقات التي وهبها الله له على طريق العمل الصادق الذي به يكون العبد عبداً بعيداً عن كل وثنية، مجافياً لكل ما يتنافى مع حقيقة الشكر لله المنعم المتفضل الذي قلده أمانة الخلافة، واختاره من بين مخلوقاته لها .

ولن يكون يسيراً أن نفتحم الصعاب، لنقوم بعملية تصنيف لأولئك الأفراد من البشر من منهم سلمت له أقواله وأفعاله وتصرفاته، فكان في موقف الكرامة ومن منهم ضل السبيل، واتخذ الحجب والأستار دون فطرته، وأقام بينه وبين الحق حواجز من الشهوات والضلالات، فكان أسير أعراض خطيرة من الانحراف عن مقتضيات الفطرة أولاً، وعن نداءات أدلاء السعادة ثانياً .

(١) نشرت سنة ١٣٨٨ هـ .



لقد كنا نعتقد وما نزال أن الدواء الوحيد لما يعانيه الإنسان من مرض التجافي مع الفطرة، إنما هو اصلاح القلب الذي بيده قياد تصرفات الجسم والأعضاء، لأن هذا القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله كما بين الصادق المصدوق -عليه الصلاة والسلام-، فالتصرفات والتحررات، إنما يكون يميزان ضبطها الحقيق نابعاً من القلب إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وإصلاح القلب هذا لا بد له من قناعة مبدئية بضرورته، وأنه أمر حتمي لازم لسعادة صاحبه في الدنيا والآخرة، فإذا توافرت هذه القناعة كانت الخطوة التالية التي تتلوها خطوات على صعيد تهذيب النفس وتركيتها كيما تصفو أعمال القلوب من الأكدار.

وإذ صاحب تلك الخطوات التوفيق تفجرت ينابيع الحكمة وأضاء الطريق، وكان خير ما يزين هذا الإنسان دين تصان حدوده وشريعة تحفظ معالمها. وعطاء رلهي لا ينفد ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

وفي هذه الطريق يحسن أن نذكر بالقرآن الذي جعله الله شفاء ورحمة للمؤمنين.

أن التزاماً يلتزمه الإنسان من جلسة هادئة مع كتاب الله كل يوم في تلاوة لبعض الآيات الكريمة ومدارستها والتدبر لمعانيها -خصوصاً في رمضان-، والتصور الصادق للصورة التي أحاطت بها يوم نزلت على رسول الله

صلوات الله وسلامه عليه ، كيف نزل بها جبريل ، كيف تلقاها رسول الله ، كيفم كانت حاله ؟ كيف كان شعوره ، على أي صفة كان قلبه ، كيف كان يستشعر هذا الفيض الالهي من السماء ، كيف كان ينظر ببصيرته إلى هذا القرآن الذي كان نزوله مظهراً من مظاهر النعمة ووجهها من أوجه الاصطفاء أولاً ، وأمانة ثقيلة يراد تبليغها بدقة وشمول ثانياً .

ثم كيف كانت أصحاب النبي صوات الله وسلامه عليه وهم يشهدون متنزل الوحي ، كيف كان تهيوهم لتلقي هذا الوحي عن رسول الله ، كيف كان ادراكهم لابعاد الآيات التي تخطبهم مرغبة مرهبة ، منذرة مبشرة .

كيف كان استسلامهم لكل ما يمكن أن تأتي به الآيات من تغيير جذري يأتي على البقية الباقية لديهم من موروثات الجاهلية ؛ فالآيات تخاطب العقل ، وتخطب القلب وتحرك الشعور ، وتثير مقومات الإدراك ، وتحمل في كثير من الأحيان سياط التأديب تؤدب به الظالم ، والروح والريحان تكم به من اسقتمام على الطريقة ووقف عند حدود الله .

أن جلسة هادئة كهذه فيها شيء من التلاوة الواعية والمدارسة التقية النقية والتدبر المدرك ، والاحاطة بالصورة التي تخدم الحقيقة ، تلك الصورة التي تمر بالمسلم ذكراً كان أو أنثى على ساعات من أيام الليل والنهار لصاحب الرسالة صلوات الله عليه ، وتمر به على ساعات من أيام الليل والنهار للذين كانوا معه كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه . وتمر به على ساعات وقف فيها الزمن خاشعاً خاضعاً يتلمس الرضا وينتظر بفارغ



الصر كلمة تفتت عنها شفتا محمد بن عبدالله الذي كان -وهو في مكة-
يمشي على الشوك ليغرش عقيدة التوحيد، ويستأصل جذور الجاهلية
والشرك، وكان -وهو في المدينة- يقيم للإنسانية صرحاً تنفياً ظلّاله في
أقاصي الأرض على مدى القرون والأجيال.

إن ساعة كهذه جديرة أن تفعل الكثير، جديرة ورب السماء والأرض أن
تجعل منك خلقاً آخر تروح وتغدو على حال غير التي كنت عليها يوم كان
القلب تحجزه عن الحقيقة شتى الحدود ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ
أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وأذكر أيها الأخ المؤمن وأنت تقرأ أنك تناجي صاحب الكلام الذي تقرأه
فليس الأمر عبثاً من عبث ولا تمضية لساعة من ساعات الفراغ ولكنه مناجاة
رب العالمين.

وأذكر أن الأمانة على قدر الوعي والإدراك، وأنت تقرأ كلاماً ما تغير منه
حرف ولا تبدلت فيه كلمة، إنك تقرأه غضاً طرياً كما أنزل على قل رسولك
النبي الأمي -صلى الله عليه وسلم- الذي قال له الملك على لسان رب
العالمين ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾.

أذكر هذا كله وأذكر معه أنك حين تقرأ لا تقرأ شفاء القلب وحسب،
ولكنك تقرأ غذاء العقل، وسقيا النفس... بل تقرأ منهج حياة وطريق
سعادة، ويمتد بصرك بالقرآن إلى القرون الماضية والأُم الخالية، وتمتد أمامك
الصورة حتى تصل إلى أحوال تلك الأمم مع أنبيائها، وكيف كان صبر الأنبياء

وكيف جرى الصراع بين الحق والباطل ولمن كانت الغلبة في خاتمة المطاف .
الأمر الذي يجعل للجماعة القسط الأوفر من بناء الفرد ، فليس اتصالك
بالله عن طريق القرآن عاملاً في تكوينك لتكون في إطار انعزال وتقوقع على
نفسك ، ولكنه إعداد لك لبنة يجب أن يتكون منها صرح البناء لتأخذ مكانها
الطبيعي اللائق . وأنه لامتحان قاس رهيب لا يفوز به إلا أهل الرضا ، فلا بد
أن تمتحن مقدار تأثرك بالقرآن ذاكراً مقالة الحسن البصري - رحمه الله - « ما
جالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقص ، إقرؤوا إن شئتم ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ
الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ » .



وسلم- «إنما الأعمال بالنيات». وقدمه على حديث الوحي ، ذلك لأن العبادة والإخلاص فيها هو الأساس الذي يجب أن يكون قاعدة العمل عند المؤمن .

وهذا الاتساق الذي نتحدث عنه يجعلنا نقف على شيء من مدلولات تحريم الصيام في أول يوم من أيام عيد الفطر ، فوجوب الصيام في رمضان شرعة ، وتحريم الصيام يوم عيد الفطر شرعة . أن الذي أوجب هناك هو الذي أوجب هنا ، المصدر واحد ، والشرعية واحدة ، ولذلك قرن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر الله تعالى بما يكون من مظاهر الفطر فقال : «أيام العيد أيام أكل وشرب وذكر الله» .

وفي شأن صدقة الفطر أمر باغناء الفقراء في يوم العيد فقال : «اغنوهم من المسألة في هذا اليوم» .

وهكذا يريد الإسلام من أفراده أن يكونوا على صحو دائم ، وعلى مراقبة تامة لله عز وجل ، وما كان في فطر وما كان في صوم ، ما كان في سراء وما كان في ضراء ، وما دام المؤمن يتقلب دائماً في فضل الله عز وجل وأحسانه ، فهو إذا فرح وفرح بفضل الله ، وإذا غضب وغضب لله ، مسرته إنما تكون بحسناته وما قدم من عمل دائم مخلص ، ومساءته إنما تكون بما تجترح يده من مخالفة لا وأمر الله عز وجل ، أو وقوع في شيء من منهيته . لذا فهو يحرص كل الحرص على أن لا يراه الله حيث نهاه ، ولا يفقده حيث أمره .

«عجباً لأمر المؤمن أن أمره كله له خير ، أن أصابته سراء شكر فكان ذلك خيراً له ، وأن أصابته ضراء صبر فكان ذلك خيراً له» .

وما أحسبنا نبعد النجعة أن قلنا : أن هذا من خصائص هذه الأمة . . التي تعبد الله تعالى صياماً وصلاة، وتعبده زكاة وحجاً، وجهاداً، وتبعده فرحاً وطمأنينة واستمتاعاً بنعمه وطيباته، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

وذلك الذي نقوله عن هذه الخاصية العظيمة هو فارق ما بينها وبين أولئك الذين يجعلون من أيام العيد أيام لهو لا تفارقه المعصية، وعبث يقوم على المخالفات، واستهتار لا يقف عند حد من حدود الدين أو الخلق .

إننا ونحن نقرر هذه الحقيقة، نستشعر ما من الله به على الجماعة المسلمة، حين رسم لها معالم الخير، وسلك بها طريق الجادة، وجعل منقلبها ومشاها في مرضاته، وعمل كل ما من شأنه أن يعود على الفرد والجماعة، بل والأمة بالخير العميم .

وذلك في واقع الأمر يتناسب كل التناسب مع الزانة التي حملها الإنسان، والرسالة التي أعدت لها هذه الأمة يوم تأذن الله فخاطب المؤمنين وحيّاً إلى نبيه محمد بن عبدالله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ .

ولعل في ذلك ما يهدي إلى ما كان من حرص النبي -عليه السلام- على خروج المسلمين إلى صلاة العيد، حتى النساء اللاتي يقعدهن العذر عن الصلاة. فقد ثبت في الصحيح عن أم عطية -رضي الله عنها- قالت : «أمرنا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- أن نخرجهن في الفطر والأضحى، العواتق والحائض وذوات الخدور. فأما الحائض فيعتزلن الصلاة



-وفي لفظ (المصلى) ويشهدن الخير ودعوة المسلمين، قلت: يا رسول الله، إحدانا لا يكون لها جلباب، قال: لتلبسها اختها من جلبابها».

والآن: هل علي من بأس لو خطوات خطوة أخرى، لا نظر إلى شرعة العيد من وجه آخر - وما أكثر حكم الله فيما يشرع لعباده-؟؟ إنا ونحن نتحدث عن العيد لبنة كريمة في كيان المسلم من حيث كونه في أعقاب العبادة، وإن المؤمن يفرح بفضل الله عز وجل فيما وفقه للقيام بما افترض عليه، وأداء حقه فيما أوجب.

إنا ونحن نتحدث عن العيد من هذا الوجه لا ننسى ما تتسم به عبادة الصوم التي سبقت العيد، من وحدة الشعور بين أبناء الأمة قاطبة، فالكل -إلا من حرم- يمسون حيث يجب الإمساك، ويفطرون حيث يشرع الإفطار، على تنائي ديارهم وتباعد أمصارهم، واختلاف سنتهم والوانهم امتثالاً لأمر الله ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وكلمة ﴿مِنْكُمْ﴾ تحمل الخطاب لجميع المكلفين في الأمة دون تمييز أو تفريق، والحكم باق حتى يرث الله الأرض ومن عليها. وعدة الشهر الذي يصومون، منوطة بما دلّ عليه قول الرسول -عليه الصلاة والسلام-: «صوموا لرؤيته -يعني هلال رمضان- وافطروا لرؤيته، يعني هلال شعبان».

وحدة الشعور هذه في حال الصيام، ينبغي أن تكون هي نفسها وحدة -- أيام الفطر.

ولعمري أن هذه الوحدة الشعورية التي تبدو هنا سمة من سمات التشريع وثمرة من ثمراته بأن واحد. يجب أن تمتد لتعلم عملها في حياة الأمة،

سلاحاً ما ضيأ في قضايها الكبرى ، كفاء ما تلقىه الأيام على طريقها من معضلات وعقبات .

لقد خاض المسلمون في الماضي معركة الفرقان التي أرست للإنسانية قواعد كرامتها وهم صائمون ، وخاضوا معركة الفتح حيث حرروا بيت الله والأرض من حوله من أدران الوثنية ، ومكثوا لراية التوحيد أن ترتفع وهم صائمون .

وكم كان في ذلك من انقاذ للمستضعفين ، ونجدة لأولئك الذي غلبهم أهل الشركة على أمرهم ، حتى باتت معركة الفرقان (بدر) وغزوة الفتح وما كان بينهما أو لحقهما ، أصدق عنوان على طريق الإنسانية لتحقيق كرامة الإنسان ، وتحريره من عبودية العباد ، وظلم الطغاة .

وكان من ذلك حراسة للمبدأ الذي أعلنه القرآن ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .

فهلا تكون وحدة الشعور هذه على صعيد الأمة ، حلقة تصل ما أنقطع وترد ما ضاع ، وتذكي ما خبا من نار العزيمة وحب الموت في سبيل الله ! إنهما شعبتان لا بد من اعطاء كل منهما قدرها في القول والعمل . أن نذكر اقتران العبادة بفضل الله ، وأن نذكر اقتران أعز معاركنا بالصيام قبل العيد إلى قمة لا ينالها إلا أولئك الفتية الذي آمنوا بربهم وزادهم هدى ، وكان على وعي لهذا التكامل المطلق في شريعة السماء .



أترانا نذكر ونحن في أيام العيد، أخوانا لنا يقعد لهم العدو كلَّ مرصد، ويسومهم ألوان العسف والتنكيل، أترانا نذكر أيَّ هدايا يقدمها العود الماكر كل حين لأولئك الذين صاموا تحت سلطانه، وأفطروا تحت قهره وغدره، يأكَّ لخيراتهم ويصليهم سوء العذاب، يرتع على أرضهم، ويسرح ويمرح في ديارهم ومرباع صباهم، ويهين في شهر القرآن قرآنهم، ويحول في شهر العبادة بينهم وبين عبادتهم ومساجدهم، تلك المساجد التي ينالها ما ينالها من رجس الكفر ودنس الكافرين الصهاينة صباح مساء.

أرانا عندما ننظر إلى الأرض هنا، نذكر الأرض هناك، وعندما ندخل مساجدنا هنا، نرنو إلى الأقصى والخليل وسائر مساجدنا هناك، أترانا نقف عند قول النبي -صلى الله عليه وسلم-: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» نصيخ السمع ونفتح القلوب، وتتجافى عن الخطام وحب الحياة، لندرك أن الشعور الصادق بوحدة الأمة في أفراحها وأتراحها وما ينتظرها من مصير، هو آية الإيمان، وصدق الدينونة للخالق القادر القاهر!! والعكس بالعكس!!

إلا إن الإيمان الذي حرك الدم ليعمل عمله عبر تاريخنا الطويل، قادر أن يقفنا اليوم حيث تقضي مصلحة الأمة وأخلاق الرجال.

ولن يكون العيد عيداً بمعناه الحقيقي، حتى نكون في مرضاة الله تعالى، تحرياً لارضنا، وانقاذاً لمقدساتنا، وأخذاً بيد أخواننا المغلوبين على أمرهم هناك.

وعلى هذه الأمة أن تذكر دائماً، أن تقوى الله التي جعلت غاية الصيام،

كما تطلب في الفرد اخلاصاً وصلة بالله عز وجل ، ووقوفاً عند الذي شرع وأحكم، كذلك ينبغي أن تتحقق على صعيد الأمة ، وحدة شعور، واحساساً بالمسؤولية ، ووعياً صادقاً للذي يدور على أرضنا، وفيما حولنا .
وأن نذكر كذلك، أن العيد ليس فرحة فرد وكفى ، ولكنه فرحة الجماعة فيما وراء ذلك، والفرد المبتور عن أمته، بشعوره وأحاسسه بالمسؤولية ، فرد غرب عن فطرة الإسلام وكما شريعة الإسلام .

ألا وإن الأمة مدعوة اليوم أكثر من أي وقت مضى ، أن تفتح البصيرة على الذي يرى واضحاً من الارتباط بين العبادة والفرح بفضل الله ، وبين ذلك جميعاً مع وحدة الأمة في صادق الشعور، والأحاساس بالأخوة ووحدة المنقلب والمصير .

صحيح أنها طريق شائكة محفوفة بالمتاعب ، حافلة بالمعوقات ، ولكنها هي وحدها طريق الكرامة وكسب مرضاة الله عز وجل ، فإذا تذكر المسلم أن الله أكبر من كل كبير ، وأن العقبة مهما كانت كؤوداً سوداء فالاستعانة بالله مع الأعداد الصحيح تذللها وتجعلها كلمة للتاريخ ، استطاع أن يفعل الكثير وأن يحقق الكثير .

هذا من حكم شرعة التكبير في العيد، الذي طلب حتى في صلاته وخطبته حيث يكبر الخطيب عند كثير من الأئمة، تسعا في الخطبة الأولى وسبعاً في الخطبة الثانية، وفي الصلاة يكبر المصلي سبعاً في الركعة الأولى وخمساً في الركعة الثانية . هذه الحكمة، التي ترفع المسلم عن أضرار الطين، وتأخذ بيده إلى القمة مخلفاً وراءه أولئك الذين تستعبدهم غريزة حب الحياة، أو شهوة الدنيا، وزينة المال والولد .



ففي ساعات الفرح حيث عيد الفطر أو عيد الأضحى ، تجد التأكيد على هذه الشريعة العظيمة ، حمداً لله وشكراً على ما كان من الهداية ونعمة التوفيق ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ، وتنزيها لله عما يفترى المفترون ويتأله المتألهون . وتذكراً للمسلم بأن لا تلهيه الفرحة عن الواجب وأنه يجب أن يكون في مرضاة الله على كل حال . فإذا تمكّنت عظمة الله من قلبه كان قادراً مستعليّاً على الخطام والمعوقات ، سواء أكانت من نفسه ، أم كانت من العدو . وما أكثر المعوقات من داخل النفس حيث حب الدنيا والحرص على البقاء ، وما أكثرها من العدو حيث القوة الظاهرة والحرب النفسية ، وإدخال الوهم واليأس إلى النفوس كالذي نرى في مساعدة الاستعمار للصهاينة من مختلف الأسلحة المادية وغيرها .

يا أيام العيد . . نريدك أيما لنا جمعياً ، لاهلينا ، لاخواننا ، على أرضنا الفسيحة الطاهرة هنا وهناك . . ويا فرحة العيد . . نريدك على قسّمات أطفالنا جميعاً . . على وجوه السالكين دروب الخير هازئين بتأمر اللّؤماء الأقوياء .

يا ساعات الصباح ، ونحن نرفع أصواتنا بالتكبير ، نريدك ساعات تمسح عن أرضنا دنس يهود . . وعن مقدساتنا ما كان من رجس يهود . .

اللهم إنا نسألك وأنت الذي قلت بعد آيات الصيام ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ ، ساعة من ساعات بدر والفتح ، وياً من أيام القادسية واليرموك ، اللهم أن أهل الباطل قد تظاهروا على حقنا ، فاشدد بقوتك

أزرنّا، وكلّل هامنّا برايات نصرك، اللهم أنزل بهؤلاء الأعداء غضبك،
وأحلل عليهم عذابك ونقمتك، اللهم رب السماء وما أظلت، الأرض وما
أقلت، أنزل السكينة في قلوبنا، وأيدنا بما أيدت به جنّدك الصابرين
الصادقين، حتى نفوز برضاك، وحتى تكون الغلبة لنا في يوم لا بد واقع
بإذن الله. ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.



في رحاب البيت^(١)

لقد شاء الله -بعظيم حكمته- أن تكون أحكامه التي شرع لعباده طرائق للتقوى والفلاح ، وأن يكون هؤلاء العباد بما ابتعث فيهم من رسل ، وما أنزل من كتب ، على بيئة من أمرهم في هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة ، وميدان التسابق ؛ فكل يعمل على شاكلته ، بلا الغاز ولا تلايف ، والفائزون الفائزون هم أولئك الذي يدركون حكمة الحكيم فيما خلقهم لأجله ، وهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة في الأرض والسماء ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ١٨ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

وكان الله جلّت حكمته ؛ قد جعل من فريضة الحج بما تضم في ثنا شروط وأركان وواجبات ومندوبات ، عنواناً على أمانة هذه الأمة فيما ور ملة التوحيد ملة إبراهيم -عليه السلام- ، وتعظيم الله العظيم في بيته الحرام جعله مثابة للناس وأمنأ ، ومائدة من موائد الخير الإلهي ، حيث يتجلى سبحانه -وهو غافر الذنب وقابل التوب- على حجاج بيته --- فيستجيب دعاءهم ، ويغفر خطاياهم ، ويعطيهم عطاء القدرة والفضل --- ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد العاشر، السنة التاسعة، ١٣٨٨ هـ ذو الحجة، شباط - آذار ١٩٦٩ م.

وإنك واجد في كل شعيرة من شعائر الحج وفي كل منسك من --- حلقة من حلقات البر، وكأنها روضة من رياض الجنة يرتع فيها المؤمن، --- يفرغ من واحدة هنا حتى يسعد بتالية هاك . . وعكذا دوايك ؛ --- تقول : عطاء الكريم المنان . . فلا بدع ولا غرابة، وعندما تقول : --- الجلال والإكرام : فحدّث ولا حرج، فالكل في رحال بيته، ومن --- كان آمناً.

ولئن كان الحج فرصة نورانية يبث فيها المؤمن أشواقه وتطلعات --- التي يمدها حب صادق لمولاه، بما يكون من دعاء خاشع مبلّل --- ودموع حرّى يسكبها أهل المحبة الذي تذوب قلوبهم شوقاً إلى البيت --- رب البيت . . لئن كان الحج بهذه المثابة من هذه الناحية، أن في كل --- لحظات تلك الفترة الزمنية المباركة، عطاء إلهياً يحسه ويتذوقه أولئك --- تفتحت قلوبهم للنفحات، وانجلى عن بصائرهم ران الغظة، وتسربلوا العبودية الخالصة لمولاهم في حقيقة الضرع والافتقار، كما يجردوا عن --- وتوشحوا ملابس الاحرام التي جاءت بها شرعة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

وتنبئها لهذه المعاني الرائعة، التي تأخذ بالحاجّ من نفسه وعادا ومألفاته، وما كان من شهوات ومغريات وتطلعات تأخذه كلية إلى --- تستنقذه من الوهدة، تحرك مشاعره نحو ربه الكريم خالق الأرض والسموات نقول : تنبئها لهذه المعاني جاءت الشرعة بذلك الشعار السماوي العلوي : «لييك، لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك



لك ، وصحت النصوص بالحث عليه والدعوة إلى إلى الأكثر منه مع رفع الصوت بهذا --- الإعلان البالغ الفردي والجماعي ، وحملت إلى المسلمين الكثير من البشائر على --- أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - «أن رسول الله سئل : أي الأعمال أفضل -- قال : العجَّ والثَّجُّ» وعن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «ما من ملبٍّ يلبيَّ إلا لبَّى ما عن يمينه وشماله من حجرٍ ، أو شجرٍ ، أو مدَرٍ ، حتى تنقطع الأرض من ههنا وههنا عن يمينه وشماله» . وفي الحديث الصحيح عن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «ما من محرم يضحي لله يومه يلبي حتى تغيب الشمس ، إلا غابت بذنوبه فعاد كما ولدته أمه» .

كل هذا لما أن هذه التلبية التي تنطق بالاستجابة الخالصة معلنة واضحة لله عز وجل ربُّ هذا البيت الذي يقصده المسلمون من كل فج عميق حجاجاً ، ومعتمرين ، من أعظم دواعي التأثير على النفس في تنبيهها إلى مقتضيات الإيمان ، وإيقاظها لمقاصد الحج التي من أجلها - والله أعلم - جعله الله ركناً من أركان الإلام ، وتزويدها ب زاد جديد من حرارة الإيمان ، وعزيمة التخلص من الشوائب ، والقدرة على تجاوز المعوِّقات ، التي تحول بين المؤمن ، وبين أن يكون حيث أراد الله له أن يكون ، عقيدة وعملاً ، وأخذاً بكل الأسباب التي فيها يقظة الفرد ، ومنعة الأمة وحصن الإسلام . ولك أن تقول بدموعك ، أو تكتب بحرُقك وأشواقك وحنانك ، أن المفروض بالمسلم عندما يهل بقوله : «لبيك اللهم لبيك . . » أن يصبح وكأنه إنسان آخر ، فهو يخاطب سميعاً

بصيرا ليس بينه وبينه حجاب، يخاطبه خاشعاً لجلاله، خاضعاً لسلطانه، معترفاً بتقصيره وزلاته، طامعاً بغفر الزلات، وغسل الخطيئات، فتشور الأشواق ويغلي فيها الدم والعروق، ويفيض الحنان، ويتحول الكلام إلى دموع، ويزيد ما في القلب من هيمان، حتى كأن هاتفاً من الملاء الأعلى يرتل في أعمالقه «يحبهم ويحبونه» يرتلها ويزيده من جمالها وروعها وعدوبتها حتى يعيش في ظلها بل معها، وذلك طبه ودواؤه، ونواله إلى يوم يبعثون. وهذا الذي تراه أو تقرأه في أعين أولئك الذين سعدوا بهذا الضياء الخاشع، يجعل من الحاج إنساناً قادراً على التلقي في كل حركاته، وتنقلاته وتصرفاته، لما أنه مظلّل بذاك الجو الروحاني الذي ملك عليه منافذ الرؤية والحسّ وأحاط به، حتى غدا وكأنه من بشائر الجنة لأهل هذه الأرض.

وإذا كانت التلبية تبدو وفي بعض مضمونها هذا الخير الذي نشير إليه بالخاطف من الحديث، أن كل منسك من مناسك الحج - كما أسلفت - روضة من رياض الجنة، وطوبى لمن كان أهلاً لأن يرتع في رياض الجنة، طوبى له وحسن مآب، ويا حسرة على أولئك الذي يخسرون ما في جيوبهم، ويؤوبون من تلك الديار وقد خسروا مع المال حسن المثوبة، فكأنهم لم يدروا لماذا حطوا ولماذا ارتحلوا. ونحن بهذا لا نتألى على الله تعالى فهو الرحيم الرحمن، وهو المعطي الغني القادر الذي لا تنفذ خزائنه من العطاء، ولكن الذي تعطيه نصوص الشريعة الغني القادر الذي لا تنفذ خزائنه من العطاء، ولكن الذي تعطيه نصوص الشريعة أن رحمت الله لا بد للمرء من أن يتعرض لها ويفتح قلبه لتنزلاتها، ويحمل نفسه على الصعود والمرتقى، حيث المغفرة والرحمة والعطاء.



ولعل في عدد تلك المناسبات والشعائر؛ من طواف حول البيت، وسعي الصفا والمروة، ووقوف بعرفة، ومبيت بمزدلفة، ورمي للجمار، وتلبية، -
-- وشدر الرحال إلى مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- والصلاة فيه
---- صلوات الله -عليه السلام- وعلى أصحابه، والصلاة والدعاء في
مواطن ---- الدعاء، وسفح العبرات حيثن تسفح العبرات، والتذلل
والخضوع ---- يطلب التذلل والخضوع، والصبر على تغيير العادات
والمألوفات، ---- التجرد عن كل مظهر يتنافى مع المساواة بين الخلق،
والعبودية لخالقهم ---- سبحانه. لعل في ذلك كله -وغيره كثير- باباً من
أبواب التيسير على ---- كيما يلجّ -في جو من حرمة الزمان والمكان- إلى
ساحة المبرّات ----- هذا المنسك هنا، وذاك المنسك هناك، خصوصاً إذا
حرص على أن يكون ---- على الطريقة التي أداها رسول الله -صلى الله
عليه وسلم- يوم حج حج الوداع --- صلوات الله عليه وهو يقوم بالمناسك
رسولاً مبيناً، وإماماً معلماً «لتأخذوا عني مناسككم».

وإذا كان الأمر كذلك، فما على المسلم إلا أن يصدق الله نيته، ويخلص
قلبه ووجهته، كيما يكتب له أن يكون في عداد أولئك الذين يحفهم ---
وتغمرهم محبة الله، فكلما قام بعمل من أعمال هذا الركن العظيم، خطأ
---- مباركة إلى ذلك المقصد المبارك الميمون، وهو في خير، بدءاً من
عزمه --- المسير، إلى أن يعود إلى بيته مقبول العمل مغفور الذنوب،
عازماً على ما عليه من حقوق العباد.

ففي الحديث الذي أخرجه الطبراني والبخاري من رواية ابن عمر -رضي الله عنهما- عن مجيء الرجلين الثقفي والانساري إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في مسجد منى ، يقول رسول الله مجيباً الأنصاري عما أراد سؤاله قبل --- يسأل : «فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم : البيت الحرام لا تضع ناقتك --- ولا ترفعه ، إلا كتب الله لك به حسنة ، ومحا عنك خطيئة ، وأما ركعتك --- الطواف : كعتق رقبة من بني إسماعيل -عليه السلام- . وأما طوافك بين --- والمروة : كعتق سبعين رقبة ، وأما وقوفك عشية عرفة : فإن الله يهبط --- سماء الدنيا فيباهي بكم اللائكة ، يقول : عبادي جاءوني شعثاً من كل --- عميق يرجون رحمتي ، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل -أو كقطر المطر أو --- البحر- لغفرتها ، أفيضوا عبادي مغفورا لكم ، ولن شفعم له ، وأما --- الجمار : فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات ، وأما نحرك : --- لك عند ربك ، وأما حلاقك رأسك : فلك بكل شعرة حلقته حسنة ، --- عنك بها خطيئة ، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك : فإنك تطوف ولا ذنب لك ، --- ملك يضع يديه بين كتفيك فيقول : أعمل فيما تستقبل ، فقد غفر --- ما مضى». وفي شأن استلام الركنين الحجر الأسود والركن اليماني وتكفير الخطايا بذلك : أخرج الإمام أحمد والترمذي -واللفظ لأحمد- عن عبد الله بن عبيد بن عمير -رضي الله عنه- : أنه سمع أباه يقول لابن عمر -رضي الله عنهما- مالي أراك تستلم إلا هذين الركنين : الحجر الأسود والركن اليماني : فقال ابن عمر : إن أفعل فقد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : «إن استلامهما يحط الخطايا» .



وضمن عدد من الأحاديث في فضل ماء زمزم يقرأ ما رواه أبو ذر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: «ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم».

هذا قليل من كثير من الآثار الصحيحة الواردة في هذا الباب، ومبتغانا من هذا الذي نشته هنا، أن يكون لنا -نحن المسلمين- من الإدراك لعظيم منة الله فيما أوجب، ما يجعلنا على صعيد الفرد، والجماعة، على تفاعل صادق مع الذي شرع الله من أحكام، كيما يكون في ذلك العلاج الناجع للأسباب التي أودت بالأمة إلى ما هي فيه، حتى سلط عليها أذل أهل الأرض. فالفرد -في تفاعله واستجابته الصادقة للشرعة والأحكام- يخرج من ابتلاء الالتزام والتطبيق وهو أكثر صفاءً، وأوفر قابلية لما فيه سعادة نفسه، وتفتح قلبه، لما أن أشوافه وتطلعاته قد صادفت موطنها الأمين، ولما أن كأس حبه وحنانه قد فاض على الأعتاب في هاتيك الديار دموعاً لها ما لها في ميزان القبول.

فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: استقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- الحجر، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً، ثم التفت فإذا هو بعمر بن الخطاب يبكي، فقال: «يا عمر ههنا تسكب العبرات».

والفرد الذي يصقل هذا الصقال في ظل الأوامر والنواهي، يغدو، وهو أقدر بلا ريب، على أخذ مكانه من الصف في خدمة أمته، وسلوك ما به يكون لبنة صالحة في بناء الجماعة المسلمة التي تبرهن في فكرها وعملها يوماً

بعد يوم، على أنها جديرة بالخطاب القرآني قبل أربعمئة وألف عام ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

أما على صعيد الجماعة: فلا ولاله لن يردَّ الله حجاج بيته خائبين إذا دعوه، ولن يعرض عنهم إذا أقلبوا عليه، ولا والله لن يطول الأمد حتى يمكن لهم الدين، ويبدلَّهم بعد الخوف أمناً، وبعد ضعفهم قوةً وسلطاناً. ولكن الأمر يكمن في أن تكون الأكف الضارعة صورةً لقلوب أيقنت بالإجابة، وشريكة أيد أسهمت بالعمل والأخذ بالأسباب. أن الذي ينقص المسلمين اليوم - في كثير من ظواهر المرض في جسم العالم الإسلامي - أن تفيض القلوب بتلك الحرقه الصادقة مما حلَّ ويحلُّ بالأمة من كوارث تذيب الحجر الأصم، أن تكون العيون مؤرقة تستعصي على الرقاد مما يرى المسلم ويسمع، ويقرع قلبه ولبَّه صباح مساء، أن تتجافى الجنوب عن المضاجع، وتهزأ النفوس بالراحة، وتستعلي على طلب العافية، لوناً من ألوان تثبيت الأقدام على أول الطريق، دونما مواربة أو محاورة أو مداورة.

وما كان للمسلمين أن يغفلوا، أو يتغافلوا عن الحقيقة التي يجب أن تأخذ حيزها الطبيعي من تصورهم وتفكيرهم، ألا وهي عدم الانفصال أو التجزئة في نظرة المسلم إلى كيان الأمة في الكفر والزمان والمكان.

إن وفود بيت الله، في دعائهم، وتضرعهم، وخشوعهم ودموعهم، يمثلون أصدق صورة لإذابة الفوارق أمام العقيدة؛ فالله تبارك وتعالى عدو ما يستجيب لا ينظر إلى صورهم والوانهم، ما دامت لغة الإيمان لغتهم، ووما



دامت القلوب عامرة بالسكينة والنور، مشرقة بالطمأنينة لصدق وعده سبحانه وفي إجابة دعوة المضطر وإغاثة الملهوف، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ .

وإذا كانت كارثة الأقصى وما حوله، تنزل بكلكلها الرهيب على صدر هذه الأمة -وما أكثر الكوارث في وطننا الكبير- إن رب البيت الحرام الذي تؤمه اليوم مئات الألوف، ملبية داعية مكبرة، هو رب المسجد الأقصى، فليكن هذا في ضمير المسلم عندما يرفع كيفه بالدعاء، وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- عندما حدد أفضلية الصلاة في بيوت الله، جعل الأقصى ثالث ثلاثة بعد المسجد الحرام ومسجده وهو -عليه الصلاة والسلام-، دليل ما يجب من التكامل في نظرة المسلم إلى المساجد الثلاثة التي تشهد إليها الرحال، على ما لكل منها من الفضل الذي نؤمن به في حدود توقيف الشارع. هذا إلى أن النظرة إلى البيت العتيق لا بد أن تشد المسلم إلى تذكّر الأقصى مسرى رسول الله ومعراجة .

وحرام أن تكون العبادة في نظر المسلم رسوماً وأشكالاً مقطوعة النسب عن الحياة التي أَرادها الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ . إن على المسلم التزام كل ما أمر به الشارع، مع تصور سلامة التفاعل بين العبادة وما يمكن أن تؤديه في حياة الفرد والجماعة، بما يكون من انعكاس آثارها العملية الطيبة على حياة الأمة وواقعها، كيما تكون هذه الأمة في حركة دائبة صاعدة، تنأى بها عن الجمود القتاتل، والوقوف الذي لا يعني إلا الموت، ولعلّ هذا من أسرار قوله ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

لقد كان مبكراً تنبّه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى بلاد الشام وما فيها ----- أن تؤديه رسالة الإسلام على أرضها، حين حمل عبء المسير بجيشه اللجب من الحجاز إلى تبوك؛ وخبر الرحلة القاسية العنيدة مآثور ومعروف. فإذا أضفت هذا إلى تجهيزه لجيش أسامة وعقد الراية له بيده، وما كان من قبل، من معجزة الإسراء والمعراج في ربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، وإن الدعاء لا بد أن يرافقه العمل، وكيف يفترض أن يكون شعوره عندما يسلم على المصطفى صلوات الله وسلامه عليه الذي بلغ الأمانة، وأدى الرسالة، ونصح الأمة وكان من أمره ما كان مع يهود، ثم ما كن من يقظته النبوية بالنسبة إلى ديار الشام، بجانب أكرامه الله له بمعجزة الإسراء والمعراج، وعندما يسلم المسلم على الصديق أبي بكر لا بد أن يذكر صنيعه بجيش أسامة وحرصه على أن لا يحلّ راية عقدها رسول الله -مع ما كان من ليل الردة البهيم، وما تطلبت من معارك ورجال- حتى كانت واقعة اليرموك التي غادر الحياة رضوان الله عليه ولما تنته بعد.

وعندما يسلم على الفاروق عمر بن الخطاب، جدير به أن يذكر ما كان من ارقه رضوان الله عليه ومعاناته حتى فتح الله على المسلمين ودخلوا الشام، وليذكر أن الأرض التي صلى عليها هذا الخليفة أمام كنسية القيامة حين لم يرض أن يعلم عملاً يمكن أن يؤول إلى ضياع معبد النصر=ى من أيديهم، ليذكر أن المسجد الأقصى وأن هذه الأرض يسرح ويمح في أرجائها صبية يهود.



إن أمراً على غاية الأهمية في إيمان المؤمن وصادق نسبته إلى هذه الأمة، أن يكون له مع كل دعوة ذكرى، ومع كل تلبية تجسيد للحقيقة الماثلة التي تقض بمرارتها مضاجع الرجال، ومع كل دمعة لهفة على واقع المسلمين، وعزيمة إيمانية جديدة على العمل الصادق الصابر المثمر في سبيل الله عز وجل.

وإذا كان هذا على صعيد الفرد، فهو على صعيد الجماعة أكثر أهمية وأشد ضرورة. ألا إن الله سائل هؤلاء المؤمنين الآمين بيته الخاشعين في رحابه، داعين ملبين، عن عمل في سبيله يحرر الأرض ويطرد الغاصبين، ولن يكون ذلك إلا بالحزم الحازم والكلمة الواحدة، والصدق الذي لا يشوبه خداع، واماوجهة الواعية للحقائق بكل ما يمكن أن يكون ثمن هذه المواجهة. وإن عقد الخناصر في رحاب الطهر والقداسة حيث البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، وحيث مثوى رسول الله، وأصحابه البررة التي أضاءوا للإنسانية طريقها بدمائهم وتضحياتهم، أن عقد الخناصر هذا جدير أن يعمل عمله، وأن يؤتي ثماره إذا صدقت النيات، واقتُحمت عقبة الأغراض القريبة الفانية التي لا تزن عند الله مثقال ذرة، خصوصاً إذا ذكرنا، أن نكبتنا -في تقويم صادق ينبعث من العقيدة والواقع- هي نكبة الأمة جمعاء على تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان.

إلا إن النسب صادق كريم بين كل مسلم على وجه هذه المعمورة وبين تلك الرمال وذياتك الثرى علي أرض مقدساتنا، وامتحن نفسك إن شئت!!

إن النسب الكريم إلى الرمال والثرى صورة عن النسب إلى المبادئ التي أثبتت وجودها على هذه الأرض التي أنبثق منها نور الهداية، واندفعت من أرجائها مواكب الدعوة، وانطلقت موجات العلم والمعرفة والحق. وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أدركوا ذلك تمام الإدراك، أن يكون لهم الخيرة في المرقف الذي تمليه العقيدة وأحكام الإسلام.

ولن يضير هذه الأمة قوة في الدنيا، إذا هي استأنفت الطريق، وراجعت رصيدها بأمانة وثقة، واستمسكت بالحق الذي نزل به الكتاب، وأوضحه بياناً وتطبيقاً نبيها محمد -عليه الصلاة والسلام-.

ألا إن على المسلمين -من كتب لهم الحج، ومن لم يقسم لهم ذلك- أن يتخذوا من هذا الموسم المبارك، فيما يحمل من قدسية الزمان والمكان، وفيما يمثل من عرضية سئوية للملة يتميز بها المقصر من المدرك، ويتسم الجميع بمظهر العبودية والمغفرة، وفيما يفيض به من شعائر كلها برٍّ وخير، نقطة بدى سليمة لاتجاه إيماني سليم، أن يحزموا أمرهم على العمل بما تقتضيه المناسك واتلبية، في فيريضة هي خامس خمسة في أركان الإسلام، أن يتجهوا إلى الله صادقين مبصرين، ودليل صدقهم استقامة على الطريق وأخذ بالأسباب في أعداد صادق بعيد عن الشوائب. وإن الله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناءً، هو القادر أن يهب هذه الأمة اليوم، ما وهب أسلافها بالأمس يوم أنزل فيهم آياته ترسم للطريق البعيدة معالمها، وتضع لها منارها الهادي فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا



ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾
فَاتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ .

لا تيأسوا.. ولكن^(١)

جرت سنة الله في هذا الكون -وسنة الله ماضية- أن تكون شدة الكرب، وأهوال الخطوب، وما يكون من جولة الباطل العاتي، تمحيصاً لأبناء الأمة في إيمانهم، ومقدار استمسكهم بدعائم النصر التي تتصل اتصالاً ثابتاً بأصالة أمتهم ومبادئها التي أثبتت وجودها، ورسمت أبعاده في التاريخ أحقاباً متطاولة من الزمن.

وهذا التمحيص في الواقع، هو الذي يكشف عن مقدار اليأس الذي ينزل بكل كلفة الرهيب على بعض القلوب، فتصبح وكأنها خاوية من الأمل، فاقدة لما لا يمكن أن يعوّض، معرضة عن سلوك الأسباب التي بها تكون الحركة، ويكون التحويل.

ولقد تكون هذه الأيام العصيبة في حياة امتنا انموذجاً للتمالؤ الخبيث والتحالف الماكر الذي ينصب أذاه على طريقنا صباح مساء، مما يدخل على كثير من النفوس هذا اليأس القاتل -والعياذ بالله-.

ولكن هذه الحقيقة الماثلة، لاتعني أن ننسى أن الأيام يداولها الله بين الناس، وأن قدرة النفوس على الصبر واحتمال الأذى في سبيل الوصول إلى غايات الأمة الكبار إنما تظهر وتثبت وجودها في مثل هذا المناخ،

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد التاسع، السنة التاسعة، ١٣٨٨ هـ ذو القعدة، شباط ١٩٦٩ م.



وبالنتيجة يفوز من يفوز، ويتخلف من يتخلف ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيََوِّفَهُمُ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وهذا الذي نقول ليس أمراً عابراً في حياة الأمة، وإنما هو واحد من مرتكراتها الواقعية المشرقة، ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤١) فهذه الآية من سورة (آل عمران) جاءت بعد آيات وردت في معرض الحديث عن (غزوة أحد) تحرض المؤمنين على الجهاد، وتدعوهم إلى الصبر والثبات، وتُسليهم عما أصابهم يوم أحد، فلا ينبغي أن يضعفوا بالذي ناهلهم من عدوهم في ذلك اليوم عن القتال في سبيل الله، كما لا ينبغي أن يحزنوا على من قتل منهم؛ لأن هؤلاء القتلى أحياء عند ربهم يرزقون؛ فلن نال العدو منهم يوم (أحد) فقد نالوا منه يوم بدر، والذي مني به العدو من الخسائر في (بدر) لم يثبطه عن العودة إلى القتال يوم (أحد) فالمسلمون أولى أن لا يضعفوا وأن يكونوا على اليابسة في عزيمتهم على معاودة القتاد إذ أنهم يرجون من الله سبحانه وتعالى ما لا يرجو أولئك، وهذا كاف شاف مع الأعداد المستطاع لأن يطرد المؤمن اليأس، ويباعد بينه وبين التواك والخنوع، وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ.

إنه المنطق الذي يتفق مع طبائع الأشياء، وانظر معه المرتكزات النورانية في

هذه التربية وذلك التوجيه ، ففي الحوادث تمييز وتمحيص ، والقتال سبيل الشهادة ، والظالمون لا يحبهم الله ، والكافرون لهم المحق ، والمؤمنون في مرضاته وهم أحياء ، وإذا لقوا وجهه فهم سعداء شهداء .

وهكذا تبدو واقعية البناء والتكوين في حياة هذه الأمة ، فالأمور لا تسير في طريق التعمية والألغاز ، ولكنها تعطي لكل قضية جلّت أو صغرت مكانها الطبيعي من سير الحوادث ، وانعكاسها في النفوس والقلوب ، كل ذلك في ضوء الواقع الذي تصحبه المنطلقات الإيمانية الصحيحة التي عليها يقوم البناء ، ومن مواقعها يصدر المؤمن في تصرفاته وسلوكه .

على هدي هذا الموضوع ترى أنه لا مكان لليأس في قلب المؤمن ، بل صبر وثبات ومثابرة ، والصبر هنا - في مغزه ومعناه - أمر على غاية الأهمية ، في جعل المؤمن قادراً على الحركة مهما كانت الظروف ، فهو صبر على تكاليف ما أبتلي به هذا المؤمن ، صبر على معاودة الخطوة الجادة دون نظر إلى الوراء وندب على ما كان من الخوف والجوع ونقص في الأموال والأنفس أو الثمرات ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . وكانت البشارة الرائعة ﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ .

ولكيلا يتسلّل إلى بعض النفوس توهم أن الصبر معناه الرضا بالهوان ، والإقامة على الضيم ، أعقب الآيات السابقة قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن



تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾ . وفي آية أخرى يقول جل وعز: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ .

فهو سبحانه يريد أن يميز الثابتين على الإيمان الذي كان من مقتضايته الصبر على مكاره الجهاد، من غيرهم، والتمييز هو المراد بالعلم هنا، إذ أن إطلاق العلم على التمييز مجاز من إطلاق اسم السبب على المسبب .

من أجل ذلك يمكن القول بأن الحديث على اليأس وإبعاد شبحه في حياة المسلم، ليس كلاماً سياسياً موقوتاً يرتبط بظرف معين، ولكنه أمر مرتبط بعقيدة المسلم من حيث هي، فإذا وجد العمل الذي في مقدوره أن يعمل به، وأعدّ العدة التي استنفد لها جهده المستطاع دون بخل بكل ما يمكن تقديمه، وكان راسخاً في قلبه أن وعد الله لا يتخلف فهو ناصرنا إن نحن نصرناه، وأن طبائع الأشياء دلت على أن الأيام دولٌ، وأن الحياة لا بد فيها من الصراع بين الحق والباطل، إذا توفر ذلك كله كان معناه الثقة والثبات، بل الإصرار العنيد على المتابعة والتطلع إلى ما وراء الحوادث، وتخطي سحابة عابرة قد تمر في حاية كل أمة من الأمم .

وأنت واجد في القرآن الكريم - مع الذي سقناه من الآيات - وحديث رسول الله صلوات الله عليه وسيرته، تأكيد الذي نقول؛ ففي سورة (يوسف) يجري الحديث عن يعقوب - عليه السلام - وأولاده بعد الذي كان من مصاب هذا النبي بواده يوسف ثم بأخيه فيقول جل وعلا في تصوير هذه

المرحلة من مراحل وقائع القصة: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبْصُتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. وتعبير ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ معناه -والله أعلم- لا تقنطوا من فرج الله وتنفيسه للكرب الذي نحن فيه، لأن معنى الروح في الأصل هو التنفس ثم استعير -كما يقول العلماء- للفرج.

ومن نافلة القول أن نشير إلى أن الذي ينهى أولاده عن اليأس والقنوط من رحمة الله بتفريج المصاب وتنفيس الكرب هو نبي من الأنبياء، فكلامه في موقعه من الهداية ومرتكزات الإيمان والعقيدة.

ثم أن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، فلئن كان الكلام مسوقاً في معرض واقعة خاصة إن اللفظ عام ﴿وَلَا تَيَاسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾. وليس في هذا التوجيه من يعقوب -عليه السلام- ما ينافيه في شرعنا نحن المسلمين بل هنالك -كما سلف- ما يؤيده ويقويه ويثبته حتى يمكن القول بأنه شرع لنا في ميدان ارتباط المؤمن بإيمانه، وأن من مقتضيات الإيمان أن لا ييأس من روح الله، لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، خصوصاً وأن خط الأنبياء واحد في مجال الإيمان ومقتضياته.

وهذا الحصر في قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيَّاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ



الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ مما يخيف المؤمن الصادق ، ويهز كيانه نتيجة ضعفه كإنسان ، ويقف وقفة الصدق والوضوح ، كيما يكون بصيراً على نفسه في الطريق التي يبغي سلوكها ، فإما طريق مؤدية إلى الكفر - والعياذ بالله - وإما طريق تزيده إيماناً بما عند الله ، وثقة بفضله ، وأن وعده جل وعلا لا يتخلف ، وأنه هو - بوصفه مؤمناً - يفترض فيه أن يسلك هذه السبيل .

ولقد نعى الله تعالى على أولئك الذي يتصفون بشدة اليأس والقنوط إذا سلبت منهم النعمة ، أن يعود إليهم ما سلب منهم ، والكفران لما سلف منهم من التقلب في النعم . . ويتسمون أن عادت إليهم النعمة بالمبالغة بالفرح والفخر اللذين يلهوان عن الحق ، ويعبران عن الغرور والبطر والتعاضم على الآخرين ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكُوفُ كُفُورًا ﴿٢﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿٣﴾ ﴾ وفي دعوة إلى أن يتوجه المسلم غير هذه الوجهة ، جاء الاستثناء المنقطع ليقرر المغفرة والأجر الكبير عاقبة لأولئك الذين يصبرون ويعلمون الصالحات . وذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

وفي صورة أخرى للمعنى الذي نشير رليه تقرأ في سورة (فصلت) قوله الله جل وعز : ﴿ لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَكُوفُ قَنُوطًا ﴾ فهذا إخبار يحمل في ثناياه تبكيت هذا الخلق ، إن هذا الإنسان لا يفتر ولا ميلٌ من دعاء الخير ، ولكن إذا أصابه الشر فهو يؤوس قنوط من فضل الله

ورحمته، مع أن الذي لا يملُّ ولا يفتر عن طلب الخير منه هو القادر على أن يفرِّج الكرب ويذهب الشر. وكان الجمع في الآية كما ترى بين وصفين جاءا على صيغة المبالغة، (يؤوس قنوط) ولما كان اليأس عملاً من أعمال القلب وهو انقطاع الرجاء من الخير، ضمَّ إليه ما يظهر في كثير من الأحيان على صورة المرء وتصرفاته وهو التضائل والانكسار وعبرَ عنه بالقنوط. ألا إن هذا الذي يعرض له القرآن من ذم هذا الخلق يعطي مزيداً من التأكيد للمعنى الذي ندير عليه الحديث، لأن اليأس يبدو أشد خطراً إذا خرج عن صعيد الفرد في أموره الخاصة، إلى صعيد الأمر العام، وشؤون الأمة والعياذ بالله تعالى.

وما أشد احتياجنا في هذه الليالي الحالكات أن نتدبَّر ما كان من صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تربية أصحابه الذين خاض بهم معركة الحق على صعيد الإنسان على وجه هذه المعمورة كلها، ما أشد احتياجنا أن نتدبر صنيعة صلوات الله عليه، وسنته ترجمان القرآن الكريم وبيانه، وإعطاء الآيات أبعادها العملية في الكليات والجزئيات على صعيد الشرعة في التربية والإعداد. فقد روى البخاري في صحيحه عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - وهو من عيون رجال العهد المكي وما أدراك ما العهد المكي صبراً ومصايرة - قال: «شكونا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا ألا تدعو لنا: فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط



الحديد ما دون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمنَّ الله هذا الأمرَ حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون» .

ومن هذا الباب ما كان منه صلوات الله عليه حين بشر سراقه ابن مالك بسواري كسرى وهو في طريق هجرته إلى المدينة . فأين موطن اليامي من هذه الساحة النورانية الرائعة ، المهاجر صلوات الله عليه ، وهو في طريقه إلى مهاجره ، تتخطى نظراته السنين ، وكأنه يحرك بيده صلوات الله عليه الجيوش التي وجهها عمر وقادها سعد بن أبي وقاص إلى العراق ، وعملت فتحاً للأرض وفتحاً للقلوب حتى هزت عرش كسرى ، وقوّضت ملكه ، وكان ن آثار ذلك ما كان ، وتسلم سراقه ما وعد به قبل عدد من السنين .

وأوضح من هذا : ما روى ابن كثير في التفسير ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال عدي بن حاتم : حين وفد عليه : «أتعرف الحيرة»؟ قال : لم أعرفها ولكن سمعت بها ، قال : «فوالذي نفسي بيده ليتمنَّ هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولتنفتحن كنوز كسرى بن هرمز» قلت : كسرى بن هرمز؟ قال : «نعم كسرى بن هرمز!!» وليبدأنَّ المال حتى لا يقبله أحد ، قال عدي بن حاتم - رضي الله عنه - : فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت في غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قالها . رحم الله

عدياً، ورحم أول من تحققت الثالثة في عهديهما: عمر بن الخطاب وعمر بن عبدالعزيز.

وفي طرد صارم لكل عوامل اليأس ببصيرة نبوية محمدية كان -فداه أبي وأمي- يقول في شأن سدنة الكفر والوثنية، أولئك الذين ناصبوه العداء من أول يوم، ولم يرقبوا فيه إلا ولا ذمة، كان يقول: «عسى الله أن يخرج من أصلاهم من يؤمن بالله واليوم الآخر». وصدق الأمل، وتحققت النبوءة وكان من فضل الله، أن كثيراً من أولئك الذين شيعتهم اللعنات، وتوسدوا التراب كافرين مشركين، رفع أولادهم راية الإسلام عالية كريمة في العالمين، بعد أن طهروا الأرض من أدران اللات والعزى ومناة.. وغيرها من معبودات الآباء والأجداد، وكانوا حراساً أمناء لعقيدة التوحيد التي سقط أولئك الآباء والأجداد صرعى الحرب معها تحت راية الجاهلية في معارك دارت رحاها ضد دعوة الإسلام وفي سبيل القضاء عليها.

ولم يكن بدعاً ما نراه من مدلولات النصوص القرآنية، وسيرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، من اقتران البعد عن اليأس بالعمل النابع من الثقة بعون الله وفضه، والامتنال لما أمر في كثير من المواطن بالإعداد والاستعداد، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ ونعى على أولئك الذين ركنوا إلى الدعة، ورضوا بالدنية من الأمر، فجعل همهم البعد عن المكاره، والفوز بالغنيمة دون تضحية أو عمل ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾



وَلَنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ
مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

وفي تقرير لما يجب أن يكون خطة المؤمن ودينه قال سبحانه معقبا على ما
مر: ﴿فَلْيَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ...﴾ وبشر الذين
يرتقون إلى هذا المستوى، مرتفعين عن الدرك الذي وقع فيه أولئك، ناجين
من الوهدة التي مرَّغهم بأحوالها ضعف الإيمان، وما يعانون من مرض
القلوب، بشرهم بالمغفرة والأجر العظيم على كل حال، فقال جلَّ وعز:
﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وفي سورة (النور) تقرأ -فيما تقرأ- وعد الله بالاستخلاف في الأرض،
وتمكين الدين، وإبدال الخوف بالأمن؛ فترى أموراً ثلاثة هي على غاية
الأهمية في تثبيت ما يدور حوله الكلام.

أ- فالوعد كان أولاً للذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
مِنْكُمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وهؤلاء
المؤمنون كان مقتضى إيمانهم أنهم يعبدونه ولا يشركون به شيئاً، ومن خرج
عن هذه الدائرة فله سوء العاقبة وذلك قوله تعالى في تنمة الآية ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا
يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

ب- الأمر الآخر: أنك ترى آية الوعد تحييء عقب آيات تدعو إلى الطاعة
والاحتكام إلى الله ورسوله، وتفضح عمل المنافقين الذين كانوا يظهرون

الإيمان، ويبطنون الكفر، ذلك لأنهم إذا دعو إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معروضون، وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين، فهم في منأى عن أي برهان يثبت صحة إيمانهم واتقادهم؛ فلا يطيعون رسول الله في غزوة، ولا يخرجون صادقين لقتال، ويحاولون أن يستروا ذلك بأيمان كاذبة مفضوحة. في هذا السياق تجري الآيات حتى نقرأ قبل آية الوعد بالاستخلاف... مباشرة قوله تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ فرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمانة تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، وعلى من يدعوههم قبول ذلك والطاعة والقيام بمقتضاها.

ج- وترى في سبب النزول ما يعطي المؤمن مزيداً من الطمأنينة والبعد عن اليأس، ومضاعفة القدرة على الحركة مهما كانت الصعاب، ما دام ذلك تحت الراية التي أعدى موثقاً على نفسه بالثبات على مداولها، والعول في ظلها.

فقد أمضى رسول الله وأصحابه الأولين في مكة أكثر من عشر سنين يدعون إلى الله الواحد، وإلى عبادته وحده لا شريك له سراً، وهم في رهبة وخوف، وترقب دائم، ولا يؤذن لهم بالقتال، حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة، حيث تركوا كل شيء من متاع الدنيا في سبيل الله وهاجروا. وهناك في مهاجرهم المدينة أمرهم الله بالقتال، فكانوا بها دائماً في حالة حرب مع الأعداء، فكانت المعارك سجلاً، والنفوس لا تظفر بالأمن، فصبر المسلمون



على ذلك ما شاء الله لهم أن يصبروا، وإوا الله من إيمانهم وثباتهم، ما يعز في التاريخ نظيره، يقول العلماء: ثم إن رجلاً من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلام: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لن تصبروا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملاء العظيم محتبياً ليست فيه حديدة»، وأنزل الله هذه الآية ﴿وَلْيَبْدِلْهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وصدق الله وكان تحقيق ذلك. ووعد الله لا يتخلف، وهو سبحانه المنان المتفضل ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

ولكن لابد من الالتزام الصادق الذي يعقب هذه الثمرات ويجعل الأمة أهلاً لنصر الله وتأييده وتمكينه، روى الإمام أحمد من طريقه عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة والدين والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب».

ألا إن حقاً على هذه الأمة، وهي لاآن على أبواب الحج والعمرة، ووفود الله تغذ السير لتؤم البيت الحرام حاجة داعية ملبية، إن حقاً على هذه الأمة وما دلت عليه سنة رسولها صلوات الله عليه وسيرته المطهرة، في طرد اليأس واقتران ذلك بالعمل الجاد الحازم والثقة بما عند الله، وأن يكون لها من الحوادث التي اقضت الماضج، حافز عودة صادقة إلى الله الذي تسعى وفودها إلى بيته الحرام، وفي ذلك ما فيه من ازالة الغشاوة، التي رانت على

كثير من القلوب ، وفيه ما فيه من اليقظة الإيمانية ، التي تباعد عن اليأس ،
وتدفع إلى العمل ، وتعيد إلى الخطيرة ما تفلت ، وترد الحق إلى أهله وذويه .
وإن الله بالغ أمره لا محالة ، وكل شيء عنده بحسبان .

ومن العبث العابث أن نكون أمة الإيمان والقوة والثقة بما عند الله ، ونظل
غافلين أو متغافلين عن منابع القوة والأيد . والله المسؤول أن يجعل الرحلة
إلى بيته الكريم ، حيث مرابع الهدى ، والأرض التي كانت مهبط الوحي ،
وموئل دعوة الإسلام ، وميدان الحركة لرسالة محمد -عليه الصلاة
والسلام- . . أن يجعل من هذه الرحلة المباركة بدء انطلاقة جديدة إلى إزالة
الركام ، والإعداد الصحيح حتى ننهي إلى النصر المؤزر . والله يقول الحق
وهو يهدي السبيل .



السباعي على طريق المعرفة والحق^(١)

ما كنت أحسب أن صوت النعي يقرع سمعي وقلبي فأجلس جلستي هذه
لأتناول القلم وأكتب عن الرجل العظيم مصطفى السباعي .

أجل ولم يكن يدور بخلدي أن يد المنون ستمتد إليه بهذه اللمحة الخاطفة
فينطفئ نور الحاية وتذبل الزهرة ويصوح النبت الجميل .

صحيح أن أبا حسان كان يعاني من مرضه العضال خلال سبع سنين أو
تزيد ولكن إيمانه المتوقد وأمله العريض بفضل الله عز وجل كانا يشعرا أنك أن
الرجل على طريق الأصحاء وفي خط متميز من صفوف الهانئين .

وما كان لي أن أزعم لنفسي أن حق أبي حسان يُقضى بكلمات أو سطور
فكفاء حقه كثير وكثير ولقد أصبح هذا الأمر ملك الأمة ، الأمة التي لا تجد
كل يوم أبناءها ، وليس في مقدورها وقد ضربت عليها الأيام بالاسداد أن
تأتي بالمثل لمن تفقد من رجالها وعلمائها .

وإذا كان وفاء حق أبي حسان ملك الأمة فإن كلمة نقولها اليوم لن تكون
إلا رمزاً لحرصنا الصادق أن تسلك مشاعرنا طريق الوفاء .

والحديث عن أبي حسان ذو شجون ولقد يكون من الخير أن أمسّ ولو
مساً رفيقاً الجانب العلمي من شخصيته العظيمة التي تعددت ملاحمها
وتنوعت ميادين جهادها .

وإذا كنت أسمح لنفسى أن أدير الكلام على هذا اللون من الحديث فلأنى أعتقد أن في ذلك مرضاة له وهو في مشواه الأخير - رحمه الله - فلکم كان حريصاً على أن تنشر على الناس سير أولئك الأعلام من سلفنا الصالح^(١).

ولقد كان - رحمه الله - القائد العالم والداعية المجاهد. وإن الحديث عن الجبابر العلمي في شخص هذا الرجل الفذ لا يعني استيفاء ما يمكن أن يقال، ولكن يعني الإشارة العابرة والدلالة على الطريق.

فلقد كانت ملامح العبقرية تلمع على محياه منذ حداثة سنة ونعومة اظفاره يشهد بذلك الأحياء من الاساتذة في حمص حيث أتم دراسته الابتدائية والثانوية وحظي بحلقات الكثيرين من العلماء.

وفي مصر كانت دراسته العالية فقد انتسب إلى كلية الشريعة وأشهد أن أساتذته كانوا يرون فيه أمانة العلام، وإخلاص المجاهد، وملامح البطل، ولقد سمعت من العلامة المرحوم شيخه الشيخ عيسى منون عميد كلية الشريعة في الأهر وشيخ رواق الشوام آنذاك خير ما يقال عن شاب تتوافر له كل مواهب المجاهدين من العلماء الذين يقوون على حمل الأمانة ويتقدمون الركب غير عابئين ولا هابيين ويشهد الكثيرون أن هذا الإنسان الكبير كان يتحدث عن السباعي حديث الواصل المطمئن فولده مصطفى جدير أن تفخر به ميادين العلم والمعرفة وأن تعتر بمواهبه وإخلاصه ساحات العمل والجهاد.

(١) كان - رحمه الله - حريصاً كما علمت منه قبل وفاته بيوم واحد على كتابة مؤلفاته ثلاثة هي، العلماء والأولياء، العلماء المجاهدون، العلماء الشهداء.



أما زملاؤه فسلوا عن شهادتهم به وسحن ظنهم فيه أخاه فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد الحامد الذي لا يفتأ يتحدث حديث القلب والعاطفة والمشاعر عن أيامه مع الشيخ مصطفى في الأزهر حيث العلم والمعرفة والتفتح المبكر والاخلاص لله عز وجل . وأذكر أنني التقيت بأحد أولئك الزملاء في القاهرة وهو اليوم أستاذ في إحدى جامعاتها فسألني بلهفة وحسرة وشوق : أصحيح أن مصطفى مريض ؟! لقد كانت صيغة السؤال ، ونبرات السؤال ، وكل حرف من هذه الكلمات توحى بما وراءها من حب صادق واعجاب كبير بالمسؤول عنه الذي أقعده المرض فكان الأسد الجريح . .

وحاولت أن ألتطف بالجوانب ولكن الرجل الذي كان يستمع إلى احساسه بالنكبة قبل أن يستمع إليّ بدأ يردد على مسامعي : «وأخيراً وقع مصطفى . . » وانطلق داعياً له بالعافية والشفاء ذاكراً أيامه معه وما كان يرجوه به من تلتف في الحماس وتأن في مراحل الكفاح . . وبصوت متهدج خافت أختتم كلامه بقوله كان الشباب يلهون ويلعبون ومصطفى يسابق الزمن في علمه معرفته ويحمل هموم العالم الإسلامي والمسلمين على كتفيه .

أما عن الآثار العلمية التي خلفها الأستاذ السباعي وأكثرها كتب أيام مرضه فهي جديرة أن تتحدث عن نفسها وتعطي الصورة الصادقة عن العالم مصطفى السباعي .

وإذا كان -رحمه الله- قد ضرب وهو الأستاذ في الجامعة بسهم وافر في أكثر الميادين فألف في الفقه والقانون وكتب عن حضارة الإسلام وتقدم الباحثين في العدالة الاجتماعية بطريقة علمية، لقد كان في مقدمة تصانيفه كتابه (السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي) ولقد ولد هذا الكتاب رسالة لنيل شهادة تخصص المادة من جامعة الأزهر (الدكتوراه) ثم شغلته -رحمه الله- ميادين الجهاد والتوجيه عن طبع الكتاب وتقديمه للقراء حتى طبع الطبعة الأولى في القاهرة بعد تنقيح يسير في أوقات اختلسها من فترات الراحة وهو في ذروة الألم والعناء.

والحقيقة التي لا مرية فيها أن هذا الموضوع لم يكن عملاً عادياً بالنسبة لأبي حسان بل كان صورة تعبر عما وراءها من رغبة صادقة مبكرة في الدفاع عن السنة المطهرة ورد عاديّات المعتدين عليها واسكات الألسنة الغافلة أو المأجورة التي تتناول روايتها من أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم وتعدو على الحقيقة في حكمها على سلف هذه الأمة وعلماء الحديث الأولين.

فإلى جانب البحوث المستفيضة الواعية التي لا غنى عنها لباحث يدرس السنة باعتبارها مصدراً من مصادر التشريع، نرى أن أبرز ما في الكتاب هذه الحرارة المتوقدة المنبعثة من لهيب المعركة، معركة الذود عن حياض هذا الأصل من أصول الشريعة فلقد عرض -رحمه الله- بأمانة علمية متأهبة لمواقف الأقدمين من السنة ثم جاء على ذكر المستشرقين ومن يدور في فلکهم



ويصلي في محرابهم . وإذا كان قد رسم الخطوط العريضة الملامح العامة عند تأليف الكتاب فلقد استطاع بعد بحث دائب وطول تجربة واتصال شخصي بالكثير من المستشرقين أن يفصل القول في هذا الأمر الخطير ويوضح جوانب المعركة التي تخوضها هذه الفئة ضد الفكر الإسلامي والأسس التي تقوم عليها مناهجهم الرهيبة ومخططاتهم الآثمة وقدم العلاج الناجع الذي به يمكن أن تعود الأمة إلى قيادة الركب من جديد وخصوصاً في ميادين الثقافة والفكر .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد تناول بالبحث الواضح والرد العلمي الدقيق كتاباً حديثاً لبعض المؤلفين قوامه التشكيك بالسنة والطعن بمنهج علمائها في النقد وتجريح صحابي جليل من كبار محدثي الصحابة وهو أبو هريرة رضوان الله عليه تجريحاً تقصر دونه سموم جولد تسيهر المستشرق اليهودي .

ولقد كان مصطفى السباعي في ذلك كله مثال العالم الخالص الأمين الذي أيقظ قلبه صوت النذير وحرك كوامنه احساس عميق بالنكبة فانطلق يكافح هنا وهناك .

رحمك الله . . يا أبا حسان لقد كانت رحلة طويلة وشاقة تلك الرحلة التي سلكت سبيلها إلى الله . كانت أياماً صعبة تلك الأيام التي صبرت لها وصابرت . وكان تليلاي سوداً تلك الليالي التي قارعت فيها أعداء الحق والإسلام ، فلا والله ما ألقى السيف حتى أستله منك المرض ، ولا خلعت

درع النضال حتى مزقه جفاف الشرايين ولكنك -والله يشهد- لم تتخذ عن الجهاد بديلاً؛ ففي القلب المؤمن العامر بالأمل والإيمان، مستعٌ لالقاء بذور الجهاد في كل أرض طيبة وفي القلم الحر الكريم الذي يرسم مداده الأسود خطوط النور ومعالم الطريق سلاح وأي سلاح. ولقد كان ذلك وكان أكثر منه وأوفر حتى وافتك المنية صابراً محتسباً مجادهاً وأنت تحرر كتاب السنة لتقدمه للطبع من جديد. وأخيراً إذا كان العلماء المجاهدون معالم في طريق هذه الأمة تهتدي بهم في ظلمات الحياة وتستنير بارشادهم في ماثات الزمن فإن فقيدنا العظيم يعتبر بحق واحداً من أولئك الذين أدوا حق الله في علمهم وقدموا لامتهم أثمن ما يمكن أن يقدم فنعم التقديم وأعطاها على دروب المعرفة والكفاح أعز ما يعطى فنعم العطاء.



الأستاذ المربي محمد خير الجلال^(١)

قضى الله أن يحمل إلينا النعي نبأ وفاة الأستاذ محمد خير الجلال في الوقت الذي كنا ننتظر منه أن يكتب في ذكرى وفاة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي -رحمهما الله- .

ولقد علمنا إيماننا أن نرضى بالقضاء ، وأن نحمد الله الذي خلق الموت والحياة على كل حال . فله الحمد سبحانه على ما أخذ وله الحمد على ما أعطى ، وأنا لله وأنا إليه راجعون .

وإذا كان الناس يوزنون عند الله بمقدار ما عملوا من الخير وقدموا من المكرمات ، أن الأستاذ محمد خير الجلال -رحمه الله تعالى وغفر له غبر حياته- فيما نعلم - مدرساً للتربية الدينية في ثانويات دمشق ، فمندرربع قرن تقريباً تولى تدريس هذه المادة ، وكان فيها مثال المدرس الواعي لمادته الفاهم لرسالته المدرك للأهداف التي من أجلها كانت المعرفة . وأشهد كما يشهد أكثر من عرفوه أنه أسهم في بناء جيل مؤمن يتمتع بحرقة صادقة على دين أمته وتاريخها ولغتها ، ويتطلع إلى المستقبل بعزم وإيمان .

ولعل لهناءة نفس الفقء ، وما كان يزينه من إيمان صادق وسعة صدر ، وأسلوب فطري أخاذا في التربية أثراً جعل منه ذلك الأستاذ المربي الناجح ، الذي كان له من طلابه وإخوانه أكبر قدر من المحبة والاحترام .

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العددان الثالث والرابع ، السنة السادسة ، ١٣٨٥هـ جمادى الأولى والآخرة .

ومن الخير أن نقرر أن الأستاذ الجلاد لم يقتصر على التدريس في المدارس، بل كانت له حلقات من التوجيه والتعليم، ولقاءات يجتمع خلالها إلى العديد من الشباب الذين تهفو نفوسهم إلى الخير والمعرفة والحق فيزودهم بالكثير من تجاربه الغنية، وتوجيهاته الصادقة.

وكان هؤلاء وأولئك يرون في توضحه وكرهيته للظهور وفنرته من بهرج العناوين والأضواء، مثلاً يحتذى وقدوة تتبع ولقد عرفت الأستاذ الجلاد في سنة ١٩٤٤ حين كان ناظراً في الكلية الشرعية (الثانوية الشرعية اليوم) وكنت إذ ذاك طالباً من طلاب السنة الرابعة فيها ولقد ترك في نفسي أثراً طيبة أرجو أن أذكرها ما حييت.

ولست أنسى أبداً آخر لقاء معه حين غمر الجالسين بفكاهته ودعابته على ما كان يعاني من آثار مرض أقعده الفراش مدة طويلة من الزمن.

ولقد دعوته حينذاك أن يكتب لقراء (حضارة الإسلام) عن الفقيد الأستاذ مصطفى السباعي ووافق مستعيناً بالله عز وجل وشرط أن يذكره لئلا ينسى... نعم لقد كان ذلك... وسارات الأيام وأردت أن أكدر أبا هشام بالمقال وإذا بالقدر يقول كلمته، فتقيض نفس إلى بارئها، وتنطفئ شعلة طالما أضاءت الطريق.

وبدلاً من أن يكتب محمد خير الجلاد عن السباعي أراني والأسى يملاً نفسي، أكتب هذه الكلمات الوجيزة المتواضعة عن الأخ الأكبر الغالي...
فلله الحمد أولاً وآخرأ. وإنا لله وإنا إليه راجعون، سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.



الأستاذ الجلاد في سطور

هو محمد خير بن عبدالقادر عزت الجلاد ولد عام ١٩١٢ م.

منح شهادة الأزهر العالمية مع الإجازة في القضاء الشرعي في ٦ شعبان سنة ١٣٦٣ (٢٦ يولييه) ١٩٤٤ .

منح شهادة الأزهر شهادة الأهلية للغرباء بتاريخ ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٥٦ هجرية ومنح الشهادة العالية لكلية الشريعة في جامع الأزهر في المحرم ١٣٦٢ هجرية يناير سنة ١٩٤٣ م.

بدأ حياته في التدريس سنة ١٩٤٤ م في الكلية الشرعية .

أسهم بتأسيس المعهد العربي الإسلامي والتدريس فيه كما أسهم في مدارس تعليم الأميين التي أقامتها جمعية الشبان المسلمين في دمشق .

كان يقوم بجولات خلال العطل الصيفية للوعظ والإرشاد في قرى لبنان واللاذقية وكان عضواً مؤسساً في أول جمعية تعاونية لبناء المساكن تأسست في سورية عام ١٩٤٩ وقد بقدر رئيسها لهذا العام أي لآخر حياته .

واقع وذكرى^(١)

يأخذ هذا العدد من حضارة الإسلام طريقه إلى القارئ الكريم، وحديث الساعة في العالم، ما كان من الصراع الدامي بين باكستان والهند حول (كشمير) وما آل إليه الأمر من وقف إطلاق النار، وارتقاب الناس جميعاً لما سيكون بعد تنفيذ قرار مجلس الأمن . . كل ذلك على وميض نار تطل من خلل الرماد، وتربص ماثل، وحذر شديد.

ولو أنا تجاوزنا حدود العقيدة التي تربطنا بكشمير، واغضينا عن كل شيء يصلنا بها، نرى أن كثيراً من الحقائق تبرز في حلبة الصراع لا يمكن لمنصف أن يتجاهلها، أو يغضي عنها.

إنه لم يكف باكستان أن أكثر دول العالم جانبت طريق الصواب، فكانت تبعث نداءاتها بوفق إطلاق النار، دون نظر للمعتدي الذي تسبب في إطلاق النار، ودون تساؤل عن الحقوق المسلوقة، والحريات المغتصبة، التي نشأ عنها الصدام وكانت الحرب.

لم يكف باكستان ذلك كله حتى أتفق الشرق والغرب في مجلس الأمن على لزوم وقف القتال، مع أن مجلس الأمن يعلم حق العلم، ويذكر ولا ينسى، أنه قرر بتاريخ ٢١ نيسان ١٩٤٨ حق تقرير المصير لشعب (كشمير)

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان الثالث والرابع، السنة السادسة، ١٣٦٥هـ جمادى الأولى والآخرة، إيلول تشرين الأول ١٩٦٥م.



واجراء استفتاء نزيه بعيد عن الضغط والتأثير ، يكون طريقاً لتأمين هذا الحق .

إن مجلس الأمن يعلم ذلك كله ، ويعلم معه أن الهند قد وعدت بتنفيذ قراره ذاك ، ولكنها لم يتف بوعدها خلال هذه السنين الطوال . . حتى لم يبق في القوس منزع ، وقامت قيامة الحرب ، وصرح وزير هندي مسؤول : بأنه لن يتردد في حرق جميع المدن الواقعة بين دلهي ومدارس ، شريطة أن تحترق باكستان أيضاً .

وليس من المجهول لأحد أن أكثرية السكان الساحقة في (كشمير) تدين بالإسلام ، فالمفروض إذا أرادت أن تنضم لاحدى الدولتين أن يكون الانضمام لباكستان ، ومع ذلك تصر الهند -زاعمة السلام- على أن (كشمير) جزء من أراضيها ، وتريد أن تغتصبها دون مراعاة لكرامة الإنسان ، أو لما يسمونه حقوق الإنسان ، تماماً كالذي يقال عن حقوقنا في (فلسطين) . ولكن لعل عذر الهند في ذلك ضيق أرضها وقلة عدد السكان !!!

إلا وأن مجلس الأمن يعلم أيضاً أن بعض الدول التي شاركت في قرار وقف القتال ، تقيم حروباً طاحنة لا تبقى ولا تذر من أجل أية مصلحة من مصالحها ، ولو أدى ذلك إلى إبادة شعوب بأكملها وتدمير بلاد شاسعة أهلة بالسكان والخير . . وهذه هي نفسها توجب الظلم الآن باسم السلام دون تأديب المعتدي ، ودون رسم طريق واضحة تضع الأمور في نصابها ، وترد الحقوق إلى أصحابها ، وفي منطق التجربة . . أي غرابة في ذلك؟ إنك لا تحبني من الشوك العنب !

وإذا كان شعارنا نحن المسلمين فإن ذلك لا يعني أبداً، رضانا باهدار حقوق الشعوب المسلمة. ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وأي حق أوضح من حق (كشمير) في تقرير المصير.

أبصر معي . . قبل سبعة عشر عاماً أو تزيد، اتفقت الكتلتان على تقسيم أرضنا (فلسطين) وكان من البلاء ما كان . واليوم تلتقيان على الوقوف ضد باكستان بجانب الهند المعتدية والتي تقيم عملياً علاقات قنصلية مع إسرائيل . . أليس لذلك من مدلول؟ . .

والآن . . ماذا علي إذا سرت خطوط أخرى لأذكر مع القرار مؤسس هذه المجلة الأستاذ المجاهد الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - . لقد مضى على وفاة الفقيه عام كامل ، مضى بساعاته وأيامه وشهوره . . مضى وكأنه طرفة علين أو سنحة خاطر ، وسبحان من وسعت قدرته الزمن وجل الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون .

وأراني أخط حديث الذكرى ، والوحشة تلمك علي منافذ القول ، وأكاد أشعر أنني في كهف غائرة بعيدة عن دنيا الناس ، ولكأني بالحادث الجلل غضاً طرياً ينزل الآن بكل أثقاله وملامحه . ولعل مرد ذلك أن نكبة الأمة بفقدان الرجال أوسع من أن تحصي أبعادها أيام أو شهور ، ولكن هذه الأبعاد رهن الزمن الطويل والأحداث المتلاحقة التي تنزل بمطارقها السود ، فكلما حزب الأمر وأشتد الكرب ، ذكرنا المجاهد البطل ، وكلما استبدت الدنيا وذرت بقرنيها الجهالة ، ذكرنا العالم الزاهد ، وكلما عصفت البلاد وثار ربح الفتنة ، ذكرنا الصابر الراضي المحتسب .



واليوم ونحن نعيش أحداث (كشمير) وغيرها مما ينزل بأجزاء كثيرة من
وطننا الكبير، نذكر مصطفى السباعي نذكر يوم كانت تقيمه الأحداث
وتقعه حتى أنك لتشهد في تصرفاته قول شاعرنا العربي :

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

والشوق إلى لقاء الله في لهيب المعركة أجمل ما يزين المؤمن الصادق
الذي يسمو به إلى الغاية قول الرسول الكريم -صلوات الله وسلامه عليه- :
«ما من مكلم يكلم في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب دما
اللون لون الدم والريح ريح المسك» .

وتمضي بنا الذكرى لنرى السباعي يتحدث مرة -والدمع يتدافع في
محياء- عن نكبة من نكبات المسلمين في هذا العصر، فيقول والوهج في
أعصابه وعلى ملامحه مؤكداً قوله بالقسم «ما أكاد أحمل طفلي الصغيرة
لأقبلها مرة منامرات إلا ذكرت أطفالاً لاخواننا فقدوا آباءهم أو أنهم في
الطريق لفقدانهم . . فأدع طفلي وقد شرقت بدمعي وأمضي لشأني . .» .

لقد كان -طيب الله ثراه- واحداً من أولئك الذين يرون في كل شبر من
الوطن الكبير قطعة من أنفسهم، وفي كل طفل من أطفال المسلمين واحداً
من فلذات أكبادهم . . ذلك هو المنطلق، الأرض هي -على البعد- أرضنا،
والمصاب هو -على تنائي الديار- مصابنا .

فما لكان لنا أن نلهو والألوف من اخواننا وأخواتنا نهارهم أسى وليلهم
عذاب، وما كان لنا أن نضحك والملايين يملاً دنياها العويل .

وهل يستوي في ميزان الرجولة ، سواعد تحمل الدمى ، وسواعد تمسلك بالمدافع . وهل يستوي في قانون الكرامة والبقاء نساء يرقصن على ألحان المجون ، ونساء تتعالى أصواتهن أمام المجاهدين بالتكبير ، ويزغردون للشهداء تحت لعة الرصاص .

لله ما أشد احتياجنا اليو إلى الإيمان وخلائق الرجال رحم الله أبا حسان ، وكتب له في دار كرامته ثواب المتقين الأبرار .



حين تعرف الأمة رجالها^(١)

على بركة الله نقدم هذا العدد الخاص عن حياة فقيه الإسلام والمعرفة الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - .

وإنما كان ذلك - وهو قليل مما يوجبه الوفاء - لما أن من الأمانة لهذه الأمة - وهي تعاني ما تعاني - أن نكون على معرفة بأولئك العاملين فيها، الأمانة على عقيدتها، الأوفياء لشرعتها ومبادئها .

فما أروع أن تعرف الأمة رجالها، تقي بهم نفسها عوادي الزمن، وتصلح على إثرهم ما تتعثر به من زلات وأخطاء، لما يأخذون بيدها إلى ميادين الكرامة والأيد، وما يحفظون عليها من أمر دينها الذي هو قاعدة البناء .

وأجدر بهذه المعرفة أن تساعد في وضع الأمور مواضعها، من أجل تقويم المكان الطبيعي الذي يجب أن يأخذه كل واحد من أبنائها على طريقها الشائكة الطويلة، وفي ميادين العمل على تحقيق رسالتها في العالمين .

وليس بشيء أضرَّ على هذه الأمة في دينها ودنياها، من أن يلبس عليها أعداؤها، أو العاقون من ذويها، فتعجز عن تصور القيم التي على أساسها تبنى منزلة الرجال، وفي ضوئها يحسب حسابهم من الطاعة والاتباع .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالث، السنة العاشرة، ١٣٨٩ هـ جمادى الأولى، تموز - آب ١٩٦٩ م .

وفي بيان مشرق لأبعاد هذه الساحة التي نشير إليها بهذه الكلمات ، أوحى الله إلى نبيه محمد -عليه الصلاة والسلام- قوله جلَّ وعزَّ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فكان تعليمه ما لم يعلم هو الفضل الذي لا يغفل عن عظيم قدره إلا غافل ، ولا يحدُّ سعة مدلوله إلا جاهل مسكين . أعلنها القرآن واضحة بعيدة عن التشبيه والتلبس ، لتكون في مرتبة التكامل مع مظهر من مظاهر الرسالة ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

لقد وقفت وما بي من حاجة إلى تلمس الحقيقة التي تكمن وراء هذا الهدير الذي يقرع القلوب في حياة فقيدنا الكبير الشيخ محمد الحامد - رحمه الله - .

فالرجل الذي يهب نفسه للعلم والمعرفة ، ثم يجعل من سلوكه وعمله وجهاده بلسانه وقلمه صورة حيَّة صادقة لما يعتقد ، هو رجل جدير بكل هذا الهدير الإيماني المعبر ، حري بأن يكون مثلاً يحتذى ، وأسوة تتبع ، ولا نتألى على الله فالعصمة للأنبياء عليهم -الصلاة والسلام- .

وليس من مكرور القول أن نذكر بأن أمتنا قد أعطت للفرد قيمة كبرى في ميدان النقل العلمي خصوصاً لما يكون من سنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، ومن هنا ومن أجل هذا الغرض كيما ينقل الحديث بالسند الصحيح كان علم الرجال ووجد علم الجرح والتعديل الذي يقوم على الوضوح والأمانة دون محاباة أو مصانعة في الحق .



والشيخ الحامد أجزل الله مثوبته واحد من أولئك العلماء العاملين الذي وضعهم في التاريخ على قمة المرتقى في تاريخ الأمة الحديث ، فقد أكرمه الله بأن كان موضع الثقة في النقل ، وموضع الحجة في العمل ، وموضع القدوة للعلماء زهداً في الدنيا ، وصدعاً بكلمة الحق ، والتحلي بما من شأنه أن يحفظ على العالم -والعلماء ورثة الأنبياء- كرامته التي هي من كرامة الأمة .

ولن يعوزك البحث لتجد في كل واحد من تصرفاته ما ينبغي أن يكون عليه العالم رغباً ورهباً ، من تحقي لشأن كل منصب يمكن أن يعوقه عن أداء رسالته في الحياة ، ولو كان هذا المنصب قد ألبس لبوس الدين ، في وقت تشابهت فيه الأمور ، وساد في أرجائه الكثير من تمويه إبليس .

ولم يكن هيناً من الأمر أن يحل الرجل نفسه في شؤون الدنيا على المركب الخشن ، فقد كان هذا دليل علو الهمة والانتصار على النفس الأمارة بالسوء ، لأن الزهادة في الدنيا أمر -بمفرده- سلاح يقاتل ، ونور يضيئ سبيل العالم إلى قوة التأثير والقدرة على فتح مغاليق القلوب .

والشيخ محمد الحامد -على تعدد جوانب شخصيته التي ترى فيها الجِدَّ الجادَّ، والتحقيق العلمي، والغضب لله عز وجل، مع النكتة الباردة، وموهبة الشعر التي لو تسنى لها أن تأخذ طريقها الطبيعي لرأينا العجب العجاب .

استطاع في هذه الحقبة التي عاشها أن يكون فيصلاً بين العالم يتخذ العلم صناعة تُكسب الجاه والمال ومرضاة السلطان ، وبين العالم ، يجعل من علمه زلفى إلى مرضاة الله وطريقاً إلى الجنة .

والرائع حقاً وراء ذلك كهل ، ما كان من الوعي الكبير لطبيعة العمل الإسلامي في العصر الحديث ، ذلك الوعي الذي اتسمت به تحركاته -رحمه الله- منذ كان طالباً في الأهر سنيّ شبابه الأولى .

فلقد شهد بقلبه وعقله المرحلة التي تمر بها الدعوة الإسلامية ، وكان على إدارة تام لما يجب أن تكون عليه الطريق التي ينبغي أن تسلك لتحمل أعباء الدعوة ، في ظروف تستدعي الكثير من الإخلاص والمعرفة ، والنظرة الجماعية إلى الموضوع .

ذلك أن الدعوة الإسلامية في هذا لعصر قد ورثت تركة مثقلة بالكثير من العناء ، نتيجة بعد المسلمين عن دينهم في منابعه الأصيلة الصافية ، ومجافاتهم للمنهج الإسلامي الصحيح في مجال الفكر والحياة .

والعدو -وقد أمسك بزمام الحضارة المادية- يبتدع في محاربة الإسلام كل يوم سلاحاً جديداً ، ويبنى مؤامرة جديدة ، وكثراً ما يحاول الإتيان على البناء من الداخل ، على أيدي من ينتسبون إلى الإسلام ويتسمون بأسماء بني جلدتنا وقومنا في ساحة من البهتان والزور .

كان هذا -وغير كثير- أوجب العمل على تكوين قاعدة صلبة أمينة يقترب فيها الإيمان بالإعداد الصادق وحم مسؤولية الجهاد ، بحيث يكون الإسلام مع الفرد والجماعة التزاماً في كل خطوة وفي كل حركة ، على إيجابية تباعد عن القاء الحبل على الغارب ، وعن الاستغناء بالهدم عن البناء ، ثم الإكتفاء بتجريح الآخرين عن إلزام النفس بما ألزمها به الإسلام .



ومن خلال القناعة بتكوين هذه القاعدة التي يكون في مقدورها -مستعينة بالله- أن تحمل الإسلام عقيدة لا تشوبها شائبة، وفكراً نيراً لا ينغلق دون الانتصار العلمي، وجهاداً لا يقف دونه حب الذات وعبودية الشهوات . . أقول: من خلال القناعة بذلك وجدنا الفئدة -رحمه الله- يمارس العمل الإسلامي ويعيه وراء حدود الكتاب ومقررات الإمتحان في الأهر، حيث جمعه الإخلاص والوعي إلى أولئك الذين وهبوا أنفسهم لقضية الإسلام، على أساس أنها القضية الأولى التي يجب أن يحيا لها الرجال. رافق ذلك قناعة أن الكفر كله ملة واحدة، وأن الوثنية اليوم بشتى ألوانها ومظاهرها وعناوينها الخادعة وغير الخادعة تحاول جاهدة مجتمعة الكلمة موحدة الصف أن تجهز على الوعي الإسلامي، مهما كلفها الثمن . . . أني وجد هذا الوعي أو لاحت بارقة تدل عليه .

وإذا كان أمر الدعوة الإسلامية اليوم ليس كلمات يلهج بذكرها للسان، ويتفكه بها في المجالس، ولكنه إخلاص وحسن تصوير، وحمل أعباء، ومعرفة بالأرض التي قسم الداعية أن يغرس فيها بذور الخير، وإحاطة بالواقع الذي تعيش الأمة فط ظلاله، وإدراك لما عليه العالم اليوم في أفكاره وعمله وتطوره الحضاره، إذا كان أمر العدو الإسلامية اليوم كذلك، فما أيسر أن تتحول الدعوة إلى دويلات صغيرة هنا وهناك، ولكن ما أعظم أن يكون الداعية علي وعي وإخلاص يحملانه على الشمول في نظرته إلى الساحة التي يجب أن يكون عليها العمل في ظل دعوة لا تعرف الإقليمية والإنحسار.

وكذلك كانت نظرة الشيخ الحامد -رحمه الله- وكذلك كانت معالم توجيهه وإرشاده لمن ولاه الله أمر توجيههم وإرشادهم ، فعبثاً تحاول أن تجد عند أولئك الشباب لاذنين سعدوا الانتفاع بعمله وعلمه نزعة انطواء عن الخط العام الذي يجب أن تلتقي عليه القلوب ، بل العكس هو الذي يكون دائماً ، صورة عن قناعات الشيخ -رحمه الله- فقد كان همه أن يعدهم علماً وإخلاصاً وسلوكاً من أجل أن يكونوا للأمة ، يسلكون لنصرتها الطريق الجماعية الواعية التي تتسم بالإحاطة والتكامل ، ويخرجون إلى الناس نماذج حركية للشباب المسلم الذي يحمل من العقيدة ، صفاء الفكر وسلامة الإدراك لخصائص التصور الإسلامي ، وتتقد بين ضلوعهم روح العمل والجهاد .

رحم الله الشيخ الحامد فلقد كانت هذه الرائعة من خصاله أوضح ما تميزت به شخصيته عند لداته وأقرانه وأقوى ما استعلى به في ميدان الرجولة والوفاء في زمن قلَّ فيه الرجال وعزَّ للدعوة الإسلامية الوفاء .

وكل ما ذكرنا من خلاله -رحمه الله- كانت روافد لهذه الرائعة العظيمة ، ذلك أن وعيه للعمل الإسلامي وما كان من إنعكاس ذلك على الأبعاد والمنطلقات في سلوكه وتصرفاته ، جعل لكل من تلك المزايا والخلال معنى جديداً ، حتى بدت كل خصلة وكأنها رجل جديد يعمل للإسلام علماً وعملاً وجهاداً .

بل إن استامته تصوره لطريق الدعوة كيف يجب أن يكون ، جعل من كل واحدة من تلك الخلال سلاحاً يقاتل في معركة الإسلام التي تتحرك على



صعيد عالمي . فليس الأمر أمر (محمد الحامد) ولكنه أمر رائد من رواد القافلة المؤمنة التي تسربت على مر الزمن نسيجاً من النصال التي يتكسر بعضها على بعض وباتت كل يوم تقدم شهيداً يزيد في وضوح الرؤية وتحديد معالم الطريق .

وسيلظل أمر المعركة كذلك مادام العدو ، هو العدو وما دام الدين الذي يراد العمل لإعلاء كلمته هو مضمون قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ حتى يأذن الله بالنصر .

فما لم يكن ديناً يومذاك فليس - كما قال الإمام مالك - اليوم بين . إلا أن يكون شيئاً مبتدعاً مخترعاً من عند بعض النفوس لا صلة له بالإسلام والعياذ بالله .

ألا إنه ليس كثيراً على العايات الكبار ما تجود به النفوس الكابر وفي مرضاة الله تعالى تهون الصعاب . . ويستعذب الموت فقد أقعد الشيخ الحامد - رحمه الله - مرضه الذي كان نتيجة طبيعية للجهد المتواصل ، وما يرهقه من حمل أعباء أمته وما يؤرقه من همومها ولياليها السود . حتى قضى على حال نحسب عند الله أن يكتب فيها من شهداء العلماء ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً .

وبعد : فسيظل هذا الرجل حجة على كل أولئك الذين يرهبون حمل الراية ، ويجنحون إلى السلامة تحت وطأة تسويلات وتأويلات ، وعلى كل أولئك الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ويقدمون للأمة ركاماً من الزيف

والإنحراف وسوء التأويل ، يسمونه (سماحة الإسلام) وينصرفون عن كلمة الحق باسم (الحكمة) والأمل في أن يجنوا من القتاد شيئاً غير الشوك . ولله عاقبة الأمور . وما كان ربك نسياً .



نصيحة لا بدّ منها..^(١)

يغالبنني على القول كلام ما أحسبه تاركى حتى يأخذ من كبدي ما يشاء ذلك هو حديث تلك الحال من الضياع الذي تعانية أمتنا صورة عن هول المطارق التي تدق بهولها العقول والقلوب صباح مساء .

وليس من مكرور القول أن نذكر بأن من الأغراض التي يرمي إليها أعداء الأمة بكثير من المنهجية والتدبير ، أن تظل هذه الأمة في دوامة من النصب والتعب لا تنتهي ، كيما يخرج بها ذلك عن دائرة البناء في ظل الرسالة التي أكرمها الله بنظامها فكانت به خير أمة أخرجت للناس .

ولو أنك تجاوزت ما تعانية الأمة اليوم مع (يهود) وما ترى العين وتسمع الأذن من آثار شاهدة على الأذى والإصرار على العدوان والسلب والاعتصاب بمعاونة الطوافين حول الأرض والصاعدين إلى القمر . . لو أنك تجاوزت ذلك إلى أي بقعة من وطننا الكبير لوجدت علي كل أرض من تلك البقعة ما يراد به الضياع ، وما يراد منه أن تكون الأمة على حال من الحيرة بين «عود على بدء وبدء على عود» ، وخذ لذلك من المترادفات ما شاء لك الفكر ووسعتك الحقيقة بله الخيال . .

هذه حقيقة ماثلة لا ينكرها إلا مكابر ولا يتجاهلها إلا من كان بينه وبين النعمامة نسب متصل أوثق الاتصال . . ولسنا نبغي من وراء ذلك أن يكون

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان الخامس والسادس، السنة العاشرة، ١٣٩٨هـ شعبان، إيلول-تشرين الأول ١٩٦٩م.

أكلام معوانا على التشاؤم أو اليأس ، فاليأس من روح الله لا يلتقي مع الإيمان بنصره وتأييده إذا نحن سلكنا للغاية سبيلها ، وللنصر طريقه التي رسمها الإسلام .

ولكن الذي نبغيه أن أي أمة من الأمم إذا تجاهلت الحقائق ورضيت من الذود عن حقها بالأماني ضاعت عليها المعالم وتعثرت في طريقها أو تعثر بها الطريق . إن من العجب علاجاب أن تحيط بنا نحن الغفلة وتنطلي علينا الحيلة ، ونقع في شرك الاستجداء ، فنحن أمة - ولله الحمد والمنه = أكرمها الله بالإسلام فكانت مبادئنا قرآنا يتلى في المحاريب ، ودروساً تلقى على منابر العلم ، وحركة حضارية تضع الإنسان بطاقاته وأهليته وتكوينه في مكانه الطبيعي من البناء فأني تلفت اهتدى بمعالم هذا الإسلام فلا يضل الطريق ولا يشقى على مدى الأيام .

وإذا كنا ننتظر من أعدائنا أن يسقطونا من حسابهم ، ويدعوننا وشأننا ، نستمتع بالحياة ، ونسير في طريق البناء ، فهذه أحلام لا طائل تحتها هي أشبه بوساوس الذي يريد أن يجني من الشوك العنب . إنك لو سميت الثعلب بألف اسم واسم ، وزخرفت ولوّنت ، فلن يكون في تعامله ومخططاته إلا الثعلب ، إذ أن كل الذي صنعتته من الزخرف لن يغير من حقيقته شيئاً .

وإذن فالذي يجب أن يأخذ مكانه الطبيعي من اهتمامنا - مع القضايا الراهنة التي تفرض نفسها على الأمة - إنما هو التفتيش عن ذاتنا وكياننا ، وهويتنا بين أم الأرض ، على أساس من المنهجية المثمرة التي تضع في



حسابها كل عنصر من مقومات هذه الأمة ومنابع حياتها وأمجادها في تاريخ بني الإنسان . ولن يكون ذلك إلا في ظل الإسلام كما جاءت به منابعه الأولى في كتاب الله وبيان رسول الله وفهوم أئمة الهدى من علمائنا الأولين .

وهذا الذي يمكن أن ندعوه تحديد الموقف الذاتي كان من أوليات المسائل التي جاءت بها دعوتنا الطاهرة المجيدة ، ومن الكليات الأولى التي على هداها قام البناء ، وثبت أصل الشجرة ، التي فاء إلى ظلها التاريخ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

فمن أول الطريق في العهد المكي حيث ابتلاء المؤمنين يذر قرنه هنا وهناك وسدنة الوثنية يحاولون بشراسة أن يحولوا دون بزوغ الفجر الجديد ، والمساومات تلقي بثقلها على أرض الموحدين . . من أول الطريق يومذاك نزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ .

وبعد فتح مكة حيث فرح المؤمنون بنصر الله ، وأزبح من حول الكعبة ظلام الأوثان وعبدة الأوثان . . بعد فتح مكة ينقض المشركون عهداً كان بينهم وبين المسلمين فينزل قول الله تعالى : ﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ﴾ .

فكانت البراءة خاصة بأولئك الذين عاهدوا ونقضوا العهد ، ولكنك لا تكاد تنتهي من قراءة الآية الأولى حتى تطالعك الآية الثانية بحكم عام يقول

فيه الواحد القهار: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ .

ولعلك لا تجد نصباً في أن تعمل فكرك للربط بين نزول سورة (الكافرون) أيام الخطوة الأولى في العهد المكي حيث الشدة والبلاء وتهديد القلة المؤمنة بالفناء، وبين نزول فواتح سورة التوبة بعد أن ارتفعت راية التوحيد على ربي مكة وعلا هدير الكلمة المسلمة في تلك الربوع والاصقاع.

ومن هنا كنت ترى أن الخطاب القرآني للجماعة المسلمة لا يهادن ولا يتهاون في شيء من حرارة التذكير بالقاعدة اليت لا يجوز المساومة عليها أو التغاضي عن ساحتها ومدلولها، لأن بها حفظ كيان الأمة، وسلامة طريقها إلى الغاية، والحيلولة بينها وبين أن يصيب الأعداء منها مقتلاً، أو يوقعوها في شرك الغفلة، ومصائد شياطين الإنس والجن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفَرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انفَرُوا جَمِيعًا﴾ (٧١) ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ (٧٢) ﴿وَلَنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧٣) ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٧٤) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ (٧٥) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ .



ما أحسب أن عاقلاً يرى هذا الوضوح في الخطاب، وحرارة اللقاء في روح المؤمنين وقلوبهم، وربط كل جزئية بالكلية العامة التي هي المحور الأولي، ثم يخالجه شك في أن طريق الأمة إلى الخروج من ظلام دوامتها في وطننا الكبير إنما يكون بالعودة الصادقة إلى المنطلق الذاتي لها والذي يترد إلى قاعدة البناء التي جاء بها هذا الخطاب القرآني.

والكشف عن نقاط الضعف في الصفوف يهتك أستار المنافقين ولا كرامة، لأن الطريق في أشواكها وبعد مراحلها، وعزة غايتها لا تحتمل مهادنة ولا مهادة ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (٧٧) أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾.

إن الوقائع بحرارتها وعنفوانها، ولؤم الأيدي التي تحركها جديرة أن تلفتنا عن طريق الضياع، لنصبر معالم طريقنا التي دعانا محمد بن عبد الله -صلى الله عليه وسلم- أن ننتهي إليها، والليالي حبالى بالحوادث، وفي كل صباح يطلع عليك نبأ جديد.

وإذا انتهينا إلى تلك المعالم ووقفنا حيث ينبغي أن تقف الأمة التي تدرك أصالتها وذاتها، كان من أبسط النتائج إعطاء الحكم الصحيح في كل جزئية

تعرض ، وذلك بردها إلى أصلها الذي خرجت منه ، وعند البحث ترتد إليه . لأننا ننظر بمنظارنا نحن ، لا بمنظار يوضع على أعيننا ويراد منا أن نبصر من خلاله . فموقفنا من يهود وموقفهم منا ، لا يحتاج إلى إيضاح أو تبين . إن حريق المسجد الأقصى - على سبيل المثال - تلك الجريمة التي لا يدرك هولها إلا من كانوا من بني الإنسان بالمعنى الصحيح ، هذا الحريق نتيجة طبيعية لوجود الأقصى تحت سلطانهم وفي ظل أنظمتهم وقوانينهم ، فما الذي أنت ناظره من هؤلاء حين يكون الأقصى تحت سلطانهم؟؟ خصوصاً إذا تذكرت أنهم الآن يحاولون من خلال عقدة أصبحت مرضاً موروثاً على الأجيال إثبات أن من واجبه إعادة بناء هيكل سلمان الذي يزعمون وجوده تحت المسجد الأقصى ، وإن المسلمين غاصبون للأرض التي عليها الهيكل ، إنهم يريدون أن ينتقموا من الأيام الطويلة خلال عشرات القرن - ومن التاريخ الإسلامي بخاصة - في كاین أصحاب الأرض التي يحتلونها والمسجد الذي مسري سيد العالمين محمد - صلوات الله عليه - .

لقد يكون مفيداً أن نشير العالم ونفتح الأعين المغلقة على هذه الجريمة ، ولكن احتلال المسجد في الأصل أشنع منها وأبشع ، ويمارس اليهود تحت سقف هذا المسجد الذي هو ثالث الحرم ، والذي تعدل الصلاة فيه خمسمائة صلاة في غيره . . يمارس اليهود أشنع أنواع الأذى والخلاعة والميوعة وما هو من أخلاق الخنازير ، وأصبح ذلك أمراً مشهوراً ومعروفاً . أن حريق جدران المسجد ليس الحريق الوحيد ولكنه واحد من ألوان الحريق التي تصيب مسجداً وأرضنا كل يوم .



ومن جهة ثانية فإن جلاء الحقيقة المرة والكشف عن جوانبها لا يهابه إلا ضعفاء النفوس . فأي تقدير حقيقي كنا نمنحه لهذا المسجد من قبل ، وكم كان عدد المصلين الذين يؤمنونه في الصلوات الخمس؟؟ ما أحسب أن الجواب مرض عن هذا التساؤل . بل قد يدخل بعض من لا خلاق لهم على غير وضوء لحاجة تتعلق بمصالحهم الخاصة لا بمرضاة الله عز وجل .

وكأين من مسلم في أقطار العالم الإسلامي لا يدري ما هو السبب في قداسة هذا المسجد ، وأنه ثالث الحرم ، وأن الحديث الصحيح قد أثبت أن الصلاة فيه تعدل خمسمائة صلاة ، وأن الأهمية البالغة وراء هذات كونه المسجد الذي اختاره الله لرحلة الإسراء من المسجد الحرام إليه فالقضية لا ترتد إلى التاريخ فحسب ولكنها مرتبطة بالعقيدة قبل كل شيء .

إن القيمة الدعائية لموضوع ما في ميادين أخرى غير مياديننا إنما تؤتي أكلها إذا نحن حرصنا على أن نكون على أرض المعرفة والإيمان والإدراك للقضية التي نتحدث عنها بالإيجاب أو السلب . وإن النصيحة لله ولرسوله وللأمة تقتضيها ، والحرمات تستباح ، والمقدسات تنتهك ، والاصرار على العدوان والتشريد والاعتصاب قائم من العدو ومن وراء العدو أقول : إن النصيحة تقتضيها أن لا نغفل الجانب الأساسي من جوانب قضية من قضايانا فنمارس ما يشه إحراق القيم ، وهذا كما قلت من أبسط النتائج التي تشرها النظرة الذاتية الأصيلة ، والتحول عن طريق الضياع .

إن للإسلام كلمة قالها قبل أربعة عشر قرنا في (يهود) ولقد سجل القرآن

ذلك بآيات تتلى حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وبينت جوانبه وأوضحت معالمه السيرة النبوية بما لا يدع زيادة لمستزيد. والإسلام يدعونا لأن نفتح قلوبنا وأعيننا على ذلك، وأن نغذ السير إلى حيث المرتقى الصعب والغاية البعيدة غير عابئين بما يوجب ذلك من تضحيات وبذل، فالله لا يضيع عمل عامل، ولا ينسى عنده مثقال ذرة، وألا نكون القينا بيدنا إلى التهلكة وقد نهانا سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

إن الإسلام المنقذ القادر على تحويل العواطف إلى أعمال يطالبنا اليوم بالوفاء.

فالمسلمون اليوم: فريق يعرض عن الإسلام، وفريق يحمله للدعاية والاستغلال، وتحارب الفئة الثالثة.

والحق أن عودة صادقة ذاتية إلى السلام على أساس منهجي سليم بعيد عن الأغراض القريبة التي تعقد لها المؤتمرات الرسمية وتجمع لها الجموع هي الكفيلة بأن تسلك بنا سبيل الإعداد الصادق بكل مجالاته ومفهوماته، لا لنتنصر على يهود وغيرهم فحسب، بل لنأخذ دورنا الحضاري البناء من جديد. ذاكرين دائماً قول الله تعالى في قيمة القتال والمقاتلين في سبيل الله: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقوله جل شأنه في بيان أن الله لا يغير ما بقوم من النعمة والتمكين في



الأرض حتى يغيّروا ما بأنفسهم فإذا استأنفوا طريق الخير عادلهم النصر
والأمن والتمكين: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ . والله
غالب على أمره وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

أحشأ وسوء كيلة^(١)

هذا مثل تضربه العرب لمن يجمع بين خصلتين مكروهتين، فمثل من يكون كذلك مثل من لا يكتفي ببيع أردأ أنواع التمر - وهو الحشف - وإنما يجمع إلى ذلك سوء الكيل أيضاً. والذي أعنيه كائن وراء هذا الذي أقول؛ فأنت واجد إذا أنعمت النظر أن هناك صنفين من البشر تبدو في سلوكهم صلة القربى مع هذا المثل الواضح المستبين.

أما النصف الأول: فهو أولئك الناس الذين يقعدهم جهلهم أو عجزهم عن تحمل تبعات الإسلام في صفائه ودعوته إلى استقامة العمل والوقوف عند حدود الله عز وجل. فيحملون الإسلام نفسه حصيلة جهلهم أو عجزهم عن الاستقامة على الطريق التي قد تكون من الوعورة بحيث يهابها ضعاف النفوس، ويرهبها الذين يثقلهم حب الشهوات والعافية والطمع في العاجلة والغرض القريب. فبدلاً من التنقيب عن المرض الذي به قعدوا عن مسامرة ركب الإسلام، والأمانة في التزام حدوده، تراهم ينعون على الإسلام أنه غير صالح للحياة، أو أنه لا يسابر ركب التطور. . . أو. . . وقد يذهلك التعداد بشعبه الشيطانية وألوانه المخزية.

ولو أن هؤلاء نفر من الناس استطاعوا أن يتحرروا - ولو بعض الشيء - من عبوديتهم لغير الله جلّ وعز، وتزوّدوا بشيء من المعرفة، وأضاءت

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الرابع، السنة العاشرة، ١٣٨٩ هـ جمادى الآخرة، آب - إيلوب ١٩٦٩ م.



نفوسهم بقبس من نور التقوى والهداية، لسكّم لهم وضوح الرؤية وأبصروا الأمور على حقيقتها، وأدركوا أن العلة لا تكمن في هذا الدين الذي أكمله الله، وأتم به النعمة، ورضيه لعباده أجمعين. ولكن تكمن في أنفسهم هم، ولأيقنوا أنهم هم موطن العلة التي باضت وفرّخت في عقولهم وحوّلت طاقاتهم إلى نزوات وشهوات.

فهؤلاء الصنف من البشر بدل أن يستأنفوا الطريق لإصلاح الخطأ يجمعون إلى جهلهم أو عجزهم، اتهام الإسلام، تبرئة لنفوسهم الجاهلة العاجزة المريضة وتسويغاً لما يكون من انحرافهم عن جادة الصواب، والعياذ بالذي قال في كتابه -وهو أصدق القائلين- ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

أما الصنف الثاني. فهو أولئك الذين يمثلون ظاهرة التخلف عن طريق الإسلام في دعوته إلى العلم والمعرفة، والانهمزام النفسي أمام انتصارات أولئك الذين يمسون اليوم بزمام الحضارة الحديثة، وقد جمعوا العلوم المادية من أطرافها، وباتوا يطالعون العالم كل يوم بجديد.

فهؤلاء لا يحملون جهلهم وانهمزامهم ويسكتون، بل يحاولون أن يتمسّحوا باذيال الإسلام فيفترون عليه الكذب بما يكون من قاتلهم: الدين لا يرضى بالصعود إلى القمر مثلاً، وهذا أمر يجوز، وذاك في نظر الإسلام لا يجوز... إلى آخر ما ترى وتسمع من الجود بالفتاوى وطرح الأحكام.

ويا عجباً لأمر الجل ماذا يصنع بصاحبه، يورده موارد الهلكة، ويسلكه في قطع التائهين . . ولو أن الأمر في تصرف الجاهل يقتصر على دائرة شخصية ضيقة، لهان الخطب، ونفعت الحيلة، ولكن الأمر يتعدى إلى دائرة أوسع وأشمل هي دائرة الجماعة، والطامة الكبرى في أولئك الذين يلصقون بالدين زوراً بهتاناً وغدّي تاريخها الحضاري - بل تاريخ الإنسانية - عبر قرون وقرون، هذا الدين . . يحاول بعض الناس أن يكسوه لباساً نسيجه جهلهم وبلاهم ليبنوا للجهالة صرحها الذي يضمن استمرارهم على ما هم عليه، وليسوغوا ذلك الانحراف الذي يستربلونه، حين بات لعودة إلى مفهومات الإسلام الصحيحة، والتزود بشيء من العلم والمعرفة من الزمور التي يتجافون عنها، وكأنما ضرب بينهم وبينها بسور لا يقضى عليه حتى يلفظوا أنفاسهم فيستربحوا ويريحوا، وتبارك الذي أنزل فيما أنزل على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ .

وأود - بجانب ذلك - أن أؤكد ضرورة التبه إلى الإنهزام النفسي الذي أشرت إليه من قريب، لأنه أمر في غاية الخطورة على حياة الأمة حين ننظر إلى الأمد البعيد، ونحاول أن نضع القضية في إطارها الطبيعي .

ولعل ذلك كله هو السر الذي يكمن وراء الغشاء الذي تلقىه بعض الأفواه باسم الدين، وتلقيه بعض الحناجر على منابر المسلمين في موضوعات تعرض - فيما تعرض - لأحدث مرحلة علمية وصل إليها فكر هذا الإنسان المخلف، حين استطاع بعد أن زحف مئات ومئات الألوف من السنين أن



يصعد إلى القمر الذي قدره الله منازل، والذي يفصل مركزه عن مركز كوكبنا الأرضي مسافة تبلغ نحو ٤٠٣, ٣٨٤ كم.

والذي يحز في النفس، أن هذا الغشاء يتمثل في قول بعضهم: الصعود إلى القمر حرام، وقول آخرين من قبل: هذا أمر لا يمكن أن يكون، وأمر ثالث بعد هذا كله، هو ما أصاب بعض النفوس الجاهلة أو المريضة من تعب حيال القضية الإيمانية الكبرى في وجود الله وقدرته سبحانه وتعالى، ناسين أنه عز وجل هو القاهر فوق عباده وأنه بكل شيء محيط وأنه هو الذي أودع في لاكون ما أودع من خصائص وسخر ذلك للإنسان.

إلا إن القول بهذا كله، أو بشيء منه جهل بالعلم والإسلام معاً، ولو ذكرنا إن الإسلام بدأ رسالته على الأرض بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ وأن الآيات التي تكرم العلم وتحث عليه بلغت الحد والوافر في كتاب الله تعالى، وأن رسول الله كان من وظيفته في هداية الناس كونه يعلمهم الكتاب والحكمة ويخرجهم من الظلمات إلى النور، وأن في أحاديثه -عليه الصلاة والسلام- الكثير الكثير من النصوص التي تكرم العلم والعلماء، وأن ما وراء فرض العين من العلوم هو فرض الكفاية ويشمل كثيراً من العلوم التجريبية التي نلمس آثارها اليوم عند أعدائنا الذين امسكوا بزمام الحضارة الحديثة بلا أخلاق وسخروا شعوب العالم لأهوائهم وسلطانهم وما يبتغون.

وأن القرآن جعل طريقاً واسعة رحبة من طرق الإيمان بالله التدبر والتفكر في السماوات والأرض والنظر فيهما، وآياته في الأنفس والآفاق المطلوب

تدبرها شاهد صدق في وجوب الفكر وطلب العلم والتدبر . وفي هذا الخلق العجيب الذي تنزه عن التفاوت والعي ، كما أراد له الله أن يكون . . نعم لو ذكرنا ذلك -واليسير منه يكفي- لما كان هذا الذي نشكو منه اليوم .

فياليت شعري كيف يمكن أن يكون النظر إن لم يكن هنالك علم؟ وكيف يمكن أن يكون هناك تدبر إن لم يكن هنالك معرفة تساعد على هذا التدبر؟ إن القرآن دلّ العربي في الماضي على ما يمكن أن يدركه كما نرى مثلاً في قوله تعالى جاعلاً النظر طريق الإيمان : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ باعتبار أن الناقة لها ما لها من أثر في حياة العربي ، في مطعمه ومشربه وسفره وراحته وما إلى ذلك ، وظلّت أمور كثيرة وكثيرة لا يظهر إعجاز القرآن فيها إلا العلم الذي يصل إليه العقل البشري مرحلة بعد مرحلة .

فأنى لنا أن نقول : هذا يجوز وهذا لا يجوز مع أن التدبر في آلاء الله مرتبط بالإيمان أتم الارتباط . والمفروض بالمؤمن العاقل أن يزيد إيمانه ويقوى يقينه ، بمثل هذا . . إن اكتشافنا لجانب صغير صغير من مخلوقات الله تبارك وتعالى لا يحملنا على الشك في وجد الله ، وإنما يزيد يقيننا بوجوده وعظمته سبحانه والاعتراف بأن هذا النظام في المجموعة الشمسية وغيرها لا يمكن أن يصدر إلا عن خالق عليم حكيم مبدع له الخلق والأمر .

إلا إن الإسلام لا يهاب العلم لأنه دعا بحرارة إليه ، ولا يرهب ما يصل إليه العقل البشري من اكتشاف لكوكل أو كواكب من هذا الخلق البديع الذي لا ترى فيه من تفوات ، لأنه جعل النظر والتدبر والتفكير طريق الإيمان - والحمد لله - وهذه خاصية تميز بها الإسلام .



وأكثر من هذا : لقد كان المفروض أن تصل أمتنا إلى هذه المرحلة قبل هؤلاء الناس بعدة قرون أن لو ظللنا مع الإسلام ، وسلم لنا خطنا البياني في صعود صاعد بما يشرق عليه من ضياء هذا الدين الذي تربي في ظله آلاف الرجال الذين كان يتقربون إلى الله تعالى بما يخطون للأمة من معالم المعرفة . وعلى ما ضاع من تراثنا على أيدي التتار والصليبيين ، والفتن والحروب ما تزال الآثار في المخطوط والمطبوع شاهدة على هذا الذي نقول ، ولن تعدم الدنيا منصفاً -ولو من الأعداء- يعترف بذلك .

فبدلاً من الانهزام ، والتوكؤ الجاهل على الدين ، وتليسه الثوب المفترى ، لا بد من الشعور بمزيد من المسؤولية ، والمحاولة الجادة لاستئناف الطريق الواعية التي تعطي كل شيء قدره في ظل الإسلام ، ولن ترضى الأمة أن يكون فينا أناس يحاولون باسم الدين أن يضمّنوا الاستمرار على حساب جهل الأمة بدينها ، وبناء قصور من الأوهام والخيالات والخرافات باسم الدين ، والدين من هذا كله براء .

إن التاريخ ما يزال ينعي على أولئك الذي كانوا ينتسبون إلى غير الإسلام في أوروبا ، ويحاولون أن يحاربوا العلم باسم الدين لأن بقاءهم فيما هم عليه بسلطانهم وسيطرتهم على الناس مرهون بأن يظل هؤلاء الناس يغطون في سبات عميق من الجهل والخرافة والانحراف . كان ذلك يوم كانت يد الإسلام العالمة العارفة بالحكمة القوية ، في مشرق عالمنا الكبير ومغربه تشق جيوب الظلام في العالم كله .

مرة ثانية نقول لهؤلاء وأولئك : أحشفاً وسوء كيلة !! أل لا يجمعنَّ الجاهل إلى جهله بالإسلام والعاجز إلى عجزه عن متابعة طريق الإسلام إلقاء التبعة على الإسلام . ألا لا يُضمنَّ أولئك الجهلة والمنهزمون في أعماقهم إلى هذا البلاء ، أن يستخدموا الافتراء وسيلة لاستمرار وجودهم وكيانهم ، والإسلام دين العلم والمعرفة والنور .

ألا وليعم الرواد الذين أكرمهم الله بوافر من الإيمان والهداى ، أن جانباً كبيراً من التوعية يقع على عواتقهم في مثل هذه الأمور ؛ فدعوة الإسلام كل لا يتجزأ ، وبناء متكامل كما أراد الله له أن يكون .

ومعقد الأمانة في هذا الباب ، أن من المكتر الذي لا يمكن أن تقبله نفس مؤمن ، أن ينضم إلى بلاء هذه الأمة في ديارها وأرضها ، بلاء تأصيل الجهالة واعتبارها من الإسلام باسم الحفاظ على الدين وتقوى الله عز وجل ، لكون للأعداء ما يريدون من بقاء الأمة في الوهدة التي هي عليها اليوم .

إنه لا بد أن تمسك الأمة بالزمم من جديد ؛ وذلك بمولاتها حقائق الإسلام في العلم والمعرفة ، والإفادة بوعي وأمانة مما عند الآخرين ، ووجعل العلم والمعرفة في طاعة الله وتحقيق رسالة الإنسان ، كيما يستأنف مسلم اليوم طريق مسلم الأمس ، فلا تتقطع الجسور بين مسلم الغد وبين الذين حملوا رسالة المعرفة - معترزين بإسلامهم - إلى العالمين . وجل الذي قدر فهدى ، وتبارك الذي علّم الإنسان ما لم يعلم ، وسبحان من أنزل على نبيه - صلى الله عليه وسلم - ﴿ سَرَّيْهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١)

إن الله الذي شاء -وهو الحكيم الخبير- أن يكون المسلمون أمة وسطاً شهداء على الناس . وأن يحملوا إلى العالمين ما به يستقيم أمر الإنسان ، ويدرك معنى وجوده وخلافته في هذه الأرض . . جعل من شرعة الإسلام خير أداة لتكوين الشخصية المسلمة القادرة على تحمل الأعباد والتزام المنهج الواضح الذي يوصل إلى الغاية ويحقق لبني البشر سعادة الدارين .

وإنك واجد في (الصيام) الذي هو واحد من أركان الإسلام الخمسة بحراً زاخراً من الخير ، ونبعاً غامراً لا يني يتدفق بأكرم معاني التكوين والأعداد .

وإكنا لا نبغي أن ندير الكلام حول تفضيلات الأحكام في تلکم الشرعة المباركة ، ولا أن نفيض القول في الحكم التي تترتب على القيام بهذه الفريضة ، إن من الخير أن نقف وقفة يسيرة عند قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

إن المتقين هم الذين يجتنبون كل ما يوقع في الأثم من قول أو فعل ، فهم يمثلون ما أمر الله به ويجتنبون ما نهى عنه وقاية لأنفسهم من عذاب الله وسخطه .

فالتقوى وهي مشتقة من الوقاية التي يضعها المؤمن بينه وبين عذاب الله

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٧ هـ شوال، تشرين الأول ١٩٧٧ م.

وسخطه ، هي الصقة التي يراد أن تلازم المؤمن ثمرة للصيام الذي فيه الصبر ، وفيه الأمانة ، ومراقبة الله عز وجل في السر والعلن ، إلى جانب مخالفة المألوف واقتحام عقبة الانتصار على الشهوات ، مما يمهّد على الجهاد ومتابعة الطريق .

ولكن مدلول هذه الكلمة عندما نبصره من خلال القرآن الكريم وسيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه ، نرى دائرته تتسع حتى تتجاوز المفهوم القريب الذي يتصل بأمور العبادة الظاهرة من فعل وترك فحسب . . إلى ساحة تشمل في نظرنا كل ما يمكن أن يسهم في تكوين صحيح للإنسان المسلم ، يجعل منه إنساناً يتحرك على مستوى الرسالة التي أنيط به أداؤها ، والأمانة التي حملها يوم رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلوات الله عليه نبياً ورسولاً .

وفي هذا جواب عن كثير من التساؤلات اليومية عن مدى قدرة المسلمين على الحركة من جديد ، وعن الفارق بين اليوم والأمس . الواقع - كما يقال - (حولها ندندن) إنه يوم كانت الجماعة المسلمة تخط طريقاً في ظل الوحي على صعيد المعرفة والحركة كان هنالك شخصية مسلمة بالمعنى الصحيح ، وكان الذي يميزها يومذاك ، ما كنت تراه من أهلية التلقي وأهلية العطاء ، فالقرآن للعمل ، وحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للاتباع ، والآيات الكريمة لم تكن تنزل في هواء من الهواء : والأحاديث لم تكن ترد على أرض من الضياع .



يؤكد ذلك ما كان من صدق الصراع بين الكفر والإيمان ، ووضح المقاييس التي على هديها كانت تباع الأرواح رخيصة في سبيل الله .

صحيح أن المجتمع المدني في عهد الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يكن يخلو من مرضى القلوب والمنافقين -وهذه سنة الكون ليظل الابتلاء قائماً- إلا أن الحقيقة القائمة هي أن الإنسان المسلم قد وجد بكل ما في هذه الكلمة من معنى والشخصية المسلمة التي تستمد تصوراتها من الإسلام نفسه قد أخذت أبعادها ، حتى صارت هي تفرض المناخ الصالح للعمل وتعطي لكل شيء قدره ، ولكل خطوة ما تستحقه من القيمة هنا أو هناك .

إن تصديق أبي بكر -رضي الله عنه- التصديق الذي أذهل التاريخ وهو الذي عاش في الجاهلية ما يقارب الأربعين عاماً . وما رأيناه في كثير من أولئك الرجال تعطي الصورة الصادقة عن تلكم الأهلية للتلقي ، الذي أثمر العطاء فيما بعد .

ينزل قول الله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيهرع الصحابي أو الدحداح ويقدم حائطه (بستانه) قرضاً لله عز وجل ويجد من زوجه المسلمة ما دل على سلامة تصورهما هي الأخرى وأنها إنما تستمد هذا التصور من مضمونات أي القرآن وأحاديث الرسول -عليه الصلاة والسلام- .

ويقول عوف بن الحارث -يوم بدر- يا رسول الله ما يضحك الرب «يرضيه غاية الرضا» من عبده؟ فيقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- :

غمسه يده في العدو حاسراً. فينزِع عوف درعاً كانت عليه ويقذفها ثم يأخذ سيفه فيقاتل القوم حتى يقتل .

وهكذا كانت القدرة على التلقي كما أراد الإسلام فكانت القدرة على العطاء كما يريد الإسلام ، حركة تنسجم كل الانسجام مع المعرفة ، وتأخذ معها الوضع الطبيعي في ميزان لا يعرف العول .

أما شخصية المسلم اليوم فقد أصبحت غزواً لكثير من المفهومات الحضارية الحديثة ، وكثير من الشكوك والأوهام التي جعلت من الإسلام صورة مهزوزة في نفوس الكثيرين .

ناهيك عن أن القيم والمثل التي أصبحت مبتغى الكثيرين قد تكون على غاية التجافي مع ما يوحيه وجود الشخصية المسلمة اليوم .

إن السيف الغازي بدعوة الخير في الماضي لم يكن ظاهرة انتصار جيش على جيش فحسب ، ولكن كان قبل هذا إعلان انتصار الإسلام في نفوس الأفراد والجماعة حتى كان النصر في المعركة امتداداً لذلك البناء الداخلي العظيم ، وعناية الله ونصره وتأيده كائن دائماً ما كانت تلك النفوس العامرة بالإيمان ، المصدقة بما عند الله ، المتطلعة إلى الغد بعي المؤمن البصير الذي وهب حياته لدعوته وباع نفسه في سبيل الله .

إن بونا شاسعاً في المقدمات والتائج بين أن يكون الإسلام عندنا نداء الحياة نسمعه لإستجابة ونستلهمه مقاييس الحياة ونستمد منه تصوراتنا



وأصول معارفنا وتكويننا الفكري والحضاري وبين أن يكون المراد منه تسويق واقع نحن فيه ، وأنحراف نتلمس له من هنا وهناك التفاوى والمعاذير .

إن النجتمع العربي في الماضي ومن بعده المجتمعات التي غزاها الإسلام كان شعارها أن تعطي الإسلام مركز القيادة وتسلم له الأمر ليعمل في لك المجتمع عمله ، وليطوره كما شاءت إرادة الله وكما أوضح رسول الله .

ولعل المسلمين اليوم ففي كثير من أمصارهم يريدون من الإسلام أن يقدم لهم المسوغات لانحرافاتهم عن الإسلام فإن فعل ذلك كان مركز الصلاح والإصلاح ، وإلا فهو لا يصلح للحياة .

إن إباء النصوص الإسلامية لأن تكون مسخرة لتحول المسلمين تفتي لها وتعطي مسوغات وجودها هو الدليل عند الغافلين والمتغافلين من المسلمين اليوم على عدم صلاحية الإسلام للحياة أو عدم قدرته على أن يسير بنا إلى حيث نزع من النصر والغلبة وارتقاء سلم المجد من جديد .

فإذا أضفنا إلى ذلك ما قد أصبح سمة مميزة بارزة من حب العافية والضعف عن متابعة الطريق التي يفرضها الإسلام ، رأيت الأمر أوضح من الوضوح .

فالإسلام إذا لم يعط المسوغ للوضع الذي نحن فيه والذي هو في أكثر الأحيان ضرورة عن جهلنا بالإسلام ، أو الاستسلام للشرك الذي نصبه الأعداء ، والمفهومات التي سيطروا بها على النفوس فقد استنفذ غرضه ولا

معنى لوجوده . وما دمنا لا نستطيع أن نسلک الطريق الصاعدة ونصبر على متطلبات الوصول إلى القمة فالإسلام لا يصلح للحياة ، وما دمنا غير قادرين لجهلنا وانزاعنا النفسي أمام الغزو الحضاري الجديد والتآمر الفكري الرهيب على أن نفیء إلى ظل الإسلام كما أنزله الله فالإسلام رذن قد استنفد أغراضه وخلفته قافلة التاريخ .

الإسلام الذي كان به وجودنا وقدرتنا على العطاء ، والهامنا الحضاري الإنساني ، نريده اليوم ليكون أداة تسويغ لما نقوم به من الأمساك بسكين الجزار التي تقدم على الضحية دون رحمة ولا هوادة . وبعبارة أوضح نريد تأويل نصوصه وتطويعها لإسلام جديد ابتدعناه نحن من عند أنفسنا ، أو اخراع لنا وزعمنا أنه دين الله ، والمعاذ لله .

إن الشخصية المسلمة بقيمها بمثلها بتصوراتها هي التي تستطيع على المدى أن تحقق في الأرض كلمة الإسلام . وإن المحتوى لهذه الكلمة لا بد له من المناخ الطيب الذي يجعل نماء طبيعياً مسمراً لا تعصف بوجدوه العواصف من هنا وهناك . وهي بهذا الوصف تستطيع أن تستقطب جميع الاختصاصات وأن تفيد من كل الطاقات ، وأن تعمل على الاصطفاء المنهجي الذي لا تضیع معه موهبة ، ولا يتبدد في ظله جهد .

إنك لو عدت إلى أسباب نزول كثير من الآيات وما كان من أثر الآيات بعد النزول لرأيت عجباً أشد العجب . ولو حاولت أن ترى أبواب ورود كثير من الأحاديث والوقائع التي ورد بشأنها ذلك الكلم الطيب ، وما كان من



الأثر المنتج عند أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- لأذهلتك -كما أسلفنا- النتائج .

إن الإسلام هو الإسلام ، وإن القرآن هو القرآن ، بل إن كثيراً من ألوان التيسير بأجهزة الإعلام والمطبعة ووسائل النشر قد جعلت وصول القرآن إلى الناس على غاية البساطة والسهولة . وإن أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- هي أحاديثه ، وهي الزاد الذي ما بعده من زاد من أجل تكوين الشخصية المسلمة .

ولكن السلف سمعوا دعوة الإسلام للاستجابة ، وسمعوها وهم على صهوات جيادهم يتحركون ، ونحن نسمعها والتشاؤب يملأ علينا وجودنا ، وطلب العافية يسد علينا منافذ الطريق ، والتصورات المجافية لأصول دعوة الإسلام تملك علينا ناحية التأمل والفكر .

ألا إننا واجدون إن صدقنا الله العهد ، أن الحاجة ملحة بما لا يقبل المزيد إلى أن نفهم التقوى كائنة لعبادة وما وراءها من سلامة التصور ، وأخذ النفوس بمقاييس الإسلام . والذين يضعهم الله موضع الريادة الفكرية ، والأمانة على الأجيال ، وحفظ معادل الإسلام في العالم الإسلامي مسؤولون عن التقوى في هذا المضمار أكثر وأكثر .

والتقوى باب مشرق لا ترى وراءه إلا الخير ، ولا يوصلك إلا إلى منافذ السعادة ومرضاة الله عز وجل . وحسبك في هذا أن الله تعالى أعلن بكلامه الخالد أن القرآن هدى للمتقين ﴿ ذَلِكِ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ فهو

كتاب لا ريب فيه إذ أنه ليس محلاً لأن يرتاب فيه عاقل منصف في أنه نزل من عند الله وفي هدايته للبشر وهو هدى لأن معه من الدلائل ما لو تأمله متأمل لم يتطرق إلى نفسه أدنى شك . والمتقون هم الذين ينالهم شرف تلك الهداية .

وإنه لميدان فسيح ذلك الذي تراه بعد ذلك في مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ وقوله : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ وقوله جل وعز : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .

إن صياماً يثمر التقوى - كما أرادها الله - هو الصيام الذي يحمل عنوان القبول ، ويزينه أنه خطوة على صعيد الفرد والجماعة في طريق أن تأخذ الشخصية المسلمة القادرة على تحمل العبء وما تمليه أمانة الإسلام دورها من جديد .



فريضة الإسلام وواقع المسلمين^(١)

ماذا ورا د تلك الفريضة التي هي خامس ركن من أركان الإسلام . . وماذا وراء تلك الشعائر التي يفترض أن تخط طريقها بعمق إلى نفس المسلم ، وأن تملك عليه منافذ قلبه ووعيه . . أن هذا سؤال لا نظرحه من أجل الإجابة عنه ، ولكننا نظرحه مذكرين بأن شرعة الله دائماً -وهي خير كلها- لا بد أن تعمل عملها في تغيير واقع المسلمين إن هم عزموا أمرهم وأدركوا شيئاً من حكمة الله فيما خاطبهم به من التكليف ، وما حملهم من أمانة العمل .

وعندما يتوفر للأمة الأحساس الصادق بأهمية التكليف التي هي مخاطبة بها ، والواجبات التي أنيط بها تحقيقها ، يكون في مقدورها أن تفيد دائماً من ماضيها لحاضرها ، ومن حاضرها لمستقبلها ؛ لأن ذلك الإحساس يعني الحركة الذهنية الفاعلة المؤثرة التي تنعكس على الواقع فتجعل منه عنوان إبداع تصوغ من مقوماته الخطوة المتقدمة دائماً ، تلك الخطوة التي تعني استمرار الخط المستقيم ، واستكمال عناصر القوة والاستمرار .

نقول ذلك في ظل أيام وليال حافلة بشعائ هذا الدين وهديه في الحج والعمرة ، حيث تتطلع القلوب إلى السماء ، وتهفو النفوس في ظل البيت إلى رب البيت ، وقد تحرقت شوقاً إلى حيث تغسل الدموع حوبة المذنبين ، ويقبل رجاء المنيبين التائبين .

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العددان التاسع والعاشر ، السنة العاشرة ، ١٣٨٩ هـ ذو القعدة - ذو الحجة ، شباط - آذار ١٩٧٠ م .

وليس بدعاً أن يأخذ ذلك بأيدينا إلى حقائق عميقة الجذور في تاريخنا الفكري العريق، لنبصر من خلالها تلك الدورة المتكاملة أبداً وعلى المدى بين الوقائع والتكاليف، وما يمكن أن يكون وراء ذلك من الثمرات.

إننا في مواجهة واعية للنص القرآني الذي يتحدث عن رفع قواعد البيت نجد شيئاً من الترابط بين أمرين اثنين ترابطاً يلفت النظر ويحث له أن يكون كذلك ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

فأنت واجد أن رفع إبراهيم وإسماعيل لقواعد البيت، قد اقترن بالمعنى الذي من أجله رفعت القواعد -وهو الإسلام- وفي سبيله أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج، وأن إبراهيم وإسماعيل يدعون الله بالقبول، كما يدعوونه أن يكونا على تلك الطريق إسلاماً واستسلاماً لأمره فيما يريد سبحانه، وأن يتحقق ذلك في ذريتهما. . إلى ما وراء ذلك مما توحى به مجموعة الآيات في سورة البقرة. إن هذا لاقتران واضح بين الكلمة والحركة، بين العمل والمعنى الذي من أجله كان العمل، وفي سبيله كلف رسولان كريمان أن يرفعا قواعد البيت.

ولعلنا لا نبعد النجعة حين نربط بين رفع قواعد البيت مقترناً بدعوة التوحيد وبين تلك الشعائر التي فيها الطواف والسعي والوقوف والرمي. . وفيها تلك الشعيرة الهادرة (لييك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك) إن



الطواف حول البيت الذي يعني توحيد الوجهة، وإخلاص العمل، والبعد عن التلفت والوثنيات من هنا وهناك، لا بد أن يلحظ معه أن التلبية اللسانية التي تتعالى بها الحناجر هادرة معتزة، في السهل وعلى شعاف الجبال والمنحنيات، وبطون الأودية، يفترض أن تنعكس على كل التصرفات، كيما ينطق السلوك بالتلبية المستجيبة حقاً لأمر الله، حيث يذكر المؤمن أن قوله: لا شريك لك، مشعر بأن التلبية الحققة المبينة هي من مقتضيات التوحيد.

وإذا تصورنا أنه ليس في الإسلام طقوس على مثال ما ندعوه بالطقوس الكنسية، وأن العبادات كلها -والحمد لله- بالرغم من أنها لا تعلل وأنها مظهر من مظاهر الامتثال لأمر الله عز وجل، تبصر من خلالها ذلك الفيض النوراني العظيم، وتحسّ بقلبك ذلك العطاء الإلهي الذي لا يحدُّ، مع الطمأنينة وانسراح الصدر والشعور بالرقي في مدارج الرضضا وسعادة الدارين. إذا تصورنا ذلك.. استطعنا أن نخطو إلى حيث نضع الور مواضعها في شأن تلك العبادات والشعائر.

إن المسلمين اليوم مدعوون لأن يكونوا على المستوى اللائق لما يخوضونه من معاك لا بد أن يبذل لها الكثير من الإعداد والاستعداد.

إنهم يخوضون معركتين حمي وطيسهما واشتد أوارهما، معركة من النفوس لتطويعها إلى شرعة الإسلام التي إن أظلت عم النفع والرخاء، وإن انحسرت وتراجعت، ساد الضر والبلاء؛ إنها معركة مع المغريات والصوارف عن الإسلام، معركة مع الترغيب والترهيب، بل مع الجهل

والتناقضات وتزوير الحقائق ، ولا تنس دور الغفلة حيناً والشهوة وطلب العافية أحياناً .

فالتلبية إعلان ، والطواف حول البيت والوقوف بعرفة عهد وموثق ، ولا بد أن يحفر ذلك خطه العميق في رصد نتائج هذه المعركة في ظل قول الله تباركت أسماؤه ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ إن ساحة المعركة هنا لا يستهين بها إلا من سفه نفسه ، وفاته من اليقظة حظ كبير .

أما المعركة الثانية : فهي المعركة الخارجية التي تبدو منوعة هنا وهناك ، ولكنها في حقيقتها شيء واحد متعدد السمات والألوان والمظاهر ، تتشكل حسب البيئة والمناخ . والتحديات الكافرة للإسلام في أرضه وفي مبادئه لا يمكن الانتصار عليها ، إلا بالاستجابة الصادقة لأمر الله عز وجل ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ كل على الثغر الذي أقامه الله عليه .

والذي يجب أن تكون الأمة على ذكر منه : أن الله بحكمته وعدله ربط الأسباب بالمسببات في هذا الكون ، وأقام نوااميس الحياة على نظام أكمل ، ترتبط نتائج العمل فيه بالمقدمات ، فلا بدع أن يكون المسلمون مطالبين بالصعود إلى وفق ما تستلزمه معارك الأمة من حشد طاقات الفرد والجماعة في سبيل تحقيق كلمة الله في هذه الأرض . فلقد يحسب حاسب أن الله ينصرنا بوصفنا نتسب إلى الإسلام ، لا والذي قال في كتابه : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ لن يكون ذلك إلا رذا سلكنا السبيل التي أمر بسلوكها ، وكانت حركتنا من خلال ذلك السلوك .



وإذن فلا بد أن يشعر الفرد بأن الواجب يلاحقه ليؤدي أمانة الإسلام في أي ثغر أقامه الله تعالى عليه، وأن الشعائر التي يتعبد الله تعالى بها هي شاهد عليه في دعواه ينطق بالحق لا يحابي ولا يماري.

والدعوى أن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء

مرة أخرى: إن النداء السماوي الذي جاء بالألوف المؤلفة إلى ظل أول بيت وضع للناس، لتبلي كلُّها، لتطوف كلها، لتسعى كلها، لتقف بعرفة كلها، لتتحرك كلها في السهل والجبل وبطن الأودية لهجةً بالتلبية ناطقة بالدعاء، خاشعة لله ذليلة بين يديه، إن النداء السماوي الذي جاء بها جميعاً هو النداء نفسه الذي يحدوها اليوم، لأن تصيخ السمع إلى كلمة الإسلام من جيدي، فتذكر واقع المسلمين في كل صقع من وطنها الكبير، وتضع كل طاقاتها في خدمة العقيدة التي عليها اجتمعت الأمة، والسرعة التي على هديها سادت حضارتها في العالمين. إنها معدوعة لأن تعقد الخناصر على أن تكون وفية لعهد الإسلام، صادقة مع نبي الإسلام، مستجيبة لدعوة القرآن.

إن الإطار العاطفي الذي يتحرك من خلاله ملايين المسلمين في هذا العصر ليس إلا عنصراً من مقومات الوجود المسلم، ولكنه لا يكفي، ولا بد أن تترجم العواطف في إطار العقيدة والجهاد إلى علم وخبرة ومعرفة، كيما تتفتح نوافذ المسلم على الحياة، وتطل على الواقع. حتى يبصر ما حوله وهو أكثر نفاذاً، وأوفر قدرة على معالجة المشكلات.

وعندها لا يكون العمل عبارة عن رد فعل، وانعكاساً لقضية طارئة، أو حركة مفاجئة وإنما هو عمل يتسم بالأصالة والمنهجية وسلامة المرتكزات.

إن من خصائص العمل عند أعداء الإسلام اليوم الإفادة من العلم، والتخطيط المنهجي للفرد والجماعة، . . وعلى المدى البعيد . . فأنت واجد مشكلة فلسطين ربطاً للغاية عندهم بالدين واللغة وهيكل سليمان وحائط المبكى . . وحشداً للخبرة الفنية وإفادة من كل ما يقدمه العلم من جديد، ورصداً لكل خطوة حضارية يمكن أن تفيد في تحقيق الهدف، ناهيك عن القضايا السلوكية في الاستغلال والدجل والشعوذة من طريق الإعلام وأجهزة الدعاية وما إلى ذلك .

ولقد رأينا في نيجيريا -وما يزال الثرى يموج بالدماء، والاشلاء- كيف أن أهدافاً معينة ترصد لها طاقات وإمكانات معينة من هنا وهناك، وكم لبس الزيف ثوب الإخلاص، والجريمة ثوب الحرية والحفاظ على أرواح الأبرياء، حتى صار السلام يرسل باسم الغذاء والدواء . ولا تسلم عن برقع الدين وسموح الرهبان . كم شرقت وغربت وضربت في طول أرض المعركة وعرضها .

وإننا لنعوذ بالرحيم الرحمن أن يكون من غرضنا . إيقاع اليأس في النفوس ، ولكننا نريد أن لا نكون بعيدين عن الواقع ، في معركة طويلة الأمد مع الأنفس لتطويعها أولاً لحسن الامتثال ، والسير على الطريق التي يرتضيها ربنا تبارك وتعالى ، والحركة الإيجابية ثانياً في تقديم كل ما توجبه المعركة الأخرى مع الأعداء .

فالعزلة بين المسلم وبين الواجب ضرب من النفاق قد يؤدي إليه لون من ألوان البله التي يجود بها بعض المتنطعين من أدعياء الإرشاد والتوجيه .



والضَّئِنة على دعوة الإسلام بأي قدرة من القدرات التي أعطيها المسلم
كف بنعمة الله وخيانة للأمانة ونكث للعهد .

إن شعائر الحج والعمرة تذكرنا بوقفه النبي -عليه السلام- يوم الفتح حين
وقف يقلب بمخصرته تلك الأوثان التي كانت حول الكعبة والتي بلغت
ستين وثلاثمائة وثن هو يقول عند كل واحد منها جاء الحق وزهق الباطل إن
الباذل كان زهوقاً . كأن به وقد كررها صلوات الله وسلامه عليه ثلاثمائة
وستين مرة ، -ولا نتألى على الله- جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان
زهوقاً ، لقد أراد أن يقتلع الوثنية من النفوس ، وأشعر القوم بزن الحق هو
التوحيد وأن الباطل هو الوثنية ، فلتضرب جذور هذه العقيدة في العقول
والقلوب ، ولتنعكس على الواقع تعمل فيه تغييراً وتحويلاً إلى وجهة الحق ،
حيث تقترن الكلمة بالحركة ، وتنعكس العقيد على الحياة إقامة لشعائر
الدين ، وإفادة من هذه الشعائر كي تعمل عملها ، في الساعد ، والفكر .

ومن هنا نقول ، والألوف من المسلمين يحتشدون في ظل البيت العتيق ،
ويتحركون على الأرض التي أعلنت على ربها أول كلمة من كلمات
الإسلام ، وعلى ثراها جرى دم المجاهدين زكياً نامياً منبتاً بقيادة رسول الله
صلوات الله وسلامه عليه وأصحابه الصابرين الصادقين . نقول : إنه يوم تمدُّ
العقيدة في النفس مدّها يرى المؤمن بعين بصيرته أن إقامة شعائر الحج في
رحاب البيت الذي قام إبراهيم وإسماعيل في رفع قواعده ، أمر له ما
بعده . .

ويرى الحاج في سلامه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نقطة بدء في العودة الصحيحة إلى طريق صاحب الرسالة الذي يسلم عليه . إنه يوم يكون الأمر كذلك - تستطيع تلك السواعد التي ترفع الأكف إلى السماء ، أن تحوّل مجرى التاريخ لصالح هذه الأمة ، في ميادين الحرب والسلام والمعرفة والعدالة على السواء .

إننا ونحن نتحدث في ظل واقع مريع يقض مضاجع المخلصين ، نشعر أن لهيب المأساة لا بد أن يضيء طريقنا إلى القرآن من جديد ، حتى نعلم حقاً أن الإسلام هو قوة الغد ، وأنه المشابة التي لا مندوحة للأمة من أن تفيء إلى ظلها ، إذا أرادت أن يعود إليها غداً ما أضاعته بالأمس ، وعندها لن تفتقد أولئك الرجال الذين يزرعون دروبها أملاً ويهبون وجدوها معنى الحياة والاستمرار من فتية يسعى نورهم بين أيديهم وأيمانهم . وهنالك تقع عينك على الكثير الكثير من أولئك الذين إذا دعو أجابوا ، ورذا نودا لبوا النداء . أولئك الذين يفتشون الأذى .

همُّ الواحد منهم - على بُعد الطريق ومشقة الصعود - مرضاة الله تعالى دون تدافع أو تنازع ، ولو كان الثمن إزهاق روحه . إنه لا يبال أوقع على الموت أو وقع الموت عليه ، وذلك وحده طريق القافلة التي كان في ريادتها أولئك الذين قال الله فيهم : ﴿ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

وأخيراً أنا لنسأل الله تعالى في ختام هذه السنة العاشرة من عمر المجلة



المديد إن شاء الله - أن يهبنا قوة من عنده ، وأن يعيذنا من فتنة القول والعمل ، وأن يأخذ بأيدينا إلى حيث نؤدي الأمانة في حدود الإمكان بعونه سبحانه .

كما نسأله أن يجزي إخواننا الكاتبين والعاملين كل خير ، وإن يلهم أولئك الذين ما يزالوا يغفلون أو يتغافلون عن بعض واجباتهم تجاه المجلة أن يستأنفوا المسير ، كيما يسهموا في إزاحة بعض العوائق وأشواك الطريق ، والله الموافق إلى خطوات جديدة موفقة تلبس معها المجلة ثوباً جديداً في عامها المقبل ، فيألي ربيع الأول القادم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً .

من أيام الله^(١)

يطلع رمضان على الأمة في كل عام وهو أوفر ما يكون عطاءً بينالشهور، وأحفل ما يكون بكل بواعث القوة وخصائص الخلود.

ذلكم هو الشهر الذي أَراده الله عنوان إيمان وجهاد، وإعلان فضائل ليس أقلها الأمانة والصبر، وبحراً لا ساحل له من الذكريات العطرة والمواقف التي كان كل واحد منها نقطة تحول جذري في حياة أمة قُدر لها أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

لقد شاء الله أن يكون هذا الشهر موئلاً للمؤمن مع دورة الزمن في كل عام من حياته المحدودة الفانية، يتفياً ظلاله وينعم بمائدة السماء من خلال أيامه.

كما تطلع الشمس فتغمر الدنيا بالضياء، وتعطي الأرض قوة الخير والنماء المشرفة وساعاته، فيصلح من شأن نفسه ما فسد، ويرقى في مدارج البر والهدى، ويستأنف إلى مقصوده الطريق.

إذ قلت: رمضان؛ فذكرى نزول القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وإذا قلت: رمضان؛ فساحات الرجلوة القادرة والبطولة الصادقة، والإيمان في حركة وعمل وسلوك.. والمواقف التي تعز على الوصف في بدر والفتح وغيرهما.. وعلى هذا الخط الغامر

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان السادس والسابع، ١٣٩٠ هـ شعبان ورمضان، تشرين الأول والثاني ١٩٧٠ م.



بفضل الله على هذه الأمة، إذا قلت: رمضان؛ فعتاء الله الذي لا ينفد، ورحمته التي وسعت كل شيء، وعتق الرقاب من النار، ورفح المؤمن بفضل مولاه.

و(بدر) من أيام الله في رمضان، فهي المعركة التي كانت فرقاناً بين الحق والباطل، ومثلاً عظيم الدلالة على أن هذا الصراع الأبدي بين الحق والباطل، ليس ضرورياً أن تكون ثمرته بجانب الباطل -على عتوه وفاتك سلاحه وجبروته، بل إن الحق بأهله المستضعفين يمكن أن تكون له الغلبة بإذن الله عز وجل، بحيث تتمخض الأحداث عن نتائج مذهلة لسدنة الباطل وأهله، ويشرق على الدنيا مدلول قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾.

وفي ميدان التفسير الأمين للوقائع ودراسة مدلولاتها العميقة من خلال ظروفها زماناً ومكاناً أيام وقوعها. والآثار البعيدة النافعة على المدى في سلوك الأمة وتاريخها الطويل. أقول في ميدان التفسير على هذه الشاكلة، يرى المؤمن بعين بصيرته أنه لم يكن عبثاً تثبيت معارك الإسلام قرآناً يتلى وسيرة تحتذى وعلماً ينتفع به؛ وإن امتنا التي تداعى عليها الأمم، وتألّبت عليها من هنا وهناك صنوف العسف والظلم والاعتصاب، تبدو وهي أشد ما تكون حاجة لتلمس خصائص الخلود في معركة بدر ومقدار ما يمكن أن تعطيها من المدد الإيماني الوافي في واقعها الذي لا تحسد عليه.

وإذا كان المسلمون اليوم يفتقرون إلى تلك الهزة الإيمانية التي تطبع تصرفاتهم بطابع الحركة الواعية والإقدام الذي يتخطى الصعوبات والركام، إن عليهم أن يذكروا نعمة الله عليهم بما أعطت (بدر) من المثل الذي يحتذى، وبما رسمت للأمة من صور الاستشهاد والخروج على المألوف والانتصار على كل ما يكون من عوامل الضعف أو التخاذل، مهما كان شأن العدة التي تحملها الفئة القليلة المؤمنة، والقوة الظاهرة المستكبرة التي تتمتع بها الفئة الكثيرة الفاجرة، ذلك أن معركة الفرقان تبدو وهي أبرز صورة من صور الحركية بعد الهجرة، فلقد حملت التاريخ بكلتا يديها، وكتبت على صفحاته بدماء المسلمين حقائق ناصعة لا تحتمل اللبس أو الغموض، إنها مشرقة إشراقة إيمان أصحابها، قوية قوة عزائمهم، ناصعة ناصعة جباههم التي لا تعنو إلا للحج القيوم، لقد كان ذلك وأوفر منه وأعلى، حتى غدت بدر وكأن مشارق الأرض ومغاربها طويت فكانت العدوتين الدنيا والقصوى، وكأن هذا الكوكب الذي نعيش عليه ملم أطرافه حتى كان أرض المعركة.

ومضى على سماع الزمن قول الرسول الكريم في شأن أولئك الذين ركضوا خيلهم على جنباها، وأفسحوا بلمعان سيوفهم طريق النصر والتمكين لأجيال القرآن، وأضاءوا باخلاصهم ظلام القرون «لعل الله اطلع على أهل بدر يوم بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

ولقد تأيد بمعركة بدر أن الهجرة كانت العمل البناء الذي وصل بالدعوة إلى ذلك المناخ الملائم لها في المدينة، بعد ثلاثة عشر عاماً من الصبر



والمصابرة، والاحتمال القاهر في مكة؛ فرأيت الذين عاهدوا رسول الله في بيعة العقبة على أن يحموه مما يحمون منه نساءهم وأولادهم في حدود المدينة، قد خرجوا على ذلك، وتوجهوا إلى بدر حيث الابتلاء الأسود والصراع مع الفئة ذات الشوكة، وكانوا بعون الله قادين -على فقر وقلة مؤنة- إن يمرغوا أنف الباطل بالتراب، وأن يسلموا إلى الأجيال من بعدهم مفاتيح النصر والتمكين.

إن الفئة القليلة التي حملت العبء في معركة الفرقان، أتعبت التاريخ في رصد غناها وعطاؤها وما كانت تحمل من خصائص التكوين وأهلية الصعود، إنها قليلة العدد والعدة ولكن هنا تكمن القوة التي هزت معالم الزمن.

لقد كانت أول ظاهرة في سلوك هؤلاء الرجال بعد إيمانهم وحبهم للرسول -عليه الصلاة والسلام- أنهم تخلوا عن كل مبتغياتهم لما لله عز وجل.

فبعد أن كانت بغيتهم الطائفة غير ذات الشوكة حيث يحصلون على العير التي كان يتولاها أبو سفيان. أراد الله لهم غير ذلك، فخرجوا وهم على غاية الرضا ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فكانوا -بما تخلوا عن رغبتهم لما أراد الله جلّت حكمته- جنود الحق في مواجهة الباطل وتمت كلمة الله.

وفي أمر (الأنفال) كانت بعض الرغبات في غير الذي نطقت به الآيات فيما بعد؛ لقد حصل شيء من الاختلاف على الأنفال حتى إذا جاءت الآيات تقرر أن الأنفال لله والرسول وما عليهم إلا الطاعة أن كانوا مؤمنين، رأيت الرضا والطمأنينة، وانقلب الجميع إلى متابعة الطريق كما يرضى الله ويرضى رسوله -عليه الصلاة والسلام- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

ولا تسئل عن صنيع الأنصار الذي أَلْمَحْنَا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلِ وَكَيْفَ تَخَلَّوْا عَنْ حُدُودِ الْعَقْدِ الَّذِي يُلْزِمُهُمْ بِحِمَايَةِ الرَّسُولِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَاخِلَ الْمَدِينَةِ فَقَطْ ، وَتَجَاوَزَهُ بِإِيْمَانِهِمْ إِلَى مَا وَرَاءَ ، فَمَوْثِقُ الْإِيْمَانِ وَالْيَقِيْنِ ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَالْوَعْيُ الصَّادِقُ لِحَقِيقَةِ الطَّرِيقِ الَّتِي سَلَكَوْهَا ، أَجْدَرُ بِالْعَنَايَةِ وَأَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ ، وَالْإِيْمَانِ إِذَا وَقَرَّ فِي الْقَلْبِ ، وَفَاضَ عَلَى الْجَوَارِحِ ، يَصْنَعُ الْكَثِيرَ الْكَثِيرَ . . وَلَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَسْمَعَ مِنْهُمْ رَأْيَهُمْ عِنْدَمَا أَزْمَعَ الْقِتَالُ وَانْصَرَفَ عَنِ الْعِيرِ إِلَى الْغَيْرِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَ أَنْ خَطَبَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ : كَيْفَ تَرَوْنَ؟ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِيَّانَا تَرِيدُ ، فَوَالَّذِي أَكْرَمَكَ وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مَا سَلَكَتْهَا قَطْ وَلَا لِي بِهَا عِلْمٌ ، وَلَنْ سِرْتُ حَتَّى تَأْتِيَ بِرِكَ الْغَمَادِ مِنْ ذِي يَمِينٍ لِنَسِيرِنَّ مَعَكَ ، وَلَا نَكُونَنَّ كَالَّذِينَ قَالُوا لِمُوسَى : إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَالَتَا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ ، وَلَكِنْ إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَالَتَا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَبِعُونَ ، وَلَعَلَّكَ أَنْ تَكُونَ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ وَأَحْدَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ غَيْرَهُ ، فَانْظُرْ الَّذِي أَحْدَثَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَاْمُضْ لَهُ . فَصَلَّ حَبَالًا مِنْ شَيْءٍ ،



وأقطع جبال من شئت ، وعاد من شئت ، وسالم من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت . فنزل القرآن على قول سعد . وهكذا ترى المحور في كل ما ذكرنا مرضاة الله ورسوله دون وقوف عند أمور تملئها المصلحة القريبة ، أو الخوف الناتج من قياس القوى بعضها ببعض ، فما يريد الله ورسوله هو المقدم وعليه المعول . وأي شيء من التقوى كهذا الذي كان من وقفة الفئة المؤمنة واستجابتها لنداء الحياة ، وتقوى الله الخالصة المخلصة لها آثارها البعيدة في نصر الله وتأيينه وتمكينه لعباده المؤمنين . ولقد نزل في آله معركة الفرقان قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ . وأعطانا صنيع أهل بدر أن أولئك الذين يكونون قادرين على الأخذ ، والتمثل الصحيح لمعاني الإيمان والفكر الواضح المستقيم ، هم الذين يكونون قادرين على الالتزام الواعي والطاعة المشركة والعطاء يوم يعز العطاء ، ذلك أخذ بحق وهذا عطاء بحق .

والآن : إذا كانت (بدر) محدودة الزمان والمكان من حيث وقوعها : أنها واسعة الأمد عبر القرون من حيث مدلولها والدروس التي أملتتها ، فنحن اليوم قد لا نرى بدرًا مطابقة لتلك التي زانت التاريخ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان ، ولكن المطلوب أن نتحرك ضمن ذلك الإطار المبارك الذي لفَّ معركة بدر والبدريين ، وإذا علمنا أن مفهومات الإسلام هي التي أثرت في تلك المعركة ، إن علينا أن نبصر الأمر من خلال هذه المفهومات مع الإفاة من المعرفة الخيرة بالنسبة للأسلوب وسلامة التنفيذ .

فالمعارك بين الهدى والضلال، وآباء جهل، والهمهمة الضارية في مواجهة الإسلام قائمة يعاني منها الإسلام شديد الهول، على تنوع الأسلحة والإفادة من كل معطيات الحضارة المادية الحديثة في محاربة تراث الأمة ودعوتها ولغتها والعياذ بالله.

وإن واجب المؤمن حيال ذلك لا يحتاج إلى بيان، فأمر بدر لم يكن أمر اختلاف على متاع الدنيا ومنصبها، وإنما كان صورة من صور ذلك الصراع بين الحق والباطل، ظهرت فيه قدرة الحق على ثل عروش الباطل عندما يستنفذ المؤمن الطاقة في الإعداد، وكيف أن الله تعالى يمدهم بنصره وتأنيده. إن أهل بدر لم ييخلوا على المعركة بشيء، تركوا ما كانوا أرادوه، لما أَرَدَهُ الله لهم، وبذلوا كلَّ ما في طاقتهم، وبرزوا إلى المعركة وكل تصرفاتهم صورة عملية واقعية للإيمانهم، وحينما يكون في مقدور الأمة، أن تقدم الصورة العملية الواقعية للإيمان فحدث ولا حرج عما يكون من النتائج وحسن العواقب.

ولقد كون انعكاس الأحداث التي تواجه الأمة أكثر ايقاظاً للهمم بتطبيق هذه الملامح التي كانت شعار أهل بدر. فـ (رؤوس) تلك الفترة ذلك الطاغوت المباشر يومذاك غير (أبا جهل) اليوم في العالم؛ أولئك يدافعون عن موروثات عفته في ظل الخوف على زعامة ينفخ في عنقها الشيطان، وهؤلاء يقصدون إلى الهدم والاستئصال ضمن مناهج ومخططات تفيد من كل حديث متجدد من معطيات وعلوم، مما يدعو إلى مزيد من اليقظة،



والتبثُّل في فهم مدلولات بدر ومواقف البدرين في مواجهة تنوع الأسلحة حسب التطور العلمي والحضاري .

ناهيك عما يضاف إليها من التمويه ووضع الأسماء لغير مسمياتها تذليلاً لقياد أولئك المغفلين الذي يليهم القشر عن الباب ، وتشغلهم الصورة المصنوعة عن الحقيقة المربعة التي تختفي وراءها . والذي يريد أن يفيد من التاريخ ووقائعه الناطقة المعربة يرى الأمور كما هي دون تمويه أو تلبيس . فتلامذة الشيطان في العالم الذين يفنون أعمارهم في دخمة الباطل والإعداد لتمكينه ، وترسيخ إذهابه في الأرض ، يرى من الطبيعي أن يكونوا أعداءً للحق وأهله ، وللكرامة وسلطانها ؛ فليس من شأن أعداء الحق أن يكون منهم مهادنة لذلك الحق إلا بمقدار ما تكون المهادية فرصة لتوثب جديد ، وانقضاخ لا يرقب في دعاة الخير وحراس الحقيقة إلا ولا ذمة . هذا فضلاً عن أن يمدوا الخط المقابل بما يقوي دعائم الحق ، أو يعطوا عن رضى وطيب خاطر ما به ترتفع راية الإيمان . ويوم كان الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- يواجه المشركين بالدعوة إلى الله وترك عبادة الأوثان ، ونبذ التقلي الأعمى ، والانصراف إلى طريق التوحيد والعمل الصالح المجدي ، كان من أسلحتهم -مع الإيذاء والحرب الفاجرة والكيد الأسود المتماذي- دعوى أنهم هم عمار المسجد الحرام بسقايتهم للحجيج وما يكون من العمارة المادية للبيت ، فجاء الرد القرآني الحاسم يضع القانون الذي لا يصح للأمة أن تتخاذل عن قوة دلالاته

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .

وهنا، وعند هذا الفصل من طبيعة هذه الدعوة، وتكوين العاملين في سبيلها، مما يشعر بثقل العبء، والتملل الذي يحدثه ضعف الإنسان . . هنا . . لا بد أن نذكر أن الله قادر على نصره الحق بدون فئة قليلة أو كثيرة، مؤهلة أو غير مؤهلة، ولكنه الفضل الإلهي الذي لا ينتهي، والعطاء الرباني الذي يتقاصر دونه كل عطاء. أن يختارك للجلي، ويبتليك أتصبر أم تتحول، ويختارك لحراسة العقيدة التي رضيها للعالمين، نعمة يعجز عظماء الرجال عن شكرها، وأدنى درجات الشكر أن تدرك أبعادها، وتجهد صادقاً في أداء حق الله الذين أكرمك بها، طاعة والتزاماً، وتخلياً عما تريده، لما أراده لك بحكمته وعمله، صنيع أهل بدر الذين أسلموا وجوههم لله وخاضوا امتحاناً رهيباً أرعبت ثمراته الشرك وأهله من أدنى الجزيرة إلى أقصاها، وأبرز المستضعفين وجهاً مشرقاً، وساعداً قوياً في إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإرادة أصيلة تُملِي ولا تستملي في تاريخ الإنسانية الطويل ﴿وَإِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ



لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ .

والله لا يدع عباده المستضعفين دون نصر وتأيد، ولكن أسباب النصر يدركها المؤمنون الصادقون، ولا يدركها المنافقون المنهزمون. وتلك سنة إلهية من سنن الله الماضية لا تقتصر على عصر دون عصر، ولا تقف عند فئة من المؤمنين دون فئة أخرى، فوراء تدبيرنا نحن البشر الضعفاء تدبير الله الذي لا تنفذ كلماته ولا تفقر خزائنه.

فلقد كان من عنايته وتدبيره أن سهل لهم أمر الخروج بقناعة نفسية تقوم على قياس ما هم فيه على ما كان بشأن الهجرة ﴿٩﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿١٠﴾ .

وما هو سبحانه يمدُّ أهل بدر بالملائكة يقاتلون معهم، ويغشيهم النعاس أمانةً منه، وينزل عليهم من السماء ماءً ليطهرهم. ويذهب عنهم رجز الشيطان، ويربط على قلوبهم ويثبت أقدامهم ﴿١١﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿١٢﴾ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بَشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٤﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٥﴾ ذَلِكَ بَأْنُهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾
فلا والله ما يجوز أن يحجزنا عن هذه السنة الإلهية حاجز، ولا يقف دون
الإيمان والتصديق بها عائق، كيما تكون مصباحاً من مصابيح الهدى على
طريقنا الطويل.

ففي مواجهة بين من يشاقون الله ورسوله وبين الفئة القليلة المؤمنة العاملة
على أن تكون كلمة الله هي العليا، يكون من الله القادر كل تأييد وتثبيت
لحملة راية الإيمان كيما تكون العاقبة لهم، والنصر المؤزر بجانبهم. أما دائرة
السَّوء فعلى أولئك الذين همهم مشاقة الله ورسوله والسعي في الأرض
فساد. ولكن ذلك مرهوب باستقامة المؤمنين على الطريق وبذل كل ما في
وسعهم أن يبذلوه، واستسلامهم الصادق لإرادة الله، واطمئنانهم لما يرسمهم
لهم وإخلاصهم العمل في سبيله. وتوكلهم حق التوكل عليه فهو حسبهم
ونعم الوكيل ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

والمؤمن يستعلي بيقظته وإيمانه على إرجاف المنافقين، وتخذيْلهم الكالِح
للعصبية المؤمنة عن متابعة السير. فالمنافقون قلوبهم في أكنة عن دعوة الحق
ولا قبل لهم - كما أشرنا من قبل - بادراك أسباب النصر وأسباب الهزيمة،
ولكن بصيرة المؤمن بتوكله الصادق على الله لهم بالمرصاد ﴿إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.



وإذا كانت سنة الله ماضية في تثبيت الفئة المؤمنة ونصرها ما كان منها استقامة على الطريق، بكل أبعادها ومدلولاتها، إن من سنته الماضية أيضاً أن هذه الفئة إذا غفلت عن الله، واسجابت لدواع لا تثقل في ميزان الإسلام، أن يؤديها ليعيدها إلى الخطيرة، ويسلمها إلى طريق النصر من جديد، ففي شأن ما كان يوم (أحد) نزل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

ألا إن معركة (بدر) أوسع وأشمل من أن يحد مدلولاتها زمان أو مكان، وسن الله الماضية التي برزت من وراء الأحداث يومذاك، وتسجيل الوقائع قرآنا يتلى، وسيرة عطرة تزين جبين التاريخ، إن هذا جميعا - وغيره كثير - أمانة في عنق هذه الأمة، ونبراس من الواجب أن يحتذى، ومثل من أروع الأمثلة يجب أن ينسج على منواله، فالإطار واحد ولكن تختلف الجزئيات من داخله باختلاف الظروف ووسائل المعرفة وما تقدم الحضارة من جديد، وكلما طاف بالفئة المؤمنة طائف من الرهبة أو اليأس، أو أثقلتها الأيام بالرهبة والخوف من طول الطريق، كلما وقع ذلك أو شبهه أو خدينه، تلفت هذه الفئة الصابرة المحتسبة لتراجع رصيدها في مقدار ادراكها للراية

التي يتحرك تحتها المؤمن، والمفاهيم التي أثرت كل التأثير في بدر وسلوك البدرين، تفلت إلى سنن الله الماضية التي لا تتخلف، وعطائه الذي لا ينفد، ومدده الذي لا ينقضي، فاعترت القلب هزة إيمانية تقرب المسافة بينها وبين رجال بدر، وتقتحم العقبات التي تحول بينها وبين أن ينالها إكرام الله وفضه لو كتب لأبنائها أن يكونوا جنوداً في أحقاق حق وإبطال باطل، ألا وإن محتوى بدر: برجالها، بسلاحها، بأرضها، بمثار النقع الذي انعقد فوق رؤوس أبطالها، بالتدبير الإلهي المحكم وراء النفوس والهواجس والرغبات، كل ذلك حجة على هذه الأمة من جهة، وواحة تفيء إلى ظلها من جهة أخرى، والمؤمن الصادق موصول القلب بالله، يكاد بعد أربعمائة وألف عام، يحسُّ كل حركة على أرض معركة بدر، ويسمع كل تكثيرة رددتها حناجر القوم يومذاك، ويبصر بعينه ملائكة الله تضرب الكافرين فوق الأعناق وتضرب منهم كل بنان، والمؤمن في قراءته لآيات الأنفال وآل عمران ونظيره في الوقائع، يحسُّ إحساساً صادقاً أن القافلة التي تحركت في ضوء تلك الآيات، واستطاعت أن تعي مدلولاتها، وكانت الرائدة التي بدت في حركتها صورة عملية واقعية للإيمان. إن هذه القافلة تدعوه إلى متاعبة الطريق ليسعد بأن كون من رجالها، متخطياً كل ما يكون من ركام وحطام، واعياً كل الوعي، أن مدلول المعركة والآيات التي نزلت بشأنها، لا يمكن أن تنفعل به النفوس الميتة، ولا القلوب التي رانت عليها الغفلة، وأطبق عليها حب الدنيا وكرهية الموت، ولعل ذلك كله قليل من كثير مما



يُوحِي بِهِ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى فِي فَوَاتِحِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا

ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت . اللهم أربط على قلوب أحبائك المؤمنين ، وثبت أقدامهم على الطريق . وأجعل بينهم وبين القافلة الرائدة نسباً موصولاً ، يؤهلهم لنصرِكَ وتأييدِكَ كما أيدت أهل بدر في مواجهتهم من شاقوا الله ورسوله وخرجوا بطراً ورثاء الناس ولا حول ولا قوة إلا بالله .

في مرضاة الله^(١)

لا يسأم المؤمن الذي توافرت له يقظة القلب وإشراقة النفس من العمل الدائب ابتغاء مرضاة الله تعالى، دعياً - على الرغب والرهب - من يجيب المضطر إذا دعاه، أن يكتب له القبول، وأن يجعله في عداد من تشغل موازينهم يوم القيامة، وذلك هو الفوز الكبير.

وانطلاقاً من هذه النقطة يبصر المؤمن كل واحدة مما يلاقيه من مصاعب أو متاعب في قضايا أمته ولها وجهان: أما أحدهما - فهو ما تفرضه مواجهة تلك القضية من جهد جاهد ودأب مخلص، ليعد لها العدة ويواجهها بما تحتاج إليه. والثاني - أنها واحدة من موائد الحق سبحانه، يقبل عليها من يقبل، لكيون له من انجاز ما يفرضه الإسلام بشأنها، بريد خير، وطريق سعادة ينالها من أحبههم الله وأحبهه ورضي الله عنهم ورضوا عنه.

وفي هذا: لن يكون ثقل التبعات وصعوبة اقتحام العقبات، باعثاً على الهروب من الساحة أو القاء الحبل على الغارب، خصوصاً فيما يخمره العقل الباطن ويخرج على فلتات اللسان، أو يظهر على التصرفات وكأنه قضية مدروسة أتخذ لها بعد البحث والتمحيص قرار. بل على العكس: إن شعاره دائماً ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثاني، السنة الحادية عشرة، ١٣٩٠ هـ ربيع الثاني، حزيران ١٩٧٠ م.



والحق أن هذه اللمسة الإيمانية التي تحرك المسلم من الأعماق، هي التي تجعله أكثر حركية وقدرة على التأثير، بما يسبق خطوته من الاخلاص والتقوى، وهي التي تطبع عمله بطابع الاستمرار، والصبر على كل المعوقات عند إرادة التغيير، والانتصار على عوامل اليأس واستبطاء النتائج وثمرات العمل.

والمؤمن -في ذلك كله- يرافقه على المدى وضوح في الرؤية، ووعي للواقع الذي تظله أحداثه، وإدراك لطبيعة الأرض التي يتحرك عليها في مواجهة أعداء أمته هنا وهناك، وقدرة على تقويم كل صغيرة وكبيرة، مما تلده الليالي ويطلع الفجر به على دينا الناس كل صباح.

لذا تراه -وعناية الله معه- لا يتخلف عن واجب، ولا يضيق ذرعا بالمسؤولية، ولا يتبرم بالتكليف، ولا يطيش أمام تلك الصور المعادية التي تفجؤه بألوانها وأشكالها طويلاً وعرضاً وعمقاً وانحرافاً قد لا يخطر لك ببال.

والحقيقة التي يجيها التاريخ وتعطيها دراسة الوقائع، أن انعكاس المشكلات التي تعترض سبيل الأمة حين يكون صحيحاً في نفوس أفرادها وأبنائها، ترى من آثاره تطلعاً دائماً إلى ما به يكون تصحيح الطريق إذا اعوجت الطريق...، واهتماماً بالكليات التي ترتبط بها تلك الجزئيات مما تلقىه الأيام هنا وهناك في طريق الأمة، على كل صعيد يحقق للأعداء - وهم يتحركون على نطاق عالمي - ما تمتد إليه أعناقهم من أضعاف هذه

الأمة، وتحويلها من بعد عن الصراط المستقيم والاعتصام بحبل الله، كل ذلك بعد تجريدها من مقومات وجودها، وامتناع طاقاتها التي لو أحسن توجيهها والإفادة منها، لأعطت أفضل الثمرات وأطيب النتائج.

ونحن أمة أعزها الله بالإسلام، وجعل بين ظهرنيها كتابها الذي أنزل بلسان عربي مبين، والذي لا يأتيه الباط من بين يديه ولا من خلفه، وحفظ -بجهود العلماء الأمناء- سنة نبينا التي هي بيان ذلك الكتاب، وأكرمها بما أكرمها به من أئمة الهدى، ومنازل العمل والجهاد، الذين يصدق فيهم دائماً -وحتى قيام الساعة- قوله تبارك وتعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾.

فإذا حزب الأمر، وذرَّ البلاء بقريته، لا تنطلق الأمة من ضياع، وإنما تعود -لو أنصفت- إلى منابع حياتها الزبيلة، التي هي المثل والعاصم. وفي سيرة النبي -صلى الله وسلم وبارك عليه- وسيرة أصحابه، وكل من سلك سبيلهم باحسان، ضياء لمن أراد أن يستضيء، ومقنع لمن أراد مقنعاً، وباب عريض من أبواب الخير، أن لو ابتغينا لأمتنا الخير، وأردنا لها أن تعود إلى قيادة الركب الإنساني من جديد.

ولسنا -نحن بصدد هذا الحديث- بناسين أن التركة التي ورثها هذا الجيل مثقلة حقاً، بما خلفته أجيال مضت، أورثتنا معه الكثير من الرزايا وصنوف الأهوال، خصوصاً إذا وضعنا في الحسبان، ما يستخدمه أعداء الإسلام -وقد سيطروا على الحضارة المادية- ضد هذه الأمة من علم ومعرفة ووسائل



تدمير مادي وفكري وصل إليها العقل البشري اليوم . ولكننا - ونحن في ظلال هذا الواقع والأعداء يتآمرون على أرضنا ووجودنا - يجب أن نذكر ما ورثناه من الخير الكبير وحسن الأسوة ، وأن نذكر بجانب ذلك أن الصراع بين الحق والباطل قائم ما دام هذا الإنسان على وجه البسيطة ، وأن ذلك مما تقتضيه طبائع الأشياء ، والمسلم دائماً في نصرة الحق وكرامة الإنسان . والثواب على قدر النصب .

ولقد يكون من الخير - بعد ذلك - أن نعترف بأن ما نجنيه اليوم قد يكون - إلى جانب مشاركتنا الواضحة نحن فيه - حصاد قرون بدأت يوم بدأ الجنوح عن الخط الإسلامي الصحيح . ولكن ذلك كله يهون حين ينظر المسلم إلى الأمر من خلال منهج رباني قرآني هو عنون حركة فيه ، لا إلى نفسه من حيث الـ (أنا) والحفاظ على الذات . نعم : ينظر من هذه الزاوية وقد سلم له التصور وصدق في أن تكون الغاية مرضاة الله سبحانه مع ملاحظة أمرين اثنين :

أولهما - وجوب تحرير الخطوة السليمة في حدودها وأبعادها ومنطلقتها ، كيما نطمئن إلى أننا قد وضعنا أقدامنا على الطريق ، وذلك لا يقتصر على حالة دون أخرى ، وإنما يشمل كل حالات العمل ، مهما اختلفت الألوان والساحات ، ومهما تنوعت الاختصاصات والسبل «إنما الأعمال بالنيات» . «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» .

ثانيهما - إن المهم هو استنفاد الطاقة في العمل لخدمة هذه الأمة بحيث لا يبخل المسلم بعطاء يستطيعه ، ولا يتوانى عن جهد يقدر عليه ، عطاء العاقل

وجهدَ البصير ، تحقيقاً لكلمة الله في الأرض ، بصرف النظر عن قرب الثمرة أو بعدها ، توفرُ النتائج غداً أو بعد حين ؛ فالأمر لله وحده يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد .

والذي عليك : أن يراك الله مؤدياً للأمانة باذلاً الجهد ، أميناً على ثغر الإسلام الذي أقامك هو سبحانه عليه فلا ينفذ إليه الأعداء من قبلك .

وفي وقائع السيرة ما يعطي أن كثيراً من السابقين الأولين -عليهم الرحمة والرضوان- من أولئك الذي باتوا على الطوى ، وغمرهم عنفوان الأذية في سبيل الله ، وتجرعوا العلقم في أول الطريق ، حتى حملوا -بعون الله- العهد المكي الذي كان القاعدة على أكتافهم ، لم يصبروا رايات الإسلام المظفرة تخفق في بدر والفتح والقادسية ، ولا شهدوا تطبيق شريعة الإسلام في المجتمع تحقيقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ لقد طواهم الردى قبل أن يشهدوا النصر والتمكين ، ولكنهم قدموا على الله وقد أعطوا كل شيء في سبيل الله ، وفي وجه كل واحد منهم ألف دليل ودليل على أنه من رواد قافلة الإيمان ، الذين دميت أقدامهم وهم يشقون للإنسانية طريقها من جديد ، وقيل لهم وقد فتحت أمامهم أبواب الجنة : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

وفي كتاب الله تعالى العديد من المواطن التي ترسخ هذا المعنى وتدعو إليه ، بل أن الله تبارك وتعالى أثنى على أولئك الذين يعملون ما يعملون وهم وجلون أن لا يقع عملهم موقع القبول ، ذلكم قول الله تبارك وتعالى :



﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ . لقد أبانت عائشة وغيرها من الصحابة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنهم يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أن لا يتقبل منهم ، وفي قراءة لعائشة وأتوا بدل وآتوا ، وكانت ترى أن ذلك أوسع في المعنى . هل رأيت !!

إننا إن فعلنا ذلك ؛ عدنا إلى ما كنا عليه ، عنوان حركة الخير ، وبُناة حضارة للإنسان . ولن يمر التاريخ بأرضنا ليقول : إن عدد هؤلاء كذا وحسب ، ولكن ليقول مرة ثانية - كما قال في الماضي - : هؤلاء صنعوا بإسلامهم للإنسانية كذا ، وبنوا للحضارة كذا ، وعبدوا للمعرفة والهداية أوسع طريق ؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

ليس بالأمني (١)

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ (١٢٣) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ . تلك سنة الله وعدالته ، فلن يصلح أمر هذه الأمة أن تتعلق بألوان من الأماني دونما عمل أو أخذ بالأسباب ولكن يصلح أمرها في أن تعزم الأمر عزيمة الرجال لتمسك بزمام الخير من جديد غير مبالية بما قد يكلفها ذلك من صبر وعناء لأن الأعداد الصادق للمواجهة الحازمة بكل متطلباتها الواقعية لا بد له من ذلك ، خصوصاً إذا وضعنا في الحسبان لغة العصر الذي يتسم باستخدام كل المكتسبات الحضارية في مواجهة الإسلام .

فلكي تصبح الأماني حقائق ماثلة تتحرك على الأرض ، وثبت وجودها في دينا الواقع ، لا مندوحة عن السبيل المعقولة المنتجة ، سبيل العزيمة الإيمانية الصادقة والسير بوعي ومنهجية ، بعيداً عن العبث والتلهي بقصور ينسجها الوهم ويتشاءب بألوانها الخيال .

والنبع الثر الخالد الذي يمد العزائم في هذا المضمار ، فينير العقول ويحرك القلوب ، ويدفع بالسواعد ، إنما هو تلك الحقيقة التي هي من أوليات الأمور عند المسلم ، وبديهيات المعرفة لديه ، وهي كون الإسلام رسالة من عند الله

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الرابع ، السنة الحادية عشرة ، ١٣٩٧ هـ شوال ، تشرين الأول ١٩٧٧ م .



عز وجل ، وليس تجربة من صنع البشر .

فإذا سلم تصور المسلم لهذه الحقيقة ، واتجه في ظلها إلى الغاية كان قادراً على أن يفعل الكثير الكثير . إن أمتنا لا تنتظر المعجزة اليوم ، فالمعجزات ترافق الرسل -عليهم الصلاة والسلام- لتثبت صدق ما يدعون ولكن الأمة اليوم في ظل كتاب ربها وسنة نبيها وفهوم أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان ، ترقب العمل الصادق الواعي . وعناية الله معها ، وعطاؤه كائن لها ، ما استقام للعاملين الطريق وتوفر الأعداد الصحيح والإخلاص لله عز وجل . وإنما يكون ذلك بتكوين القاعدة الصلبة الواعية القادرة على تحمل مسؤولية الإسلام -وهو شرعة الله لعباده- عقيدة في القلب وإشراقه في العقل ، ومنهجاً للحياة ، ونظماً للتطبيق .

وإن من حماقة البلهاء ما يكون من تجاهل أو تغافل عما به كان التحول الخطير في حياة أمتنا منذ بعثته -عليه الصلاة والسلام- ، حين بلغت رسالة الوحي وهي تتلمس طريقها في الظلام . فلقد كان أمر الوحي نقطة البدء في هذه المرحلة الخطيرة من حياة الأمة ، لأن إيمانهم أن ما جاءهم به محمد -صلى الله عليه وسلم- هو من عند الله وليس من عند نفسه كان إعلان تحول جذري من حيث مفهومات الحياة والمقاييس التي ينبغي أن يقيموا عليها وجودهم بين أُم الأرض ؛ والمعايير التي بها توزن أقدار الرجال حتى صدق

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثامن ، السنة الثامنة عشرة ، ١٣٩٧ هـ شوال ، تشرين الأول ١٩٧٧ م .

فيهم قول النبي -عليه السلام- : «الناس معادن فيخارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» .

وأبرز ما في الموضوع أن تلك المقاييس بالإضافة إلى ما صنعت في إصلاحهم وتوجيه طاقاتهم وأهليتهم الوجهة الرشيدة الراشدة، وتنمية كياناتهم في ظل الهداية الربانية المشرقة، جعلتهم في حال تحفز دائم لأن يخرجوا على واقعهم قبل الرسالة . وكان ذلك -والحمد لله- فبجانب الإصلاح الداخلي، استطاعوا أن يكسروا القيد الذي ضربته عليهم عطرسة الفرس والرومان، بل ورثوا أرضهم وديارهم . ونقطة البدء هذه جعلت من العربي صاحب رسالة يتطلع من خلالها إلى ما وراء الحدود، ويقوم بميزات تلك العقائد المثقلة بالخرافة وتعطيل العقل عن أولئك الأقوام، فضلاً عما كان عند بين جلده الذين يسكنهم ويعيش معهم من تلك العادات والتقاليد الموروثة المتدحرجة مع الزمن إثمًا عن آباء والجدود، والتي أناخت بكلكها الجاهلي ربحاً من الزمن، حتى أكرم الله هذه الأمة بالإسلام وحمل العرب رسالته إلى العالمين .

والذي يرصد التحرك الإسلامي الواعي يوم كان المسلمون على الطريق يرى كيف أن الرسالة بصّرت الأمة بالخط المستقيم الذي يفضح كل الخطوط المعوجة ويكشف الأقنعة عن وجوه أصحابها، ويضع كلاً منهم في موضعه الطبيعي لا وكس ولا شطط، ولا غرور ولا تزوير، ولقد علمنا الله كيف نحمده على هذا، وهو أهل المحامد كلها فقال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى



عَبْدَهُ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١٠﴾ قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿١١﴾ والحق أن هذه المرحلة كانت رحلة جديدة على طريق الإنسانية التي عانت من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان وغرقت في بحار مظلمة من الوهم والخرافة والتقلب على أشواك الضياع.

من هنا كانت محاولة زعزعة الإيمان، وإقصاء المسلم عن ساحة الاعتقاد الصحيح، من الأمور التي تشكل المرتكز الأساسي في منهج أعداء الأمة؛ لأن ذلك يتيح لهم شغل الساحة بما يريدون من كل ما يضعف كيانها، ويحول دون أن تضع القدم الراسخة على سلم الحضارة من جديد، بعد أن نتخلص من عقدة التخلف، ووهم الاضمحلال، والعبودية للقوة التي تنمو على حساب كرامة الإنسان وحريته يوماً بعد يوم.

ولقد يتهياً المناخ المناسب من طريق امتصاص الشعور الإسلامي والتطلعات الضائعة، بقضايا عاطفية جانحة، ناهيك عن تشويه الحقائق، وعرض القضايا من وجهة النظر الخبيثة الماكرة، وما أسوأها حالاً أن يستخدم ذلك عند الحكم على الماضي، ويتخذ سيطاً يقود فلسفة الوقائع، ويرسم طريق المستقبل للفرد وللجماعة.

ولو رحت تتلمس ذلك في المجالات الفكرية وغير الفكرية لهالك الأمر وأدركت أننا حين نتغافل عن ذلك، ونغمس رؤوسنا -شأن النعمة- في التراب نكون كمن يريد أن يفكر من أخمص قديمه وما هو بفاعل.

وإذا كانت الأوليات في ميدان التوعية تقضي بالعمل على وضوح الرؤية، وإزالة ما يكون من عوائق النظر عند الحكم على الأشياء. أن علينا أن نحسن التصور لما يفعله خداع العناوين في هذا المجال، لكيلا تفجأنا المذهلات في مصير الكثير من أبناء الأمة.

وفي ضوء هذا التصور الواقعي الذي لا مندوحة عنه -والركب يشدد على المسلم يوماً بعد يوم- تنكشف الأقنعة، وتظهر من وراء الأشباح نكارة تلك الجريمة التي يمارسها أولئك الذين يعطون أنفسهم المسلمين بالأذى، ويصدوهم عن سبيل الله؛ فرى فريقاً منهم يعملون على تميع المفهومات الإسلامية، وجعل المسلم يتناولها، وكأنه يقبض على الدخان، فلا أول ولا آخر، ولا مقدمات ولا نتائج، وإنما ضياع يلد الضياع، واستهلاك للوقت في غير طائل، وفوضى قد تنتهي بالقارئ إلى كثير من الإعراض وعدم الاكتراث.

أما الفريق الآخر: فدينهم أن يملأوا أذهان الناس بالخرافة، والقصة الفارغة والحديث الموضوع، وأن يحدو ثوا بينهم وبين الإسلام نوعاً من الغش يمنع وضوح الرؤية لتمثل معاني الإسلام الحقيقية الأصيلة، كما جاءت بها منابعه وفهمها أئمة الهدى عليهم الرحمة والرضوان، ثم أن يعطوا أسوأ الأمثلة في سلوكهم وأخلاقهم عندما يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، فيجعلون من الدين بضاعة مزجاة، ويقولون ما ليس في قلوبهم ناسين أو متناسين قول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا



أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ يوم تندلق من المنافق أقتاب بطنه ،
ويدور في جهنم كما يدور الحمار بالرحى .

وإنك واجد في هؤلاء أولئك جرأة على الحق ، وتطاولاً على المعرفة ،
يحملان على مفساد التأويل لكل خطوة ظالمة أو فهم منحرف دخيل ، حتى
كان من أبسط نتائج ذلك ، وإعطاء الإسلام سمة الهواية حيناً ، وسمة الضيق
والمحدودية حيناً آخر ؛ فهو هواية تتمثل في مجموعة من الطقوس - على حد
تعبيرهم - للمتعة النفسية وقضاء الوقت وملء الفراغ الذي قد سمونه
روحياً- لمن أراد ، أو هو عنوان فئة محدودة من أبناء الأمة وليس كل الناس
يؤمنون بالذي تؤمن به هذه الفئة ، ويحظى عندهم سلوكها بالقبول ؛ كل
أولئك من أجل عزل الأمة عن ساحة الالتزام ، وأبعاد الإسلام عن أن يكون
عنصر الحياة في وجود هذه الأمة واستمرارها ؛ فهو هواية قد يشبعها ما
يسمى بالاحتفال الديني حيناً حيث تنهياً عملية الامتصاص للشعور
والعواطف . وهو خاص بفئة . . أو غير ذلك من أسماء سموها
ومصطلحات تعارفوا عليها . . ما أنزل الله بها من سلطان ، وأنتك واجد -
على مر التاريخ- أن التعاون قائم بين الطغيان وأهله ، وبين أولئك
الأوصياء ؛ فالأوصياء على الدين وأهله يُضَلُّون ، والطغاة يتغلون ويذلون .
وكم يتقارضون الشاء والتقدير ، ويتعاورون راحلة الأذى والتأثير ؛ لأن كلاً
منهما عون للآخر على الغاية التي رسمتها مناهج آثمة تريد أن تلقي في
أرض المسلمين الرجس ، والضعف والانحسار ، بما تعمل على إبعادهم عن
مرتكزات الوعي الإيماني والجهاد الصادق في سبيل الله .

ولئن كانت المسؤولية في هذا الباب على قدر المعرفة، إن الأحداث التي تمر بالأمّة تشعر من كان في قلبه حبة خردل من إيمان بعظيم تلك المسؤولية التي القتها الأيام على العواتق كل في حدود الرعاية التي ولاه الله أمرها؛ وعلى هذا: فإن أولئك الذين أولتهم الأقدار عبء الريادة على طريق الأمّة بما لهم من المعرفة وألوان الثقافة، مطالبون بأن يهبوا قدراتهم لهذه الأمّة وفي سبيل الله عز وجل، لما أنهم يملكون الكثير من أسلحة المواجهة في ظل حضارة تمدّد أعداءنا بالكثير من وسائل التدمير المادي والمعنوي، وفي ألوان لا حصر لها تحت شتى العناوين، ناهيك عن الوصاية التي المحنا إليها من قريب. وغير نافعهم شيئاً للركون إلى الدعة وإلقاء الحبل على الغرب؛ لأن ذلك ركون ظالم مقيت يخشى معه أن يحق عليه قول الله تعالى ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ وما يصيب الفرد والزمّة في هذه الدار من آثار هذا الركون نيران قبل نار الآخرة.

ولكم يكون التكامل واضحاً، والثمرات النافعة مضمونة، إذا ضم هؤلاء الرواد إلى ثقافة العقل وما كان من تفتح على ما عند الآخرين من منهجية ومعرفة، ثقافة القلب، فزانت أعماله تقوى الله عز وجل، وكان وراء كل حركة مراقبة لخالق القوى والقدر، فلا همّ لهم إلا أن يحققوا ما فيه الخير لأمتهم، وأن يكون ذلك في حيز القبول عند من تعرض الأعمال بين يديه في ساعة لا تزول قدماً العبد فيها حتيت يسأل عن أربع، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، عن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين



اكتسبه وفيم أنفقته ، وأنا لنعوذ بذِي العِزة والجِبروت ، أن تعشي أعيننا الفتنة ،
فلا نبصر وجه الحق ، أو أن يران على قلوبنا فنرى المعروف منكراً والمنكر
معروفاً .

كما نعوذ به - وهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء -
أن تنحرف بنا الدنيا ، فيحلّ علينا غضبه وتقع في مهاوي الإثم ، ونضلّ
سواء السبيل . . اللهم آت أنفسنا تقواها وزكّوها أنت خير من زكاها أنت
وليّها ومولاها ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ما هو بتجربة ولكن^(١)

هذه الغاشية من الهول الذي يحيط بعالمنا الكبير ، وما يبدو من انحسار الإسلام عن القيادة الحضارية اليوم ، كثيراً ما تكون سبباً في سقوط الضحايا من أولئك المسلمين الذين يعيون على هامش الإسلام ، سطحية بلا عمق ، ووراثية بلا عمل . لأنهم -وعجلة الأحداث تنوشهم من هنا وهناك- يتخيلون في الإسلام تجربة من صنع البشر زاولتها أمتنا وحملتها إلى غيرها من الأمم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان وما يصلح لزمان قد لا يصح لآخر . .

وهذا كلام قد يبدو سليماً -لأول وهلة- أن لو سلمنا بنقطة الارتكاز واعتبرناها من الحقيقة بسبيل ، لكن القضية - كما يعرضها بعض الأناسي ، أو تعرض للأغبياء منهم - لا تعدو أن تكون لونا من ألوان التمويه الخبيث الذي يتعارض مع أصل العقيدة في ذاتها ، لأنه يقوم على تفسير معين للوقائع ، ينكر الوحي ، ويأتي على طبيعة الرسالة السماوية من جذورها ، غير معترف بها ، ولا ملتفت إلى صلة السماء بالأرض .

فالإسلام -والأمر غني عن الأثبات- رسالة من عند الله عز وجل ، نزل بها الروح الأمين على الرحمة المهداة ، نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، قرآنا يتلى خلال ثلاثة وعشرين عاماً أو تزيد . ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ . ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ .

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثالث ، السنة الحادية عشرة ، ١٣٩٠ هـ جمادى الأولى ، ١٩٧٠ م آب .



والرسول -صلى الله عليه وسلم- أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، اصطفاه الله لرسالة لم يُعرف قبلها شاعراً ولا خطيباً ولا زعيماً ممن لهم الصدارة والوجاهة، وجُل ما عرف به ذلك الأ نموذج العالي من السلوك حتى لقب بـ (محمد الأمين) وبذلك الأ نموذج العالي من التعقل وحب الخير حتى درأ الله به الفتنة في قضية الحجر الأسود ومكانه من بناء الكعبة المشرفة .

ولم يحمل لنا التاريخ أي مقدمات تدريجية تدل على أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- كانت نتاج تطور طبيعي بالنسبة لكفاءة الرجال يومذاك . ولكننا وجدنا -والله أعلم حيث يجعل رسالته- أن بين محمد بن عبد الله صلوات الله عليه وسلامه -بوصفه رسولا- وبين أي عظيم عرفته العرب يومذاك بونا لا يكاد يُحد، من جميع الوجوه التي تبرز فيها خصائص الرجال . حتى من ناحية البلاغة التي كانت تسجد لها العرب يومئذ، شهد تاريخ الأدب في العالم أن محمد بن عبد الله الذي لم يعرف قبل البعثة بشعر ولا خطابة ولا اشتراك في أسواق العرب التي يتبارى فيها البلغاء والفصحاء من شعراء وخطباء، شهد تاريخ الأدب أبلغ وأفصح رجل عرفته العرب، ورأى القوم أن كلامه يأتي في مرتبة تالية بعد كلام الله المعجز الذي عجزوا عن أن يأتوا بشيء من مثله .

ولحكمة يريد بها الخالق جل وعلا، جاء التأكيد على أمية الرسول -صلى

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان التاسع والعاشر، السنة العاشرة، ١٣٨٩ هـ ذو القعدة- ذو الحجة، شباط-آذار ١٩٧٠ م.

الله عليه وسلم- ونفي الشعر عنه ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ . ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ . ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ . ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذَكَرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ .

وإذا كانت الأرض لا تخلو من السفهاء ، فقد زعم بعض الكفرة يومذاك مع يقينهم بأمية الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، أن راهباً أعجمياً يلقي إليه بما يدعوهم إليه ويسمعونه منه ، واقتحمهم الرد القرآني بما كشف عن رداء الغفلة الذي تتسربل به عقولهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ .

وإنا إذ نشير بهذا الإيجاز إلى تلك الحقيقة ، فليك نقطع الطريق على أولئك الذين تهولهم مضمونات الإسلام بما تحمل من إنسانية وواقعية وحركية يدركون أنها هي القادرة -ولا قادر غيرها- على إيقاظ هذه الأمة على عواء الذئاب التي تقوم بالعدوان على أرضها ومقومات عقيدتها وفكرها ووجودها .

وكان الإسلام خاتمة الرسالات السماوية ، وأكرم الله هذه الأمة بأن جعلها وسطاً بين أم الأرض لغرض أرادة وحكمة شاءها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وانظر في



هذه الوسيطة، وحملق، وارجع البصر كرتين لتجد من مضموناتها العجب العجاب .

وهكذا جعل الله من المسلمين حراساً للحقيقة الإيمانية التي أثبتت وقائع التاريخ أن الإنسانية لم تعرف طعم الحياة بدونها، وز الإنسان لم يتذوق معنى كرامته ووجوده إلا بوجودها . ولذلك نستطيع القول -من خلال كون الإسلام رسالة سماوية لا تجربة- أن المسلم الصادق يمثل في هذه الأرض صدق رسالات السماء التي انتهت بالإسلام، الدين الذي دُعي إليه الناس كافةً على لسان البشير النذير محمد -عليه الصلاة والسلام-، ورضيه الله لعباده، حيث أكمل به الدين وأتم النعمة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ . ولو كان الزر تجربة من صنع الإنسان لا نقلب وجه القضية رأساً على عقب إذ أنى للعقل أن يجاري الوحي في هذا المضمار والتجربة كثيراً ما تعيي العقل فتقع الأخطاء وتقوم المحاولات لتصحيحها، وكم تضيع أعمار، وتهدر طاقات، وتتعرش شعوب، وتتعرض للضياع والحرمان بهذا السبب الذي هو خطأ التجربة ومحاولة إصلاحه، فرسالة السماء جاءت كاملة لأنها من وحي رب الكمال سبحانه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ والباب مفتوح للاجتهاد عند تطبيق الجزئيات والوقائع غير المنصوص عليها بما لا يتعارض مع بنية الإسلام كما أراده الله . وهذا الكمال كان وجهاً من وجوه الاعجاز في رسالة الإسلام .

وهكذا فالذي يصح أن يقال: إن الأمة الإسلامية قد جربت تطبيق تلك الرسالة التي آمنت بها فعادت عليها بالخير الوفير على صعيد الفرد والجماعة والدولة والأمة، وكل الوقائع - على اختلاف الظروف - شاهد بارتباط التمكين في الأرض، والعزة التي لا تدانيها عزة، والسلطان الذي لا يقهر - بالتطبيق الواعي لمضمونات تلك الرسالة في العقيدة والشريعة والسلوك. وهو تطبيق له مع كل المؤيدات، حراسة داخلية من الوازع الذي يجعل المؤمن في مراقبة دائمة لله عز وجل، فالاحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وما أوسع ميدان العبادة في الإسلام، وأمر الوازع هو ما تفتقده التجربة التي هي من صنع الإنسان، لزنه من خصائص رسالة السماء، وكم أقض هذا الوازع مضاجع الأعداء لأنه دائماً بشير العودة الصادقة إلى الخط المستقيم. والاخلاص في العمل، والبعد عن مستنقعات اليأس والانقطاع.

ويوم عدلت الأمة عن التطبيق واستهانت بتنمية الوازع والخشية من الله الذي لا تخفى عليه خافية، ورضيت من الإسلام بكلمات على اللسان، أو أضواء تبهر الناظرين في المناسبات، وفصلت بين العبودية والألوهية التي تجعل الحاكمة لله عز وجل، وأصبح الدين وكأنه هواية لفئة من الناس دون أخرى، يوم فعلت الأمة ذلك أصبحت في مؤخرة الركب، فتداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

وكل من كانت له نسبة إلى أولي الألباب، لابد أن يستقرئ الحوادث ليتعلق بالمقدمات التي ترتبت عليها النتائج، على اختلاف ألوانها ومدلولاتها.



ولسوف يجد أنه ما دامت هذه الدعوة من عند الله ، وقد أثمر الاستمساك بها ما أثمر من نتائج طيبة وثمرات ، فليس للمسلم اختيار -بوصفه مسلماً- يحرص على نفسه وأمته- في أن يحول عنها أو يولي وجهه شطر غيرها كيما يختار بعد التجربة أي شيء يريد . . نقول هذه الكلمات ، ونحن نشهد ضياع الكثيرين وسط الزحام ، وأنهار الكثيرين في معترك الأصواء ، وداوار العديد من الأناسي في حمى الرغبة والرغبة ، وتصدع القلوب أم الطغيان الذي يحرك ميزان القوى في العالم ، والإسلام عن ذلك بمعزل .

ومن العجب العجائب أنك قد ترى ذلك -وهو ما أشرنا إليه في صدر كلامنا- عند بعض أولئك الذين يطلق عليهم صفة المثقفين ، فهو أمر لا تجده عند الإنسان العادي المؤمن الذي لا يزيد على الحوقة في شأن تخلف المسلمين عن تطبيق الإسلام حكماً في قضاياهم ونبراساً لحياتهم في نظامه وشريعته ومبادئه في الاخلاق والسلوك .

والحق أن الإسلام بحاجة إلى مثقفين بالمعنى الحقيقي للمثقف بشكل عام والمثقف المسلم بشكل خاص . فالثقافة -كما هو معلوم- لا تعني أبداً جمع ألوان من المعرفة وكفى دون تكوين ملكة قادرة على العطاء ، العطاء الذي يبدو من ورائه ذلك التقويم الذي أفاد منه العقل من جراء تلك المعارف التي اختزنها يوماً بعد يوم . وما لم تقم المعرفة بدور التثقيف الذي هو التسوية والتقويم فلن يكون صاحبها مثقفاً بالمعنى الحقيقي .

والمسلم إذا أنطلق من هذه الحقيقة الذاتية ادراكاً لحقيقة الرسالة المحمدية .

لا يستأخر ساعة من الزمن - بسبب أن الإسلام تجافيه القوة اليوم - عن مراجعة رصيده من العمل وتجربة التطبيق دونما تلفت أو حيرة أو شكوك . وعند ذلك يكون عنده من الرسوخ والنهجية وسلامة القصد واخلاص النية ، ما يجعله يرى كالشمس الطالعة في رابعة النهار ، أن القوة لا يصح أن تحل محل الحقيقة أبداً ، مهما طال الأمد وامتدت حبال الإمهال ، ولكن تلك القوة يجب أن تكون في خدمة الحقيقة وذلك ما يسعى إليه المسلم . ذلك أن أولئك الذين يحركون ميزان القوى في العالم - وهو دائماً وراء ضلالات العناوين التي توضع للإسلام - لم تستطع قوتهم أن تقيم برهاناً واحداً على أنها تحرس الحقيقة ، بل العكس هو الصحيح ؛ وهمها العدوان على مقدرات الشعوب التي تعتبرها دمي تحركها من وراء ، وعناصر لموائد تتلذذ بالتهامها وجذبها حرباً ، وسلماً ومداعبة ، وتأديباً ، وتأذيباً ، ولعباً على الحبال من طريق الذين يجيدون اللعب على الحبال ؛ فالمنطق يخرس ، والسلاح يتكلم والحقيقة لا يسمح لها بالظهور ، والتأمر يدرقرنه بخبث ثعلبي بشتى العناوين البراقة من هنا وهناك .

والمسلم - وهو يعيش حياة المجاهد - ما دام على وعي من أمره ، وعلى بصيرة من طريقه ، لا يفجؤه الأمر ، لأنه يدرك طبيعة الصراع بين الحق والباطل .

ومن خلال ذلك كله - والحديث موصول - لا بد أن يكون المسلم وخصوصاً في هذه الظروف الحالكة التي تحيط بالامة ، من أن يكون على



ذكر من وجوب سلامة المنطق واستقامة الطريق ، والحيلة والاحتراش من كل بادرة تتجافى مع الحق الذي بعث به محمد صلوات الله وسلامه عليه .
إننا إن سلكننا هذه السبيل ، كنا قادرين على أن نجتاز العقبة الكأداء ، وننجو وسط الزحام من الهول ، وندقّ حصون الإثم فنعيد إلى امتناحقها السليب .
وإلا حقت علينا تلك النذارة التي أنذر بها النبي -عليه الصلاة والسلام- أولئك الذين تلعب بهم الأهواء وذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه :
«سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلبُ بصاحبه ، لا يبقى منه عرق ولا مفصلٌ إلا دخله» ولله عاقبة الأمور .

الأمة.. وعائق الميزان^(١)

القدس في القيد . . ثالث الحرم لا يجد اليد التي تمسح عنه عوادي الزمن . . والأمانة تثقل الكواهل بما تلد الأيام من أهوال وما تتمخض عنه الليالي من فتن كقطع الليل المظلم . . ومع كل صباح لون من ألوان التمحيص جديد .

وليس من مكرور القول أن نشر إلى ما أملحنا إليه غير مرة، من أن الأمة الواعية هي التي تمسك بعائق الميزان أيام الفتنة، فلا تصرفها الأحداث الكبرى عن متركزاتها الأولى ومفهوماتها الأصيلة التي ترسم لها الطريق . وإذا كان الأمر كذلك، فلن يستبد بهذه الأمة الارتجال الذي كثيراً ما يضرب معه جبل القيم، ولن تحكمها ردود الفعل والانعكاسات الطارئة التي تفد كل يوم بلون، لا ينتظمها ضابط ولا يحدها مقياس . وما أكثر ما تولد من عثرات ونكسات .

وعلى هدي هذه البدهية الواضحة التي ترفدها تجارب التاريخ القديم والحديث، يمكن القول بز من سداد المنطق أن تعمد الأمة المسلمة إلى تصنيف قضاياها، تصنيفاً متكاملاً يرسم لكل قضية أبعادها، ما هي مقوماتها، وما هو دورها على طريقنا الطويل، من أين يمكن أن تبدأ، وإلى أين يمكن أن تنتهي، وإلى أي مدى تقترب أو تبتعد عن معالم الضياء التي أنارت لها السبيل وبصرتها مواقع القوة في شتى الميادين، وما هو نسبها إلى تلك

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الخامس، ١٣٩٠ هـ رجب، ١٩٧٠ م إبريل.



الألوان من علاقات الأمة الداخلية والخارجية، وساحة وجودها الحاضري رغم الفتن ومطارق الابتلاء.

والأمة حين تفعل هذا، تكون قادرة على البعد عن ساحات الضياع. كما يكون باستطاعتها اكتشاف ما وراء الأحداث والإفادة من مواقف العظة والعبرة، حتى تكون تلك الأحداث وتلم المواقف لها لا عليها في خاتمة المطاف. وذلك مما يمكّن لها بعون الله أن تضع القدم الثابتة على طريق البناء، فلا تكون كالتّي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا.

وإنما كان ذلك كذلك، لأن التصنيف الواعي في ظل مبادئنا ومثلنا وحاجتنا القريبة والبعيدة، يوفر للطاقات أن تعلم في حدود الاختصاص وميادين الانتاج، فلا يضيع شيء منها هدرًا، ولا يعوزك أن تجد الفرد حيث يجب أن يكون. كما يدفع عن الطريق تلك المعوقات التي قد تحول دون المتابعة والاستمرار، بل والثبات على الحق الذي في سبيله تجنّد الطاقات ويندفع العاملون. حتى إذا استيقظت في نفس المؤمن كوامن الحركة والانطلاق، وتدافعت على أبواب الحياة سواعد الخير، وتجمعت كل الطاقات المبعثرة لتقول كلمتها، رأيت صفحة جديدة تكتب في تاريخ المسلمين الحديث.

وفي أعقاب ذلك: لن تجد -إلا لمامًا- تلك الممالك الصغيرة في أذهان بعض العاملين في أرجاء العالم الإسلامي هنا وهناك، حيث يفتش كلٌّ عن قضية يجدها -لنفسه- حسب اجتهاده أو وفق هواه، راية يتحرك في ظلها،

ويمضي الساعات والأيام في تدعيمها والبحث عن مسوغات التخصص في بحثها دون كل القضايا التي قد تكون كل واحدة أهمُّ منها بألف مرة، من حيث واقع الأمة ومعاركها التي لا تتناهى مع أولئك الكفرة من الأعداء الذين يتحركون على صعيد عالمي لا يعرف في مواجهة الإسلام هوادة ولا رحمة.

ومرة أخرى لو سلكت سبيل الاستقرار ممسكاً - بمصباح - التجرد عن الغرض، لروّعك ما تجدد من تلك الطاقات المهدرة، والكفاءات المبعثرة، والجهود التي لا يجمع شملها رابطة، ولا يلم شعثها منهج، والعدوُّ بالمرصاد يرقب ما نبدي وما نعيد، ويثلج صدره - عليه اللعنة - ما يكون من تلك المقدمات الخائبة التي تلد تلك النتائج الجارحة المؤذية والعياذ بالله.

وفي دائرة أوسع من هذا الذي نشير إليه تجد فيما تمليه طبائع الأشياء، وما ينطق به تاريخ الوقائع، أن من الملمات التي أصابت ديار الإسلام، ما تراه من الفوضى في النظر إلى قضايا الإسلام والمسلمين ومشاكلهم التي تكاد تترد في الأعم الأغلب إلى أصول واحدة معروفة، وأن تاونت المشكلة بلون البيئة والظروف هنا وهناك.

وبسبب من هذه الفوضى والبعد عن التصنيف الأمين الواعي كما يفرضه الإسلام، تسير الأمة قرناً من الزمان وهي تقول: كان من الأجدر أن يفعل

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان السادس والسابع، ١٣٩٠ هـ شعبان ورمضان، تشرين الأول والثاني ١٩٧٠ م.



كذا، وأن يكون كذا دون الخروج إلى حيز التنفيذ ويأتي أبناء الجيل الذي يخلف من سبقه ليقولوا الكلمة نفسها، ويرددوا التأوهات وألوان النواح، ويحيلوا الأمر جملة وتفصيلاً على أعداء الإسلام الذين يفعلون كيت وكيت . . . ويغرق الكثيرون في هذا ويغرقون، ليأخذ التخلي عن المسؤولية والجهد والعمل وفق إرادة التغيير، طابع الشرعية. كأن المغروض بأولئك الأعداء أن يهبونا جنات تجري من تحتها الأنهار، وأن نكون نحن دميَّ ثقلبها الأيام كيف تشاء، إن العقرب لا تسأل لماذا تلدغ كلَّ مرة. إنها تلدغ لأنها عقرب، وموضع الغرابة أن لا تفعل ذلك، وإن علينا أن نعلم وندرك ونعي، فلا يأخذنا دوار الغفلة عما يجري حولنا، ولكن في الوقت نفسه لابد أن ندرك مسؤوليتنا ونفقه كيف نسير .

ولقد تكون أمانة هذه الدعوة -بجملتها- في عصر من العصور أكبر من طاقة أولئك الذين تؤرقهم وتثقل كواهلهم . لأن على هؤلاء الرواد أن يواجهوا أسباب المرض الكثيرة، التي يترد بعضها إلى داخل النفوس باستعدادها للانهازم والتقهقر، وقابلية الفوضى، وعدم القدرة على التكيف مع المنهجية والتصنيف . كما يترد بعضها إلى ما يدبر أعداء الإسلام من الأحابيل والمكائد التي قد لا تخط لشياطين الجن ببال .

قد يكون ذلك وأكثر منه، ولكنه لا يبني -والتحريض واقع لا محالة كما صرح القرآن- إلا المحاولة الجادة المخلصة، في تحويل الإرادة إلى كائن حي تلك المحاولة التي تضع في اعتبارها، تصنيف القضايا، ووعي حاضر

المسلمين ووضع الأصبع على مكن الداء من جذوره خصوصاً فيما يتعلق بتكوين الفرد، وإعداده القاعدة الصلبة القادرة على التحمل أولاً والعطاء ثانياً. تيرافق ذلك الوقوف عند عبر الماضي، ما كان لنا وما كان علينا. ولتأخذ الأمور أرقامها، أيها يكون المقدّم، وأيها يكون المؤخر الآن، لا لأن ما أخرناه غير ذي أهمية في ذاته أو أنه بعيد عن بنية الإسلام أو ضرورات الزمة وحاجاتها، ولكن لأن الحكمة في ذلك، ولكيلا تثقلنا المشاكل، فتحكمنا بدل أن نحكمها، وتوجهنا بدل أن نوجهها حتى نضع لها الحلول ونسلمها إلى مكانها الطبيعي.

إننا إن فعلنا ذلك كان كل أمر تمهيداً طبيعياً للأمر الذي يتلوه، وكنا مأمّن من تصرفات الارتجال، وفي منجاة من أن يحلّ ردّ الفعل محلّ المنهج والتصنيف، وإن تستبد النزعة الفردية وحب الممالك والدويلات التي تبنى على دعاوي تعوز أصحابها البيئات. إن عملية إنقاذ المريض على أساس من الرغبة الصادقة في إنقاذه بيد مختصة أمينة، غير تهئية طاقة من الزهر والريحان نضعها عند رأسه تأنس بها عيناه، ويطرب لزوجها عوّاده الكثيرون، ولكن لا بد من تقديم ما هو جدير بالتقديم، وإلا وقعت الكارثة.

أرأيت إلى صنع أبي بكر -رضي الله عنه- أيام الردة. لقد كان صنيعاً يمثل الوجه الصادق المشرق لمدرسة النبوة التي تربى في ظلها فأعطته مع الإيمان الغامر القدرة على وضع الأمور مواضعها، والحركة الحاز في التنفيذ، فليس شيء يحول دون ردّ الأمر إلى نصابه في قضية من أخطر



قضايا الإسلام لأنها كانت مفترق الطريق .

وفي يقيننا أن جدية العمل لهذا الدين ، والإخلاص للأمة التي أولاها الله أمانة الحراسة لمبادئه ، والإدراك المبصر لطبيعة التحركات الخاسرة الظالمة في مواجهة الإسلام .

كل ذلك يجعل من مراجعة رصيد الماضي وحتى اليوم ، وإعطاء كل قضية مكانها الطبيعي وحيزها الذي هي جديرة به ، أمراً جليلاً للخطر لمن أراد - بصدق إيمانه أن يسير في الطريق التي تضمن نصر الله ومعونته سبحانه ، وأن يكون على الخط المستقيم الذي يصل بالأمة إلى الغاية المرجاة .

على أن ذلك كله لابد أن ينطلق من قاعدة الاعتصام بحبل الله الذي لا معتصم سواه والتبرؤ كل التبرؤ من أن نتخذ من دونه أولياء .

إننا إن فعلنا ذلك ، كنا مع الإيمان والعقل وحسن التقدير ، وإلا حق علينا قول الله في محكم كتابه : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٤٢) وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ﴾ .

وأخيراً إننا إذ نذكر هذا التحذير لابد أن نذكر معه واحدة من المسلّمات ، وهي أن التحميص - كما أشرنا من قبل - من مستلزمات طريق المؤمن في ظل راية التوحيد المطلق لنصرة الله ودينه . ومن الغباء الأسود بمكان أن

تحسب القضية بالأجر المادي الناجز والعافية من الابتلاء والعياذ بالله ، ولقد ندّد الله بأناسي كان دينهم ذلك ، وجعل الحديث عنهم قرآناً يتلى لتعي القلوب وتفقه النفوس ، ويدرك المؤمن المجاهد طبيعة الراية التي يتحرك في ظلها : وأنه حين يقف حارساً للحق في مواجهة الباطل لا بد أن يبلغ الغاية في إدراك معنى هذه الحراسة ومستلزماتها ذلكم هو قول الله جلّ وعز :

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللّهِ وَلَئِن جَاء نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ . اللهم ألهمنا رشدنا وهيء لهذه الأمة ما يجعلها على الطريق تصنيفاً لقضاياها وإعداداً واعياً لكل ما هو من مستلزمات العمل والبناء وباعد بيننا وبين النفاق وسدنته وأهله إنك نعم المولى ونعم النصير .



بين الغفلة والانتفاع^(١)

ليس في أبواب العبرة والذكرى لدى أمة من أم الأرض أحفل بدواعي الانتفاع والعظة، من هذه الفصول الدامية التي تمر بها أمتنا، والمحن التيتلف وجودها في هذه الحقبة من التاريخ.

فأني تلقت فاجأتك الكوارث، وأينما سرت صرخت في وجهك نكبة تنشب أظفارها في قطر من أقطار الإسلام.

فلا تكاد تحمل نفسك على جناح من المראה والأسى إلى أرض النبوات وقلبك يدمى على الأقصى الذي بارك الله حوله، وجعله ثالث الحرم في أرضه، وترى ما تعبت بارجائه صبية يهود من ارتكاب لأبشع ما يتناقض مع أوليات الدين والأخلاق، ثم ما يجوسون خلال الديار، ويقتربون من تغيير المعالم، وأزهاق الأرواح، وتويع الآمنين، محاولين أن يكونوا لأنفسهم على حساب الحق وأهله، مستعينين بمن يحركون بأصابعهم قوى العالم وأذنانهم لإضفاء صبغة الشرعية والاستحقاق على كل ما يصنعون ويرتكبون..

نعم لا تكاد تحمل نفسك ذلك ويؤذي قلبك وشعورك كل هذا - وبعضه يكفي - حتى يصرخ في أعماقك صوت فتنة الانفصال العمياء التي دبرها الأعداء لباكستان كيما تتحقق لهم أغراضهم القريبة والبعيدة، وما أكثر ما تلبس التماسيح جلود الضأن، وما أكثر ما يكون الرثاء والشفقة، عنوان الخبث الثعلبي الذي لا يرقب إلا ولا ذمة في واحد من عباد الله المؤمنين، ولعمري إن التباكي على المواطن الباكستاني الشرقي اليوم يذكرنا بنزاهة

بريطانيا وأعوانها يوم كانت تسلم السكين للجزار وتهيء الضحية للذبح ، ثم تعلن براءتها من الذبح والذابحين والكيد والكائدين ، وما أيام خروجها من فلسطين ، وأيام خروجها من الهند حيث عرست بذور الداء العضال في كل منهما - مع الاختلاف في اللون - عنا ببعيد . نقول ذلك لأن مثل هذه الظواهر التي تشير إلى مكامن الفتنة ، لها مدلولها المخيف ، فإذا لم تستأصل في مهدها ، ويقضى على كل دواعيها والمستنقعات التي تولدها ، كانت الكارثة التي لا ينفع معها الندب والنواح كالآذي حصل في أرضنا القريية الحبيبة المحتلة اليوم .

وإذا رحت ببصرك وبصيرتك نحو ارتيريا ، رأيت ما يذوب له القلب ؛ من انتهاك حرمة الإنسان ، وذبح الحرية باسم الحق والدين ، وأبصرت كل المعاني الخيرة يدوسها الطاغية العتلُّ دوماً سؤال ولا حساب ، ينفخ في جراحه كلَّ يوم - إلى جانب الحقد على الإسلام وأهله - ما يقدمه الاستعمار والمستعمرون من السلاح والعتاد ، وما تضيفه بعض المحافل الدولية على مقامه السامي !! من المراتب والرتب والمسؤوليات تلك العناوين الخاسرة التي تتحول إلى سم نافع يستأصل إخوتنا وأبناءنا على ثرى الأرض التي احتضنت أول هجرة إسلامية من مكة إلى الحبشة ، عندما خرج الرجال والنساء فراراً بدينهم وحفظاً على العقيدة من الفتنة وإرادة التحويل .

وهكذا وصلت الأمة إلى مدلول قول شاعرنا :

وصرت إذا أصابتني سهام تكسرت النصال على النصال



وكذلك هنا وهناك وهنالك ؛ فاليهود يغتصبون ، وينتهكون ، ويفعلون ما يشيب له الوليد ، إن كان قد بقي وليد يشيب ، ثم يتباكون ، وكأنهم أصحاب الحق الأصيل ، لا لشيء إلا لأن أعداءهم أهل الأرض وأبناء الديار ، يرفعون أصواتهم ، ويجأرون ؛ والمحافل الدولية لا تريد لنا أن نقلق راحة صبية يهود ؛ فاليهود فوق القوانين ، وفوق كل الاعتبارات الإنسانية ، ولا مانع في نظر حلفائهم -وما أكثر الحلفاء من الأموات والأحياء- أن يعطوا ما يشاؤون ، وأن يقدم لهم ذلولاً سائغاً ، كل ما يصفوا لأطماعهم ، وتسوله نفوسهم التي جبلت على المكر والخبث ، وعبادة الربا والمال ؛ والمسوغ الوحيد لذلك أنهم يريدون ذلك ؛ فإرادتهم شريعة وقانون ، وإذا كان الأمر كذلك ؛ فليعطوا كل ما تمليه تلك الإدارة . فالذي تبغيه يهود حق ، وكل ما يصنعونه من أول مؤتمر لصهيون وقبل سقوط الخلافة العثمانية ، إنما أخذ شرعيته وسلامة القصد فيه من كونه مراداً لهم ، وحسب السياسي والقانوني ، والمؤرخ في ذلك دليلاً على صحة كل ما جنت أيديهم منذ أبتليت بهم البشرية حتى اليوم ، وما حديث القرآن الكريم والسيرة النبوية عنهم بخاف على ذي لب تتحرك بين جوانحه بقايا من شعلة الإيمان ، ويهزه إلى الإعداد الواعي والانقضاض الصاعق ، استعلاء على الحطام الزائف ، من خوف أو طمع ذاكرًا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ . ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ

وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصَرُّكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ . والمؤمن الحق الذي تهب على قلبه ريح الجنة في ميدان القتال ينظر إلى بدء الآية وختامها نظرة الوعي والتدبر؛ فقد بدئت بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وختمت بقول القادر القاهر ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ .

وأعداء باكستان ، وأعداء ما يدي به أكثرية أهلها الساحقة حريصون -ويا للسخرية- على دماء المسلمين أن تراق . . إنهم حريصون عليها حرص عبد الله بن سبأ رأس الفتنة في تاريخ الإسلام ، على دعوة الإسلام وأهله وذويه . وبعد ذلك . . يريدون منك أن تصدق ما يقال ، وأن تغلق عقلك ، وتستبدل البله بوعيك وفهمك ، وأن تسدل الستار على تاريخ أسود يكذب كل هذه الدعاوي الفارغة ، ولست أدري كيف يكون ذلك ، وعندك ألف دليل ودليل على أن أعداء هذه الأمة على اختلاف أشكالهم ، لا يريدون بها إلا التمزق والضعف ، من طريق التجزئة العملية ، والبلبة العامة الشاملة؛ الأمر الذي إن واقع -لا سمح الله- كان له من الآثار السيئة ما يمكن من ابتلاع الأرض وأصحابها ، والطغيان على الحق وأهله ، والتعفية على أهم القضايا المعلقة والتي تتصل اتصالاً حيواً بكيان الأمة .

وفي ارتيريا: المطالبون بتحرير أرضهم المغتصبة هم أعداء الأمن والقانون ، في نظر الحاكم المطلق في هذا القرن الذي يدعونه القرن العشرين!! وكل جريرتهم التي يؤخذون بها أنهم يقولون للغاصب: أخرج من أرضنا وأقلع عن استعباد المواطنين من أهلها . فيكون جزاؤهم التنكيل



والتعذيب والتشريد، وسيطاط يلهمق ظهور الأطفال والنساء والعجزة بيد
زبانية حامى حمى الدين بزعمه المكين!!!

وكم كوفى على ذلك من بعض الناس بالمزيد من التكريم، وكلن الطغاة لا
يؤمنون بيوم الحساب، ولسوف يفجؤك ما ينطق به قول من يمقت الظلم
والظالمين: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أمام ذلك كله، ومثله كثير، ومعه على الخط الموازي ذلك الانحسار
الرهيب لشرعة الله في الأرض، وجفاء بلاد الإسلام لحكم الإسلام،
وتخلي كثير من العرب عن موقع الريادة والقيادة التي أسلمهم الله زمامها
برسالة الإسلام... أمام ذلك كله يقف المؤمن الواعي الذي عرف حق الله
وحق أمته، يقف حائراً مشدوهاً، تأكل قلبه المصيبة، وتكتم أنفاسه
الحوادث، وترهق وجوده ليالي الأسى صباح مساء. والامتحان القاسي
كائن على ميدان الصراع بين وعد الله للجماعة المؤمنة بالنصر إن هي
استقامت على الطريقة، وجاهدت في الله حق جهاده، وبين ما يرى من
التقهقر والانهمام بأنواعه -وأشدّه الانهمام النفسي- والانتصارات التي
يحققها أعداء الأمة هنا وهناك.

والظافر الذي ينتصر في الحلبة هو الذي يثق بوعد الله تمام الوثوق ويضع
نصب عينيه طريق الجماعة التي حملت عبء الدعوة في أول الطريق، فيعلم
على أن تنصب الجهود الفردية في المنهج لتنال الجماعة مرضاة الله تعالى لأن
يد الله على الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

وهو دائماً ينظر ببصيرة المؤمن ونفاذ الموقن المصدق، لتدارك النقص وسد الثغرات، والقضاء على عوامل التخلف والانحدار؛ فنحن -في الواقع- لا نعاني من التخلف الحضاري فحسب، ولكننا نعاني من التخلف في فهم السبق الحضاري ومدلوله، وفي حسن اختيار ما نأخذ وما ندع من معطيات الحضارة الحديثة اليوم؛ فلکم غزينا في عقر دارنا بأسوأ ما حملته هذه الحضارة، في الوقت الذي نبدوا وكأننا نحمل بين ظهرانينا المناعة من الإفادة مما فيها من العلم والنهج، وكثيو من وسائل المعرفة التي يمكن معها تحقيق قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

ولا تسل -من بعد- عن الخلف في فهم القواعد التي هي مرتكزات الحركة بالنسبة للأمة، والمبادئ التي يفترض أن تكون هي -ولا شيء سواها- ضابط التصرفات ومقياس التصور والسلوك على صعيد الفرد والجماعة وما وراء وراء...

وهنا يأتي دور الريادة -وقد أشرنا إليه من قريب- فلم يعد خافياً على أحد أن الأمة إذا كانت جادة في الإفادة من مرتكزات القوة في كتاب ربها، وسيرة نبيها -عليه الصلاة والسلام- ومن سار على هديه عبر تاريخنا الطويل، والمعالم التي خطها الأبطال والمصلحون في بناء التاريخ... لا بد أن تأخذ ذلك بقوة وصدق واعتقاد جازم لا يقبل التلفت ولا التخلخل، أنه رأس الدواء ومفتاح التحول من الضعف إلى القوة، ومن الهزيمة المنكرة إلى النصر المبين. وهذا كله وعنوانه التحول عن المنعطف الذي أودى بنا إلى



الهلكة لا مندوحة له عن الطليعة التي تتحمل العبء ، وتأخذ على عاتقها قيادة الطريق ، قيادة تتسم - مع منهجيتها - بالأمانة ، والالتزام الواعي لكل ما تحدده معالم الطريق ، التي رسمتها يد النبوة الكريمة الحانية ، بعيداً عن مهاوي الأنا والشهوة ، ومزالق الطمع ، وخوف العقبات التي تصرخ في وجوه السالكين .

يقول لك القائلون : درس المسلمون السيرة ولم يتغير من حالهم شيء ، وما تزال أم الأرض تداعي عليهم أسواء ما يكون التداعي ، وتؤذيهم في دينهم ودنياهم أشنع ما يكون الإيذاء . .

وجوانبا على ذلك : أن السيرة تعطيك إذا أعددت نفسك للأخذ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ السيرة أمانة ومسؤولية والتزام ، لأنها أسوة وقدوة وريادة ؛ الكثير منا يقرأ الكلمات ويهرب من المدلول ، والقليل منا من يبصر السطور ولا يتعمى عن القوة الدافعة التي أملت على التاريخ تلك الوقائع النورانية المتعالية التي تشير إليها هذه السطور . فالإيمان والصبر ، والطاعة لله ولرسوله ، والانقياد الصادق الواعي وحب الموت في سبيل الله ، والتعالي على حطام الدنيا : كل هذا جعل من أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - أناساً يتمثلون دعوة الرسول - عليه الصلاة والسلام - حتى كأن كل واحد منهم صورة عنه - صلوات الله وسلامه عليه - قول الله تعالى فيهم : ﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ

مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا»، كل ذلك لأنهم كانوا وقّافين عند قول الله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ من هنا لم يكن بدعاً من القول أن يقول الرسول -عليه الصلاة والسلام- داعياً إلى طريقته وطريقة خلفائه من بعده : ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾. ويرحم الله القائل : ما جلس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقص ، إقرأوا إن شئتم ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ وهل سيرة النبي -عليه الصلاة والسلام- وسيرة الراشدين ومن اهتدى بهديهم على مدى التاريخ ، إلا الصورة الحركية الفاعية لما جاء به القرآن الكريم ودعا إليه . وصدق من قال في شأن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- «كان عمر قرآناً ناطقاً» .

إنه لبون شاسع بين ما عليه الكثير منا اليوم من انحراف جاهلي يريدون من القرآن والسيرة مسوغات لوجوده وسلطانه ، وبين أناس رسموا معالم التاريخ بإيمانهم وإخلاصهم ، وحرسوا الإسلام بدمائهم وتضحياتهم ، والخطوة الأولى على طريقهم الصاعدة الشائكة أنهم تقدموا للقرآن بنفوس مفتوحة وصدور نقية تريد منه الأمر ليطيعوا ، والمنهج ليلزموا ، وكان السباق فيما بينهم ، أيهم أقدر على الالتزام أمانة ووعياً ومتابعة إلى آخر الطريق . نحن نريد من الإسلام مسوغاً لانحرافنا ، وإلا تحوّلنا وحوّلنا الشراع . أما أولئك : فكانت حياتهم استجابة طبيعية حركية لما دعاهم إليه الإسلام على



لسان محمد - عليه الصلاة والسلام - وهو صلوات الله عليه كان نعم القدوة ونعم الأسوة في نفسه وبيته وأهله ، وسيبقى الخط الذي رسمه للإنسانية هو المثابة التي لا بد أن تعود إليها ولو بعد حين .

وإذن : فلا بد من النقلة الصحيحة المعقولة إلى حيث نقف على مستوى الإدراك والالتزام ، ونبصر مواقع أقدامنا ، وأي منهج نحتكم إليه .

ولقد تبدو هذه النقلة صعبة المنال ، بعيدة المآخذ ، وهذا صحيح إلى حد بعيد ، يوحي بذلك ما تتقلب فيه الأمة من النظرة التي تحمل كل خصائص السطحية وطلب العافية حين تريد من القرآن وسيرة الرسول مسوغاً لانحرافها وجاهليتها . ولكن صعوبة الطريق لا تعني - في نظر العقلاء - الاستغناء عن الغاية ، والتولي شطر الخنوع والضياع . خصوصاً إذا وضعنا في الحسبان أن هذه النقلة على مشقتها وصعوبتها على كثير من النفوس ، هي نقلة إلى ساحة الحياة الحرة الكريمة ، الغنية بالعطاء ، الغامرة بسعادة الدارين والذي تدعو إليه من وراء هذه النقلة أمر يحمل كل خصائص القوة والخلود ، فضلاً عن عناية الله الغمرة إن نحن صدقنا العزيمة .

ولقد أثبتت تجارب هذه الأمة في الماضي والحاضر ، إن المنهج الرباني الذي صنع من أولئك الذين تربوا في ظل الجاهلية الأولى من قبل ، حراساً لعقيدة التوحيد وذادة عن دعوة الإسلام ، حاملين للوائها بناء لصرحها في العاملين ، هو القادر دائماً على أن يصنع الرجال من جديد ، ويدفع بهم إلى حيث تمكن هذه النقلة التي تبدو بعيدة مستعصية . وصدق رسول الله -

صلى الله عليه - حيث يقول : «الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا» . المهم أن تتوفر الدواعي التي تجعل الإيمان يعلم عمله ، وإن يكون لقرات المنهج الرباني مكانها الطبيعي في الإعداد والتكوين ، ومن أبرز هذه الفقرات التمحيص الذي يكشف الحقائق ويبني الرجال ، ولا تسلب بعد هذا عن النتائج التي لا تعود على الأمة إلا بالخير والمنعج ، وأن تأخذ موقعها الطبيعي القيادي في العالمين .

وفي ظل هذه الحقيقة تتكشف الكوارث والنكبات عن دورس هي غاية في الدفع وإثارة الكوامن التي لا بد أن تثور ، وتقف الأمة على اليابسة حيث تنتفع من الأحداث ، دون أن تهلكها ظلمة الغفلة والبعد عن العظة والاعتبار ، ثم لا تعد أن تجعل من الإيمان وقود الجهاد كيما تعلم كلمة الله ، ويطرده الغاصب إلى غير رجعة إن شاء الله .

ولعل من أبرز الأدلة على هذا الذي نقول ، ما ترى من حرص أعدائنا على إحداث الهوة السحيقة بين الأمة وبين معالمها التي جاء بها محمد بن عبد الله -عليه الصلاة والسلام- ، والعمل على أن تقوم الجفوة القاسية الرهيبة بين الجيل وبين من هم أهل القدوة والأسوة قديماً وحديثاً ممن اقتدوا بالهدي النبوي الكريم . وبذلك تتحول الزمة عن مواقع القوة وينصرف الجيل الذي واجه الداء ، وارتطم بالكارثة ، إلى أن يتخذ للطريق معالم غير هاتيك التي هي منابع قوته ، وللأسوة زبانية يجرونه إلى أسوأ عاقبة وشر منقلب في وجوده وفكره وتصوره .



والنتيجة الطبيعية لهذا أن يصل الأعداء إلى الهدف الذي ترسم له المخططات وتنفق في سبيله الأموال والكفاءات والطاقات ، وهو أن تظل الأمة في منأى عن اليقظة والقوة والأيد ، وأن تكون مسارب فكرها ، وفلسفة ماضيها وحاضرها بحيث تظل على اتجاه الخط البياني النازل والعياذ بالله .

ولسنا بسبيل أن نكرر اقلناه في مستهل هذا الكلام ، ولكن عدم الانتفاع بالأحداث التي تؤرق الرجال وتقض مضاجع المخلصين شر من الأحداث نفسها .

والغفلة عن العظة والانتفاع سلاح ماض يفيد منه العدو دون أن يكلفه شيئاً من العناء ، وكثيراً ما تولد هذه الغفلة نوعاً من التخاذل القاتل واليأس الذي قد لا يلتقي مع الإيمان .

وإذا كان الأمر كذلك ؛ فلا بد من هذه النقلة الكريمة المباركة وهي نقلة تبدأ على صعيد الشعور ثم تنعكس بصدق وحرارة على صعيد الواقع والسلوك . والله مع هذه الأمة بقوته وأيده ونصره ما وجهت وجهها شطر الذي دعاها إليه في محكم كتابه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ .

وفي ظل هذا القانون الإلهي الذي تمليه هذه الآيات ليس من مكرور القول أن نذكّر بأن الحركة على صعيد تلك النقلة ليست حركة في فراغ ؛ فإذا

جدَّ الجَدُّ وسلمت الغايات ، وأفسح للتربية الإيمانية أن تقول كلمتها ، رأيت الأمة تغترف من ينبوع غمر فيه كل الصفاء والنقاء ، وكل خصائص الحياة والاستمرار ؛ عقيدة ، وشريعة ، وسلوكاً ، وغماذج بطولة إيمانية ، وعمل جاد مثمر ، وإخلاص لله في كل حال تلك النماذج التي تشكل أعلى القمم وأكرمها في تاريخ البشرية الطويل ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ . وإذا هي جددت العهد مع هذا ينبوع الأصيل في حياتها ، وسلكت سبيلها على هدها ، انقطع ما بينها وبين السطحية والتأرجح من سبب ، وعوفيت من خطل الرأي ومهازل الترقيع ، ومساوى الارتجال ، وسلمت لها وحدتها بعيداً عن التنازع الذي يذهب القوة ويأتي بالفشل الذريع ، فضلاً عما يعطي للعدو الماكر من فرص التآمر ونقض عرى الأخوة والتعاون المثمر بين الأقربين .

أما الذين تختاره عناية الله ليكونوا طليعة الأمة وروادها على هذه الطريق ؛ فعليهم أن يؤدوا حق الله فيما ائتمنهم عليه وأكرمهم به من ذلك الثغر الذي أقامهم على حراسته . وحق الله كائن في حسن الصلة به ، واليقظة لكل صغيرة كبيرة من دواعي النفس والهوى والشيطان ، وأن لا تنسيهم قسوة المعركة الغاية التي من أجلها حمي الوطيس ، وأن لا يذهلهم ثقل العبء عن معتقدهم أن الله ناظر كيف يعملون ، وأنه يعلم السر وأخفى ، وأنهم محاسبون على النقيير والقطمير ، ومن نوقش الحساب عُدِّبَ ، وأن يخاف كلُّ على نفسه وساوس الشيطان وزخرف الدنيا ، لأن



مرضاة الله أحق أن تكون الهدف والغاية «فالله أحق أن ترضوه إن كنتم مؤمنين» .

إنه عهد الله ورسوله في المنشط والمكروه ، وأنها ذمة الإسلام التي من خفرها فقد ضل سواء السبيل .

ألا وإن القوارع التي تدق الأبواب على صعيد الفكر والأرض صباح مساء . هي النذير الذي أشدت ظلامه بين النذر ، ولكل نبأ مستقر ، وما الله بغافل عما تعملون . ألا وإنه لن يستطيع متابعة الطريق إلا من غمرت قلبه التقوى ، وعمل لمرضاة الله ، وكان على حساب دائم لنفسه ، فلا التشاؤم يقعده ، ولا المغريات تلهيه ، فالأمانة ثقيلة ، والعاجلة لا تغني عن الآجلة ، فإذا حزب الأمر وأشدت الكرب رأيته وقد صدق في عمله وعاقبته قول الله تعالى ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾ . والحمد لله رب العالمين .

وراء فريضة الحج^(١)

الحديث الباكي عن مآسي أمتنا في هذه الحقبة من الزمن ، حديث يذيب القلب ، ويذهب النفس حشرات ، وليس من شأننا ونحن أمة الإيمان والجهاد أن يكون صدى المأساة في أنفسنا نواحاً نصرخ به ، وحزنا يسيل دموعاً على أرض المذلة والهوان ، ويعمي عن العمل ، ولكن من شأن هذه الأمة -وقد حباها الله ما حباها من خصائص القوة ومنابع الخير- أن يكون صدى المأساة في نفوس أبنائها ، وحقائق ترسخ ، ووثبة جديدة للعمل المثمر البناء ، ويقظة واعية نتجاوز بها الخطأ إلى الصواب ، والمعوج من الطريق إلى واضح المعالم المستقيم .

ولعل من أبسط هذه الحقائق : معرفة العدو من الصديق للغافلين ، وتعميق ذلك للواعين النابهين ؛ وذلك كائن حين تسقط البراقع الخادعة ، ويظهر زيف التحالفات ، وتتمرغ العناوين بأدناس الوحشية والتعطش إلى الدماء ، وتبدو حروف السلام شعاراً تافهاً حقيراً لما تخفيه وراءها من رغبة في التوسع على حساب الآخرين ، والانقضاض على كل ما هو خلق كريم ، وإنسانية صادقة نبيلة ، والقضاء على كل ما يمت إلى الإسلام وحضارة الإسلام بصلة ، ولو أن هذه الحضارة انقذت عشرات بل مئات الملايين في العالم ، من أوحال الظلم وعبودية الإنسان للإنسان ؛ يعرف ذلك الذين

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الخامس والسادس ، السنة الثانية عشرة ، رجب - شعبان ١٣٩١هـ ، إيلول - تشرين الأول ١٩٧١م .



عاشوا في ظل الطبقية التي منها طبقة الإنجاس والتي أخذ بيدها الإسلام إلى مستوى الكرامة، وحرية الفرد، وحقه اللازم في الحياة الأفضل تحقيقاً لقوله تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ واستمراراً للكلمة الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- «متى استعبدتم الناس وقد ولتهم أمهاتهم أحراراً». وأثار ذلك مشهورة في كل قطر من أقطار الدنيا رفرفت على رباه راية التوحيد، وكانت محور حياته حضارة الإسلام.

وحقيقة أخرى ليست أقل من سابقتها في ميزان التصور الصحيح، والإفادة من الأحداث وتحركات الأعداء هنا وهناك: أن قدر هذه الأمة مرتبط بعقيدتها ومثلها إيجاباً وسلباً، وأنها لو خرجت من جلدها لاسترضاء الآخرين فليس ذلك بنافعها شيئاً عندهم، ومن الحمق بمكان والغفلة التي لا تدانيها غفلة أن تظل على اغترارها ووهمها بأ تحولها عن مشرق الهداية الأول قد يعيظها بعض المكاسب، دون أن تجرؤ على اقناع نفسها أن الشعب عندما يلبس جلد الحمل لا يتحول إلى حمل، والمجرم بالطبع، المملوكة يده بالدماء مهما لبس من مسوح العباد والرهبان لن يغير ذلك من حقيقته شيئاً؛ لذا فمهما تطاولت الأعناق تطلب العز لهذه الأمة بغير ما أعزها الله، أذلها الله وتلك ثانية من كلمات عمر رضوان الله عليه يوم قالها لأبي عبيدة على مشارف الشام، وجيوش الإسلام قد حلت في تلك الديار بعقيدتها

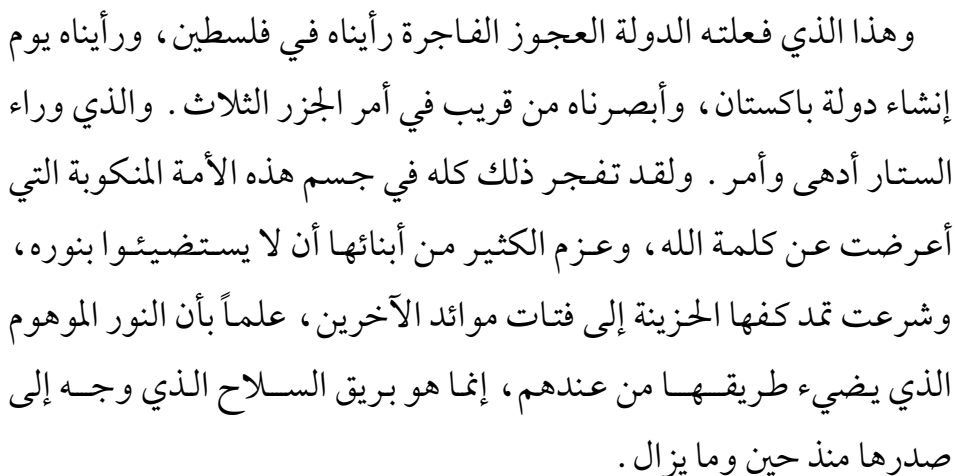
وحضارتها «كنا أذل أمة فأعزنا الله بالإي» لام فمهما ابتغينا العز بغير ما أعزنا الله أذلنا الله» .

وقد يكون من ثمرات هذه الحقيقة أن تنفض الأمة عن كاهلها غبار التناقضات، والانحناء المنافق في وهم ليس أبعد منه السراب الخادع، واستسمان ذي ورم مما يذكرنا بقول أبي الطيب :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحمر فيمن شحمه ورم
والشحم هنا ليس شحم الأجساد، ولكنه شحم الوعود، وخداع القول،
وكذل العهود والعقود .

فالصراع كائن بين الحق والباطل لا محالة، ورحى الحرب دائرة بين الكفر والإيمان، ومن وجوه هذا الصراع ما نراه وراء الأحداث من محاولات الانقضاض على الحضارة الإسلامية من قبل الحرب العالمية الأولى وحتى يوم الناس هذا . . وأسلحة ذلك تأخذ لوناً في آسيا، ولوناً في أفريقية، وآخر في شبه القارة الهندية وغيرها، وإن انت الجسور العالمية ممتدة والأسلاك الآتمة لا تنقطع .

وأنت واجد أنه -حتى باسم التحرر وخروج المستعمر- يوضع لنا السم في الدسم ! لم تخرج بريطانيا من أرض من أرضنا إلا وضعت فيها قنبلة زمنية موقوتة، وخلفت جرحاً دامياً يتقيح على مدى الأيام وينذر بالانفجار، أو ينفجر .



ولو أن هذه الامة - وكل حياتها اليوم نذر تصرخ بشراسة وإيعاد - ولت وجهها شطر قرآنها، وسيرة نبيها - عليه الصلاة والسلام -، وسلفها الصالح - عليهم الرحمة والرضوان -، لرأت ألف دليل ودليل على أن ما هي فيه ليل بهيم طال أمده، وفجره الصادق أن تعكف على هذا الكتاب الذي أنزله الله بلسان عربي مبين، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تستنطقه عن دائها ودوائها ولسوف ترى أن من أوضح ما قرره هذا الكتاب، دون لبس ولا أبهام، في صفاء لا يداخله ريب المتشككين ولا تعقيد المتفلسفين، وكان أمراً لا يلتفت عنه إلا من ران الضلال على قلبه، وأعشت الغفلة بصره وبصرته .

نعم لسوف ترى الكثير من الآي تقرر -بجانب الدعوة إلى العلم، والإعداد، ووحدة الكلمة على أساس من العقيدة الصحيحة- مدلول قول الله جل وعلا في معرض الحديث عن يهود:

﴿ مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

فعلى كثرة الأقوال في المراد من الخير هنا ، نجد المحققين يجنحون - ومعهم الدليل - إلى أن «من» في الآية أفادت تمام الاستغراق ، وكلمة «خير» جاءت نكرة في سياق النفي فدلّت على العموم وهكذا كان الاستغراق مع العموم ، فدلّت هذه الكلمات الفاصلة على أن أي نوع من أنواع الخير غير مرغوب فيه لهذه الأمة ؛ قل هذا الخير أو كثر ، جل أو حقر ، مهما كان لونه ، ومهما كانت ماهيته وحقيقته ، في أي مجال من المجالات ، وفي أي ميدان من الميادين ، وأن حصل شيء منه فلمصلحة تعود عليهم هم أولاً وبالذات . فهم لا يريدون أي خير لأهل الإيمان والتوحيد ، ولا يبغون لهذه الأمة إلا السوء ، ولا يرقبون فيها إلا ولا ذمة .

ولعمري أن إدراك هذه الحقائق إدراكٌ يخرج بأصحابه إلى ميدان العمل والتنفيذ ، وتجاوز التناقضات والتجارب الفاشلة في هذا الوقت بالذات ، أمر له آره المنتجة الطيبة فيما نتصور ونقدر إن شاء الله ، ذلك لأن الأدلة الناطقة جدرة أن توقظ الغافل ، وأن تبعث الحياة فيمن يريد الحياة .

فهذه دماء مآسينا لا تكاد تجف هنا وهناك ، وما أكثر ما تلد الأيام من كوارث نحن ضحاياها ، وما أكثر ما تشعل من نيران نحن وقودها . فحيثما أجلت الطرف في وطننا الكبير جرحت عينيك وقلبك الاشلاء والدماء وفقدان الأرض والفكر والكيان ، فلم يكفنا ما نحن فيه من كارثة فلسطين



وعقبايلها، حتى كان ما خشنا منذ زمن أن يكون، مما حل بالأمة في أعقاب الحرب الظالمة في شبه القاده الهندية، والتي بدأ فيها تمالؤ الكفر على الإسلام علانية ومن وراء ستار، ولكنه مهما أتخذ من العناوين، فهو واضح لكل إنسان يبتغي الحقيقة بتجرد، ويتخلى عن رواسب ومؤثرات معينة، كثيراً ما تطغى على موضوعية البحث، وتنأى بالحكم عن أن يكون بجانب العدالة والصواب، وإن كان قد ساعد على ذلك -ولو بشكل ثانوي- ظروف وأسباب يجد بالغيور على هذه الأمة أن لا يتناساها، حرصاً على أن لا يكون منهجنا دائماً لقاء التبعة على الآخرين دون تذكر لما يكون من أخطائنا وخصوصاً فيما يتعلق بذاتية الأمة وإعدادها الأعداد الملائم في ظل الإسلام الذي لا يهمل جانباً من جوانب الخير، ويحرص على بناء الكيان القوي في مواجهة الأخطار والمفاجآت.

وأن تعجب فعجب أن يتجاوز الأمر حدود قلة الحياء، فيصبح ما هو محظور علينا، لأنه يتعارض مع حقوق الإنسان!! ويهز الضمير العالمي! مباح كل الإباحة لدولة أخرى هم راضون عن انسياحها وتوسعها، ولهم - بجانب هدم كيان امتنا- مصلحة من المصالح في الذي يحدث. وأمثلة ذلك كثيرة فيما يسمى بمشاكل اللاجئين، والعدوان، والاعتصاب، وتقرير المصير، وحياسة مكاسب من طريق العدوان العسكري وما إلى ذلك.

وعلى أية حال: فلسنا الآن بسبيل تحليل الحوادث ودراستها من وجهة نظر المؤرخ، ولكننا -في نهاية الشوط- بسبيل أن نذكر بما لا ينبغي تجاهله،

أنهما أمران إثنان تنطق بهما بدهيات هذه الدعوة المباركة .

أولهما - تجديد الصلة بالله عز وجل ، والأنابة إليه ، والوقوف ببابه وقفة الصادقين المخبتين ، نلجأ إليه حيث لا ملجأ إلا هو ، ندعوه بقلوب أشرق فيها إيمانها ، وأحست بمرارة البعد عن الله ، ولفحها لهيب الشوق إلى مرضاته بعد هذه الجفوة الطويلة القاسية التي أعقبت النفاق عند الكثيرين ، والهلع عند الكثيرين ؛ فليس لها من دون الله كاشفة ، والمعصوم من عصمه الله .

ولقد كان التوجيه القرآني إلى ذلك من دعائم البناء النفسي لهذه الأمة ؛ ففي معرض الإفادة من حوادث الماضين ، والاعتبار بما كان فيهم وكيف أن الله تخلى عنهم عندما تخلوا هم عن الله ، فلم يتضرعوا إليه ، ولم يقفوا ببابه خاشعين خاضعين يلتمسون منه الفوز والنصر عندما أصابتهم النكبة ونالهم البأس . في معرض ذلك قال تعالى : ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

أرأيت ؟ ولكن قست قلوبهم . . وزين لهم الشيطان ما كانوا يعلمون .
قسوة القلب ، وتزيين الشيطان . . مرضان خبيثان حلا محل الضرع والإنابة والتماس الخير والفرج من خالق الكون ومدبر السماوات والأرض .

بل إن عمد التضرع يبدو وكأنه ثمرة من ثمار قسوة القلوب وما يزينه الشيطان من العمل المنحرف والبعد عن الله .



ولقد رأينا نبينا -عليه الصلاة والسلام- ، وهو الأسوة الحسنة الصادقة- يقوم بما وجهت إليه الآية الكريمة في الرخاء والشدقة ، فلا الرخاء ينسيه الخالق المنعم ، ولا الشدة تبعده عن مولاه عز وجل مفرج الكرب وناصر عباده المؤمنين ، ولندكر في ذلك موقفه في أعقاب رحلته إلى الطائف ، وتضرعه يوم بدر وغيرها ، والأمثلة كثيرة وفيرة .

خذ هذا المقياس وأعرض عليه أعمالنا وما نحن فيه ، نسلك أسباب الضعف ، ونحارب الله ورسوله ، ونتخذ هذا القرآن نهجورا . ونضيف إلى ذلك البجاء والنواح على ما أصابنا . ولو إنا توجهنا شطر خالق القوى والقدر ، الواحد القهار مذل أعناق الجبابرة ، الذي نصر المسلمين على أهل الكفر والطغاة والظالمين والمسلمون في قلة عدد وعدة وضعف في كل أسباب النصر المادية الظاهرة . ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدَرٍّ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ . ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ﴾ لو إنا توجهنا إليه بصدق لأصبح الحال غير الحال ولتغير وجه القضية وانقلب ميزان القوى رأساً على عقب .

ثانيهما- سلوك سبل الأعداد والاستعداد جهد المستطاع بعيداً عن الأنانية والمصالح القريبة ، وما يكون من الاطماع التي تقعد بأصحابها عن المرتقى الصعب ، وتحول دونهم ودون أن يتقدموا إلى الأمة بما يأخذ بأيديها إلى مرابع النصر والتأييد . نفيد من العلم ونأخذ من الحضارة ما لا يعدو على كياننا وفكرنا في ظل قول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

رَبَّاطُ الْخَيْلِ تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ... ﴿١﴾ ومهما طال الطريق، وكان مفتاح السلاح اليوم بيد أعدائنا؛ فإن اله قادر إذا وضعنا القدم بثبات على هذه الطريق مراقبين الله تعالى، مبتغين مرضاته، غير عابئين بما قد يعود ذلك على البعض بخسارة مال أو منصب وجاه، أن يأخذ الله بأيدينا ويكون النصر لنا بإذن الله... وهي ثمرة قد لا يكتب لنا أن نقطفها نحن ولكن المهم أن نسلك السبيل باخلاص، وأن لا نبخل بجهد نستطيعه أو طاقات يمكن أن نقدمها متجاوزين كل العنعات والاعتبارات الفارغة التي لم تنتج إلا الركام والعوائق. وقوافل الشر بسابقنا يوماً بعد يوم، والأعداء يظهرون علينا في كل ساعة، ودولاب الزمن لا ينتظر.

وفي هذه الأيام التي يلتقي فيها مئات الألوف من المسلمين في ظل بيت الله لأداء مناسك الحج، يؤمل أن يكونوا جادين في ملاحظة هذين الأمرين. لعل ذلك يكون فاتحة خير للأمة جمعاء: فالخشوع الصادق في ظل الكعبة، والتلبية المؤمنة مع إدراك مدلولاتها وأبعادها، والدعاء الضارع بين الركن والمقام من خلال الدموع والاشلاء ومن خلال الدماء والمآسي، وكورثنا في فلسطين وباكستان... وغيرهما... وغيرهما... من خلال ذل تعانيه الأمة، وقهر ترزح تحت سلطانه، وعيش خانع يهدد اليهود فيه حياتنا، وأعراضنا ومستقبل أجيالنا في ديننا ولغتنا وفكرنا ووجودنا بله الأرض والتراب... من خلال ذلك كله... يدعوونه... يضعون في بابه



أثالهم وأثقال أمتهم . فالدمعة هناك لها ما لها في ميزان الله ، والحرقة الصادقة على الأمة تعطي ما تعطي عند الله . . ولوعة القلب بين يدي صاحب هذه البنية التي أخضعت أعناق الجبابرة لابد أن تعمل عملها في خاتمة المطاف . ولقد يكون ذلك كله دليلاً على أن الحجيج مدرك لما يفعل ، واع للشعائر التي يقوم بها ، والمناسك التي يؤديها . محسن للتصور في أن وراء فريضة الحج مطالب ومطالب ، وأن الأمر ليس اسقاط هذا الركن عن كاهله فحسب . . ولكن وراء ذلك كيان الأمة وقضاياها ومصيرها .

وعلى الطريق المؤدية لذلك . . لابد أن يعقد هؤلاء المؤمنون العزم ، ويجددوا العهد على النصره وملء الفراغ ، أن يبايعوا نبيهم -عليه الصلاة والسلام- من جديد ، من أجل الأعداد الصادق ، وعمل ما يمكن عمله ، وبذل كل ما يمكن بذله ، بعيداً عن المؤثرات والصوراف والعوائق ، خصوصاً ما يكون عند أولئك الذين ولاهم الله أمر هذه الأمة فكانوا أمناء على مقدراتها وثرواتها البشرية والمالية والفكرية وما إلى ذلك .

نقول هذا ، ونحن على ذكر من الأعذار التي قد يؤخذ بعضها بعين الاعتبار ، ولكن الأمة مدعوة اليوم إلى أن تأخذ بأسباب الأرض بكل ما تستطيع ، وأن ترتبط بصدق وإخلاص بأسباب السماء .

فإذا صدقت العزائم ، وتجاوزنا حدود الوثنيات ، وحصل اللجأ الصادق إلى الله ، بعد استنفاد الطاقة من الأعداد والاستعداد ؛ فإن عدالة الله تأبى أن تتخلى عن المؤمنين في ساعة العسرة ، ولقد أكرمنا الله بوعده بالنصر أن نحن نصرناه ، والله لا يخلف الميعاد .

إن القضية تبدأ من هنا . . ومفتاح الحل على المدى البعيد بأيدينا، ولكن لا بد من أن نتقدم بالعطاء ليكون لنا العطاء . . ولا بد من أن نصدق العزيمة واليذل ليتحقق لنا كل ما وعدنا به ربنا الرحيم الرحمن . . أسوة بما فعل نبينا المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - . إذ كيف يهناً قلب اليوم وعرى الإسلام تنقض عروة فعروة، وأشلاء الأمة تملأ السهود والبطاح والألوف من المسلمين يسوقهم الجزارون إلى الذبح دون هوادة . . أم كيف تغمض للمسلم عين . . واغتصاب الأرض . . وانتهاك الأعراض . . والعدوان الآثم قائم على أمته صباح مساء . . أم كيف يذوق طعم العطف والحنان، وملايين أطفال المسلمين في العراق . . إنها أمانة والله سائلنا عنها يوم القيامة، فلنكن عند حدودها لئلا تعقبنا حسرة وندامة . ألا إنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَكْيِيلًا ﴾ .



العطاء القرآني والإنسان^(١)

كان الطريق شكائكاً، مزدحماً بالركام، مثقلاً بالموروثات ومغلقاً أو شبه مغلق دون إنسانية الإنسان في حريته وكرامته و---- كان ذلك وأشد منه في أكثر بقاع العالم، حتى جاء محمد بن ---- فمهدت يمينه الطريق بالقرآن، وفتحت مغاليقه بمفهومات الدين ----.

أجل . . وكان العطاء القرآني، واستمعت الدنيا إلى كلمة بنورها وهداها. تعلن إعلانها في إنسانية الإنسان، وترسم في تاريخه عهد جديد.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾. ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٣﴾. ﴿الرَّحْمَنُ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٥﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٦﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٧﴾. وكانت أهلية الخلافة في الأرض، وأذن الله ---- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾.﴾

فقام ذلك كله على قاعدة عريضة من التكريم والتفضيل على ---- خلق اله، وإعداد هذا المخلوق، للإفادة من الكون الذي ---- والتمتع بخيراته وخصائصه، في إطار من العبودية لمولاه تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٣٦﴾.﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ

مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ .

وكان من حكمة الحكيم سبحانه ، أن أفرد هذا الإنسان من بين المخلوقات بالعبادة الذي يظهر هذا التكريم على الساحة العملية ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ . فترى هنا : نبتليه ، سميا بصيرا ، هديناه السبيل . وكل هذا بعد أن أخرج الله من العدم ، وخلق من نطفة أمشاج خرجت من بين الصلب والترائب . في سورة ﴿ عبس ﴾ ما يزيد هذه النقطة وضوحاً وعمقا .

حتى تلك الآيات التي ذكرت الإنسان بالضعف ﴿ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا ﴾ ﴿٤﴾ حيناً وبالظلم والجهالة حيناً ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿٥﴾ وبالكنود حيناً . وشهادته عليه وحبه الشديد للمال حيناً آخر ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ﴿٦﴾ حتى تلك الآيات التي كشفت عن هذه السمات في الإنسان ، لم تنأ به عن ساحة التكريم لأن من مظاهر التكريم التكليف ، والتكليف لا يكون إلا بأهلية معينة من بعض عناصرها العقل والنطق بمعناه الأوسع . والمكلف هو الذي يثاب أن أحسن ، ويعاقب أن أساء ! أما غير المكلف : فلا شيء هناك . فحين نرى صفة تلصق بذلك الإنسان الذي ضل طريق إنسانيته ، وولى وجهه غير الشطر الذي أراده له مولاه ، يكون ذلك في قناعتنا أمراً في غاية الاتساق مع



الحق، وواحداً مما تقتضيه العدالة الإلهية في ترتيب النتائج على المقدمات، والمسببات على الأسباب، بعد أن توافرت لهذا المخلوق كل عناصر التكليف وتحمل المسؤولية ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ تلاحظ هنا باء السببية. وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «الناس مجزيون بأعمالهم خيراً فخيروا وإن شراً فشر».

ولعلنا لا نبعد النجعة حين نستذكر تلك الصورة الموحية فيما تفيض به من حلم الله تعالى على عباده ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ الذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. -- أسلفنا - تكريم الإنسان، ووضعه موضعه الطبيعي في هذا الكون، خلافة في الأرض. وعبودية لله عز وجل، ومن أصدق من الله حديثاً !

وهكذا، فإن الأمر الذي لا ينبغي بل لا يجوز أن يتجاهله (الأذكياء) فينا اليوم، إن أهلية الإنسان للخلافة، وما به فضله الله على كثير من خلق تفضيلاً، وتسخير الكون له، وإعطائه مفاتيح هذا التسخير. إنما يعطي عطاءه في نظر الدعوة التي أعلنت ذلك منذ ألف وأربعمائة عام، بأن يكون هذا الإنسان عند الذي أراد الله من التحرك وفق ما تمليه الفطرة، ثم عمل ما من شأنه تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل، وخلع كل الانداد والاضداد، وإسلام الوجه إليه سبحانه ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون.

وهذه الحقيقة هي التي تجعل من الإنسان عنواناً للمعرفة، وتحول دونه ودون أن يستعبد لأخيه الإنسان، أو لأي مخلوق آخر، أو لرغبة أو رغبة على سلم الهوى، كما تحول دون أن يهدر مخلوق كرامة مخلوق، أو ينأى به عن ساحة إنسانيته . . وفي الوقت نفسه، هي التي تطلق لطافته الخيرة العنان كيما تعمل عملها لتحقيق أسمى الغايات وكيما تكون واحداً من البراهين الساطعة على جدارة الإنسان بهذا الذي خلقه الله من أجله، ودليل صدق يزيد المؤمن إيماناً بما ينطق به قول الله تباركت أسماؤه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وقوله لملائكته في شأن خلافة آدم -عليه السلام- ﴿أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

لذا كان مطلوباً من الإنسان دائماً أن يكون مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي التوحيد، وأن يعمل على جلاء قلبه، وأن يتفكر، بما أعطاه الله من عقل، في نفسه، وفيما حوله من آيات الله المثبوتة في هذا الكون . . ليظل على المورد الزلال، فلا يزيغ ولا تعبث به الأهواء، ولا يغفل عن رسالته في هذه الأرض ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ .

فإذا انقلبت الآية، وانكفأ الإنسان عن الصراط السوي في عبوديته لله ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿٧﴾ في أي صورة ما شاء ركبك﴾ .

وهذا الذي نشير إليه من أن التكليف مناط الجزاء ثواباً وعقاباً، وأن هذا عين التكريم، يشدنا إلى الطريق بدءاً بما جاء في شأن حمل الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان،



وانتهاء بكل ما ورد من ألواه المؤاخذة للإنسان عند الانحراف عن جادة الحق.

وبعيداً عن تحديد مدلول الأمانة المقصودة هنا يظل الأمر في حدود التكليف أمر عظيم يترتب على فعله الثواب وعلى تركه العقاب حيث قال تعالى عقب ---: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾. والظلم الجهول من بني الإنسان هو ذلك الذي لم يرع حق تلك الأمانة التي أهله الله لحملها. وملاك ذلك كله ما تجده في سورة العصر حيث أوضحت السورة أن الإنسان واحداً من طريقتين لا ثالث لهما فالإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر هي مقومات الطريق الراحبة وما عدا ذلك فهو الخراب المبين.

من أجل ذلك كان لابد أن تسير حركة الإنسان في مدار الفطرة التي فطر الله الناس عليها، الأمر الذي كان المرأة التي أنعكست عليها رسالات الرسل ودعوتهم إلى التوحيد، وكان خاتمهم في ذلك -ولا نبي بعده- محمد ابن عبدالله -عليه الصلاة والسلام-.

ولو حاولت أن ترسم خطأ بياناً لحرية الإنسان وكرامته في التاريخ، دون تمرغ في نسبية الاخلاق، ودون خضوع لمبادئ الميكانيكية في أن الغاية تبرر -أو تسوغ- الوسيلة، لا عوزك أن تجد نظيراً للإسلام فيما كرم به الإنسان -على صعيد الواقع العلمي في ظل تلك الحقائق- وفيما أعطاه من الحرية

ضمن إطار الفطرة، والمنهج الرباني الذي أنزله خالق الإنسان والعليم بما يصلحه، ويضمن له سعادة الدنيا والآخرة. كل ذلك في جو من التناسق بين طاقات الإنسان وخصائصه في نفسه، وبين الإنسان والكون والحياة. وسبحان الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسواه فعدله وعلمه البيان.

إن المصباح الذي تبحث عنه البشرية تحت وطأة الظلام، وفي ظل تجارب المذاهب والنظم في ارتكاساتها وانتكاساتها، قريب منها جد قريب أن لو تجرد الذين بيدهم مقاليد الفكر والأمر، أنه كلمة القرآن الذي كان من عطائه - كما -- عز وجل، فقد ضل سعيه، وهوى إلى الدرك الذي لا يليق بإنسانية الإنسان.

إن الله تعالى حين أنعم على الإنسان بما أنعم، ووضعه على طريق العبودية لم يتركه هملًا، وإنما أعطاه الوسائل التي إن أحسن استخدامها، ووظفها في مواقعها الطبيعية، حصل على ما أريد له من الخير، وفاز بسعادة الدنيا والآخرة.

والذين لا يستخدمون ما أعطاهم الله من الوسائل - كما ينبغي - فلا يتبعون أحسن القول - ولا يتفكرون في أنفسهم ولا في خلق السماوات والأرض ولا يشكرون المنعم المتفضل باستعمال نعمه في مرضاته لا في مساخطه. إن هؤلاء ومن على شاكلتهم محكوم عليهم بالغفلة التي نزلت بهم إلى مستوى هم فيه كالأنعام بل أَوْغَلْ فِي الضلال ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ



أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠﴾ ويوم القيامة ينجلي عن الكفار ما حجبته الغشاوة هنا فيعترفون بأوضح أسلوب أنهم ترمغوا في حماة العماية بكفرهم ﴿١١﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ ولقد أسعد الله البشرية بالإسلام، ويا خيبة المسعى أن حالت بينها وبينه عماية القلوب وظلمات الأهواء.

إن شقاء الإنسان اليوم، وما يعانيه بعداً عن الطمأنينة، وغرقاً في بحران من القلق والضياع، إنما مرده في كثير من الأحيان، تلك الغفلة التي جعلت الإنسان يهبط ويهبط. . حيث الجهالة تغشي الفطرة فتتكس الأمور وحيث اللهاث وراء الشهوات والمطالب اليومية، لا يدع من الشقاء زيادة لمستزيد، بل وحيث يقف شياطين الأنس والجن لهذا الإنسان بالمرصاد، ينصبون له فخاخ الأذى، فتزل قدمه إلى الهاوية يوماً بعد يوم، وتجد من مظاهر ذلك ما يفرع ويرعب، من الحرص على إنهاء الحياة بالانتحار، أو السكر والخدر والتردي في مهاوي اللامبالاة والضياع. وأنت واجد أن هذا المخلوق. مع ما وصل إليه العلم من آفاق، وما كشف للعقل من مغاليق. يدور في حلقة مفرغة لا يجد اليد الحانية التي تمسح عن حياته منغصاتها واحزانها، لما أن فسحة الأمل عنده منعدمة، وما يحس به المؤمن في عبوديته لله من الرضى والطمأنينة، والطمع بما عند الله، والفرح بفضلله، بعيد عنه كل البعد.

وهكذا - في عود للحديث على بدء - لابد أن يزدان التكريم بالعبودية، وبصاحب أهلية التكليف والخلافة، وتسخير الكون وضع الأمور في

مواضعها كما أراد ربنا تبارك وتعالى ، واستعمال الآلاء بطاعة الله ، صنع عباد الرحمن الشاكرين ، الذين يعرفون النعم فيشكرونها ، ولا يراهم ربهم حيث نهاهم ، ولا يفقدهم حيث أمرهم .

إنه ليس بالأمر السهل الذي لا يلتفت إليه ، أن يكون من تكريم الإنسان جعله أهلاً لخطاب التكليف الإلهي فيأمره الله وينهاه على لسان رسله عليهم الصلاة والسلام . ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ بعد أن كانت ذروة التكريم في اصطفاء هؤلاء المرسلين من --- .

وسوف تعاني الإنسانية ، وتظل تعاني ، ما لم تعد ، بمعاونة الرواد المصلحين ، إلى حظيرة العبودية الخالصة التي يتحقق بها وجود الإنسان ، مخلوقاً مكرماً ، يتفكر في نفسه فيزداد يقينه بوجود الخالق وحكمته ، ويتفكر فيما حوله مما سخر الله له وأعطاه من وسائل العلم والمعرفة ومفاتيح التسخير ، فيشيع في أعماق نفسه وقلبه نور قوله جل وعلا : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وعندها تسلم له الوجهة وتستقيم له الطريقة .

الذي نريده لهذا الإنسان ، ويريده معنا كل من يبتغون له السعادة والخير ، أن يربط حبله بالإسلام ، فهو المنجاة وهو المثابة وهو المعتصم في غمرات هذه الشدة الشادة ، فالظلمات المطبقة بكلكها على إنسان العصر الحديث ، ليس لها من دواء -بعد كل التجارب- إلا الخروج من العبودية للآلة ، وللرغبات الكامنة في أعماق من يديرون سياسة العالم ، ---- التي كثيراً ما



ينزلق بها الإنسان!! تحت وطأة القلق والتمزق .

إن كل ثمرات العلم التقني ، والتنظيم الفائق ، واستجلاء العديد من أسرار الكون ، لم تستطع أن تسعد الإنسان . لقد ضاع عن باب مولاه الذي خلق فسوى ، ولاذی قدر فهدى ، أجل لقد ضاع عن باب خالقه الرحيم الرحمن . فهو يدور في تلك الحلقة المفرغة ، وكلما زينت له أوهامه ، أنه وصل إلى شيء ، أحسن بكثير من المرارة أن السراب كان نتيجة مسعاه ، وأنه كان فيما يسعى إليه كذاك الذي يشرب من ماء البحر ، كلما ازداد دريا أزداد عطشاً .

وإذا كانت المعادلة العقلية تقضي بالانتفاع من حصاد التجربة ، أن على أولئك الذين يتجرون بالحديث عن الإنسان بعيداً عما نزل به وحي السماء ، وتسوقهم اللوعة المصطنعة إلى أن يحلموا بأكثر من مدينة فاضلة!! أن على هؤلاء أن يراعوا الحق ، ولا يكتموا قناعاتهم -أن توافرت لهم قناعات- تحت وطأة أغراض قريية أو عناد ما هو عن أمر الجاهلية ببعيد .

على أن بعض الغربيين من الكتاب والباحثين الذين بدأت عقولهم تتحرك وأقلامهم تعطي في هذا المضمار ، حتى كتب نفر منهم عن سقوط الحضارة الغربية ، وعن أسباب تمزق إنسان هذا القرن وضياعه ، يعطون المؤشر الأول في صنيعهم ، ولو اتبعوا ما كتبوا بالبحث عن الحقيقة المنشودة بتجرد ، ففأوا إلى حظيرة الإيمان ، وأزالوا الجفوة فيما بينهم وبين الإسلام ، لكان -والله أعلم- من وراء ذلك خير كثير ، لأن الإنسان الذي نتحدث عنه في الغرب

بما يمتلك من الحرية والرغبة في القراءة، والشعور بما هو فيه، يمكن أن ينقاد لكلمة باحث مخلص، وكثيراً ما كانت الكلمة العميقة الواعية بدء المنعطف الكبير في التاريخ.

وفي نهاية الشوط: لعلي لا أتهم بالتشاؤم، والمغالاة بالعقلانية، إذا ذهبت إلى أننا حين نريد مخلصين للإنسان أن يفيء إلى ما يرد عليه إنسانيته من جديد، كيما يتحقق الوجود الإنساني في هذا الكون بمعناه الواضح المستنير، علينا أن ننصف من أنفسنا فنعترف أن جانباً من جوانب المشكلة يكمن في أن المسلمين اليوم، غير مهيين ليمثلوا القدوة العملية الصحيحة في الهداية إلى الإسلام، فأين الصورة العملية للإسلام فرداً ومجتمعاً تحكمه شريعة الله، يعلن بخط سيره دون عجيج أو ضجيج أن هذا هو الإسلام.

فالمسلمون أو كثير منهم - وإلى الله المشتكى - بعيدون عن حقيقة الإسلام، بصرف النظر عن العوامل التي أدت إلى ذلك، وكثيراً ما يتخذ صنيعهم حجة على الإسلام. ويوم يتحقق لنا مع الدعوة، مجتمع يقوم عملياً على مبادئها التزاماً بشريعة الله ورضى بحكمها في كل جانب من جوانب الحياة، تزول في نظري كثير من العقبات التي تقوم في وجه الإنسان، أياً كان هذا الإنسان.

على أية حال: لقد قرب العلم البعيد، ولم يعد أمراً متعذراً أن يقع على الحقيقة من أرادها، والمفروض أن تسوق عصا الشدة التي يعاني منها الإنسان إلى فسحة هي أكثر أملاً واشراقاً، ولن يجدها المنسف إلا بهذا الدين الذي



رضيه الله خلقه وهو الأعلم بما يصلهم ، ويومئذ تتلى الحقيقة بكل قوتها -
-- لأولئك الذين أصابت أعينهم الغشاوة ، ورائت على قلوبهم الغفلة ، --
- يوقنون أن الله الذي خلق الإنسان وكرمته وفضله ، هو الذي دعاه إلى
الإسلام الذي هو غاية الغاية في إعطاء الكرامة والتفضيل وجودهما
العملي ، لأن الإسلام دعوة الحياة بل هو الحياة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا
لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ
تُحْشَرُونَ﴾ .

حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به^(١)

تري أية دهياء دعت أمة القرآن ، حتى كادت تستسلم لليأس القتاتل ،
وتلقي عصا التسيار في كهف من فقدان الثقة وخيبة الرجاء !!!

هل الأمر منوط بأن الإسلام قد استنفذ أغراضه؟ إنا لنعوذ بالحي القيوم
الذي عنت لعظمته الوجوه أن نقع فيما لا يقع فيه إلا زائغ مهين ، أو جاهل
مغفل .

إن الإسلام وهو دين العلم والمعرفة والجهاد . . تشدها إليه عقيدة التوحيد
وشريعة الكرامة ، وسلوك الطهر والنقاء ، ويربطها بامجاده ووقائعه تاريخ
كان -على الجملة- بحمد الله أصدق تاريخ قدم للإنسانية دنياً من العمل
والحركة .

نجد لزماً أن نصف هذا الإسلام من أنفسنا ، لتجاوز الحياء المصطنع ،
ونرى أن جانباً من جوانب المشكلة بالنسبة للإسلام وسلطانه في الأرض
يكن في تصرفات ك؛ ثير من المسلمين ، ومقدار إيمانهم -على الحقيقة-
بالإسلام الذي ينتسبون إليه في سجلات النفوس ، إيماناً يشمل الأبعاد
كهلا ، ويحمل على الالتزام الجاد الذي ينبو عن الشهوات وأمراض
القلوب . إنها -وأيام الله- صورة مشوهة مقلوبة مفزعة - تلك التي نقدمها
منسوبة إلى الإسلام على صعيد الوطن الكبير بما يكون من سلوك ، وما
يكون من مواقف .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة ، العددان الثالث والرابع ، السنة الثالثة عشرة ، ١٣٩٢هـ
جمادى الأول والثاني ، ١٩٧٢م تموز-آب .



وأخطر ما في هذا الباب -على صعيد الفكر والسلوك- تصرفات أولئك الذين تدق نفوسهم وقلوبهم مطارق الهزيمة، فهم مهزومون داخلياً، وإن بدت أشكالهم على الحال التي تذكرك بقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهِمْ خَشَبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَاتِلْهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾.

إنهم لا يريدون أن يتخلوا عن الإسلام وهو بمثابة عنوان، ولكنهم غير قادرين على متابعة الطريق في ظله على الحقيقة -هذا إن أحسنا الظن- لأن الإسلام كما هو معلوم بداهة إيمان وعمل، والتزام وجهد وسلوك، وهم في غير هذا، فتراهم إذا قالوا قالوا مدهنين، وإذا كتبوا كتبوا متأولين. ليس همهم أن يعودوا بأنفسهم، أو بالناس إلى ساحة الدين نقياً طاهراً بعيداً عن أوضار الجاهلتي ومساوئ التغيير والتبديل، منزهاً عن أن يكون في خدمة الانحراف وأضفاء الصبغة الشرعية على ما هو غير مشروع، ولكن همهم -وهم في موضع الكلمة المسموعة أحياناً- أن يوجدوا لأنفسهم وللآخرين ما يسوغ البقاء على الحال الظالمة المنحرفة التي هم عليها، من بُعد عن المفهومات الحقيقية للدين، وجفوة للسوّل الذي رضيّه الله لعباده، ودعا إليه بقوله وفعله رسول الله وتبعه على ذلك أصحابه ومن تبعهم باحسان، ورسخه في عقول الأمة وضمائرهما عمل أئمة الهدى من أعلامنا رضوان الله عليهم أجمعين.

فالنصوص في نظرهم لا بد أن تفهم من خلال ذلك المنطق، أنهم في

القاع ، فلا بد أن تشد الكلمة إليهم ينطقونها بما لا تنطق ويحملونها مالاّ تحمل ، يقطعون الكلام عن أسباب النزول أن كان قرآناً ، وعن أسباب الورود إن كان من الحديث ، ويغمضون أعينهم عن الإطار العام الذي يلف النصوص ، وما كان من ناسخ أو منسوخ ، وما إلى ذلك مما لا بد منه لسلامة الفهم وإدراك مدلولات الكلام ، ففي الجعبة أمور محدّدة مفروغ منها لا بد أن تخضع لها تلك النصوص وتطوّع لخدمتها الوقائع . وفي النفس قوالب قد انتهى أصحابها من تحديدها وحساب فراغاتها ، لا بد أن تحمل النصوص لملئها وتسخر لتكون شاغل الفراغ فيها ، والعكس هو الواجب أن يكون بالنسبة للمسلم ، فشعاره دائماً في مثل هذه القضايا قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . وتقود خطاه دائماً تلك الكلمات النبوية التي يفرق من هول مخالفتها المؤمن - ويالقلب المؤمن كم يرتعد لمخلوفات الكتاب ونذر السنة - تلکم هي قول النبي صلوات الله وسلامه عليه : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد » .

فما بالك إذا كانت القضية على صعيد البيان والفتوى والتعليم ، إن مقتضى الإيمان والورع يستدعي حيطه أكثر ومخافة من الله أوفر بحيث يكون نصب عينه قول النبي -صلوات الله عليه- : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » . وذلك ما دعا الأئمة الأولين رضوان الله عليهم إلى أن يكونوا على حال هذ غاية الغاية في أداء أمانة العلم



ومراعاة حق الله فيه ، فقد جاء عن محمد بن المنكدر -رضي الله عنه- قوله : «العالم بين الله تعالى وخلقه فليُنظر كيف يدخل بينهم» . وروي عن عطاء بن السائب أنه قال : «أدركت أقواماً يسأل أحدهم عن الشيء فيتلکم وهو يرعد» . إنها أمانة العلم والشعور برهبة الموقف أمام الله عز وجل ، حتى قال الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- «لولا الفرق من الله تعالى أن يضيع العلم ، ما أفتيت يكون لهم المهناً وعلي الوزر» .

إلا أنها واحدة من المشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي اليوم . .
بؤر تسيئ للإسلام أكثر مما يسيئ إليه أعداؤه ، وخصوصاً عندما تطرح القضايا والفهوم المنحرفة التي تقوم على تسويغ الانحراف تحت عناوين دينية مثيرة تعزّر بالقارئ العادي من المسلمين .

وهكذا يكون من أوليات النصفة لأنفسنا ولما ندعو إليه ، أننا عندما نريد أن ندعو إلى الإسلام ، أو ننعي على أعدائنا محاربتهم للإسلام ، لا بد أن نضع في حسابنا أن جانباً كبيراً من المشكلة يعود إلينا نحن في داخل أنفسنا ، ومن هنا جاء القرآن وجاءت السنة بعلاج الأمر من داخل النفس لا من خارجها . . . وتساوقاً مع هذه الطريقة الربانية كان لزاماً أن يكون العاملون في حقل الدعوة ، خصوصاً منهم المربين والمدرسين والباحثين . . . على ذكر من ذلك ، يعملون على هديه في أنفسهم وفيمن ولاهم الله أمرهم ، ورصيدهم كبير في مدلولات الكتاب والسنة ، وسير أعلام هذه الأمة ، مع الاستعانة بالصالح من وسائل التربية وعلم النفس . . إن الرصيد كبير في الدخول إلى

أعماق الفرد وعلاج هذه المشكلة مشكلة الانهزام والوقوع في شرك وثنية الرغبة والرغبة، حتى يصبح هذا لا فرد على حال تنعكس فيها دعواه على سلوكه وجوارحه وتطلعاته واهتماماته، فيكون مستسلماً لله عز وجل، بكل ما تحمل كلمة الاستسلام لله من أبعاد، وبما تمدُّ النفس من معطيات.

أما إذا بعدنا عن هذه الساحة ناسين معنى الإسلام الحقيقي غافلين عن معنى قول الله جل وعلا: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ فإن بقدمور من يتسم بسمة العلم في عنوان أو منصب، أو من أعطته الأيام عنوان البحث والدرس، أن يفتش وينقب عن الطريقة التي ألمحنا إليها يغريه علم لسانه وحذقة بيانه، فيجر البلاء على نفسه ولعى الآخرين ويجد عنده مرضى القلوب مبتغاهم، ناهيك عن تشكيك غيرهم والعياذ بالله، وما أكثر ما تخدم تأويلات النصوص وتسخيرها للإنحراف وتطويعها في خدمة واقع جاهلي - وتحت عنوان ديني - ما أكثر ما تخدم أعداء الأمة وتحارب قضاياها. . عندما تسهم في الظلم والضياع، وتضعف القلب والعقل والساعد.

مرة أخرى . . لا بد أن تمتد اليد الحانية المخلصة الواعية إلى هذه النفوس فتصلح من شأنها وتعالجها بترية الإسلام والتركية، كيما تحول بين الناشئة وبين أولئك الذين صلبت عودهم على الأذى، واستمرؤا تأويل النصوص والوقائع تأويلاً باطلاً ينبو عن طبيعة الإسلام وعن جو النص وملابسات الوقائع وما يكون من ناسخ أو منسوخ، وعن الكيان الخلقي الذي حصل فيه



ما حصل على عهد النبي -عليه الصلاة والسلام- نعم وكيفا توجه القاعدة الصلبة التي يكون الفرد فيها مسلماً بعنوانه وحقيقة سلوكه ، وطريقة بحثه وفهمه لما أنزل الله ولما جاء عن رسول الله ، يذيب بحرارة إيمانه كل ما يكون من معوقات ، وكل ما يكون من تسويلات الهوى والنفس والشيطان ، إذا رأيت ذكرت قول الله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

حتى يأتي أمر الله^(١)

كانت أياماً مذكورة في التاريخ، تلك التي كان الفرد فيها عنصراً فعالاً مؤثراً له وجدوه الذاتى القائم على العقيدة الصحيحة والبنية الفكرية المتكاملة، ومن وراء ذلك الإدارة والحركة، مما جعله يدرك أن له قضية، وأنه يجب أن يعيش لها، وأن أبعاد حركته لا تجدها ضروراته الفردية وكفى. . . مما جعله قادراً على العطاء في ساحات العطاء، لا تختل عنده القيم ولا تضطرب الموازين. . . علماً وعملاً وجهاداً، وتفانياً في سبيل الحفاظ على كل ما من شأنه سلامة كيان الأمة، وتدارك ما فاتها في حالكات الليالي، وقدرتها الحضارية في ميزان الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، والذي اختار لهذه الأمة وسطية تسعدها وتسعد الناس ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .

يستند ذلك إلى مقومات أساسية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله. . . إنها عقيدة التوحيد التي تعمل عملها في بناء الفرد والجماعة. . . ومع هذه العقيدة حراستها والقيام على أن يكون لها سلطانها في المجتمع وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي كل من المعروف والمنكر من الشمول ما لا يخفى على ذي بصيرة. وما أوسع من مدلول حضاري، وما أعظمه من نظام متكامل، أن يكون كل فرد في الأمة حارساً

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السابع والثامن، السنة الثالثة عشرة، رمضان-شوال ١٣٩٢هـ، إيلول-كانون الأول ١٩٧٢م.



لعقيدة الأمة، قيماً على أن يكون لها سلطانها وآثارها في تحركات الجماعة والمجتمع، وأن يشعر هذا الفرد بوجوده، وبقضيته التي تشدها إليها العقيدة، حين يقف موقف المسؤول عن تلك العقيدة في نفسه وفي الآخرين؛ وذلك ما ملك الأمة أسباب القدرة على أن تقف للزعازع في الماضي وتواجه التحديات، ولا يشغلها ذلك كهل عن الانسياح في الأرض، حيث الفتوح العظيم الذي ركز رايات الإيمان والعدالة، وأراح الظلم عن كاهل الإناسن، ومهدَّ للعلم أرحب آفاقه، وللمعرفة أوسع ساحاتها كانت الحضارة، وكان إنسانها الذي تظلله راية الإسلام.

ولقد يكون عنوان حرص الأمة على استرداد أمجادها، واستئناف الطريق إلى حيث تقرر مصيرها بنفسها على هدي ما تريد وأن لا يقضي بشأنها وهي غائبة غافلة، وتقتسم تركتها وهي لاهية ساهية؛ لقد يكون عنوان حرص الأمة على ذلك كله أن تقوم بمراجعة شاملة واعية لتعريف الإنسان المسلم وكيونته الكاملة من حيث ثقافته عقلاً وقلباً - بالمعنى الأوسع - وتصورات، وقدرته على العطاء، والأمور التي ينبغي أن تكون نصب عينيه، تحظى منه باهتمامات هي أوسع مدى، وأبلغ في التعبير عن صدق نسبته إلى هذه الأمة في هذه المرحلة التي تواجه فيها الأمة حصاد السنين العجاف، ورصيداً لا تحسد عليه من التخلف المادي، مما كان - إلى جانب مؤامرات الأعداء ومخططاتهم المقيتة - أثراً من آثار الانحراف عن طريق الإسلام كما هو في منابعه الأولى، وكما قدمه لنا الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - في

عمله وسلوكه وجهاده، ومن بعده سلفنا الصالح عليهم الرحمة والرضوان.

وحين تقوم هذه المراجعة بأمانة وفي مواجهة جادة للواقع، نستطيع أن ندرك أي حاجة، بل أي ضرورة تواجهنا في سبيل بنية جديدة للإنسان المسلم، تعدُّ لها من أساليب التربية والتكوين ما يؤهله للمسؤولية التي يراد له أن يحمل أعباءها في إطار القاعدة الصلبة التي يقوم على كواهلها البناء، مستضيئة بلهب الأذى يلفح وجود الفئة القليلة المؤمنة في العهد المكي، وبالدم الزكي المعطار يحص ويظهر على أرض الجهاد في العهد المدني. وليكون التكامل مضموناً لا بد أن يسير العمل في طريقين: أولهما: تهيئة المناخ الملائم الذي يتيح فهم الإسلام وتمثله علماً وعملاً في العقيدة والسلوك لتصح النسبة إلى الأمة المجاهدة. وثانيهما: الإفادة من الثروة التربوية عندنا وعند غيرنا مع وضع كل تجربة كانت لنا أو لغيرنا موضعها الصحيح.

وهناك يكون بمقدور الفرد أن يتابع الرحلة ضمن إطار الجماعة، بعيداً عن الكسل العقلي، والتهالك النفسي، لأننا قد فتحنا له منافذ الخير، وسمحنا لطاقاته أن تتفاعل مع الحياة، ولمواهبه أن تنتج في طريقها الطبيعي، مما يجعل من ذلك كله روافد على طريق الأمة الطويل.

فمما تقضيه طبائع الأشياء، إنا حين نريد من الفرد أن يكون لبنة صالحة في البناء، لا بد أن تكون له البنية الصالح التي يشعر فيها بذاته ووجوده - كما أسلفت - مما يجعله صحيح النسبة إلى أمته، مرتبطاً ارتباطاً عضوياً بقضيته،



حتى تستأثر باهتمامه ، وحتى يكون شعوره بما يلقي عليه من أعباء ، وما يطلب إليه من واجبات تمليها رسالة تلك الأمة أصيلاً بعيداً عن التكلف والمداهنة أو المنفعة القريبة العاجلة .

ولكن حين نغمض العين عن كل المقومات الأساسية في هذا المضممار ، يكون من التناقض بمكان أن نطالب الفرد بالعطاء ، وأن ننعي تخلفه عن أن يأخذ موقعه الطبيعي في بناء العقاعدة الصلبة التي هي محلُّ نظر الله وعنايته والتي يسعدها أن تكون عليمستوى الأمانة التي عزت يحملها الزمة وأخذت مكانها تحت الشمس .

وإذا كانت النِّصْفَة لثراثنا الحي الذي يفيض بالمعرفة والخير ، تقتضينا أن نفتح القلوب والعقول لمشرق شمسنا الأولى يوم أضاء الوحي ربوع مكة بسناه ، فلنذكر أي عناية أولاها الإسلام لهذا الذي نتحدث عنه ، وهاك واحدة من لمحات هذا السنِّى ، حيث يعاتب الله نبيه -صلوات الله وسلامه عليه- ، من أجل فرد مكفوف البصر هو عبدالله بن أم مكتوم -رضي الله عنه- ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَظُنِّي ﴿٣﴾ أَوْ يَذْكُرُ فَتَنَّهُ الذِّكْرَى ﴾ بعد النظر في هذا العتب الكريم ، لاحظ قوله جلَّ شأنه : يَظُنِّي . . فتنبه الذكرى . متبيناً وزن ذلك في ميزان القيم التي أراد القرآن أن تكون المحور في حياة الفرد والجماعة .

إلا ما أكرم هذا الذي جاء به المنهج الإلهي من العناية الربانية في بنية هذا الإنسان الذي خوطب بعقيدة التوحيد ، كما يكون أهلاً للحركة في إذار

الجماعة المسلمة التي أريد لها أن تشق طريق الحياة بعناصر الحياة، وأن تبني بتضحياتها وصبرها على مشاقات الطريق حضارة الإنسان بتوازن وعمق وشمول.

وما أسرع ما أتى هذا المنهج أكله في تلامذة محمد -صوات الله وسلامه عليه وأتباعه-، حتى في المرأة العادية، التي لا يظن للوهلة الأولى أن تكون لها تلك الآفاق العلوية التي تتسم بالعمق وسلامة التصور. هذا أبو بكر وعمر ينقلان النخطة إلى أم أيمن (بركة) حاضنة الرسول، في زيادة لها بعد وفاته -عليه الصلاة والسلام-؛ ففي حسن الصلة بها وتفقد شؤونها -في حدود آداب الإسلام-، وفاء أي وفاء له -صلوات الله وسلامه عليه- خصوصاً وهما يلعمان ما كان من حرصه على رعايتها وإكامها. وتنظر أم أيمن إلى الصالحين الماجدين الكريمين فتبكي.. وتبكي. ويحسبانها تبكي عاطفة لفقد رسول الله -صلى الله وسلم عليه- وكفى.. ويكون من قولهما لها مواساة وتلطفاً، أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله وأبقى؟ فيكون من جوابها كلمات هي من أعلى وأعلى ما قالته بنات حواء: إنما أبكي انقطاع الوحي من السماء. أرأيت إلى أم أيمن، وقدر الوحي في نفسها، الأمر الذي ينبئ عن سلامة تصورهما لهذا الغيث العميم الذي رحم الله به الإنسانية وهو يتنزل خلال ثلاثة وعشرين عاماً على رسول الله.. أليست الأمة التي من أفرادها هذه المرأة العجوز، جديرة بأن تدق أبواب الحياة فتفتح لها على مصاريعها، وأن تمسك بزمام الحضارة التي أسلمت



الإنسان إلى سعادة الدنيا والآخرة .

ولو رحت تقوم بعملية استقصاء على عيّنات من المجتمع يومذاك ، لرأيت من نتائج الاستقصاء العجب العجائب ، مما يجعلك تحكم بأن ما حصل من ثبات البنيان والقدرة على الاستمرار تلك القرون المتطاولة إنما كان نتائج طبيعية لمقدمات طبيعية ، فليس من طاقة مهذرة ، ولا جهد مضاع ، وكل الطاقات توظف في سبيل رسالة الأمة في العالمين ، ثمرة للبنية التي نشير إليها بهذه الكلمات : وأول ما يفجؤك أن الأمر ليس خصوصية في قطاع معين من الناس وإنما هو طابع مميز ، وقدر مشترك بين العالم والمتعلم ، والحاكم والمحكوم ، والكبير والصغير . . حتى رأينا عمر بن الخطاب يمشي مرة في واحد من أزقة المدينة فيصادف نفراً من الصغار يلعبون ، وعندما يرونه يلوذون بالفرار إلا طفلاً واحداً لم يبرح مكانه ، وظل ثابتاً لا يتحول ، ولفت نظر عمر هذا التصرف ، فقال للغلام : مالك لم تهرب كما فعل رفاقك ؟ وكان الجواب الذي رسم في تاريخ أمتنا سطوراً لا تبلى ، قال الطفل : يا أمير المؤمنين ليست الطريق ضيقة فأوسعها لك ، ولست مقترباً ذنباً فأخاف منك . فاستأثر الطفل بأعجاب عمر ، وعندما سأل عنه عرف أنه عبدالله بن الزبير . لقد كان أمراً عظيماً أن يقف للكلمة أمير المؤمنين الذي تهتز الأرض لكلماته يلقيها من مدينة رسول الله ، ولكن الذي لا يقل عن ذلك عظمة في مدلوله أن يقوم طفل لعمر مثل هذا الكلام . .

وهذا رجل يقول لعمر : أتق الله يا عمر ، فيقول قائل : المثل أمير المؤمنين

يقال هذا الكلام، ويكون جواب الإنسان الذي عرف الجاهلية والإسلام، وأن خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، يكون جواب عمر الحاكم أمير المؤمنين: «دعه، لا خير فيكم أن لم تقولوها ولا خير فينا إن لم نسمعها».

ألا ليت لنا آذاناً تسمع وقلوباً تعي حتى نعلم في وطننا الكبير كيف يمكن للمواهب أن توظف في سبيل القضية العامة، وللطاقات أن تجند كيما نبلي الهدف الكبير ولا نكون هملاً في نظر الأقوياء ذاكرين أن ما نعتز به من مفاخر أمتنا من ثروة حضارية ومعرفة إنسانية وأعلام كانوا ضياء الزمان، لم يكن وليد العبث والمصادفة، وإنما كان وليد عقيدة كرمت الإنسان وفتحت أمامه كل الآفاق التي يستطيع معها أن يكون في خدمة أمته على طريق موصولة بالقرآن تلاوةً وتدبراً، عملاً بأحكامه ووقوفاً عند أوامره ونواهيه، واستمسكاً بأدابه وأخلاقه. ولا بدع فتلك هي السبيل التي سنّها رسول الله لامتته حتى قالت عائشة عندما سئلت عن خلقه -عليه الصلاة والسلام- «كان خلقه القرآن».

ولقد فهم عمر هذا الارتباط الطبيعي بين العمل بالقرآن وبين تكوين الإنسان المسلم بحيث يكون ذلك سمة له يعرف بها، وأثر ذلك في المجتمع، من أحقاق الحق، والقيام بأداء ما تمليه أخلاق القرآن، حتى يكون العاملون بذلك من أهل القرآن، في توكل صادق على الله، وتصديق بأن الآجال بيده، وأن الأرزاق من عنده، فهو المحيي وهو المميت وهو المعطي وهو المانع



وهو على كل شيء قدير . قال رحمه الله : «إقرأوا القرآن تعرفوا به ، وأعملوا به تكونوا من أهله ، ولن يبلغ حق ذي حق أن يطاع في معصية الله ، ولن يقرب من أجل ، ولن يباعد من رزق أن يقوم رجل بحق ، أو يذكر بعظيم» . وإذا كانت الأمانة أثقل ما تكون على كواهل الرواد عند اقتراح هذا المرتقى لاصعب في أنفسهم وفيمن يرون فيهم معلماً من معالم القودة والتأسي . . لقد طوتهم بشارة رشول الله بالفضل والتكريم حين قال -عليه الصلاة والسلام- وهو لا ينطق عن الهوى : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله» .

العيد.. في بعض معانيه^(١)

في خضم التساؤلات التي تجري في كل مناسبة على لسان الفرد العادي والإنسان المثقف، والمجرب الخبير، لماذا تبدو أمتنا غير قادرة على الإفادة من مناسباتها الإسلامية التي أسهمت في صنع التاريخ، ومن وقائعها التاريخية التي كانت جزيلة العطاء للإنسان والحضارة الإنسان؟ ولماذا يكون موقفها موقف المتفرج العاثر الذي لا تهمة الواقعة في قليل ولا كثير، فهو لا يتفاعل معها، ولا تبدو بينها وبينه أصرة نسب... حتى تراه أشبه بواحد من نظارة المسرح يهمله أن يمضي الوقت لاهياً ساهياً، ثم ينقلب إلى حياته العادية الرتيبة من جديد؟ لماذا... ولماذا... والوقائع تفرض نفسها، وفي كل يوم جديد يعدو إلى هذا التساؤل... والأكثر في غفلة عن الجواب الذي يحمل صاحبه إلى ساحة الالتزام... وهو أن الأمر يتوقف على الإدارة الصادقة في التغيير، الإدارة التي تولد ما تولد من نتائج، وتبدل ما تبدل من أاليب، وعندها تستمطر رحمت الله، ويتنزل عونه وفضله على عباده المؤمنين، الذين يصدقونه فيصدقهم، وتصح منهم العزيمة على ما يجب أن يكون فيأتيهم نصره إن عاجلاً أو آجلاً... سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

هكذا وفي خضم هذه التساؤلات تبدو مناسبة عيد الأضحى المبارك وهي واحدة من مناسبات كثيرة تفرض سلامة التصور، وضرورة الوقوف عند

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالثة عشرة، السنة الثالثة عشرة، ١٣٩٢ هـ ذو القعدة - ذو الحجة، ١٩٧٣ م كانون الثاني - شباط.



حدود الشرعة التي ينبغي أن تكون محور حياة المؤمن ، تحدد أهدافه ، وترسم أبعاد حركته ، كما تفرض وراء ذلك حسن الإفادة من الماضي للحاضر والمستقبل ، لكي يكون وموقف الفرد الذي ينتمي إلى هذه الأمة الخيرة ، موقف التفاعل والإيجابية ، وهو موقف يجعل العيد حلقة من حلقات الحركة الواعية البناء في طاعة الله ، لا فترة زمنية عابثة محكوماً عليها بالموت .

فالعيد في مغزاه وأصل مشروعيته - وأرجو أن لا يكون هذا من مكرور القول - لم يكن أمراً طارئاً على كيان الأمة في بنائها الجديد الذي رفع قواعده محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه - ، بل هو منسجم كل الانسجام مع الذي أكرمها الله به في بعثه - عليه الصلاة والسلام - ، بعيداً عن كل موروثات الجاهلية الجهلاء . . وما كان من أمراض اجتماعية وخلقية . . وفيما أخرجه أبو داود والنسائي عن أنس - رضي الله عنه - قال : « قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ولهم يومان يلعبون فيهما فقال : قد أبدلكم الله بهما خيراً منهما يوم الأضحى ويوم الفطر » .

وهكذا يطل هلال العيد على الأمة ، فيكون فرحة بفضل الله تعالى الذي وفق للعبادة ، وإقامة شعائر الله ، وسلوك السبيل المؤدية إلى مرضاته ، ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ . ويكون من بعد عنواناً على التكامل في حياة المسلم الذي ينظر إلى الحياة من وجهيها المادي والروحي ، ففيه فسحة ونوع من الترويح عن النفس في حدود المشروع ،

فالزمن ليس ظرفاً للكدّ والجهد وكفى . . ولكن لابد من ساعة وساعة . .
ولا عليك أيها المسلم ، ما دام الاستمتاع بزيينة الله التي أخرج لعباده محكوماً
بضوابط التلقي عن الشارع الحكيم .

والعيد -فيما وراء ذلك- مناسبة كريمة للتواصل وتعميق المودة ، وافساح
لمقاييس والأخوة الإيمانية والمعاني الإنسانية ، أن تأخذ طريقها في الحكم على
علاقات الناس بعضهم مع بعض .

غير أن الذي لا يجوز نسيانه أو تناسيه -والأمة تعاني من صنيع يهديها
وتأمر أعدائها ما تعاني- أمور هي على غاية الأهمية فيما نعتبره تكاملاً
موضوعياً مع هذا الذي نقول .

أ- فمن الواضح أن للعيد لوناً معيناً من العبادة ؛ كلاذني نراه في صلاة
العيد والخطبة وصدقة الفطر في عيد الفطر والأضحى في الأضحى ، غير أن
الذي يبدو بارزاً ضمن هذه الأحكام مشروعية التكبير «الله أكبر ، الله أكبر ،
لا إله إلا الله ، الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد» على شيء من التفاوت في
الفترة الزمنية التي تأخذها ساحة التكبير بين الفطر والأضحى ، ففي الفطر
يبدأ التكبير من وقت الخروج إلى الصلاة وحتى الشروع فيها . وفي
الأضحى يشرع بدءاً من صبح يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق .
وفي صلاة العيد سبع تكبيرات في الركعة الأولى عدا تكبيرة الإحرام ،
وخمس تكبيرات في الركعة الثانية عدا تكبيرة القيام وهو مشروع في كلا
الخطبتين . . . وفي هذا اللون من العبادة أشعار للمسلم بأن الله أكبر من كل



كبير ، وأعظم من كل عظيم في نفسه وفي عالمه الخارجي ، وعلى أي صعيد تحمله الحياة إليه أو تحمله عليه ؛ فإن كانت السراء ذكر المسلم أن الله أكبر مما أصاب ، فلا يكون باغياً ولا عادياً ، لا تبطره النعمة القريبة ، ولا تستخفه الفرحة العاجلة بما أوتي . .

وإذا كانت الضراء . . فالله أكبر من المصائب والزلازل . . والله أكبر عند كل عقبة تعترض سبيل المؤمن . . وما أكثرها من عقبات . . والله أكبر عن دكل نازلة تحل بالأمة حيث الحاجة إلى رباطة الجأش أمام كل فتنة ندع الحليم حيران ، وإلى الصبر في المواطن حيث يفتقد الرجال ، وتبدو حاجة الأمة المسكينة إلى أولئك البررة الذين يكثرون عند الفزع ويقلون عند الطمع . . وإلى الرضا بقضاء الله فيما أراد من حسن البلاء على طريق التغيير . . والتسامي بصدق الطمأنينة إلى ما وعد به عباده الصادقين ، حتى كأن المغيب الذي لا تطوله حواسهم هو من عالم الشهود بين أيديهم وعن أيانهم . . وفي ذلك ما فيه -والله هو الكبير المتعال- من الدفع القوي المشبوب بالإيمان إلى حيث القدرة على إعادة الأمور إلى نصابها في أن تنال الأمة حقها كاملاً غير منقوص في العالمين ، سلامة عقيدة ، وبنية فكر ، وتحرير أرض ، وصدق اتجاه يضمن أصالتها في معترك الصراع ، ويردها إلى حيث تجمع بين الأصالة والتجديد ، وتصل ما أنقطع بينها وبين تراثها ولغتها من أسباب . . . إن ساعة مشرقة بالأمل العريض هي بانتظار المسلم الواعي في أن يكون التكبير اليوم إضاءة جديدة للنفس . . ودافعاً حركياً إلى العمل . . . وكلمة واعية في

التاريخ تجدد للتكبير شبابه في الصدور، حيث الرحلة التي ملأت دنيا الإنسان عبر القرون، تبدأ من غار حراء وتتحرك على أرض بدر والقادسية واليرموك، وكل معركة كان حذاء رجالها التكبير.

ب- ومن الأمور الجديرة بالملاحظة والتبصر، ما نراه في الوجه الآخر من مشروعية الأضحية في عيد الأضحى، حيث يشدنا ذلك إلى ماض تاريخي مبارك في سيرة إسماعيل -عليه السلام- ووالديه، يُنبئ عن الكثير من التضحية والبذل في سبيل الله، وصدق التوجه إليه سبحانه، وإسلام الأمر إليه جلّ وعز، وإفراده -وهو الغعني عن العالمين- بالعبادة، مع اليقظة الواعية لتسويلات الشيطان وحبائله، وما يزينه من الصوارف عن الامتثال لأمر الله. فإبراهيم -عليه السلام- يتلى بالأمر بذبح ولده الذي بلغ معه السعي وأصبح على عتبة الشباب، يتلى بهذا الأمر الإلهي وهو الوالد الذي رزق هذا الولد بعد أن وهن منه العظم ودلفت إليه الشيخوخة، ودب دبيبها لتلفه من هنا وهناك. . . وابتلي إسماعيل بإرادة أن يُذبح امتثالاً لأمر الله، فلا عاطفة الأبوة حجزت من الأقدام ولا غريزة حب الحياة أمكن أن تحول دون الطاعة والامتثال: ﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. ولا تسل عن الأم في أمومتها وعواطفها، وما أودع الله في صدرها من حنان تعجز أقلام البشر عن وصفه. . . هذه الأم لم يكن منها إلا ما كان من زوجها وولدها والله المستعان. الكل صادق الوجهة في ظل شعار عنوانه «وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا



من المشركين» وحين يعترض إبليس يذكر بعاطفة تحول دون تنفيذ ما أمر الله
يكون نصيبه الرجم . . . أوليس من عظيم منة الله أن نستذكر هذا الذي
كان، وغمحن أنفسنا، بل نحاول تجديد البنية الفكرية والشعورية للمسلم في
ضوء هذه الوقائع التي انتهت بما كان من الرحمة الإلهية ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ
عَظِيمٍ﴾ .

فنحن اليوم نضحى إذ الأضحى واجباً أو سنة مؤكدة، فماذا علينا، إلى
جانب مشروعية إراقة الدم، وما يكون من التعاون الاجتماعي، والمشاركة
في الفرح الغامرة على قدم المساواة قدر المستطاع، ماذا علينا ونحن اليوم
على ما نحن عليه من حال لا نحسد عليها، علينا أن نتيح لهذه الوقائع
والأمور المشروعة أن تأخذ طريقها إلى أعماق النفس، فتعمل عملها تغييراً
وتبديلاً، وإزاحة للركام، حتى نصبح مؤهلين لتنزلات رحمت الله،
ونسلك طريقنا على بصيرة وهدى . . . ماذا علينا لو أفسحنا الطريق للإرادة
الحازمة أن تفرض سلطانها، فينحسر القزم ويتحرك العملاق، فنسمو فوق
عوائق التضحية والبذل في سبيل الله، ونرجم الأبالسة والصوارف . . . إننا
بشيء من محاسبة النفس والمكاشفة، ومراجعة الرصيد بشجاعة الرجال
نستطيع -بعون الله- أن نخطو الخطوة التي تضعنا على الجادة . . . وعندها لا
يكون ينصب تلك الوقائع منا نوعاً من الاجترار والمفاخرة التي تلهي عن
العمل وتقعّد بصاحبها عن الحركة الفاعلة المؤثرة . . . كلا . . . بل يكون من
نصيبها أن تفجر طاقات الفرد، وإمكانات الجماعة، وتحمل إلى ساحات

الإيثار والتضحية بالأنف والشهوة قبل كل شيء ، بعد الاعتزاز بما من أجله تكون التضحية ويكون الإيثار .

ج- وليس ما قلناه بمغن عن التذكير بأن العيد في حقيقته شرعة من الله للأمة ، وتنمية الحس الجماعي بكل ما شرع الإسلام للجماعة غرض واضح من أغراض هذا الدين السمح الكريم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فلن يكون العيد عيداً بالمعنى العام - وفيما وراء إقامة الشعائر - إلا حين تأخذ الفرحة طريقها إلى الجميع . . ومن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم . وإن لزماً على أبناء الأمة أن يخرج الأمر في هذا الباب عن دائرة العواطف المبثورة عن العمل ، إلى العمل الجاد المثمر المرتبط بتحقيق ما أمر الله . . . وذلك كله يستدعي سابقة تصور صحيح لمعنى الأخوة الإيمانية ، ذلك التصور الذي يشعر بنسب الإيمان بين الأخوة مهما تناءت الديار واختلفت الألسنة والألوان . . . وهذا جزء من التصور الحقيقي أيضاً لمعنى الدين ومدلوله وطبيعة الرابطة في ظل راية الإسلام . . ولكن عندما بدأت الجفوة وأصبح الدين عاطفة موروثة عند كثير من عوام الناس يقتصر على النطق بالشهادتين وأداء بعض العبادات حيناً وهجرها حيناً آخر ، وبضاعة للتكسب أو المباهاة والمفاخرة عند بعض من ندعوهم بالعملاء في بعض الأحيان . . عندما أصبح الدين بضاعة مزجاة من ناحية التصور والالتزام والشعور بالمسؤولية . . بدأت تجفونا الحياة ، ولا تستجيب لنا الوقائع ونزعت مهابتنا من صدور أعدائنا ، وسقطنا في مهواة العبودية لغير الله ، وسلط علينا حتى اليهود أذل خلق الله ؛ وليس لها من دون الله كاشفة .



إنه لأمر عظيم أن نذكر في العيد معاني العيد شرعة شرعها الحكيم
الخير . .

وإنه لأمر عظيم أن يعمل الرواد على توعية أبناء الأمة ليكون منهم سلامة
التصور لطبيعة هذا الدين وما شرع الله من أحكامه . .

وإنها خطوة ميمونة مباركة أن ينقلنا العيد إلى ساحة نستشعر فيها عظمة
الله وثقل الأمانة والجهاد والتضحية، وأي شيء هي حقيقة أخوة الإيمان .
والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ^(١)

دائماً . . وعلى مر تاريخنا الطويل ، بدءاً من اللحظة المباركة التي استمع فيها الزمان إلى النداء القرآني ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ ووقوفاً عند أعتاب تلك القمم من المعرفة والبذل غير المحدود في سبيل الله . . وحتى يومنا هذا ، يلمح الناقد البصير الدرس الخالد الذي درج في ظل الحق الذي نزل به الكتاب ، وبعث بدعوته محمد -عليه الصلاة والسلام- ، ذلك الدرس هو إيضاح الحقيقة التي ينادي بها دعائها ، والإعداد الدائم للعطاء في سبيل هذه الحقيقة عملاً وتقوى لله عز وجل ؛ كيما تكون الاستجابة صحيحة لدعوة العطاء ، وكيما تتحول الكلمات إلى واقع يسعد البلاد والعباد .

فهما نقطتان متلازمتان ، في ترابط حركي لا ينفصم ، وخطان لا يفرق بينهما إلا جهل جهود ، أو تقاعس كسول .

وإنك واجد في القرآن الكريم وسيرة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- صورة ذلك على أوضح شكل ، وأكمل بناء ؛ فالوحي يتنزل على الرسول خلال ثلاثة وعشرين عاماً ، وهو -صلوات الله وسلامه عليه- ، يدعو ، ويبلغ الوحي ، ويبين مضموناته من جهة ؛ ويسلك بنفسه وبأصحابه سبيل الإعداد والجهاد على ساحة المعرفة ، والتطبيق من جهة أخرى .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الأول والثاني، السنة الثانية عشرة، ١٣٩١هـ ربيع الأول والثاني، ١٩٧١م أيار - حزيران .



وعبثاً تحاول أن تجد في فترات الوعي الإسلامي الصحيح أيَّ انفصام بين تلكما النقطتين ؛ لأن سيرة الرسول -عليه الصلاة والسلام- التي كانت مخبر الإعداد الصحيح لصحابته ورجال دعوته لم تكن سيرة فيلسوف يصوغ نظريات تذورها على جدار الزمن الرياح ، وجدت طريقها إلى أن تتحول إلى واقع يتحرك أو لم تجد ؛ ولكنه -عليه الصلاة والسلام- كان دائماً المثل الأعلى في نفسه وفي بيته من ناحية السوّلك ، ثم من ناحية صوغ الواقع الذي كانت تعيشه الأمة ، إلى أنموذج من الحياة تحكمه المناهج التي رسمها الوحي للعالمين ، وكانت أداة التنفيذ بالطبع تلك الجامعة المؤمنة التي أعدّها الإعداد القرآني الذي جعلها على مستوى المسؤولية والقدرة على التنفيذ في مجتمع كان مثقلاً بالخرافة ، والتعاطف بالآباء والأجداد ، والموروثات التي أحلتّ التقليد الأعمى محلّ العقل النير والفكر السمتقيم ، حتى بدت الحقيقة السمتحة قبل البعثة وكأنها أمر لا قوام له في مقابل الوثنية الضالة والجهالة العمياء .

وكان من فضل الله على هذه الأمة أن القرآن كان لا ين يؤكّد تلك الحقيقة التي قام على أسسها البناء الجديد ، وعلى هديه سارت المناهج والنظم ؛ فتراه يتحدث عن العقيدة بجميع شعبها وفروعها ، ويحارب الوثنية بشتى أشكالها وصورها ، ويرسخ أمر الإيمان بالغيب ، ويوسع من ساحة الإيمان حتى تشمل أموره كل مرتكزات الأخلاق والسلوك ، ويعرض لأحوال الأمم الغابرة مؤكداً على مواطن العظة والاعتبار خصوصاً فيما له علاقة بدعوات

الأنبياء إلى أقوامهم، وما كان من مد وجزر في هذه الموضوعات الجذرية في حياتهم.

وبعد ذلك : تراه يدخل مع الجماعة المؤمنة إلى قلب المعارك التي خاضتها في سبيل الله تأييداً للحق الذي دعاها إليه محمد -عليه الصلاة والسلام- . فما كان صواباً حمده لهم ، وما كان غير ذلك قوّمه وشدهم إلى حيث لا يتكرر الخطأ مرة أخرى ، مما باعد بينهم وبين أن يكونوا نسخة كتاب صامته لا تتحرك ، وإنما صورة حية صادقة لحركة الدعوة في تجليتها للأسس التي تقوم عليها ، وإعادة بناء الفرد على النهج الذي يؤهله لحمل الأمانة بوحي وإخلاص ، وعزيمة مؤمنة صادقة .

والذي يلف النظر ويذكر بأن الصراع بين الحق والباطل لا بد له دائماً من العدة المستطاعة ، أن القرآن كان بجانب إيضاح خصائص الدعوة ومعالمها ، يُعنى ببيان ما يكون عند الآخرين من أسلحة المواجهة لهذه الدعوة سواء على صعيد الجل والممارسة ، أو على صعيد الحرب والنزال ، والناظر في أي الكتاب يجد مصداق ذلك جلياً يدعمه الكثير الكثير من الأمثلة والشواهد .

وانظر في حديث القرآن عن أنصار وأعداء المرسلين الأولين وما واجه كل قوم به رسولهم ، وعن الجاهلية والجاهلين ، وعن أهل الكتاب من بني إسرائيل خصوصاً ما كان من يهود في الجانب الفكري ، ثم الحرب الظاهرة والباطنة في التآمر والكيد والاحتيال ، وعن فرعون بخاصة وما كان منه مع سيدنا موسى -عليه السلام- وكيف كانت تقابل الحجة الساطعة بالعسف والاضطهاد .



ومع الاجمال الذي يطبع طريقة القرآن -في الغالب- ترى أنه لا يدع أمراً
تفيد منه هذه الأمة في دعوتها وأداء رسالتها إلا ذكره .

وهذا دليل واضح على أن من العبث أن يدعى خوض معركة تحت راية
الإسلام لا يملك أصحابها سلاح المواجهة فيها ، فضلاً عن أن يكونوا على
معرفة بطبيعة المعركة ، وعناصر السلاح الذي يستخدمه العدو في سبيل
ذلك ، وليس بخاف على ذي بصيرة ما تدل عليه ظواهر حرب الإسلام -
على النطاق العالمي- من أن هنالك مسحاً لأوضاع دعوة الإسلام على
مستوى الأمكنة والأشخاص والأنظمة والأفكار ، وأن العدو يستخدم
أسلحته الظاهرة والخفية ، وأن من تلك الأسلحة ما يكون من غفلتنا نحن
عن الواقع ، وعن الإفادة من الجزئيات وربطها بالكليات ناسين أو متناسين
التوجيه القرآني في أعقاب انتصار المسلمين على اليهود في بعض المعارك
وبيان أن اليهود تسببوا هم أنفسهم بما أصابهم ذلك قول الله تعالى :
﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴾ . ولقد أدى بنا عدم الاعتبار -على ما يبدو- إلى
أن تنقلب الآية ، فنكون نحن في الموقع الذي نحن فيه اليوم ، واليهود
يتراقصون شامتين ، ويكيدون منتصرين طامعين .

ومما يجب أن يكون المسلم على ذكر منه أن كلَّ الذي تحدثنا عنه وهو
جانب من الإعداد المطلوب ، يواكبه دائماً اعتقاد المسلم بأن النصر من عند
الله ، وأن عونه وتأييده كائنات لهذه الأمة إن هي أخذت بالأسباب ، وقدمت
جهد طاقتها ، ولم تبخل على ما به قوام وجودها وسعادتها في الدارين
بشيء من النفس أو المال أو أي طاقة أو كفاءة مستطاعة .

وهذا اليقين قد جاءت الوقائع في الماضي والحاضر مؤكدة له وموثقة؛ فمنذ أخذت الدعوة طريقها في مكة إلى أن خاضت معاركها على صعيد الجيش والمواجهة في المدينة بعد الهجرة، وفي كل مراحل التاريخ وتقلباته حتى في الأندلس، ومع التتار والصليبيين، وفي ظل الخلافة أخيراً ناهيك عن أحداث لا نعلم عنها إلا القليل . . كان الأمر واضحاً كالشمس في رابعة النهار حيث تظهر آيات الله في الوقائع وتقلب الأمور، فترى النصر ينبعث من ظواهر الهزيمة، والفرج ينبت من قلب الشدة . وذلك ما يشد دائماً من سواعد الفتية المؤمنة الذين يعتقدون أن التكافؤ بين المسلم وغيره بالسلاح المادي قد يكون عسيراً إلى حد بعيد، وأن هناك بديل خير عن هذا، وهو نصر الله وعونه وتأييده، كالذي قصه الله علينا في القرآن مما كان سمة كثير من الوقائع، وكالذي جرى على حلبات الصراع بين الإسلام وأعدائه مما أثبتت الروايات الموثقة وقوعه، وأثره في المعارك ونتائجها إلى المدى البعيد .

هذا وعندما يبلغ الأمر مداه من التحقق بهذا الذي رسمه القرآن وبيته السيرة بالواقع العملي، واقترن ذلك بالمقصد الأسمى وهو تحقيق العبودية لله على هذه الأرض، في إطار من تقوى الله وابتغاء مرضاته، والتخلي عن مراداتنا القريبة إلى ما يريده هو سبحانه . . أقول : عندما يبلغ الأمر ماده على هذه الشاكلة ترى العجب العجاب من لطف الله بعباده المؤمنين، وإكرامه لهم بالثبات والصبر والمصابرة، وإزاحة الكثير من الركام على شكل لم يكن في الحسبان . وهذا في نظرنا من الدلائل على وجود الله تعالى وقدرته



سبحانه . . وذلك بعض من مدلول قوله جل وعلا : ﴿سُبُّهُمْ آيَاتُنَا فِي
الْأَفَاقِ﴾ فالآيات الدالة على وجوده وقدرته ، وصدق رسالة محمد -عليه
الصلاة والسلام- لا تنحصر في تلك المظاهر الكونية التي يتمثل العجز عن
إدراكها في قوله سبحانه : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ
الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ثم ارجع البصر كرتين
ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ إن هذا -في واقع الأمر- لون من ألوان
تلك الآيات الباهرة حيث بدأ الإنسان يدرك اليسير اليسير منه بعد أن زحف
آلاف الآلاف من السنين . ولكن وراء ذلك الكثير الكثير ومنه هذا الذي
نتحدث عنه في إطار لطف الله ورحمته بعباده المؤمنين إن هم استقاموا على
الطريقة وعقدوا العزم على التزام الطريق صادقين صابرين .

ولسنا بسبيل أن نعيد إلى الأذهان ما وقع في كثير من مراحل تاريخنا
المثقل بالوقائع والأحداث ، وتآمر أعداء الله والإنسانية على هذه الأمة . .
فلقد يكون فيما تلده الليالي من جديد ، وما تفجؤك به مدلولات الوقائع
آيات من آيات الله التي قد يصرفنا عنها ثقل المطارق التي تنزل علينا صباح
مساء . . . ولكنك إذا وقفت وقفة الناقد البصير ترعى الأحداث ومدلولاتها
وجدت أن قد يقع لهذه الأمة بين عشية وضحاها من الخير ما لو قدمت في
سبيله كرائم تضحياتها لم يقع على الشكل الذي أراد الله له أن يقع .

وفي ظل ذلك ترى من الخير ما يتمثل في إزاحة كثير من الركام ، ثم في
انكشاف حقائق ماري في وجودها الممارون ، وحاول التعفية عليها

المموهون، فإذا بالأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة الواضحة تخرس السنة
السوء وتقطع دابر المعاندين والمكابرين، خصوصاً فيما يتعلق بطبيعة منهج ما
صلاًحاً أو فساداً من حيث قربه أو مجافاته لأصالة الأمة وتراثها، ثم مدى
ارتباط أهله بأبناء جلدتهم داخلاً، أو فيما وراء ذلك خارج هذا النطاق، مما
يتبين معه - كما أسلفنا - زيف تلك الدعاوي الفارغة.

ولقد تكون بعض النكبات مفتاحاً حقيقياً لكثير من التغيير الصادق
والتحول إلى ساحة العمل المثمر إن كان من بيدهم أمر التغيير أهلاً للإفادة
والتذكر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

فإذا تجاوزت نطاق قضيتنا الكبرى في (فلسطين والاحتلال) لأن التآمر
فيها أصبح أوضح من الواضحات. ألا ترى إلى ما يحدث في غيرها. .
يموت جندي بريطاني في آيرلندا الشمالية فتهتز الأرض، وتبجُّ الحناجر،
وتلهث أجهزة الأعلام في كل صقع من أصقاع العدو، وتقع المجزرة في
الفيلبين فلا يعيرها مدعو الحرية ونقاء التاريخ ما يعيرونه لانتهاك حياة
دجاجات عشر في مزرعة زنيم واحد من أولئك اللؤماء. . أليس لذلك من
مدلول؟ أم نحن أصبحنا غير قادرين على أن ندرك أيَّ مدلول؟ وأكثر من
هذا. . ألا ترى إلى التباكي المستمر على أوضاع شرقي باكستان؟ إن الإنسان
العادي - في ظروف طبيعية - لا يحتاج إلى الكثير من التأمل حتى يربط بين
الحوادث ويردها إلى أصولها وبواعثها، ضجة هنا، وعويل هناك، وإشفاق
على فرد أو أفراد، يصل إلى أروقة الأمم المتحدة، وتهاون بمصير بلد بكامله



وسعي إلى انفصاله وبتر الأخ عن أخيه . . وفي يوم واحد يقطع بلد
الدعاوي والمعونات!! كل المعونات الاقتصادية والعسكرية عن باكستان
ويستقبل أربعة عشر إنساناً من السفارة الباكستانية في ذلك البلد ويعطون
حق اللجوء السياسي فيه . . سبحانه الله ما هذه المصادفات التي يلتقي معها
مصادفة أيضاً احتجاجات من الجوار ومظاهرات وتأييدات .

ألا إن الذي تقتضينا الأمانة قوله - والحديث موصول بصدر هذا الكلام -
أنا لو خرجنا من جلدنا في نسبتنا إلى هذه الأمة بأصالتها وتاريخها وتراثها
الذي يحمل كل خصائص الحياة والاستمرار . . فلن يصدقونا، والحق هو
الحقد، ومظاهرة الباطل على حقنا هي المظاهرة، وليس غير القوة بمغنيا أمام
عدوانهم، فإذا جدَّ الجدُّ وذرت الفتنة بقرانيها، والفوا أن هذه الأمة بدا قلبها
ينبض بالحياة، رأيت مكر الثعلب، وفحيح الأفعوان .

وفي ضوء ما ذكرنا من قبل يا حبذا لو وعت هذه الأمة - والمسؤولية أولاً
على من بيدهم الأمر - يا حبذا لو وعت طريقها حتى نرى بلداً كباكستان
مثلاً، تحاول جادة أن تعود بأبنائها إلى ساحة الأصالة وسلامة المنطلقات في
عقيدة الأمة وتاريخها ولغتها العربية، والمفاهيم التي بها سادت العالمين،
وبذلك تقود أبنائها بالعقيدة والمعرفة، وتدفع بهم إلى ساحات الجهاد
راضين فرحين، مطمئنين إلى قول الله تعالى في محكم كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ
اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
وَيُقْتَلُونَ﴾ . إنها إن فعلت ذلك في المدرسة والمصنع والجيش، وجعلت

للعربية مكان الصدارة في ثقافتها وصلتها بالقرآن والسيرة والتاريخ، وأقامت من الجهاد عقيدة تفتح الآفاق للمقاتلين، وأفادت من الحضارة الحديثة معرفة تحقق معها قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ إنها إن فعلت ذلك استطاعت -بعون الله- أن ترد عاديات الزمن خصوصاً وقد تداعى عليها الأعداء كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

وهكذا يختلف الجديدان، ومع كل فجر صرخة مؤرقة ونكبة تكاد تنسي التي سبقتها تشدنا إلى الذي دعانا إليه القرآن، وبينه رسولنا -عليه الصلاة والسلام-، من الوقوف بعناد وإصرار عند الحقائق التي جاءنا بها -من عند ربه-. غير إنا وقد طال الأمد. واضطرب حبل الصلة بيننا وبين تلك الحقائق، تجدنا وكأننا قد فقدنا وسائل التذكر، وحيل بيننا وبين أخلاق المؤمنين المجاهدين. وهنا يأتي دور إثارة الكوامن الإيمانية والإفادة من كل المشاعر الصادقة التي تبدو وهو صور طبيعية لانعكاس الإيمان على النفوس، ولا بد أن يقوم بهذا الدور أهله البررة الذين لا تزيدهم الكوارث إلا ثباتاً على الحق، حتى يتخذوا من البلاء نفسه معواناً لهم على متابعة الطريق، الطريق التي فيها مرضاة الله والتحقيق بالعبودية له وحده سبحانه، وترى من مظاهر أهليتهم لحمل العبء ما يكون من حرقة صادقة على الأمة، ووعي أمين لقضاياها، ولهفة على البذل في كل ساحة تقتضيه.

ومن المسلمات التي لا تحتاج إلى طویل بحث، أن الذي يشعر بصادق أخوة الإيمان، وأنه من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم -لا بد أن تؤرقه



مصائب أمته ، ويدفعه إلى العمل الجاد المخلص ما يحل بها من كوارث وما يصيب ديارها وفكر أبنائها من نكبات ؛ فقوته ومواهبه وطاقاته ، إنما مجالها الطبيعي أن توضع في خدمة الأمة كما يشاء الله دون التفات إلى مغنم قريب ، أو دنيا مؤثرة . . وتراه بعد هذا على حال من اليقظة والحذر يخاف يوماً لا تنفع فيه الحيلة ، ولا يجدي معه التمويه . وإنك واجد في هؤلاء الذين يكرمهم الله بالاستعلاء على الحطام في شتى ألوانه وزخرفه ، إن قلوبهم مرتبطة دائماً بالله عز وجل مما يمنحهم القدرة على اقتحام المكاره مهما اشتدت ضراوتها وأطبق ظلامها ليكون ذلك سبيلهم إلى الجنة ذاكرين قول الله تعالى : ﴿ وَنَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ . ﴿ أَنْصَبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ . فلا الجبن بمقصيهم عن اسحة العمل والجهاد ، ولا الطمع بمستخفهم حتى يقعوا في أحبولة الشهوة والشيطان . ومن يدري : لعلمهم يجدون ريح الجنة هتتا وهناك ، ومن دون كل عقبة من عقبات الطريق .

وفي أعقاب ذلك : إذا كان من البلاء الأسود أن يدمن الجيل على الخسف وأن لا تضطرم نفسه للهوان ، فأكبر من ذلك أن يسهم في تمكين ذلك وجعله وكأنه ضربة لازب على الأمة ، أولئك الذين يهابون الجهاد ويرعبهم أي باب من أبوابه ، فيحاولون الابتعاد عن كل ما يمت إليه بصلة . . وكثيراً ما يكون طريق ذلك تعالياً على الناس باسم الدين والعلم ، ونعياً على الواعين من أبناء الأمة طريقهم ، وعلى الصابرين منهمجهم وسلوكهم ؛ كل ذلك تحت ستار تعللات موهومة فاسدة ، واعتبارات ممجوجة مزدرة أصبحت

كارجوحة الوليد لا يعيها ولا تعيه . وهل عليك من بأس إذا قلت : إن
التعالي على الآخرين باسم الدين والعلم بعيداً عن أخلاق الإسلام ، كثيراً ما
يكون صورة عن الانهزام النفسي والجبن الخالع من طريق (أولئك الآخرين)
الشاقة الطويلة المثقلة بالكتاليف والالتزامات ، والتي تبدو متشابكة مع المغارم
وهي أبعد ما تكون عن المغام!! ومنذا الذي يدرك ببصيرته أنه -بفضل الله-
على درب من ميراث النبوة ، ثم يطمع أن تفرش له الأرض بالأزاهير ، وأن
يطبل له الظالمون والمنحرفون ويزمورا ، وكيف لا يكون ذلك والصادق
المصدوق الذي أوتي جوامع الكلم يقول : «حفت النار بالشهوات وحفت
الجنة بالمكاره» وهي كلمات على وجازتها واختصارها ، تضع القانون الخالد
الذي لا يغفل عنه أو يتجاهله إلا من ران على قلبه الضياع ، ولا يتجاوزه إلا
من ضلَّ سعيه وخاب فآله ، فالمكاره طريق المؤمنين المجاهدين الصابرين إلى
الجنة ، هي وسيلتها وهي مفتاحها ، والشهوات تحف بالنار من كل جانب ،
والمترامون عليها الذين أحاطت بهم خطيئتهم تكون جسرهم لينكبوا على
وجوههم في جهنم وبئس المصير .

الله يا مثبت القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، وأحفظنا من الفتن ووساوس
الشیطان ، وباعد بيننا وبين أولئك الذين أحاطت بهم خطيئتهم فكانت
جسرهم إلى غضبك وعقابك ، إنك أنت العزيز الحكيم . والحمد لله رب
العالمين .



وما أدراك ما الملمات (١)

حين نلقي باسماعنا إلى دعوة الإيمان، ترتفع بها أصوات حداة القافلة بالعودية الصادقة الجادة إلى الإسلام لا بد أن نفرق بين حالين:

الحال الأولى - يوم كان الإسلام منيع الحمى بأنبائه، قوي الشكيمة بدفاعهم عن حوزته وجهادهم في سبيله.

الحال الثانية - يوم أصبح أبناء الإسلام العبء الثقيل عليه، فبدل أن يدفعوا القافلة صعوداً، باتوا وهم بأمس الحاجة إليه ليوقظهم من سبات، ويخرج بهم من حمأة الذل الذي يعانون، والضعف الذي في حماته يتمرغون.

والأمة التي ينتاب خطها البياني منعطفات تثخنها بالجراح، تلتفت إلى ماضيه لتتصل من أسبابه بالقوة وسلامة المنطلقات، فتري بعين البصيرة طريقها، وترسم بحذر بالغ مواقع أقدامها، مستعينة بالله الذي ينصر من ينصره، ويهب عنايته لأولئك الذين صدقوه العهد، ولم يصرفهم عن الاستقامة صارف، ولا قعد بهم عن الجهاد بشارة ولا نذارة.

وبين هذا وذاك لا بد أن تفيد من واقعها الذي اثختته الملمات والمصائب، مدركة أي عالم تعيش فيه، وأي مفهومات - وراء هذه الظواهر - تسيطر

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالث والرابع، السنة الثانية عشرة، ١٣٩١ هـ جمادى ١-٢، ١٩٧١ م تموز-آب.

على مقومات حقيقية ينبغي أن تكون عليها الأمة لتستنقذ حقها السليب، وكرامتها المضاعة بين أئمالأرض التي تداعت عليها كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، وصدق رسول الله المبلغ عند ربه، وصلاة الله وسلامه عليه ما تخض الزمن عن كل دليل ساطع على صدق رسالته ودعوته .

المللمات . . وما أدراك ما المللمات . . إنها -يوم يجد الجد وتحزم الأمة أمرها مستعلية على حب الدنيا وكراهية الموت- نداء الحادي إلى الطريق الذي لا طريق سواه، طريق الجادة التي تصل القرن الرابع عشر للهجرة بعصر غار ثور وحرء، وتقفز بالأمة من ساح الخذلان والهزيمة . . إلى أرض بدر والقادسية، واليرموك وحنين . .

أجل . . إنها الموقظ الأمثل من السبات العميق الذي تغط فيه الأمة وقد أفلت من يدها الزمام، وأضحى الذين أناخ عليهم الذل بكلكله بالأمس، يهددون في عقر دارها اليوم، ويذيقونها الصاب والعلقم صباح مساء .

ولم يعد ضرباً من عميق الفلسفة أنه على كثرة الدواهي التي زمجرت في تاريخ هذه الأمة، والنكبات التي أعترضت سبيلها عبر القرون، لا نكاد نجد حقبة من حقب هذا التاريخ كانت أثقل، ولا أحفل بالدروس والعبر، ثم الدلائل القاطعة بصدق ما جاء به القرآن الكريم من وضوح الحواجز الفاصلة بين الإسلام والكفر، والنفاق، كهذا الذي نراه اليوم في هذه الحقبة التي يصدق فيها قول النبي -صلى الله وسلم عليه-: «تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه المهلكتي، ثم تجيء الأخرى فيقول: هذه هذه . .» فكأن كل واحدة



تنسي التي سبقتها لشدة الهول الذي تحمله، والظلام الذي تسوقه في وجه الصادقين المصلحين.

وليس من الكلام المكرور التذكير بما نراه من واقعنا في أرض النبوات، حيث يتسربل المسجد الأقصى وما حوله بواقع المذلة تحت سلطان يهود، وحيث يتخذ أعداؤنا من قضايانا -على اختلاف الألوان والبراقع والشعارات- دُمى يتلهون بها في نواديهم الدولية والعالمية، ووسائل إيضاح تنعكس عليها خلافتهم بما تحمل من أحقاد وأضغان يغذيها تاريخ طويل، ومصالح متبادلة مع يهود ترتبط ارتباطاً عضوياً بالسياسة والاقتصاد، والموقف الموحد تجاه أمتنا في منطلقاتها ومفهوماتها ومثلها التي تضمن لها - أن لو حكمت - القوة والاستمرار مع الإسهام الصالح الخير في البناء الحضاري المثمر الذي يحرر الإنسان من كل عبودية لغير الله عز وجل، ويحفظ كرامته حفظاً يتسق مع رسالته التي خلق لأدائها وسخر له الكون بأجمعه من أجل تحقيقها على هذه الأرض.

وفي سبيل أغراض العدو المهينة، ترى من تلك الأحلاف الدنسة بين يهود وأعوانها في العالم، اقتحاماً لكل الحدود، واستهانة بمختلف القيم، وتحدياً لكل قانون خلقي، أو شرعة إنسانية؛ ليكون لهم من وراء ذلك تثبيت أقدام المعتدين الغاصبين، وإضفاء الصبغة الشرعية على ملكية اللص، وجريمة القاتل، وخيانة الآثم البغيض. والمعاذ الله من أن نكون -بغفلتنا وتفرق كلمتنا- في عداد من يمكنهم من ذلك، ويساعد على إخراج تلك المسرحيات العالمية بأشكالها التي لم تعد خافية على ذي عينين.

وليس من الكلام المكرور في نظرنا أيضاً التذكير بما أحدثوه واختلقوا أسبابه لما يسمى اليوم بشكلة باكستان الشرقية واللاجئين والحدود . . . حيث الخطر المحدق، والحرب السافرة، والمثيرات التي تنذر بالشر المستطير؛ فهم يختلقون بواعث المشكلة، ويسهمون في تعقيدها، ويخترعون لها كل مقومات الأذى والفتنة - والدماء التي تلتطخ أيديهم فم تحف - . . ثم ينوحون - بقحه عجيبة - بأصوات المصلحين، ويندبون بالسنة المشفقين المتحرقين على المرشدين والمعذبين، فلا ليلهم ليل، ولا نهارهم نهار، جنوبهم من صدق العاطفة تتجافى عن المضاجع . . وبينهم وبين الراحة عداء لا ينتهي . . كل ذلك - على زغمهم - من أجل الحرية المغتصبة والحقوق المضاعة، والحرمان التي يتتهكها من بيدهم السلطان . ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ وما أحسن أن نذكر في مثل تلك الملمات، ونداء الواجب للجهاد حي في أعماق المسلم قول الله تبارك وتعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

وإذا كان الإطار الذي يلف مشاكلنا ينتمي إلى مخطط واحد، يمكن القول بأنه على تعدد الأسباب الجوهرية التي دعت إلى خلق مشكلة باكستان الشرقية عند الأعداء - وقلب الحقائق في هذا المجال أوضح من الواضحات - إن موقف باكستان من قضية فلسطين في مجلس الأمن، وما وراء مجلس الأمن من الأسباب الرئيسية التي دعت إلى إقلاقها والضرب على الشعب



المسلم فيها بالأسداد، كيما تشغله أحداثه الداخلية عن كل التفاتة إلى واجبه الختمي دعدوان يهود على المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وأسري بالنبى -صلى الله عليه وسلم- إليه، وكان منه عروجه إلى السماء، حيث شرعت الصلاة، ووصل إلى سدره المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى، وكانت المواساة الرائعة الكبيرة بعد عام الحزن وشاء الله جلت حكمته أن تكون معجزة الإسراء والمعراج، تثبيتاً جديداً للفوائد الكبير، ومداً جديداً من الطمأنينة الراسخة بين يدي الهجرة إلى المدينة المنورة التي بدأ يتحرك على أرضها المجتمع المسلم بكل مقوماته الخيرة، وكان خير مثل إنساني لمجتمع برهن -وبشكل قاطع- على أن مبادئ الإسلام ليست مثلاً ص متعذرة التطبيق، ولكنها مبادئ حيّة تتسم -وهي من عند الله- بكل خصائص الواقعية والحياة وقابلية الشمول والاستمرار، مما يذكر ببعض من مدلولات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

وإذا كان هذا واقع الأمة، وما ذكرناه كائن على سبيل المثال لا الحصر؛ إن صدق التملل تحت ضربات الزمن، يدعو إلى تلك العودة الصادقة الجادة التي ألحنا إليها من قبل والتي ما فتئ المصلحون يدعون إليها مذكّرين بأنها دعوة القرآن، ومنهج الرسول -عليه الصلاة والسلام-، ومنهج صحابته وكل من اتبعهم بإحسان عليهم الرحمة والرضوان أجمعين .

العودة إلى الدين الذي أعز الأمة بعد ذل، ومنحها القوة بعد ضعف،

ومنَّ عليها بتأليف القلوب بعد فرقة وشتات ، وكشف عن مواهبها وطاقاتها ، ووجهها إلى حيث تستخدم العقل وتنير القلب ، وتضع ذلك في مكان الخرافة والتقليد الأعمى والتعاضم بالآباء والأجداد ، تلك الأمور التي نهشت وجودها وهدت كيائها والعياذ بالله .

وهذه العودة لابد لها من المنهج المستقيم القائم على دراسة الإسلام ، في منابعه العذبة الصافية ، ومعرفة الواقع ، والتسلح بسلاح العصر علماً ومعرفة ، والاستعانة بوسائل التربية وعلم النفس وكل ما من شأنه أن يعاون في إعداد المسلم بقلبه وعقله وتزكية نفسه إعداداً صديقاً يؤهله لحمل الرسالة من جديد ، حيث يكون من بعض آثار ذلك الانتصار على النفوس والانتصار على الأعداء ، والاستعلاء على كل ما يجعل الإنسان يخلد إلى الأرض ويلتصق بالتراب حتى لا يكون مثله كمثلك الكالب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، وحتى يتبوا أبناء الأمة من جديد مكانهم الطبيعي في ظل أولئك الذين قال الله فيهم يوم حملوا العبء وأدوا الأمانة ، وقادوا الصوف إلى الموت بأغلى ما يملكون يوم دفعوا ثمن العقيدة أرواحهم ﴿ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

وهذا الذي ندعو إليه ونلح دائماً على تذكر أنفسنا والآخرين به ، ليس ابتداءً نبتدعه من عند أنفسنا ولكنه - كما أسلفت - طريق القافلة الأولى وطريق كل من هانت عليه الدنيا في سبيل الآخرة ، وكان رضا الله مطلبه في



كل ما يأخذ وكل ما يدع ، والمنصفون المنصفون . . . يرون آثاره في الماضي والحاضر . . . ولكن المنهزمين في قرارة أنفسهم يسوّل لهم الضعف والاستكانة إى حب العافية غير هذا . . . ويزين لهم الشيطان والنفس الأمارة بالسوء طريقاً غير هذه الطريق .

ومندا الذي آتاه الله مسكة من ثقافة الإسلام في عقله وقلبه ، لا يدرك أن الله بحكمته وفضله ، يوم ابتعث نبيه محمداً - صلى الله عليه وسلم - برسالة الهدى ودين الحق ، - كان مما أبانه في كتابه وسيرة نبيه - مع الأسس التي أراد أن يقوم عليها المجتمع الإسلامي في عقيدته وشريعته وسلوكه لكيون مثلاً يحتذي في العالمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها - أن كشف عن تلك الخصائص التي يجب أن تقوم عليها الجماعة التي يناط بها حمل العبء والعمل بتلك الرسالة ، وأن نكون النموذج الحركي الواقعي لذلك المجتمع الذي تزينه شرعة الإسلام .

وإنك واجد في القرآن وفي السيرة ، العديد العديد من الدلائل الواضحة وضوح الشمس في عليائها وضياؤها ، وخذ مثلاً على ذلك - وما أكثر الأمثلة - سورة الحجرات التي عرضت لكثير من خصائص هذا العالم الأمثل الذي يريده الإسلام وعملت على تقصي الآداب التي يجب أن تتسم بها الجماعة المسلمة حتى رأينا الدعوة إلى حسن الأدب مع الله ورسوله فلا يستبق المسلم برأي أو فكرة بين يدي الله ورسوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وأكثر من هذا جاء

النهي الصريح الذي خوطب به كبار الصحابة من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم . . جاء النهي عن رفع الصوت فوق صوت النبي - عليه الصلاة والسلام - والتهديد بحبوط العمل وهلاكه إن حصل ذلك ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ويجيء الشاء على أولئك الذين استجابوا أيما استجابة لهذا الأدب الإلهي من أمثال عمر وثابت بن قيس بن شماس - رضي الله عنهما - فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

ولما كان المقام لا يسمح باستقصاء ما في السورة من أحكام وآداب تتعلق بهذا الذي ندعوا إليه من إعداد الفرد المسلم والجماعة المسلمة على أساس من آداب القرآن والسيرة فإن لنا عودة قادمة إليها إن شاء الله .

وإنها ليقظة واعية كريمة أن تولى هذه الآلة وجهها شطر نبعها الأصيل من جديد ، وتتخذ من الملمات والكوارث خطوة جادة على الطريق ، فالأحداث التي تغالبنا في هذا العصر لم تعد تقبل المهلة والانتظار ، والمخاطر ترمي بالشرر من كل جانب وعين الخصيم ساهرة ، وإجرامه طبع ومخططات وتنظيم ، والله المستعان .

وطبيعة المعركة تفرض أن تكون هذه اليقظة المطلب العاجل للأمة على اختلاف ثقافة أبنائها واختصاصاتهم ، ومواقعهم في المجتمع الذي يعيشون



فيه، وتنوع أعمالهم ومهماتهم، والشغل الذي يقف عنده كل واحد منهم . . . تلك اليقظة التي تجعل منهم أناساً جديدين أن يكونوا وراثاً تحقيقين لأولئك الأمناء على دعوة الإسلام والذين سقوا أرضها من دمائهم، وفكرها من جهدهم ونصبهم وسهرهم ومشاركتهم العالمية في السير الحضاري . . مما يستتبع الخروج من دوامة تلقي الضربات من العدو، وترقب مؤامراته في الكفوف ووراء الكواليس، والقضاء على الواقع المرير في ظل الاحتلال والاعتصاب والعدوان على الأرض والفكر والتربية والإعداد.

ولئن كان الأمر كذلك بالنسبة إلى مجموع الأمة وأن كل واحد من أبنائها على ثغر من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبله، إن على الطلائع التي أولاها الله شرف الريادة أن تقدم المثل الصالحة لهذا الذي كان طريق القافلة الأولى، فتكون أكثر يقظة ووعياً لثقافة العقل والقلب، فتجمع إلى الثقافة الحقيقية التي تنمي الملكة القادرة على العطاء، بناه الفكر والتفتح على ما يجري حولها، وتعني عناية خاصة بثقافة القلب وتركيز النفس عملاً بقول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ﴿٩٦﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ . وبغير تركيز النفس وإخلاص النية لا يمكن أن تنهياً القدرة على تحمل مشقات الطريق، والاستعلاء على المعوقات من ترغيب وترهيب . وذلك ما نجده لأول وهلة في التربية القرآنية للرسول -عليه الصلاة والسلام-، فقد بدأ الوحي بقول الله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ﴿٢﴾ اقْرَأْ

وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ . ولم يمض على ذلك اليسير حتى نزل قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ﴿١﴾ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ . وظهرت ثمرات ذلك في كل من اتبع هذه الطريق باحسان ، مما يفيض به تاريخنا والحمد لله . وأماننا القريب القريب من الأمثلة التي تصل الأرض بحبل السماء والتي رأينا منها رجلاً يعيش في ظلال القرآن بقلبه وقلمه ، يصدق الله تعالى فيجمع الله له مداد العلماء إلى دم الشهداء حين نراه يكتب في بيان أي الكتاب وهو يبصر حبل المشنقة يتحرك أمامه غير آبه بكل ما يلصق بالتراب من حب الحياة ، والعافية ، والبعد عن كل ما يعوق الصعودَ وبلوغ المرتقى الصعب . وما أكثر ما يكذر المرء أمام هذه النماذج قول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ . ﴿إِنْ تَصُرُّوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ .

إلا أن الإسلام يرقب أولئك البررة الأمناء الذين ينسون أنفسهم ويذكرون الله ، ويؤثرون ما عنده من منازل الكرامة على ما عند الأغنياء من حظوظ الدنيا في المال والمتاع ، وما عند ذوي السلطان من المنافع العاجلة والتب والألقاب أولئك الذين أسلموا وجوههم لله فتجردوا من الرغبة التي تُذل الرقاب ، ومن الرهبة التي تحجز عن كلمة الحق ، فإذا قالوا قال الله ورسوله ، وإذا قال الله ورسوله بطل قول كل قائل . . أولئك الذين اعتزوا بالله فأعزهم وزين الإيمان في قلوبهم قايقنوا بما عنده حتى ألقوا عصا التسيار في



ساحة الطمأنينة الصادقة إلى قوله تباركت أسماؤه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الأمة وصاحب ----- عليه الصلاة والسلام^(١)

هكذا يدور الزمن دورته ، ويحمل إلينا تقلب الشمس ذكرى مولد الكريم محمد بن عبدالله -صلوات الله وسلامه عليه- . وأكرم بها من ذكرى تطل تحمل من الشذى وبما هي مثقلة به فيما أثمرت من الأحداث والوقائع -و- -- ما تكون إلى أن تدرك من جديد معنى صلتها بالرسول الكريم الذي أسلم ----- العالم خلال العديد من القرون ، وإلى امتحان قدرتها اليوم - والحال هي ----- على ترجمة العقيدة التي حملتها عنه ، والمفاهيم التي طرحها على طريق ----- من خلال الكتاب والسنة وسيرته المباركة النباء ، إلى عمل يجدد للأمل ----- يأس ، وإلى حركة توقظ من الغفلة بعد ضياع ، وإلى منهج يجند الطاقات ----- بعد شتات في ظل قول الله تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيَشِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ .

كما حال ذلك أيضاً دون التهرب من المسؤولية بحجة أن لا علاقة لأحد بأمور الدين أو الغيرة على شريعة الله وأن المنوط بهم هذا الأمر إنما هم «رجال الدين» فالمسلمون -بالمعنى الاعتقادي ، والعمل بحق هذا الاعتقاد ، والشريعة التي تبنى عليه- كلهم رجال دين ، كل في ميدانه يعمل بالدين ويلتزم أحكامه . . ويظهر ذلك جلياً حين نذكر أن مفهوم الدين في الإسلام

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد السابع والثامن ، السنة الثالثة عشرة ، رمضان - شوال ١٣٩٢هـ ، إيلول - كانون الأول ١٩٧٢م .



ليس حبيس ذلك المعنى اللاهوتي المعروف وإنما هو عقيدة انبثقت عنها شريعة، ونظام يسير في ظل هذه الشريعة يحرسه الجهاد والخلق، وترعاه عبادة الله وحسن الصلة به على الدوام.

ولقد يكون من الخير - ونحن نجيل الطرف في بعض من زوايا هذه الساحة المباركة - أن نذكر أن مدلول «لا إله إلا الله» هو ترجمان لهذا الذي ذكرنا، فالحاكمية لله، والطاعة لرسوله - صلى الله عليه وسلم - طاعة له سبحانه. ومعنى الاقرار بهذه الكلمة الطيبة كلمة التوحيد أن هناك التزاماً بمدلولها فيما ترسمه على صعيد الفرد والجماعة والدولة والأمة، ولسنا بسبيل أن نهذر شيئاً من الوقت في الأخذ والرد مع أولئك الذين يريدون لنا أن يكون حظنا من «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حظ المريض يكرر كلمات وصفة الطبيب كلمة بعد كلمة، وربما تلذذ بذكر التاريخ الذي كتبت فيه أيضاً، دون أن يتناول واحداً من أصناف العلاج المكتوب.

إن صدق ادعاء الاعتقاد بـ «لا إله إلا الله محمد رسول الله» يكمن في العمل بحقها، وتطبيق مدلولاتها من خلال القرآن الكريم الذي فيه العقيدة والشريعة والعبادة والأخلاق والسلوك ومن خلال حديث النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي هو بيان للكتاب. ولا حقة لابد منها نبصرها من خلال كلمة التوحيد، ما يحملك إلى ساحة الشعور الإنساني، بعيداً عن الأفكار الوافدة مما وراء السهوب والبحار، فيما يسمى الحقد الطائفي وما إلى ذلك ﴿وَالْعَصْرِ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿١٠﴾ فمن الظلم الظالم أن نأخذ مفهومات القرون الوسطى في أوروبا ثم نلقي بها على أكتاف رسالة الإسلام زوراً وبهتاناً حين يحلوا للبعض أن يتمطى على أرائك من المنطق الصوري، فيشهر علينا سلاح القياس عند ارسطو، متعسفاً باستعماله ليقول: تلك مفهومات الدين -والإسلام دين- قتلك مفهومات إسلامية لا بد من الاعراض عنها لننهض من عثار كما نهضت أوروبا بفعلها ذلك. يقول هذا جاهلاً أو متجاهلاً حضارة كشفت بانسانيتها وسلامة منطلقاتها وغاياتها كل خطوط الزيف والانحراف في العالم، بما كرمت الإنسان، وعرفت قدر العلم وأوضحت دور العقل في معرفة الله وتدبر آيات الكون، وحاربت التقليد الأعمى، ولم تدع باباً من أبواب المعرفة إلا ولجته من أوسع أبوابه. . . وكانت العقيدة التي فتحت فتوحها في آسيا وأفريقيا بل وأوروبا لعدة قرون، ولم تعجز الشريعة التي انبثقت عنها أن تحكم تلك الرقعة الكبيرة من المعمورة بدقة وشمول لكل ميادين الحياة معطية للنصوص قدرها، وللاجتهاد قدره في ميدانه حيث النصوص تنتهى والوقائع لا تنتهى. . . وياليت أولئك الذين ليس لهم من ذكرى المولد إلا تحركات على السطح وعناية بالمظاهر ذراً للرماد في العيون. . . ليت هؤلاء حرصاً على مدلول الذكرى يتلون شيئاً من كتاب الله، إذن لوجدوا آيات العقيدة بجانب آيات الشريعة، ولرآوا آيات الصلاة والصوم تواكبها آيات المداينة والبيع والشراء والشورى في الحكم والوفاء بالعقود، ترى. . . أليس لذلك من مدلول؟؟ أوليس من الضرورة بمكان أن يحرص المرء على عقله حين يفكر!!!



ألا إن الأمة اليوم ممثلة في شبابها المدرك الواعي ، والرواد من أبنائها البررة الصادقين ، مدعوة إلى مراجعة جريئة . . نعم إلى مراجعة واعية ورشيدة أيضاً ، لما يجب أن تكون عليه الصلة بصاحب ذكرى المولد - صلوات الله وسلامه عليه - ، وأن للأمة أن تفعل ذلك ، وماذا هي منتطرة بعد الذي دهاها من الظلام الحالك ، والنكبات التي يأخذ بعضها برقاب بعض .

إن شهر ربيع الأول بما يحمل من طيب الذكرى وعطر التاريخ ، ونقطة البدء لرحلة مباركة كانت ضياء الزمان ، وعنوان كرامة الإنسان . . جدير أن يحرك العزائم ، ويوفظ الهمم لعهد جديد مع سيد العالمين - صلوات الله وسلامه عليه - أن نكون عند مدلول العقيدة ، وعند صدق المحبة لله ورسوله ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مدركين أنه لا يكمل إيمان المرء حتى يكون رسول الله أحب إليه حتى من والده وولده ونفسه التي بين جنبيه .

ولقد تتعثر وأنت تترحل عبر الآراء باتجاهين اثنين :

أما أحدهما : فذاك الذي يريد أن يهون من شأن العلاقة بين الأمة وبين نبيها - عليه الصلاة والسلام - من خلال هذه الذكرى ، لما أن ذلك أمر يدخل في حدود الأمور الروحية واللاهوت ، والحياة اليوم تحتاج إلى غير هذا .

وأما الثاني : فهو الاتجاه الذي يجعل علاقة المسلمين بالذكرى علاقة تتسم بالسطحية والاكتفاء بالمظاهر التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، فحسبنا أن

نقول احتفلنا، ويكفينا للحكم على زيد أو عمرو في صدق العلاقة مع النبي -صولات الله عليه- وشرعته وتطبيق أحكام الدين الذي جاء به، أنه أذاك بشيء يسمونه احتفاءً بالمولد وما إلى ذلك .

إننا نود -من كل قلوبنا- أن يكون لنا دائماً الاحتفاء بسيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- التي تفيض بالعطر، وأن نفتح القلوب والنفوس لشمائله الكريمة، وأن نفسح للتربية المكان اللائق لهذه الشمائل، حتى يتربى الفتى والفتاة على خير ما يكون، محبة لهذا الرسول الكريم، وتطلعاً واعياً إلى التأسى باخلاقه -عليه الصلاة والسلام-، وسلوكه في نفسه وفي أهله، ومع الجماعة والأمة، حيث يتجلى كمال الخلق فيه، زوجاً وأباً وأخاً، وحاكماً وقائداً، فضلاً عن كونه -فداه أبي وأمي- رسولاً يوحى إليه . . ووراء ذلك كله، أن يكون ذلك إيذاناً بتحول صادق إلى حيث يريد هو -عليه الصلاة والسلام- .

غير أن حجم القضايا التي تعاني منها الأمة اليوم وهي أكبر بكثير من الطاقات، مدعاة إلى أن يداخل البعض نوع من الاستغراب في هذا الميدان . . ولكن الذي نريد أن ننبه إليه، أن التحول شطر مدلولات الإسلام بحذافيرها لا يمكن أن يكون عند الجميع بين عشية وضحاها، وطريقة النبي -صلى الله عليه وسلم- ومنهجه الذي التزمه في التربية وسيرته في بناء الجماعة المسلمة . . كل ذلك هو الجواب على كل استغراب يقع . . فالرسول -عليه الصلاة والسلام- إنما كان همه الأول وقد تأبّت مكة على الدعوة،



وظاهر الشرك على التوحيد أن يعني بتربية تلك القلة المؤمنة التي إذا قارنت عدد أفرادها من رجال ونساء، بالفترة الزمنية للعهد المكي، رأيت العجب العجاب، فإذا أدركت ما أثمرت في العهد المدني، جهاداً وانتصارات، وقيادة للمجتمع، وتحكيماً لشريعة الله، وتقدم ما قدمت للبشرية من أسس الحضارة الرشيدة.. بلغ بلك العجب نتهاء وأدركت أن العبرة كانت بالكيف لا بالكم، وأن الكثير من الفوز إنما يعود إلى صدق تلك القلة المؤمنة التي تربت خلال ثلاثة عشر عاماً في مكة وسقت الأرض بالدم الصابر، وكان العذاب ومحاولة الفتنة عن الدين ضياء الطريق لها ولقافلة الخير في العالمين، وقد ظهر أثر ذلك كله فيما بعد، وفي يقيننا أن معاك الإسلام الظافرة التي صنعت التاريخ مدينة لهذه الفترة ولبناتها في دنيا الإسلام. وهذا لا يعني أن الإعداد قد انتهى بانتهاء العهد المكي، ولكن يعني أن الثمرة الطيبة ترتد في أصل شجرتها إلى هذا الإعداد الإيماني الصادق، والتربية المحمدية الفاضلة.. حتى دخل الناس في دين الله أفواجا فيما بعد.

ولقد كان من خير ما زثمرته هذه التربة تلك الاستجابة السريعة لدعوة الله والرسول عند الفرد والجماعة للعمل والالتزام والتضحية في أمثلة ونماذج تعز على الحصر - وهذا ما لا نكاد نجده اليوم - إلا في نقاط قليلة مضيئة هنا وهناك ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ وإذا أتضح ذلك أدركنا من أين يجب أن تبدأ الطريق.

مرة ثانية: إننا في مفتح السنة الرابعة عشرة للمجلة نرجو أن يكون لنا من

ذكرى مولد النبي -عليه الصلاة والسلام- حافز للعمل الصالح، يتمثل في منهجية واعية تدرك الكليات والجزئيات، وتربط الوقائع بدوافعها وبواعثها، حتى يسلم للأمة بناء الفرد وتكوين الجماعة والانتصار على اليهود ومن وراءهم. . والله المسؤول أن يأخذ بأيدينا إلى مراتب توفيقه، وأن يكرمنا بعنايته، لكي تسهم المجلة -بجهود الكتاب والباحثين- في هذا الميدان بنصيب موفور إن شاء الله، ولله الأمر من قبل ومن بدع، وشكر الله لكل الأخوة العاملين الذين يبذلون الجهد في سبيل أن تتابع «حضارة الإسلام» طريقها. . وصلى الله وسلم على صاحب الذكرى نبينا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون والحمد لله رب العالمين.



لكيلا ننسى^(١)

لعل من الخير بمكان، أن يكون العاملون لله، المخلصون لدينه الذي أرتضاه، والحريصون على خدمة هذه الأمة، أن يكونوا على ذكر من حقيقة لا يجوز نسيانها أو تناسيها - وهم في زحمة التيار وعنفوانه - وهي أنهم يتعاملون في طريقهم التي يسلكون مع الخالق الحكيم الذي يعلم السرّ وأخفى. والذي قوله الحق، ووعد الصديق ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾. لا ينسونها وهم في حال من القوة والنصر، ولا ينسونها وهم في حال الضعف أو ما يؤدي إليه، صنيع النبي - عليه الصلاة والسلام - الذي كان على ذلك في العهدين المكي والمدني وفي جميع الأحوال التي تنتظمها سيرته - عليه الصلاة والسلام -.

صحيح أن نسيان هذه الحقيقة أو تناسيها، قد يكون أثراً من آثار الضعف والتخاذل - على وجه العموم - ولكن الطليعة المؤهلة بقوة ارتباطها بالله المشدودون بائماً إلى مرضاته، والتطلع المتسامي إلى ما وعد عباده المجاهدين الصادقين، هي التي تحمل مسؤولية الوقوف عند المعالم، واليقظة الواعية المتسمة بالنقاء والعمق، عندما ترن الغفلة على كثير من القلوب، وتغشى بأذاها الكثير من النفوس ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

ونحن اليوم. في معركتنا مع اليهود وأنصارهم. . مع العدو المتنمر بعد مذلة ضربت بحرانها على رأسه عبر القرون، والعون يده به كل شياطين

الإنس من لصوص حقوق الإنسان، وتجار الدماء . . جدير بنا أن نضع تلك الحقيقة نصب أعيننا لكي يكون اليقين رائدنا في وعد الله بنصره إن نحن نصرناه، وأن يكون معنا بقوته حيث نكون معه بالصدق في المواطن، والاستعلاء بإيماننا على ما يكون من العبث الصوارف والركام . فمما لا ريب فيه أن نصر الله لعباده المؤمنين حقيقة من حقائق الوجود تسير على خذ مواز كل الموازنة لتكليفهم الجهاد، وشراء أنفسهم وأمواله بأن لهم الجنة . . . وهو أيضاً سنة باقية من سنن الله لا تختص بمكان ولا زمان . . فالله هو الهادي إلى سبل الرشاد، وهو الذي يؤيد بنصره المؤمنين الذين يخضون معارك الحق والباطل دون أن يرتبط ذلك بعدد أو عدة بعد أن يكونوا قد بذلوا ما يستطيعون ولم ييخلوا بشيء من الإعداد والاستعداد .

والتكريم الذي أحاطته العناية بهؤلاء المؤمنين أنهم ما داموا يبذلون في سبيل الله فهم ستار لقوة الله ونصره وتأييده، وأعظم بها من نعمة تكلل جبين المؤمن بالغار وتنعكس على تصوراته وأعماله وإنارة بصيرته على الدوام .

والمقاييس في هذه الميادين منوطة بما يكون من عند الله عز وجل لا بما يكون من تطلعات البشر الذين قد يضعفون عن إدراك المساحة الحقيقية لإبعاد الموضوع، فلقد يتأخر النصر، ويشتد الكرب، بل قد تقع النتائج التي

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالثة عشرة، السنة الثالثة عشرة، ١٣٩٢ هـ ذو القعدة - ذو الحجة، ١٩٧٣ م كانون الثاني - شباط .



لا تبدو وثيقة الصلة بالأسباب التي تقدمتها ، حتى يبدو الحق وهو مهزوم في معركة في المعارك ، ويتبختر الباطل وهو المنتصر في ميدان من الميادين أو في مرحلة من المراحل ، وكل ذلك وفقاً للمقاييس الربانية ، وفي دلالات القرآن والحديث وسيرة النبي -عليه الصلاة والسلام- صور للنصر تخفى حكمتهما على البشر ، ذلك لأن المؤمنين في مسيرتهم الطويلة في ظلال الدعوة وفي مواجهة تحديات الباطل للحق ومظاهرة أهل الفساد على عقيدة التوحيد ، ليسوا مسؤولين عن النتائج ، وإنما هم مطالبون بالتزام المنهج الرباني الذي رسمه القرآن ، والنصر بعد هذا بيد الله العليم الحكيم يصنع فيه ما يشاء .

ويقدم له ما يدخل في حكمته من المظاهر والصور ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ كالذي رأينا في صلح الحديبية الذي وقع في السنة السادسة للهجرة ، وكان في ظاهره بإدارة جنف على المسلمين وهم في موطن القوة . ومراعاة لجاب أعداء الله وسدنة الوثنية والخرافة في جزيرة العرب ، غير أن النتائج التي اثمرها صلح الحديبية كانت في حجمها وعمق أبعادها في تاريخ الدعوة أكبر من وثيقة الصلح وعلى عكس ما كان يظهر المرء بادئ الأمر لأول وهلة ، حتى سماه الله الفتح المبين ، إذ أكثر المفسرين على أن المقصود بقوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ هو ما كان من صلح الحديبية الذي أتاح الفرصة ، لتفتيح أعين المشركين -عن قرب- على أخلاق الدعوة الجديدة ، وسماتها المباركة ، وما زانت به الفرد المسلم من كريم

الأدب، وطيب الخلق، ولطيف العشرة المؤدبة بينه وبين الآخرين، وفي طليعة ذلك كله ما كان من الطاعة الواعية والحب الصادق للرسول الأمين - عليه الصلاة والسلام-. مما كان الطريق الطبيعية لذلك المنعطف التاريخي الهائل في تاريخ العرب، والذي تمثل في دخول الناس في دين الله أفواجا بعد الفتح.

وهكذا يتحقق وعد الله بالنصر لكن على الطريقة التي هي من حكمته وإرادته سبحانه، ويرى المؤمن بعين بصيرته مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. ويدرك إدراكاً لا يشوبه لبس ما يرمي إليه قوله سبحانه في شأن بعض الوقائع حيث التأكيد على أن المجاهدين هم الصورة المعبرة عن قوة الله ونصره وتأييده: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وعلى هذا: فليس من شأن المؤمن أن ييأس إذا أظلم ليل الحوادث، وأكفرت جوانب الأفق ما دام يقدم ما يستطيع ويقف موقف الامتثال لما يمليه المنهج الرباني. . لأنه غير مسؤول -كما أسلفنا- عن النتائج، ولكنه مسؤول أن يكون عند الذي يطلب منه عملاً وطاعة وبذلاً في سبيل الله. وذلك هو وثيقة نجاته يوم يضع الله الموازين بالقسط ويقف الناس ليوم الحساب ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.



ومن المنطلق نفسه ليس من شأن المؤمن أن يتصرف متكلاً على أسباب اتخذها، ووسائل للنصر أعدها . . ناسياً أن الأمر أولاً وآخرأ بيد الله، غافلاً عن حقيقة القوة والنصر . . وذلك ما حصل يوم حنين . حين رأى بع المؤمنين نوعاً من الغناء في كثرتهم فقالوا: لن نغلب اليوم من قلة، وعندها جاءت التربية الألهية ووكلمهم الله إلى كثرتهم التي أعجبتهم حتى كأنها حولت الشراع عن الطريق السوي، فلم يغن ذلك عنهم شيئاً. وضافت عليهم الأرض بما رحبت ثم ولوا مدبرين، ولم يثبت في زحمة المعركة الغاضبة الصاخبة التي حمي وطيسها وأشدت أوارها إلا الرسول - صلى الله عليه وسلم - في نفر قليل من أصحابه، أنزل الله عليهم سكينته وأمدهم بجنود لم يروها حتى تم النصر للمؤمنين وكان من الأمر ما كان والحمد لله، وذلك قوله جلّ وعز:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وهذا الذي نقرره وثيق الصلة برغبة الإسلام في أن يكون المؤمن قوياً في عقيدته وجسمه وفكره، قوياً في علمه وخلقه وحسن إعداده وصلته بالحياة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وينقلنا ذلك إلى قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير . . .» .

كما أنه وثيق الصلة بوجوب النظرة الإيجابية الواعية إلى قضية الرزق والأجل لأن النظرة العكسية لها آثارها السيئة وأبعادها التي تتنافى مع حياة الجهاد والصبر والمصابرة التي أَرادها الله للمؤمن ووعدّه عليها جنة عرضها السماوات والأرض، والحياة الكريمة عنده إن استشهد في سبيل الله .

ولذلك يمكن القول بأن من سمات النظرات الإسلامية الواقعية مما نرى من معالجة أسباب الضعف البشري بشكل جذري يجتث بواعثه ودواعيه من أعماق النفس ، بصرف النظر عن الملابس العارضة التي تطرأ فيما بعد .

ولعل من أهم دواعي الضعف في أعماق النفس أمر الرزق والأجل فكان من عقيدة المؤمن أن الرزق من أمر الله لا دخل فيه لمخلوق ، ولا يستطيع أحد أن يمنعه ، أو أن يزيد فيه أو ينقص . . والذي على المرء أن يأخذ بالأسباب ويسلك السبل ، ولذلك قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ . حيث أمرنا بالعمل ونسب الرزق إلى نفسه سبحانه . وفي معرض الدلالة على أنه الواحد القهار المدبر يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ . وتأخذ بيدنا الآيات إلى إيضاح آخر فنجد قوله تعالى : ﴿ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ .

ومن عقيدة المسلم في شأن الأجل أيضاً : إن الآجال بيد الله سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يَرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يَرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ .



وهي مكتوبة محدودة . . لا يزيد في الأجل تخاذل أو نفاق ولا ينقصه جرأة في الحق أو جهاد وقتال وذلك قول الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ وأكثر من ذلك ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ ﴾ .

ولقد انعكست هذه النظرة الإيجابية إلى الرزق والأجل على الواقع التاريخي ، فرأينا الكثير من الوقائع والبطولات التي زانت جبين تاريخ هذه الأمة ، وقدمت للإنسانية الكثير الكثير من النماذج التي احتوت صدورها قضية الأجل والرزق حتى تجاوزت كل المعوقات واستعلت على كل ما يشدها إلى التراب ، واستطاعت أن تفي بحث الدعوة التي بعث بها للإنسانية كلها محمد بن عبدالله - عليه الصلاة والسلام - .

مرة أخرى : علينا أن نذكر أن التعامل كائن مع الله عز وجل ، وأن المعايير يجب أن تؤخذ من لدنه ، والمقاييس عن منهجه الرباني سبحانه ، كل ذلك مع الحرص على الإعداد والاستعداد ، والأخذ بأسباب القوة والنصر في توكل على الله واعتماد عليه . . ونظرة إيجابية إلى أمر الرزق والأجل تتفق مع مقتضيات عقيدة التوحيد . . .

إننا إن فعلنا ذلك ، وكانت لأبناء الأمة القدوة الحسنة ، والريادة المؤمنة الواعية . . استطعنا - بفضل الله - أن نحول دون أن يكون لليأس سلطان على القلوب أو أن يكون للغفلة غشاوة تجعلنا في غير الساحة التي يشرف على جنباتها ويوقظ مشاعر أبنائها قول الله القادر القاهر : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا
تَبْدِيلًا ﴿٢٦٧﴾

وحديث أمتنا مع يهود حديث طويل ولله الأمر من قبل ومن بعد
ولا حول ولا قوة إلا بالله .



صوت النذير^(١)

دلت كل التجارب في الماضي والحاضر أن الاعتزاز الأصيل بالانتماء إلى هذه الأمة في مقومات وجودها، وخصائص ثقافتها وفكرها . . دليل الصدق والرجولة، والبعد عن المسخ الذي يدبر له الأعداء صباح مساء، وعنوان القدرة على الاستمرار في حال الشدة والكرب، تماماً كما هي حال السعة والرخاء وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما كشف عن نوازع الضعف في النفس الإنسانية والرغبة في استعجال الثمرة، واستطالة الطريق بقوله لحباب -رضي الله عنه-: « . . . ولكنكم تستعجلون ».

إلا أن الشجاعة في صدق الانتماء إلى الرسالة التي جاء بها محمد بن عبد الله -صلوات الله عليه وسلامه عليه-، التزام أحكام الإسلام على وعورة الطريق وتنوع الملابس . . وما يكون منالعوائق التي تعمل من داخل النفس، أو خارجها . . أن الشجاعة في ذلك لهي خير ضمان لسلامة كيان الأمة فرداً وجماعة في الداخل لأنها تكون يومئذ كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، كما أنها الدرع الحصينة في مديان مواجهة العدو لأنها تفوت عليه فرص الانقضاض من خلال ثغرات التخلخل، ومرض التشكك بالراية التي يكون الجهاد في ظلها، ويبدل ما يبذل في حمى رسالتها . . وأكثر من هذا . . أن الأمة باستقامتها على هذه الطريقة تفوز

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالث، السنة الرابعة عشرة، ١٣٩٣ هـ جمادى الأولى، ١٩٧٣ م حزيران.

بقدر ليس بالقليل من ميراث النبوة في قوله عليه الصلاة والسلام: «نصرت بالرعب مسيرة شهر».

وما أجدرنا اليوم أن نعمد إلى قراءة جديدة لتاريخنا، قراءة بعقولنا وصائرنا، لا بعقول الآخرين وأغراضهم، قراءة تشدنا إلى حيث الحقيقة التي يحميها الالتزام الصادق بمتطلبات العقيدة، وتبعات الرسالة.. هذا جانب من حديث الثلاثة الذين خلفوا وفيهم كعب بن مالك -رضي الله عنه-.. يعطي سمة من سمات الجماعة المسلمة يومذاك، في الاستجابة الواعية والعمل الدقيق بتوجيهات الرسول القائد، وكيف أن ذلك كان على كل صعيد؛ فلم تحل دونه صلة قربي أو آصرة من أواصر الدنيا، ثم كيف كان ذلك -بحق- إذار السلامة لمجتمع المدينة في الداخل، وصمام الأمان ضد العدو في الخارج. يقول كعب -رضي الله عنه-: «ونهى رسول الله عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، قال: فاجتنبنا الناس- أو قال: تغيروا لنا- حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف؛ فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي: فاستكانا وقعدا في بيوتهما يكيان، وأما أنا: فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف في الأسواق ولا يكلمني واحد وآتي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الأول والثاني، السنة الثانية عشرة، ١٣٩١هـ ربيع الأول والثاني، ١٩٧١م أيار - حزيران.



فأقول في نفسي : هل حرَّك شفيته برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي، نظر إليّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني؛ حتى إذا طال علي من جفوة المسلمين، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي وأحب الناس إلي - فسلمت عليه، فوالله ما رد عليّ السلام، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمني أحب الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم -؟ فسكت، فعدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال، الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناني وتوليت الجدار».

ثم قال كعب : «فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا بنطي من بَطْ أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له إليّ، حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان - وكنت كاتباً - فقرأته فإذا فيه : أما بعد : فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك» يقول كعب - رضي الله عنه - : «فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرتها» أي أحرقتها.

وإني تارك للقارئ الكريم فرصة الحوار مع مدولو هذا الجانب من حديث كعب الذي رواه البخاري وغيره دون أن أدخل في شيء من ذلك، مكتفياً بالإشارة العابرة من قبل.

وما كان للقاعدة الربانية ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ أن

تتخلف ، وأنها من هذه الأمة قاب قوسين أو أدنى أن أستاذت الطريق وعقلت أمرها من جديد .

ولقد يجد المرء نفسه -والأسى يعرض قلبه- مضطراً للاستشهاد بشيء مما يسلكه العدو في جميع يهود الآفاق على ما يسمونه مثلاً دينية وفضائل ، وترى ذلك يعلم عمله في تحقيق الغاية المرادة .

فبعد الخامس من حزيران لعام ١٩٦٧م وقف اليهودي ابن غوريون أمام ما يسمونه «حائط المبكى» في القدس ليعلن للناس أن هذه المعركة قد أدت إلى تحقيق نبوءة العهد القديم التي تقول بأن «شعب الله المتار سينتهي به المطاف إلى أن يعسكر بفعل القوة عند حدود أرض إسرائيل التاريخية» .

ومع هذه العنصرية والعمل في ظل أكذوبة «شعب الله المختار» التي يأبأها الله وأنبيأؤه أجمعون ، نجد نوعاً من التهيئة النفسية للشباب وشحن أذهانهم بما يجعلهم يقاتلون في سبيل رسالة وتحقيق فضائل ؛ فجيش إسرائيل هو جيش «يهوه» وما يقوم به من أعمال انتقاعية -والأمثلة كثيرة- ليست أكثر من قتال مقدس يتم بارشارد إله صهيون ، ولمصلحته .

وقد ولد ذلك عند يهود -وهم في الأصل من أجبن الجبناء- أن الإذلال الأكبر الذي تعرض له أي يهودي في إسرائيل هو حرمانه من الانخراط في ميدان القتال .

صحيح أن كثيراً مما يطبقه زعماء اليهود السفاكون اليوم في تربيتهم للجيل



الناشئ، وما يشحنون به مشاعر الشعب قد يكون من بعض وجوهه صورة من عقدة الخوف التي لاحقت السبط اليهودي منذ آلاف السنين، وما ضرب عليهم من الذلة والمسكنة بجناياتهم وذنوبهم التي منها قتل الأنبياء بغير حق. . قد يكون ذلك أو غيره، ولكن محاولة التجميع وشحن المشاعر والترية على تلك الشعارات أمر يجب أن يستوقفنا طويلاً، وأن نعطيه ما هو جدير به من الاهتمام، خصوصاً إذا أدركنا أن التدين عندهم عنصرية وحقد، ودعوى تخالف إنسانية الإنسان في أنهم «شعب الله المختار» بينما يقوم الأمر عندنا على إنسانية الإنسان وكرامته، وتحقيق أن العبودية لا تكون إلا لله عز وجل، وأن أكرر الناس عند الله أتقاهم، وأن مطلوباً من المسلم أن يؤمن بجميع رسل الله وأبينائه عليهم الصلاة والسلام.

وإذا كان لا بد مما ليس منه بد، فلتتنافس هذه الأمة في أن تعود إلى معالم القوة تسائلها من أين وإلى أين؟ كيما يكون مسلكها كفاء ما تعاني من ويلات على كل صعيد.

أن تبلى أمة العقيدة والجهاد والصبر بمن ضربت عليهم الذلة والمسكنة وأذئابهم، إنما هو صوت النذير يناديها فهل تلبى النداء، وإعلان سيد المجاهدين محمد -عليه الصلاة والسلام- يدعوها فهل تستجيب للدعاء؟

ليس من أدب القرن العشرين^(١)

في نظرة موضوعية إلى الحضارة الحديثة ومعطياتها، وطبيعة العلاقة التي تربط بين أهلها وبين الشعوب، وما كان من حظنا العاثر في هذه الحقبة من الزمن، يجدر بنا أن نكون على كثير من الوعي في حكما على الأشياء، كما يكون موقفنا من تلك الحضارة وأهلها متسقاً كل الاتساق مع ما تفرضه الموضوعية والكامل، ولا ينأى عن الاحاطة بكل المؤشرات التي تربط ذلك بمصالح أمتنا وقضاياها، وبناء الجيل الذي يراد له أن يحمل عبء التغيير إلى الأفضل.

نيد أن نأخذ من منجزات هذه الحضارة وعيننا مفتحة وقلوبنا واعية، وأن ننظر إلى الصورة كاملة غير منقوصة. فلا تنسينا معطياتها المادية وتبختر مركباتها الفضائية على ظهر القمر، تلك الجوانب الأخرى التي تبدو هزيلة شاحبة في ساحة الأخلاق والحرية وكرامة الإنسان وحقوق الشعوب.

وإذا كان الصراع بيننا وبين إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل، هو من ---
-- وجوهه صراع بين حضارتين - باعتبارها واحداً من هذه المخالب - فقد -
--- وهذا واحد من أسلحة المواجهة في البناء النفسي - أن نميز كيان ----
الحاضر ونفتح أعينه على الحقيقة، كما يدرك معنى الصراع من أجل البقاء
هؤلاء اليهود. . نعم من أجل بقائنا برسالة تسعد الإنسان، وتمسح عن ---

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الرابع، السنة الرابعة عشرة، ١٣٩٣ هـ جمادى الآخرة، ١٩٧٣ م تموز.



الدنيا ما علاه من آثار الشقاء والظلم والطفیان باسم العلم والحرية
والديموقراطية وحقوق الإنسان . . كالذي فعلناه يوم رد أبطالنا الصادقون -
--- الصليبيين والتتار . .

وإنما نقول ذلك لأن من التناقض الصارخ أن يظل هذا الجيل أو ---
قطاعاته معصوب العينين باستهتاره ، مغلق الفكر والعقل بلهوه عن ----
أمتة الماجدة ، تلك الحضارة التي لم تدع ميداناً من ميادين الخير إلا ----
بصماتها وآثارها على ارجائه بانسانية رتجرد وعمق .

وإنه لتناقض ترهق الأمة آثاره التي تفقد الفرد قدرته على التحرك ----
-- داخل نفسه وأعماقه ، كميا يثبت وجوده ، ويتنصر لأمتة ، ويدافع عن -
---- في الحياة ؛ فقد سخرت الحضارة الحديثة التي ننظر لإها من خلال
---- ومناهجنا الفكرية بانصاف سخرت كل الطاقات الفكرية والتقنية
وما وصل ---- العقل البشري من مراحل هي أشبه بالخيال ، في سبيل
السيطرة ----- الاقتصادية والسياسية للأقوياء ، وأهدرت كل حقوق
الشعوب ---- وقسمت العالم إلى مناطق نفوذ ، ترزح تحت أقدام الطغاة
الذين ----- بمقدرات الشعوب هنا وهناك .

أما الأخلاق : فقد أصبح الحديث عنها غريباً على كهوف الانحراف ---
-- العفئة ، وما هيا العقل البشري من وسائل وما فتح من آفاق . ولم يعد -
--- أن تسمع أو تقرأ بين الحين والحين عن فضيحة سياسية في بلد كذا ---
--- جنسية بينالكابر في بلد كذا حتى علقت بعض الصحف الأجنبية على

«ووترغيت» بقولها: عندما يكون الحديث عن بيت للدعارة لا تسأل صاحبة البيت ما إذا كانت عذراء. وكم بين هذه الفضائح على تعدد ألوانها من تداخل. ومسكينة تلك القيم الخلفية التي كانت سلماً للمتاجرة عندهم في يوم من الأيام. . . وكم هي مظلومة تلك الشعارات التي طرحوها ويطرحونها يدلون بها على الناس، ويمتطون بضجيجها وعجيجها على أرائك التسلط، وقد أذاقونا من خلالها وتحت عناوينها السم الزعاف. . . وسل عن هذا ترابنا. . . ومقدساتنا. . . وتكالانا. . . وأيتامنا. . . ومشرديننا فوق كل أرض وتحت كل سماء.

إن الأرض التي تجري عليها تلك الفضائح هي أرض أولئك الذين يحاولون - بأخلاق العتاة اللثام - أن يمنعونا من التقاط أنفاسنا كي لا نقوى حتى على المطالبة بالحق. . . ريثما يتم الله أمره، ونستكمل عناصر القوة، ويصبح في مقدورنا - بعون الله - أن نفجر الأرض تحت أقدام الكفرة الغاصبين مصداقاً لقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾.

وهي هي أرض أولئك الذين يضربون على أمتنا بالأسداد. . . ويسخرون يهود العالم - بلا استثناء - علماء وغير علماء لإعطائنا هوية القطيع التائه الذي لا حول له ولا طول، هوية الحيرة القائلة بعيداً عن الانتماء الأصيل، والارتباط بمنطلقات تحمل على الشعور بالذاتية والكيان، وتأخذ بالفرد إلى ساحات التخضية والبذل عن قناعة وإيمان في ظل قولة الخليفة الأول - رضي الله عنه - : «أطلب الموت توهب لك الحياة. . .».



وهي هي أرض أولئك الذين يظهرون على التصفية الجسدية للمسلمين
في الفليبين . . وهم الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها إذا خسرت البشرية
واحداً من أبنائهم قد لا يساوي عند الله لعقة خنزير .

ترى هل تشرق الشمس على يوم نجد فيه نحن الذين أصبحنا عدداً بلا
مضمون ما يأسو حضارة القرن العشرين ويمسح عنها دم الجناية وقد سقطت
من يدها سكين الجزار !!!

هذا ولسنا اليوم بسبيل أن نردد النواح المؤلف على حال أمتنا، فالوقت
أعز من أن يضيع بالمفاخرة أو النواح، ولكننا بسبيل الإسهام في محاولة
تغيير واقع الأمة إلى ما هو خير مما هي عليه في تركيب بنائها من الداخل، ثم
قدرتها على مواجهة العدو الماكر مكر يهود، الذي تعددت عناوينه،
وتنوعت أساليبه وميادينه . . وبات يفيد كل يوم جديداً من معطيات العلم
الحديث، والتيارات الحضارية!! ووسائل الحكم على شعوبنا من خلال
خلفياتها التاريخية، وتركيب مجتمعاتها، ومقدار قربها أو بعدها عن
منطلقاتها الأولى التي كان لها في تاريخ الإنسانية شيء مذكور، والتي بنت
لنا معارك بدر، والأحزاب، وبني قريظة، وبني قينقاع، واليرموك،
والقادسية، وحطين، وعين جالوت . .

وفي ضوء ذلك كله، ورصد للمقدمات والنتائج، وإنصاف قضايانا من
أنفسنا بجرأة ووضوح والتفريق بين الأخذ الواعي من حضارة الآخرين،
وبيين الذوبان والضياع . . تبدو الأمانة ثقيلة على كواهل الرواد من أبناء هذه

الأمة وقد ملكهم الله مفاتيح التغيير ، أن يخلصوا في تبصير هذا الجيل كيف يفيد من الحضارة دون أن يفقد هويته في شدة إلى حضرة أمته الإنسانية من جديد . . . حتى يرك أنها الحضارة التي تنبع من عقيدة التوحيد وتؤمن بالعم ، وتفتح أمام العقل آفاقه ، وتحارب التقليد الأعمى ، وتربط الإيمان بالتفكير في آيات الله الكونية ، وفي النفس الإنسانية . . . وإنها الحضارة التي أحسنت التنسيق في علاقة الإنسان بالكون والحياة ، وكرّمت هذا الإنسان بما هياه الله للخلافة في هذه الأرض . . . ومن خلال ذلك تراها وهي تحمله دائماً إلى الغاية النبوة بوسيلة نبوة مثلها . .

إن على هؤلاء الرواد أن يضعوا يد الجيل على الواقع التاريخي الذي أثبت صدق علاقة هذه الحضارة بالمعرفة والفكر والأخلاق ، وإنسانية الإنسان ، والقدرة على أن تكون أخلاقيتها هي المهيمنة دائماً على كل التصرفات - في الداخل والخارج - في ظل عقيدة سمحة كريمة لا تسمح بالعبودية لغير الله ، ولا بالانحناء لإلا له ، ولا بالسجود إلا بين يديه سبحانه . .

ألا وإن حضارة تقدم على سلامة اتجاهها ، وشمولها ، وعمقها ، وإنسانياتها آلاف آلاف الشواهد من الأبطال والعلماء والمصنفات في شتى أنواع العلم والمعرفة ، والأنظمة التي تكفل العدالة والخير ، والآثار الناطقة بكل هذا في كل أرض وطئتها أقدام المسلمين ، وأرتفعت على رباهها راية التوحيد ، ونادى المنادي على منائر الله أكبر . . إن حضارة هذه سماتها - ولسنا في معرض التفصيل - جديرة وأيم الحق أن تشد إليها أبنائها وبناتها من



جديد ، حتى يشعروا بصدق نسبتهم إليها ، معترزين بمعالها الربانية ومنجزاتها في العالمين . . وذلك كفيل بأن يدفعهم في زحمة الصراع إلى متابعة المسيرة الخيرة ، حتى يعيدوا في الناس سيرة العقيدة تنجب الأبطال . والحقيقة تهزم الخرافة ، والعلم النافع في خدمة الإنسان وتثيت معالم الحضارة ، لا وسيلة لتدمير الحضارة واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان .

هذا هو المنطق اليوم . . أوليس حرباً بنا -والأمر هو الأمر- أن نعود بحرقه بالغة ، ورجولة صادقة ، إلى حيث يتسنى لنا أن نضع الأمور مواضعها وأن نكون ممن يصنعون الأحداث ، لا أن نكون ملهاة الأحداث ، وسخرية التاريخ . .

لقد خاضت أمتنا قبيل أربعمئة وألف عام معركة تحرير الإنسان على أساس من عقيدة الفطرة . . وتبوأ قمة الانتصار تحت راية القرآن . . . ولقد دار التاريخ دورته واستنسر البغاث . . فإن عادت بعد هذه الغفوة عودة الهدى عاد لها الخير ، ووتسلمت دور القيادة من جديد ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

فيا لعزمات الرجال تستعلي على العقبات . . وتعمل عملها في تحقيق تلك الشرائط التي يكون من ورائها ما وعد الله . . والله لا يخلف الميعاد . اللهم إنا نسألك عزيمة الرشد والثبات في الأمر ، والفوز بالتقوى والنجاة من

النار . اللهم أنت القادر على أن تغيث هذه الأمة . فتؤلف القلوب بعد شتات ، وتجمعها بعد تفرق . . اللهم تولنا بعنايتك التي لا تقهر ، حتى تثبت الأقدام عند اللقاء ، وتتراص الصفوف عند المواجهة وحتى تتم البشرى وتقع الطمأنينة ويفرح المؤمنون بنصر الله . اللهم أنت الأول والآخر والظاهر والباطن وأنت على كل شيء قدير ولا حول ولا قوة إلا بالله .



الآية الكبرى .. والواقع^(١)

كلما دار الزمن دورته من شهر إلى شهر ومن سنة إلى سنة عاودا التذكار هذه الأمة فذكرت معجزة الإسراء والمعراج وما كان فيها من تكريم الله لنبيه -صلى الله عليه وسلم- ومواساته بعد عام الحزن حيث توفيت خديجة وأبو طالب، وكان ما كان من «ثقيف»، فشرح الله صدره، وأجزل له العطاء، ورفع في العالمين ذكره، وأعلى قدره على جميع الخلائق وأسرى به إلى المسجد الأقصى الذي بارك حوله. وصلى بالأنبياء إماماً، وعرج به إلى السماوات العلى فكان ما كان من الفضل العميم إذ أراه جل وعلا من آياته الكبرى، وكرمه بالوصول إلى سدرة المنتهى وفرض على الأمة خمس صلوات هي في ثوابها خمسون.

وكانت تلك المعجزة دليلاً جديداً على صدق نبوته -عليه السلام- وأنه أرسل من عند ربه عز وجل يؤدي الأمانة ويبلغ الرسالة كما كانت امتحاناً للناس وفازداد المؤمنون إيماناً، ورسخت في ميدان اليقين أقدامهم، وخرج عن دائرة الخير بعض أولئك المشككين والذين في قلوبهم مرض.

من سمات الإيمان أنه مرتقى صعب لا تقوى عليه النفوس المهزولة، ولا أولئك الذين يحكمون الهوى أو يضعون العقل في الموضع الذي يتجاوز حدوده ويحمله فوق طاقته ويجعله في مرتبة الوحي.

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالث والرابع، السنة الثانية عشرة، ١٣٩١هـ جمادى ١-٢، ١٩٧١م تموز-آب.

مع أن وظيفة العقل فهم ما يأتي به الوحي ، والتدبر في آيات الله في الآفاق وفي النفس الإنسانية ، ليكون ذلك طريق الإيمان الصحيح ، والإفادة من تسخير الكون وسير أغوار العلم والمعرفة في سبيل سعادة الإنسان ، وسلوكه طريقاً واضحة المعالم . محددة الاتجاه تصل به إلى تحقيق إنسانيته وتكرمه بمِرْضَاة الله عز وجل .

وهذا الوجه من المعجزة العظيمة يضل حياً طرياً - وكلها حياة - في كل عصر مهما تقلبت الأيام بما فيه من الدلالة الصادقة على نبوة الرسول - عليه السلام - من ربه عز وجل وبما فيه من اختبار .

الإيمان والقدرة على التسليم بما يجب به التسليم ، ما دام الخبر الصادق قد جاء به من طريق ثابتة مأمونة تفي أي ريب أو احتمال . وآثار هذا الإيمان في مد الأمة بالقوة والثبات في مختلف مراحل التاريخ في ميادين الحقيقة والرجال ظاهرة لكل ذي عينين .

وإذا كانت دورة الزمن تشد الأمة إلى التذكار ، لترى المعجزة في أبعادها ومراميها ، أن مما تتفطر له الأكباد ويذوب له قلب المؤمن كمدا وحزنا ، أن تعاودنا الذكرى عاماً بعد عام ، والأقصى الذي بارك الله حوله وكثير من تلك الأرض المباركة ، ما تزال تحت سلطان يهود ، حيث تنتهك الحرمات ، وترتكب المآثم ، ويعمل حقد القرون عمله ، وترتفع عصا الجبان ، ويهزأ اللؤم بالقيم ، وتغير المعالم ، ويضع الغاصبون كل الأسس والمخططات في تحدٍّ للزمن والتاريخ وكرامة الإنسان ، لإيجاد ديناً يهودية جديدة هناك ، تبرز



بكل سماتها ومظاهرها، وكأن القوم هم أصحاب الحق الشرعي، كما يزعمون، ولم يكف ذلك كله، حتى أحرقوا المسجد الأقصى.. ولم نشعر أن كرامتنا قد مرغت بالتراب، وأن المعتقد الذي يمثل الذات قد انقضَّ عليه السافكون، وكان من الأمر ما كان.. وهي سلسلة مذؤومة لسنا في منجاة من غبارها وأذاها.

ذلكم هو الواقع... وليس يجدي إذا جد الجد شق الجيوب ووالنواح، ولكن الذي يجدي إرادة جادة حازمة، واتسعانة بالله صادقة، مع إعداد العدة من وجهيها المادي والمعنوي.. ولن يكون من وراء ذلك إلا النصر بإذن الله.. وما أحسبه مكروراً من القول أن على أبناء هذه الأمة أن يكذورا في شهر الإسراء والمعراج معنى الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وموضع ذلك في ميزان العقيدة بالنسبة للمسلم، وأي واجب حملة محمد بن عبدالله -صلى الله عليه وسلم- لهذه الأمة في الحفاظ على المسجد الأقصى حفاظها على بيت الله الحرام، وأن من الوفاء للمعجزة ولصاحبها، وللرسالة ومدلولاتها، أن تصدق الأمة في نظرتها إلى المصاب الجلل، بعيداً عن التبلد واللامبالاة، بعيداً عن أن تنسيها الأيام مهما طال أمدها وقست أهوالها، ذلك التراب الطهور الذي صلى عليه محمد -صلى الله عليه وسلم- إماماً بالأنبياء عليهم السلام يوم أسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والذي تضاعف فيه الصلاة إلى خمسمائة ضعف، والذي عطرتة دماء الشهداء من الصحابة، ومن جند نور الدين وصلاح

الدين ، وكل من انتظم في تلك القافلة المباركة ، قافلة المجاهدين الصادقين .

إن من الزاوية بالقيم ، والاستهتار بمعاني الإسلام والرجولة ، أن يتبدل الحسّ فنصبح على الهوان راضين مختارين ، وأن تقسو منا القلوب ، فلا تفجر الأحداث كوامن النفس ، ولا تهز أعماق المشاعر ، وإن من نذر السوء أن تنحسر معاني الحياة حتى تقبع في زاوية المصلحة القريبة القريبة علماً بأن من أبسط قواد السلوك الإسلامي في علاقة الفرد بالجماعة والأمة «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم» .

غير إنني لا أنكر أن القضية لا بد أن تبدأ من سلاة التصور كيما يدرك هذا الجيل معنى علاقته بالأرض التي يحتلها من ضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، وما الذي هو مطالب به في منطق العقيدة والاخلاص لأمته ورسالتها في العالمين .

وأيّن يجب أن يكون موضعه من قوافل الشهداء الأبرار ، وما هو برهان صدقه في دعوى الانتساب إلى دين رضيه الله لعباده وأمرهم بالتزم أحكامه بوصفه منهجاً كاملاً للحياة .

ثم ما هي الأبعاد الحقيقية التي يأخذها في نفسه وقلبه وشعوره وعقله قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُفَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ .

إننا إذا أردنا أن نأخذ أنفسنا بأدب الشجاعة ، والنقد الذاتي ، فمن



الواجب أن يكون لنا - مع معرفة كل ما يمكن عن العدو ومخططاته وما يبني له هذه الأمة - رصد صحيح ومنهجي لكل خطوة نخطوها ولكل عمل نعمله واضعين في الاعتبار سلامة الموازين التي يجب أن توزن به الخطأ والأعمال، حتى يكون من نتيجة التقويم الصحيح معرفة الخطأ من الصواب، فما كان خطأ يجتنب وما كان صحيحاً يتابع، وكذلك كان عمل القرآن في إعدادة للأمة حيث تنزل الآيات بالكلام عن الواقعة بما للجماعة وما عليها بياناً وتوجيهاً لا تفقداهما في واحدة من تلك الوقائع.

إذ ليس يعني أن ننظر إلى المشكلة من وجه واحد بل لابد من الجراءة والنظر بعناية إلى الوجه الآخر. . . كيما ندرك وننقل هذا الإدراك بأمانة إلى الاجيال التي تأتي من بعدنا، كيف أن انقضااض أهل الحرمات على حرمااتهم هو من أخطر الثغرات التي تمهد للعدو أن يظهر وللجبان أن يستعلي هذا مع وضع كل الاعتبار العالمية، والعوامل المتعددة التي تسهم في إيجاد المناخ الظالم لغرس جسم غريب في كيان هذه الأمة وأرضها.

إننا لنرجو أن تكون ذكرى الإسراء والمعراج حافزاً لهذه الأمة، يذكرها معالم العقيدة، ويشدها إلى أصالتها، ويبصرها مرة أخرى بالخداء الخالد النابع من «لا إله إلا الله» المضمخ بعبير ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ذلك الخدء الذي كان في قلب كل واحد، من أبناء اليرموك وحطين وعين جالوت. . . إن طريق التغيير مملوء بالتبعات، ومشاق الالتزام ولكنه طريق الجنة ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠﴾ وإنها لمسؤولية لا يطيقها إلا أولو الصدق مع الله . . ولكنها ميراث النبوة . . ﴿١١﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴿١٢﴾ وإذا وسوس الشيطان بزخرف العاجلة، وسولت النفس حب العافية، ولوح الهوى بالبعد عن كهوف المصاعب، والتنديد بطول الطريق، فليذكر المؤمن قول الله تعالى في تبصير عباده بالقيم، والموازن، والغايات: ﴿١٣﴾ اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٤﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٥﴾ . وليذكر العاملون أي صفحة شاءوا من تاريخ المرسلين عليهم السلام، وأي واقعة أرادوا من وقائع سيرة نبيهم -صلوات الله وسلامه عليه- الذي صارع الباطل، وعمل لخير الإنسانية فصبر وصابر، وجاهد وقاتل، وكسرت رباعيته يوم أحد، ووقع في كمين نصبه له الأعداء، وسما عن الدنيا وأوضارها، فكان يمضي عليه الشهر أو الشهران لا يوقد في بيته نار، ونام على الحصار وأثرت في جنبه، وكان يرى أن مثله ومثل الدنيا كمثلي راكب أناخ براحلته في ظل شجرة ثم أرتحل وتركها. وقال كلمته التي ما تزال ولن تزال ضياء التاريخ وشعار البررة من أبناء هذه الأمة «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة» ولخص بكلمة جامعة كل ما يمكن أن يدخل على النفس من هنا وهناك من نفثات



شياطين الإنس أو الجن ، مع بعث الطمأنينة في نفس العاملين ، وتأكيـد صدق وعد الله بنصر دعوته مهما طال الطريق .

ذلكم قوله لخباب - رضي الله عنه - « وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون » حيث أنزل الله بعد ذلك قوله سبحانه : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ .

وكانت له عليه الصلاة والسلام جولات مع اليهود عرى فيها خلائقهم وسمات سلوكهم ، وأثبت للناس على مدى العصور أنهم قوم لا ينفع معهم إقناع ولا إقامة حجة ، ولا يجدي في مواجهة تأمرهم إلا ما فعله هو - عليه الصلاة والسلام - ، وستظل البشرية في مواجهة داء اليهودية العالمية تائهة تضرب في حديد بارد ما لم تستهد بالمعالم التي وضعها - عليه الصلاة والسلام - في طريق تعامله معهم ، بعد طول تجربة ومعاناة على كل صعيد .

أما بعد : فإن امتنا في صراعها مع الباطل ، ومعاركها مع اليهود ومن -- عليها بحاجة - مع كل واجبات الإعداد والاستعداد - إلى قراءة واعية جديدة لسيرة نبيها - عليه الصلاة والسلام - ، واستشفاف ما وراء السطور في معاركها الخالدة عبر التاريخ ، وذلك بقلوب متعطشة إلى النور ، وعقول متفتحة على حب الحقيقة ، ونفوس صادقة العزم على التغيير ، واعتزاز بالأصالة وسلامة المنطلقات . إن امتنا حين تبدأ الطريق من هنا . لن تمر بها

واحدة من ذكرياتها الخالدات أو قارعة من القوارع مرور الصوت بالجماد - وإن كان الجماد يسجل اليوم - ولكن تمر بها مرور الدم الدافق يبعث الحياة، والنور الساطع بيد الظلمة، وصيحة النذير توقظ الغافل من سبات وأنها حين تفعل ذلك . . لن تكون مغلفة النوافذ عن العالم، ولكنها تأخذ بوعي، وتعطي بيقظة، دون أن تضع هويتها وتذوب فيما عند الآخرين .

وإذا كان إيمان المؤمن يطارد اليأس، ويوجه دائماً إلى الإيجابية والعمل البناء، إنا لنرى أنه - بمشيئة الله وعونه - لابد أن يأتي ذلك اليوم الذي يشهد جيلاً يكرمه الله بالقدرة على حمل العبء، ويسعده بقيادة الأمة إلى مرابع الحرية والخير ولك ما فيه سعادة الإنسانية الحائرة من جديد . . . وإنه لحق يراه المؤمن من خلال العوائق والمصاعب والنكبات، ويستوحيه من سنة الله نصرته للحق الذي أنزل به كتبه وأرسل في بيانه رسله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .



شهر رمضان بين المناسبة والالتزام^(١)

أتراه شهراً يطل هلاله على الأكوان، منظوراً إليه بعدد أيامه ولياليه، أم أن هنالك شيئاً وراء الليالي والأيام، يرتد إلى عمق المعاني التي يحملها شهر رمضان وذكرائه الضاربة في أعماق تاريخ الدعوة بناءً وجهاداً وأصاله. لن تعوزنا وسائل المعرفة كي نجنح إلى هذا الذي حفلت به مصادر معرفتنا الأصيلة من فضائل رمضان، وما أوسع له التاريخ في ميدان الصراع بين الحق والباطل، على خط بدأ بنزول الوحي وانتهى بفتح مكة حيث جاء نصر الله والفتح، مروراً بمعركة بدر التي كانت فرقانا بين التوحيد والكفر وفيصلاً بين الحق والباطل. ولا تسلم عن غرة جبينه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

ولكن الذي يوجبه صدق الإيمان بالكتاب الذي فرض صيامه، والحرص على أن تكون الأمة على مستوى المعاني التي يحملها وذكرياته التي أضاءت جنبات التاريخ. أن نبحت بشجاعة الرجال، وصدق الأمانة على الحقيقة -عن الطريق التي تحملنا إلى حيث يكون وجودنا امتداداً لوجود أولئك الذين كانت قلوبهم أرض تلك المعاني الطيبة، ونفوسهم أمثلة تحتذى في بناء التاريخ وقيادة معركة الصراع بصدق وتفان في سبيل الله.

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السابع، السنة الرابعة عشرة، ١٣٩٣ هـ رمضان، ١٩٧٣ م تشرين الأول.

إنه لبون شاسع بين الذين صنعوا المناسبة وتاريخها، وبين الذين يكون حظهم من رمضان صلة المناسبة العابرة حين يطل هلال أو تشرق شمس، إن علينا أن نعمل على أحداث النقلة من المناسبة إلى الالتزام بمبدلولات المناسبة، كيما تصبح الصلة برمضان صلة التزام وتربية رجها، لا صلة مناسبة يحتفي بها المسلمون وهم على السطح دون غوص إلى الأعماق، وتحريك النفوس والقلوب، وكيما يكون رمضان وقوداً من وقود عملية التغيير التي لا بد منها في ظل قول الله تباركت اسماءه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

إن من حق رمضان على هذا الأمة أن تتخذ منه عاملاً أساسياً في عودتها إلى صدق الانتماء إلى ما رضىه الله لها عقيدة وعبادة وشريعة، ورغبة صادقة في الجهاد وحرصاً على أن تكون النفس منقاداً لأوامر الله، ترضى ما رضى لها ربها، وتكره ما كرهه لها، تستعلي على مطالب الجسم اليومية والشهوات العارضة والرغبات، وتصل ما بينها وبين الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، وذلك من طريق الاحتفاء بالقرآن الذي بدأ نزوله في رمضان، تلاوة خاشعة تصحبها مراقبة الله والتطلع إلى مرضاته والقرب منه، وتدبراً يحمل إلى ساحة العمل بمضمون ما يتلى، والتأسي برجال القاعدة الصلبة التي بناها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والتي كان كل واحد من أفرادها يقرأ القرآن خاشعاً متدبراً تزينه الأناقة الواعية، والخضوع لجبار السماوات والأرض، ويحمل مسألة العلم للعمل والجهاد ويجعل من



التأسي برسول الله -عليه الصلاة والسلام- عنوان حياة ومحور حركة .
حتى صدق فيهم أنهم رهبان في الليل فرسان في النهار ، وأنهم يقلون عند
الطمع ويكثررون عند الفزع .

وما مواقفهم في بدر ، إيماناً وشجاعة وبطولات علمت الدنيا معاني
الجهاد والاستشهاد ، وما وقائعهم يوم الفتح من صدق الالتزام والطاعة
الأمينة الصادقة للرسول -عليه الصلاة والسلام- ، حتى كانوا جنود الفتح ،
كما كان أهل بدر حراس عقيدة التوحيد والذود عنها . ما ذلك كله إلا
انعكاس لصلتهم بالقرآن وحبهم الصادق لرسول الله -عليه الصلاة
والسلام- .

إن المؤمن ليرقب بلهفة ما بعدها لهفة تلك اللحظات التي تبدأ فيها الأمة
استئناف الطريق ، وتحقيق الانتماء إلى ما به أمسكت بزمام الدنيا حقبة طويلة
من الزمن ، فكان لها شخصيتها المتميزة ، وهويتها القيادية الواضحة .

ويا لله كم نسعد برمضان حين نجعل منه فترة زمنية خيرة تقودنا بما تحمل
من المعاني والذكريات إلى تحقيق ذاتنا ، والعودة إلى منابعنا الأصيلة ، كيما
نكون على قدم أولئك الذين كانوا رهباناً في الليل أسوداً في النهار ، وعندها
تخلص عبادتنا لله ، ويمسح عن قلوب الكثيرين ما يكون من التوجه إلى
الانداد والاضداد ، ويرهبنا عدو الله وعدونا ، ويعود إلينا ما اغتصب ذلك
العدو الماكر الذي يقتنص الفرص ويتفاقم ورمه وشحمه على حساب ضعفنا
وانحسار سلطان القرآن عن نفوسنا ، وتجاوينا عن العبودية لله ، حتى وقعنا

في شرك ألوان الوثنية والأوثان، ونزع الله من صدور أعدائنا المهابة منا،
وصرنا إلى حيث حب الدنيا وكراهية الموت .

إلا وأن لشهر رمضان كلمة لا بد أن تعيها هذه الأمة ، وأن له نوراً يجدر أن
تستضيء به النفوس والقلوب ، وإن له منهجاً في التربية والأعداد لا بد أن
نتقبله راضين خاشعين عازمين . والله المسؤول أن يحرك القلوب لتكون
عند الوفاء لرمضان ومعاني رمضان وذكريات رمضان ، في وقت لم يبق إلا
أن تولي وجهها بإيمان ووحي إلى الإسلام من جديد ، حيث الدعوة إلى
العقيدة الصحيحة ، والعلم النافع واعداد القوة لمجاهة العدو وبناء الحياة على
خير الأسس الحضارية والثقافية الأصيلة وتكريم الإنسان وبناء الفرد
والجماعة على حراسة ما به يصلح أمر الفرد والجماعة ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ
أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

والله هو القادر على أن يجمع القلوب على كلمته ، ويوحد النفوس على
محبه كيما تكون أهلاً لنفحات رمضان القدسية وما يكون فيه من العطاء
الإلهي ، في ظل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ
هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ . وهو - سبحانه - المحمود على كل
حال .



جهاد .. وحج^(١)

عندما تتفجر طاقات الأمة تحت مطار الأحداث ، يعلن منعطف جديد إعلانه في حياتها ، فتحسَّ إحساساً صادقاً بنبع الأصالة يفيض من هنا وهناك ، وترى الحقيقة مجردة عن الغبش والصوارف ، تلك الحقيقة التي تنادي بالمجمع بين الأصالة والتجديد ، فليس كل قديم يستنكر لأنه قديم ، ولو حصل ذلك لكان لوناً من العقوق القاتل والجناية البلهاء ، وليس كل جديد يستشرق إليه وتهفوا إليه النفس لأنه جديد ولو حصل ذلك لكان نوعاً من السطحية وضيق الأفق .

والأمر الذي يفرض نفسه في كيان هذه الأمة تاريخاً وثقافة ومنهج سلوك ، أن قديمها منابع تتفجر بالحركة والطاقة ، لأنها من معين المنهج الرباني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن صورتها الحركية في الحياة يجب أن تكون أداءً للرسالة التي حملها إليها ذلك المنهج ، وهي على موعد دائماً مع المرحلة الطويلة الشاقة بين الواقع والآمال ، وحين تشدها إلى المنهج الرباني أواصر الصدق والعزيمة لا تلبث الآمال أن تكون واقعاً ، ولا يلبث واقع اليوم أن يكون حلقة عطاء في مصير الغد ، المهم أن الأمة تكون قادرة بهذا على مناجزة الأحداث دوغماً يأس أو قنوط ، وهي حين تناجزها ، تناجزها عن عقيدة ومنهج وتصميم ، فلا مكان للعبث ، ولا

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة ، العدد الثامن والتاسع ، السنة الرابعة عشرة ، شوال - ذو القعدة ١٣٩٣ هـ ، تشرين الثاني - كانون الأول ١٩٧٣ م .

مستقر للانحسار ، وأيما فرد من أفراد هذه الأمة خالطت قلبه بشاشة الواجب كان سلوكه عنواناً سامقاً في محاضن التاريخ ، وإعلاناً عن صدق رسالة الأمة ، وكفاءتها في مواجهة الطريق الطويل الصعب لتحقيق آمالها ، والنفوذ إليها من خلال الصبر والمصابرة ، وارتباط القلوب بالله .

إنها ربانية هذا الإسلام التي لا تترك الحبل على الغارب ، وتلقي بمقادير الأمة ، على طريق الضياع ، لأنها عن الله وفي سبيل الله .

من أجل ذلك كان التكامل واضحاً في بناء أحكام الشريعة وما وضع الله لعباده من منهج قرآني في السلوك وارتباط ذلك كله بأصرة العقيدة ، لأنها هي الباعث والمنطلق ، وإنك واجد صورة من صور ذلك فيما يبدو من النسب الكريم بين الجهاد وحج بيت الله الحرام ، وإذا كنا على أبواب المحتوى الزموني للحج ، بعد أن أكرمنا الله بما كان من دروس في حرب رمضان ، إن من الخير أن نفتح البصائر على شيء من الروابط بين الفريضتين العظيمتين ، على ما بينهما من أبعاد وفروق ، تتعلق بالغاية التي كانت من أجلها الشرعة ، كما أرادها الله وبينها رسوله -عليه الصلاة والسلام- .

فإذا كان الجهاد بذلاً وصدقاً في المواطن ، وإقداماً على بذل الروح في سبيل الله من أجل دفع الظلم وإحقاق الحق ، وإنجاز رسالة الأمة ، إن الحج بما فيه من تدريب النفس على ترك المألوف من العادة والشهوة ، والالتزام المطلق في أيام الإحرام ، والتجرد الكامل لله عز وجل قلباً وقالباً ، وإراقة الدم في سبيل الله على طريق خطها إبراهيم -عليه السلام- عندما لم يخل



بالاقدام على التضحية بولدة امتثالاً لأمر الله ، وبما فيه من العمل على أن يكون القلب دائماً مع الله توجيهاً إليه وحده ، فهو المعبود ، وهو المستعان ، وهو الذي تخط الأوزار في رحاب بيته بالتوبة والإنابة ، وهو الذي تراق الدموع سخية عند الابتهاال إليه والسجود بين يديه ، . . إن الحج بما يشتمل عليه من ذلك كله ليقوم بدور تعبئة نفسية تؤدي دورها في حياة المجاهد ، حين تغني قلبه بمعنى الجهاد في سبيل الله ، قبل غاية ، وصبراً على مقارعة العدو ، وصدقاً في المواطن واستشعاراً صادقاً لمعاني العقيدة ، التي أبسط مقضياتها ، أن المسلم قد باع نفسه وما له لله ، وأن الله قد وعده الجنة ، والله منجز ما وعد إن نحن صدقناه ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ وإن ضريبة الإيمان ابتلاء وتمحيص ، وطريق الجنة مزروعة بالمكاره ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ وهكذا يفترض أن تكون الأمة دائماً على موعد مع التذكر إن مسها طائف من الشيطان ، ومع اليقظة إن أصابتها سنة من الغفلة ، ولكم تكون الضارة نافعة حين تستيقظ الأمة بوعي على وقع الأحداث ، فتبرز الطاقات الكامنة ، ويتحول الشراع ، ويستأنف الطريق ، ويرى كل فرد من أبنائها أن شرعة الله واحدة ، وأن القبلة واحدة ، وأن الأحكام متكاملة مترابطة .

ولحجاج بيت الله أن يغفروا من معين الخير ، ويبصروا ما بين الحج والجهاد من أواصر ، فيكون لهم ولمن وراءهم من المسلمين ذكرى تنفع المؤمنين الذين

مسهم القرع من يهود وحلفاء يهود، بل يدركون أن كل واحدة من شعائر الإسلام فيها من الأعداد النفسي للجهاد ما الله به عليم، وعندما نصدق في بناء الجيل من أجل أن نحمل الراية من جديد، لابد أن نعيد إليه ما به تصدق نسبته إلى أمته في عقيدتها وأصالتها، وعناصر البناء والتكوين فيها.

أرى إن بين أيام الحج بما فيها، التلبية والتكبير، والعبودية الصادقة لله والانصراف الكلي عن كل ما يعكر صفو التوجه إليه، ثم بما يتسم به المؤمنون من ظاهرة المساواة وإزالة الفوارق، فالكل عباده، والكل لآدم وآدم من تراب... إن بين هذه الأيام وأيام رمضان شهر الصبر والجهاد، حيث المعارك المظفرة والإنابة إلى الله لنسباً صادقاً نرجو أن يكون في حسابان هذه الأمة، كيما تكون دروس رمضان القري، عنواناً جديداً على تأكيد الحقيقة التي كانت صمام الآن عبر التاريخ، وهي أن آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها، إن علينا أن نعد العدة بشتى وجوهها وألوانها ولكن لابد أن تظل خطانا إلى القتال، تلك الأفكار التي كانت تراود أولئك الذين طهروا الأرض من رجس يهود في معارك خبير، وبني قريظة وبني النضير، ثم ما كان من اجلاتهم عن الجزيرة أيام عمر على هدي تلك الأفكار، وفي ضوء لمعان تلك السيوف، وفي ظل مثار النقع الذي انعقد فوق رؤوس الغر الميامين.

لسوف تخوض الأمة معركة الحق مع الباطل وتنزع هذا الحق بأيدي أبنائها ولا تشكو الظلم للظالمين، فليست النائحة كالثكلي ولا يجنى من القتاد إلا الشوك!!!



إن الغاية التي تحرك السواعد هي رفع الظلم والانتصار للحق والكرامة .

وما أحلى أن يكون ذلك في سبيل الله ، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ
كَانَ ضَعِيفًا﴾ والحمد لله رب العالمين .

وقفة .. للتواصي^(١)

على عتبة السنة الخامسة من رحلة «مجلة حضارة الإسلام» المباركة عبر الكلمة المؤمنة الهادفة، والكفرة التي يراد لها -بعونه سبحانه- أن تسهم في البناء وتوضح الرؤية، نود أن نراجع مع الإخوة القراء رصيد الكلمة المؤمنة في كيان هذه الأمة، لنقف وقفة التواصي بالحق والتواصي بالصبر، لتبين مواقع أقدامنا من الطريق الطويل الذي يفترض أن يكون دائماً على هدي من ميراث النبوة، مما أكرم الله به أمتنا المحمدية، وأرسي بهداه قواعد خيريتها في العالمين.

و حين غملك الشجاعة المستعلية على التغفل والاسخذاء، نعترف أن ذلكم هو الامتحان . . امتحان صدق الانتماء إلى هذه الأمة بكل ما تعنيه --- الكلمة، في وقت شوّهت فيه المعالم وتلوّن فيه الانتماء . . فمن هنا --- إلى هناك --- إلى هنالك --- والليالي مثقلات مثقلات . وإنما نقول --- «صدق الانتماء» لأن ذلك يعني الحرص كل الحرص على الأصالة --- ومداها، والذاتية بكل رؤاها وميادينها . والأشحة في الخير هم --- يعدلون عن ذلك، ويتوجهون شطر النقيض من الوجهة، راضين --- من الأمر، مؤثرين الحضيض على القمة، وما هكذا أراد لهم الإسلام .

من هنا تأتي ضرورة وقفات التواصي التي تمثل مراجعة --- لما مضى،

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد العاشر، السنة الرابعة عشرة، ١٣٩٣ هـ ذو الحجة، ١٩٧٤ م كانون الثاني - شباط .



ورسم المنهج لما يأتي ، والحكم على الواقع من خلال التصور --- لمنطلقات الأحداث وأبعادها ، وذلك ما يفرض مزيداً من النقد الذاتي --- وذلك سمة أصحاب الرسالة- خصوصاً والوقائع الصارخة تغمر --- الإسلامي هنا وهناك ، وأعداء هذه الأمة لها بالمرصاد ، مما يحفر في --- ندوباً ، وصوراً ينبغي أن نكون لها بالحسبان .

نقول هذا غير ناسين أن الانهزام النفسي ضارب بجراحه على --- كثير من ذوي الدعاوي والعناوين . . وحسبك أن تذكر أن أعداءنا --- لا يرقبون بالإنسانية إلا ولا ذمة ، والذين يمثلون دائماً دور --- في هذا العصر ، عندما برعوا فيما هو سمة هذا القرن من العلوم التقنية --- أصبحوا في نظر الكثيرين منا ، موضع الثقة في كل شيء ، فانحدرنا --- عنهم حتى سلم القيم -وهم من ذلك براء- ومقاييس الأمور ، بل --- على عقيدتنا ولغتنا وتاريخنا ، حتى أصبحوا وكأنهم مصدر العطاء --- لا عطاء وراءه ، ناهيك عن الاستمساك بآرائهم في القضايا التي يسمونها مشاكل ، والمسائل التي يعتبرونها ثغرات ، ومكامن القوة التي يعطونها -زوراً وبهتاناً- عناوين الضعف والتخلف .

إن جانباً من رسالة هذه المجلة يهدف إلى إيقاظ الهمم ، ووضع --- موضعها الطبيعي ، في محاولة جادة لدفع غائلة التغريب لدى حمل --- بعض أبناء جلدتنا ، واستنقاذ من أصابهم الأذى من وهدة الانبهار بكل ما يقوله أولئك الذين لم تجن أمتنا من طريقهم إلا الصاب والعلقم . وإنما يكون

ذلك بكشف الحقيقة دون لبس، كيما تتحدث هي عن نفسها، وبتفتيح الأعين على الإسلام كما هو، وكما أراده الله للإنسانية عقدية ومنهج حياة، ورفع به أمتنا إلى مقام الريادة قروناً متطاولة من الزمان، وهو قادر على ذلك دائماً إن هي استأنفت طريقها من جديد.

ذلك أن الإسلام بربانيته كما أوحى الله به إلى نبيه محمد -عليه الصلاة والسلام-، فيه كل عوامل الخير، ومقومات الاستمرار والعطاء، وما تلك النكسات التي أصابت وتصيب العالم المعرض عن الله في القديم والحديث، إلا من بعض الشواهد على أن هذا الدين هو الهدية الربانية التي كانت من رحمة الله بالإنسان، وإن الرسالة المحمدية، هي المثابة التي لا غنى للإنسانية عن الفيئة إليها بعد متاهات الضياع وظلام النكسات.

وإذا كان الأمر كذلك؛ فمن أولى بهذه الأمة من يقظة جديدة تصلها بحبل تلك الرسالة المتين، ولقد يكون لزاماً بدل أن تندب حظها العثر، في عتب مرير على الأقدار، أن تتبين موقعها من هذا الإسلام، وأن هي فيما منحها الله من ثروات معنوية ومادية، وما مكن لها من أسباب القوة والمنعة، في أن تضع ذلك على طريق التغيير المنهجي، والتخطيط المدروس في حياتها من أجل تحقيق الهدف الكبير، في بناء مجتمع تظله هداية محمد -عليه الصلاة والسلام-، وعمریات ابن الخطاب.

ثم أين هي من سمات القوافل الخيرة التي عبدت سبل الفلاح، ومن الصفات التي يتميز بها طلاب الآخرة في كل ما يأتون وما يدعون، بل أين



هي في سلوكها من مدلول العبودية الحققة لله ، تلك العبودية التي تشمل -مع التوجه إلى الله بالعبادة وإقامة الشعائر- اعتقاد أن الحاكمية له سبحانه ، والعمل على أن يكون ذلك واقع الحياة .

ولقد يكون من صواب القول والعمل ، أن يذكر الرواد دائماً أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قد ترك هذه الأمة على بيضاء نقية ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك ، والمتقلب في غمار الحياة بين طريقين : إما أن يكون من طلاب الدنيا ، الذي همهم التطواف حولها ، ونشدان مطالبها ومشتبهاتها . . وإما أن يكون من أبناء الآخرة المسارعين إلى مرضاة الله ، السالكين صراطه السوي ، لا يرضون به بديلاً ، ولا يبغون عنه حولا ، فهم يتحركون ونصب أعينهم قول الله جلّت حكمته : ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا .

ولتجدنَّ هؤلاء البررة يغدون ويروحون -في طلب الآخرة- وهم في ساحة من الإيجابية والبناء والتفتح على كل ما هو خير ونافع ، وتراهم يقطعون أشواط الرحلة إلى الله واثقين راضين بأمره ، مطمئنة قلوبهم بذكره يحملون صفات البشر ، ويظلمهم طهر الملائكة ، وهم هم وحدهم الذين يصدق فيهم أنهم أمل الأمة المرتجى ، وعدتها يوم يعزم الأمر ويجدُّ الجد ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ .

إنهم يتجاوزون مرمى الغاية عند أهل الدنيا ، وينظرون ببصائرهم إلى

حيث منازل السابقين وأهل اليمين يوم ينادي أصحاب الجنة : ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طَبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ . «ذلك بما كسبتم فنعم عقب الدار» .

وإنها لتذكرة للمتقين تلك النهاية التي لا مفر منها ، والتي هين غاية كل حي . . و«كفى بالموت واعظاً يا عمر»!! أرأيت إلى العدد الماضي من مجلة «حضارة الإسلام» كم كان فيه ما يهز النفس ، ويستمطر الدمع ، ويذكر بالآخرة ، ويقف بالمؤمن على ساحة من العبرة وحسن التأمل ؛ ذلك ما كان من حديث أحبة كرام ، وافتهم المنية راضين مرضيين إن شاء الله ، عجلوا إلى ربهم ليرضى كل على الشجر الذي أقامه الله عليه ، ولكل درجات مما عملوا . . ويا نعم ما نصنع حين تكون العبرة طريق الاعتبار ، والوقائع --- التي تدمع لها العين ويخشع لها القلب ، سبيل متابعة الطريق . . طريق القافلة التي كان من رجالها هؤلاء الرواد . . والزهادة بعاجلة كل ما فيها سراب خادع لا يزن عند الله جناح بعوضة ، ثم التدبر الصادق لقوله تعالى : ﴿كُلُّ أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ .

رحم الله أولئك الأحبة الأبرار رحمة واسعة ، وأكرم مثواهم في الآخرين ، وأعلى مقامهم عنده في الفردوس ، وعوضنا بفقدنا خير العوض وإن الله وإننا إليه راجعون .

أما عن مجلتنا في خاتمة سنتها الرابعة عشرة ، وفي ظلال العام الجديد : فالله المسؤول أن يجعلها أقدر على أداء رسالتها بأمانة ووعي ، وأن يثبتنا جميعاً على النهج السوي لا نساوم ولا نحيد . . وهو -جل جلاله- المستعان



على كل حال . وجزى الله خير جزائه إخوتنا الكتّاب والعاملين في حقل
المجلة ، وكلّ من يسهم في أن تأخذ صفحاتها المباركة -إن شاء الله- طريقها
إلى النور .

ولنا من وعي الأخ القارئ وسلامة تقديره لكل الأبعاد ، ووضع ظروفها
في الحسبان ، وتعاونه المعنوي والمادي . . ما يحفزنا إلى مزيد من تفاؤل
المؤمن الواصل بنصر الله وتأَييده مهما طال الطريق ، واشتدت حلقة
الليل . . ولكل أجل كتاب .

كيما تجد الأمة ذاتها^(١)

بين المد والجزر في واقع هذه الأمة وما يحيط بها من أحداث ، وما يعج به وطننا الكبير من وقائع ومتغيرات . . . تبدو الصورة بلامحها العريضة موحية بأن الأمة تبحث في هذه المرحلة عن ذاتها . . . ولكن أين تجد ذاتها . . . إنه السؤال المطروح على صعيد النظرة الجذرية التي تتجاوز السطح وتنظر إلى القضية بنوع من وضوح الرؤية ، والتجرد عن المؤثرات الجانبية من هنا وهناك .

إن فارقاً واضحاً بين أمتنا وغيرها من الأمم في هذا المجال . . . أننا لا ننطلق من فراغ . . . ولا نبدأ مسيرتنا من الخيال . . . ذلك أن لهذه الأمة عقيدة ألفت وجودها على الواقع التاريخي في حياة البشر ؛ فكانت المبادئ وكان التطبيق .

ولعل ما يطرحه العدو دائماً من شعارات يجمع حولها يهود الأرض من خرافة أرض الميعاد ، إلى الشعب المختار ، إلى هيكل سليمان . . . وما إلى هذه الشناش . . . لعل ذلك يشير فينا على الأقل - ورب ضارة نافعة - أن نذكر أننا في بحثنا عن الذات لا نعدم القواعد والمنطلقات في مدنا التاريخي الذي نعمت الدنيا ببدء تحركه منذ أربعة عشر قرناً من عمر الدنيا ، حين تأذن الله برسالة الهدى والخير ، وأوحى إلى نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم -

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثاني ، السنة الخامسة عشرة ، ١٣٩٤ هـ ربيع الثاني ، ١٩٧٤ م أيار .



بوحيه ، وابتعثه في الأميين رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وأن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وأرسله كافة للناس بشيراً ونذيراً . وعندما نكون صادقين في تلمس الطريق تحت مطارق الأحداث ، وما يدق أبوابنا من إحـن . . فإن ذلك يعني أن تراجع الأمة رصيدها من تجارب الجنوح عن تلك المنطلقات ، وممارسات العقوق لتلك المبادئ ، وتفيء بشجاعة المنصفين إلى تلك الواحة المحمدية التي ألفت بين القلوب بعد فرقة ، وجمعت الكلمة على الحق بعد شتات ، وهتفت بالأصالة والذاتية وحرية النظر ، بعد الكهافة والخرافة وغبي التقليد ، وجعلت من الدولة امتداداً طبيعياً لدوحة الدعوة المباركة الخيرة . . . فكان في إسلام الوجه لله ، والرضا به المعبود الحق ، والشارع الحكيم ، والمدبر القادر ما سلك بتلك الأمة سبيل السعادة في الدنيا والآخرة . .

أجيال تلحق بها أجيال . . وكل يسلم الراية إلى من بعده برجولة وصدق عزيمية . . معاك بين الحق والباطل أضاءت جنبات التاريخ . . وأبطال في كل الميادين - ولا تستثن - عقر جباههم السجود بين يدي الحي القيوم ، فعفروا وجوه الظلمة بالتراب . . وكانت ألسنتهم رطبة بذكر الله فأرهبوا أعداء الإنسانية بكلمة «لا» في وجه الانحراف . . وخضعوا لله في كل شيء . . فمرغوا بالتأدي الحازم حياة الطواغيت . وكان أن انتصرت كلمة الحق ، وعرف الإنسان ذاته ، وبدأ يعمل بحرية ونظام هادف ، وفي وهج من حرارة العقيدة وسلامة الفكر ملأ الدنيا بمعالم الحضارة ، وأغناها بثمرات الإيجابية

والبناء . . حتى هابتنا أم الأرض . . وأصبحت لنا الكلمة المسموعة على الصعيد العالمي . .

ولولا تلك العبودية الحقّة لله ، وإسلام الوجه له في التصور والعمل ، لما تحرر الإنسان ، ولما استطاع أن يعمل وينتج في إطار من الإنسانية وسلامة القصد . . وإذا أردناه اليوم أن يكون ، وأن يبذل . . وأن يصحو بعد سبات ، فيhez ميادين الحياة على تلونها وتنوعها فلا بد من تلك الفيئة التي أشرنا إليها في مطلع الحديث . . تماماً كالذي فعلته يميني محمد بن عبدالله -صلوات الله وسلامه عليه- ، حين عني أشد العناية بصياغة الفرد والجماعة . . بعيداً عن التمزق والضياع وكل ما عاناه الإنسان في ظلام الجاهليات قبل الإسلام . . فعل ذلك رسول الله بالكلمة ، والقدوة ، والنهج . . ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ .

ولعلك تستبين سلامة الصنيع أكثر وأكثر حين تسمح لنفسك بشيء من المقارنة التي نادى بها القرآن الكريم ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ .

وإذا كان التاريخ سلسلة متكاملة الحلقات ، فمن غير المقبول أن نقطع واحدة من هذه الحلقات عن الأخرى ، خصوصاً وأن تاريخنا يحمل في منطلقاته على الزمن طبيعة الصراع بين الحق والباطل ، والجانب التطبيقي لدعوة الإسلام . . وإذا توافر لنا وضوح الرؤية ، والنظرة الجادة المتكاملة التي



تربط بين العقيدة والاستجابة لمقتضياتها في عالم الواقع كي تعطي
وتغني . .

فلهذه الأمة كم مرت بها من تجارب . . وكم دبر لها أعداؤها من
مكائد . . وذلك ما اقتضته طبيعة الصراع بين الحق الذي تدعو إليه والباطل
الذي يحمل لواءه الآخرون . . ولكنها - كما تنطق الوقائع - كانت تخرج
ظافرة بحمد الله . . وذلك حين تأنس إلى منطلقاتها الأولى ، وتجتمع بعد
الشتت ، على كلمة الله في ميادين المعرفة والجهاد من جديد . . ولنا في
معاركنا مع التتار والصليبيين - ناهيك عن المعاك الأخرى - دروس لا ينساها
إلا من ضرب الران على قلبه ، وعشيت عن الحقيقة عيناه .

غير أنه . . لا مندوحة عن تصور المشكلة من جميع جوانبها ، وأن أبناء
الأمة عنصر فعال وأساسي في حلها كيما تجد هذه الأمة ذاتها بعد أن تداعى
عليها أهل الباطل وظاهروا على حربها وتمزيقها ، وإلى جانب ذلك . . لهم
من قوة الإسلام وطبيعته . . عقيدة ومبادئ أثبتت وجودها في جميع أدوار
التاريخ . . سواء حملتها الأمة في حالات القوة . . أو كانت هي الدرع
الواقية في حالات الضعف وستظل تلك المبادئ بربانيته تفرض نفسها على
الساحة بالنسبة للمؤمنين بها ومعتنقيها والعاملين على نشرها وإبلاغها
للناس .

وما هذه المؤتمرات التي تعقد في العالم الإسلامي سواء على المستوى
الرسمي أو الشعبي إلا ظاهرة هذا الذي نقول . . ودلالة ذلك ناطقة في حالة

إخراج مقررات المؤتمر إلى حيز التنفيذ . . أو بقاد المؤتمر ساحة للحوار بين المؤتمرين أنفسهم حين يحمل كل واحد منهم مشاعر وأحاسيس من يمثلهم . . وتتضح الصورة التي يلتقي عندها الجميع مع اختلاف الجزئيات التي تفرضها ظروف بلد معين وأوضاعه الخاصة . . وعلى أية حال . . يمكن القول أيضاً: بأن تطلع الأمة على اختلاف البقاع والألسنة والألوان إلى الإسلام منتجعاً أصيلاً لحل مشكلاتها بوعي ودقة ، ظاهرة طبيعية أيضاً لها دلالتها المتفائلة بالنسبة إلى واقع الأمة . . وقد بدا ذلك واضحاً في مؤتمر مكة المكرمة . . إذ رأيت عجباً من مظاهر الوعي وسلامة التطلع إلى هذا الحصن الحصين خصوصاً من الإخوة المسلمين غير الناطقين بالضاد . .

وبعد هذا، لابد من العزيمة . . ولابد من الثمن . . ونصر الله كائن لا محالة . . فهو وعده جل وعلا . . ووعدته الحق . .

وعلى الذين يحسبون نصر الأمة منوطاً بعنوانها دون الجهاد والصبر ، ودون الوقفات الإيمانية المستعلية ، واسترخاض الأرواح والأموال في سبيل الله . . على هؤلاء أن يذكروا -وبقليل من الأغضاء- أن المنهج القرآني لم يدع إلى العمل فحسب . . بل ذكر المؤمنين بأن من سمات المجاهد أن يضع نصب عينيه طبيعة المعركة التي يخوضها ، وأن ما سوف يناله وهو يجاهد أمر طبيعي ولكن العاقبة له عند الله . . بل أن ما يناله من الأذى قدر مشترك بينه وبين أعدائه . . وفارق ما بينه وبينهم -مع اختلاف الغاية- أن الذي له عند الله غير الذي لهم . . نقرأ في ذلك على سبيل المثال قول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ



آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿١٣٩﴾ ، أو لا ترى أي قضية ظالمة طاغوتية يقاتل في سبيلها اليهود وأعوانهم اليوم . . فضلاً عن غيرهم في أرجاء وطننا الكبير . . وفي توجيه قرآني بين الفارق في المال . . ويضع في ذلك الحد الأمثل لكيلا نضعف عن المقارعة ، أو يعصف بنا الانهزام النفسي ، نقرأ هذه الكلمات المضيئة . . الأمرة الناهية المربية ﴿١٤٠﴾ وَلَا تَهْنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴿١٤١﴾ .

﴿١٣٩﴾ وَلَا تَهْنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾ وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ، ربنا لا تنزع قلوبنا بعد إذ هديتنا وثبتنا على الحق الذي نزل به الكتاب إنك ولي ذلك والقادر عليه .

وصلّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان وجاهد في سبيل الله إلى يوم الدين .

رجل فقدناه^(١)

الدكتور/ عبدالكريم عثمان

قضى الأستاذ الدكتور عبدالكريم عثمان -رحمه الله- وهو الأخ الغالي، في ريعان الشباب . . ولم يودع بابتسامته الحلوة الراضية أهله الأقربين وأطفاله الصغار وكفى . . ولكنه ودّع الكثير الكثير من قلوب أحبته التي حملت له طوال حياته أكرم معاني المودة والأخوة والتقدير . .

قضى (أبو علاء) وذلك أوسع من الألقاب والعناوين -وهو في أوج القوة ونضرة الحياة على طريق الدعوة إلى الله، وتبصير المسلمين بدينهم، ودعوتهم إلى تبين أمورهم، لإدراك ما يحيط بالجيل الناشئ من مكائد ومؤامرات . . وإحاطة العاملين في حقل المعرفة والدعوة، بطبيعة المعركة التي يخوضها الفكر الإسلامي في وقت تنوعت فيه أسلحة العدو، وتلونت ساحات هجومه على الإسلام وحضارته وذويه .

ومن هنا ومن خلال هذا التصور تبدو الفاجعة الأليمة بوفاة الأخ عبدالكريم -رحمه الله- . . فله ما أخذ ولله ما أعطى وأنا لله وأنا إليه راجعون . . وهو المسؤول سبحانه أن يعوضنا بفقده خير العوض، إنه المعطي والأخذ . . وهو المحمود على كل حال .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة، ١٣٩٢هـ رجب-شعبان، ١٩٧٢م إيلول-تشرين الأول.



ومن أجدر من المؤمن بأن يذكر عند فقد واحد من أحبته الذين لهم في النفس ما لهم ، قول الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ . وقوله جلّت قدرته : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّجَلًّا وَمَنْ يَرِدِ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴾ .

والكلام في هذه الآية وارد في معرض الحديث عن محمد -عليه الصلاة والسلام- والأسوة بما حصل للأنبياء السابقين -صلوات الله عليهم أجمعين- .

ألا وإن كلمات تقال على عجل ليست -يعلم الله- كفاء الأخ عبدالكريم ، ولكنها اللفتة السريعة التي ارجو أن يقدرني الله إلى ما هو أوفى منها ، بحيث يطمئن القلب إلى أن شيئاً من حق الأخ الأعز ، داعيةً وعالمًا وأخاً قد وضع في نصابه أن شاء الله تعالى .

ويوم تكون الأمة على الطريق البناءة كما أراد الله ، مولية وجهها شطر القيم ، تقدر روادها على هذه الطريق . . . وبقدر ما تكون اهتمامات هذه الأمة في أن تجد من يقول الكلمة ، ويرسم المنهج أو يسهم فيه ، في سبيل تحقيق الغاية المثلى ، تشعر بفراغ يحصل عند فقدان واحد من رجالها . . . خصوصاً في زمان يعز فيه الرجال . . . وعند ذلك يتجاوز الأمر حدود العواطف ليدخل في حدود الحكم العقلي وكل ما يمت إلى ما تنشده الأمة بسبب ، إذ يصبح مقياس القرب والبعد بالنسبة للراحل مختلفاً عن المقاييس التي اعتادها الناس .

وأشهد . . لقد علمت في صحبتي المديدة المتقطعة للفقيد -رحمه الله- .
الكثير من المعاني التي هي من سمات الداعية المؤمن الذي ينشد الحقيقة،
ويسعى في مرضاة الله عز وجل . . ولقد كانت آخر فترة طويلة قضيناها معاً
عام ١٣٨٢هـ في القاهرة وكان منها شهر رمضان المبارك بما يحمل من الخير
والخصب، ونفحات القرآن والرحمة والمغفرة . . فلم أرفيه -أكرمه الله
بمغفرته- إلا النفس الهنية الراضية، والتعالي على محقرات الأمور،
والحرص على صحبتته كتاب الله تعالى قراءة وتدبراً .

وكان -إلى سلوكه الذي يسعى جاهداً أن يكون متوائماً مع الإسلام- لا
ينسى دعوته التي يرى فيها شريان الحياة ونبض القلب . وكان لها دائماً من
اهتمامه نصيب كبير والحمد لله، يتمثل ذلك في نظرات فاحصة، وحرص
على سلامة القدوة، والتزود الدائم بما يكون فيه القدرة على العطاء عندما
يدعو واجب الدعوة والعطاء .

وفي مجال العلم . . كان فقيداً مثال الجد والسهر والدأب في تواضع
جم، وتلمس لأبواب الإفادة، ونكران للذات .

والذي يلفت النظر -وهذا قليل في الناس- أنه في سبيل استكمال ما كان
يشعر بأنه فاته من قبل كخليفة واجبة لدراسته عن الغزالي والقاضي
عبدالجبار . . كان لا يني يسأل ويستشير ويناقش ليصل إلى الحقيقة، عارفاً
لكل أخ قدره، تاركاً في المسألة المطروحة لصاحب الاختصاص أن يقول
كلمة الفصل . . وكثيراً ما كان يحصل هذا . . حتى في قراءة عبارة أو كلمة



في مخطوطة ، حيث يتوقف على ذلك فهم قضية من القضايا ، أو تجلية أمر من الأمور .

وبين يدي الآن - وأنا في طريقي إلى السفر ومغادرة الدار - مجموعة من كتب أبي علاء - رحمه الله - ، فيها : سيرة الغزالي ، وهو بحث أعده المؤتمر المجلس الأعلى للآداب والفنون منذ أكثر من عشر سنوات . والدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص - وهو رسالة الماجستير - ، و(ترجمة القاضي عبد الجبار الهمداني) و(تثبيت دلائل النبوة) الذي حققه وهو للقاضي - رحمه الله - . و(نظرة التكليف آراء القاضي عبد الجبار الكلامية) . وهي رسالة الدكتوراه . و(الثقافة الإسلامية)^(١) وهو محاضرة ألقاها في الرياض و(معالم الثقافة الإسلامية) و(نظام الإسلام السياسي) مما ألقاه على طلابه في جامعة الرياض ، أقول : بين يدي هذه المجموعة من آثاره ، ولست بسبيل دراستها أو دراسة واحد منها الآن في هذه العجالة . . . فلذلك وقت آخر .

ولكن الذي أود اثباته أن خطأ ينتظم آثاره جميعاً ، سواء منها ما كان باكورة عمل كما في (سيرة الغزالي) أو ما كان ورقة امتحان كما في رسالتي الماجستير والدكتوراة ، أو ما كان نتاج تدريس أو محاضرة عامة ، أو بحث . . . ذلك الخط هو التطلع إلى الحقيقة ، والسعي وراء المعرفة ، والحرص

(١) وترى الحديث عن الكتاب في مكان آخر من المجلة في دراسة أعدها الأخ الأستاذ محمد منلا غزيل أكرمه الله .

على أن يكون فيما يعمل مرضاة لله عز وجل . . صحيح أنك قد لا توافق عبدالكريم أجزل الله مثوبته ، في كل ما يقول ، أو قد ترى أن أمراً من الأمور كان يعوزه النضج أكثر مما فعل ، أو مخطوطاً ربما احتاج إلى خدمة أكثر . . ولكن . . أينا لا تجد عنده ما هو كذلك ، وأي امرئ يتعرض لخدمة دعوة الإسلام عن طريق المعرفة والتوجيه بلسانه وقلمه ، ثم لا تبصر فيما يقدم ، آثار المعركة الضارية التي يخوضها العاملون ضد الهجمة الشرسة من أعداء الإسلام . . علماً بأن انتاج الأخ عبدالكريم -رحمه الله- هو من الوفرة بحيث ينظر إليه نظرة معينة عند التقويم والنقد .

وإنك واجد -فيما وراء ذلك كله- أن اطاراً عاماً من الاخلاص والمعرفة ، وصفاء النفس ، كان يلف سلوك عبدالكريم في حقل الدعوة والبحث العلمي . . وحسبه بذلك زلفى إلى الله ، وطريقاً إلى مرضاته سبحانه .

ولكم يتعثر القلم ، وتضطرب النفس ، ويجب القلب . . عند تذكر الحادث الجلل ، حيث اللوعة تلف الكلمة ، والأسى يجلل ما يكون من خواطر وذكريات ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ولكن . . ولكن لوعة القلب لا تطفئها دمعة ترسل ، ولا كلمة تقال والكبد المقروحة بفقدان الرجال لا تجعلها صفحة من الرثاء كبداً ليست بذات قروح ، غير أنه الرضا عن الله عز وجل ، والطمأنينة لقضائه وقدره ، والإفادة من صوت النذير أن أخاك إذا ارتحل فأعد نفسك لمثلها وكأن قد . . والعاقل كل العاقل من يرى في ارتحال أخ قريب حبيب مجيباً نداء القدر ،



دعوة لليقظة والتنبه، والاستكانة لحب الدنيا والعافية، ونذيراً من نذر الأجل المحتوم أن ما قضاه الله كائن، ولا حيلة في ذلك ولا شفاعة. . ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ والساعة هنا أقصر ما يمكن أن يتصور من الزمن.

أذكر يا أبا علاء حرقتك على الدعوة وأهلها منذ تلك الأيام البعيدة، وأذكر صفاء نفسك، وأذكر ابتسامتك المشرقة علامة الطمأنينة والرضا. . وأذكر ما كان بيننا من التشاكي ألماً على واقع المسلمين وكيف يمكن أن تبرز ما كان بيننا من التشاكي ألماً على واقع المسلمين وكيف يمكن أن تبرز إرادة التغيير صورة حية في العمل والتطبيق. . وأذكر ما كنت تحرص عليه من تدريب النفس على أن يحب المرء لله ويبغض لله. . أذكر ذلك كله، فتأخذني اللعوة ويستخفني الحادث الجلل. . ثم أعود إلى معاني الإيمان استذكرها وإلى معالم الرضا أمر بها على القلب رويداً رويداً. . فأشعر ببرد الطمأنينة، وأن ما عند الله خير لعباده الأبرار من النعيم المقيم، لا يقاس بما في هذه الدنيا الفانية الزائلة من عناء ونصب، ومصائب يذوب لهلولها القلب من كمد. . وتكاد تذهب نفس المؤمن لشدتها حشرات.

فانعم أيها الأخ الغالي بكرم الله وعطائه. . فللذين أحسنوا الحسنى وزيادة، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. وأرجو أن تكون في عداد من قال الله فيهم: ﴿وَجْهٌ يُؤْمَدُ نَاصِرَةٌ﴾ ٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ. .

رحم الله أبا علاء رحمة واسعة ، وعوضنا بفقده خير العوض وكان لأهله
وولده من بعده ، وكتب له ثواب المجاهدين الأبرار ، وأسكنه الفردوس
الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء
والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ولا نقول إلا ما يرضي ربنا . . وأنا لله وأنا
إليه راجعون . . والحمد لله على كل حال .



حياة الدكتور/ عبد الكريم في سطور^(١)

ولد فقيدنا -رحمه الله- في مدينة حماة عام ١٩٢٩ م لأب مشهود له بالورع والتقوى .

حصل على الشهادة الابتدائية سنة ١٩٤١ م ثم التحق بثانوية ابن رشد ليتابع تحصيله .

تقرر ايضاده في بعثة إلى جامعة القاهرة عام ١٩٤٧ م لينال الشهادة العالية في الفلسفة وعلم الاجتماع فنال درجة الامتياز طوال السنوات الأربع ومارس الكتابة أثناء الدراسة في عدة مقالات عن التأمينات الاجتماعية في الإسلام نشرت في جريدة المنار الدمشقية .

عمل -رحمه الله- مدرساً في مدينة دير الزور فخلف فيها من الآثار مالا ينسى ، ثم عمل في مدينتي حلب وحماه ، فكان نعم المدرس الداعية بعلمه وسلوكه .

أوفدته وزارة التربية إلى جامعة القاهرة عام ١٩٦٠ م ضمن مجموعة من المتفوقين للحصول على شهادة الدكتوراه في الفلسفة الإسلامية وقد حصل عليها بعد خمس سنوات بمرتبة امتياز .

نشر عدداً من المقالات في عدة مجلات منها (حضارة الإسلام) .

عمل مدرساً للثقافة الإسلامية في جامعة الرياض وكان هذا العمل أخصب أيام حياته وأغناها .

كانت وفاته في مدينة حماة عصر الأربعاء ٢١ رجب الخير ١٣٩٢ هـ بعد
مرض لم يمهله طويلاً - رحمه الله - وغفر له وأكرم مثواه.



بين الانفصام.. والاستجابة^(١)

لعل من أحب الأمور إلى نفس المؤمن اليوم، وأدخلها في صعيد الحس بواقع الأمة، أن ترى واحدة من البوارق التي توحى بأن خطوة تحول داخلي في أعماق الفرد المسلم قد آذنت بالظهور. . . ونعني بالتحول ذاك الذي يبدو وهو عنوان استئناف لطريق الالتزام، والمؤاماة الصادقة بين العقيدة والسلوك. . . ذلك لأن العقيدة بالنسبة للمسلم الذي يدرك معنى «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وما لها من أبعاد وأطر، يفترض بداهة أن تكون - هي - منطلق العمل وقاعدة التفكير. وإنما كانت على هذه الشاكلة في دعوتنا، لأن المعنى اللاهوتي المعروف عند غيرنا، بعيد كل البعد عن هذه الساحة، إذ أن للإسلام نظرته الشاملة للإنسان والكون والحياة، كبعد من أبعاد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فالأيمان غير جائز أن ينقسم عن العمل، أو أن يتجافى مع السلوك. . . وإلا كانت التصرفات كلها أشبه بشجرة بتر ساقها عن جذرها فانقطعت عنها الحياة وبئس المصير ما تؤول إليه حالها من بعد ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿وإذا كان الأمر كذلك فليس بدعاً أن تكون البارقة التي نلمح إليها من أحب الأمور إلى نفس المؤمن، لأن الظاهرة التي عانينا منها حيناً من الدهر، وما نزال نعاني منها

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الخامس والسادس، السنة الثالثة عشرة، ١٣٩٢ هـ رجب-شعبان، ١٩٧٢ م-إيلول-تشرين الأول.

اليوم - مما عاد علينا بأسوأ والعواقب - هي ظاهرة الانفصام عند الفرد والجماعة - إلا من رحم ربك - بين العقيدة والالتزام بموجباتها حتى بات ذلك وكأنه طابع يطبع حياة المسلمين في عالمهم الكبير ، فالعقيدة وما توجبه في جانب ، والالتزام الذي هو صورة عن التصديق والقناعة والاطمئنان إلى الإيمان ومعطياته في عالمي الغيب والشهادة في جانب آخر .

وإذا وضعنا هذه الظاهرة التي أصابت من الأمة مقتلاً ، في إطارها الصحيح الذي هو نسيج شمول دعوة الإسلام وشريعته ، أمكن أن نتصور أبعاد خطورتها ، وأن نفسر الكثير من أحداث التاريخ ووقائعه في ضوء هذا التصور . ولولا خشية الأملال لالححت على هذه النقطة أكثر وأكثر لأن وضع الأور في نصابها مؤذن بسلامة الاتجاه سعياً وراء الحل المرتجى والغاية المنشودة ، وعون على التغلب على ظاهرة لا بد من التغلب عليها .

إن الانفصام بين العقيدة والسلوك - ضمن هذا الاطار من شمول دعوة الإسلام ونظراته الكلية للإنسان والكون والحياة - يبعدك عن النظرة الضيقة التي يضيق معها مفهوم السلوك المتوائم مع العقيدة ، حتى ينحصر في ترديد الشهادتين على اللسان فحسب ، وممارسة نوع من أنواع العبادة كعلاقة بين المسلم وبين الله عز وجل ، بعيداً عن ساحة العبودية الصادقة لله في الجوانب الأخرى من الحياة ، التي أولاهها الإسلام - بطبيعة شموله وعمقه - ما هي جديرة به من العناية ، وأعطاهها مزيداً من الاهتمام ، لأنه دين ودنيا ، وعقيدة وشريعة ، فهو دين الحياة ، وهو منهج متكامل لها ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ



اللَّهُ صِبْغَةً ﴿١﴾ ومن بعد: فبنية الفرد المسلم في عقيدته وفكره وقناعاته مرتبطة أياً ارتباطاً بسلوكه ضمن هذا الإطار، وفي ظلال تلك النظرة الإسلامية الشاملة للحياة في جميع جوانبها دون إفراط أو تفريط .

ولعل سلامة وضع الظاهرة موضعها الطبيعي أيضاً، مما يبعد عن تصور المشكلة الناتجة عن ذلك، على أنها مشكلة فردية بحتة لا علاقة لها بالجماعة من قريب أو بعيد، ذلك أن التخلخل في بنية الفرد من هذه الناحية، ينعكس أسوأ انعكاس على الجماعة، وأنى للجماعة أن تكون سليمة الأركان، راسخة البنيان، قادرة على مواجهة التحدي، ولبناتها تعاني من ذلك الانفصام الذي جرنا إلى الولايات منذ أمد، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إن الإسلام - وهو شرعة الحكيم الخبير ومنهاجه - قد رعى الفرد - من أجل الجماعة - بدءاً من اختيار الزوجة الصالحة «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» ومروراً بكل مراحل الحياة ومقتضياتها، في أشواق الإنسان وتطلعاته، وفي فطرته وغرائزه، وفي طبيعة تكوينه وحاجاته على وجه العموم . . . وانتهاء بموته وما يحيط بذلك وما يترتب عليه من أحكام . فكان طبيعياً في مقابل ذلك، أن يضعه الإسلام أمام مسؤولياته من اللحظة التي يبلغ فيها سن التكليف، فأهلية التكليف جعلته أهلاً للخطاب . . . وكم تكون النتائج مذهلة، والتناقض واضحاً، إذ وقف على شفا جرف هار، فاستمتع بالمغائم، وأعفى نفسه - حباً بالعافية وسيراً مع الهوى - من المسؤوليات والتبعات، وراح لا يلوي على شيء من أحكام الله، ولا يلتزم بأمر من

أمور الدين ، وأنصرف في تصوره وحكمه على الوقائع إلى ساحة الجاهلية ، وأقام ممسياً مصباحاً على ذلك المرض العضال الذي يستمد وجوده العفن من الانفصام المزري بين العقيدة والسلوك .

إن حرصنا على أن تضيء الحقيقة ظلام النفوس -والأمة تعاني ما تعاني- يحملنا على القول بأن الفرد الذي ينتابه هذا المرض يشكل في الأمة جزءاً من أكوام متنافرة لا تصلح للبناء ، إذ لا يحركها محور ، ولا ينتظمها فكر ، فهي أكداس محسوبة على الأمة ولكنها معظلة مضلة في كثير من الأحيان . . ولن نحتاج إلى كير من الذكاء والفتانة حتى نفسر تلك النسبة العكسية بين عدد المسلمين اليوم والمحصلة الظالمة التي أعمى قناتها الأبصار والكثير من البصائر . وبعض الأمثلة في واقعنا مع اليهود ، وما حصل في شبه القارة الهندية ، من قريب ، فيه غناء مقنع لمن أراد مقنعا . .

وإذا كان التاريخ سلسلة متكاملة الحلقات ، وكان لزاماً أن نفيد من فلسفة الوقائع ، متبينين إلى أي حد أسهمت في المد الإسلامي عبر العصور . إن علينا أن نذكر أن القاعدة الصلبة التي قامت على كواهلها دولة الإسلام الأولى ، وانتظمها بناء المجتمع الإسلامي في تجربته الرائدة ، إنما صلحت لحمل العبء لأن خير ما اتسمت به شخصية الفرد والجماعة ، يومذاك ، ذلك التوافق المطلق بين العقيدة والسلوك ، واخضاع جميع التصرفات إلى فاعلية العقيدة على اختلاف المستويات والساحات . . حتى وصل الأمر إلى حد الحساسية من أن يكون هناك أي بادرة انفصام أو شبه انفصام بين المؤمن وبين التزامه لشرعة الله ، ثمرة ، وصورة عن العهد الذي عاهد الله عليه .



ولقد ظهر ذلك عند الفرد العادي الذي قد لا يؤبه له ، وعند الحاكم والمحكوم والمرأة والرجل على حد سواء ، حتى يجيء الرجل -وقد زلت قدمه- إلى الرسول صلوات الله وسلامه عليه- فيقول : يا رسول الله زينتُ فطهرني . . إن شيئاً كان يصرخ في أعماقه هو أقوى من حب الحياة ، وأكبر سلطاناً من الموت . . ولا يمنع نساء الانصار الحياء من أن تسأل الواحدة منهن عن أمر دينها في أخص ما يخص المرأة ، حرصاً على أن تكون عبادتها صحيحة تقربها إلى الله ، وفي حالة من المغاصبة بين أوس بن الصامت وزوجه خوله يقول لها : أنت علي كظهر أمي . . فتسرع باكية إلى الرسول تقص عليه الواقعة ، مبتغية عنده حكم الله خشية أن يكون بقاؤها في بيت زوجها مخالفاً لشرعة الله ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ .

وتدفع الرغبة في تحري الحلال والوقوف عند أمر الله زوجة أبي سفيان لأن تسأل رسول الله عن شيء محدود تأخذه من مال زوجها . . موضحة له كل الملابس . . إنها تريد أن تكون على المحجة البيضاء في كل تصرفاتها وسلوكها حتى في هذا القدر اليسير من المال .

ويحمل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الدقيق على ظهره للأطفال الجياع ويقول خوفاً من الله تعالى وتحسباً من الوقوع في دعوى من الإيمان والإخلاص لا دليل عليها «ليت أم عمر لم تلد عمر» وأكثر من هذا : لقد كان يخشى على نفسه النفاق في حياة الرسول -صلوات الله عليه- وعمر من تعلم .

إن هذه الوقائع في تاريخنا -ومصلها كثير وكثير- أمانة الله في أعناقها، وحجته علينا يوم يحشر الناس لرب العالمين، ولقد يكون تدبرها بإيمان المؤمنين وعزمات الرجال، إسهاماً في تفجر جديد من أعماق النفوس نحن بأمس الحاجة إليه . . والعزيمة الصادقة عنوان وأيُّ عنوان . . ولكن لابد من القناعة الفكرية الواعية كيما تؤدي العزيمة دورها من جديد . . وعندما نقول : «الفكرية» فإنما نعني ما به تكون العقيدة دم الفكرة الدافق الذي يمدها بالحياة؛ فهي ليست جماداً مبتوتاً عن عنصر الحياة، وليس صابحها مومياء في متحف .

إنها الفكرة التي تجعل الفرد يحسُّ بأعماقه أن سعيه وراء المطابقة بين العقيدة والعمل حاجة طبيعته -بل قل ضرورة- هي بالنسبة إليه كالرئة للتنفس والقلب للحياة . . إنه يحسُّ بزن هذا الأمر يمثل ذاته ويعني وجوده . . وانتهاك أي حرمة من حرمة الله انتهاك لحرمة وذاتيته وكرامته . وعندما يولي ظهره لمقاييس الإسلام ويرضى بما يكون من جفاء الأمة لقرآنها ومفهوماتها الأصيلة، وكفرانها لقيمها التي كانت الاشعاع الحصري، والبذرة الصالحة لتكريم الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة . . عندما يفعل ذلك يشعر وكأنه غير موجود، فهو في عداد الموتى وإن كان يمشي على الأرض برجلين، ويشارك ذوات الأربع بسد نهيمته من جوعة المعدة وغيرها من الجوعات .

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء



ألا إن الذين تثقلهم أوزار الانفصام بين العقيدة والسلوك هم أضعف من أن يقفوا في وجه التحديات . . والطريق التي لا حول عنها لعاقل يقض عليه مرارة الأسى على ما نحن فيه ، مسارعة لا تعرف التلفت إلى العمل بما يدعو إليه كلام ربنا الحكيم الخبير ، الكلام الذي تربي في محضنه رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فصدقهم الله وعده بالنصر والتمكين ذلكم قوله جلّ وعلا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ولا والله لن تبلغ الأمة ما يريد المخلصون فيها حتى تتحول عن الانفصام إلى الاستجابة من جديد ، وحتى تحزم أمرها ، وتعزم العزيمة التي تستعلي قوية فوق الركام وفوق العوائق ، وهي أن فعلت ذلك جاءها الخير من حيث تدري ولا تدري . . ﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ومن وراء النصر والتمكين في الدنيا جنة عرضها السماوات والأرض أعدت لمن أسعدهم الله بالاستجابة لدعوة الحياة فكانوا من المجاهدين الصابرين ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ . ولله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .

عاد شهر رمضان.. والعود أحمد^(١)

وهكذا يعود إلينا شهر رمضان . . ونحن أحوج ما نكون إلى اليقظة التي تقفنا على الخط الواضح المستقيم، يعود -والعود أحمد- وأرض الإسلام متعطشة إلى الوعي النافذ الذي يجعلنا على مستوى الأحداث نواجهها بوضوح رؤية وصدق عزيمة؛ فالتركة مثقلة، والواقع مشحون بالمتاعب والمصاعب . . فكما تعاني الأمة من تداعي الأعداء وتببيتهم المكائد . . فهي تعاني أكثر وأكثر من إعراضها عن منهج الله وانتكاس كثير من العقول والقلوب والعياذ بجبار السماوات والأرض .

ولعل من رحمة الله بهذه الأمة أن جعل لها من الشرعة وأعطا يعظها . ومن الأحكام المطلوب التزامها مذكراً يذكرها . . عسى أن يستيقظ الغافل ويشد أزر المجاهد العامل .

يعود شهر رمضان وهو شهر القرآن والجهد، وموسم العبادة والمغفرة والعق من النار؛ وفي جعبته الميمونة ما لا يعده عاد من صنوف الخير ودروب الهدى . . وذلك كائن في كل عام منذ أصاب الجزيرة العربية غيث القرآن العميم، وأشرق على المدينة المنورة شمس المجتمع الإسلامي الأمثل الذي تولى بناء وقياده بعد الهجرة سيدنا محمد -عليه الصلاة والسلام- .

نعم إن ذلك كائن من رمضان في كل عام . . فالخصائص هي الخصائص

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السابع، السنة الخامسة عشرة، رمضان ١٣٩٤ هـ، تشرين أول ١٩٧٤ م.



والسمات هي السمات ، لأن الزمان هو الزمان ، والشرعة هي الشرعة ووقائع السيرة والجهاد لا تبلى جدتها على الدهر . . ناهيك عن أن القرآن هو القرآن الذي نزل به جبريل على رسولنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وبلغه الرسول الكريم إلى الناس . وكما حفظه الله من عوادي التغيير والتحريف . . هياً من العلماء العاملين من قاموا على حفظ بيانه وهو السنة .

ولكن القضية قضية هذه الأمة في أجيالها المتعاقبة . . أن تكون على مستوى القناعة والعمل . . فكم تبذل من جهود . . وتنقضي شهور وسنون في اقناع بعض المسلمين بالإسلام . . والتذكير بأوليات الدين وابعديات معنى النسبة إلى هذه الدعوة المباركة التي جاء بها وحياً من عند ربه محمد - عليه الصلاة والسلام - .

إنها قضيتنا نحن . . في مقدار استعدادنا لتقبل هذا الخير - عملاً - من جديد . . . في موقفنا من كتاب الله الذي أنزل في رمضان ؛ هل يظل في حياتنا مسلاة عادية حيناً ، ونواحا على المقابر حيناً آخر؟؟ أم أنا نحكمه في كل صغيرة وكبيرة من حياتنا . وفي غضون ذلك : يكون الأخذ من رمضان والإفادة من كريم عطائه . . والقيام بحقه كاملاً غير منقوص . . والتفاعل الصادق مع ذكرياته . . وانصافه من أنفسنا ، بأن نجدد العزم ، ونشمر عن ساعد الجد . . على صعيد التربية . . وفي ساحات المصطلحات والمفاهيم ، والمدلول الحقيقي للصوم في شريعة الإسلام . . كيما يكون لنا منه موسم الصلة بالله عن طريق الصيام والقيام والتلاوة مع التدبر . . تلك

الصلة التي تحرر من العبودية لكل التوافه الفكرية والعملية التي --- علينا في ممارساتنا اليومية للحياة، سواء أكان ذلك فيما بيننا، أو فيما بيننا وبين أعدائنا؛ حيث الضرورة لانبثاق حب الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، مع الوعي الكامل لطبيعة الأرض التي يتحرك عليها المسلمون اليوم في شتى أقطارهم، وطبيعة الظروف التي كثيراً ما تتدخل في قضايانا ومشاكلنا.

وبعد هذا.. . كيما يكون لنا من رمضان ساحات جديدة من ضياء الإخوة والمساواة وشحن الهمم ليخرج التصور إلى حركة في عالم الواقع.

إن مئات الملايين التي تحكمها شرعة الإمساك عن المفطر.. . كما هو توقيت الافطار حسب الوضع الجغرافي على هذا الكوكب.. . هذه المئات من الملايين جدير بها أن تبصر قضاياها بحرارة الإخوة ونفحات الإيمان فتستعلي على المعوقات التي يحاول الأبالسة أن يضعوها في طريق ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

إنا ونحن نتطلع مع القارئ الكريم إلى نفحة ربانية من خلال الحديث عن رمضان.. . نعاود القول تذكراً وتلبية لأمانة الكلمة: إن الصيام من أعمق الأمور التعبية عند المسلم لما أنه بينه وبين الله عز وجل، وفي الوقت نفسه.. . لعله في مقدمة الفرائض التي تحمل السمة الجماعية لما أنه امساك على صعيد المكلفين في العالم الإسلامي كله.. . وعلى تعدد المطالع في بلاد الإسلام حسب الموقع لاجغرافي، يظل هذا الحزام المضيء من الإمساك المشترك عن المفطر من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، عنواناً عريضاً لحركة



أعمق وأعمق في حياة المسلمين -على اختلاف الألسنة والألوان والبدان- أن لو استطعنا أن نزيل الركाम من طريق من ولانا الله مسؤوليتهم على صعيد الفكر والمعرفة ، فنجلو صفحات قلوبهم وعقولهم مما لصق بها من أفاعيل التبشير والاستشراق . وإن شئت فقل والاستغراب ، ويكون في مقدورنا -إذا سلم المنهج والأسلوب- أن نبذر البذرة الطيبة في الأرض الصالحة المنبتة ، وعندها نكون قد خطونا الخطوة الأولى على طريق وعي يعيد للأمة وجودها الذاتي الذي فقدت الكثير من جوانبه نتيجة كفرانها بقيم مثلى ، سار الأولون على هديها البناء ، وأوجدوا الكيان الحضاري السليم .

أن يحكم تصرفات الفرد سلطان الأمانة من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس . . وإن يشعر أنه ليس وحيداً في صنيعه هذا -وإنما معه عشرات بل مئات الملايين- وأن يمارس الحياة -وهو صائم- فيحس بأن شرعة الإسلام معه في كل لحظة . . وأنه -مع هذا- ليس في الدين من حرج فإذا توافر عذر الافطار كان له أن يفطر . . وقد يكون فطره واجباً في بعض الحالات . . وبعد ذلك كله . . أن يحس الفرد -وهو المخلوق الضعيف أمام مولاه- أنه دائماً على مائدة رب العالمين عطاء وثواباً ومغفرة -ومن بعد- عتقاً من النار . . قضية جديرة كل ادجدارة باهتمام المربين والدعاة إلى الله . . كيما تعود النفوس إلى حسن استقبال ما يأتي به رمضان ، وما تحمله أيامه المباركة ولياليه من خير يعز على الحصر . . وإنها لقضية تحمل في أحد وجهيها صورة الوعي الأمين الذي هو رئة التنفس على صعيد الفكر ، بحيث

يدرك الفرد حقيقة الصيام ومعناه ومدلولاته بعيداً عن لوثات أبالسة الانس والجن وأهل الزيغ والأهواء .

أما الوجه الآخر : فهو وجه الفيئة إلى واحة التقوى بالصيام ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وهذه الواحة الطاهرة المضيفة كفيلة بأن تبدل حياة الإنسان تبديلاً جذرياً وتحول دون ودون الضياع . . إنها الضمانة السليمة فيما يواجهه الكثير من فتياننا وفتياتنا من دواعي القلق ، وحب التقليد الأعمى ، والتطلع دائماً إلى الفتات المتناثر من موائد الآخرين . . فهم ليسوا هنا . . وليسوا هناك . الأسماء شيء . . والمسميات شيء آخر . . العناوين على صعيد . . والحقائق على صعيد آخر .

وإذا توافر هذا الوعي بوجهيه ، باتت فريضة الصيام - كما أرادها الله عملية بناء - وترميم أحياناً - في كيان الأمة ، وسعي أمثل إلى الأمام على مستوى الفرد والجماعة والأمة . . وباتت حرمة الصيام وكيان شهر الصيام من النظام العام الذي لا يحق لكائن من كان أن يخرجه أو يتجاوزته لأنه بذلك يخرش مشاعر الأمة ويتجاوز حدودها . . وعندها لن تقع عينك على ما تقعان عليه من المناظر المؤذية التي تأخذ - زوراً وبهتاناً - عناوين الحرية !! والتقدم - أو التقهقر - الحضاري .

وأكثر من هذا يكون في مقدور الأمة بهذا الوعي - كل بقدر ما يلي من المسؤولية - أن تكشف زيف ما يكون من قالة السوء في أمر الصيام ، وأن



تقف الموقف الذي تمليه العقيدة - وصدق الانساب إلى رسالة الإسلام تجاه من يعطي نفسه حق الفتوى في إجبار فئة من مواطنيه على الفطر في رمضان بحجة الحفاظ على الانتاج وسوية التنمية - ويا لأساطين الاقتصاد - وما هي في حقيقة الأمر إلا شهوات باضت وفرخت . . وتنكر تافه للأمة في عقيدتها وشريعتها وتراثها . . وعنوان على أن الحياء قد غاض من بعض النفوس ، وإذا ذهب الحياء ذهب كل شيء . . نعم إذا ذهب الحياء ذهب كل شيء . . وصدق رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - حيث يقول : إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

ودليل ذلك أن هذا الرجل قد أتبع ما حصل قبل سنين بشأن الصيام ، بتصریحات!!! عن القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . حين راح يتقمم ما قاله بعض أعداء الإسلام ، ويلقي به على ملأ من الناس بكل خجل مخجل وذوق علقمي!!! راضياً لنفسه أن يخرج - بما يقول - عن دائرة كان من الخير له أن لا يخرج منها . . علماً بزن المسلمين اليوم لا ينقصهم العدد . . ولكن المسؤولية أمام الله والتاريخ والأجيال كبيرة وكبيرة أن لو عقل المغرمون بالقاء الكلام بعيداً عن مفهوم الدين وسياس العقل!!!

لست الآن في معرض الرد على هذا الغشاء ، فقد قام بذلك نفر طيب من العلماء الغيورين فقط جزاهم الله كل خير ، لقد قاموا بما يلزمون القيام به . . ولكننا لذين أريده هنا ما أشرت إليه في صدر الكلام ، من أن القضية

حين ننظر إليها بعمق تكمن في موقف المسلمين من فرض الصيام وهو ركن من أركان الإسلام، ومن الكتاب الذي أنزله الله فيه .

لقد شاء الله أن تكون أعز معارك الإسلام الحاسمة في رمضان . . وكان جنود الله يصومون عن الطعام ليفطروا على النصر ، ويستقبلون الموت بثغور باسمه لتكتب لهم الشهادة التي هي أعز أمانيتهم . وعندما يعدو الداعي إلى الفطر فهم عند سرعة الله . . كما حصل يوم التوجه إلى الفتح .

إن لأرجو في خاتمة المطاف - أن تزال العقبات وتتضح السبل كيما يكون في مقدور المربين والدعاة إلى الله أن يعودوا بالجيل الحائر إلى الله ، فتنصب كل الطاقات في مرضاة الله عز وجل ، ويعود الصيام في حاية الأمة موئل بطولة وإيمان ، أصحابه رهبان في الليل أسود في في النهار . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .



من قواعد البناء^(١)

ليس من شأن أمتنا -وهي صاحبة أكرم رسالة أن تهمل- عبر التفاؤل أو التشاؤم، ما هو من الأوليات في بنيتها العامة بوصفها ذات رسالة . . كما أنه من القواعد التي قام عليها البناء في مجتمع المدينة الذي صنعه الرسول - عليه الصلاة والسلام-، وواجه به القديم الموروث، والتحديات الإقليمية والعالمية . . ذلك المجتمع الذي قدر على المواجهة لأنه كان في قيادته وحركته في ميدان الممارسة لشؤون الحياة، مجتمع أصحاب الرسالة الذين بدأوا مع التاريخ رحلة جديدة ووضعوا بصماتهم على تلك الحياة يطبعونها بطابع الإنسانية والخير . .

نعم ليس من شأن هذه الأمة أن تهمل فضلاً عن أن تجفو . . وتلك القواعد تبرز ذلك التكامل بين طبيعة الرسالة، وبين ما يجب أن يكون عليه المجتمع الذي يراد له أن يكون الصورة الناطقة لمبادئها ودعوتها . . لأن كل الشعب تلتقي من بعد على رباط العقيدة التي منها ينبثق النظام . . وعلى هداها يضع المجتمع بأفراده وجماعته القدم بثبات ورسوخ على طريق الدعوة والتطبيق .

وإن من هذه القواعد ما حملته إلينا سورة العصر بآياتها الثلاث . . حيث قلت الكلمات . . وغزرت المعاني . . فكانت تلك السورة الصغيرة بحجمها -وكل ما في القرآن عظيم- غنية بالعتاء غناء يشدنا إلى أن نذكر بقلوب وجله قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ .

﴿وَالْعَصْرِ ١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ . وإنها للسورة التي يستظهرها الجميع ولكن الذي يبدو ضرورة ملحّة -والآة على عتبة يقظة جديدة- أن تتحول الكلمات من الذاكرة إلى التذكر . . فتدخل المعاني حياة الأمة من أوسع الأبواب . . فاعلة مؤثرة . . تستل من النفوس ضعفها وانهزامها . . وتشيع في أجيائها القوة والطمأنينة . . بحيث يتقاصر ما يكون من قلبها الدهر . . وتماثل أهل الضلال . . وما يهب علينا من الوافد الدخيل . . دون أن يحقق أغراضه في تنحيتها عن الطريق . . وتصديق أكذوبة أننا لسنا على شيء أن لم نفكر بعقول الآخرين . .

وإنك واجد أن السورة تقدم التعريف الكامل لأهل الريح عند الله عز وجل وأن ما عداهم هم أهل الخسار . . فقد أقسم الله تعالى بالعصر ، وثنى على ذلك بتأكيدين أن الإنسان في خسر يشتمله ويحيط به . . إلا أن يعي أمره ويسلك السبيل الراشدة . . وإنه لتحديد يتخطى حدود الزمان والمكان . . فأهل الربح هم الذين يتحركون ضمن حدود تلك المعالم التي رسمتها السورة المباركة ومن عداهم محاط به واقع في حمأة الضياع والهلاك وهذه هي القضية الكبرى التي من مشتملاتها بعض قواعد البناء في أبجدياتها وأوليياتها . . الإنسان . . الإيمان . . العمل الصالح . . التواصي بالحق . . التواص بالصبر . . إنها المعالم التي تحمل القدرة على استمرار الإنسان الذي حظي بتكريم الله ، في أن يكون خليفة في الأرض . . وعلى تأهيله أن يعمل



ويتج ويتنصر على التحديات التي تواجه الحق . . ثم أن يضع ثمرات ذلك على طريق أخيه الإنسان . . كيما تكون روافد للنهر الكبير في طول التاريخ وعرضه . .

وإنسانية الإنسان . . في فطرته . . في عقله وقلبه . . في طاقاته ومشاعره . . وكل مقوماته . . بشمول وتوازن . . إنما تتحقق بالإيمان . . الإيمان بكل أبعاده ومراميه ومقتضياته . إيمان بالله الواحد القادر . . الذي له الخلق والأمر ، ويده الرزق والأجل . . وإيما بالملائكة عباد المكرمين ، وسفرائه إلى رسله -عليهم الصلاة والسلام- . . وبالكتب التي أنزلها على صفوة خلقه المرسلين ، تحمل الهداية للناس . . وآخرها القرآن الكريم الذي حفظه الله من جناية التحريف والتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ، وإيمان بالذين بلغوا عن الله ما أراد ، وكان سيدهم وخاتمهم محمد -عليه وعليهم الصلاة والسلام- . وإيمان باليوم الآخر . . يوم القسطاس المستقيم ، حيث يجزي الناس بأعمالهم أن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . . ويتحقق العدل المطلق ولا تظلم نفس شيئاً . . ومن أجل هذا كاد الإيمان باليوم الآخر أن يكون ضرورة عقلية بجانب الخبر الصادق عن وقوعه . . ثم إيمان بالقدر . . فالله الخالق المدبر أقام ملكوته نظاماً ، وهو يتصرف بملكه وفق هذا النظام الذي شاءه . . والمؤمن يعمل . . ويعلم ، ويفوض الأمر إلى الله ، ويرضى -من بعد- بقضاء الله وقدره . . وذلك منتهى الإيجابية وإفساح المجال أمام الإنسان ليتعايش مع الكون والحياة على أفضل وجه وأكمل .

وليكون هذا لإيمان نافعاً لا بد أن يزينه العمل الصالح لأنه ثمرة الإيمان ولعل من الضرورة بمكان . . أن يفهم ذلك في ضوء المنهج الرباني الذي هو منهج كامل للحياة . . وإذن فإزام أن يكون العمل الصالح سمة التحرك في جميع الميادين كما يرسمه الإسلام ، لأن ذلك التزام بما وضعه خالق الحياة . . وإلا رغمت أنوفنا بالتناقض ، وسقطنا في حمأة الضياع . . إنه العمل . . وإنه صالح العمل . . لا يقتصر على المسجد . . وإنما المسجد ميدانه الأول ورمز ارتباط الحركة بعقيدة التوحيد . . ويتابع المؤمن مسيرته بالعمل الصالح حيثما كان . . وأينما توجه . . وفي أي حقل من حقول تخصصه وما يزاو من مهمات . . ولعلنا لا ننتهم بالتنطع - بعد التذكير بأركان الإيمان - إذا ذكرنا هنا قول النبي - صلى الله عليه وسلم - : « جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً » فالأرض كلها مسجد وطهور . . وإذن فالعمل الصالح ليس حبيس ذلك المسجد . . مقصوراً عليه وكفى . .

فبجانب ما يعطي الحديث من اليسر في أمر العبادة وإيضاح أن صلة العبد بربه لا تخضع - كما هو الأمر عند غيرنا - لطقوس وشكليات يذكر المؤمن - والله أعلم - إن كلمة الله يجب أن تتحقق على كل أرض لأنها خلق من خلقه وهو سبحانه الخالق والمعبود . .

ومن هنا اتسعت دائرة العمل الصالح وزمره وميادينه ، خذ مثلاً بعض ما ورد في سورة التوبة بهذا الشأن لترى أي مرامي يبعدة يرمي إليها لاقراً في صراع الحق مع الباطل والكفر مع الإيمان . . وكيف أن العمل الصالح يتناول



حتى أبسط الأمور عندما يكون مراداً بها وجه الله والعمل على أَعْلَاء كلمته . . دلالة أن القضية الكبرى يجب أن تملك على المؤمن زمام نفسه وتصرفاته وأن تحظى بالمرتب الأولى من اهتماماته .

ذلكم قوله جل وعلا: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وإذا كانت مميزات الإنسان البعيد عن الخسر إيماناً وعملاً صالحاً بهذه الآماد التي ألحنا إليها، فإنه لن يستطيع أداء رسالته في الحياة فريداً، بل لابد أن يتعاون مع أخيه الإنسان . . والرحلة شاق وطويلة . . والعمل الصالح بعد الإيمان يحتاج إلى عزمات الرجال . . وإذن فلا بد من التواصل بين المؤمنين حيث تعلن الجماعة المسلمة إعلانها بكيانها المتميز ووجهتها الموحدة . . التواصل بالحق الذي هو عنوان رسالة الإنسان كما أرادها الله . . والتواصي بالصبر على تحمل تبعات الحق، في أن يكون واضحاً، في أن يأخذ طريقه في الوجود، في أن يقتحم معاقل السوء والباطل . . في أن ينتصر في ميادين الصراع . . الصراع مع النفس ومع أعداء الحق في كل زمان . . وبمقدار سلامة تصورنا للحق الذي هو عنوان رسالة هذه الأمة التي

ابتعث الله بها نبيه -عليه الصلاة والسلام- ، نكون قادرين على محاسبة أنفسنا لحملها بشجاعة إلى حيث تعاون المؤمن مع أخيه المؤمن ، ضرورة القدرة على حمل العبء ، وإلى حيث استشعار الواحد في أن يتبادل المؤمن معه الوصية والتذكير على طريق الرحلة الشاقة الطويلة إلى الجنة . . فالتواصي بالحق باعث لليقظة . . ومبعدع التلفت والاسترخاء عند الرغبة والمغريات . . ومثبت أمين عندما تعوي الذئاب في وجوه الرواد . . وتنبت تحت أقدامهم نابتة الشوك وتتلقى على منعطفات الطريق أفاعي الانذار والترهيب . . صورة للطغيان والظلم حين تواجه الحجة بالسياط . . ويستبدل الفكر بالعصا . . ويستعاض عن الحوار بازهاق الروح . . وانظر كم وضع اليهود واعوانهم على وقع أقدامها عبر التاريخ . . وكم يضعون اليوم من الأذى . . تسمله إلى أجيالنا عناوين الخداع والبريق . . وكم هي حالقة فتنة زن تغفل عن الأذى أو نستكين للظلم . . أو يعيش أبحارنا الزخرف ، فنخدع عن مسارب الفتنة وأسباب الوهن .

ألا وإن هذا كله قمين بأن يكون معه في ظلال المنهج الرباني . . التواصي بالصبر . . والصبر . . هذه الكلمة التي كانت قطرات الندى على صفحات القرآن الكريم -ول القرآن عطر وندى وخير وهدي- هذه الكلمة بأحرفها الثلاثة ومدلولها الحقيقي هي من نبية الرواد العقلية والقلبية في موضع الضرورة . . ضرورة الهواء للإنسان . . وإلا خانتهم العزيمة ، وسقطوا على منعطفات الدروب عند أول بادرة من بوادر الامتحان . . فالتواصي بالصبر



يرتفع بالجماعة إلى حيث تتضاعف مقدرتها على المواجهة . . بما ذكر بالله الذي بيده الآجال والأرزاق . . وبما يثير في النفوس من الاحساس الدائم الصادق بوحدة الهدف وسلامة الوجهة . . ولا تسل عما يكون وراء ذلك من العزم وحازم الإرادة . . واستعذاب الصعاب . . والمؤمن المؤمن . . قوي بأخيه . . من أجل هذا - وهو قليل من كثير - قال الله جلت حكمته : ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

إنا ونحن نستلهم بعضاً من معاني سورة العصر المباركة . . نقع على قواعد البناء الأولي التي بنت يد النبوة الإنسان المسلم في ظلها . . ذلك أن تلك الآيات الثلاث قد كشفت عن الفيصل الحق بين العماية والضلالة وميزت بين الربح والخسارة . . فرسمت معالم الطريق . . وشدت الإنسان إلى أخيه الإنسان . . وأوضحت بما لا وكس فيه ولا شطط ، أن العقيدة هي النسب الأصيل بين أبنائها حين قالت : آمنوا . وأعملوا . . وتواصوا بصيغة الجمع . . بعد أن ذكرت الإنسان الجنس بصيغة المفرد في مطلعها ، كما أدخلت المسلم في طور الإيجابية والبناء حين قرنت بين الإيمان والعمل الصالح وإن هذا العمل هو برهان ذلك الإيمان . . وعلى الرواد أن يذكروا دائماً وهم يحملون رسالة امتهم في انقاذ البشرية من عماية الضلالة ، وإبعاد الإنسان عن مزلق الضياع والخسار بادئين بما يجب البدء به في هذا الميدان . . عليهم أن يذكروا هذه السمة الجماعية التي أرادت السورة أن تبطع بها عمل المؤمنين . . حيث الوحدة في العقيدة والهدف وصحة الانتساب إلى منهج

الله وتحكيم مقاييس هذا المنهج في القيم، والحكم بالربح أو اخسار في كل عصر ومصر . . مما يباعد أهل العقيدة عن التمزق والانفصام .

كما عليهم أن يذكروا أن سورة العصر قد فتحت الأبصار والبصائر على أن التواصي بالحق والتواصي بالصبر هما صمام الأمان الذي يدفع المخاطر، ويقي - بمعونة الله - أهل العقيدة مزلق الانحراف في التصور والسلوك . . وإذا كانت هذه السورة تحمل كل هذا الثقل على طريق أصحاب الرسالة أينما كانوا وفي أي عصر وجدوا، لم يكن بدعا أن يكون الرواد الأول معها بالمشاعر والعمل، حتى روي في الصحيح أن الرجلين من أصحاب الرسول - عليه الصلاة والسلام - كانا إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر ثم يسلم أحدهما على الآخر . رأيت إلى هذا الموثق الإلهي على الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر . . إنها قواعد البناء التي لا بد من تمثلها وإعطائها مواقعها الطبيعية من الحركة والتأثير والفاعلية . . والله المسؤول أن ينزل السكينة . . ويربط على القلوب . . ويثبت الأقدام . . إنه نعم المولى ونعم النصير وله الحمد في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .



حين نذكر الأقصى^(١)

الناظرون في واقع أمتنا كما هو اليوم ربما أخذتهم الصورة التي أسهمت في صنعها السنون ، ووجهت إلى مواقع النظر إليها أيد لا ترقب في الحق إلا ولا ذمة ، وساعد على ذلك شيء من الاسترخاء عند أبناء الأمة أنفسهم ، بتقاعسهم عن العلم حيناً ، وقعودهم عن الجهاد حيناً آخر ، وتوهمهم وراء ذلك كله - وهذا أس البلاء - ، إن ما يقوله أعداؤهم هو القول السليم لأنه يقوم على البحث الحر لا يبلغ الزور أن يكون بعض باطله المزوق والعياذ بالله .

ولقد آن للعقول والقلوب أن تتفتح وتبصر لتعمل عملها ، وتضع الأمور مواضعها فلا يداخلها غبش الصورة وزيف الحكم من حيث تشعر أو لا تشعر ، ولقد آن لهذا الجيل الذي كان من قدره أن يحصد كثيراً من أشواك الأمس أن يذكر فلا ينسى ، أن كثيراً من الأحابيل والهرطقات صيغت بخبث على شكل أفكار تصلح - في الوهم - أن تكون أساس البناء ، ومنها أسطورة الرجل المريض التي أراد أولئك الأناسي أن يعيش الشرق تحت ظلها الأسود فترة طويلة من الزمن ، وإغماهي في أكثر ملامحها من صنع أيديهم حقداً على القوة النابعة من الإسلام الذي يجعل جنسية المسلم عقيدته ، وإن ساعد على تكامل الشكل فيها واقع يتسم في بعض جوانبه بالتفلسف من التزام الإسلام ولغته .

لقد آن لهذا الجيل أن يذكر ذلك غير معرض عن حقيقة ماثلة هي أن

الرجل الذي كان رمز تلك الفترة أصبحت وقفته الشامخة المستقيمة في وجه محاولات اليهود وضع قدم لهم في فلسطين مضرب المثل لكل المنصفين، الذين ترفعوا عن ثغاء القطيع، وتصفيق الهاتفين. لما كان ينطلق أولاً من عقيدته واستشعاره أمانة الحكم في أمة الإسلام، وأنه -بعد هذا- قد دفع ثمن وقفته الأصيلة الضاربة في أبعاد التاريخ عرشه وسلطانه وكيانه الديني.

ولكنها الأمانة تحمل صاحبها إلى أعلى عليين وأن إنجاب عنه زخرف الدنيا، وتضعه في مصاف الرجال حين يعز الرجال، وأن غمز وحن القول كل همزة لمزة من صبية القرن العشرين، أولئك الذي حرّموا عزة المسلم، وتقطع ما بينهم وبين الأصالة وكرامة الانتماء إلى خير أمة أخرجت للناس.

وواضح أن الأسطورة لم تقف حلقاتها بعد، ففي الخمسينات حكم علينا أن نسلك فيما أسموه بالعالم الثالث وذلك عنوان القابلية للوصاية من الاسياد الذين هم أبناء الحضارة الغربية على غيرهم من أبناء الحضارة الإسلامية أو من يجاورونهم أو يلتصقون بهم منتظرين حكم التاريخ الذي يكتبه أولئك الأسياد بأقلام يهودية مغموسة بمداد صليبي. ويوم تصرفوا في خريطة المشرق أيام بلفور -وكلهم بلفور وأخبث- وأخرجوا ذلك إلى حيز التنفيذ في سنة ٩٤٨ وتتابع فضائلهم -لعنهم الله- بعد ذلك يوماً بعد يوم وعاماً بعد عام، يوم فعلوا ذلك كله وحتى يومنا هذا في فلسطين وكثير من بقاع الإسلام كانوا ينطلقون من نظرة السادة إلى العبيد والحققد الحاقد



الأسود، وتصورات أصحاب المزارع عن المزارعين الجاهلين تحت وطأة صراع حضاري لا يغادر من خطاهم صغيرة ولا كبيرة. . حتى تراثنا، وثوراتنا من الذهب الأسود وغير الأسود لم تكن لترهبهم وهم سادرون في تصوراتهم وحكمهم المبرم على هؤلاء القاطنين في الشرق والمعتبرين في نظرهم أناسي من درجة هابطة لا تصلح لكرامة الحياة والأحياء.

وتدور عجلة الزمن، ويحاول الوعي أن ينفذ -على استحياء- إلى العقول والقلوب فتطلع على الدنيا بوادٍ صحوة جديدة. . صحوة على الحقيقة التي غفلنا عنها تحت كابوس الوهم والانهازم. . تلك الحقيقة التي تحظى بالحرب الدائبة من الأعداء ونكران الزائغين والغافلين من بني قومنا والأصدقاء الألداء، صحوة على العقيدة. . على الجهاد، على الذاتية والأصالة، على أن وحدة الكلمة يمكن أن تعمل عملها، صحوة على الإفادة من موقعنا الجغرافي وثوراتنا الاقتصادية من الذهب الأسود وغير الأسود، وذلك كله يرافق أنا حملة رسالة وأبناء تاريخ عريق وحضارة مهيمنة أعطت وما تزال تعطي الإنسان، وكشفت وما تزال تكشف زيف حضارة أقوىاء اليوم التي تشقي الإنسان باسم الإنسان فيهدم أنباؤها صروح الحرية باسم الحرية، ويجرحون المساواة والعدل باسم العدل والمساواة صباح مساء. . وتعمل على أن تظل مخالِب اليهودية العالمية تنهش في جسم الحق وأهله في مجال الفكر والسياسة والاقتصاد. . تصرخ حضارتنا في هذا العصر أنه لا يجوز بام العلم التقني، والقدرة الاليكترونية، والرحلات الصاروخية

القمرية وغير القمرية أن يكون الحق دائماً للقوة وأن يستعبد الإنسان أخاه، فالإنسان أخو الإنسان أحب أم كره وأن الإنسان هو الذي اخترع الآلة فلا يجوز أن يتخذ منها معبوداً وإلهاً، وأن الأنانية والرغبة في التسلط والحرص على مناطق النفوذ، لا يجوز أن تكون هي القيم التي تصنف على أساسها الأمم والشعوب. ولا يحسبن حاسب أني من أنصار المفارقة بالماضي دون عمل والاعتزاز بالحضارة دون جهد وجهاد..

لا والذي أنبت الهدى في واد غير ذي زرع، وأرسل من غار حراء صوت الحق في العالمين.. ولكن الذي أريده وأدعو إليه أن ننطلق من الحقيقة التي انطلق منها بناء حضارتنا الأصيلة معترزين بالعقيدة، موطين أنفسنا على الجهاد عاملين على الإفادة من منجزات العلم الحديث، غير غافلين عن مثالب أعدائنا وحقيقة نظرتهم إلينا، والمقاييس التي هي مجال حكمهم علينا في الماضي والحاضر.. وأنا -بفضل الله- لا نعدم الزاد الروحي ولا القوة المادية التي ترهبهم وتجعلهم -على الأقل- يتسابقون إلى مرضاتنا كيلا تقف عجلة المصانع وتجف عن شرايين حياتهم دماء الحياة.

واليوم وقد أطل على الأمة هلال شهر رجب يملاً دنيانا نداء الأقصى الأسير وقد باض الحزن وفرخ في نفوس الكثيرين من أبناء الإسلام. إنه نداء المسجد الذي بارك الله حوله وأسرى إليه بنبيه محمد -عليه الصلاة والسلام-، ذلك النداء الحزين حيث أعداء الله والإنسانية يسرحون ويمرحون، ويأتون على أرضه المنكر ويحاولون إحراقه مرة أخرى بعد أن



أحرقناه بإهمال العبادة فيه والأعراض عن نكاته الحقيقية في حياة الأمة ووجودها .

ولقد توسع العدو في الأذى تحت سمع الدنيا وبصرها معرضاً عن صراح المستغيثين . . هازئاً من بيانات الذين إذ هبت ريحهم الفرقة والأعراض عن الله . . فهو لا يبالي أياً كانت النداءات ، ومن أي جهة دولية خرجت المقررات . . وعن أي مؤتمر صدرت المقترحات . .

ومن حيث الإيذاء المباشر للأقصى من الناحية المادية . . توسع في الحفر حتى شملت الحفريات اليهودية الأقسام الملاصقة لسور الحرم من الجهتين الجنوبية والغربية . . وتستمر حتى مدخل الحرم بل امتدت إلى حي المغاربة والمناطق الملاصقة هناك . وغير خاف أن الهدف من وراء ذلك إنما هو المسجد الذي كان مسرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقبلة المسلمين الأولى ، وخلخله بنيانه ، وإزالة المعالم المحيطة به . . يتأكد ذلك إذا علمنا أن بعض الحفريات تجاوزت عمقه العشرة أمتار . . وحديث ذلك جانب من المأساة التي هي أعمق وأعمق . .

إن حقيقة زمنية تحمل ما تحمل من ذكرى الإسراء والمعراج جديرة أن تحرك العزائم وتوقظ الهمم لتكون على مستوى القضية ، فنفيد من كل طاقاتنا الروحية وثرواتنا المادية وموقعنا الجغرافي ، وعندها نغلي لنطاق في الحق ، كيما نحرر الإنسان والأرض ولا نفغر أفواهنا نتلقى الأوامر ونستقبل الضربات والطعنات خصوصاً وأن العدو لنا بالمرصاد همُّه التنفيذ المرحلي لما

تمليه بروتوكولات حكماء صهيون وما يزعم -زورا وبهتانا- إنه بشارات الكتاب المقدس ، وأن على يهود العالم أن يجتمعوا عليه ولشد ما نكون رمزاً للבלاهة البلهاء إذا غفلنا لحظة واحدة عن إعداد العدة في ظل إرادة الجهاد والإفادة من كل معطيات العلم التقني وما لدينا من ثروات بشرية وطاقات مادية نحشد ذلك كله لمعركة المصير التي يتمكن فيها الفرد الحر الكريم أن يؤدي وزجه في سبيل الله كما ينبغي . .

وليس من ظاهرة أوضح في حكمة الحكيم الرحمن من ابتعائه نبيه -صلى عليه وسلم- في هذه البقعة من العالم ، بهذه اللغة وتحميله أمانة الرسالة لينذر بها الناس في عصره ، وكل من تبلغه الدعوة في كل عصر والإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى رمزاً لوحدة العقيدة على هذه الأرض مهما اتسعت الأرجاء ، فأنت واجد كل مقومات الفكر ، والموقع الجغرافي ، والقدرة الاقتصادية والنظام الشامل الذي يحمل كل خصائص الخلود . . أنت واجد كل ذلك -بجد الله- فلم يبق بعد كل الي حدث ، وما حمله التاريخ من دروس وعبر وما طلعت به علينا الأيام القريبة من إشارات ومعالم لم يبق حين نذكر الأقصى الأسير . . إلا أن تصدق العزائم وتقتحم عقبة الوهم وتعود هذه الأمة سيرتها الأولى بالإسلام عقيدة وعملاً بقلوب بقية نقية وعقول متفتحة مبصرة تنطلق من الأصالة وصدق الانتماء وتؤمن بالتجديد والتحديث في ظل مقاييس الإسلام وقيمه ، وتظل على يقينها الذي لا يتزحزح أن اليهودي يهودي مهما اختلف لبوسها وتلونت أشكاله ،



فالذئب لن يكون غزاً مهما لعبت بشكله الظاهر يد المسرحي ، والشعوب لن يتخلى عن ثعلبيته مهما تلا في العالمين من الحكم . . وإذا كنا لا نؤمن بنبي بعد محمد - صلى الله عليه وسلم - . . إن أعداءنا جاءهم من يزعم لهم أنه النبي الذي لم يذكر في التوراة لما يحمله من الإخلاص ليهوديته العتيقة المعقدة التي يضيفي عليها المنصب والموهبة والموقع الدولي كثيراً من القدرة على تنفيذ ما يريده دعاة أرض الميعاد . ولكن ذلك كله لن يزيد المؤمن الصادق المتطلع إلى الشهادة في سبيل الله إلا إيماناً وإلا ثباتاً على الحق وإصراراً على متابعة الطريق . وإن العزيمة الصادقة هي التي تجعل من المؤتمرات واللجان والمقررات عناصر فعالة تدفع العجلة الظافرة إلى الأمام . . وحين نقف في مواجهة العدو بمخططاته وأعدائه مهما ستر هؤلاء الأعوان تأييدهم لوجوده بزخرف القول ، تكون وقفتنا هي الوقفة المستعيلة التي تجعل أولئك المنافقين يشعرون - حقاً - أنه حتى في منطق مصالحهم القومية عليهم أن يدركوا من نحن وما هي مواقفنا وماذا تحت أيدينا .

إن مع طالع كل شمس ، ومع كل ذرة من ذرات الأرض برهاناً جديداً على أن نصر الله كائن لا محالة إذا نحن قدمنا الدليل على إدارة النصر لله .

وما أكرمه دليلاً على أن أمتنا بدأت تضع قدمها على الطريق حين تجعل مصباحها الهادي قول الله تباركت أسماؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا﴾ . والله ولي المتقين .

تقوى الله.. والواجب^(١)

لم يكن على سبيل المصادفة ما نراه في القرآن الكريم وحديث الرسول - عليه الصلاة والسلام- من التركيز على التقوى عند الإرشاد إلى أي عمل، ومن التذكر الدائم بالإيمان الذي هو القاعدة التي يقوم عليها البناء. ولعل شمول المسؤولية في الإسلام «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته». يجعل هذا الأمر على غاية الأهمية، لأن تقوى الله تعالى واستذكاري الإيمان ومعانيه، ثم ما تقتضيه كلمة التوحيد؛ كل ذلك يشكل الحراسة الحقيقية للمسؤولية أن يهيم صاحبها في متاهة الظلم أو أن ينزل في مهاوي الانحراف.

وفي تاريخ هذه الأمة ما يستوقف الناقد البصير من مواقف وأيام عصيبة أتضح فيها أن الأمانة في المسؤولية وتقوى الله فيها ومراعاة ما يكون من حقوق الخالق وحقوق المخلوقين هي التي غيرت مجرى الأحداث وجعلت الأمة تقف على قدميها في مواجهة ألوان من التحديات السياسية والاجتماعية والفكرية.

ويبدو أن من الطبيعي -والإسلام وحدة متكاملة- أن يكون نطاق السلوك في القيام به وتحمل تبعانه، وحدة متكاملة أيضاً فترى من يتولى أمراً من أمور الأمة لا بد له من التكامل في ميدان تصرفاته قولاً وعملاً وسلوكاً، حتى

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السادس، السنة الخامسة عشرة، ١٣٩٤هـ شعبان، ١٩٧٤م إيلول.



يستطيع الوقوف عند الذي يمليه الواجب ، وأداء الأمانة كما ينبغي ، ولا يصدق عليه قول الرسول -صلى الله عليه وسلم- : «إن شر الرعاء الحطمة» .

وحين يكون الحديث موصولاً بكلمة التقوى ومدلولها وشمول هذا المدلول حتى يتجاوز ما يتبادر من النطاق التعبدي الظاهر فحسب إلى مراقبة الله في كل صغيرة وكبيرة من القول والعمل وخصوصاً ممن يوليه الله أمر الأمة إذا كان الأمر كذلك . . ينكشف لنا بعض من أسرار تكرار الأمر بالتقوى في القرآن الكريم ، ثم حرص النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يربي أصحابه عليها «أتق الله حيثما كنت» حتى أصبح عمر يصرح في خلافته أنه لو ضاعت شاة على طريق العراق لخشي أن يسأله الله عنها ، لما كان عليه من تقوى الله وخشية اليوم الآخر . وعلى تحريره الفريد للعدل والحرص على حقوق الفرد والجماعة وزهادته في الدنيا وتواضعه ، كان يتمنى أن يلقي الله وليس له ولا عليه .

ولعل ما تحمله الأيام من النذر صباح مساء وما نلحظه في كل ما يجري على أرضنا مع العدو ، أو في المناطق الأخرى من العالم من حرص الأقوياء دائماً على مصالحهم أولاً ، ومعالجتهم للأمور من خلالها في كل التصرفات . . لعل ذل مما يجعل مسؤولية كل فرد في الشجر الذي أقامه الله عليه أشد وأدق ، وكما يعطي الأمة حق أن تتساءل عن التقوى أين هي في نطاق المسؤولية ، وكيف إن انحسارها نذير شؤم ودمار ، إذ أنها هي صمام

الأمان مع كل تصرف ومع كل عمل وبمقدار ما يكون من وعي الأمة لدينها
تحرص على هذا، فإذا وجد ذلك فالخير هنا، وإلا فعلى الدنيا العفاء .

وفي فترات حرجة من تاريخنا حيث أناخت الحروب الصليبية بكلكها
على البلاد والعباد، وأحتل كثير من الأرض واعتدي على الأقصى
والمقدسات، كان للتكامل في السلوك وسلطان التقوى على النفوس مع
الإعداد الصادق للجهاد أكبر الأثر في وحدة الأمة وقدرتها على مناجزة
أعدائها واستنقاذ أرضها ومقدساتها وكرامتها، وعلى سبيل المثال: هذا نور
الدين محمود بن زنكي المتوفى سنة ٥٦٩ هـ لم تصفه الروايات التاريخية
الموثقة بالشجاعة وقوة الشكيمة فحسب ولكن أعطتنا صورة التكامل حركة
وسولكاً في ظل تقوى الله عز وجل، حيث تشرق سلامة القصد ونبل
الهدف، والمسارة إلى كل ما فيه مرضاة الله تعالى بإعزاز دينه وتحرير العباد
والبلاد من رجس الغاصبين .

فعن حبه للجهاد وشجاعته في ساعات اللقاء وإقدامه حدث ولا حرج،
حتى قال له القطب النشاي الفيه مرة: بالله عليك لا تخاطر بنفسك
وبالإسلام والمسلمين، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا
أخذه السيف، فقال له نور الدين: ومن محود حتى يقال له هذا؟ من قبلي
حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو . . . وتصفه الروايات
الموثقة بأنه كان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، صليب الضرب،
يقدم أصحابه، ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله أن يحشره من بطون
السباع وحواصل الطير . . .



وفي الوقت نفسه يذكر التاريخ -البعيد عن الهوى- من مآثره، في نطاق الواجب والمسؤولية- أنه أظهر السنة وغير البدعة، وبنى المدارس، ووقف الأوقاف، وأظهر العدل، وأنه كان مواظباً على الصلوات في الجماعات، مكثراً من تلاوة القرآن كثير المطالعة للكتب الدينية معظماً للشريعة، حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، محافظاً على أموال الأمة، مقتصداً في الانفاق وعندما اشتكت زوجته من الضائقة واستقلت شيئاً من المال أعطاها إياه قال لها: جميع ما بيدي أنا خازن للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك. وكان من كريم خلقه، أنه لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سنة يتبعها.

إلا إن كل الأقوياء من غير ذوينا وأهلنا ينظرون إلى قضايانا من خلال ما يضمن مصالحهم في إطار تخطيطهم الشامل الدقيق، ويحقق التوازن فيما بينهم عندما يتقاسمون مناطق النفوذ في هذا العالم حاسبين لكل أمر حسابه مستخدمين كل معطيات العلم الحديث. . . والحمد لله. وذلك ما يجعل حرصنا على الذاتية والاعتماد على أنفسنا بعد الله أمراً دونه أي واجب تفرضه مصلحة الأمة. وهذا لا ينافي الاستفادة من الآخرين تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ والمؤمنون هم المخاطبون بقوله: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ بوصفهم مؤمنين بالعقيدة التي تحت رايتها يقاتلون ومن أجل ذلك يجب أن يعدوا ما يستطيعون من قوة، علماً بأن كلمة ﴿قُوَّةٍ﴾ كلمة

مطلقة لا تحدُّ بعرف عصر معين أو بلد معين، فنحن مأمورون بأعداد القوة حسب مقتضيات الحال وتطور الزمن وما تفرضه أساليب المناجزة العدو في ظل ما يكون من تقدم علمي وحضاري . .

نعود إلى التقوى التي يجب أن تزين ذلك كله وتكون في مواجهتنا ليهود ومن على شاكلتهم محور التصرف في كل صغيرة وكبيرة، وهي ضرورة للجميع، ولكنها فيمن يوليهم الله أمر الأمة أكد وأكد . . حرصاً على النتائج المرجوة، وإحقافاً للحق كما أراد الله . ولعلي لا أبعد النجعة على القارئ الكريم إذا ذكرت بأن الكثير من العلماء على أن آخر آية نزلت من القرآن الكريم هي قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ولعمري إن هذا الختام المبارك لما يستوقف المؤمن، ويفتح بصيرته، ويشده إلى وعي أن هذه الرسالة التي اشتمل عليها كتاب الله لا بد في حملها وتطبيقها من تقوى الله، باتقاء كل ما يورث الخسارة في اليوم الآخر الذي تقام فيه الموازين بالقسط، وتوفى كل نفس ما كسبت ولا يظلم أحد مثقال ذرة.

وإني مثبت هنا ما قاله شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري في معنى الآية وذلك ما تقتضيه أمانة الكلمة . قال رحمه الله :

«يعني بذلك جل ثناؤه : واحذروا أيها الناس يوماً ترجعون فيه إلى الله فتلقونه فيه، أن تردوا عليه بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من



عقاب الله ما لا قبل لكم، وإنه يوم كجائزة الأعمال، لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، توفى فيه كل نفس اجرها على ما قدمت، واكتسبت من سيء وصالح، لا تغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من خير وشر إلا أحضرت، فوفيت جزاءها بالعدل من ربها وهم لا يظلمون، كيف يظلم من جوزي بالإساءة مثلها، وبالحسنة عشر أمثالها؟ كلا بل عدل عليك أيها المسيء، وتكرم عليك فأفضل وأسبغ أيها المسحون. فاتقى امرؤ ربه فأخذ منه حذره، وراقبه أن يهجم عليه يومه. هو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز وجل حذر فأعذر، ووعظ فأبلغ».

والحمد لله في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل.

العيد.. والمنهج الرباني^(١)

أبدًا يتعاقب الليل والنهار . . وتمدُّ الحياة مدَّها وتعطي الأيام عطاءها وابتلاءها . . والأمة المصطفاة التي لها من ماضيها غناء الفكر والتاريخ وسلامة البعد الحضاري . . جديرة أن تنفض عن كواهلها غبار الخمول . . وتمدُّ إلى منهج الله أيديها بشجاعة الرجال . . كي يكون نبراسها ونظامها . . ووقود مسيرتها إلى الحياة الأفضل التي تسعدها وتسعد معها الإنسانية شأنها في ذلك شأن أولئك الذين باعوا - كما وصفهم القرآن - أنفسهم الله . . ووقفوا على اليابسة فيما اعتقدوا . . وأدركوا أن حياتهم هي العقيدة التي أنبثق عنها النظام . . فالعمل به والحفاظ عليه والتزامه في كل صغيرة وكبيرة هو عنوان الحياة . .

والجناية عليه جناية على وجودها وحياتها . . فكل فرد حارس أمين لذلك المنهج الرباني . . على أي صعيد كان تحركه في الداخل مع بني جلدته، أو على ساحة المعركة مع أعداء الله والإنسان . . وبهذا الذي نقول أخذت معاك الحق معالباطل أبعادها الحقيقية في الماضي، واستطاعت الأمة - في شتى أقطارها - أن تنفي عن طريقها ما كان يتدحرج على وقع أقدامها من عبث وركام .

وهذا الذي نقوله عن أولئك الذين باعوا أنفسهم لله ليس بدعاً من القول

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة الخامسة عشرة، ١٣٩٤هـ شوال، ١٩٧٤م تشرين الثاني .



نزجي به قضايا تجريدية لا تعيش إلا في عالم الخيال . لا والذي خلق الإنسان علمه البيان . . أن الإسلام الذي أبتعث الله به محمداً - صلى الله عليه وسلم - دينا للحياة ، واجه به الرسول الكريم - على صعيد الواقع الإنساني - أبناء والحياة . . ولاذين حملوا تبعاته وأحكموا أنفسهم في التزام شريعته ، بشر من البشر يمشون على الأرض وليسوا ملائكة في العالم العلوي ، وقد وعوه وعياً كاملاً تطفح به كتب التراث الإسلامي الخالد . . من أسألتهم وتطلعهم إلى المعرفة ، وبناء قناعاتهم على المنهج القرآني ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ ثم الآثار التي خلفوها والتي طبعوا بها المجتمع المسلم الذي أصبح مثلاً يحتذى في العالمين . ومن بعد ذلك المد الحضاري الذي ألقى ظله على جنبات التاريخ . ولكن الأمر الذي يعتبر في مقدمة خصائص الشخصية لديهم البعد عن التناقض والثنائية ، ذلك المرض الذي يقع في وهدته الكثيرون اليوم على أم رؤوسهم . . التناقض بين الإيمان الكالي بالله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - والقرآن الذي نزل عليه مما يقتضي التسليم بالجزئيات التي تبتنى على ذلك ، وبين السلوك الذي يقحم فيه العقل أقحماً فيحمل ما لا يطيق ، لأنه يحاول مزاحمة الوحي وما هو بقادر ، فأين العقل من الوحي ؟ أن من وظائف العقل في هذا المجال أن يفهم نصوص الوحي وأن يدرك شؤون الحياة من خلال ذلك المنهج الرباني الكريم ، وأن ينأى بصاحبه عن التناقض ؛ فلا يكون مؤمناً - في الصباح - ومتشككاً أرعن في المساء .

وعندما تسلم للمؤمن هذه القاعدة الراسخة في بنيته الفكرية والسلوكية تكون ممارسات الحياة كلها لوناً من ألوان البناء في وجوده وكيانه، خصوصاً ما يكون في النقد الذاتي في المنشط والمكروه، وهذا الذي نشير إليه هو الذي كان عنصر الإيجابية في غير واحدة من الوقائع في عصر النبوة حيث الجهاد والتمحيص وقياس كل بعد من أبعاد المجتمع الوليد بمقياس الدعوة الجديدة؛ كالذي حدث -مثلاً- في أعقاب أحد وحين من التوجيهات القرآنية، التي وضعت كل حركة موضعها الطبيعي وأعطت لكل تصرف قيمته إيجاباً أو سلباً.

ولقد كان التسليم لما جاء من تلك التوجيهات وقبولها الحسن في النفوس، عنوان خطوة جديدة تتسم بكل معاني القوة والخير؛ لأن ذلك كان ظاهرة التفاعل الصادق بين العقيدة وحملة هذه العقيدة؛ وكان أيضاً دليل الوعي والنفاز في كل شأن من شؤون الدعوة وما تلقاه على طريقها الطويل الذي فيه -إلى جانب تطويع النفوس على حمل أعباء الالتزام- نفاق المنافقين ويهودية اليهود وشرك أهل الوثنية، والاحلاف غير المقدسة التي يعقدها رؤوس الكف والنفاق بين فئتين من هؤلاء أو بين الفئات الثلاث حسب الذي تسوله أهواؤهم وشياطينهم، في تمالؤ ماكر على الإسلام وأهله، وهو في الحقيقة مظاهرة الباطل على الحق، والكيد للإنسان أياً كان هذا الإنسان.

أقول هذا وعيد الفطر يمسخ بأشراقته جبين الزمن، فيفرح المؤمنون بفضل



الله أن وفقهم لامتحان أمره بالصيام، فصاموا نهارهم وقاموا ليلهم، وجعلوا ما بينهم وبين القرآن سبيلاً موصولة في تلاوة وتدبر آناء الليل وأطراف النهار، ولئن جاعت منهم البطون وسهرت منهم العيون، أن ما يجنونه من ثواب الله، والمنافع العاجلة في الدنيا أمر لا يستهين بوافر قدره إلا من سفه نفسه وكان من المحرومين.

وهذا واحد مما تقتضيه العقيدة وينبئ عن سلامة التصور والسلوك؛ لأن الذي شرع الصيام فرضاً لازماً على المكلف، هو سبحانه الذي شرع وجوب الفطر أول يوم من أيام شوال؛ وإذن فمصدر التلقي واحد، وليس إلا الامتثال في الأمرين كليهما، والمسلم في الحالين على طاعة لربه عز وجل.

وإذا كانت أيام العيد مدعاة للفرح بفضل الله، فهي في الوقت نفسه ظاهرة المساواة والحس الجماعي في هذه الأمة؟ فالذين لقَّهم ذلك الإطار النوراني أمساكاً عند الفجر وافتاراً عن الغروب خلال شهر كامل -على اختلاف المواطن واللسنة والألوان والأجناس- هم هم الذي يشاركونه الفرحة بهذه الشرعة المباركة... وعندما تتفتح البصيرة تحت شعاع الإيمان تكون النقلة إلى حيث يكون الحس الجماعي في كل قضايانا المصيرية، أمالاً وآلاماً، وصدق معاناة، لأن العقيدة أقوى وأقوى، ورباط الاشتراك في التزام أحكامها أدق وأمتن... وهذه النقطة واحدة من نقاط كثيرة تخرج العيد في شرعة الإسلام عن أن يكون عيداً بالمعنى الكهنوتي، فليس عيداً دينياً بذلك المعنى، ولكنه روح جديدة تشري في كيان هذه الأمة في أعقاب

أدائها لعبادة هي ركن من أركان الإسلام، وحافز إلى صقل المشاعر، وفتح نوافذ الود والمحبة للجميع؛ فالمؤمنون إخوة دونما قيد المكان أو الجنس أو اللون واللسان؛ وتلك كانت قاصمة الظهر لاعدائنا في الماضي، فلتكن لنا في الحاضر قوة نبني بها كيان هذه الأمة بما يعود على الإنسانية كلها بالخير.

وقبل هذا وذاك.. لعل في يقظة المشاعر بالعيد على النحو الذي أشرنا إليه ما يحفز إلى وقفة إيمانية يزينها حب الجهاد والاستشهاد تحت سلطان العقيدة يكون من ورائها تحرير أقصانا الجريح، وما فقدنا من الأرض التي بارك الله حولها؛ فالمسجد مسجدنا والأرض أرضنا دونما فوارق أو حدود، لأننا نحن أبناء العقيدة التي أعطت للأقصى ما أعطت من الأفضلية، وأعطت الأرض التي حوله -وهي واسعة الأرجاء فيما يسمى بلاد الشام- ما أعطت من البركة والخير.. ولن يكون العيد عيداً بمعناه الشامل الحقيقي حتى نفوز بمروضة الله في بذل كل ما يمكن بذله لتكون كلمة الله هي العليا، ولتطهير الأقصى من رجس اليهود على اختلاف العناوين واللافئات.. وإلى أن تخفق أعلام ذلك اليوم، ويكون لنا العيد الحقيقي بأعمق مفهوماته وأبعاده.. ونكون -نحن- أهلاً لذلك العيد بكل المتاعب على طريقه الطويل.. لا بد من هزة إيمانية تحرك أعماق الفرد، وتنفي عن كيان الجماعة الوهن وأسبابه، واللامبالاة وردواعيها، وتضع -بأمانة وثقة- كل الأسس التي تكفل أعداد الجيل وتوعية الأمة، والقضاء على المعوقات، وتعود بنا إلى حيث نوقن جازمين أن بتحقيق المنهج الرباني سلامة وجودنا، واستئناف



الطريق إلى قيادة راشدة للإنسانية الحائرة من جديد . . . وحين نصدق العزم ونتحرك على ساحة الجد ، بعيداً عن الرضا بالرسوم والزخارف بديلاً عن حقيقة الدين كما أَراده الله . . . حين نصدق العزم كذلك . . . نجد ما وعدنا ربنا حقاً ، ويكون لنا ما كان لأولئك الذين فهموا معنى كل من الصوم والعيد من زاوية الوحدة في مصدر التلقي ، فكان الصيام لونا من ألوان الجهاد . . . والصبر ودوام الصلة بالقرآن ، وكان العيد أйдاناً بأن المسلم مسلم على كل حال فلا عبادة الصبر تسئمه وتضجره ، ولا عبادة الفرح بفضل الله تبطره وتناى به عن ساحة الحق . . . أنه يقظ هنا ويقظ هناك . . . من أجل هذا : كانت تكبيرات العيد ترسيخاً لكل معاني العبودية لله وتحرير المؤمن من كل عبودية لسواه ، ومن كل خوف إلا منه ، فهو أكبر من كل كبير ، وأعظم من كل عظيم . . . ولأمر ما شرع هذا التكبير في الخطبة والصلاة وعلى ساحة أوسع في عيد الأضحى .

ألا ما أحوج أمتنا وقد رَأْن على حياتها ما لمثله يذوب القلب ، وتتفرَّح الأكباد . . . أن تستشعر عند العيد ، معنى التكبير في العيد . . . ما أحوجها والعدو ينتقصها في أرضها ووجودها ، أن يكون لها من «الله أكبر» في الأذان وفي العيد ، ما يذل الصعاب ، ويقضي على بواعث الدعة والوهن . . . أنا ونحن لا نملك أكثر من الكلمة نسلمها إلى الطريق عسى أن تصل إلى الأخ القارئ ، لنسأل الله الذي لا رب غيره ولا خير إلا خيره . . . أن يهيئ لهذه الأمة من أمرها رشداً . . . حتى تعود -بالإسلام- سيرتها

الأولى فتكون لها الكلمة المسموعة في أرضها وفي العالمين . وهناك يكون العيد عيداً بحق ، والتكبير تكبيراً بحق ، وتنتهي ظاهرة ما قال شوقي :

فلا الأذان أذان في منارته إذا تعالى ولا الأذان أذان

ولسوف تظل أمانة القول والعمل أذاناً يتعالى في سمع الرواد ، يوقظ من الغفلة ، ويحمل إلى واحة الطمأنينة بوعده الله . . فالله معهم عاملين مخلصين ، والله معهم صابرين على الأذى ، واثقين بنصر الله ، ولن يترهم أعمالهم . . اللهم لك الحمد في الأولى ولك الحمد في الآخرة ، توفنا مسلمين والحقنا بالصالحين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



ونحن على أبواب الحج^(١)

كثيرة هي الكلمات التي تتردد على الألسنة أو تنساب من الأقلام على صفحات الكتب والمجلات عن بعض حكم فريضة الحج وهو ركن من أركان الإسلام، ومن هذه الحكم أن الحج مؤتمر إسلامي عالمي يمكن للمسلمين فيه أن يتدارسوا شؤونهم، وأن يتذكروا الآمال والآلام التي تحرك القوى وتبعث العزائم، وأن يرسموا بمنهجية خطوطاً عامة لمستقبلهم بعد أن يكونوا على بصيرة بحاضرهم.

كل هذا يقال -وهو قليل من كثير وغيض من فيض- ولكننا حين نرصد النتائج تطالعنا خيبة الأمل عند المصلحين، والخسرات المحضة عند دعاة الخير؛ ولعل هذا مما يدعونا إلى وقفة متأملة في هذا الموضوع تقوم بدور الإشارة السريعة عسى أن يكون من ورائها إشارات ولبنات وخطوات.

فالحقيقة أن اللقاء في الحج -كما هو معلوم- ليس لقاء مؤتمر تداعى إليه البشر وإنما هو دعوة الله تعالى وفريضة كتابه، فالمفروض أن يلتقي الجميع في ظل بيته خاشعين خاضعين ملين، تحذوهم العبودية إلى أن يكونوا عند الذي يريد رب البيت الذي حوله يطوفون، وعند العقيدة التي باسم منزلها يلبون، والشرعية التي لشارعها يهللون وبكبرون؛ فعندما تتحول الكلمات من صور جامدة على الشفاه إلى شرارة تضيئ القلب وتحرك العزائم سعياً في

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد التاسع، السنة الخامسة عشرة، ذو القعدة ١٣٩٤هـ، كانون الأول ١٩٧٤م.

مرضاة الله عندها نكون قد وضعنا أقدامنا على الطريق الصحيحة الموصلة إلى الغاية . .

عندما يتحول القرآن في نفوسنا من صور مكتبة على الورق إلى وقود للهمم ، وحركة بناءة في ظل العقيدة ، ونور على طريق الذاتية والأصالة ولهب يحرق أعداء الله والإنسان ، فنصبح أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين ، صادقين في الاستجابة إلى دعوة الحياة . . ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ عندها فقط يعمل مؤتمر الحج عمله ، ويكون الرجاء برحمة الله واسعاً في أن نخرج من عهدة المسؤولية كل بما حملة الله منها وأعطاه من قدرة على أداء حقها . .

أما إذا كانت القضية قضية لقاء الأشخاص فالمؤتمرات كيرة متعددة ، والاجتماعات أكثر من أن تحصى . . وليس صعباً أن تقوم الأسباب وتتوفر الإمكانات المالية لهذا . . ولكن القضية تكمن في استشعار أن العقيدة هي التي من حقها أن تملي . . وأن لها مقتضيات علينا أن نكون عندها . . فاللقاء في ظل البيت العتيق . . معناه - كما ينبغي - الإرادة الحازمة أن على الأمة أن تقف الواقفة الواعية المؤمنة في معالجة قضاياها ، وأن تمارس حقها في الحياة - ممثلة بمن ولاهم الله أمرها والرواد من أبنائها - على المنهج الذي رسمته يدا محمد بن عبد الله صوات الله وسلامه عليه - حيث يجتمعون على الأرض التي كتب عليها مع أصحابه تاريخ الإنسان ، ورسم للإنسانية سبل السعادة في الدراين . . وعندها تكون إرادتها من ذاتها ، وتصرفاتها مستوحاة من منهجها الرباني ، الذي لا يغلق الباب دون الرفادة من كل ما هو خير .



إن ما تعكسه شعائر الإسلام من مظاهر العبودية لله، والخضوع بين يديه، والمساواة بين عباده، والانخلاع من كل ربة لا يرتضيها الإسلام، والتخلي عن المألوف والشهوة والعادة.. إن كل هذا -ومثله كثير- جدير أن يحمل الحاكم فينا والمحكوم على أن من التناقض البالغ أن تنطلق الحناجر بالتلبية، وتنطلق الأعمال بالمخالفات، وأن من السلبية بمكان.. أن نطوف ول الكعبة بأجسامنا.. ونطوف حول أنفسنا في ممارساتنا اليومية للحياة.. ولسوف تكون «ليك اللهم ليك» حجة على قائلها يوم القيامة حين يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، وضربة ترد إلى وجوههم يوم يقوم الناس لرب العالمين. يوم يقال للوالغين في إثم الجفوة -وخصوصاً من بيدهم أمو الأمة في كيانها ووجودها- كانت للإسلام منكم الكلمة ولغيره العمل.. وكان للعقيدة العنوان ولنقيضها المضمونات..

إنه ليس بدعاً من القول بعد تجربة القرون المتطاولة التي يمارستها أمتنا في ظل الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً.. أن لزاماً علينا في ظل قوله -صلى الله عليه وسلم-: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، أن يكون لنا من فريضة الحج في أعتاب البيت العتيق، وفي ضوء العبودية الصادقة لله عز وجل.. والمحبة العميقة المؤمنة لنبه -عليه الصلاة والسلام-.. أن يكون لنا منهج ذاتي واضح تواجه به الأمة شؤونها بحشد طاقاتها المادية والمعنوية.. وللامد البعيد أن نسلك بوعي وحزم سبيل بناء الإنسان المسلم من جديد، وذلك بتحقيق أمرين: ولهما -إزالة الركाम من طريقه ومن هذا

الركام ما يكون من جهل بالإسلام نفسه، أو التفات عنه، أو تشكك في قيمه، وانهزام أمام الرياح الوافدة في مجال التغريب الذي يراد منه القضاء على مقومات الأمة، وتشويه ثقافتها الحقيقة على صعيد المعرفة والسلوك.

وثانيهما: العمل الإيجابي الذي يقف بالمسلم على اليابسة بهويته وأصالته ويفتح نوافذه بوعي على الحياة، فيفيد مما عند الآخرين دون أن تذوب شخصيته وتتميع مفهوماته وتضطرب قيمه ومقاييسه. وليس بخاف ما صنعتته من قبل وما تصنعه اليوم مؤسسات التغريب حرباً على الأمة في معتقدها ولغتها وتاريخها.

إن كل كلمة ينطقها لسان الحاج أو المعتمر، وكل واحدة من شعائر هذه الفريضة المباركة، برهان صدق على أن الإسلام يريد عقيدة التوحيد وتحقيق كرامة الإنسان ومن أجل ذلك حرّره من كل عبودية لغير الله عز وجل. ومن أجل ذلك يريد بناء المسلم في معرفته وسلوكه وممارسته للحياة على نهج عقيدة (لا إله إلا الله) الفدر والجماعة والأمة في ذلك سواء. وذلك ما أعطى أطيب النتائج في الماضي، وهو قادر أن يعطي ذلك في الحاضر والمستقبل، لأن بناء الإنسان ليس أمراً هيناً في كين الأمة، فحين يوجد الإنسان بعقيدته وحرّيته وكرامته تتفجر طاقاته ويصبح قادراً على العطاء، ولا تسل عما تفوز به الأمة من خير بعدل، والعكس بالعكس. ولعل هذا بعض ما يفسر ذلك التكامل في شعائر الإسلام عموماً - حيث تأتي شعائر الحج أيضاً في دائرتها المتكاملة ضمن تلك المجموعة المباركة. لقد خلق الله



الإنسان في أحسن تقويم . وشرع له -وهو العليم الخبير- كل ما هو مناسب وحسن .

كما أن تلك الشعائر حجة علينا أمام الله تعالى . . بل وأمام التاريخ والأجيال . . وأي أمة لها ما لنا من ينابيع الخير ، وشواهد الواقع . . والأمثلة الحضارية الحية التي كرمت الإنسان ، وعرفت الإنسانية بوجودها . . ومن الواضح أنه في دائرة أوسع من دائرة شعائر الحج تجدد التكامل واضحاً بين الشعائر كلها .

لقد حزب الأمر . . ولم يبق في القوس منزع ، وأن لهذه الأمة أن تترجم المبادئ إلى حركة وممارسة في مواجهة قاضياها وبناء أجيالها وأن تدرك أن الإنسانية -ونحن جزء منها- لن تحل مشكلاتها بصعود الإنسان إلى كوكب جديدة . . ولا أن يصل الإنسان التقني أكثر وأكثر إلى مخترعات تدمر وأسلحة تفتك . . فالذين وصلوا إلى ما وصلوا بالعلم التقني . . وينفقون بغير حساب على رحلاتهم إلى الكواكب هم أنفسهم الذين ندوق منهم الويلات صباح مساء ، وهم هم الذين يظاهرون علينا أعداءنا بغير هوادة ، ويمتصون دماء الشعوب الضعيفة والمستضعفة بلا شفقة ولا رحمة . . وعلى أرضهم وقريباً من المعامل والمصانع والمؤسسات تدز الفتن قرنهما كل يوم ، وتهز المجتمع أبشع جرائم الخطف والسرقة والتدمير وما هو أشنع .

نعم علينا أن ندرك ذلك عندما تعمل بحزم على بناء الإنسان المسلم من جديد . . وأن ذلك ما لم يكن في ضوء الإسلام الذي يعدو إلى العلم في

خدمة العقيدة والإنسان . . ولا يتساهل بأخلاقيته على المستويات قيد أنملة . . ويدعو إلى حراسة المبادئ بالفكر والقوة . . ما لم يكن الأمر كذلك فلا فائدة ترجى ، ولا ثمرة تجتلب ، وإنما نقلة من ضياع إلى ضياع . . وقد تتعدد الأشكال ولكن جوهر القضية في أصله واحد . .

ولعل هذا الذي نقول هو بعض مما يمليه قول الله تعالى خطاباً لنبيه - عليه الصلاة والسلام - وهو تعليم للأمة في كل عصر: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ ولأمر أراداه الله - وأرض الإسلام تتفجر كل يوم عن ثروة مادية جديدة - جاءت هذه اللفتة الهائلة ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ إذن هنالك شيء وراء هذا الإنفاق ، وراء المال الذي ينفق ، وراء كل الطاقات المادية التي يمكن أن تبدل . . هنالك تلك الشرارة الهائلة التي تعطيها العقيدة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ إنه لا بد لهذه الشرارة من أن تعمل عملها حتى تكون الطاقات المادية كلها صالحج لأن تثمر ثمارها . ومن هنا كان المثل الذي لم يسبق له شبيه ولا يكون إلا بالإسلام ما قام من الإخوة بين المهاجرين والأنصار بعد الذي كان بين العرب من قبل من فرقة وتناصر ، فكانت تبجرة الإخوة والتوارث بالإيمان - وأن نسخ التوارث من بعد - وكانت القوة التي سخرت للخير ، وكان التفاني في سبيل الله والتطواف حول بيته بصدق والبذل في سبيل العقيدة ، واحداً من آثار قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ



فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴿﴾ انظر إلى قوله ﴿أَلْفَ﴾ هو الذي ألف بالعقيدة . . وللعقيدة مقتضيات ، وللعقيدة حقوق . . وانظر إلى ﴿بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ وقلب المؤمن الذي أتسع لهذه العقيدة وأشرق بسناها جوانبه ، استطاع أن يتجاوز العداوة إلى الألفة ، والفرقة إلى الاتفاق . . وانطلق التيار الهائل وسعدت الإنسانية بحضارة الإسلام .

وصوفة القول : إن الحج بشعائره كلها - لا تستثن - آية ربانية على سلامة الطريق أو لو سلكنها . . ومصدر قوة لهذه الأمة أن لو رافقت كلماتنا الخشية ، وارتبطت تلبيتنا بالقلوب . . وجعلنا كلمة الإسلام هي المحكمة . . وفي بيت الله الحرام آيات بينات ، جديرة أن توقظ الغافل ، وتشد أرز العامل ، وتحيي الأرض بعد موت . . وذلك ميدان يتسابق فيه السعداء الذين مبتغاهم مرضاة الله .

إلا وإن الفرد الذي هو لبنة الجماعة الأولى حين يؤدي الشعائر - كما ينبغي - مستشعراً تلك النظرة الربانية فيما يأخذ وفيما يدع . . ينعكس ذلك بلا ريب على تلك الجماعة . . وعندها يكون اللقاء لقاء قلوب ، لا لقاء أجسام وحسب ، وتكون البواعث لله . . والطاقات المادية كلها في مرضاة الله ، نتحرك فيما نريد . . ضمن ثدف واحد رسمت معالمه العقيدة الواحدة في ظل بيت الله الواحد سبحانه . لا يحول دون ذلك حائل ، وإذا كان . . فمن الجهاد أن تعمل على إزالة الركام .

وليس من مكرور القول التذكير بأن فضل الله على حجاج بيته لا تحده

حدود . . فقد جاؤوه شعثاً غبراً وهو ناظر إليهم برحمته وعنايته . أرأيت إلى هذا الحجيج تتنزل عليه الرحمات في عرفة وحول البيت فوي كل منوطن تؤدي فيه الشعائر . . كم يكون صادقاً مع نفسه ومع الله حين يتناول قضاياه غير مولّ ظهره لذلك الفيض من العطاء . . إلا ليت لنا - وأبحث عن الضمير - قلوباً تحسّ وعيوناً ترى . . إذن لوجدنا في شعائر الحج موسماً لا يدانيه في العطاء موسم ، وميداناً من ميادين البناء والإيجابية والإعداد للجهاد ذروة سنام الإسلام لا يقوى على معارضته ميدان . . ولأفدنا من ذلك الدين الأمة ودنياها ، ولأيقنا أن كل مظاهر العبودية لله هي في بعض حكمها طريق لإشعال الجذوة المرتقبة من أجل تحرير الأرض والنفوس . . ومعرباً أميناً للتضحية والبذل . . وسلاحاً فعالاً يهدم الفاسد ويبني الصالح النافع .

أما بعد : فلقد يكون من الخير أن نستذكر ما رواه أبو يعلى من حديث أنس قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : إن الله تطوّل على أهل عرفات يباهي بهم الملائكة ، يقول : يا ملائكتي انظروا إلى عابدي شعثاً غبراً ، أقبلوا يضربون من كل فج عميق ، فأشهدكم أنني قد أجبت دعاءهم ، وشفّعت رغبتهم ، ووهبت مسيئهم لمسحّهم ، وأعطيت لمحسنهم جميع ما سألوني غير التبعات التي بينهم . فإذا أفاض القوم إلى جمع ، ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب إلى الله تعالى ، فيقول : يا ملائكتي : عبادي وقفوا وعادوا في الرغبة والطلب ، فأشهدكم أنني قد أجبت



دعاءهم، وشفعت رغبته، ووهبت مسيئتهم لمحسنهم، وأعطيت محسنهم جميع ما سألوني، وكفلت عنهم التبعات التي بينهم» وهذا الذي ترى ليس خاصاً بمن كانوا على عهده -صلوات الله وسلامه عليه-، فقد سأل عمر بن الخطاب-، فقد سأل عمر بن الخطاب- في حديث آخر- يا رسول الله: هذا لنا خاصة؟ قال: هذا لكم، ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة، فقال عمر- رضي الله عنه-: كثير خير الله وطاب.

وإننا لسأل الله الرحيم الرحمن، وندعوه وهو القاهر فوق عباده.. ونلجأ إليه وهو الذي يباهي بالحجيج ملائكته، ويتجلى عليهم بالرحمة والعتق من النار.. أن يفتح القلوب لهدايته من جديد.. وأن يجعل من نور كلمات رسولنا الكريم غيثاً يروي تلك النفوس العطشى ويحملها إلى مراتب الخيو وأن يتجلى على هذه الأمة بروح من عنده يسري في كيان الفرد والجماعة.. فتعود سيرتها الأولى على الجادة.. جادة من قال عنهم: يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدونه في سبيل الله ورسوله فيخافون لومة لائم.. وهنالك تستأنف الطريق.. وتنهل من منابع العطاء.. وتأخذ بأسباب القوة في القلوب والعقول والإعداد.. صنيع سلفها الصالح وروادها الأولين.. كيما تتحرر من كل سلطان غير سلطان الله.. ويكون لها التمكين في الدين.. والزن بعد الخوف.. وأداء رسالتها في العالمين.

اللهم لك الأمر كله.. بيدك الخير كله.. ندعوك ندعوك.. وزادنا -

على ما نحن فيه- . . أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . .
وريحاننا وإذا سألك عبادي عني فإني قريب . . إنها أكف الضراعة من
الضعفاء . . وأنت الذي بيدك الملك وأنت على كل شيء قدير . . وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .



لا حول ولا قوة إلا بالله^(١)

لأبي إقبال

مظاهر المرض في جسم العالم الإسلامي اليوم ما ترى من تحول بعض من أخذوا من العلم بسبب ولهم عنوان مرموق في بعض الأوساط . . من العمل لهداية الناس وشدهم إلى نور الإسلام . . إلى الانحراف في تأويل النصوص ليخضعوها بتحمل وتكلف إلى أن تكون مسوغاً لما هم فيه من مخالفات لشريعة الله وحقيقة ما كان عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه والقرون الثلاثة الأولى التي شهد لها رسول الله بالخيرية .

ومنذ خمس سنوات كتب أستاذ كاتب في إحدى المجالات الواسعة الانتشار في العالم العربي مؤيداً الاختلاط المنافي للشريعة مرحباً بما يقع فيه كثير من المسلمين من الانحراف باسم المدنية وذوق القرن العشرين من علاقة غير مرضية بين النساء والرجال ، وقد أشرت يومذاك في افتتاحية الحضارة من أن من الظلم للحقيقة أن تؤول النصوص على غير وجهها وأن تتناسى الظروف التي تحيط بواقعة ما ، وما يمكن أن يكون من النسخ أو البيان بتخصيص أو تقييد . . إلخ . لنجعل من فعل المنحرفين اليوم عن زيغ أو جهل صورة مطابقة لما فعله رسول الله وأصحابه ، وأن ما هم عليه اليوم هو تطبيق لسنة سنّها الرسول - عليه الصلاة والسلام !!! وكتب الأخ الدكتور حسن هويدي يومذاك - مشكوراً - مقالاً ضافياً مزوداً بالنصوص والحقائق الشرعية ردّ فيه رداً موضوعياً مهذباً على ذاك الذي نشر في تلك المجلة . .

كما نشرنا في بريد القراء أيضاً تحقيقاً يدل على أن صاحب ذاك الرأي يسير في نفسه وأهله على هذا النهج أيضاً فالاختلاط الحقيقي عنده، ما كان من فتاة أجنبية مع فتى أجنبي في غرفة موصدة الأبواب وحدهما وما عدا لك من كل الصور الأخرى ليس من السنة!!! ويتحدث عن ذلك بصورة فيها ابتذال للمرأة ولا حول ولا قوة إلا بالله . .

وتمضي الأيام ويطالعنا تقويم من التقاويم -واسعة الانتشار أيضاً- ولا صحابه وفي النفوس تقدير، ليزيد في الناس على الوجه الثاني من أوراقه في أيام متتالية لكل تلك الكلمات المنشورة من قبل والتي فيها دعوة صريحة للاختلاط المحرم وتسويغ بتكليف شديد، وتحميل للنصوص ما لا تحمل كيما تكون مؤيدة للواقع الفاسد والعياذ بالله كما أشرنا من قبل .

ومن عجب أن الطرفة على ظهر ورقة التقويم لا تكون في العادة نصاً طويلاً يختاره من اختاره ليكون مسلاة القارئ لعدة دقائق في كل يوم، وإنما تكون الطرفة فائدة مكثفة أو نادرة نثيرة أو شعرية أو حكمة محدودة الكلمات تتناسب مع النظرة العجلى إلى التقويم لتذكر تاريخ ذلك اليوم وأوقات الصلاة فيه .

ترى هل نسيء أو نحسن الظن بهذا الاختيار على هذه الشاكلة ونحن نعلم عكس ذلك من أهل التقويم من قبل؟ أكبر الظن -والله أعلم- أن ذلك كان عن عدم تثبت وانبهاراً بما هو خداع العناوين، ولكن هل هو عذ مقبول! خصوصاً إذا لا حظنا اختيارات أخرى؟؟ اللهم أنا نعوذ لك من الحور بعد



الكور، ونعيذ أحبائنا وإخواننا -على وجه العموم- من حيث يريدون الخير ومن يكون -لا سمح الله- تيسير أشاعة الفاحشة من حيث يريدون الخير ومن الوقوع في مغبة ما حذر الله منه وخوف عباده من قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وإني لأدعو إلى معاودة قراءة ما كتب في الموضوع وما نشرته هذه المجلة يومذاك في عديدها الأول والثاني للسنة الثالثة عشرة كيما يرى الناظر المتدبر أن الدليل قائم أبدا -وهو ما أوضحه الدكتور هويدي- مع أولئك الذين يريدون للأمة أن تلتزم بالمنهج القرآني والأدب النبوي. وأن العلم والحجة شيء، والتأويلات بالهوى تسويغاً للواقع وترويحاً له شيء آخر وإني لأدعو الله تبارك وتعالى أن يجعلنا وقاين عند الحق آخذين أنفسنا بالعزم والحزم وأدب التزكية كيما نكون عند قوله -صلى الله عليه وسلم-: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به». وقوله -صلوات اله وسلامه عليه-: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». بعيدين كل البعد عن مسالك من يرون المعروف منكراً والمنكر معروفاً. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فأرعهـا سمعك^(١)

يوم تنعدم الرؤية عند الكثيرين تحت وطأة العديد من الاعتبارات والملايسات . . أو يعتريها ما يعتريها من الغبش عند آخرين . . نتيجة الأعراض إلا عن الغرض الدنيوي القريب . . وعدم المبالاة إلا بما فيه المنفعة العاجلة . . يوم تقع الأولى ، أو الثانية ، أو كليهما . . تشتد حاجة الأمة إلى من يبصرونها الطريق . . ويرتادون لها المسالك التي تأخذ بيدها إلى ساحة وجودها . . وبعدها عن الضياع من جديد . . الأمر الذي يضمن لها بمنهجية وموضوعية . . تفادي الوقوع في براثن الوهم المبرقش . . والتزيين الخادع . . وأن يكون الفكر والسلوك أشبه ما يكون بالأزياء التي يعد لها العارضات والعارضون . . حسب المواسم والمناسبات . .

ولقد كان مما أكرم الله به هذه الأمة - وذلك معوان الرواد دائماً - أن جعل لرسالتها النص المكتوب المحفوظ . . والواقع العملي المنقول بأمانة عبر التاريخ . . يرثه الجيل اللاحق عن الجيل السابق . . وطرح على طريقها الأساس الذي ترتد إليه الأمور كلما أدلهمت الخطوب . . وغشي الرؤية ما غشيها من ثقل الفواجع . . ذلكم هو ربط الممارسة بالعقيدة . . ووضع سلم للقيم من خلال هذا الربط الوثيق المحكم .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الرابع، السنة السادسة عشرة، ١٣٩٥هـ جمادى الآخرة، ١٩٧٥م حزيران.



فأعمال الفرد والجماعة والأمة . . على صعيد المسؤولية بشتى ميادينها ومراحلها . . وعلى صعيد السلوك بكل مناحيه . . إنما تقاس بمقدار قرب الممارسة من مقتضيات العقيدة أو بعدها . . كان ذلك منذ بدء الدعوة . . يوم شقت طريقها في مكة المكرمة . . وما يزال هو السبيل لوضع الأمور مواضعها . . في ظل تلك القيم التي أنيطت بها العلاقة بين الممارسة والعقيدة . . بذاتية وصالة وبعد عن الهوى وضلال التقليد . . وهذا ما يجنب الأمة -في الوقت نفسه- مغية الغفلة ويعطيها القدرة على الفصل بين الاستفادة مما عند الآخرين . . وبين الذوبان وانعدام الهوية وتمزيق أو اصر الانتماء . . فحراسة العقيدة قائمة . . والعلاقة بينها وبين الحركة لا يصح أن تنفصم . . وكلما عصفت الريح . . أو ذرت الفتنة بقرنها . . وأريد للمؤمن في نفسه أو في أهله . . أو في أمته أن يحيد عن الصراط السوي . . تذكر فاعتصم بخير معتصم . . فأبصر وتبصر . . وفوت على العدو غرضه . . وباء الناعقون بالإثم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

وهذا ما يذكرنا باتجاه أولئك الباحثين الذين لا يقصرون الإيمان على التصديق القلبي الجازم فحسب ، وإنما يجعلونه شاملاً للعمل أيضاً أخذاً من قول الرسول -صلى الله وسلم عليه- : «الإيمان بضع وستون -أو بضع وسبعون- شعبة ، فأعلاها كلمة لا إله إلا الله ، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق» وهذه الكلمات النورانية في رسم معالم الإيمان ، نراها تفيض بياناً

في ظل آية البر في سورة البقرة حيث جعل الله من البر - وهو الكلمة الجامعة لكل معاني الخير - بعضاً من أركان الإسلام وبعضاً من أركان الإيمان حتى ختمت الآية بغرائد من الأخلاق حين قال تعالى : ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ نقول هذا غير ناسين أن الممكن التوسع في فهم «إمطة الأذى» والإشارة في هذا المجال تغني .

وإذن : فعندما يضع الحديث مدارج للإيمان تبدأ بكلمة التوحيد وتنتهي بإمطة الأذى عن الطريق . . عندما يضع الحديث ذلك يكون الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد رسم ببيانه النبوي وكلماته الجامعة كل الأطر التي يجب أن يتحرك خلالها المؤمن ، وحدد كل المنطلقات التي تحمل الضمانة الكافية لمواكبة الرسالة التي حملها عهداً وبيعة ، والتزم بمقتضياتها أمام رب العالمين .

ومن هنا كانت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في الخطاب القرآني ، حداء أهل العزائم في الفهم عن الله أن كل صغيرة وكبيرة على صعيد الفرد والجماعة ، وعلى صعيد المسؤولية برجالها وميادينها قائمة على ربط العقيدة بالممارسة اليومية لشؤون الحياة - دون استثناء - وبالتالي : فمقياس الخيرية أو عكسها لا بدع أن يكون منوطاً بتلك القيم التي ينشئها الربط الوثيق بين العقيدة والعمل ، فبمقدار ما يكون من الالتزام يكون حجم الحكم ونوعيته على هذا الإنسان أو ذاك وعلى هذا العمل أو ذلك بعد أن يكون المرء قد أمتحن نفسه



بأمانة . ولهذا قال عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- : إذا رأيت الله يقول : يا أيها الذين آمنوا فارعها سمعك . وهنا تكون قيم الأمة في معتقدها وتشريعها ومنهجها في الأخلاق والسلوك هي الحكم في ملء ساحات الحياة وهي صاحبة الكلمة المسموعة في تفسير الوقائع وقياس نجاحها أو فشلها . . .
كيما تكون حركتها في التاريخ . . على صراط سواء مع الذي كان نقطة التحول في حياتها يوم اشرقت على ربوعها شمس : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً . . .» .

وما من ريب في أن الأمة اليوم . . وقد اختلط كثير من الباطل بالحق . . وتهاوت أقدام الكثير من الضعفاء تحت مطارق الوهم ووساوس الأبالسة . . في إبراز الإسلام والعاملين له على الشكل الذي يريده أصحاب هذه المطارق وتلك الوسوس . .

أقول : ما من ريب في أن الأمة حين تدعى إلى استئناف الطريق وأحكام الربط بين العقيدة والحركة في تصورها وعملها وحكمها على الوقائع والأشخاص . . إنما تدعى إلى الاختيار الصعب . . ولكن ليس غير هذه السبيل النبيرة سبيل . . إلا ما يكون من سبل تقود أصحابها إلى الهلكة في الدنيا والآخرة . . ولجهنم -دائماً- دعاة على أبوابها من أجابهم إليها قذفوه فيها . . ومن استشرَف للفتنة استشرفت له وما ربك بظلام للعبيد ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ فَتَفْرَقَ بَكُمُ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ .

وعندما نقول : إنه الاختيار الصعب فإنما نعني ما نقول ، ذلك لأن عقبات

جساماً من داخل النفس ومن خارجها، أصبحت جاثمة على طريق من يتبغي الحق، ويعمل على أن تكون حبله موصولة بما جاء به محمد بن عبدالله من البينات والهدى .

هذه واحدة، وأما الثانية: فإن هذا الاختيار لا يعزل الزمة عن الحياة، وإنما يدعوها إلى الحياة ولكن لا على طريقة السفاحين وأعداء الإنسان الذين يسخرون منجرات العقل لهدم الإنسان . وكم تبذل من جهود . . وتستنفد من طاقات لاستخدام وسائل العلم الحديث، وأصول التربية وعلم النفس من أجل إعداد أو تنشئة على طراز معين من الفكر ولون متحيز من أولان السلوك . . كيما تحقق غايات نشط لها الأعداء من عشرات النسين .

من أجل ذلك -والله أعلم- بدأت كلمة الإسلام بقول الله تعالى : ﴿افْرَأْ﴾ وعني النبي -صلى الله عليه وسلم- بالفرد -على كل مراحل العمر- أيما عناية . . وكانت للناشئة لفتات خاصة منه -عليه الصلاة والسلام- ، من أجل أنهم النواة الطبيعية لتلك القاعدة التي يوجه إليها خطاب التكليف، وتنادى بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كيما تستشعر دئماً الأساس الذي يجب أن يقوم عليه البناء، وأن مقتضى الإيمان أن يصيخ السمع لنداء التكليف عقيدة وعملاً وجهاداً بما يلزم ذلك من الصبر والمصابرة . .

نعم كانت للرسول -صلى الله عليه وسلم- لفتات خاصة إلى فلذات الأكباد حتى إنه في شأن الصلاة التي هي ركن من أركان الإسلام ودليل



صدق التوحيد --- صاحبه، وبرهان الحرص على الصلة بالله عز وجل . .
في شأن ذلك قال -عليه الصلاة والسلام- موجهاً إلى تنشئة الأولاد عليها:
«مروا أولادكم بالصلاة لسبع وأضربوهم عليها لعشر» قال ذلك -صلوات
الله عليه- يوم كانت الزمة تعي أن الصلاة صلة بين الله وعبيده وأن ذلك
عنوان على سلوك ينتظم شؤون الحياة كلها، فالخالق الذي نؤمن بوحدانيته
ونتوجه إليه بالعبادة . . ولا تصح الصلاة إلا بكلامه العظيم . . هو هو
سبحانه . . الذي أكرمنا بشريعة لا تغادر ميداناً من ميادين الحياة إلا رسمت
له ما فيه صلاح الدنيا والآخرة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ .

ومن الناحية العملية: مر رسول الله بغلمان يتبارون في الرمي فقال لهم:
«ارموا نبي إسماعيل فإن أباكم كان رامياً» وأنضم مرة إلى فريق من الرماة
الصغار فغلبوا رفاقهم . . فعزا المغلوبون انهزامهم إلى انضمام رسول الله -
فداه أبي وأمي- إلى إخوانهم . . فانضم هو من جديد إليهم فكانت لهم
الغلبة . . أرايت!!

والرسول -صلوات الله وسلامه عليه- عندما يعني هذه العناية بالناشئة
ويدلنا بقوله وفعله على ما به يصلحون لحمل الرسالة . . يبين لنا أن هذه
القضية الكبرى في حياة الأمة لا تنطلق من فراغ . . وأنا حين نبني لا نكتب
على الماء . . وإنما ننطلق من أن كل مولود يولد على الفطرة . . وأن عامل
التربية من الوالدين أو من يقوم مقامهما . . له كبير الأثر -أو كله- في المحيط
الذي يمكن أن يتشقف فيه الطفل بعقيدته وأخلاقه وسلوكه، ومثله التي

توجهه . . فإما أن تتساق التربة مع الفطرة . . فيكون البناء السليم على الأصل الذي خلقه الله عليه . . وإما أن تنقلب الآية . . فتنحرف بالناشيء إلى حيث تتغير الوجهة ويظلم الطريق والعياذ بالله . . لذا يبلغ الأمر بالرسول - عليه الصلاة والسلام - في تجنب الأولاد أذى الانحراف ولو احتيلاً أن يقول للآباء والمربين عن الأخوة: «وفرقوا بينهم في المضاجع».

وإذا كانت توجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم - تنطبع بهذا الحرص على سلامة الوجهة وحسن الإعداد لحمل أعباد الرسالة . . فإنما ذلك منه فقرة من فقرات البيان والتطبيق للمحة كريمة من لمحات المنهج القرآني . . حيث دلنا القرآن بعمق على الواجب المحتوم تجاه الأسرة . . وأن خير الدنيا وسلامة العاقبة في الآخرة إنما يكونان بأن تستنفذ كل الطاقات على صعيد التربية القرآنية لأعداد الجيل القرآني ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ .

ولقد كان الصحابة - رضوان الله عليهم - عند هذه الوقفة المحمدية في التوجيه . . ومن صور ذلك أنه - عليه الصلاة والسلام -، كان يحاور أصحابه في مجلس من مجالسه، فسأل عن الشجرة التي إذا قطع رأسها تموت . . وكان الأمر غاب عن الموجودين . . ومن كان في المجلس عبدالله بن عمر وكان طفلاً . . فقال لوالده من بعد: لقد عرفت الجواب -إنها



النخلة- ولكنني هبت القوم، فقال عمر -رضي الله عنه- أما أنك لو قلتها لكنت أحب إلي من حمر النعم .

وكان أن أثمرت هذه التربية المرتبطة بأصول العقيدة ومنهج القرآن ثمراتها . . حتى رزينا بعض الفتية الصغار -كما حصل لرافع وسمرة رضي الله عنهما- يتبارون في سلوك السبل التي تتيح لهم أن يحظوا بإذن المصطفى لهم بالاشتراك في التقال . . قتال أعداء الله . . وفي السيرة بخاصة . . والتاريخ الإسلامي بعامة . . ومضات من ذلك ومضات . . جديرة أن يتدبرها أهل البصائر والقلوب . .

ولم يتخلف الواعون من أبناء الزمة عن أن يكون ضياء القرآن وهدى النبوة هما العنصران الرئيسيان في امداد الجيل بكل ما ينفعه وإعدادة لحمل الأمانة في كل الميادين . . حتى حملت إلينا وقائع التاريخ نماذج رائعة من الوعي، والشعور بكرامة الإنسان . . مما يدعو إلى كثير من الاعتزاز. هذا عمر بن الخطاب أمير المواطنين يمشي في بعض أزقة المدينة . . وفي جانب من جوانب الطريق أطفال يلعبون، حتى إذا رأوا عمر انفضوا إلى هنا وهناك ما عدا طفلاً واحداً لم يبارح مكانه، فسأله عمر ما لك لم تنصرف كما فعل رفاقك، فكان جوابه: ليست الطريق ضيقة فأوسعها لك، ولا أنا جان فأخاف منك . وسأل عمر عن الطفل فإذا هو عبدالله بن الزبير . . حتى على صعيد السمو الروحي والخشية من الله جلت قدرته . . رأينا من ثمرات الإعداد القرآني والتربية النبوية العجب العجاب، فقد ذكرت المصادر أن

بعض العلماء كان يمشي في الطريق فرأى فتى صغيراً يبكي بحرقة، مما لفت نظر هذا العالم، فقال: يا بني مالك؟ وحاول الطفل أن ينصرف عن الإجابة، ولكن تحت الحاح ذلك العالم الجليل قال: يا عم رأيت أُمي عندما توقد النار لتطبخ لنا، تشعل قطع الحطب الصغيرة.. وبها تشعل القطع الكبيرة.. فأنا أخشى أن يكون الأمر في جهنم كذلك عندما تسعر بأصحابها.. وأبكت الركل الكبير.. كلمات الفتى الصغير.. وأفاضت دموع الخشية من عينيه، وسأل عن الفتى.. فإذا هو زين العابدين بن الحسين -رحمة الله عليهم أجمعين-.

وهذا الذي نذكر به هو الترجمان العلمي.. والدليل القاطع لمن أراد مقنعاً.. وإنها لمواقف تدعو إلى التأمل المتأنى العميق.. حين نحزم أمرنا على أن تكون الحلقات مترابطة في سلسلة تبدأ من أعداد الطفل وتنتهي بجنة عرضها السماوات والأرض مروراً بمبادئ من الفكر النقي الأصيل، والعمل المرتبط العقيدة.. والممارسة التي هي صورة عن صدق الإيمان.. والوفاء بعهد الإسلام وذمة هذه الأمة.. والعبير الذكي من دم شهدائها.. وتحرك أبطالها وعلمائها ومفكرها..

وغني عن البيان أن أقل ما يقال في هذا الأمر أنه لو من ألوان الاستجابة التي يفرضها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ إن الحياة الحقيقية بنص هذه الآية كائنة في الاستجابة لله وللرسول.



وهذا أمر لم يعد يحتمل أن يظل كلمات ميتة تتردد على الألسنة ، والعمل في معزل . . ولئن ظل الأمر كذلك . . لسوف تنتصب هذه الكلمات حجة على أصحابها في يوم لا مفر منه ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . ألا إن كلمة الله قائمة ما دامت السماوات والأرض . . . والخطاب القرآني آية الهداية لهذه الأمة وقوتها بعد الضعف وعزها بعد الذل . . . وليس بمغنيها عن ذلك تعللات . . ولا تأولات . . فطريق الإسلام بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك . . ومن الخير أن نكون على ذكر من قول الله تبارك وتعالى في رسم معالم الطريق : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿ ٢٠ ﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿ ٢١ ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِّنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴾ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . . ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

ومن أحسن من الله صبغة^(١)

ما نظرت في شيء من أخبار الأسراء والمعراج، إلا شدتني ذكرى المعجزة إلى دلالة المعجزة، واستوقفتني ما هو عميق في أبعاد التاريخ.. لأرى من طريق النقيض واقعاً ضربته الغربة، وعدا عليه الاستخذاء.. حتى تبدلت المعالم واشتد على حداة الركب الظلام..

ذلك لأن المعجزة بوصفها دليل صدق الرسول في دعواه، تجعل من الأسراء والمعراج قضية كبرى في حاية المسلمين، تبعث في القلب مزيداً من الطمأنينة، إلى أنه لا مندوحة من طريق صاحب الذكرى.. وأنه لا عذر لمتخلف.. في الابتعاد عن نهج الهدى الذي جاء به محمد -عليه الصلاة والسلام- وأن الذين يستعلون بالإيمان.. فيتجاوزون الصعاب.. ويقبضون على الجمر في ظلام الغفلة والبعد عن الله.. هم على قدم الصدق في ضياء المحجة البيضاء.

وعلى هذا.. فالدعوة إلى سلوك ذلك النهج من جديد.. حيث يتوافر للمؤمن تفتح العقل.. ووعي الواقع.. وصدق الالتزام.. هي دعوة الخير.. والنصح لله ولكتابه ورسوله والمسلمين..

وليس ما نقوله بدعاً في الوقفة المستأنية الواعية عند هذه الذكرى.. ولكنه في نظرنا واجب الدعوة إلى أن تكون الأمة على يقظة في ربط ماضيها

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان الخامس والسادس، السنة السادسة عشرة، ١٣٩٥هـ رجب - شعبان، ١٩٧٥م آب - إيلول.



بحاضرها في منهجية وموضوعية . . من طريق العقيدة التي هي قاعدة فكرها وتصورها، وسنام الأمر في عمق نظرتها إلى الحياة . . تلك العقيدة التي حملها إلى الناس محمد بن عبدالله -صلوات الله وسلامه عليه- وحيًا من عند ربه عز وجل وجاءت المعجزات تؤيد أنه إنما يبلغ عن رب العالمين .

وحين تكون القضية علي هذه الشاكلة . . تعطي المعجزة في دلالتها وأبعادها أيضاً . . قيمة من قيم دعوة الإسلام . . في ماهية الرابطة التي يجب أن تكون مدار العلاقة بين المؤمنين . . ذلك أنها تأخذ القلب إلى القلب . . والمشاعر إلى المشاعر . . في جو من صبغة الإيمان التي هي صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة!!! وعندها تبدو والروابط المصطنعة الأخر، روابط مقطوعة عن الحياة . . مهلهلة تافهة -عندما يراد الاقتصار عليها- لا تقوى على خدمة الحق أو تجاوز الصعاب . . من أجل هذا كانت الحقيقة التي أعلنها القرآن الكريم ﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ..﴾ . ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ .

ومن هذه النافذة المضيئة: إذا كان الإسراد والمعراج مع وصف المعجزة العظيمة الباهرة . . لونا من أكرام الله لنبيه -عليه الصلاة والسلام- في السنة التاسعة، ومواساة له فيما كان من عام الحزن، حيث وفاة عمه الذائد عنه أبي طالب . . وزوجه الصادقة الوفية الصابرة الحصيصة خديجة -رضي الله

عنها-، وما كان من ثقيف حين ارتحل إلى الطائف يدعوها إلى الله . .
أقول: إذا كان الأمر كذلك . . فإن ما يهيم فيه المسلمون من واقع التجزئة
والتمزق في الأرض والفكر . . والقضايا الملحة هنا وهناك . . وعميق الجرح
في فلسطين وما حولها، حيث المسجد الأقصى ينادي المشاعر ويعتصر
القلوب . . إن هذا الذي يأخذ على الأمة مكاناً من انطلاقها . . وأداء رسالتها،
جدير أن ينظر إلى علاجه وطريق الفكك من أساره . . من خلال وحدة
العقيدة وما ألف الله عليه القلوب . . على اختلاف الاجناس والألوان
والألْسنة والأمصار . . ومن خلال العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد
الأقصى . . تلك العلاقة التي لا يفصم عراها الزمن . . مهما استشرى
البغي . . واستنسر البغاث . . وذلك ما يمكن لكل الروافد في دنيا الإسلام
أن تنصب في نهر الاهتمام الصادق . . الذي لا غرض من ورائه إلا نصره
الحق الذي أسملته إلينا الاجيال التي أسلمت وجهها لله . . وليس آخر
الثمرات لذلك ما يكون من الجهاد في سبيل الله . . حيث تحشد الطاقات
كلها . . والقدورات كلها . . تحت سلطان العقيدة . . التي تجعل العمل
الدائب لإعلاء كلمة الله أمراً لازماً . . لا يجوز التحلل منه إلا بعذر قاهر
ترتضيه شريعة الله . . إذ كيف تعلو كلمة الله في أرض للغاصب الدخيل
فيها أيد وسلطان . . فهو جاثم بكل دنسه وأوضاره على مراع القداسة
والطهر . . يعبث حتى في الأقصى مسرى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فساداً وولوغاً في الإثم . . وعدواناً على الفضيلة وإنسانية
الإنسان . . وزاد الأمر ضغثنا على إبالة ما لبس على الأمة في شؤونها . .



فأصبح غير قليل من أبنائها -نتيجة ذلك التلبيس- يرى المعروف منكراً، والمنكر معروفاً. . بل ترى البعض يقع في معرة الأمر بالمنكر والنعي عن المعروف. . وما أوسع الميادين التي جعل الإسلام فيها حراسة المجتمع من ادخل، وعنوان الوعي في الشعور بالمسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . فالمفروض أن تدرك الأمة ما هو معروف، وتدرك ما هو منكر -على كل صعيد- ويقف كل عند المسؤولية فيما ولاه الله رعايته من الأمر فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. .

وعندما نقول هذا في ذكرى الإسراء برسول الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم العروج به إلى السماء. . وإكرام الله له بذلك. . وما كان من فرضية الصلاة ليلتذاك. . فإنما ندعو إلى الخطوة الواعية الحازمة التي يفقه أصحابها معنى العقيدة. . ومقتضياتها. . وساحات التزام تلك المقتضيات. . ومن ذلك أمر الله بالإعداد. . في شموله ومقدماته وحقيقته. . وتنوع ذلك حسب تطور العصر ومنجزات العلم الحديث. . لأن القرآن الكريم. . كان من اعجازه في تشريعه وتوجيهه. . أن جاء بالعموم والإجمال في أكثر القضايا. . تاركاً -مع النبيان النبوي- للزمن ومقتضياته علاج ما يكون من قضايا طارئة في ضوء تلك الكليات الكبرى. . وضمن خطوطها التي رسمتها النصوص.

نقول هذا -ونحن على مثل اليقين- من أن تلك الألاعيب الغبية أو الذكية. . وتلك المعادلات الظالمة التي ترتب على الدعوة إلى الحقيقة كما

يراها الإسلام، بعيداً عن المعرفة والقوة، ومعطيات العلم التقني . . لم تعد تنطلي على الواعين من أبناء الأمة . . إلا أن يكون هنالك المغفلون . . الذين يكتمون -تحت وطأة مرض القلب- ما يعتقدون أنه الحق . . تمكيناً لأهداف هي أكثر ظلماً وشناعة من تلك المعادلات وأهليها . .

ألا إن ذكرى الإسراء والمعراج . . والنظر من خلالها إلى واقع يذوب له القلب . . بوصفها واحدة من معالم الضياء في كيان الأمة . . من حيث صدق الرسالة . . ورابطة العقيدة بين المؤمنين . وما يترتب على ذلك من مسؤولية يو: دها مفهوم الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى . . إن هذه الذكرى جديدة، . . إذا انحسر طائف شياطين الأئس والجن . . أن تتفتح لها القلوب . . وأن تتبصر دلالتها العقول . . كيما تقول العقيدة كلمتها . . وتقف الأمة حيث ارتاد لها المجاهدون الأولون الطريق . . لتكمل رحلة الإيمان والصبر في سبيل الله . . فتجنيد كل الطاقات على صعيد وطننا الكبير . . لأن المشكلة مشكلة كل من يدين بهذه العقدة . . ويهفو قلبه إلى أرض الإسراء والمعراج . . ويلذع كبده أن يعيش اليهود على أرض الطهر والقداسة . . ويهددوا بوجهودهم ومخططاتهم المفضوح منها والخفي . . حتى أرض الحجاز وما عليها من مهبط النور ومهد الرسالة . . ولله الأمر من قبل ومن بعد . . إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



لعلكم تتقون^(١)

يتقلب الليل والنهار . . ويذهب جيل ليسلم الراية من بعده إلى جيل . . وتظل القضية المطروحة في دنيا هذه الأمة -ومصائبها اليوم ظلام ودخل- إلى أي حد بلغ بنا الوعي الذي قوامه استئناف الطريق التي شرعها رب العباد . . وأداها رسالة ربانية نبينا الكريم -صلوات الله وسلامه عليه-، وحولتها العصبية المؤمنة -على مدى التاريخ- إلى واقع عملي يسعد الإنسان ويضع الأمور في نصابها على اختلاف الأجناس والألوان والأمصار، وعلى تقارب أو تباعد فترات التاريخ . . وتلون الخصائص في الأرض والمناخ والمناسبات . . ذلك لأن الرسالة هي نفسها كانت قادرة دائماً على إيجاد المناخ عند استجابة الإنسان . . وسرعان ما تتحول الطاقات كلها إلى عطاء . . وما كان منها هدرأ ضائعاً أصبح ثمراً يتخطى الحواجز والحدود . . وهذا كله لا يتنافى مع هنات تقع هنا وهناك . . ولكن الذي يلف الكيان هو ذلك الحزام المضيء من مبادئ الرسالة وأحكامها والتباري في تطبيق شرعها وحسن الالتزام بها .

أقول هذا وهلال شهر رمضان المبارك يطل على أمتنا في وقت تكاثفت فيه الظلمات . . وضافت الحيلة . . وبدأت على كل جانب من جوانب الطريق فتنة تدع الحليم حيران .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السابع، السنة السادسة عشرة، ١٣٩٥ هـ رمضان، ١٩٧٥ م تشرين الأول.

ذلك أننا لن نبلغ درجة الإفادة الحقة من هذه الشرعة المباركة صوماً عن المفطر وتلاوة وتدبراً للقرآن . . وخشوعاً صادقاً لله تبارك وتعالى . . إلا إذا تحركنا مع حذاء القرآن الكريم . . ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ثم مع المحتوى التاريخي والعملية لهذا الشهر المبارك في كونه شهر القرآن وبدر والفتح وليلة القدر . . فهو طاعة ومعرفة . . وجهاد وصبر . . ومصابرة وعبودية . . وإذا كان الوعي لاستئناف الطريق لا بد له - كما هو الأمر في المنهج الرباني - من أعداد الفرد، واستعادة الإطار العام النوراني لحياة الأمة . . إن هشر رمضان بكل ما فيه من الخير، صوماً عن المفطر والتزاماً لكل ما فيه الحراسة الصادقة للإمساك وسلامة النزوع إلى الأفضل في المعاملة مع الله ومع الناس . . إن شهر رمضان بما فيه من ذلك الخير . . وبما يحمله لنا نحن المسلمين من ذكريات نزول القرآن والجهاد في معركة الفرقان والفتح وغيرهما . . قمين أن يحقق الكثير الكثير مما يتبغيه الرواد الصادقون لهذه الأمة . . التي تدعى عليها الأعداء تحت شتى العنادين كما تدعى الأكلة إلى قصعتها .

إن جانباً كبيراً من الأهمية في الموضوع يكمن في القدرة على تجاوز السطح إلى القاع . . وإلى الربط بين عبادة الصوم وما يحمل رضاء من ذكريات ومعالم وبين الغايات الكبرى التي من أجلها شرعت العبادة وعنوان ذلك قول الله تعالى ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وإذا كانت التقوى مفتاح كل خير . . وعنوان كل فضيلة، ودليل للصدق



مع الله تعالى . . فذلكم طريقنا إلى استئناف طريق الرسالة المحمدية بك التزاماتها وشمولها لجميع شؤون الحياة . . فالتقوى عبادة، والتقوى علماً وعملاً بالقرآن . . والتقوى جهاداً صادقاً في سبيل الله . . كيما تكون كلمة الله هي العليا والتقوى استعلاء على الدنيا والطواف حول الذات، دوغماً حساب للمسؤولية يوم يقوم الناس لرب العالمين . . إن التقوى على كل صعيد من هذا الذي ذكرناه هي بعض مما يوحي به قوله جل وعلا ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

إن الواقع الأليم الذي يلف حياة الأمة في أرضها وفكرها وتنشئة أجيالها . . جيد أن يكون صوت النذير لإحلال عبادة الصوم محلها اللائق في النفس والقلب والعقل . . وتهيئة المناخ المناسب للإفادة من ذكريات رمضان التي أوجدت الإنسان، وبنّت الأمة التي مكن الله لها في الأرض .

وهذا التمكين الذي تفردت به هذه الأمة . . كان قوامه أنها حملت العقيدة، فكان الجهاد في خدمة العقيدة . . فقدمت للناس نسقاً جديداً للحياة . . وكان القتال في خدمة الغاية الكبرى التي يعنيها قوله -صلى الله عليه وسلم- : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» .

واستطاع المقاتل المسلم بصومه عن الدنيا، واستعلائه على الركाम وزهاده في الحياة المحدودة هنا . . أن يفطر على الموت في خضم المعركة، وأن ينشد الشهادة ومثار النقع منعقد فوق رأسه . . وأن يكون بعقيدته وفكره وجهاده والنظام الذي تبناه بلسماً لجراح الإنسانية في كل صقع ارتفعت كلمة

«لا إله إلا الله» وهذا فارق ما بيننا وبين غيرنا، عقيدة مباركة، وإنسانية مضمونة مصونة، والتصرفات كلها تحمل السعادة في الدنيا والآخرة. إلا أن الأمة اليوم على وجه العموم -وفي جيلها الناشئ على وجه الخصوص- بأمس الحاجة إلى دم جديد ونسغ جديد ولا يكون ذلك إلا من النبع المحمدي الأصيل. . . وعندها تبدأ كلمة التوحيد أن تكون وقود حياتنا من جديد. . . ونعود بالقرآن في مدلولاته وكل ما يريد خير أمة أخرجت للناس. . . ونؤوب بعد الضياع لنكون في عداد القافلة التي قاد خطاها محمد بن عبدالله -صلى الله عليه- عندها نكون سادة الموقف، غميلي ولا نستملي، ونعطي ولا نستجدي. . . ولأن موقفنا موقف الأصالة والذاتية. . . فلسنا عبيداً إلا لله عز وجل.

ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله. . . ويبصر من لهم بصيرة بأم أعينهم صدق ما كتب الله علي اليهود وأذنبهم من الذلة والمسكنة. . . ويتبين العقلاء كل العقلاء. . . أن ضعفنا اليوم هو الذي يظهرهم -بالدرجة الأولى- من الأقوياء، فحين نعود إلى القافلة بحرارة الإيمان وشجاعة الجهاد، والرغبة في الشهادة، وصدق الالتزام للإسلام تعود الأمور إلى نصابها ويصدق فينا قول الله تعالى في شأن المؤمنين يوم الأحزاب. ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

ومن هذه الزاوية ترى شناعة ما يلغ فيه من الإثم أولئك الذين ينتهكون حرمة هذا الشهر المبارك بكل ماله من الفضائل والخصائص وما هو مثقل به



من ذكريات القوة والخلود، فيخونون الأمانة ويضعون أنفسهم في مصاف المخلوقات التي ليست أهلاً للتكليف، ويعدون على النظام العام لأمة كانت بهذا الدين خير أمة أخرجت للناس. . والمفروض -بقليل من الذوق- أن يكون هنالك على الأقل صون لمشاعر الآخرين أن تجرح من قبل أدعياء التحضر والذوق، ليت شعري أليست كل تلك النذر المزروعة على طريقنا كافية للردع عن مهاوي الضياع وحملنا إلى حيث تكون أركان الإسلام مما يزداد به سلوكنا وتصرفنا وما عليه الوفاء لأمتنا ورسالتها في العالمين. . وأن ينهض المتثاقلون إلى ساحة الرشد فيخلصوا لأنفسهم ولا متهم ويدعوا التراقص على مزامير الشيطان. .

إن عبادة الصوم في رمضان وهي من عيون أركان الإسلام قادرة في كل وقت إذا نحن صدقنا العهد، وصحونا على حذاء القافلة من جديد أن تصوغ الجيل المؤمن القوي المجاهد الذي تناط به الغايات الكبار وتحقيق آمال الأمة التي تتطلع إليها عبر السنين، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، ولله الحمد أولاً وآخراً، فهو حسبنا ونعم الوكيل.

وضوح الرؤية .. وعامية الفكر^(١)

لعل من أهم القضايا الجديدة بالتواصي على صعيد البناء الفكري ضرورة وضوح الرؤية عند المسلم، كيما تستبين أبعاد الأمور في هذا العصر الذي اختلطت فيه المفاهيم والتبس الفكر المطروح بالأغراض القريبة أو البعيدة لأصحابه، وانداحت على أرض الواقع عناوين دعية النسب لما تحتها من مضمونات، وأخذت كثير من المضمونات عناوين بعيدة عن مدلولها ومحتواها. ومن يدري!! أهى المصادفة جعلتها كذلك، أم أن ذلك قد كان لحاجة في النفس توجه الفكرة والأسلوب. دعاوي يجفوها الواقع، وأوهام تلبس لبوس الحقائق، ودنيا تموج بذلك كله. والليالي مثقلات يلدن كل جديد.

وإذا كان الأمر كذلك فإن وضوح الرؤية يجعل المسلم على بينة من أمره فيما يتعلق بالفكر الإسلامي نفسه، معرفة بحدوده وأبعاده، وإدراكاً لأصوله ومنطلقاته، وعوامل التأثير والتأثر وما يترتب على ذلك، كما يقفه على الحقيقة فيما يتعلق بالأفكار الأخرى، وما يكون هنالك من التقاء أو افتراق في بعض النقاط. وإنما يتم ذلك حين يكون الانطلاق من قواعد فكرنا ومفهوماته، ثم تبين ما عداه من خلال مدلولاته ومؤثراته، لما أنه فكر متميز يرتبط بعقيدة لا بد أن تكون بما ينبثق عنها من نظم هي الوجه لمساره

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالث، السنة السابعة عشرة، ١٣٩٦ هـ جمادى الأولى، ١٩٧٦ م أيار.



اليوم كما كانت في الماضي . وحين نستهدي بهذا المحور من الحركة الفكرية نكون أقرب إلى الدقة -دائماً- في إعطاء القيم للواقع في الأعمال، والاشخاص الذين يمارسون تلك الأعمال، وفي الحوادث التي تطرح نفسها في دنيا عالمنا الكبير .

وهكذا يجعل وضوح الرؤية صاحبه في مأمن مما يقع به الكثيرون من عوام الفكر المستنير، والمحكمة السليمة للأمور، وهؤلاء -وهذا ما يؤسف له- أكثر عدداً من عوام القراءة والكتابة، وق يكونون أشد خطراً على الأمة من الجاهل البين الجهل . لأن هذا اللون من العامية أو الأمية في المحكمة، واستنباط الحقيقة من محتوى الوقائع وربط الجزئيات بالكلية دونما غفلة عن التاريخ ولا تثر بالضحيج أو مثار النقع المصطنع، من الأسلحة الفتاكة التي تصيب الأمة في الصميم .

ولو رحنا نتلمس المنهج الرباني، لوجدناه واضحاً في هذا التوجه؛ ففي القرآن الكريم صفحات وصفحات من تبيان حال المنافقين والكفار وأهل الكتاب عامة واليهود منهم بخاصة ثم من يسلك تلك السبل، والدعوة إلى العبرة بصنيعهم، وعدم الغفلة عن طباعهم وخلائقهم، وكما التنبه إلى أن أعمالهم وتصرفاتهم انعكاس يطبيعي لما هم عليه انحرافاً في العقيدة والخلق، وحقداً على الإسلام وأهله أو عداوة للحق وأهله في كل زمان ومكان . لذا فمن الخير عدم الاغترار بالعناوين، والنظر إلى حقائق الأمور، وليس إلى الأغشية المموهة، أو الاقنعة الظاهرة التي يراد من وضعها ستر الحقائق التي تكمن وراءها .

وهكذا كان المنهج الرباني لهذه النقطة بحسبان ، وتأکید ذلك أن كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، بعد أن عرض للعید من أخلاق اليهود ومكرهم ، ومجافاتهم طريق الهدى ، ومحلولا تهم ---- من دين الله والشریعة التي يبلغهم أحكامها موسى -عليه السلام- ، ناهيك عن تحريفهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل الكلام في التوراة ليكون وفق هواهم . نرى هذا الكتاب الكريم بعد أن عرض لذلك كله واضعاً يد المسلم على مكنن قضيتنا معهم في جوهرها ، جاءت الآيات الكريمة تعتب على المسلمين طمعهم في أن يؤمن هؤلاء اليهود أو يتبعوا سبيل الرشاد ، ذلكم قوله جال وعز ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِعَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

وللعقل أن يعمل عمله في متابعة الطريق الواعية من خلال هذا التنبيه على خلائق اليهود استدلالاً على وجوب أن يكون المسلمون على ذكر منها كي لا يطمعوا في إيمانهم . . وعلى ذلك فقس . .

إن التاريخ بحلقاته المتكاملة على تقلب العصور مثقل بالحوادث التي منها ما كان بجانب الصف الإيماني ومنها ما كان عوناً للكفر والضلال في مواجهة دعوة الله . . والقرآن بما نبه وأرشد ، وبما ذكر بالماضين وما حصل لهم ، وبما سرد وقائع حصلت للرسول -عليهم الصلاة والسلام- مع أقوالهم ، يريد لنا أن نعي . . ويريد لنا أن لا نقع في شرك الانفصام عن الماضي والإفادة مما



حصل ، والاعتبار بما وقع ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ . ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ . كل ذلك لكيلا ننسى ، لكيلا نؤخذ بالظواهر ، بل نربط الجزئيات بالكليات ، والتصرفات بأصل المنطلقات والسمات المميزة ، ونمسك بنواحي القضايا من أصولها الأولى .

وفي ضوء هذه الحقيقة يكون لازماً على هذه الأمة اليوم أن تعمل على وضوح الماضي ومعطيات التاريخ في الحكم على الوثائق والاشخاص .

إن عامة الجهل بالتاريخ القريب أو البعيد ، أو عدم القدرة على التذكر والنظر إلى المقدمات والنتائج . . ظاهرة من ظواهر المرض الذي يضرب بجراحه على هذه الأمة . . والرواد مسؤولون عن التوعية والدلالة على معالم الطريق . . لقد كان لهذه الأمة عبر تاريخها أعداء ينطلقون من مخالفة العقيدة ، والتنافر الفكري ، أو الحسد والبغضاء وكانت لهم مواقف . . ومواقف . . وقد تختلف الأسماء ولكن المسمى واحد . . ودائماً في قضايا العقيدة . . ما أشبه الليلة بالبارحة .

وأما كثير من التناقضات ومظاهر الغفلة في محاكمة الأمور أو الحكم على الأعمال والاشخاص يقف المرء متسائلاً عن هذا الانفصام عن دنيا التاريخ والماضي ، مع أن الحاضر امتداد للماضي والمستقبل تطل بتأثيره من خلال الحاضر في كثير من الأحيان .

إن الناقد البصير حين ينظر إلى وقائع تاريخنا في الزمان والمكان ، وأعني بالمكان المشرق ، والمغرب في الأندلس وما حل على الأرض المسلمة عبر

القرون يعود بزاد أي زاد، يقوى معه على تفسير القضايا وسلامة التعليل، والقدرة على إعطاء الحكم البعيد عن الارتجال والتناقض. . أرأيت إلى الذين ابتليت بهم هذه الأمة من خارج حدودها كالتتار والمغول والصليبيين. . أو من داخل أرضها وكل أولئك الذين كانوا طفيليات على جسمها مع دعوى أنهم من أبنائها وتربطهم بها آصرة العقيدة. . أرأيت إلى هؤلاء وأولئك ممن ناصبنا العداء بعدد من الصور والأشكال.

كم نكون متمرغين في أحوال الخيال والغفلة حين نقرأ فننسى أو نعبث بالحياة وتعبث بنا فلا نعي واقعاً، ولا نعتبر بماض، ولا نملك القدرة على رد القضايا إلى أصولها الأولى باستذكار تاريخها ومنطلقاتها وماقفها من الإسلام قريباً أو بعداً، وعلى أي محور كان هذا القرب أو البعد.

أن من الغفلة الغافلة أن نتساءل عن العقرب لم تلدغ؟ لأن الجواب الطبيعي أنها تلدغ لأنها عقرب.

وفي كلام موصول مع المنهج القرآني أو ليس من أوليات المسائل أن نكون مع هذا المنهج حين يشدنا إلى الحقيقة إذ نراه يخاطب اليهود في عصر الرسول -عليه الصلاة والسلام- بأعمال أجدادهم الأولين وكأنهم هم الذين فعلوا وفعلوا عبر التاريخ الطويل. .

إن القرآن هو الذي قرر أنه لا تزر وازرة وزر أخرى. . ولكن اليهود في عهد البعثة على ما بينهم وبين أجدادهم الماضين من البعد الزمني فإن الطينة واحدة. . والمكر واحد. . والعبث بدين الله واحد. . والحق على الإنسان



والإنسانية واحد - ناهيك عن التحايل والمكر وتحريف الكلم عن مواضعه
وقل مثل ذلك في أحفاد غيرهم وغيرهم وبئس الأحفاد والأجداد .

إن هذا المنهج الذي يشدنا إلى الحقيقة جدير أن يوقظ الغافل ويبصر من
كادت الغشاوة تطبق على عينيه .

يا أيها الرواد . إنها الأمانة . . أمانة تبصير الأجيال بحقائق الأمور . .
وتفتيح أعينهم على الإفادة من وقائع التاريخ . . وتربية ملكاتهم على القدرة
والنفاذ في أن يربطوا الجزئيات بالكليات . . ويردوا التصرفات إلى أصولها
الأولى . . كيما يتم لهم رؤية وسلامة الطريق . إنها أمانة أن نفيد من وسائل
المعرفة التي كرم الله بها الإنسان . . فلقد نعى الله على أقوام أعطوا وسائل
المعرفة ولم يحسنوا استخدامها مع أن الله لم يعطهم إياها عبثاً ، وإنما كان
ذلك كيما تكون منتجة مثمرة ، ولذلك اعتبرهم وكأنهم فاقدوها ، لأنها
معطلة لا تعمل كما أراد لها الله أن تعمل . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا
لَهُمْ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا
وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ .

أنا لنعيذ أمتنا - وهي تعاني من التحديات ما تعاني ، ويصيبها من الأعداء
ما يصيبها - أن ينالها من الأذى الداخلي ، في ذاتها وتصرفاتها أكثر مما ينالها
من العدو الخارجي أو أعوانه . إنا لنعيذها من ذلك لأنه الطامة الكبرى
ولأنها إن وقعت في هذا الخبال حق عليها ما حذرت منه الآية الكريمة والله
المستعان على كل حال ولا حول ولا قوة إلا بالله .

لعلهم يتضرعون^(١)

بعيداً عن موضوع الأسباب والمسببات دون إهمال ما يجب . بعيداً عن جو المقدمات والنتائج من غير سطحية واسترخاء . . بعيداً عن الكد الذهني ، والنصب الفكري . . وعن التفصي القاتل هنا وهناك . . بعيداً عن الاستقراء المضني للأحداث الجارحة تهزأ بالعقل . لما أن الإنسان ليس منها بحسبان . . بعيداً عن ذلك كله . . ظاهره وباطنه . ما أتفق مضمونه مع عنوانه . . وما خالفت حقيقته شعاراته وعناوينه ، يجد المرء نفسه - وقد أظلم الليل . . وضافت الحيلة - مشدوداً بقلبه إلى الحبل ادي لا تنفصم عراه ، والطريق الذي لا يتيه سالكه . . طريق الاتصال بالله جل شأنه . . وصدق التضرع إليه . . وتمزيغ النواصي بين يديه . . في لجأ خالص هو عنوانه العبودية السليمة من الشوائب . . واليقظة التي يمن الله بها على عباده المقربين .

لقد ذكرت ذلك -وياالضعف الإنسان حين ينسى- وأنا أقرأ قول الله تبارك وتعالى - خطاباً للنبي -عليه الصلاة والسلام- والشدة الشادة تأخذ على الفئة المؤمنة منافذ الحياة: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ (٤٢) ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

أرأيت إلى قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ كم يعطي وزناً للضراعة الخاشعة لله جلّت قدرته . . وكم في ذلك من إيذان بأن هذا العبد الخاشع الضارع

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الرابع، السنة السابعة عشرة، جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ، تموز ١٩٧٦م.



الذي رق قلبه . . وأكتحلت بدموع الخشية عيناه . . قد رجع إلى الله موقناً بأن بيده مقاليد السموات والأرض . . وأن هذا العبد قد انجلى الغشاوة عن عينيه وأبصر الطريق .

ثم : أرأيت إلى الحُض على التضرع . . ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴾ وبيان أن قسوة القلب - وما أبعد القلب القاسي عن الله - حالت دون هؤلاء ودون أن يدعوا ربهم خاشعين خاضعين فيكشف ما بهم من ضر . ﴿ وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لا ما أكثر الشياطين . . شياطين الأنس والجن . . وما أكثر الأساليب والطرق التي يستخدمونها للتزيين . . وما أنشدتها ضرورة أن يكون المؤمن في عصرنا الحاضر على بينة من أمره فيما هو من تزيين الشيطان . وما هو من هداية الرحمن ، كيلا تزل قدمه . . فيكون - بتزيين الشيطان - من الأخسرين أعمالاً . . الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . وكيف لا تشتد ضرورة التبين . . والفتن تتحدى القلوب والنفوس . . تحاول أن تنفث فيها مالا تصنعه خيوط الظلام . . كيما تنكت في قلب المؤمن تلك النكتة السوداء التي ما تزال به . . حتى يتحول - والعياذ بالله - عن طريق الجادة . . ويسقط في أحبولة من أحابيل الشيطان . . غنيمة باردة لأعداء الله والإنسان . . وإغما منجاته بعد التبين . . عمل صالح يشمل في مدلوله كل ساحات الممارسة والعمل . ولجأ صادق إلى الله الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء . . إلى الذي لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه «بادرُوا بِأَعْمَالِ

الصالحة . . فستكون فتن كقطع الليل المظلم . . يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً . . ويمس مؤمناً ويصبح كافراً . . يبيع أحدهم دينه بعرض من الدنيا» .
ولا ريب عندنا أن حسن الضراعة وصدق التوجه إلى الله . . من العمل . .
لأنه عنوان عبودية وامتنال لما هو من أمره سبحانه .

هذا: وليس الأمر فيما عرضنا له في صدر الكلام قصراً على الآيتين
اللتين استهل بهما الحديث . . ولكنها آيات بينات ذوات عدد في رياض
كتاب الله . . تطلع عليك بهديها واشراقها، فإن أدركت العناية، وتفتحت
للقرآن بصيرتك . غمرك نورها . . وشفى قلبك عبيرها . . فاستلهمت
الكلمات وما هو وراء الكلمات . . وسموت إلى ذلك العبق الزكي الذي
كانت تنشره في أجواء أولئك الأبرار الذين رباهم رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - على عينه، وأحكم بهم مغاليق الأذى عن الإنسان . . وفتح
بإيمانهم، وجهادهم، وحسن صلتهم بخالقهم . . أبواب الخير في التاريخ .

نعم تطالعك الآيات . . بالهدى يتمثل فيه ارتباط الحاضر بالماضي . .
وتقفك على سنن الله الكونية في دنيا الخليقة . . وتعطيك مفاتيح التفسير
القويم للتاريخ في ضوء هذه السنن . . وعلى هدي ما أراد الله في خلقه
وتدبيره والغاية التي من أجلها خلق الإنسان . . علمه البيان . . حيث يتحرك
الوجود منذ أوجد الله الحياة . . على محور رباني لا يزيج ولا يريم .

فمثلاً: بعد التذكير بعدد من الآيات الدالة على قدرته سبحانه وأن بيده
ملكوت السماوات والأرض وأنه القاهر فوق عباده . . يقول تباركت



اسماؤه: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ولقد روى الإمام البخاري أنه لما نزلت ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ .. الآية . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «أعوذ بوجهك» .

وفي سورة (المؤمنون) نقرأ قول الله جل وعز: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ وإذا كانت هذه الآية قد نزلت في مشركي قريش . . فما أحرانا أن نفيد من مداولاتها ومراميها . . أنظر إلى قوله: ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ أليس هذا دليل أن الابتداء هو تلك القوة الربانية التي تقود الناس إلى ربهم فيبسطون إليه أيديهم مستكينين ضارعين . . مما يترتب عليه استئناف مسيرة الخير ومناصبه العداة لكل شيطان سول لهم وأملى لهم .

قال الحسن البصري: إذا أصاب الناس من قبل الشيطان بلاء، فإنما هي نقمة، فلا تستقبلوا نقمة الله بالحمية. ولكن استقبلوها بالاستغفار وتضرعوا إلى الله. وقرأ هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ ولست في هذه العجالة بسبيل استقصاء ما ورد في هذا الباب . . ولكنني بسبيل أن آخذ نفسي والقارئ الكريم بما هو بعض من مدلولات

العبودية وصدق الإيمان، وأن الأمر بيد خالق القوى والقدر، الذي يهمل ولا يهمل، والذي يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته . . فالكلام كثير عن الأخذ بالأسباب، والدعوة إلى العمل، وشحن الطاقات الفكرية هنا وهناك . . ولكن قليلاً ما نرجع البصر إلى ساحة الرحمن، حيث الدعوة الضارعة، والدمعة الخاشعة، حيث لغة القلوب المكلومة، والنفوس العطشى إلى ندى الرحمة وتفريج الكروب . . حيث ركعتان في جوف الليل تغيران وتبدلان . . حيث دعوة مظلوم يغفل الظالم عنها، ولا يغفل الله الذي لا تأخذه سنة ولا نوم . . حيث يملك قول الله جلت قدرته ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ على المؤمنين ناصيته القول والعمل، ولا تجدهم إلا مصدقين بوعد الله، صابرين على ما أولاهم من نعمة ابتلائهم بالشغل الذي أقامهم عليه . . صنيع أولئك الذين كانوا رهبان الليل فرسان النهار . .

وإذا كانت السنة المطهرة ترجمان القرآن وبيانه . . فإن سنن رسول الله القولية والعملية دلت على أن مع الأخذ بالأسباب وأحكام الخطط، وأعمال العقل، والإفادة من العلم . . لا بد أن يكون المؤمن على المورد الأول من الصلة بالله الذي أنزل الكتاب وأوحى إلى عبده ونبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - ما أوحى .

لقد كانت حياة رسول الله أكرم مثل للجميع بين هذه الأمور كلها، وأدعيته منذ الاستيقاظ حتى النوم معروفة في نطاقها ومشهورة، وضرعه



عندما يشتد أكثر، ويحزب الأمر، غير خاف على من له أدنى مسكة من الإطلاق كما حصل يوم الطائف . . وما حديث العريش في بدر وما أهتزله من الدعا والضرع، والخضوع والتخشع بين يدي الله . . بغريب ولا منقطع . . مع الأخذ بكل مستطاع من وسائل القتال يومذاك . حتى عندما تتحدى الإنسان بعض لاظواهر الكونية من خسوف أو كسوف، أو اشتداد ريح أو غيرها . . كان -عليه الصلاة والسلام- يلجأ إلى الصلاة والدعاء . وبالجمله كان إذا حزبه أمر لجأ إلى الدعاء . ومن هديه أخذ العلماء مشروعية القنوت في الصلاة أيام النوازل . ولم يكن ذلك بصارفه أبداً عن العمل وأحكام الوسائل بين يدي الغايات ، وتعبيد الطريق ببناء المؤمن القوي . . بأوسع معاني القوة -ليكون! هلا لحمل العبء وأداء رسالة الإسلام في العالمين، إلا أننا نتمثل أمراً لله في العمل، ونتمثل أمر الله وأمر رسوله في اللجأ إليه وندعوه تضرعاً وخفية، فأزمة الأمور بيده، وسلطانه في العالمين هو السلطان، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره، عليه توكلنا وإليه نيب .

وأخيراً -وكم يستعصي القلم انعكاس قطع الليل المظلم، والحمد لله أن كان استعصاء لا استخذاء- فإني داع بما روي أن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- كان يدعو به :

اللهم إنك أنس الأنسين لأوليائك، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك، تشاهدكم في سرائرهم، وتطلع عليهم في ضمائرهم، وتعلم مبلغ بصائرهم، فأسرارهم لك مكشوفة، وقلوبهم إليك ملهوفة، إن أوحشتهم

الغربة أنسهم ذكرك . . وإن صبت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك
علماً بأن أزمة الأمور بيدك ، ومصادرها عن قضائك .

اللهم أن تهت عن مسألتي ، أو عميت عن طلبتي ، فدلني على مصالحتي ،
وخذ بقلبي إلى مراشدي ، فليس ذلك بنكر من هدايتك ، ولا بدع من
كفاياتك .

اللهم أحملني على عفوك ولا تحملين على عدلك ، ولله الأمر من قبل ومن
بعد إنه نعم المولى ونعم النصير .



قبل أن آذن لكم^(١)

في إدراك سليم لأبعاد المتاهة الضاربة باتساعها بين واقع المسلمين، وبين ما يجب أن تكون عليه الأمة وجوداً حقيقياً على صعيد الفرد والجماعة. يبدو دور المسلم الواعي في هذه الحقبة من الزمن ضرورة تملئها أمانة الدعوة، ويوجبها ما عاهد عليه الله ورسوله من العمل بالإسلام.

ولعل الخطوة الأولى في هذه السبيل، إنما تتمثل في حسن تصور ذلك الواقع الذي يلف الأمة بمتناقضاته فيجعل من المسلم المتخفل إنساناً مزعزع الانتماء إلى عقيدة الأمة ورسالتها، مما أثمر الإدمان المريع، على البعد عن دين الله وشريعته في جل ميادين الحياة.

وليست الإحاطة بواقع المسلمين - كما هو - والتعمق في أسبابه البعيدة والقريبة بمؤدية غرضها دون أن يوضع في الحساب واقع أولئك الذين كان يدهم - وما يزال في كثير من الاعتبارات - مقود الحياة بالنسبة إلينا، حين تخلينا عن مقومات وجودنا، وأصبحنا نتبارى في التقليد الأعمى معطين الأهمية الكبرى لهذا التقليد لما أنه - كما يلي الانهزام الداخلي - عنوان المدنية والانسياب في رحاب العلم الذي يحكم خطوط الآخرين، نعم البد أن يوضع ذلك في الحساب لما صحب ذلك من تحول نفسي خطير، ولما رافقه من استخفاف بمقومات الأمة، ونظرات غافلة أو زائغة إلى كل ما يمت إلى

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان الخامس والسادس، السنة السابعة عشرة، ١٣٩٦هـ رجب-شعبان، ١٩٧٦م آب-إيلول.

منطلقاتها وتاريخها بصلة ، بحيث تفسر المنطلقات ووقائع التاريخ تفسيراً يمكن للضعف أن يستشري ، وللهوم الواهم أن يتحول في النفوس إلى ما يشبه الحقيقة في نظر أولئك المتخاذلين . . الذين باؤوا بإثم ما صنعوا ، وكانوا فيه من الخاسرين .

ومن عجب أن هؤلاء وأولئك يطرحون قيمهم التي يريدون ثم يحملونها على الاحتكام إليها . . فما دام القانون في تلك القضية الاجتماعية أو السياسية كذا . . فليكن حكن الواقعة الفلانية من تاريخنا كذا ، وليكن تفسيرها كيت . . تطرح القيمة - وهي من عندهم ومن وضعهم - وما دام الأمر كذلك فهي من المسلمات ، ولم يبق إلا التطبيق ليخرجوا على الناس بالحكم ؟ ولم لا ؟ فإنهم السادة في التاريخ . . والسادة في الحضارة !! ولما كان العلم التقني في خدمتهم - وأن كان قد استبدعهم - فهم أصحاب الحق في أن يقولوا . وما على الآخرين إلا السعم والطاعة والتسلم .

ولقد انتقل هذا المنطق المنحرف إلى أعوانهم وذويهم من المنتمين زورا إلى هذه الأمة ، حتى رأى العالم الإسلامي من التقلبات والتناقضات واللعب على الحقائق العجب العجاب . ولكن ألم يرسم فرعون للطغيان وأهله في الماضي الخطوط الكبرى لهذا المنهج الظالم حين قال : أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ، وترتب على ذلك في نفسه . بناء على ماله من القوة والأيد أنه مؤهل للتأله واستعباد الآخرين فأعلنها بكل وضوح ببعد عن الاستحياء ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ وحين آمن سحرته بموسى كان من



منطقه، أنهم خالفوا الحقائق كلها بإيمانهم بموسى قبل أن يأذن لهم بالإيمان . . حتى الإيمان وهو التصديق القلبي يجب أن يكون بإذن من فرعون ، ذلك قوله : ﴿ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ .

إن دور المسلم الذي يتمثل في العمل على ردم تلك الفجوة الصارخة بين واقع المسلمين وبين ما يجب أن يكونوا عليه والعمل النهجي الدائب على صعيد التغيير . . اشتجابه لنداء الله وهدى رسوله -عليه الصلاة والسلام- إنما يأخذ حجمه الطبيعي ، وسلامة منهجيته حين يتم لهذا المسلم الواعي - كما قلنا- إذراك الواقع الإسلامي ، وما عليه هؤلاء الذين أسلمنا إليهم زمام قيادتنا خلال هذا القرن من الزمان . ولست بسبيل أن أبرهن على أن واقع هؤلاء وما يتخبط فيه أنسأهم من شقاوة وبعد عن الطمأنينة . وما تعانيه الإنسانية من أذاهم حين سخروا العلم للهوى وأرواء حب السيطرة على الآخرين . . فلقد دل هذا الواقع على أن الشعارات التي طرحت -على اختلاف عناوينها ومؤشراتها- من أوائل هذا القرن أثبتت عدم جدواها ، بل عدم صحتها ، سواء فيما هو نظريات مطلقة مزعوم صلاحيتها للإنسان ، أو فيما هو مجاف لعدوة الإسلام وحرب ظالمة عليه . . ولقد أصبحت هذه الدلالة حقيقة ماثلة نادى بها غير واحد من أبناء تلك الشعارات والنظريات بل قد يكون هؤلاء أكثر عدداً من المنادين بها من بني جلدتنا ممن أصابهم الدوار وبهرتهم الأضواء . . نعم من بني جلدتنا نحن الذين اعصرتنا الفتنة ، وغل الأيدي عن العمل ، والعقول عن التفكير ظلام العاصفة وثغاء القطيع التائه هنا وهناك .

إلا أن الاستجابة الواعية لنداء الله في كتابه ، ولهدي رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- في سنته وسيرته ، وللتاريخ يبنيه المخلصون من الرجال بالدم والعمل . . إن الاستجابة الواعية . . تقتضي المسلم المتكن في إسلامه إيماناً وسلامة تصور ، واستقامة سلوك . . أن يبرهن على صدق انتمائه لعقيدة الأمة في صفائها ، وارتباطه بكل ذلك البناء الرباني الذي قام عليها . . وأن يكون له من الوعي لمنهج الله الذي يحتكم إليه ، وسلوكه المتوافق مع ذلك النهج ما يمكنه من الخطوة السليمة الرائة . . لأنه إنسان صاحب رسالة . . إنسان له قضية تتصدر كل القضايا المطروحة على طريقة هنا وهناك . والركام الظالم . . والعوائق المتجنية لا تزیه إلا اصراراً على ما يريد . . كل همه أن يلقي الله وقد أدى الأمانة ، وصدق ما عاهد الله عليه . .

أقول هذا ونحن في رجب الفرد ، شهر الإسراء والمعراج . . كيما نستذكر أنه لأمر يريده الله جاء الحديث عن الإسراء والمعراج قرآناً يتلى إلى يوم الدين ، لما أن الإسراء والمعراج معلم من معالم طريق هذه الأمة على صعيد الإيمان ، والعبادة ، والصبر على طريق الدعوة إلى الله . . فالإسراء والمعراج من دلائل النبوة ، والبراهين الساطعة على صدق نبينا محمد -عليه الصلاة والسلام- فيما يبلغ عن ربه عز وجل .

وكان في الإسراء والمعراج امتحان الإيمان واختبار التصديق ووقف أبو بكر -بما أجاب المستهزئين ورؤوس الشرك- يشير لفاغلة الإيمان : «من هنا الطريق» .



وفي أعقاب عام الحزن وواقعة الطائف وما لقي رسول الله من ثقيف كان من الإسراء والمعراج عظيم التسلية والمواساة على طريق الدعوة من رب العالمين سبحانه . والمحور في حياة المؤمن عبودية صادقة لله عز وجل . . وهي أوضح ما تكون في الصلاة التي شاء الله أن تكون خمس مرات في اليوم والليلة وأن تفترض ليلة العروج .

وإذا كان المسلم مدعوا لأن يأخذ دوره الحازم الجاد المنهجي أداء لرسالة الإسلام وتحقيقاً لإنسانية الإنسان ، وإذا كانت معجرتا الإسراء والمعراج معلماً من معالم البناء على ميدان الإيمان الصادق والحركة الواعية . . إن الكلام عن الأقصى وما هو مسرى رسول الله وما هو فيه من بلاء وحزن ، متروك للوقائع التي يذوب لها القلب . . ولن يغلسها ويعفي على آثارها إلا دم المجاهد الزكي يهراق تحت راية لا إله إلا الله ، صدقا في المواطن ، وشوقا إلى لقاء الله ، ورغبة في الاستشهاد الذي لا تحيا الأمة بدونه ، ذلكم عهد الله إلى عباده المتقين ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ .. ﴾ . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كيما يتصل حبل الضياء من جديد^(١)

كثيرة هي المناسبات والذكريات في تاريخ هذه الأمة، ولكن قليلة هي التأملات الصادقة التي تحمل إلى ساحة العمل . . والوقوفات التي تتسم بالنفاذ وتفتح البصيرة مطلب كبير الأهمية في هذه المرحلة التي تقف فيها أمتنا على عتبة يقظة منشودة، يحدو المسيرة فيها حادي لا إله إلا الله . . ويرافق القافلة قبس من نور النبوة يرسم المنهاج ويحدد معالم الطريق .

على سبيل المثال : نذكر قراءة وكتابة وتعلّما وخطابة وتوجيهاً وشعراً ونشراً . . معركة الفرقان ودلالاتها العظيمة وآثارها الكبيرة الحجم في تاريخنا . . العميقة الأثر في طريق دعوتنا على صعيد الإقليمية والعالمية . . وما كانت به فيصلاً بين الحق والباطل على حلبة الصراع بينهما . . حيث تقف الجاهلية بوثنيتها وغطرستها في جانب وتقف الدعوة الجديدة بتوحيدها واخلاقيتها على -قلة في العدد والعدة- في جانب . . وكيف انتصرت الفئة القليلة على الفئة الكثيرة وغيرت وجه تاريخ الإنسان . . نذكر ذلك كله كلما دعت الحاجة وتكررت المناسبة . . ولكن شيئاً من الأثر الذي يفجر الطاقات . . ويبدل واقع الإنسان المسلم . . ويقذف بالروح المسلمة القادرة المتعزة بالله إلى ميدان التغيير . . هو الذي نفتقده في وجود هذه الأمة ويكانها . . حتى لنكاد نجزم أن حالة الانهزام النفسي تجعل من صاحبها

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السابع، السنة السابعة عشرة، ١٣٩٦هـ رمضان، ١٩٧٦م إيلول.



إنساناً يسمع المسموعات وأهنا مسترخياً ويتلقى النذر وأخبار الذكريات التي تحرك الحجر الأصم ضعيفاً مستخدماً . . يسمع ويتلقى كذلك ، حتى كان غواشي الأيام قد ضربت بكلكها على قلبه . . فأصبح معطل الحس . . عديم القدرة على تلبية النداء ينطلق من آيات الكتاب . . وقد كان هذا النداء القاعدة التي حملت عبء الدعوة حاديتها إلى الوعي والجهاد . . وحاملها إلى كل ساحات التضحية والفداء . وكل ميادين الاعتزاز الصادق بتلك الرسالة التي حملها محمد - صلوات الله وسلامه - إلى العالمين . . فكان جنده الأبرار في دنيا الناس رسل حضارة وأخلاق ودعاة خير وفضيلة . . وبناء مجد يقوم على الإيمان والحق وتكريم الإنسان . .

إلا أن القرآن هو القرآن . . وأن سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - هي السيرة . . وإن ما حفل به تاريخنا في كل مجالات القدوة والتأسي على كل صعيد ما يزال غصاً طرياً بين ظرانينا في مصادرة ومظانه وآثاره العملية هنا وهناك . . والنذر المجافية لدعوة الله تملأ السهل والجبل ولكن المشكلة التي ينبغي أن يواجهها الرواد بمعرفة وأمانة هي الإدراك العميق لهذا الواقع وبواعثه ، والمؤشرات التي أورثت هذا الخمود والبرود في نفس المسلم . . حتى أصبح على الحال التي هو عليها . . وأن كانت الساحة لا تخلو من مجاهدين بررة . . وذلك كيما يتصل حبل الضياء من جديد . . وكيما تتفتح هذه النفس للنداء . . وتصيخ إلى النذير . . وتستجيب إلى دعوة الخير . . وعندها تكون قادرة على التغيير الذي هو مناط العبء في حياة المؤمن

بوصفه مؤمناً . وكأنني بهذا الذي نشير إليه أمر له أكثر من وجه في هذا الباب . . فالذي يبدو . . أنه إذا لم يحصل تأثر وتأثير وانفعال وتفاعل بين المؤمن وبين تلك العوامل التي كنا بها خير أمة أخرجت للناس . . فمعنى ذلك أننا في تخلف مستمر من هذه الناحية بالرغم من الوعي الذي نلمسه على ساحة متسعة في دنيا المسلمين . . ذلك لأن الوقوف معناه الموت . . وما لم نخط الخطوة الأولى على الطريق المؤدية إلى الغاية . . فهناك تراجع وانهزام جديدان . . وليكن في حسابنا هنا مدلول قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ .

أني والأمل بنصر الله يراودني كما يراود كل مؤمن مصدق بالكتاب وبيانه من السنة لا أنطلق - علم الله - من ساحة التشاؤم في هذا الكتاب . . ولكني أعرض واقعاً يقض مضاجع الذين يتحسسون آلام الأمة وآمالها . . ويثقل كواهل العاملين . . فالنذر الصارخة لا تحرك . . وآيات الله التي تتلى صباح مساء لا تفتح لها القلوب لتؤثر وتغير . . والوقائع التي تكفي كل واحدة منها لتكون مفجراً لطاقات الأمة وإمكاناتها . . لا تكاد تعمل عملها على صعيد الجماعة وإنما على صعيد هنا وهناك . . وكان الأصل هو الثاقل إلى الأرض .

إنها الحقيقة التي تنطح برأسها جدار الخمود والجمود . . وهي حقيقة أصبحت من الوضوح بحيث تستحق من الرواد كثيراً من التبصر وكثيراً من التأمل . . كيما يكون الدواء مناسباً للداء . . فلا تنحرف بهم الطريق فيحسبوا أن قضية الأمة - مثلاً - قضية عرض جديد لعلم كذا . . أو إثارة نقاش حول علم كذا .



إنه لا تثريب علينا في مجال المعرفة أن نديم العطاء والبحث بل ذلك أمر بالغ الأهمية ولكن قضية الأمة هناك . . هناك حيث الأسماع التي تكاد لا تسمع والأبصار التي تكاد لا تبصر . . والقلوب التي تكاد لا تفقه . . هناك حيث نتج عن ذلك استبدال السماوت بالانفعال الصادق ، والوهن والاستخذاء بالتأثر الفاعل الذي ينهض بصاحبه إلى مراتب الجهاد والكرامة . . وحيث كان من آثار تلك الجفوة تبدل القيم التي أصبح طريقها طريقاً لا يحرسه الإيمان والخلق . . وإنما يحرسه إنحراف يلف كل التصرفات والممارسات . . في اخلاذ إلى الأرض أين منه التطلع إلى الذرى . . وأين من قابيله عطاء على طريق المعرفة والجهاد بلا حساب . .

اللهم جبار السماوات والأرض . . أنت القادر على أن تهبنا عزيمة الرشد والثبات في الأمر . . وأن تفتح مغاليق القلوب . . وتزيل الغشاوة عن البصائر وأن تمدّ العاملين في سبيل إعلاء كلمتك بعون من عندك . . يبصرهم حقيقة الداء والدواء . . ويحملهم إلى ساحة المصابرة الصادقة وتحمل أعباء الطريق . . فالعون يا رحمن من عندك . . والقوة القاهرة من لدنك . . ربنا عليك توكلنا وإليك أتينا وإليك المصير . . ولا حول ولا قوة إلا بالله . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هل هي جزء من معركة المصحف^(١)

آية أخبار هذه التي تتخطى حدود الأرض المحتلة وتتجاوز الأسوار حتى -- إلينا؟؟ وآية أحداث هذه التي تنم عنها هذه الأخبار . . صحيح أن الليالي حبالى دائماً بما يؤرق ويسهد، ويجعلك كأنك تبيت على حسك السعدان . فمن تخريب وتدمير، إلى أحراق وسلب ونهب، إلى مزاحمة المسلمين في مسجد الخليل بحيث اغتصب اليهود بالقوة شطراً من المسجد وأصبحوا يشركون المواطنين الأصلاء في مكان عبادتهم الذي ألفه آبائهم وأجدادهم منذ قرون وقرون . . ولكن الجديد في ذلك كله -وليت من يجب أن يسمعوهم يسمعون- ذلك التطاول على كتاب الله بحيث أمتدت الأيدي الآثمة فمزقت المصحف، وأهانت كلماته، وحرقت ما طالته بغياً وعدواناً . . ويبدو أن ذلك حصل أكثر من مرة ووممن؟؟ من أولئك الذين اشتهروا في قومهم وذويهم باليهود المتدينين . . ألا ولعنت يهود . . متدينها وغير متدينها . . فالكل في ميزان الحقيقة مباءة السوء في هذا العصر وفي كل عصر . .

ولسنا نسوق الخبر هنا على الشكل الإعلامي، ولكننا نسوقه على طريق العبرة والدرس، لعل ما يحرك الصخر الجلمود يحرك أولئك الذين أخذوا على أنفسهم أن يكونوا دون الجماد أحساساً بنكبة الأمة، ووعياً لحقيقة

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة السابعة عشرة، ١٣٩٦ هـ شوال، ١٩٧٦ م تشرين الأول والثاني .



الكوامن وراء تلك النكبة ؛ كالذي حكاه الله عن اليهود في استغلق قلوبهم دون كلمة الحق . . ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ .

إنه ليس بدعاً أن يصنع اليهود ما صنعوا، وأن يرتكبوا من هذا المآثم ما ارتكبوا، فهم قتلة الأنبياء، وهم الذين حاولوا صلب المسيح -عليه السلام- ولكن الله انجاه منهم ورفعهم إليه ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وهم الذين اتخذوا آيات الله هزوا، وكتبوا ما أنزل الله، وحرفوا التوراة وبدلوها، واصطنعوا من عند أنفسهم هرطقات اسموها ظلماً وعدواناً كتاب الله الذي أنزله على موسى واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون .

واليهود . . هم اليهود . . هم الذين كشف الله في قرآنه عن خلائقهم، وفضح نواياهم، وحدد مسالكهم، ولم يغادر صغيرة ولا كبيرة مما تنطوي عليه نفوسهم من الدخل والزيف إلا ذكرها وأوضح مكن الداء فيها . .

واليهود هم الذين لنا معهم تاريخ طويل حافل بالمتناقضات، عامر بالأحداث التي تبين أمانتنا وغدرهم، وصدقنا وكذبهم، ووقوفنا عند العهد وخيانتهم، وحبنا للخير، وحرصهم على نقيضه . . وهم الذين حاولوا غير مرة قتل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- غيلة بسبل كلها المكر والخديعة والجحافة لإنسانية الإنسان . وعلى الخط المشترك معهم دارت معارك بني قينقاع وبين النصير وبني قريظة، وخيبر . . ثم كان اجلاؤهم عن الجزيرة

العربية جلاء كان واحدة من القلائد المشرقة في تاريخ عمر بن الخطاب وجلائل أعماله - رضي الله عنه - .

أجل : إن أمر العدوان على المصحف من يهود ليس بدعاً ولا غريباً . . وكيف يكون بدعاً وغريباً . . وتلك خلائقهم كشف عنها القرآن . . وذاك تاريخهم حيث عانينا منهم الصاب والعلم . . وكل هذا قبل أن تمتد أظافر بغيتهم لتنهش أرضنا ، وتعدو على مقدساتنا وتخرج أهلنا من أرضهم وديارهم . . حيث أعانهم على ذلك ضعفنا وتفرقنا في مرحلة جفوة صارخة للإسلام . . كما أعانهم دول الاستعمار وأذناؤها في حديث يذوب له القلب وتنفطر له الأكباد . . لما يحمل من أفكار تطفو على السطح . . وأعمال تجل عن ذكرها هذه الصفحات .

ولكن هل هذا الصنيع جزء من معركة المصحف . . أجل أنه كذلك وليس من قصد يهدو تمزيق الورق الذي كتب عليه القرآن ، ولكنه ظاهرة الحقد على هذا الكتاب الذي يعلمون أنه هو حياتنا ، وأن به كنا خير أمة أخرجت للناس وأنه الكتاب الناظم لشؤون الدنيا والآخرة ، فهو النور وهو الهدى ، وهو الشفاء والضياء ، وهو الذي أخرجتنا الله به من ظلمات الجاهلية والضعف إلى حيث استطعنا أن نواجه اليهود ونجليهم عن الجزيرة وأن تكون لنا الذاتية والأصالة ، فرحنا نعلم الدنيا ونبني للإنسانية معالم حضارة الإنسان . . بعد أن كنا مستذلين مستوردين نعيش على ما وجود به المستعلون المستكبرون .



ثم : أليس في إهانة المصحف أهانة لكل واحد من أبناء هذه الأمة أو ليس ذلك عنوان حرص اليهود على تمزيق الزمة ، وقطع شرايين حياتها ، وتحويلها عن منابع الخير والهدى في هذا القرآن .

أن اليهود ليسمعون قعقعة معاركهم مع الإسلام حين ينظرون إلى القرآن . ويعشي أعينهم غبار تلك المسيرة الطويلة يوم أن أجلاهم عمر - رضي الله عنه - عن الجزيرة . . ويغشاهم من الغم ما يغشاهم حين يذكرون كيف أن هذا القرآن جلى حقيقتهم للناس ، وكشف عن نواياهم ، وأظهر كل المخبات من مكنون أنفسهم المريضة والعياذ بالله . . ولا أطيل في ذلك فالحديث ذو شجون وغصون .

غير أنالذي يكاد اللسان ينعقد عند الحديث عنه هو : أين نحن من هذا القرآن في هديه ونظامه وتوجيهه؟ أو ليس واقع المسلمين اليوم دليلاً على مقدار صلتهم بهذا القرآن وصدق انتمائهم إلى جيل القرآن الذي صنعه يدا محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه - .

إن استبدال ما جاء به القرآن بالمستورد ، وما يصك آذان الزمن من مطارق تعمل على هدم البقية الباقية من صلة الأمة بكتابها هو أشد وأنكى من تمزيق الورق وتحريقه . . وأنها بيدك لا بيد عمرو . .

إن ما تصنعه يهود جدير - ورب هذا القرآن - أن يوقظ النفوس ويحرك المشاعر . . ويعطف أولئك الذين بيدهم مقاليد الأمة في عالمنا الكبير من أدناه إلى أقصاه . . أن يخلصوا أنفسهم لله من جديد ، وأن ينصروا كتابه بالقلب

والعقل والخطوة والعمل . . وأن يتوبوا إلى الله توبة نصوحاً لا دخل فيها ولا زغل ، من ذاك الذي يتوهمونه حضارة وهو بعد عن الله ، ويسمونهم معرفة وهو حرب على القرآن ، ويدعونهم قوة للأمة وهو مهانة لها وضعف .

ألا يارب ضارة نافعة . . فلتصنع يهود ما تصنع . . فإن معركة المصحف دائرة معهم وقد بدأت من أول يوم وطئت فيه أقدام المهاجرين المجاهدين أرض المدينة . . وما يصنعونه اليوم في شتى صوره وألوانه حلقة من حلقات تاريخهم المطلق بالمر والاثم والتأمر على إنسانية الإنسان . . ولكن الأهم في الموضوع أن نكون على وعي لهذه المعركة في أبعادها ومراميتها . . فنصيب من تلك العصابة مقتلاً وذلك بتجديد انتماء الأجيال إلى هذا القرآن انتماء صادقاً واعياً . . يرفع صاحبه إلى منازل الأبرار المجاهدين . . لنعمل - وليت من ييدهم كل قدرة العمل يسمعون - على تبصير أجيالنا بحقيقة معركة القرآن ، ونرسم معالم الطريق التي تصلنا من جديد بجيل القرآن . . عقيدة ، ومعرفة ، وجهاداً ، وحسن تبصر بالأمور . . ووعي لطبيعة المرحلة التي تمر بها أمتنا في هذا المنعطف الموحش من دروب التاريخ .

وإذا كان الأمر كذلك . . فأية نائبة تلك التي تصيب الأمة حين تمزق كتابها بأيديها ، وتحفوا مصدر هدايتها عن عمد وإصرار . . وأية داهية تلك التي تضع مقاتل هذه الأمة تحت وقع السلاح من أعدائها حين تجرد فلذات أكبادها من عناصر القدرة على المواجهة ، وتعمل على أن تشلها عن متابعة الطريق .



أن نظرات معكوسة إلى القرآن ، وأفكاراً مهزوزة عن هدايته وقدرته على ابتعاث الأمة من رقاد . . مظهرة للعدو وعون له على تحقيق أغراضه . . ولكن خاب فآلهم . . فالأمة إن شاء الله إلى خير . . ومهما توات النكبات . . فإن قبساً يضيئ من وراء اغب لابد أن يعيدها إلى الحظيرة ، ويشدها إلى حقيقة المصحف شداً حتى تكون بجانبه في معركته ، تقاتل تحت رايته ، مستظلة بظلة ، سمتضيئة بنوره في شعاب الحياة كلها وما ذلك على الله بعزير .

وأنا -في غير أغراق في التفاؤل- نرى أن مما يبشر بالخير أن يكون الذين يثورون للقرآن ، وتلهب مشاعرهم جريمة الحرم الإبراهيمي في مواجهة السلاح والطغيان . . هم من الشباب الواعين المثقفين . . دليل الأصالة وسلامة الفطرة . . وصدق الانتماء إلى هذه الأمة إن شاء الله . . فإذا حزب الأمر رأيت أولئك الذين كانوا ضحايا الغفلة حيناً من الدهر . . استيقظت في أنفسهم مشاعر بدر وحطين . . وجرت في دمائهم معاني القادسية واليرموك . . فرفعوا عقيرتهم مستنكرين . . وفتحوا صدورهم للموت . . وأسلموا جلودهم النقية للجلادين كل ذلك في سبيل هذا القرآن العظيم .

وفي ذلك أبلغ رد على كل الذين يحلو لهم أن يتلمظوا تلمظ الأفعى ليقولوا إن الذين يتحركون للقرآن والدين ، هم من دهماء الناس وغوغائها . . إلا فليعلم هؤلاء أن الزمان قد استدار ، وأن الحقيقة هي الحقيقة . . وأن الأمة ، طال الزمان أو قصر -مثلة في أجيالها الصاعدة- لابد

عائدة بعون الله إلى مرابع الهدى والقوة . . فليس كالتحدي مورياً للزناد . .
موقظاً من الغفلة . . مصغية بالقلب والعقل إلى التكبير يهل به رجال بدر
واليرموك . نعم . . لا بد أنها عائدة - إن شاء الله والعود أحمد - إلى الظل
الظليل في كنف الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خبير . . الكتاب الذي جعل الله منه معجزة خالدة على الدهر ، وتحدى
الأنس والجن على أن يأتوا بشيء من مثله . . فتقاصروا عن ذلك . . وتحدى
الإنس والجن على أن يأتوا بشيء من مثله . . فتقاصروا عن ذلك . . وأقامه
حجة على خلقه ، ودليل صدق النبي - صلى الله عليه وسلم - في رسالته . .
واتخذ منه سجل الهداية عقيدة وشرعية وأخلاقاً واعتباراً بالماضين في بيان
محكم ينقطع دونه كل بيان . . فكان المرجع عند الاختلاف ، والحكم العدل
عند الافتراق . . وحبل الله المتين وصراته المستقيم ، من سلكه فاز بسعادة
الدارين ومن أعرض عنه خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين .

إلا وأن الأمة إن فعلت ذلك . . مستأنفة طريقها . . مستعلية على كل ما
يلقى على دروبها من معوقات ينتسب أصحابها إلى حمالة الخطب . . إنها
أن فعلت ذلك كانت جديرة بالتكريم الإلهي حين أراد أن تكون على نسب
متصل بأؤلئك الذين حملوا القرآن فحملوه ، وطوقهم الوحي بالأمانة الغالية
فأدوها نصره القرآن قلباً وعقلاً وساعداً ولك ما يملكه امرؤ خالطت قلبه
بشاشة الإيمان . . تلکم هي منازل البررة الذين باتوا في حسن استجابتهم
للوحي وكأنهم قرآن ناطق يمشي على وجه الأرض ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ
كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ
إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .



وفي خاتمة المطاف : إن واحداً من الردود على ما تجترح يهود على أرض
الطهر والقداسة ، وما تصنعه بهذا القرآن . . يأتي في مقدمة كل الردود ، هو
أن تستذكر الأمة قرآنها بكل دلالة الاستذكار من جديد ، وتصفع وجه العدو
بأوبة فيها كل الوعي والأصالة ينبتان سامقين على أرض من العقيدة وحب
الجهاد والاستشهاد . . والترفع عن كل الفقاعات من هنا وهناك . . وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

وأما ما ينفع الناس فيمكنك في الأرض^(١)

في هذه الحقبة من الزمن حيث تمر أمتنا بمرحلة التطلع إلى ما يجب أن يكون . . . وتتباين الآراء في أمر أصطحاب معطيات الماضي في هذه الرحلة . . . أو التخلي عنها - كما يريد لنا الآخرون - في هذه المرحلة التي نقف فيها على مفترق الطرق . . . تبدو الحاجة ملحة إلى تحديد الوجود الذي تريده الأمة . . . ونبادر إلى القول بأن الوجود العلمي بالمعنى التقني والوجود المادي فيما لميادين التقال فيه حاجة قد يكونان غير متوافرين للأمة بالمعنى الشامل المطلوب . . . ولكنها محاولات وهمهمات . . . والإعداد واجب في كل الميادين - ولكن الذي تملكه الأمة ولا غنى لأي نوع من أنواع الوجود عنه - والثقافة ليست المعرفة وحدها ولكن المعرفة عنصر من عناصر الثقافة - هو ذلك الوجود الثقافي بمعناه الشامل العميق عقيدة وفكراً وسلوكاً بحيث تكون ممارسة الحياة على صعيد الفرد والجماعة صورة ناطقة بهذا الوجود .

ولنا من مبادئنا في كتاب الله وسنة رسوله ، والتاريخ الذي يمثل واقعية هذه المبادئ وقدرتها على العطاء في جميع جوانب الحياة ، ومن الرجال ادين صنعوا هذا التاريخ في ميادين الحرب والسلام وفي ميادين العلم والتشريع وفي ميادين الأخلاق والسلوك بالإضافة إلى التريج والتطبيق . . .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان التاسع والعاشر، السنة السابعة عشرة، ١٣٩٦هـ ذو القعدة - ذو الحجة، ١٩٧٦-١٩٧٧م كانون الأول والثاني .



إن لنا من ذلك كله أدلة هي المصاييح في لنا الداجي والمعالن النيرة على
درب الرحلة الطويلة .

إن الوجود الثقافي الذي يثل الصياغة الحقيقية لفكر الأمة وتصورها
ومنطلقات سلوكها . . جدير أن نوليه الكثير الكثير من الاهتمام في مجال
التربية والإعلام وكل ميادين المعرفة والسلوك . لأن الأمة التي لا تعي ماتريد
لا تستطيع أن تخطوا الخطوة الحازمة الجادة التي تكون خطوة على الطريق .

لقد أتى على هذه الأمة حين من الدهر سقط فيه العديد من أبنائها ومن
بيدهم مقاليد أمورها ضحية التنكر لمقومات وجودها ومنابع ثقافتها . . ثم
تطور الأمر إلى ما يعدورلى التفاؤل عندما بدأت موجة العقوق تنحسر
بعض الشيء وأسبحت ميادين الاتصال بنسغ حضارتنا مأهولة بأبنائنا، مما
كشف عوار أولئك المفلسين الذين لا كانوا مع الحلجة ولا كانوا مع
الغراب . . فلاهم من الأمة في امجادها وتاريخها وبطولاتها . . ولاهم عند
الإعداد في الوزن الذي كانوا يتوهمون وإنما كانوا عندهم بمنزلة المتاع تمتد إليه
يد النظافة والعناية طالما كانت الحاجة قائمة فإذا اندفعت الحاجة فقيمتة غير
ذات موضوع . . وكل يوم يطالعك على هذا الصعيد جديد . . ولا يلدغ
المؤمن من حجر مرتين . .

إن الأمة مدعوة اليوم إلى هذا الوجود الثقافي الذي نعينه علماً ومعرفة،
تشريعاً وتنظيماً، اخلاقاً وسكوكاً وتطلعاً إلى الأمثلة التي تحتذى، والنماذج
التي تمثل اقدوة في تاريخنا من الرجال والنساء . . فإذا عادت عودتها إلى هذا

الوجود . . وربطت حبلها بالقرآن فقد أخذت بمجامع القوة وجمعت عناصر الحياة من أطرافها . . وهي بحمد الله لا ينقصها فيما وراء ذلك أي عنصر يتعلق بالثروة أو الطاقة البشرية أو الموقع الاستراتيجي ، فعندما يتوافر لها العودة إلى الوجود الثقافي الحقيقي تستطيع أن توظف ذلك كله في مكانه الطبيعي ، وتملي ما تريد في علاقتها مع الآخرين .

ولقد ترانا نعقد المؤتمرات ونقول فيها الكثير ، ونقيم أسابيع العلم ونقدم فيها الكثير . . وكل ذلك بوادر تكشف عن شيء من مخبوءات ثروتنا العريضة في كل الميادين . . أو ليس هذا هو الحجة القائمة والمؤشر الذي يصرخ بنا أن الطريق تبدأ من هنا . . من الوقوف على المورد الأول بوعي يتجرد له أبناؤنا في جميع التخصصات واثقين من أنفسهم . . موقنين بأن انتماءهم إلى هذه الأمة يعني وجودهم الأصيل . . وأن حيناً من الدهر خالط بين الحق والباطل . . وأقام على الأعين غشاوة صنعها أعداء الأمة وذيولهم بين ظهرانيها يجب أن يكون حافزاً للانطلاقة الجادة التي لا تحتل التخاذل ولا التهاون .

وعندها يكون الحكم صحيحاً على كل أولئك الذين هونوا من شأن هذه الأمة في تراثها ومقومات وجودها . . وجعلوا من عشارهم في الإصلاح دعوة إلى التخلي عن كل ما يمت إلى الأمة بصلة والتوجه شطر الذين بهروهم بسحرهم وأضوائهم أو صادف ما يقولونه عن الأمة - وهم أعداؤها على مدى التاريخ - هوى في أنفسهم ورغبة جامحة في أن يفوزوا برضي أولئك الأعداء .



وعندها أيضاً نكون على مثل الرواسي من الجبال في تفسير تاريخنا ووضع كل واقعة موضعها من خلال نظرنا إلى الرسالة التي يفترض أن التاريخ تطبيق لها في جميع جوانب الحياة، حيث أن القاعدة التي أنطلق منها هذا التاريخ هي العقيدة التي جاء بها محمد -عليه الصلاة والسلام- وحيّاً من عند الله، وبناء هذا التاريخ الحقيقيون هم أولئك الرجال الذين آمنوا بتلك العقيدة وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم، وأضاء التصور الإسلامي عقولهم، حتى أشرق ذلك كله على تصرفاتهم وسلوكهم فكان العطاء بأوسع مدلولاته شعارهم تحت راية تلك الرسالة المحمدية وفي لك الميادين، وكانت حصيلة ذلك الحضارة التي لا يجهلها المنصفون.

وقل مثل ذلك عن موقفنا من العربية لغة القرآن . . ما هو دورها في بنيتنا الثقافية في الماضي، وما هي المكانة التي يجب أن تأخذها عملياً وعلى صعيد الحقيقة اليوم . . وما هي الصورة الحقيقية لأولئك المتهاونين بشأنها أو الداعين لمجافاتها . . وكيف أن هذه الصورة في أبسط ملامحها دليل لا يقتحمه دليل على أن التهاون -بله الجفوة- تقطع لكل أواصر الصلة بين الأجيال التي هي أمانة في أعناقنا، والتي هي مناط أمل الأمة وبين تراثنا وموارد ثقافتنا ووجودنا . . مما يجعل هذه الأجيال -والمعاذ لله من ذلك- لا في خدمة الأمة ومطامحها الجذرية المصيرية ولكن في خدمة الآخرين والفكر المناوئ .

ولا تسل عن موقفنا من التراث الذي يمثل المرتكزات الفكرية والعملية ومقومات الأمة كما يراها الإسلام وكما جاهد في سبيلها الأولون . . فكل

ذلك وكثير مما لا يتسع المقام لذكره مرتبط أياً ارتباط بنصاعة وجودنا الثقافي الذي تسيرنا اللمحة العابرة إليه في هذه الكلمات ، وحين تتفتح البصائر ، وتتجه الاهتمامات وجهتها الصائبة المحددة في هذه السبيل . . يمكن الأمة أن تكون من وراء روادها الأمناء في اعطاء القيم الحقيقية لا الموهومة ولا الملبسة للواقع الذي تعيشه في ارجاء العالم الإسلامي هنا وهناك . . وتستبين نصح النصحة من أبنائها في مدى الانقطاع أو الاتصال بينها وبين تلك المنابع التي تكون وجدوها الثقافي ، وتضعها على أرض الذاتية والأصالة . . دونما إغلاق أي باب من أبواب الإفادة من العلوم التقنية المادية البحتة التي سبقنا بها الآخرون اشواطاً بعيدة .

إن النذر التي تفرع الأبواب بجدية ودون أمهال ، هي التي تحملنا على التأكيد المستمر على تلمس كل السبل التي تضمن وجودنا الثقافي بالمعنى الموضوعي الذي يعطي كل قضية ما تستحقه من الاهتمام حسب موقعها من هذا الوجود . . سلباً أو إيجاباً . . والتي ندرك من خلالها ما يهدد هذه الأمة من أخطار على أجيالها التي نأمل أن تحمل الأمانة بقوة ، أن هي جنحت أو جنح بها عن تلك السبيل المأمونة التي قاد خطاها محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه وسار على هدي تلك الخطى من حملوا اللواء بأمانة في سبيل الله .

وحينما تنشر الحقيقة أعلامها متميزة عن الأوهام والخيالات . . نستطيع أن ندرك بعمق أكثر ووعي أوفر أبعاد تفريق القرآن الكريم بين الحق والباطل



في مواجهة الواقع العالمي على الصعيد الجغرافي والبشري ، من دالخ
النفوس وفي مواجهة الآخرين يومذاك . . كما نلمس بكل وسائل المعرفة
ونحن في موقف المواجهة بكل ألوانها وصورها أي عطاء رحب
رحابة الإسلام يزودنا به الفرقان بعد الحديث عن العقيدة ومظاهر قدرة اله
وآياته في الآفاق ، في حوار مع أولئك العمي عن طريق الهدى ، ذلكم قوله
تعالى : ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا
يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حَلِيةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ
فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ
الْأَمْثَالَ ﴾ . نعم . . وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض . . يبعث فيها
الحياة والنماء . . فتتهتز بالخير وتربو بالعطاء . . وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين .

الانهدام .. والفكر^(١)

في نجوة من العبث العاثر وبعد عن العامية في التفكير، وتحرر من سلطان التفسير المنحرف للأحداث، والتعليل القاصر للوقائع، نستطيع أن نتبين ذلك الفصل الجارح من المأساة العاتية التي يكتب فصولها أعداء أمتنا بدداً من أوائل هذا القرن، ويتقلبها مغفل أو زائع . . أنه فصل المكر والتزييف وقلب الحقائق . . ذلكم هو صياغة انحسار الإسلام عن طريق المسلمين صياغة فكرية، وتقديم ما وقع من إنهدام وإنحراف باعد بينها وبين مواردها الأولى أنه هو الفكر، وعلى أن هو ما كان يجب أن يكون من قبل أن يقع . فكل ما يعشي البصر، ويقرّح الأكباد من بعد الشقة بين الأمة وبين أن تكون الشريعة هي المحكمة، وبين أن تكون الفيئة إلى كتاب الله وسنة رسوله -عليه الصلاة والسلام- وما جرى عليه الراشدون هي المعتصم عندما تطل الفتنة برأسها، يضرب الظلام بجراحه على الطريق . . كل هذا وغيره كثير . . يتمثل أول ما يتمثل بتلك الاجهاضة الفكرية التي ترى أن هذا ما كان واجباً أن يكون . . وأن بمقدار وعيه وفهمه وتبنيه تكون الأفضلية لصاحبه والسمة البارزة في لونه الثقافي والحضاري المتقدم . وبالتالي . . فبدلاً من أن تحمل أجيال الأمة -التي غشيها من آثار النكبات ما غشيها- الفكر الأصيل النابع من العقيدة . . والذي يدعو إلى التغيير والصبر على مسؤولياته وتبعاته، وتجنيد الطاقات في سبيل إعادة الأمور إلى نصابها، فيقاس الواقع المعوج بمقياس الإسلام فيظهر عوجه . . بدلاً من ذلك يملأ الفراغ بما يدعى



زوراً وبهتاناً الفكر الصحيح لأنه خلا من معوقات الماضي!! ضمن طريقة التفكير التي يجب أن تكون .

أو لم يكف الأمة ما بها من انحسار ظل الإسلام عن أرضها إلا في القليل النادر . . فمبادئه في واد . . وحياة الأمة في واد على كل صعيد، حتى تعمل الأيدي السبئية، والأفكار السلوية على تكريس هذا الواقع بفكر يؤول بصاحبه إلى الرضى بالهوان بديلاً عن أفكار العزة والبطولة التي تحمله على تغيير الواقع . . وآثار ذلك ظاهرة لكل ذي عينين فيما تعانيه الأمة على صعيد الوطن الكبير من جهة . . وعلى الصعيد الإنساني عموماً حيث يحال بينها وبين أن تخرج الناس من الظلمات إلى النور بدعوة الحق في متابعة لمنهاج النبي - صلى الله عليه وسلم - الذي أخرج به الناس من الظلمات إلى النور، حيث بدل الضعف والتبعية باستخلاف في الأرض وكان الأمن بعد الخوف، ومكّن الله للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم .

أن تتطابق العناوين مع المضمونات شيء مقبول بصرف النظر عن قيمة تلك المضمونات . . أما أن يصاغ الانحراف فكراً، ويقدم الزيف على أنه الطريقة المثلى للتفكير . . والحكم على الماضي والحاضر . . فتلك هي الطامة الكبرى . . التي من أبسط سماتها إهدار الوجود الإنساني لإنسان هذه الأمة . . والخط من قيمة تاريخه والرسالة التي كانت قاعدة انطلاقه هذا التاريخ . . ثم التهوين من شأن أولئك الذين صنعوا التاريخ بدمائهم وفكرهم وعطائهم في المنشطي والمكره . .

وحين تضرب هذه المشكلة بكلكها على هذا الإنسان . . فلن يكون قادراً على صناعة التاريخ من جديد لأنه سلك به الطريق التي تؤدي به مستنقع الهوان ، فيهون على نفسه ويكون ذلك نواة أن تهون الأمة على نفسها . . فلا تتعلق بماض تسلمت به قيادة العالم . . ولا تحس بواقع يسلمها إلى الضياع .

ولكن هل هذا هو الفصل الأخير من المأساة . . ترى هل هي النهاية وللأجيال بعد ذلك أن تقول كلمتها . . لا أحسب ذلك !! إن لهذا الذي نصف من شأنه ذيولاً لواحق تراها في بعض ما يكتب عن الإسلام من هنا وهناك ويجري بأقلام من تشدهم طبيعة المرحلة إلى الكتابة عن الإسلام بعد أن أفلست الأفكار المطروحة على الصعيدين العربي والإسلامي عموماً . . فهذا ينصب نفسه وصياً على الفكر الإسلامي دونما أصول أو قاعدة مرتبطة بتلك الأصول ، ناهيك عن الصدق اللهجة واللوعة الصادقة في هذا المضمار . . وذاك يهرف بما لا يعرف ويردّد دونما وعي ما قاله أعداء الأمة في الخارج والداخل . . ويريد منك أن تحمل ما يقول على أنه هو الإسلام وأنه الفكر الإسلامي الأصيل . . ولا يني يحاورك ذات اليمين وذات الشمال بغية التشكك فيما قاله ويقول له أبناء هذا الفكر الذين عرفوه وقدموه دراسة وعقيدة وجهاداً . . في حركية لا تعدل مرضاة الله دنيا مؤثرة ولا غرضاً قريباً مما يلهث وراءه اللاهثون على اختلاف مواقعهم وعناوينهم . . ألا أن الحديث في حقيقته هو على غاية الأهمية من واقع هذه الأمة فيما تعانيه من داخل الأنفس ومن الخارج هنا وهناك . . والمعتصم -والله أعلم- أن تعمل



الأيدي الأمينة والريادة الواعية على أن يتصل الجيل بحقائق الإسلام من منابعها الصافية، وأن تعاد أواصر الانتماء إلى الأصول الأولى إلى جذتها وصلابتها، وهذا لا يعني انغلاقاً عن العالم الخارجي أو بعداً عن الاطلاع على ما يجب الاطلاع عليه ودراسة ما يجب دراسته كما يعني جفوة لما نسميه العلم التقني فذلك مما لا خلاف عليه من أجل الإعداد الذي أمر الله به من منابعها الصافية، وأن تعاد أواصر الانتماء إلى الأصول الأولى إلى جذتها اليابسة باعتزاز ودق انتماء ويكون له النسغ الذي يتكون من حقائق الإسلام والاعتزاز بالعربية لغة هذه الحقائق كيما تكون له طريقة التفكير المتميزة، التي تحدد غاياته ووسائله ومقاييسه في الحياة، وكيما يكون قادراً على توظيف المعرفة عموماً على طريق الغاية التي من أجلها يعمل والتي يحددها مساره الفكري الأصيل.

ولا بد بعد ذلك كله أن يقاس اخلاصنا في بناء الجيل بمقياس حرصنا على ربطه بالأصول الأولى والعمل على أن يكون صادق النسب إلى حقائق رسالته العظيمة التي كنا بها خير أمة أخرجت للناس. . والتي نعاني من جفوتها اليوم ما نعاني. . وفي التعريف ببعض والاعراض عن البعض ما يكفي لإيضاح ما نريد.

وفي تأكيد على هذا الذي المح إليه أود أن أقول: حتى أولئك الذين أكرمهم الله بالتعايش مع الكتاب الإسلامي في فكره العام لا بد لهم من احكام --- بالأصول الأولى. . لا أقول على مستوى التخصص. . ولكن

على مستوى القاسم المشترك الذي لا بد منه على الأقل ، كيما تكون بأيديهم مفاتيح الفهم والوعي لارتباط الفكر العام بتلك الأصول . . في كتاب الله وسنة رسوله ومنابع ثقافتنا على وجه العموم .

ولكم تكون البصيرة نافذة ، والاخلاص معلنا ، إذا ضممننا إلى التعريف بحقائق الإسلام تربية الاجيال عليها فهماً وسلوكاً إذن لضممننا تحقيق الغايات الكبار دوغماً بهرج أو تزييف . .

والمساءة التي لا تغتفر أن ننزلق مع شياطين الأنس والجن فيما يوحي بعضهم إلى بعض من زخرف القل غروراً مما ألمحنا إليه . . ولله الأمر من قبل ومن بعد ولا حول ولا قوة إلا بالله .



شهر الإسراء والمعراج.. فيما يذكر.. وفيما يثير..^(١)

هذا هو الزمان قد استدار، وعاد إل وجودنا المكدود شهر الإسراء والمعراج.. ليلقي بناظريه إلى واقع الأمة في وطنها الكبير بعامه.. وفي المسجد الأقصى والأرض التي باركها الله بخاصة.. عاد شهر الإسراء وقد مضى على ثالث الحرم عشرون عاماً وهو يرسف في القيد ليششد هذه الأمة إلى حقائق نسيت بعضها وتناست البعض الآخر، وليعيد تبصيرها بالطريق التي لا مندوحة لها عن سلوكه إن كانت صادقة العزم على التغيير والتحرير.

أترأه عاد لينقلنا -على ما يثقلنا من معوقات- إلى حيث تنتسم عير الدماء التي روت أرض اليرموك وننعم بأعراس الشهادة لأولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه تحت راية لا إله إلا الله وفي سبيل إعلاء كلمة الله.. والأهم من هذه الصورة التي تصف واقع البررة الذين خرجوا من الجزيرة حداؤهم الله أكبر، ومرمى بصائرهم جنة عرضها السماوات والأرض.. إن الأهم من هذه الصورة تلك البواعث التي غيرت معالم الشخصية، وتلك القيم التي رافقت كل خطوة خطاها جند الله في كل واد قطعوه، وفي كل موطئ وطئوه.. انعكاس الحداء الكبير.. وحرصاً على تبليغ دعوة الله في الأرض.

أترأه عاد ليصرخ في أعماقنا بالحقيقة التي أصبحنا لما تلبسنا من جفوتها نهاب أن نقرأها.. نهاب أن نذكرها.. أو نذكر بها.. تلك الحقيقة التي مكنت من تحرير الأقصى وبلاد الشام من نير الوثنية وما هو بالوثنية أشبه.

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الخامس، السنة الثامنة عشرة، رجب ١٣٩٧هـ، تموز ١٩٧٧م.

عقيدة تحرك، وفكر يقود، وغايات كبار تستعلي بصاحبها فوق المعوقات وتمكن له من اقتحام العقبات . . وقيم تحمله على الصراط السوي غير باغ ولا عاد . . وكان الجهاد في خدمة ذلك . . الجهاد بكل مستلزماته من النية الخالصة والإعداد الصحيح، والبذل غير المحدود . . ذلك البذل الذي كان الجود بالنفس من بعض الوانه إذا حزب الأمر وبلغت القلوب الحناجر .

كان ذلك حين أشرقت شمس الإسلام على هذه البقاع وحمل الفتوح كل بذور الخير إلى أرضنا ودخلت مع الجيوش عقيدة التوحيد، والشرعية التي ارتضاها الله ناسخة لما سبقها من الشرائع . . فاستجابت العقيدة لفطرة الإنسان . . واستجابت الشريعة لكل شؤون الحياة في قدرة على تخطي كل الصعاب الموروثة والطارئة . . وولد الإنسان . . بكل تطلعاته إلى الحرية والكرامة وسعادة الدارين . .

وتشاءت الزمن متثاقلاً . . وكانت الحروب الصليبية . . ووقع الأقصى وما حوله في الأسر الصليبي ودام ذلك عشرات السنين . . ثم عملت العقيدة عملها من جديد . . وأوقد نور الدين الزنكي نار الحمية الإسلامية . . وتجمع تحت راية لا إله إلا الله كل أولئك الذين وجدوا في قتال العدو الغاصب أكرم فرصة لبلوغ الشهادة . . وأقرب طريق إلى حياة كريمة عند الله . . وجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . .

كان حداء الانقاذ في حطين وأخواتها . . هو نفسه حداء اليرموك وما قبلها وما بعدها . . تغيرت الأيدي ولم تختلف البواعث . . واختلف الزمان



ولم تتبدل الغاية التي من أجلها يبذل المقاتل ما يبذل ويطلب الموت حيث
الفرح بفضل الله سلاح ماض في معركة المصير . .

عاد الأحفاد إلى ما كان عليه الأجداد . . وساروا في نفيهم لتحرير
النفوس واستنقاذ الأرض سيرة أولئك البررة الأماجد من تلامذة محمد -
عليه الصلاة والسلام- . . فخاضوا المعارك بعقيدتهم وطريقتهم في التفكير
تحت راية لا إله إلا الله التي كانت ظلهم الظليل . . وموئلهم الباسق المشرق
حيث لا موئل لأولئك الذين يدعون بدعوى الجاهلية . . خاضوها ومقياس
التفاضل بين إنسان وآخر حرارة الإيمان وصدق العقيدة، والاخلاص لله عز
وجل . . في تمثل صادق لحقائق الإسلام خصوصاً على صعيد السلوك . .
فلا جاهلية ولا عصبية، ولا قيم غريبة عن طبيعة هذا الدين . . ولا مقاييس
تحمل صاحبها على أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير . .

إن أولئك الذين كانوا رهباناً في الليل طاعة لله وتخشعاً بين يديه وفرساناً
في النهار فيما حملوا بين الضلوع من حب للقتال كما أراد الله، ورغبة في
الشهادة . . إن أولئك البررة كانوا في ظاهرهم رجالاً يركبون خيولهم على
أرض المعارك . . ولكنهم كانوا في حقيقتهم صورة عملية للبناء الإسلامي
المبارك للشخصية المسلمة القادرة على التزام حدود الإسلام وعياً وبذلاً
وعطاء . . ثم أداء رسالته في العالمين . . كيما يخرجوا الناس من عبادة العباد
إلى عبادة الله الواحد القهار .

هكذا يعود شهر الإسراء والمعراج . . شهر المعجزة التي دلت -فيما دلت- على صدق الرسول -عليه الصلاة والسلام- وكانت مواسا له بعد عام الحزن ، ومؤشراً واضحاً على ارتباط المسجد الحرام بالمسجد الأقصى بربطات العقيدة التي قام عليها الإسلام ، وإن حراسة كل من هذين البيتين والحفاظ عليهما بما لذلك من دلالات ، أمانة في أعناق المسلمين . . لا يتهاون بحملها إلا من سفه نفسه وتولى عن كلمة الله .

هكذا يعود هذا الشهر المبارك ليذكرنا مكان القوة التي بها كان الفتوح ، وتحت رايها كان تحرير الأقصى وما حوله من يد الصليبيين . . وإن هذه الجولة التالية بعد الذي حصل وكابدنا من مرارته ونكابد ، لابد أن يكون قوام الحركة فيها على نسب متصل بما كان في الجولتين الأولى والثانية .

من أجل ذها . . يفترض أن ما حصل من الابتلاء في أمر المسجد الأقصى وما حوله أن لا يقهر هذه الأمة . . ويعطل حركتها . . بل أن يكون حافزاً للعمل والبذل في إطار رسالتها ، لأن أمة يحمل تاريخها فتوح الشام وتحرير الديار من أذى الصليبيين تحت راية لا إله إلا الله ، لا تنطلق حين تنطلق من فراغ . . ولا تتحرك حين تتحرك من عدم . . فهناك مبادئ وغايات . . وهنالك قيم غاية في السمو ومقاييس غاية في الدقة والعمق . . وهنالك بطولات صنعت التاريخ على أساس من هذا الدين القويم . . وإذا كان كل امرئ يريد في صموده للتغيير ، وصبره على مناجزة العدو -بذلاً وعطاء- غاية مقصورة على هذا الدنيا في الزمان والمكان . . إن المسلم يتسم للموت



-وهو صاحب رسالة- ويقدم ما يقدم، وبصره يرنو إلى ما هو وراء هذه الغاية أيضاً، ألا وهو أن يكون بذل روحه وماله وعلمه زلفاه إلى مرضاة الله، وهو في متقلبه ومثواه يردد «غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه» وإذا أصاب العدو منه مقتلاً رأى في ذلك بواذر الفوز. فقال: «فزت بها ورب الكعبة».

إن هذا المسلم يحقق الغاية التي يبتغيها الآخرون ولكنها غاية على الطريق--- وراء ذلك شوق إلى لقاء الله يشده إلى الصبر شداً مهما بلغت وعورة الطريق مبلغها. . ومهما كان الثمن الذي لابد من نقده في ساحة الفوز الكبير.

أضف إلى ذلك كله أن للمسلم تاريخاً مع هؤلاء اليهود يرتد ليبداً من عصر النبوة بدءاً بكل خلائق اليهود مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- ومع المسلمين يوم طلع على المدينة فجر الإسلام. . مما حكى القرآن من خصائص هذه الخلائق وسماتها، وجلت السيرة صورها ومظاهرها. . ومروراً بكل ما كان من خيانة وغدر وتآمر، ومعارك خاضوها مع المسلمين، وانتهاء -وتآمرهم لا ينتهي على صعيدي الفكر والسياسة- بما كان من أغراض حققوها بهدم آخر معقل من معاقل الدولة الإسلامية في مستهل هذا القرن. . ثم ما نحن فيه --- الأذى الذي كان من نتائج هدم ذلك الكيان، حيث لم يكتف الذين ولغوا في ---- بذلك الهدم. . وإنما صاغوه فكراً صالحاً -على زعمهم- يزين للأجيال طريقاً تجعلهم يدورون في حلقة مفرغة

ضمن الهوة السحيقة التي صنعها الانهدام . . ذلك أن الأمم التي تصاب . .
تتحرك من خلال فكرها الأصيل ، فتتنفض عنها غبار الانهزام ، وتشق
طريقها عبر الظلام من جديد ، فتكون النكبة عامل يقظة وانطلاق فاعلين . .
أما أن تنقلب الآية . . فتحمل الأجيال بعد الكوارث فكراً يَكُنُّ ليل الهزيمة
أن يطول . . فذلك هو الموت الزؤم .

وإذا كان الأمر كذلك . . فإن الأمانة تقتضيها -وعجلة التاريخ لا ترحم-
كل في موقعه ، وما تحت يده من طاقة ممكنة ، أن نعمل على إيجاد المسلم
الحق . . وإن نزيد في إمكاناته وقدراته وكفاءاته . . أن نربيه على هذا
الإسلام بقيمه ولغته وحقائقه التي عملت علمها على أرض بدر والقادسية
واليرموك وحطين . . أن نصل -بكل الوسائل الممكنة- ما بينه وبين القرآن
الذين أوجد هذه الأمة . . حتى يتعايش بقلبه وعقله ومشاعره مع مبادئه
ومنهاجه . . مع حقائقه التي حملها إنسان الجزيرة وقاد بها العالمين . . مع كل
المعارك التي تحدث عنها وكشف عن مقدار اتساقها مع المبادئ ما كان من
خطأ وما وكان من صواب . . مع القيم التي تربط بين الدنيا والآخرة . . ولا
تقف بالمؤمن عند حدود الدنيا بأعراضها الفانية . . وإنما تنقله مع الإيمان
بالغيب إلى ما وراء هذه الحياة . . من عطاء إلهي في الآخرة . . ولا تقف
بالمؤمن عند حدود الدنيا بأعراضها الفانية . . وإنما تنقله مع الإيمان بالغيب
إلى ما وراء هذه الحياة . . من عطاء إلهي في الآخرة . . مع كل عوامل النصر
التي قهرت العقبات الداخلية في نفس الإنسان وموروثات الجاهلية . .



والعقبات الخارجية التي تبدوا على صعيد العمل والجهاد . . نعم . . ومع كل عناصر التربية التي أوجدت إنسان العقيدة والدعوة والفتوح . . أن نصل ما بين المسلم وبين سيرة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- التي هي أنموذج التطبيق لمبادئ القرآن . . والبرهان العملي على قدرة الإنسان إذا تمت له الصياغة الواعية أن يحمل تلك المبادئ ويخوض بها ميادين الحياة في تطابق بين أهلية الإنسان بين تلك المبادئ . . أن نصل ما بينه وبين تلك السيرة قلباً وقالباً علماً وعملاً . . وعزماً على حسن التأسي وسلامة الاقتداء كيما يصبح هذا المسلم وهو يتجه صوب حقائق الإسام من مصادرة الأولى وكأنه جزء عضوي من ذلك النبع الأصيل . . وحين نقول ذلك يكون لازماً أن يتعاون على هذا الأمر الجلل التربية والتعليم والإعلام وكل وسائل الإعداد التي تكفل نقلة الخير من أجل المعارك الفاصلة في تاريخ أمتنا الحديث . . فهي في الواقع معارك لا معركة واحدة . . وإن غداً لناظره قريب . .

وإذا كان الأمر كذلك أيضاً . . فإن سلامة التخطيط والإحصاء ورصد النتائج تقتضينا أن نقدر العطاء الذي يقدمه المسلم حين نبنيه على هذه الشاكلة . . ونحنله الأمانة في ظل العقيدة . . وننمي في إدراكه وحسه كل بواعث القدرة والعطاء . . بحيث يتحرك بعدها على صعيد الفاعلية والتأثير . . وبحيث يكون قادراً على أن يتعامل مع النصوص التي هي قوام عقيدته وقاعدة تاريخه بقلب متفتح وقل مستنير وبصيرة نافذة . . في ظل الاستسلام لأمر --- وأمر رسوله . . لا أن يتعامل معها مثقلاً بالمعوقات وعقد النقص والانهاز الداخلي . . والرهبة مما قد يقوله الآخرون . .

وإذا كان الأمر كذلك - مرة ثالثة - فإن هذا المسلم يكون قادراً - بعون الله - على أن يضع الأمور مواضعها ، وأن يفيد من كل سلاح في مواجهة العدو بمعرفة وأمانة . . وأن يستنفد كل طاقاته ووقته وجهده في سبيل العمل على أن يأخذ الإعداد بشقيه المعنوي والمادي ساحته المتسعة الواعية في ظل قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ . وقوله وهو القاهر فوق عباده ﴿ إِنْ تَصَرُّوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

وفي خاتمة المطاف : أترانا نكون على شيء من النباهة والإفادة من التجارب إن نحن غفلنا - ونحن شهر يذكرنا بإسراء الله بعبده محمد - صلى الله عليه وسلم - من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى - عن أن الأعداء الذين يعملون على هدم الإسلام في نفوسنا وارخاص قيمة ، والتهوين من شأن بناء تاريخه في عقول أبنائنا ، واطهاره بالمظهر الذي يعكس حقدهم التاريخي . . إنما يريدون أن يسلبونا أمضى سلاح بأيدينا . . وأن يجعلوا الافئدة هواء تتلقف ما يصنعون . . إنهم يريدون أن يقضوا على تلك الجذوة التي كانت بها معارك بني قريظة وخيبر وبني النضير ، وعلى ضوء نارها كان الفتوح وحمل الدعوة إلى الناس ، وكان استنقاذ البلاد والعباد في ديارنا من أيدي الصليبيين . . والله من وائهم محيط . . ولكن الشقي كل الشقي من كان في غرض أعداء الأمة فيما يهدفون إليه . . وشريكه في الشقوة من قدر على العمل وقعد مع القاعدين .

إننا مدعوون اليوم في كل بقعه من عالمنا الكبير المثقل بالمصائب والنكبات ، إلى قراءة جديدة لتاريخنا بقيمه التي ارتفعت قواعده عليها . .



برجاله الذي صنعه . . دوغما تهاون أو عبث . . قراءة واعية نرى من خلالها
الوقائع بأعيننا لا بأعين الآخرين . . ونحس بارتباط الوقائع بالعقيدة
وعطائها . . بعقولنا نحن لا بعقول الآخرين . . قراءة شجاعة تباعد بيننا
وبين الفرار حين تضعنا المبادئ أمام ضرورة التضحية وتجاوز الشهوات
والقضاء على بواغث الإهمال والاسترخاء . . لإننا كثيراً ما نهاب الحقيقة
لأنها تكشف ضعفنا وانحسارنا . . وتضعنا أمام الواجب وجهاً لوجه . .

وإننا مدعوون بعد ذلك وعلى القدر نفسه من الأهمية إلى قراءة جديدة
لواقع الأمة دوغما موارية، من خلال التجربة والحصاد . . التجربة القاسية
المرّة . . والحصاد الذي يحسه الرواد أشد مرارة وأقسى واعى . . ثم المقارنة
ورصد النتائج بشجاعة الرجال والتحرر من سلطان التقليد والبيغوية في
الترديد . .

لقد يكلفنا ذلك بعض العناء والتعب . . ولكن كل ذلك يهون . . إذا
صلحت النية واتضح الرؤية . . وتوافرت القدرة على النقد الذاتي
والاستعلاء على المعوقات الهابطة والاغراض القريبة . . في حرص على
صدق الانتماء إلى هذه الأمة . . ذلك الانتماء الذي أثبتت الوقائع عبر
تقلبات التاريخ . . أنه في حقيقته ليس لعقة على اللسان . . ولا كلمات تلاك
في الأفواه متاجرة ومساومة . . ت وإنما هو إيمان وعمل وعطاء، وتعلق
بأهداب القيم كل القيم التي طرحها الهدي النبوي على طريق الإنسان، وكنا
بها على صعيد الفكر والحضارة وسعادة الإنسانية وطمأنيتها خير أمة

أخرجت للناس ، وكانت الملاذ المنجي في ساعات الشدة والابتلاء ، ولهذه القيم مستلزمات . . . ومستلزماتها فهم ووعي وانقياد . . . ولها الحق الكبير الكبير . . . وحقها --- بعروتها الوثقى التي لا انفصام لها . .

إلا ما أكرر ما يهيج شهر الإسرائء والمعراج من شجن . . . وما أكثر ما يفتح من منافذ القول . . . والكبد مقروحة . . . والشدائد تطبق بليها الأليل كل يوم . . . ولكن التبليغ - والحمد لله لون من ألوان الجهاد ، ونسأله تعالى أن يجعله بريد العمل ونافذة الوصول إلى حقيقة أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها ، والمؤمن أولاً وآخرأ لا ينطلق - مهما أشتد الكرب وأمتدت جولة الباطل - من عبث ، فهو دائماً منقاد إلى العمل في ظل قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



تعامل .. وعطاء^(١)

كلما يمت شطر الكتابة وجدتني أسأل نفسي بكثير من اللوعة وتصور ما للكلمة من حقوق، عن المجدي في تلك الكلمات التي أتصل من طريقها بالأخوة القراء، وتكون صفحات المجلة بريدنا إلى ذلك، مهما بعدت المسافات وطال الزمن.

وبصرف النظر عن أية كلمة هي التي تصلهم حسب الفصل الذي تمر به، ما يُنتها... ما حدودها ودلالاتها؟.. يكون الجواب: أن القول -بحد ذاته فيما يمكن أن يقال- واجد لا مندوحة عنه لمن أراد أن يكون مع الحق وعلى مورد رسالتنا العظيمة، وإلا حقت على كل قادر أن يقول في الحدود المستطاعة ثم لا يقول، ما حق على أولئك الذين كتموا أو يكتمون ما أنزل الله، وأولئك الذين كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يصنعون.

وعلى درب سواء: يكون الشطر الآخر من جواب التساؤل: أن صدق الانتماء إلى الذي أرتضاه رب العالمين لعباده، فأكلم به الدين وأتم به النعمة، بحاجة إلى البرهان الذي قد لا يقوم غيره مقامه. وهو ذو شقين: أما أولهما: فالتعامل مع نصوص هذا الدين ومنهجه الرباني دوغما عقد، أو مقدمات هي نسيج حقد الآخرين وتآمرهم عبر السنين مما شكل مفهومات

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السادس، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٧ هـ شعبان، ١٩٧٧ م آب.

ضالة ملتوية ، أو ظاهرة الكسل العقلي والنفسي ومفارقة العمل الصالح والبعد عن تحمل التبعات . . فالتعامل مع نصوص الدين بدفء وارتياح على هذه الشاكلة ، يختصر الزمن ويوفر الطاقات ، ويجعل من المؤمن إنساناً يتحرك بقلبه وعقله ومشاعره على أض من الطمأنينة بعيداً عن القلق والتردد ، فترى لأقواله وأفعاله في أقدامه وأحجامه نوعاً من النفاذ والثبات لا تجده عند أولئك الذين يتعاملون مع النصوص برصيد نفسي قلق ، ومقدمات ليست من الحق والمعرفة في شيء ، مما يجعلهم يتقممون كل أسباب المتاعب الفكرية والنفسية من هنا وهناك ، وأين هذه الحال من حال أولئك الذين آمنوا وأطمأنت قلوبهم لرسالة الهدى فانطلقوا يعلمون ويجاهدون ، أولئك يدورون على أنفسهم لا يعرفون ما يريدون ، وهؤلاء تتسع خطاهم على دروب الخير يوماً بعد يوم .

أما الشق الثاني لبرهان صدق الانتماء : فهو العطاء الذي لا يعرف منبعاً إلا العقيدة ووضوح الاستسلام لأمر الله عز وجل ، ونفاذ البصيرة في مدلول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » حيث الموثق الذي أعطاه المؤمن من نفسه عندما نطق بالشهادتين واستضاء قلبه بهما ، فهو على مثل الجبال الرواسي أنه لا معبود بحق إلا الله ، وأنه تبارك وتعالى تعبد الخلق بالمنهاج الذي أوحى به إلى نبيه محمد -عليه الصلاة والسلام- في كل شؤون الحياة ، مما هو في داخل أنفسهم وخاصة طواتهم أو فيما له علاقة بالآخرين .



ولسنا بحاجة إلى التفتيش في زوايا التاريخ القديم أو الحديث والمنعطفات في كل واحد منهما لنعلم أن سلامة الارتباط بأية دعوة أو فكرة لا بد له من التعامل مع نصوص المبادئ التي هي مناط الدعوة أو محور الفكرة تعامل التفتح والثوق المطمئن، ثم العطاء الذي لا غنى عنه لتحويل تلك المبادئ إلى عمل وتنفيذ، وما ذاك إلا لأن وجودها العملي في دنيا الواقع والحركة لا يمكن أن يكون إلا بذلك .

وإذا كان ما نقوله قدراً مشتركاً يعرفه أهل البحث ورواد التجارب، أن ضميمة مباركة تزين عمل المؤمن في ظل دعوة الإسلام، تلك هي الحركة في إطار الإيمان، والتطلع القائم على اليقين بكل ما جاء به الخبر الصادق عن الله عز وجل في كتاب أو سنة، وما أعطته سلامة البنية الفكرية في كل منهما حيث العقل والتدبر وبصائر أولى الأبواب كل بحسبان، وبهذا يكون الأمر أدخل في ضرورة هذا الذي نقول .

ولقد يعلم غير واحد من الإخوة القراء أنني لا أميل إلى التشاؤم رغم كل ما يتبدى في الجو من عثير يزكم الأنوف، ولكن في الوقت نفسه لا أغرق في التفاؤل، غير أنني واثق بفضل الله كل الوثوق، مؤمن بنصره أن نحن نصرناه إيماني بهذه الشمس الطالعة، والذي قد يدعو البعض إلى التشاؤم حيث العفن ومثار النقع والدخان الأسود وأمراض الفرعنة، هو هو نفسه الذي يجده المؤمن ميداناً يتقرب فيه إلى الله عز وجل، وجسراً يعبر منه إلى حيث النسب الصادق إلى أولئك الذين أنعم الله عليهم، بصدق الكلمة وسلامة

المواقف، والجهد الذي هو صنو الإيمان. «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله».

أقول هذا لأن على الطريق مؤشرات قد يكون بعضها مدعاة لمراجعة الرصيد، وربط النتائج بالمقدمات، ضماناً للمتابعة الواعية في زمن تشعبت فيه السبل، والتبس الحق بالباطل على الكثيرين خصوصاً أولئك الذين لا يسمعون إلا بإذن واحدة ومن جهة واحدة.

أ- فدوئنا عودة إلى الحديث عن الجيل الذي فرغ من مقومات الإنسان المسلم -إلا من رحم ربك- وحمل التسليم بمنهج الآخرين وحكمهم على الإسلام نفسه مما أثمر اضمحلال قدرته على التغيير والتحرير، أو متابعة الخط الإسلامي الصاعد الذي قوامه العقيدة، والاستعداد للبذل والعطاء في ميدان العمل والجهد. . أقول: دوئنا عودة إلى الحديث عن هذا الجيل الذي ضرب على طريقة تفكيره ومنهج سلوكه بالاسداد. . فإن جيل الثلث الأخير من القرن الخامس عشر للهجرة، بدأ يحس الكارثة بعمق، ويدرك أبعاد ما حصل بدءاً من حملة بونابرت وعقاييلها، ومروراً بآثار الحرب العالمية الثانية على العالم الإسلامي في ميادين الفكر والسياسة والتشريع، ووقوفاً عند الذي هو واقع اليوم في فلسطين وغيرها من شتى بقاع هذا العالم. . بكل وجوهه وألوانه، ما كانت مسؤوليته منوطة بنا وواقعة على عاتقنا، وما كان مرده تأمرًا مجنحاً وحقداً أسود، استخدمت لهما منجزات العلم التقني، ولفسفات المذاهب ودراسات علم النفس. . وما إلى ذلك.



نعم إن هذا الجيل يحس ذلك بفضل الله ثم بجهد الأيدي الأمينة التي فتحت علينيه - رغم كل الأعاصير والظلمات - على الحقيقة، وحاولت بإخلاص ووعي أن تصله بماضيه من جديد، مع التفهم الجاد المتكامل لحاضره والعالم الذي يعيش فيه، كيما يكون قادراً على أن يضع قدمه بشجاعة وطمأنينة على الطريق . . وعندما أقول: الجيل . . لا أعني أن أسقط من الحساب أولئك الغافلين أو المغفلين، ولا من حملوا عبء أن يضلوا عن سبيل الله بمختلف الوسائل واشنعها، بل أن يكونوا دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها . . ولكني أعني بنية هذا التيار، تيار المعرفة والوعي، والصلة بالفكر الصحيح البعيد عن الشوائب والذي أصبح ميسراً أمره إلى حد لا بأس به لمن أرادته وسعى له سعيه، وليس ذلك وكفى، وإنما بالإضافة إلى ذلك صبر على وعورة الطريق، وتحمل الأعباء والابتلاء، لأن كل ما راه حسناً أن دينهم أن يكونوا عند مدلول «الله ربنا». وما ينقمه أعداء الله منهم هو نفسه أسوأ خلالهم عند أعداء الله والإنسان، ودع عنك صورة القطيع التائه من مرضى القلوب في كل زمان، الذين يشترون بالحق ثمناً قليلاً فيزينون السيئة للمسيء ويلبسون الحسنات ثوب الضلال والمنكرات .

من أجل ذلك - وعلى مرآة النقيض - كان برهان سلامة البنية التي أشرنا إليها تلك الحرب المسعورة المعلنة على كل ما هو نقاء وصفاء وعلى كل ما هو هدى وضياء . . لا على المستوى الضيق المحدود وإنما على المستوى العالمي

حيث يحسب للإسلام حسابه على كل صعيد ، وتعد العدة لحربه بمختلف السبل -خصوصاً على صعيد الفكر والدراسة والبحث- وذلك رغم ما هو ظاهر من لين عود المسلمين وسوء أحوالهم من ناحية القوة والتنفيذ في شتى أنحاء العالم . . ففي كثير من البقاع ترى موقعهم موقع من يتلقى الضربات صباح مساء ، ويشعر أنه في معركة وجود أو لا وجود . . حيث يراد لهم . وهذا واقع الأعداء والذبول أن يكونوا أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام ، وما تخفي صدور حملة الإثم أكبر ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

ب- وعلى الصعيد العام : أن قضايا كثيرة قد ذلك سبلها من الناحية النظرية وجمال العرض ، وكشف عنها النقاب ، وازيحت من على ظلالها الشبه والأوهام . . وذلك من طريق البحث والانتاج ، والدراسات الجامعية والتخصص ، ناهيك عن تلك المؤتمرات التي عاجلت وتعالج من قضايانا الكبرى الكثير الطيب . . وأذكر على سبيل المثال لا الحصر مما قد خلال السنتين الأخيرتين . . مؤتمر المسجد ، الذي تقيمه دولياً رابطة العالم الإسلامي ، مؤتمر الاقتصاد الإسلامي الذي عقدته في مكة المكرمة جامعة الملك عبدالعزيز ، مؤتمر الفقه الإسلامي الذي عقدته في الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، مؤتمر ندوة الشباب العالمي للإعلام الإسلامي ، المؤتمر العالمي للدعوة وتوجيه الدعاة الذي عقدته الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، مؤتمر التعليم الإسلامي الذي عقدته أيضاً



جامعة الملك عبدالعزيز هذا العام، وكذلك مؤتمر السيرة الذي عقد في استانبول .

فإذا كان الكتاب موجوداً وفيه الكفر والتمحيص، ومصادر هذا الإسلام واضحة لكل ذي عينين، -والكلام مع المنصفين- وإذا كانت هذه المؤتمرات وهي تجمع -فيما تجمع- العديد من أساطين العلم والمعرفة والمعاناة الفكرية، إذا كان هذا كله حاصلاً ومعه ما ذكرنا عن جيل الثلث الأخير من هذا القرن .

إن الأمر الحتمي اللازم إذن . . أن نحاسب أنفسنا إلى أي حد نحن صادقون فيما نعلن ونقول . . أن نعود إلى أن نكون أكثر مراقبة لله تعالى، وأكثر عمقاً في استطلاع الخبايا والخفايا من هنا وهناك . . الأمر إذن . . مع الحصيلة التي ذكرنا -وهي قليل من كثير- أن نتعامل مع نصوص الإسلام بصفاء الإيمان، وتفتح البصيرة، والاستسلام الصادق لدلالات النصوص وأبعادها، وجميع مستلزماتها في القول والعمل والسلوك . . فيما تريد أن تحملنا عليه من مركب تراه النفوس الضعيفة مركباً خشناً . . ثم العطاء كل حسب الثغر الذي أقامه الله عليه دونما مدهانة أو موارد، أو تسمية للأشياء بغير أسمائها، ودونما احتيال على المضمونات بغير عناوينها، وطرح تعريفات مقلوبة منكوسة ما أنزل الله بها من سلطان . . وأخشى ما يخشاه الذين يرجون لله وقارا، إن يسلم التقاعس أصحابه إلى أن يبوؤوا بالإثم الكبير، إثم تعويق قافلة الخير في مسراها المبارك الميمون، ذلك أنه كلما ازداد الوضوح، واستبان المؤشرات والمعالم، تضاعفت المسؤولية وتعاضم

ثقل الأمانة . . وهذا لا يعني الغفلة عما يعترض سبيل الحق من عقبات ، فتلك سنة لا تتبدل ، والتمحيص جزء من القضية لا ينقسم .
إلا أن خطوة متقدمة على طريق التغيير كيما تفيء الأمة إلى وجودها الحقيقي تبدأ من هنا . . من وضع هذا الرصيد في الحسبان ، وإعطاء كل جزئية مكانها ضمن الكلية العامة والمنهج . . في استجلاء للحقيقة كما هي لا كما قلب عنوانها الآخرون .

والقادرون على إخراج قضاياها من إطارها النظري إلى ميدان الهيمنة والتطبيق لا يعفيهم من حكم التاريخ ، ولا ينقذهم من النار ، إلا أن يستخدموا قدرتهم -وكم للقدرة من صور وشعب- وما أولاهم الله من فضله ونعمه في ذلك . . وطوبى لمن يقتحمون العقبة ويرفعون عقيرة العمل لمرضاة الله عز وجل . . وأن أغضب ذلك كل أوثان الأرض .

إنه لا يكفي أن نمجد الحقيقة ونطوف حولها بالكلام . . بل لابد من أن نحمل عبء إخراجها إلى حيز الواقع وتطويع هذا الواقع لها . . إذ أن وجودها العملي هو عنوان الصدق معها والإخلاص لها . . وما وراء ذلك من العبث لا يجدي فتىلا .

مرة أخرى . . نسأل الله عوناً على حسن التعامل مع الإسلام في منابعه ونصوصه وصادق العطاء ثمرة لذلك . . ومعدرة للقارئ الكريم أن كنت أوسعت القول دونما تعمل في جواب تساؤلي عندما أحمل هذا القلم الضعيف للكتابة هنا .

وليس على الله بعزیز أن یقفنا عند الذي أراد بقوله سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .



الإنسان .. والهداية^(١)

الحمد لله وسلام على معلم الناس الخير محمد عبدالله ورسوله . . . --
بما أنزل الله من كتاب . . . وصدقنا بما أوتي خاتم النبيين - صلوات الله
وسلامه عليه - من بيان . . . ويا نعم ما يتلو التالي لهذا الكتاب من قوله
تقدس أَسْمَاؤُهُ : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ
الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ .

إذ كلما حملت إلينا دورة الزمن شهر رمضان - ونحن لا نكاد نفيق من
الغفلة - يحس أهل الرضى فينا أن شيئاً من ينابيع حياتنا قد عاد إلى التدفق من
جديد . . . وأن صورة من قدرة تاريخنا على العطاء . . . راحت تلتمع - بعد
طول أمد - على طريقنا الموحشة . . . تلك الطريق المزروعة بغفلتنا ، وأدبارنا
عن حقائق الإسلام . . . ثم بتأم أعدائنا وكيدهم الذي لا يعرف له لون ، لأنه
من كل لون . . . عادت هذه الصورة لتسهم في عملية التغيير والبناء . . . كيما
يكون النسب متصلاً مع الذي صنعه القرآن حين صاغ محمد - صلى الله عليه
وسلم - القاعدة الأولى . . . فراحت تضرب في الأرض معلنة منهج بناء
الإنسان وخطة التغيير إلى ما هو الخير في كل الميادين ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي
الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا
مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿ ٢١٠ ﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد السابع ، السنة الثامنة عشرة ، ١٣٩٧ هـ رمضان ،
١٩٧٧ م إيلول .

أترانا نتابع الرحلة مع ذاك الذي يحسه أولئك الذين تؤرقهم جفوة الأمة لرسالتها، ومعاناتها لواقع لا تغبط عليه.. فخرج من حيز الإحساس بالصورة.. إلى حيز إخراج الصورة إلى حيث تعمل عملها في دنيا الواقع.. هذا سؤال مضيعلى طرحه بمختلف اللغات وألوان الأساليب سنين عدداً من الزمن.. وهذا الجيل -وبكل مآسيه التي يعيشها.. مطلوب منه وقد وعى نسيج المأساة.. وأدرك ما كان متشابهاً في أوائل هذا القرن.. مطلوب منه أن يجيب عن هذا السؤال بالإيجاب وذلك بأن يتابع الطريق التي ما تزال أخبار بُنائتها ومعديها غضة طرية بين أظهرنا، دومنا غفلة عن سياط الجلادين وتمويه المموهين.. وما أكثر العبر وأقل المعبرين والعاقبة للمتقين.

وبشجاعة المؤمن الذي لا تنظلي عليه أساليب القرن العشرين، ولا يلفته عن الحقيقة تزيين الباطل، كما لا يحسب الشحم فيمن شحمه ورم.. لا بد من تخطي أسطورة التخلي عن مقومات الأمة في دينها وتاريخها ولغتها إلى حيث الالتزام بمدلول الهدية التي نزل بها القرآن يوم تأذن رب العزة فأوحى إلى عبده محمد -صلى الله عليه وسلم- ما أوحى.

صحيح أن هداية القرآن التي تمثلت في المنهج الرباني الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من شؤون الإنسان والحياة، عزلاء من مؤيدات القوة اليوم.. وإن الأسطورة التي نلمح إليها تحظى بالكثير من تلك المؤيدات.. ولكن هذا لا يغير شيئاً من هوية أي منهما.. فالحق هو الحق والباطل هو



الباطل . . والمهم أن نكون عل يالنبع الأصل فيما نفقه من دين . . وفيما نترسّم من منهج . . وفيما نحزم أمرنا لنحول الدعاوي إلى أعمال ناطقة يرضى بها عنا الله ورسوله . . وتصلنا بالرعيّل الذي بنى حضارة الإنسان . . نظيفة أقدامنا من براقع الأقزام .

ومع الآية التي في ضوئها أدرنا الحديث .

ما الذي رأت الدنيا من أخبارها . . ويم جاءت تحدث أخبارها . . لا بد من الوضوح في الرؤية . .

كميا يتسنى للعاملين أحكام الصلة بين ما كان وما يجب أن يكون . .
﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ .

أنزل فيه القرآن . . فكانت الهداية ، وتحققت مستلزماتها ، وثمراتها على هذه الأرض . . أنزل فيه القرآن . . فكان العلم والمعرفة . . وكانت المعالم والقيم . . وانحسر مد الجاهلية والجهالات . . أنزل فيه القرآن . . --- الإنسان بعبوديته لله . . وإذا وجد الإنسان . . أخذت الرسالة أبعادها وعملت عملها في التغيير إلى ما هو الأفضل في كل ميدان .

وإنها لرسالة حملها الإنسان الذي عشا إلى ضوئها في بطاح مكة . . فكان المؤمن إلى المؤمن - بنسب العقيدة - قوة وثباتاً ورهبة في صدور الطغاة والعابثين وصياغة إسلامية للحياة ، ما تزال بصماتها شاهد عيان في كثير من بقاع العالم .

عرفنا ذلك أكثر وأكثر . . يوم انعكس المنظور إلى الإنسان . . فأصبح الإنسان إلى الإنسان وسائل إيضاح يعيث بها أعداء الإنسانية ومجموعاً من العوائق دون تحقيق الحرية والكرامة ورفع القيد عن الكاهل المظلوم .

أو ليس شهر رمضان هو الذي علمنا بوقائعه التي كانت انعكاس الهادية في بدر والفتح وعين جالوت وغيرها . . إنك إذا أردت للرسالة أن تأخذ أبعادها في التغيير وصياغة المجتمع كما ينبغي ، وللحق أن يعرف طريقه عميقاً . . عميقاً في التاريخ . . فعليك بهذا الإنسان بناء وتقويماً ، وسلامة أعداد . . وإن الذين يعبثون بهذه القيم ليسوا من الحق وأهله في شيء؟؟

فالوجود المادي للإنسان ليس هو المقصود الأول عند الحديث عن القيم والارتفاع بالأمة إلى حيث أراد لها بآرائها ، وليس هو المقصور عند الحديث عن إنسان الرسالة والتغيير ، واستنقاذ الكرامة وحكم التاريخ . . وكل الوجود الذي يريده الإسلام . . إنما هو الوجود الثقافي والفكري بمعناه الأعم ، وجود الإنسان متمتعاً بحريته - في إطار العقيدة - كيما يفكر ، كيما يكون قادراً على العطاء . . لأنه موجود . . كيما يسهم في دفع القافلة بإرادته لأنه إنسان . . دوغما إهمال للوجود المادي . . وذلك ما أثمر كل معاركنا الفاصلة عبر التاريخ .

أما حين نعطل فيه الوجود الأمثل . . وننفخ في مثاليات التغيير وتحقيق الغايات الكبار . . فذلكم التناقض والعبث بالعقول . . وإذا حصل ذلك . . فلا تأس على ما يكون من النتائج التي ييؤء بأثمها أصحابها . . واستقبل



أكداساً من الركّام . . وألواناً من مخلوقات حفر على جباهها : أين الإنسان؟

ولا يحسبن حساب أنا - بما نقول - نضرب في عالم الوهم والتجريد ، وإنما هو الواقع الذي تملأ الأمثلة والشواهد عليه دنياً ودنيا الناس .

ولشد ما كان انتصار الدارسين المنصفين للتاريخ عظيماً حين وقعوا على سر الارتباط بين المعاك الحاسمة التي حققتها الأمة ، وبين الإنسان الذي تربي على قيم الإسلام واندفع غير هيب لتحقيق ما آمن به ، فكان أقوى من الصعاب لأنه موجود بعقيدته وكرامته وإرادته . . مما جعل يتخطى المألوف في المجال الزمني ووسائل اصراع ، ولم لا؟؟ وقدرته - وهو على هذه الشاكلة - من قدرة الله ، فهو يملي على التاريخ مشيئته بإذن مولاه ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ .

إنه لا بد أن يصل إلى كل قلب وعقل وفي دنيا علمنا الكبير وفي مختلف الأمصار حيث تختلف المظاهر فيما يعاينه المسلمون ، والحقيقة واحدة ، وهي حقيقة الصراع بينالحق المتمثل في رسالتنا والباطل الذي تحشد له القوى من هنا وهناك . . ويصير ذلك ركيزة التفكير والتصور .

لا بد أن يصل إلى كل قلب وعقل في تلك الأصقاع أن نزول القرآن كان منعطفاً هائلاً في تاريخ الإنسانية أسلمها إلى طريق النجاة من أو ضار الشقاوة ، ووقفها على حصيلة التجربة الطويلة عبر القرون ، وعملها كيف تقوم حصاد تلك القرون . . ثم أبرز الحقيقة حتى بدت كما هي دون زيف أو

تأويل ، وكشف عن هوية الباطل كيما تقع المفاصلة بينه وبين الحق ، فلا تشبه الفتنة ولا تلتوي شعاب الطريق .

وما أكرم تلك السواعد التي كانت تتحرك بالإيمان فتصنع التاريخ وتثبت على صعيد الحركة والواقع أن هد يالله هو الهدى ، وإن الاحتكام إلى الطاغوت ضلال وخبال .

على هذه الساحة المضيئة نذكر من خلال خصائص رمضان ذينك الخطين المتوازنين في العمل ؛ جهاد النفس لأن من داخلها يبدأ التغيير والبناء ، وجهاد العدو في سبيل الله . فترى في جهاد النفس صياماً وقياماً ومنافرة للشهوة والمألوف ، وحجازاً عن كل ما يؤذي صيام الصائم على مستوى الخلق والفضيلة . . وترى في جهاد العدو . . إيماناً بوعد الله . . وصدماً لما عاهد المؤمن ربه عليه . . وإعداداً وبذلاً . . والتزاماً بمواقف التضحية والمحبة الصادقة لله . والتفاني في عناق الراية التي تحتها يقاتل المسلم لإعلاء كلمة الله .

إلا ما أشد احتياجنا إلى تربية رمضان توتي أكلها على كل صعيد متجاوزة تلك الحدود الزمنية لشهر من شهور السنة ؛ إذ النفوس غلابة . . والشهوات قاهرة . . والخوف على الرزق والأجل يضاجع من يفترض إيمانهم بأن الأرزاق والآجال بيد الله . . والأمانة تشكو وتشكو .

ترى . . هل ينهض من كبوته الجواد . . فتشور الهمم وينقذح الزناد . . وتذكر الأمة أن شهر رمضان الذي يدخل عامه السابع والتسعين بعد الألف ،



قمين - بما يحمل من فناحت وخصائص وعظات - أن يربط هذه الأمة بنقطة البدء الأولى . . فتعلن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ إعلانها من جديد . . وهنالك تتكامل خطى الجيل القرآني المنشود، الذي تنعقد عليه الآمال في وصل ما أنقطع من الأمة بين قرأتها ومعاركها ورجالها من أسباب، ويشدنا وجوده إلى حظيرة أولئك الرجال الذين يقلون عند الطمع ويكثرون عند الفزع، أولئك الذين ما عفروا جباههم إلا بين يدي الله، فاستعذبوا الموت في سبيله، وكانوا رهبان الليل فرسان النهار . . وعندها تتقطع أنفاس الخفافيش . . ويعفي هدير الكلمة المؤمنة على أشباه الرجال . .

ألا وأن الأمة مدعوة لتحقيق المعاني التي تثيرها ذكريات شهر رمضان وما فيه من أوامر ومنهيات إلى مزيد من العناية بالقرآن - من جميع الوجوه - صنيع السلف الصالح عليهم الرحمة والرضوان . . بحيث تتصل بمعانيه ومدلولاته بعيداً عن كل شائبة أو إنحراف، والله المستعان على التدبر والعمل . .

وأن يكون للسيرة في أبعادها وعمق ارتباط وقائعها بالرسالة متسع نوليّه مزيداً من العناية على صعيد الأمة عموماً، وعلى صعيد المسجد والمدرسة والجامعة على وجه الخصوص .

وإذا كان في جعبة رضمان معركة الفرقان والفتح وغيرهما . . أن هذا مما يثير ضرورة إيضاح معنى الجهاد في الإسلام وكيف أنه في خدمة الدعوة، فحيثما تطلبت الدعوة الجهاد، فتلك فريضة الله في أعناق المسلمين، والفهم المسترخي لطبيعة الجهاد في الإسلام سلاح قاتل بيد أعداء الله .

نقول ذلك كله والعبادة حجر الزاوية في رمضان كيما تعكس ذلك على العام كله في حياة المسلم؛ فصيام النهار وقيام الليل إيماناً واحتساباً، والإكثار من التلاوة والتدبر، الصدقة والبر، التبتل الصادق بين يديده الله عز وجل متقلب المؤمن بالليل والنهار. . . ترقب ليلة القدر ومضاعفة العبادة فيها. . . كل ذلك مرتبط أياً ارتباط بالذي أشرنا إليه في صدد هذا الحديث. والله المسؤول أن يجعلنا من أهل محبته، ويكتبنا في عداد عباده الذين يعطيهم إذا سألوه، ويستجيب لهم إذا دعوه. . . وأن يعتق رقابنا من النار، وأن يحرر الأمة من قيودها وإغلالها، إنه نعم المولى ونعم النصير. . . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



أكثر من خاطرة^(١)

ما كان للمسلم في هذه الأيام التي هرول فيها ضيوف الرحمن إلى البيت العتيق، أن يكون جامد الحس، حامل النفس، لا يتحرك قبله شوقاً إلى تلك البقاع وما يزينها من الضياع، ولا تفيض عيناه حزناً أن لم يكن في عداد إخوته الوافدين إلى رحاب مالك يوم الدين من كل فج عميق.

وتلك هي حيلة المؤمن المشوق.. يشكر لمولاه المنعم المتفضل على كل حال. ودعاء خاشع لآخوانه بالوافر من توفيق الله واحسانه، وأن تقع ابتهالاتهم تلك المواطن التي يستجاب فيها الدعاء.. موقع للاستجابة فيما يتصل بخاصة أنفسهم وأهليهم وذويهم.. وفيما هو حرقه على أمتنا المنكوبة أن يرفع الله ما نزل بها.. وأن يبصرها طريق النصر والتمكين من جديد..

وكم كتب الكاتبون، وتحدث المتحدثون عن الحج فيما هو خامس أركان الإسلام - واللقاء الكبير العميق بين المسلمين، على العبودية لله والتأخي فيما بينهم، ومخالطة البقاع التي على أرضها نبتت شجرة الإسلام المباركة، وعلى حبات رمالها أهريق دماء الشهداء وبترابها عفرت جباه القانتين الخاشعين.. من أولئك الصفوة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، ووفوا

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان التاسع والعاشر، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٧ هـ
ذو القعدة - ذو الحجة، ١٩٧٧ م تشرين الثاني - كانون الأول.

لرسول الله -صبي الله عليه وسلم- بالعهد والموثق . . فكانوا ضياء الدنيا ومنار الوجود .

لقد كتب من كتب . . وتحدث من تحدث . . وما تزال -ولن تزال- منابع العطاء غزيرة ثرة في تلك الفريضة المباركة التي تزين وجود الأمة الثقافي والعملي في كل عام . . ذلك لأن هذا الركن من أركان الإسلام قد استأثر بالصورة المثلى لعملية بناء المسلم في عقيدته وعبادته وسلوكه ، كما تميز بأن كان الصورة الكاشفة لحقيقة ما عليه المسلم . . كل ذلك . . لأنه يجمع في شعائره بين العقيدة والمعرفة ، والعبادة والسلوك . . ثم الانخراط فيما هو من المقدمات التي لا بد منها للأمة الواحدة التي تلتقي على العقيدة الواحدة والمنهج الواحد ، والقيم التي تتوحد في إطار هذا المنهج . . كما تلتقي على التفسير الواحد للتاريخ المشترك في ظل تلك القيم ، وعلى الانصياع لمدلولات العربية ومفاهيم الدين في التعامل مع الأصول الأولى من كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- وكل ما مرده إليهما .

فحج مقبول بلا عقيدة غير متصور ، والعلم بشعائر الحج التي فيها قوامه ضرورة ، والسلوك المتسم بأدب وأخلاق الإسلام أمر لا بد منه في نظر هذا الدين ، ناهيك عن الإحساس بذلك الواقع الحركي الذي يستعلي على فوارق الجنس واللون واللغة والأرض . . فذلك أمر صورته الأولى لقاء الأخوة في الله وعلى كلمة الله فكان أقوى مقومات الأمة ووجهه الآخر اقتحام صارخ لكل نقيض قوامه عكاز مستورد مصنوع ، مقبوح حامله ، خاسئ مدعيه . .



لقد باعدت بين هؤلاء الملبين الخاشعين الضاعرين المسافات . . ولكن قربت بينهم العقيدة، وأخرج ذلك إلى حيز الواقع من القرب توحدهم على القيام بهذه الفريضة ودأد مناسكها على أرض معلومة محددة وفي زمن محدد معلوم .

ولقد تختلف لغاتهم في الدعوة الخاشعة، والمناجاة الصادقة وأعينهم تفيض من الدمع، ولكنهم كلهم يدعون رباً واحداً، ويناجون إلهاً واحداً هو مولاهم الكريم المنان، الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء . وكان من آياته اختلاف السنة الخلق وأولادهم، ومن قدرته أن يعطي كلاً من سأل .

انظر إليهم يجأرون لبيك اللهم لبيك . انظر إليهم تلهج السنتهم بالضراعة . . يا الله يا الله . . هذه عبراتهم تحكي خشوعهم وخضوعهم لله الواحد سبحانه . . وهذه أكفهم مرفوعة إليه دعوات خاشعة بالعربية . . تطلعت وزفرات بغيرها . . والكل توحدوا طائعين حول البيت . . عاكفين في ظلاله ورياضه . . ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً . . ولو رسولهم جميعاً . . ومعلم الناس الخير . . ومربي أولئك الذي وضعوا أساس البنية الحضارية والتاريخ المشترك في ظل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ وقول رسوله الكريم : « لا فضل لعربي على عجمي ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى » .

إلا أن لقاء فريضة الحج بما فيه من هذه التعبئة خلال فترة طيبة من الزمن

يشارك فيها القلب والعقل والجسم والمال، وبما فيه من هذا لا توحده الذي ألمحنا إليه في حياة المسلم وبين المسلمين بعضهم مع بعض . . إن لقاء فريضة الحج - بما أنه كذلك - نذر هذه الأمة أن تعود أدراجها إلى التماس منهج الإسلام في التفكير والعمل كيما تسلم لها البنية الثقافية، واستئناف البناء الحضاري الذي كان لخير الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة.

وهو نذير هذه الأمة أن تستشعر أمانة هذا الإسلام من خلال التفكير والتدبر في صنيع أولئك الذين يرى الحاج من آثارهم، ويشم عبير الدماء في الأرض التي أداروا عليها معاركهم تحت راية الإسلام . . فكانوا وقودها بنفوس راضية مطمئنة تظل - وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها - شاهد صدق على سلامة الطريق وعظمة الغاية . . وأن كل الأبواب إلى عزة الأمة من جديد، موصدة، إلا باب يصلها بسبيلهم ويسلمها إلى نهجهم .

وعلى سنن التذكارات الفاعل المؤثر وفي استجلاء للتاريخ البيعد منه والقريب . تطالعنا نحن المسلمين - وحجاج بيت الله يعمرون تلك الأرض بالمناس في القول والعمل - حقيقة له ما أعظم جذورها وأوسع أبعادها - تلك هي حقيقة ما ينبغي أن يكون عليه الموقف من الأوثان والوثنية، وما يجب أن يزود به العقل المؤمن في مواجهة الأصنام!! فإبراهيم عليه السلام - وكثير من شعائر الحج مرتبط بتاريخياً بصنيعه على تلك الأرض المباركة - كان من عيون دعائه وقد أسكن ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله الحرام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ وكان



منه ما كان من حرب على الوثنية وكل متعلقاتها ، حتى أنهال على أصنام قومه ضرباً باليمين وهذا بعض صنيعه وهو يدعو إلى ملة التوحيد التي ذكرنا الله تعالى بها في قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ولقد عاقبه الطاغوت وعبدت تلك الأصنام الصغيرة بأن القوه في النار ، ولكن الله أنجاه منها وكان من خبر القرآن في هذا ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ .

وموقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الأسوة الحسنة لكل مسلم - من بدء البعثة وحتى فارق الدنيا - فداءه أبي وأمي - كله حرب على الوثنية والأوثان ، كائناً ما كان أسمها أو عنوانها ، ويوم الفتح كان ينادي وهو ---- الأوثان التي كانت عند الكعبة ﴿ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ وكم أرسل من البعوث لهدم وثن هنا والقضاء على وثن هناك . . لما أن الوثنية عدوان على العقل وكرامة الإنسان وحرية ، واستهتار بكل القيم الكريمة في الحياة ، وما أكثر الأوثان تحت لافتات أخرى من هذا العصر .

إن كثيراً من العوائق التي تحول دون الأمة اليوم ودون أن تستكمل شرائط نهضتها - كما يريد الإسلام - ألوان من غشاء الوثنية في النفوس ، وفي المجتمع ، وحين ندقق في كل الزوايا والخبايا . . سنجد أن الغشاء الوثني له عناوين هنا وزخارف هناك في الأشخاص وفيما تهوى الأنفس ، ويخضع لسلطان الشهوة وحب الدنيا أو طلب العافية . . يتعاون ذلك في أحلاف غير مقدسة مع --- والغفلة ، وتقاعس بعض الهمم عن الصعود وكذلك حرب أهل الخصومة مع هذا الإسلام لما أنهم أعداؤه على الحقيقة أو المجاز ، الصريح أو الكناية .

من أجل ذلك - ونحن مع خواطر الحج - كان لابد من وضوح الرؤية واستعلان الحقيقة في تحديد المواقف عند مواجهة الوثنية بكل أبعادها وعدتها، تلك الحقيقة التي لا يحول دون استعلانها إلا متربض بهذه الأمة . . دعي النسبة إليها . . ويومئذ تأخذ أمتنا نفسها بما تقتضيه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وتلتزم بكل ما هو من حقها ومستلزماتها من تغيير جذري في واقع حياتها، كيما تطوعه لحق « لا إله إلا الله » وتشرق شمسنا من جديد .

إنه لم يعد خافياً - ولا عليك أن تدفن النعامة رأسها - أن أية محاولة لتغيير واقع الأمة في طول وطننا الكبير وعرضه، عن غير طريق الإسلام، عمل موصد الأبواب تائه السبل، سداه ولحمته الفشل والانتكاس، أنه ضرب في حديد بارد .

واجترار لتجارب أصبحت أكثر عدداً من مجريها أو كادت . . وخصوصاً من يصنعون أصناماً قميئة على جنبات الطريق . نريد أن نواجه الحياة بهذا الإسلام، الإسلام في تكامله وشموله وسديد نظرتة إلى الإنسان وإلى الوجود . . ولست بسبيل الحديث عن الغافلين أو المغافلين عن حقيقته فقد بان الصبح لكل ذي عينين . . والذين يلوون السنتهم بلحن القول فيه . . هم من بعض المؤشرات التي تلفتنا إلى أن وراء الأكمة ما وراءها . .

إن الإسلام قادر حين نأخذه بأمانة من منابعه وكما فهم أصوله أذمة الهدى عبر التاريخ . . أن يجعلنا - مع الإفادة من معطيات العلم - قادرين



على المستوى الحضاري أن نواجه العالم - ونحن أصحاب قضايا مصيرية على صعيد وطننا الكبير - بمفهوم واضح للدين والحياة، وفلسفة أصيلة ذاتية مرتبطة بهذا المفهوم لتاريخنا، مما يقضي على آخر خرافة من خرافات التجزئة في فهم حقيقة الإسلام ومعطياته - كما هو ديدن أصحاب لحن القول - ويباعد بيننا وبين أن تهتز البنية الحضارية التي هي صورة عن وجود هذا الدين بمفهومه الشامل المتكامل . . ولكن الذي ننشده أن يوجد المسلم الذي يكون في عقيدته ومعرفته وسلوكه بين يدي الله ومع الناس صورة عن التكامل الذي نلمح إليه والذي أذكرناه في صدر هذا الحديث ما عشنا معه من شعائر الحج والقيام بالمناسك وفي لغة عصرنا : لابد من توعية المسلمين على هذه الحقائق مستخدمين لذلك كل الوسائل الممكنة، وليت لمن بأيديهم الوسائل آذاناً بها يسمعون، وقلوباً بها يعون .

وهذا ما يشدنا رلى التذكر بثقل ما يتردد دائماً على اللسان والإقلام أن الحج أكبر مؤتمر عالمي للمسلمين . وأني وإن كنت لا أستخدم هذا التعبير ، - --- أراه نافذة إلى تحريك همم كل القادرين - بأوسع مفهوم - على السير في طريق التغيير لواقع الأمة . . تعليمًا، وتربية، وإعلامًا، تشريعًا وتنفيذًا وجهادًا . أن يتحركوا لهذا الأمر وأن يدركوا أن لا منجاة من المسؤولية أمام الله عز وجل، ألا بالعمل، وأن العمل الصادق المخلص هو الوثيقة لجواز الامتحان الأكبر، حيث لا سلطان ولا صولجان، وأمام التاريخ الذي يحكم دون هوادة أو عبث، مهما أذت لافتات التمويه من الحيز والأبعاد هنا وهناك .

وعلى ذكر الملتقى الكبير في الحج . . ما شأن تلك التوصيات والمقترحات التي تخلفها مؤتمراتنا وملتقياتنا في المشرق والمغرب . . توصيات بالعناية ببنية --- في مواجهة الفكر المعادي لقيم الأم وتاريخها . . توصيات بالعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية ، مقترحات تدعو إلى ضرورة تنقية مجتمعاتنا من كل ما يخالف شريعة الله ودينه ، وتطويع مناهج التربية والتعليم ، والإعلام لهذه --- . توصيات بإحلال الجهاد محله اللائق في قضايا الأمة الكبرى التي هي من قضايا المصير . . وعلى صعيد الدعوة توصيات بتهيئة الدعاة وافساح المجال أمامهم ، وإزالة العقبات من طريق دعوة الله كيما تنعم الإنسانية بخيرها وهداها . . وما نذكره هنا قليل من كثير كثير . .

إن ما تغط به التوصيات والمقترحات من النوم العميق في إدراج المكاتب ، وانحناءات الملفات المزخرفة ، بدأ يدخل نوعاً من اليأس علي نفوس النابهين من أبنائنا وبناتنا ، والنظر إلى تلك المؤتمرات والتجمعات نظرة كنا نتمنى أن لا تكون .

وفي عدد من أعداد «الحضارة» لهذا العام ألمحت إلماحة سريعة إلى هذا الذي أعود إليه اليوم . . إذ من النصيحة -والدين النصيحة- أن نذكر ونعاود التذكير بالعمل المنظم ، المدروسة خطاه وأبعاده من أجل إخراج تلك القيم التي ندعو إليها بمؤتمراتنا وملتقياتنا ، إلى واقع يتحرك ويثبت وجوده في حياتنا بل يقود حياتنا في هذا البحران من الصراع الفكري والحضاري واشتباه الأصالة بالزيف . . نريد أن نرى ازلمعاني التي تحوم حولها الكلمات



حركة وواقعاً في مضمار الوجود الثقافي والحضاري ، والعلمي والتشريعي . . نريدها دماً دافقاً في شرايين هذه الأمة . . وروحاً جديداً في أسلوبه ، قديماً في أصالته ومنابعه كيما تتفجر أرضنا بالعطاء ، وتنبث من كل زوج بهيج . .

فإذا قال من لا يملكون إلا القول . . بقي أن يعمل من بيدهم وسائل العمل والتنفيذ . . أولئك الذين تعظم أقدارهم عند الله والناس أن هم حملوا الأمانة الغالية فكانوا أهلاً لأن يذكروا ويشكروا عن طواعية ورضى . . والتخلف عن العمل مع القدرة عليه ، جفوة للأمة في دينها وقيمها أية جفوة ، ومظاهرة لعدوها عليها أية مظاهرة . . وقهر للإنسان على أرضها أيما قهر . . الرعاء الحطمة .

اللهم بحق السائلين عليك . . هب لنا من عونك ما يجعلنا مفاتيح للخير مقالق للشر . . وأنزل السكينة في قلوبنا كيما تثبت الأقدام على الطريق . . طريق أولئك الذين ينصرون دينك ويعوذون -إن حزب الأمر- بنور وجهك الكريم . . اللهم جنبنا مزالق الأئني ومهاوي الضياع ، فالليل داج ، والفتنة التي تدع الحليم حيران ، عن ساقها مشمرة ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي خاتمة المطاف : أن من حق الأخوة البررة الذين يمدون مجلتهم «حضارة الإسلام» بذوب قلوبهم وفيض إيمانهم ومشاعرهم . . أن نحمل إليهم سعادة القراء بهم . . وتلك شهادة تدخر لهم عند من لا يضيع عنده مثقال ذرة . . إن الكلمة البناء المؤثرة جديرة أن تذكر فتشكر وأن أصحابها

جديرون أن يذكروا فيشكروا وليس الذي نقول مدحاً نزجيه . . ولكنه قولة
حق تقتضينا الأمانة أن نسجلها هنا والمجلة تختتم عامها الثامن عشر
والحمد لله .

وللقراء في أعناقنا حق أن نعمل ما وسعنا العمل على أن تسير المجلة في
طريق ما يجب أن يكون، على وفرة العقبات . . والمصاعب . . والله
المستعان . . ولنا عليهم حق أبداء الرأي وتزويدنا بمقترحاتهم . . وأداء ما
يترتب من واجبات . . وأنه للفضل الكبير من ذي الفضل والمنة أن يجمعنا
على الطريق التي رضيها . . وسليتنا إلى ذلك هذه الكلمة الحية المؤثرة،
وجزى الله العاملين خير جزائه وتقبل الله جهاد من يحتسبون بالكلمة
المؤمنة وجه الله . وكل عام وأنتم بخير والحمد لله رب العالمين . .



المسلم .. والمشكلة^(١)

إن ما يعانیه المسلم المعاصر اليوم في ممارسته اليومية لشؤون الحياة . . واقع لا ستقيم في ميزان العقل جهله أو تجاهله ، فهذا يجوز . . وذاك لا يجوز . . وهذا حرام وذاك مكروه ، وما حكم قضية كذا في الحياة الاجتماعية . . وما موقف الشارع من الأمر الفلاني في مجال الاقتصاد . . إلخ . وهذا كله وغيره كثير واقع فيه ، ولقد يحار في كثير من الأمور ماذا هو صانع . . هل يترك كذا لكذا . . ؟ هل يرتكب أخف الضررين . . هل يسلم نفسه إلى ما يسمى عموم البلوى ؟ هل يرتكب فيما ندعوه بالضرورة وعند ذلك ما هي حدود الضرورة ؟ وما هي أبعادها كيما تكون هي التي أبيح المحظور من أجلها . . ؟

وفيما وراء الواعين الحقيقة الباذلين في سبيلها مهما كفلهم الثمن . . ترى الباحثين في حال هذا المسلم اليوم ، يرثي بعضهم لحاله ، ويشتاق آخرون إلى تبدل الحال بخير منها وهم قاعدون ، بينما يدعو البعض أن يجبرهم الله من أعظم ، ولسنا بسبيل التنفيذ لآراء هؤلاء وأولئك وأيها أقرب إلى نظرة الإسلام نفسه حين يحزب الأمر ويشتد الكرب وما هو الواجب في مثل هذه الحال . . وعلى عواتق من تقع مسؤولية ذلك ؟

لسبنا بسبيل هذا ولكن لنا كلمة صغيرة ننفذ بها إلى حيث يتباكى المتباكون

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثالث ، السنة التاسعة عشرة ، جمادى الأولى ١٣٩٨ هـ ، أيار ١٩٧٨ م .

عن حسن نية أو سوء نية فيبتعدوا بنا عن مكنن الداء ، وتقوم كلماتهم بدور امتصاص المشاعر المتملمة حيناً أو الغاضبة حيناً آخر ، وقد تقوم غمزاتهم بدور التئيس من إمكانية التغيير حت كان الأصل هو الانحراف ، والدعوة إلى استقامة الأمور هي الطارئ الذي يعكر على الناس صفو حياتهم . وفي هذا ما فيه من الحيدة عن الطريق التي يجب أن تسلك ، واستبدال الشك المضني والتشاؤم القاتل بمنطلقات العقيدة وعزيمة التغيير الذي هو واجب لا مندوحة عنه صورة من صور المسؤولية التي لا تبارح المسلم في أداء الأمانة حتى تبلغ الحلقوم ويلقي عصا التسيار .

إن الذي يعانيه المسلم المعاصر اليوم عند مواجهة الحياة بما فيها من طارئ ووافد هو ظاهرة المشكلة أو واحداً من آثارها ، وليس المشكلة فنسها على الحقيقة ؛ ذلك أن المسلم ليس إنساناً تصرفه في الحياة حاجات مبتورة عن معانيها ، ولكنه إنسان صاحب رسالة ، يفترض أن ينظر إلى الأمور كلها والوقائع كلها من خلال قيم تلك الرسالة ومقاييسها ، لما أنها رسالة تحمل فيما تحمل ، مع عقيدة التوحيد التي هي عقيدة الفطرة -أفعل ، لا تفعل ، هذا واجب وهذا حرام ، ذاك جائز وذلك مكروه . . والثالث مندوب . . إلخ . مع المرتكزات الحضارية التي يجب أن تكون والتي عرفتها الإنسانية رداً من الزمن وكل ذلك ضمن مقاييس الشرع والعقل ، لما أن العقل السليم لا تخالف بينه وبين الشرع .

فحين يمارس هذا المسلم شؤون الحياة ، أو يواجه قضايا المجتمع ، ويبدو



شيء من هذا متخلخلاً أو في طريق التخلخل ، يحمل سمة التعارض مع رسالته أو يكاد . . يكون لازماً أن ننظر إلى جذور المشكلة التي تتمثل في -- المجتمع عن منهج الله ، هذا الانحراف الذي يتمثل في خضوعه لقيم غير قيم تلك الرسالة انتماء وولاء ، عقيدة وشريعة سلوكاً ونظام أخلاق ، علماً وثقافة . . وكثير كثير أن نقول غير ذلك .

هذا في الوقت الذي يؤمن فيه المسلم أن قيم رسالته ومقاييسها هي التي يجب أن تحكم وتوجه دفعة الحياة ، وهي قيم ومقاييس يعتز بحملها عن عقيدة واعية وبصيرة نافذة ، ويرى أن وجوده الحقيقي منوط بوجودها مضمونات لا عناوين جوفاء مبهرجة ، قد يراد منها التعفية على تلك المضمونات زوراً وبهتاناً .

وعلى هذا : فلسنا أمام مشكلة المسلم المعاصر في المجتمع فهذا من آثار المشكلة ولكننا أمام انحراف المجتمع - كما أسلفت - عن منهج الله .

ولسنا ننزلق في هذا على خط من التشاؤم أو التفاؤل ، فتلك قضية أخرى ولكننا مطالبون بأن نحدد الذي نريد ، وأن ندقق في الزوايا والخبايا بموضوعية وأمانة كيما نعود وفي جعبتنا تلجواب الدقيق عن كثير من التساؤلات ، لعل من أقربها وأبسطها لم كان الأمر الفلاني كذا؟ ولم كانت تلك القضية على ما هي عليه؟ وأي شيء ترتد إليه تلك الجزئيات من هنا وهناك؟ وهل كل أولئك جاء مصادفة أم أنه مرتبط بما ارتبط بالخط العام الذي يحمل حقيقة المواجهة بين الإسلام وأعدائه وما كان تأمرهم على كل

صعيد واستخداهم لكل سلاح ثم ما كان من أعراض المسلمين عن منهج الرسالة واعطاء مقاتلهم لأعدائهم .

وفي ضوء ذلك كله بتحديد موضوعي وتاريخي لا يغفل عن طبيعة المشكلة ولا يهمل أن يكون في حسابه استخدام المناسب في مواجهتها .

في ضوء ذلك يبدو بكل وضوح أن المسلم المعاصر لم تأت حيرته حيناً ، وتساؤلاته حيناً آخر ، بسبب أنه لا يصلح هو لمواجهة الحياة لما أنه يتسم بالسلبية وعدم القدرة على التكيف ، فننعي عليه سلبيته وجموده علي مفهومات معينة حالت دونه ودون التكيف المناسب !! والواجب أن نحدد بشجاعة أبعاد المشكلة في حقيقتها وجذورها الضاربة هنا وهناك ، وأبعادها فيما أشرنا إليه ، حيث يبدو العبث بالقيم الإسلامية اليوم وفتنة أهلها من تلك الأيدي الصغيرة أو معلمتها الكبيرة امتداداً لذلك الانهدام الذي تتمثل فيه حقيقة المشكلة .

وفي لومنا أو رثائنا للمسلم المعاصر سلبيته المزعومة نكون كأولئك الذي يدعون الجاني في عبثه وحيته ويصبون جام غضبهم على تلك الأم التي ذبح ولدها الشاب أمام ناظرها ، لم (تبكي؟) وتصرخ مطالبة بدم ولدها . . لقد أزعجت الجزائر!! فلم تمارس الحياة ممارسة حضارية .

وعندها يكون الواجب الملح والمهمة الصعبة التي لا محيد عنها أن نضع المسلم -بمنهجية وحرارة إيمان- على الطريق . . الطريق الذي يتسم بالعقيدة والوعي المبصر وحب الجهاد وهي طريق لا بد أن تزدان بالضحايا والشهداء



ثمرة للتمحيص والابتلاء . . وهي لم تفقد روادها -والحمد لله- فسلسلة الشهادات الأبرار لا تنقطع . وما ذلك الحرص من أعداء الأمة على تحويل الأجيال عنها، ومحاولة البتر لكل الأرجل التي تتحرك عليها جسدياً وفكرياً ألا صورة مثلى لأحقيتها .

وهكذا . . فبدلاً من أن نندب الحظ العاثر، وننحي باللائمة على المسلم المعاصر في حيرته، وضعفه عن مسامرة ركب التطور العلم!! يجب أن نضع الأمور مواضعها، ونحسب لكل قضية حسابها، وندرك ببصيرة المؤمن أن العلة عند أعداء الله في المسلم المعاصر -شأن كل مسلم سلف- أنه مسلم وكفى . نعم . . إنه مسلم وكفى . . ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وليكن في الحسبان دائماً أن «ربي الله» لها مالها من مسؤوليات وتبعات .

إن المسلم إنسان صاحب رسالة فإذا أخذ رسالته وراءه ظهرياً باسم التكيف والبعد عن السلبية فكبر عليه أربع تكبيرات، وإذا رأيتَه يعلم --- . . ويعي ما حوله . . غير غافل عن ماضي الأمة وحاضرها -بما يحدد تاريخ الانعطاف- يرافق ذلك كله روح الجهاد، والثقة بما عند الله ثقة تبعث على ترك الفانية للباقية، والتحول عن العاجلة إلى الآجلة . .

إذا رأيتَه يفعل ذلك فأعلم أن للخير هنا . . وأنه قد وضع قدمه على طريق الواردين على ميراثان النبیین والصديقين والشهداء والصالحين . . وحسن أولئك قدوة هنا ورفيقاً هناك .

ويوم يأخذنا العبث فنغفل عن الحقيقة ونتحول عن المشكلة إلى ما يبدو وكأنه اعتراف صريح بأن الانحراف عن منهج الله هو الأصل ، وأن ما يراه المسلم هو الطارئ ، وعلى الطارئ أن يثين عنانه ليتمدين فينحني أمام الانهدام معلناً أن الدين الذي ارتضاه لعباده قد استنفد أغراضه حين نقع في هذه --- المهلكة ، فتلك واحدج من الطامات الكبرى ونعوذ بالله من المسخ والتعطل والتبطل . .

ومهما يكن من شأن فإن هذا وأمثاله غير جديد على ميدان الصراع بين الحق والباطل . . وإنما يوفى الصابرون أجبرهم بغير حساب . . ولله الأمر من قبل ومن بعد ما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .



المسلمون .. وتحمل التبعة^(١)

إن نيدب نفر آمنوا بربهم أنفسهم للدعوة إلى الله على بصرية والعمل بإيمان ووعي على أن تأخذ مفهومات الإسلام طريقها الطبيعي في المجتمع ، لا يعني أن الآخرين قد أعفوا من المسؤولية بين يدي الله تبارك وتعالى ، كما لا يعني - وهذه أهم - إن مسؤولية هذا الدين أصبحت مقصورة على أولئك الذين ندبوا أنفسهم للعمل . . وأن كل قضية ترتبط بالإسلام بسبب فإنما يكون نسبها الحقيقي إلى هؤلاء ، ويتج عن ذلك أن يتحملوا المغارم كل المغارم .

أما الآخرون : فلا أدوا واجب الأمانة وفاء بعهد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولا حموا ظهور هؤلاء على الأقل ، مما يثقل الكوهل من الفتنة ، والمثبطات والمعوقات . فإن جاء نصر من الله صار الكل مدعين . . وإذا الفتنة جاءت - وما أكثر ما تجيء - فلتكن على أم رأس أولئك العاملين . . وإن كان عزاء هؤلاء دائماً أن الابتداء دريدهم إلى مرضاة ربهم ، وأن ما يتطلع إليه المؤمنون لا يكون دون ابتلاء وتمحيص .

نقول هذا دونما غفلة عن المؤهلات الحقيقية التي يجب أن تتوافر لمن يكرمهم الله بحمل العبء وارتياذ الطريق . . فبقدر عظم الغاية تتبدى ضرورة صلاحية العاملين من أجلها . . ولم يكن في الماضي ، ولن يكون في الحاضر أو المستقبل ، تبديل لسنة الله في هذا الكون ، بأن تناط الغايات الكبار ، بمن حظهم من العمل لهاث وراء الدنيا واستخذاء على أعتاب الانحراف والمنحرفين . وإنما تناط دائماً بمن هو أحق بها وأهلها .

إن الذي نقول لا يعني ذلك ولكن يعني ضرورة التدبر في أمر عموم خطاب التكليف وأن الإسلام أمانة في أعناق الجميع ولك مطالب بالعمل قدر ما أعطاه الله من المؤهل والكفاءة: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ولن يعفي مسلماً من المسؤولية دعواه أن لا علاقة له بكذا وأن الأمر يهم من نبدوا أنفسهم لهذا الأمر، أما هو: فحسبه أنه عن الأذى بمنجاة، وأن دنياه لا يطولها ما يعكر الصفو. فمثل الإسلام في خيريته المطلقة للفرد والمجتمع والأمة مثل هذا الغيث العميم ينبت الله به الزرع والضرع -ومثل تلك الشمس الطالعة تبعث الحياة والدفع والنماء، يظهر ذلك في النفس والولد والمال وكل ألوان الوجود. . فإذا انحرس ظل الإسلام عن المجتمع كان ذلك نذير الضياع وسوء العاقبة.

فالحقيقة أن المسلم يكون بخير إذا نعم الناس بشريعة الله وكانت هي المحكمة في شؤونهم. . يكون بخير هو وأهله وذووه إذا عرفت الزة طريقها ووجهت للذي فطر السماوات والأرض وجهها، وكانت في التربية والعمل والأعداد على النهج الرباني الذي رضيها لها ربنا جل وعز، والمحجة التي تركها عليها نبيها محمد -عليه الصلاة والسلام- فأين من ذلك. . تلك الانطوائية ---- عن الاسهام في رفع راية الإسلام من جديد. . بينما يسهر أعداء الله ليلهم في الفتك بهذه الأمة وفتنتها عن دينها على كل صعيد.

إن سلاحاً من أمضى الأسلحة بيد أعداء الإسلام يتمثل في هذا الفهم الأبله المسترخي لطبيعة المسؤولية في الإسلام، وأن المسلم يكفيه من دعوى



الإسلام، ما هو عليه من سلوك خاص لا ترافقه حرقه على دين الله أن ينحسر عن المجمع، ولا شعور جماعي يتمثل في تحسُّسه بما يثقل كاهل الأمة من واقع لم جرّها إليه أدبارها عن الحق. وتولية ظهرها للرأية التي في ظلها نبت الخير واستعلنت كلمة التوحيد، ووجد الإنسان.. الإنسان كما أراد له ربه تبارك وتعالى.. وليس الرقم الجامد، الذي لا يستطيع حراكاً، ولا يؤذن له فيعلم --- إنسانيته في ظل قول الله تقدست أسماؤه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾.

ويسوقنا الحديث إلى الهمس في آذان من يرون تحميل مسؤولية هذا الدين أن يعود له وجدوه الحقيقي فئة خاصة من المسلمين آمنت بالإسلام عقيدة وشريعة وسلوكاً وجهاداً وأنالعمل البد أن يكون قرين الإيمان، بل وأنه برهان الإيمان الصادق.. يسوقنا الحديث إلى أن همس في آذان هؤلاء أن الله الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم أن صنيعهم هروب من التبعة التي تتطلب التضحية والبذل، وانحراف عن حق لا إله إلا الله، فمن حقها أن تحكم الأمة بما أنزل الله، ومن حقها الوفاء بعهداها، لأن من آمن بالله رباً فقد أعطى العهد من نفسه أن يؤمن به سبحانه شارعاً لما خلق، فكما قدر على خلق الكون وترتيبه على أردق نظام، فهو القادر على أن يشرع للإنسان الذي سخر له الكون ما يسعده في الدنيا والآخرة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. فالأدبار عن ميدان العمل تحت ستار هذا لافهم شح عن العطاء وفرار من ميادين العمل ورضى بالقعود حيث لا يرضى المؤمنون

بالعقود.

ولست في هذا الذي أقول داعياً إلى الفوضى . . وأن يهرف كل إنسان بما لا يعرف وأن يقول قفي دين الله من لا يعلم من الدين إلا اسمه ومن الشرع إلا رسمه ، فتلك قضية أخرى ، ولكنني أدعو إلى وجوب أن تنتهي من حياة المسلمين هذه التعللات ، والتحملات التي تحمل في طياتها طلب العافية من العمل والبذل ، والفرار من ساحات الجهاد وبذل الطاقة على أن يكون الإسلام هو محور حياة الأمة الماجدة . . بحيث تكون قيمه هي المنارات التي يهتدي على ضوئها السالكون . . فتستيقظ الأمة من رقاد . . وتنبه من غفلة تمسك بالزام الذي افلته فضاغت وأضاعته .

التخصص العلمي شيء ، والشعور بالواجب في طابعه العام شيء آخر . . أن واحداً من خطابات التكليف في القرآن سواء أكان في العبادة الخاصة ، أو العمل أو الجهاد لم يكن لفئة معينة من الناس ، ولكن الأمة مأمورة -على وجه العموم- أن تهيء لكل عمل ما يناسبه ويسلمه إلى النجاح فتري : يا أيها الذين آمنوا . . يا أيها الذي آمنوا . . وهذا تذكير بالإيمان الذي هو قاعدة العمل فالدعوة إلى العمل مرتبطة بالإيمان وليس بشخص أو بفئة من الناس . . ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ .

وإذا كانت السهام تنوش المسلمين من كل جانب وتُحشدُ لفتنهم عن



دينهم وإغراقهم في حماة الأذى ألوان، وأنواع من الطاقات ويستخدم لذلك صنوف من التخصصات، إن الضرورة تدعو أن تحشد في مقابل ذلك كل الطاقات والتخصصات --- أي حسارة نخسرها على طريق التغيير ومدافعة التفتنة، عندما يثني كل عمله ويتبدع التعللات هروباً من العمل وانصرافاً عن جدية التفكير في واقع الأمة.

إنها -وأيـم الله- كارثة أي كارثة.. أن يعمل أعداؤنا كل سلاح في كيان لهذه الأمة ليسلموها إلى وجود هو بالعدم أشبه، ثم يكون في مقابل ذلك الاستهتار المغلف من جانبنا، وحب العافية الذي يأخذ زوراً وبهتاناً عناوين --- الواجبات ما هي؟ ومن هزم أصحابها؟ ويلحق بذلك الموضوع والحكمة.. وكذا.. وكيت.. من ترهات ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما هي أسماء سماها المنهزمون فينا، أو الذين استنوا بسنة من طال عليهم الأمد فقسّ قلوبهم تمويهاً على ما هم فيه من حال قال القرآن فيها ﴿أَقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

ترى.. أليس من عظام الأمور التي تستدعي بالغ التفكير وأعمقه، أن تنحر الحرقه عن قلوب وفرة من المسلمين، فلا يرفع الواحد منهم لما يحل بالمسلمين في كثير من أصقاع العالم رأساً، ويروح ويغدو في دنياه وكأن بنيان الأمة لا يديد أن ينقض ويتهدم.. ما هي أسباب ذلك وما علاجه؟ ليس في مقدور الكلمة على الساحة المحدودة من الورق هنا أن تجيب عن هذا التساؤل.. ولكن قد يكون من الأسباب -مع الأرهاب الفكري

والجسدي الذي يواجه به المسلم في العالم - ما أشرنا إليه من فقدان الشعور بالمسؤولية بناء على أن الأمر يعني أولئك الرواد ولا يعني غيرهم علماً بأن الريادة لا تعني انقطاعاً على الرائد وبين من يرتاد له الطريق ، والذين كرمهم الله بأن يكونوا الطليعة على طريق شائكة تدمى عليها الأقدام وقد يختطف من فوقها السالكون . . يخدمون الله حق حمده أن اختارهم لعزائم الأمور وينظرون إلى اخوانهم نظرة الحسرة الصادقة على ما هم فيه والرغبة الملحة أن يسهموا في التغيير دعاة صادقين إلى الله .

على أية حال . . والحديث موصول - يبدو لزاماً أن يعلم المسلمون أن القضية قضية معتقد وأن ما يرضي المسلم أو يغضبه ، وما يفرحه أو يحزنه ، لا بد أن يكون كذلك في نظر الإسلام بما وضع من قيم وما رسم من موازين ، وهذه التجزئة في فهم الدين وتحمل تبعاته وماله من حقوق أمر دخيل على الفكر الإسلامي ليس من الحقيقة في قليل ولا كثير .

ومن عجب أن الخطر يتفاقم يوماً بعد يوم . وعلى نسبة عكسية ترى في المسلمين أمة سادرة تضرب عليها اللامبالاة بظلمتها وخدرها . . حتى كأنها استسلمت لليأس القاتل أو نفضت يدها من التبعية والواجب ، وأنتك واجد أن الأمر ليس مقصوراً على أمور الفكر والتصور والتشريع والعبث بطرائق المعرفة والتثقيف ، بل أن الأمر يتعدى ذلك إلى التصفية الجسدية كالذي حصل ويحصل في بعض أنحاء الالم من العالم العربي ، وما رأينا ونرى في أثيوبيا - الحبشة - والصومال والفليين ، وتشاد وغيرها ، حتى وصلت النوبة



إلى بورما حيث يهجر مئات الألوف من المسلمين إلى بنغلاديش -باكستان الشرقية- مأخوذین بجريرة إيمانهم ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وعدد من الملايين مهددون بالمصير نفسه . . هذا في الوقت الذي ينادي أصحاب الدعاوي العريضة بحقوق الإنسان . . وكان المسلمين مستثنون من هذه القاعدة، محكوم عليهم أن تكون سكين الجزار فوق رقابهم يباركها أصحاب العناوين ومدعو الإنسانية والحفاظ على حرية الإنسان وكرامة الإنسان . يموت إنسان أبيض في بقعة من بقاع العالم ، فتقوم الدنيا وتقعّد، ويحصل ما يحصل لأبناء هذه الأمة فتناوي الحلق المسعورة! ما شأننا وشأن هؤلاء .

إن الذي تملّيه عقيدة الإسلام إن يعمل كل أولئك الذين تؤرقهم الأحداث وتُحرك مشاعرهم مطارق الفتنة تدق الأبواب صباح مساء . . أن يعملوا على إيقاظ الشور بالتبعة عند هؤلاء المسلمين ، ومن لم يستطع العمل منهم يراد منه -على الأقل- أن يعلم أين يقف وما هي النسبة الصحيحة بين الأحداث وبين الإسلام الذي يحمله بين جنبيه ، وماذا يعني الوجود الحقيقي للإسلام في حياته؟ ما أبعاد ذلك وما حجمه على صعيد الفرد والجماعة . .

إنهم إن فعلوا ذلك -وكل الأشواك موضوعة في الحسبان- استطاعوا أن يأتوا السراة في بيداء هذا العصر بقبس يضيء لهم الطريق ، وإذا سلمت الخطوة الأولى . . كان ذلك عنوان إمكانية الاستمرار إن شاء الله .

وعندها يمكن أن نطمئن إلى أن شرارة حضارية يمكن أن تضيء الطريق من

جديد نتيجة التحدي والاحتكاك . . وتسعد الأعمة بتطهير كيائها من مستنقعات التجزئة في الفهم ، وما يكون من مبتدعات يملئها حب العافية وما اختزنه اللاشعور من رغبة في العافية وهروب من البذل والعطاء .

وعلى هذا لاصعيد المبارك الإيجابي نذكر ما حمل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من أمانة الجماعة والنظرة الجماعية عبر التاريخ من أن المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً وإن المسلمين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر .

وفي ضوء هذا المنطلق نقف بكثير من الاجلال والتبصر أمام الذي فرضه رسول الله من عقوبة المقاطعة على أولئك البررة الثلاثجة الذين خلفوا عن (تبوك) فالمجتمع كله بلا استثناء يقاطع الثلاثة ، لماذا؟ لأن القضية قضية الجماعة بأكملها ، وليست مسؤولية علي صعيد الاختيار . تخلفوا بلا عذر عن معركة قاسية محتملة مع العدو في الصيف الصائف فكان أن علم رسول الله الأمة أن التخلف تخلف على طريق الأمة فليشترك المجتمع كله في تلك المقاطعة . . وظل ذلك حتى نزلت الآيات الكريمة تقبل توبتهم . . ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ .

وهكذا تفرض العقيدة ، ويفرض الواقع التاريخي ، وتفرض الحال التي تدمي القلب وتحرق الأكباد أن يذكر الرواد بعمق المسؤولية وأبعادها ، وأن تغير واقع الأمة إلى ما هو خير أو أقل سوءاً على الأقل مرهون بأمور كثيرة



بعد عون الله وتأيينه ليس أقلها الشعور الجماعي بالتبعة وأن الأمر ليس قصراً على من يندبون أنفسهم لهذا الأمر وإن كنا نغبط العاملين ثم نغبطهم لما أن سبيلهم عنوان مرضاه الله . . . ويا حبذا ثم يا حبذا ما يدركه الواعون من أبناء الزمة وينشدونه في الناس من وجوب فهم الإسلام على حقيقته ثم وضع التخصصات والطاقات على طريق التغيير، تلك الطريق التي لا بد أن تسلمنا إلى حسن العاقبة أن أخلصنا النية في القول والعمل وصدقنا في التوجه إلى الله . . . وتباشير النصر تبدأ بإعداد العدة وخلوص النية، ويا قبح الله كل أولئك الذين يحولون دون الأمة ودون أن يسلك أبنائها تلك الطريق . . . ولكل وقفة لا تخفى معالمها يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

وهنيئاً للمجاهدين الصادقين الصابرين ثباتهم على الحق، واحتمالهم صنوف الأذى، وابتسامتهم للموت يقع عليهم أو يقعون عليه . . . ولكل درجات مما عملوا أحصاه الله ونسوه . . . ومن يتوكل على الله فهو حسبه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

شهر الصبر والجهاد^(١)

لقد اقتضت إرادة الله أن يكون شهرُ رمضان -وصيامُه ركن من أركان الإسلام- شهرَ الجهاد والصبر وأن يتحقق فيه على مر الزمن الكثير من انتصار الحق على الباطل في عدد من المعارك التي هي مشهورة مذكورة في التاريخ ، ومن عيونها بدر والفتح وعين جالوت وغيرها .

ولقد كان ينبغي على المسلمين الذين كان حظهم من هذه المعارك قراءة أخبارها أن يستذكروا -مع فرحهم بنصر الله واعزاز جنده- عوامل هذا النصر وكيف تأذن به ربنا ، وفي الوقت الذي لا تبدوا الأسباب الظاهرة أحياناً على المستوى الذي يوحى للناقد البصير بالنصر .

لقد خرج المسلمون من مكة إلى المدينة بعد ثلاثة عشر عاماً من الابتلاء والتمحيص ، حيث زكيت النفوس ، وأحسنّت الصلة بالله تبارك وتعالى ، واستنارت القلوب بنور الإيمان الصادق الذي لا يتزعزع ، واليقين بوعد عباد وأحباءه بالنصر أن هم نصره ، ولقد كان صبرهم ومصابرتهم واحتمالهم صنوف الأذى في مكة ، ثم هجرتهم بدينهم ، مخلفين الأهل والمال والوطن ، عنواناً واضحاً مشرقاً على أن رسالة السماء قد عملت عملها في تلك النفوس ، وأن صياغة جديدة للإنسان على أرض الجزيرة العربية قد خرجت بهذا الإنسان من حال إلى حال ، فارتفعت به عن أوضاع المادة والتراب وحطام الدنيا ، وكل ما يعوق عن السير إلى الله ؛ من وثنية وخرافة وتعظيم بالآباء والأجداد .



كما وضعته على مستوى الرسالة التي حملها ، فكان من المجاهدين البررة الذين كل مبتغى الواحد منهم أن يلقي الله وهو عنه راض ، وأن يكتب بدمه تاريخ أمة لا تنحني لصنم ولا تذلل لمخلوق ، ولا يكون همها إلا تحقيق كلمة الله في الأرض ، وأبعاد شبح الطاغوت من وثنية ، وظلم ، وجاهلية ، وخرافة من طريق الإنسان ، بل من حياة الإنسان . وعماد ذلك كله إقامة حياة إسلامية وفق ما أوحى الله به إلى محمد -عليه الصلاة والسلام- ، وقام هو بأمانة تبليغه وبيانه للناس .

وإذا كانت هذه الأمور معروفة لدى المسلمين فيما تنطق به تراجم أولئك الرجال الذين صاغهم محمد -صلى الله عليه وسلم- على المنهج الرباني فإن الضرورة ملحة اليوم وكل يوم أن نستذكر ذلك بمضموناته ومدلولاته ومقتضياته خصوصاً وأن المسلمين على أبواب واجبات ملحة تقتضيها طبيعة الصراع بين الحق والباطل وأن شئت فقل : بين الإسلام والكفر . وسنة الله ماضية في هذا الكون أن الإعداد يبدأ من داخل النفس ، وأن المجاهدين المخلصين إذا سلمت لهم هذه المقدمة ، واتخذوا من العدة الظاهرة ما يستطيعون ، لا بد أن يأتيهم بنصر الله ، والآيات في هذا واضحة صريحة لا تحتاج إلى بيان ، اقرؤوا أن شئتم قول الله تعالى : ﴿ كَمْ مِّنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ لقد اقترنت غلبة الفئة القليلة بالإذن من الله ، وأنه سبحانه مع الصابرين . فأأي سلاح أمضى من هذا السلاح ؟ وأي عون يمكن أن يكون أغزر وأوفر من هذا العون ؟ . ولقد رأينا الفئة المؤمنة

الصابرة على قلتها وضعفها ، لم تقصر في اتخاذ ما تستطيع من العدة ، وفي القلوب يقين ، وفي النفوس صدق يطلع إلى ما عند الله ، فجاء النصر والحمد لله وفرح المؤمنون بنصر الله .

إن هذا الذي نلح عليه في وقت يشتد فيه الكرب ، وتلاحق المسلمين الفتنة وكل مكان على الأرض من أقصاها إلى أقصاها . . أن هذا الذي نلح عليه ليس --- من عند أنفسنا ، ولكنه دلالات والوقائع التي زانت التاريخ في وضع يتسق مع سنن الله الماضية في هذا الكون . .

وما لم يصح المسلمون صحوتهم المبصرة الواعية فتكون الدعاوي عنواناً --- مضمونات وأعمال ، وإعلان « لا إله إلا الله » إيذاناً بصدق العهد مع الله . فستظل نذر الشر المستطير قائمة تصرخ فيهم من هنا وهناك .

إنالذي حوّل الشراع في معركة عين جانوت وبدّل الأمر من حال إلى حال ، أن المسلمين على تفرق قيادتهم في العالم الإسلامي ، خاضوا المعركة بروح الإسلام ، حيث قادهم العالم العامل والقائد المظفر من قلوبهم أولاً وقبل كل شيء ، حتى أضاءت جذوة الإيمان من جديد ، واشتدت العزائم ، وتحركت النخوة الإسلامية ، وآتى تحدي الأعداء ثمراته في النفوس ، ووقع التفجر وكانت شرارة التحول التي غسلت العار وحمّت الذمار .

لقد كانت معركة عين جالوت في كل دلائلها والمنعطف الذي أحدثته في تاريخ الإسلام أوضح دليل على أن المسلمين إذا صدقوا في إعطاء الكلمات والمصطلحات مدلولاتها ، ولم تكن فارغة من ذلك كما هو شأنهم اليوم



فلا بد أن تكون العقابة لهم بإذن الله مهما تكالب عليهم شياطين الإنس والجن وقامت في وجوههم العقبات .

وقد تكون المهمة اليوم أثقل وأثقل بما طرأ على المسلمين من تبدل في طريقة التفكير عند الكثيرين - تلك الفاجعة التي لم يصب بها أولئك المجاهدون - ومن ضياع كثير من القيم - لم يفقدها أولئك العاملون - هذا إلى جانب منعطفات جديدة من التمزق والضياع وسلطان يهود ومن هم من أعوان يهود على اختلاف العناوين واللافئات .

ولكن مع وضع هذا كله في الحسبان ، يظل وعد الله قائماً بنصر عباده المؤمنين إن هم نصره ، وتظل النتائج كلها مرتبطة بمقدمات ثلك أن نفعل ما نستطيع منها ، وعندها يواتينا النصر بإذن الله وتذكر الأمة عناية من لا رب غيره ولا خير إلا خيره .

إنه - ومن خلال كل المعوقات - لابد أن يعد المسلم في قلبه وعقله ومشاعره ، وطريقة تفكيره ، وصلته بمولاه عز وجل إعداداً يرتفع به إلى مستوى القضية ، إيماناً وإخلاصاً ورغبة صادقة في الجهاد . . وقبل ذلك وبعده استشعاراً صادقاً لمدلول « لا إله إلا الله » وأن معن بإعلانها العمل بمضمونها وليكون محتواها صورة حية تتمثل في العبادة والعمل والجهاد وبناء ذلك على العقيدة . . وعندها تتحقق سنة الله التي عملت عملها في بدر وعين جالوت وغيرهما من معارك الإسلام .

ومن ذا الذي يزغم لنفسه أن رحلة الإسلام على أرض الصراع يحدها

زمن قصير!! إنها رحلة طويلة الأمد -فيما يبدو- وربما ازدادت شراسة الباطل وما بعد يوم.. ولكن الشرف الذي لا ينال الآباء قد ينال الأولاد والأحفاد.. والمهم المهم في الموضوع، أن يودي جيلنا الأمانة كما ينبغي، وأن يستنفذ الجهد والوقت بصدق ووعي كما ينبغي، أن يعمل على أن تكون الخطوة الجادة أمينة على الطريق.. كيما نسلم الراية إلى من بعدنا وقد وضحت الرؤية واستبانَت المعالم.. وعندها يتابع الجيل القادم طريق من سبقه على هدي المنهج الرباني الذي سلكه رسول الله -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه واستن به كل أولئك الذين أكرمهم الله وشرفهم بالعمل لما فيه خير الإسلام والمسلمين، وإزاحة الركام من طريق ركب أهل الإيمان الذين عاهدوا الله فكان عطاؤهم عنون صدقهم فيما عاهدوا الله عليه.

إن كل واحدة من مقدمات معركة الفرقان في الاعداد والابتلاء والتمحيص بعد الإيمان الصادق، وتطويع السلوك للعقيدة.. تقتضينا النفاذ إلى حقيقة ما يمكن أن يعوق الجيل عن الارتفاع إلى مستوى معركة الصراع بين الحق والباطل.. وأن نقوم القول والعمل والمنهج من خلال هذه الحقيقة، لأن الجناية كل الجناية هي في أن يكبل الجيل عن اللحاق بالركب، أو أن يصرف في فكره وقناعاته وسلوكه عن النهج القرآني الذي أسلم أهل بدر إلى حيث تألق نجمهم في التاريخ فكانوا أسوة العاملين والمجاهدين حتى يرث الله الأرض ومن عليها وحازوا كرامة قوله -عليه الصلاة والسلام- «لعل الله أطلع على أهل بدر يوم بدر فقال أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»



لما أنهم خاضوا معركة الفرقان ، فكانوا قدراً من قدر الله في الفرقان بين الحق والباطل لا على أرض بدر وحدها بل على كل أرض وعلى مدى الزمن في تاريخ الإنسان . وعبدوا بصبرهم ودمائهم وجراحاتهم لمن جاء من بعدهم الطريق .

إن صياماً دائماً عن الباطل بكل صنوفه وألوانه ، وإمساكاً عن الاغترار بزخرف القول وبهرج التضليل ، واستمساكاً بأخلاق الرجال عند الخوف ونذارات المخاطر في حرص على أن تأخذ كلماتنا الإسلامية ومصطلحاتنا مضموناتنا ولا تظل فارغة من محتواها . كل أولئك من الضرورات الملحة لهذه الأمة والعاملين فيها . وإن كل يوم من أيام رمضان ، أمانة تذكر القرآن والجهاد . وتذكر الصبر وإخلاص العبودية لله تعالى ، وتكشف زيف من يزينون للأمة طريق الشياطين ويسلكوا بها متاهات الضعف ، ويعملوا على فصم العرى بين أبنائها وبين المقومات التي كان بها أهل بدر رجال معركة الفرقان .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الأمة مدعوة أن تيعش شهر رمضان عبادة ، وتدبراً للقرآن ، وتبصراً بكل ما هو إعداد للقلب النقي ، والساعد الفتي ، والعقل المشرق .

والعبودية الصادقة لله تبارك وتعالى تفعل الكثير وحق لها أن تثمر في القلوب والعقول وسلوك الإنسان الكثير الكثير .

والخضوع بين يدي الله عز وجل جدير بأن يذكر معه المؤمن أن الذلة لغير الله تتناقض تناقضاً صريحاً مع الخضوع لله .

ولقد نكون عاجزين أشد العجز عن أداء حق الله في حمده وشكره على أن جعل شهر القرآن والصبر والجهاد، والعبادة والتبتل، شهراً انتظم العديد من معاركنا بين الحق والباطل. . وأن أكرم هذه الأمة وأعزها بذلك. . ولا ننس الوجه الآخر للقضية، الوجه الذي يمثله ثقل الأمانة، وأن لا عذر لمعتذر في أن يبذل الجهد، ويعتبر بالحوادث، ويخلص من القرآن إلى أخلاق أهل القرآن، ومن حديث الجهاد، إلى صبر أهل الجهاد وعطاء المجاهدين، ومن صيام النهار وقيام الليل، إلى ترسم سيرة أولئك الذين كانوا رهباناً في الليل فرساناً في النهار، ومن الإمساك عن المفطرات الحلال، وإلى خلائق البررة الذين كانوا يقولون عند الطمع ويكثرون عند الفزع.

إن الذين خوطبوا بقول الله تعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هم المؤمنون والذين نبهوا إلى أن العدول عن الجهاد بكل ألوانه إخلاد إلى الأرض، ورضى بالحياة الدنيا من الآخرة ولا ينبغي أن يكون ذلك من شأن المؤمنين الذين عنوان وجودهم «لا إله إلا الله» كانوا من المؤمنين. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْتِلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. وفي ذلك عبرة أي عبرة وقاعدة للعمل أي قاعدة.

والله المأمول لا غيره، أن يهيء لهذه الأمة من أمرها رشداً، وأن يهديها سواء السبيل، كيما تتجاوز العقبات، وتعمل جاهدة صابرة على أن تأخذ



ساعة مسلم اليوم صياغة هي على النصيب الأوفر من صياغة مسلم الأمس، أن يكون في حساباتها أن الأمور لا تلد بمعجزة بين عشية وضحاها، وأن لا بد من صدق العقيدة وسلامة المنهج، والصبر على لأواء الطريق.

صحي أن المسلمين الأولين كان بين ظهرانيهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كانوا يعيشون متنزل الوحي، ولكننا نحن اليوم أيضاً نروح ونغدو والقرآن بين ظهرانينا، وسنة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لم يضع منها ساردة ولا واردة، وسيرته العطرة نقلها إلينا العلماء النقل الموضوعي الأمين. . . والتاريخ حافل بالأمثلة والشواهد. والأجر كبير وكبير لأنهم كانوا يجدون على --- ولا نجد، فما بالك إذا ضم إلى ذلك التجربة وما تنطق به أو مانع في القديم والحديث.

نقول هذا في غير ما غفلة عن المعوقات ونفثات الطواغيت، ولا بله في النظرة إلى واقع الأمة، ولكم يكون حظ المؤمن وافراً إذا أعطى رمضان ما هو جدير به من صيام المتقين بالجوارح مع الإمساك عن المفطر، ومن تلاوة القرآن مع التدبر، ومن قيام خاشع يحمل كل معاني العبودية لله. . ثم خلص بعد ذلك كله إلى أن يستشعر أمانة الله في رمضان، بأن يسهم في أن يكون شهر رمضان بما يحمل من ذكريات الجهاد والمجاهدين والمعارك الظافرة على طريق الإسلام. . أن يكون رمضان نقطة تحول تحمل على المشاركة في بناء المسلم المجاهد من جديد.

وتنتقل بنا النقلة المنشودة، حيث تتحول الأمة من أن يكون الإسلام في

حياتها كلمات ترددها الأفواه، أو لعقات على لسان بعض المتحدثين في المناسبات حين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، إلى أن يكون حياة ووجوداً في العالمين .

ألا إن باباً عريضاً من أبواب التفاؤل بنصر الله، تفتحه أمامنا الآيات والعظات والوقائع، ومن يدري من أي نقطة يبدأ التحول، ﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾. فلعل دمة خاشعة في ضراعة صارعة من قلب حاضر حسن الصلة بالله عز وجل، تعمل عملها في ليلة القدر وبأذن ربنا تبارك وتعالى فيؤتي المسلمين من لدنه رحمة ويهيئ لهم من أمرهم رشداً، ويتحول الشراع، وتتجه الأمة إلى حيث تكون جديرة بنصر الله تعالى وعوته، فإن الهدايا الغالية لا تكون للمتبطلين والعابثين، وحاشا لعدل الله وحكمته أن يعطي النصر من هم عن دينه معرضون، وفي ظلمات الظلم والغفلة سادرون، حاشا لعدله وحكمته -وهو الحكيم الخبير- أن يقلب الآية فيكتب الخير على يد أعوان الضلالة ومفاتيح الشر. . إن الحكمة الإلهية تقتضي وتلك أيضاً سنة من سنن الله وماضية، أن الله جلت قدرته وتعالى حكمته يضع الأمور مواضعها ويعطي عطاءه من كانوا أحق به وأهله، وإذا تحولّ الذهن -لا سمح الذهن- أي متحول في هذا الباب، كان ذلك من العبث وسوء الأدب مع الله ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ .



فليتق الله امرؤ في نفسه ودينه وأمته ، قياماً بحث الله في القول والعمل ،
واعتباراً بما مضى من سنة الله فيما كان ، وقدرته فيما يكون كيما يكون شهر
الصوم شهر هذه الأمة في حاضرها كما كان في ماضيها العتيد . وإلا حق
علينا قوله حل شأنه : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ .

اللهم انصر أولياءك^(١)

لقد حفل هذا القرن فيما قبل النصف الأخير منه بالكثير الطيب من وسائل البناء الفكري وسلامة التصور الإسلامي ، وبالمحاولة الجادة التي آتت أكلها بنسبة كبيرة في تحميل أمانة الإسلام والتربية عليه . وبصرف النظر عن كل المعوقات التي لا تخفى على من كانت له أدنى معاناة على الساحة العامة للعمل الإسلامي ، بصرف النظر عن هذا ، فإن الذي نعانيه اليوم إنما هو أمر النقلة من التصور إلى التطبيق والتنفيذ ، فتلك التي حولها ندندن . . الأمر الذي يعوقه فتور المسلمين عموماً ، وتثاؤب الطغاة من جهة ، واصرار أعداء الله - وهم يملكون عناصر القوة في الأرض - على الحيلولة دون أن يعود الإسلام في الناس سيرته الأولى من جهة أخرى . وأعداء الله في هذا الاصرار نذير خطر يتسبب إلى أيامنا الأولى عندما كانت رايات « لا إله إلا الله » ترفرف على كثير من بقاع العالم .

ذلك لأن وقوع النقلة من سلامة التصور إلى التطبيق الذي يثمر سلامة الانتماء إلى الأمة ، والولاء لقيمها ، وما به كانت خير أمة أخرجت للناس . . ينعكس على وجود المسلمين بمختلف صورته ، ويجعل منهم كياناً جديداً في نسغ جديد ، غير الذي ألفه الأعداء منا بدءاً من حملة بونابرت ومروراً بما أسموه الرجل المريض ، ثم القضاء على الخلافة وانتهاء بواقع

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السابع، السنة التاسعة عشرة، ١٣٩٨ هـ رمضان، ١٩٧٨ م إيلول.



التمزق في الأرض والفكر . والمسلسل الحاقد المزود بالعلم الحديث لا ينتهي .

على أية حال : أولئك قوم لهم عذرهم من وجهة نظرهم ؛ فرحى الحرب دائرة ، ولم تعرف الدنيا حرباً لا تنتهي آثارها كالذي رأت بين الصليبية واليهودية والوثنية وبين هذه الأمة ، علماً بأن حروباً كثيرة وقعت ثم وضعت أوزارها ولم تحمل هذه الاستمرارية كالذي نجده فيما بيننا وبين أولئك الأقوام ، مع أننا حملنا إليهم رسالة الخير وأضأنا لهم دروب المعرفة عندما كانت حالهم ظلمات بعضها فوق بعض ولم نبدأهم بأذى ولا دبرنا لهم مكيدة ، بل كانوا دائماً هم البادئين المفترين والبادئ بالشر أظلم . ولئن كان الأمر كذلك بالنسبة إليهم إن جدية الأمر تقتضينا أن نتساءل ما عذرنا نحن في أن نكون أداة مسخرة لهم عن عمد أو جهل أو غفلة ، فيبطش الظالم ، ويقود الأحق ، ويستعلن الجهول !! أن البرهان على أننا لسنا كذلك أو أننا على صعيد أقرب إلى الأصالة على الأقل ، أن نستأنف الطريق من جديد بوعي وبصيرة وتخطيط ، وأن لا نورد -على صعيد الثقيف من ولانا الله أمرهم موارد الهلكة ، في أسوأ مكن من مكامن الخطر .

وهنا يأتي دور الريادة بجدية أعداد المسلم القادر على مواجهة هذه المرحلة التي تأتي في آخر هذا القرن بعد أحداث جسام من مستهله ، حتى الفترة التي تسلمه إلى نهايته . وبمقدار الإحاطة الواعية للمراحل التي سبقت هذه المرحلة وما كان من تأثير كل واحدة في التي تلتها ، نكون أقرب إلى السلامة

في أمر الإعداد المنشود من حيث الغاية المتوخاة، والسبيل المسلوكة إليها، وما يتطلبه ذلك من جهد على مختلف الأصعدة .

ولقد ذلت كثير من العقبات في ميدان الفكر والتصور -كما أسلفت- ولكن المهمة الصعبة الآن تكمن في الإعداد الذي نلمح إليه، علماً بأن جزءاً أصيلاً هو جوهر القضية، أن يوضع في الحسبان أمر التمحيص والابتلاء، لأن أعداء الإسلام لا يدفعهم إلى مناصبة العداء جهل بقيم الإسلام، أو قدرته على النفاذ، و--- هي حلقة في الصراع بين الحق والباطل حيث ما يزال الاستفهام التعجبي الإنكاري ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ قائماً يشير إلى طبيعة المشكلة بين أهل الحق وأهل الباطل . . وما نراه الخير في الإسلام يروونه مكمّن الخطر في الصراع . ولو أن الإسلام مجموعة الغاز وتهويمات . . إذن لهان الأمر عندهم وعند سدنتهم . . ولكنه دعوة الحياة بجوهر رسالته وتاريخه . ومقوماته الحضارية، وثقافته التي أغنت الوجود الإنساني بمختلف صوره خلال قرون وقرون وما تزال .

ومن أجل ذلك ينبغي ألا تشغلنا في أنفسنا ولا في أعداد المسلم اليوم من أجل تحقيق النقلة من التصور إلى التطبيق على صعيد الفرد والجماعة، تلك القضايا التي تطرح كل يوم هل يصلح التشريع الإسلامي لهذا . . هل هذا الإسلام قادر على مسيرة الحياة وتلبية حاجات التطور . . إلخ . إن مثل هذه القضايا المطروحة يمكن أن تعالج على صعيد البحث العلمي بحدوده المنضبطة وأبعاده الموضوعية . . وهذا أمر طبيعي، وإذا وجد الأنصاف فليس



لدينا والحمد لله دعوى دليل . أما على صعيد العمل والريادة والإعداد :
فتلك قضايا لم نجن منها إلا البلبلة ونذر الضياع في كثير من الأحيان . .
ولقد كتب الكاتبون ، وألف المؤلفون ، وتحدث المتحدثون بالقدر الذي فيه
مقنع لمن أراد مقنعاً . . ولكننا نرى بعد ذلك كله أن الشنشنة تعود سيرتها من
جديد . . وإذن فجوهر القضية أن نسلم هذا المسلم إلى ميدان العمل على
بصيرة ، وأن نحول دونه ودون أن يلعب طرح تلك القضايا من صلاحية ، أو
عدم صلاحية ، من اختلاف أو اتفاق ، وأمثال ذلك . . دور الامصاص
لطاقاته ووضعه في دوامة مضنية ، فلا هو مطمئن إلى ما هو فيه ، ولا هو
قادر على أن يكون صاحب رسالة يعمل لها بعزيمة وإخلاص ويعمل أعداء
الامة على حصارها في الأرض والفكر وجميع شؤون الحياة ، ويستخدمون
كل سلاح لقطع دابرها من دنيا التاريخ ، ونحن نبدي ونعيد على طريق
الشك والاحتمالات كالرحى تدور على نفسها دون حبة تطحنها حتى يأكل
بعضها بعضاً . . وأكثر ذلك ما يزال في اللاشعور نتاج تلك الحملات
المسعورة من المستشرقين وأوليائهم فينا ، حين كنا نرى أن كلامهم هو
الكلام ، وأن حكمهم هو الحكم ، وأن أسلامنا كله لا بد أن يقاس
بمقاييسهم ، وأن يحكم عليه من خلال نظراتهم وآرائهم .

إذا قالت حزام فصدقوها فإن القول ما قالت حزام

وخلافاً لكل مفهوم في الدنيا تؤخذ شهادة الخصم حكماً على ما يخاصم

ويحارب!!

لقد انتهت هذه المرحلة -والحمد لله- في نفوس من أكرمهم الله بالارتباط منابع الإسلام الأولى، وتكونت شخصيتهم في المعرفة والثقافة عموماً، على أن الإسلام هو الإسلام، كما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- وأن من الحطة والجهالة بمكان، أن يُسف مسلم فيكون المدح أو القدح في هذا المضمار منوطاً بأعداء هذا الدين، وأكثرهم جاهلون حاقدون! . . ولكن ما يزال فينا -من ذوي الكلمة المسموعة في هذا الزمن- من تربّت أكفارهم في محاضن غير محاضننا أو كانوا ممن يستمرئون القعود عن العمل ويخترعون لقعودهم وإدبارهم، عناوين يسمونها البحث والموضوعية والتجرد. . وما رلى ذلك من ألفظ سئمها الخبر والورق لكثرة ما استخدمت في غير موطنها زوراً وبهتاناً وسفهاً بغير علم.

إننا ندعو ونلح في الدعوة، إلى أن يكون في حسابنا دائماً عند إعداد المسلم -فيما نحن قادرون عليه- أحكام الصلة بينه وبين منابع الإسلام الأولى، في عقله وقلبه ومشاعره، وأنه محارب لكونه يقول لا إله إلا الله وينتمي إلى أمة حملت عبء عقيدة التوحيد والحفاظ على إنسانية الإنسان رداً من الزمن، وأنه صاحب رسالة لها مالها من تبعات، وأن العاقبة عند الله كبيرة، وعلى ذلك فلا بد أن يُعدّ نفسه -مع التكوين- للتمحيص والابتلاء ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ ومن الابتلاء صرف الأجيال عن رسالته والسلوك بها مسلك الجاهلية وجفوة الإسلام.

كل هذا وأن تكون هذه القيم في فكره وروحه وذوقه، فهو المفكر سليم



التفكير، وهو العابد الخاشع بين يدي مولاه . وتراه يوالي في الله ويعادي الله، وهو المؤمن بالغيب كما جاء في القرآن والحديث الصحيح، حتى كأن الغيب من عالم الشهود . . وفي الوقت نفسه ليس بعيداً عن الحياة ومواجهة الواقع .

وإذا سلم لنا المنهج على هذه الطريق وصحا الغافل وانحسر الأذى، فلا تسل عن الخير الذي يعود على هذه الأمة وعلى الإنسانية جمعاء . .

ترى لو أن للإسلام وجوداً حقيقياً في أرضنا وفي تلك البقاع المظلومة الهضيمة في أفريقيا وآسيا وغيرهما، هل تكون الأمور على هذه الشاكلة!!

لا والذي جعل الجهاد صنو الإيمان والعمل في الإسلام . . فيحن تشرق شمس الإسلام على دينانا ودنيا الناس من جديد، يعود الدفء وتعود الحياة .

وحين يصل المسلم إلى درجة اليقين بهذه المعاني، يسير في الحياة على بصيرة من أمره، لا تشنيه الزعازع، ولا يشغله عن الغاية التشكيك، ومن هذا المنظور لا يكون الأمر عنده منوطاً فقط بإقناع الأبعدين بصلاحية هذا الإسلام، واستجداء رضاهم، ولكنه منوط بأن يكون هو مع الرسالة على طريق التغيير، من أجل استئناف حياة إسلامية متكاملة يحكمها الإسلام في عقيدته وشريعته وقيمه .

وهذا لا يعني - كما أسفلت - أغماض العين عن ضرورة عرض الإسلام

عرضاً صحيحاً بأدلته على النهج العلمي وتبيان فضائله وعناصر الحياة فيه ،
وكونه مؤهلاً - كما شاء الله له أن يكون - ليحكم الحياة بكل شؤونها متخطياً
أبعاد الزمان والمكان ، ويقود إلى سعادة الدنيا والآخرة .

تلك قضية أخرى ، ووجوب التعليم والتعلم في الإسلام أمر يهون من
شأنه الدفاع عن وجدوه من بدهيات هذا الدين . . ولكن قضية النقلة التي
أشرت إليها في صدر هذا الحديث بكل ما تتطلبه من تعبات ومسؤوليات ،
ووعي لحاضر الأمة وماضيها ، وتحسس بطبيعة المرحلة التي يعيشها المسلم
ومالها من سلبيات وإيجابيات . . كل أولئك يوجب - لا محالة - أن تؤخذ
القضية مأخذ الجد وحشد الأسباب مع الاستعانة بالله عز وجل ، دونما
تهاون أو تسويف . . وما أكثر ما يحدث والتسويف من مشكلات .

فمن أجل أن نسلم الراية إلى الجيل القادم بأمانة . . ومن أجل أن تذكر
أمتنا في الأولين والآخرين - وهي خير أمة أخرجت للناس - وأن تظل
جديرة بالشهادة على الناس ، ومن أجل أن لا تكون سخرية التاريخ
ومضرب المثل في استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير . . من أجل أن يعود
إلينا ما أغتصب من وجودنا ، ومن أرضنا ونعود إلى قيادة الدنيا من جديد . .
من أجل أن نكون في مرضاة الله ولو غضب كل أقزام الأرض . . من أجل
ذلك كله . . كان لزاماً أن ننفض غبار الدعة في حمل الأمانة ، ونعي واقعنا
بشمول وعمق ، ونعزم العزمة التي تزين أخلاق الرجال . إننا إن فعلنا ذلك .
كان الله معنا ولن يترنا أعمالنا .



والله الذي أراد لعباده الخير برسالة الإسلام، ويعلم ما تجنيه أيدي من --
- زمام الأمر في العالم، ومن يسخرون العلم لهدم الإنسان وحضارة
الإنسان وأبعاده عن منهج الله الذي ارتضاه لخلقه . . قادر على نصر عباده
المؤمنين، وييده الأمر كله، وعلى عينه تضنع الغلبة لجنده الصادقين . . اللهم
انصر أوليائك وأحباءك . . وأهلك أعداءهم وأعدائك، أنك نعم المولى
ونعم النصير، أنت المستعان وبك المستغاث ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي
العظيم .

الأمة.. و.. لبيك اللهم لبيك^(١)

كثيرة هي تلك المناسبات التي تحمل من العمق والشمول، ما يجعلها قادرة عند الإستجابة على أن تشد المسلم إلى الصراط السوي من جديد، فتجعل -بعون الله- من مسلم اليوم المضروب عليه بالأسداد، القاعد عن العمل والجهاد، صورة صادقة عن مسلم الأمس الذي سلمت له العبودية الصادقة لمولاه، وكانت كلمته الفصل في العديد من بقاع المعمورة..

نعم كثيرة هي تلك المناسبات، ولكن حين نتحدث عن التعبير من أعماق النفس، وتحول الإنسان المسلم من حال إلى حال، بحيث يرقى عن أن يكون مجرد رقم يذكر عند الحسابات المالية، ووسائل الإيضاح للعاثين.. لا بد أن يكون في تصورنا تحقيق التكامل بين المناسبة وبين هذا الإنسان، بحيث يعزم المؤمن عزمته على الاستجابة، ويفتح عقله وقلبه، لما تحمله تلك المناسبة من الأصلة في علاقتها بدعوته ودينه، وارتباطها بتاريخه ومنطلقاته الحضارية.

أمسك بالقلم لأقول هذا الكلام، وقد مضى على المسلمين ربح من الزمن يشكو فيه المصلحون ويضج الرواد بالستهم وأقلامهم، مذكرين داعين.. ولا يلقاك أمرؤ أوتي مسكة من العقل وفهم التاريخ وما لوقائعه من أبعاد ودلالات.. إلا ويحدثك حديث القلب إلى القلب والمشاعر إلى المشاعر.. الإسلام كما هو في منابعه الصافية النيرة.. تتصل بها الأمة، لا

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان الثامن والتاسع، السنة التاسعة عشرة، ١٣٩٨ هـ شوال - ذو القعدة، ١٩٧٨ م تشرين الأول - تشرين الثاني.



من خلال الأرقام الحسابية على الورق، وتكن من خازل الإيمان العميق، والفكر الدقيق، والأوبة الجادة؛ فأرقام مئات الملايين الستة أو السبعة وحدها -والأفئدة هواء- لم تصنع شيئاً، لأنها في أكثر الميادين لم تكن عنوان قلوب مؤمنة كما هو صريح الإيمان، ولا عزائم صادقة كما هو المبتغى في الصادقين، بل ولا وهي لتجربة التاريخ، ذلك الوعي الذي يجعل من صدق الانتماء إلى الأمة إنساناً قادراً على رصد النتائج، وربطها بالمقدمات. ونظرة واعية مجردة إلى خريطة العالم، ومسار الإنسان على أرضه يوم كانت للإسلام راية مرفوعة وكلمة مسموعة، وإليها اليوم -وواقع المسلمين في ديارهم وفكرهم كما يراه الرائي ويسمع به السامع- لا تدع زيادة لمستزيد في هذا المضمار، ويا لله ما أقساها من مقارنة، ويا لله ما أشد مراراتها على نفس المسلم يوم يرى استئثار البغات واستنواق الجمل، والمعاذ لله من فتنة الغفلة ومساءة التدبير.

وإذا كان الأمر كذلك -وكل ذوي الرأي الصائب والمنطق السديد يقررون هذه الحقيقة- فأين مبتدأ الخيط الذي نريد مخلصين أن نمسك به؟؟

إننا لا ندعو إلى أن يكون المسلم إنساناً مناسبات يفعل بها انفعالاً وقتياً وينتهي الأمر، معاذ الله أن يكون الأمر كذلك، ونحن ننعي على الذين ينزلقون إلى هذا النظرة، ونشكو إلى الله واقعاً أليماً نجد فيه على هذه الشاكلة الكثيرين ممن يتوهمون أنهم نابهون؛ انفعال وقتي محدود لا يمتد أثره إلى فكر أو عمل، --- عواطف تزجي، وهمهمات تكال بغير

حساب، لا تكلف ثمنًا، ولا تسلم إلى جهاد ولا عطاء.. وكفى الله المؤمنين القتال.. بل أكثر من ذلك: قد يقوم هذا اللون من الانفعال التلقائي بدور الامتصاص للمشاعر، وادخال الوهم في روع العامة من المسلمين بل وبعض الخاصة فيهم أن ذلكم يكفي في الاستجابة، وأن الأمة بخير مادام يحصل كذا ويحتفل بكذا.. إلخ. يتقلب الليل والنهار، وتنقضي السنين والسنون.. والحال هي الحال، وكأن المناسبة المرتبطة بفريضة من فرائض الإسلام، أو ذكرى واقعة من وقائعه التاريخية المجيدة التي قامت على تحقيق كلمة الله في الأرض جهاداً وعطاءً أمر يحتفل به للترفيه وملء الفراغ بعيداً عن المسؤولية، وحركة التغيير.

وفي الوقت الذي نلتمس فيه الصواب من خلال هذا اليوم نقول.. هنالك عناصر ومقومات تفرض نفسها لما أنها عميقة الصلة - كما أسلفت - بحقيقة الإسلام وأصالة الدعوة الإسلامية.. ولعل من أهم تلك العناصر أن يبلغ المسلم مرحلة الإحساس الصادق بقضايا الإسلام، شريعته وثقافته وتاريخه، وعند ذلك لا تمر المناسبة أو ذكرى الواقعة وكأنه جماد لا يتأثر ولا يريم، وإنما تمر به فتفعل فعلها في نفسه، وتأخذ حظها من قلبه وعقله ومشاعره، حتى كأنه يتبادل معها الأخذ والعطاء؛ فهي محطة من محطات الزمن ينطلق معها ليتابع الاسهام في صنع التاريخ والبناء.. والذي نشكوه اليوم ويبدو أنه ظاهرة مَرَضِيَّة في جسم العالم الإسلامي، ضعف هذا الحس، وما يبدو من غربة بين المناسبة أو ذكرى الواقعة وبين المسلم.. وما



هكذا يكون انفعال صانعي التاريخ . . وما هكذا كان صنع أولئك الذين سقوا هذا البناء بدمائهم ومهجمهم في المنشط والمكره وعلى كل حال من اليسر والعسر .

وفي خطوة على هذه الطريق . . نحن اليوم على أبواب ذي الحجة . . وفريضة الحج - وهي خامس ركن من أركان الإسلام تطل بتأشيرها على الوجد . . وضيوف الرحمن ، منهم من هو هناك على أرض الوحي ويمدان وقائع الإسلام الأولى ، وأرض معاكه وبطولاته . . ومنهم من يستعد للارتحال ليغمره الضياء كما غمر إخوانه من قبل . .

إن فريضة الحج بما فيها من شعائر مباركات ، وبما تحمل من معاني العبودية لله ، وما يزينها من خلائق الجهاد ، وأدب الأخوة الإسلامية ، وبما هو منها بالقدر الأسمى من إحكام ارتباط المسلم بكل ما فيه تحقيق عبودية المخلوق للخالق جل وعلا ، وحسن التوكل عليه ، وإخلاص الوجهة له في كل حال ، والتسليم لأمره في كل ما أراد ، والبذل في سبيل مرضاته . . إن هذه الفريضة بما هي مثقلة به من المناسك قولاً وعملاً وسلوكاً ، وبما يحيط بها ويرافقها من آداب كلها هداية ونور ، تحمل قدراً غير يسير من مقومات التغيير في حياة الفرد والجماعة ، وشد الوفرة من أبناء الأمة إلى الجادة بعد ضياع ، إذ أنها معسكر معرفة وأخذ بأحكام الشريعة ، ودربة على كثير من أخلاق الجهاد والمجاهدين ، وتزيكة النفس لإحسان الصلة برب العالمين .

ولكن على تكرر الحركة بهذه الفريضة كل عام ، هل كان المسلم على

استجابة صادقة لتلك المقومات؟ وهل جاوزت القضية ساحة الانفعال الموقوت، إلى ساحة الحياة في صلة الفرد بالله وصلته، وإلى حياة الجماعة في أن يزين وجودها العمل بما أنزل الله.. وهل جاوز التأثير عند الكثير منا السطح إلى القاع!!

الواقع أننا نشكو عدم تجاوز السطح إلى القاع في كثير من قضايانا.. ونرضى بما هو بالقعود أشبه، حيث لا عطاء ولا جهاد، ونبتعد ونبتعد عما يجب أن يخالط الأنفس والقلوب، كيما نضل بمنجاة من التكاليف التي تترتب على الانفعال المؤثر الصادق الذي يفترض أن يولد في حياة الفرد تفجراً حقيقياً ينعكس على حياة الجماعة وكيانها ويحدث الوجود الإسلامي المرتجي.

فالمناسبة التي تحمل ما يذكر وما يثير، وتكشف بضيائها وإشراقها ما يكون في الواقع من ظلمات وانحراف، موجودة قائمة ولكن العبرة في أن تكون القلوب مجلوة لحسن الاستقبال، والنفوس مهيأة للانفعال الصادق والتأثر الذي يعمل عمله في حاية المسلم فيغيرها لتكون على خير نهج وأسمله، بحيث يخرج من ضيق الجهالة والتقليد الأعمى للآخرين، واتباع سنن اظالمين والمشعوذين.. إلى سعة الإسلام في أفقه الرحب، وصراطه المستقيم. وقد تكون الرحلة طويلة إلى هذا الذي نريد ولكن إرادة التغيير دائماً إلى ما هو الأفضل بدءاً من داخل النفس، لا بد أن تكون في الحسبان من أول الطريق، وتلك سنة الله التي رسخ معالمها القرآن الكريم، وكشفت عنها سنة المصطفى -عليه الصلاة والسلام-.



أن يكون الحج صقلاً لحياة المسلم ووموسماً مباركاً يمهده بالكثير الطيب من الخير في حياته . . أن يكون الحج في لقاء المسلمين على أرض الدعوة، صورة صادقة للمجتمع المسلم معرفة وسلوكاً وتطبيق شرعة . . يستعلن فيه المعنى الشامل العميق لقول الرسول -صلى الله عليه وسلم- «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» . أن يكون الحج كذلك في حياة الفرد وفي حياة الجماعة . . أمل يتطلع إليه كل أولئك الذي يتقدمون لريادة الطريق صادقين أمناء . . وهو أمل يضعه أولئك الرواد في مقدمة الغايات التي يودون أن تتحقق وتأخذ أبعادها على صعيد الأمة . . وهم يعلمون حق العلم أن الوسيلة إلى ذلك أعداد صحيح لمسلم معرفة وسلوكاً، يرافق ذلك إبعاد المعوقات من طريقه وتجنبيه عوامل التمزق التي يسببها ما يعترض سبيله من صنوف الأذى في الفكر وواقع الحياة، ففي الوقت الذي يبصره العقلاء البررة من أبناء أمتهم بالإسلام، ويضعون يده على مكمن الداء، ليأخذ من معين الإسلام الدواء، تقوم في وجهه القولة المناقضة، والفكرة المناهضة؛ فإما أن يدع هذه لئلا، وإما أن تتغشاها ظلمة الحيرة والتمزق، فلا يدري إلى أين يسير، ولا كيف يتجه ليلبلغ خاتمة المطاف، ناهيك عن معوقات التجهيل وصوارف الترغيب والترهيب .

إن نتائج تكون معقد الأمل أن تنهض بالفرد من عثار البعد عن الله، والانفصام بين المعرفة والسلوك، وتعصف بالهوان الذي تعانيه الأمة اليوم، لا يمكن أن توصل إليها تلك المقدمات . . بل العكس هو الصحيح . وإذن

فالمطلوب توظيف كل الإمكانيات التي من أنها سلامة الوسيلة إلى تلك الغاية المرادة مهما غلا الثمن، بحيث يحصل الانتعاش العام في تصور المسلم وسلوكه وعمق انفعاله وتأثره على الوجه المراد، فيودي -على سبيل المثال- الحج والعمرة ويشد الرحال إلى مسجد الرسول -صلى الله عليه وسلم- وينعم بالسلام عليه وعلى أصحابه، ويسعد بالصلاة بين قبره ومنبره . . عارفاً بالأحكام، صادق اللهجة، خاشع القلب في التوجه إلى مولاه، يحكم سلوكه في المنشط والمكروه، والرضى والغضب، هدي النبي -عليه الصلاة والسلام- ثم من بعد تلك تحمل تلك الشعائر إلى حياته آثارها، فترافق روحها كل مسلك يسلكه كل قول أو عمل يأتيه .

وأنت واجد أن التجانس قائم بين الغاية والوسيلة في هذا المضمون، والله المستعان على تحقيق الغاية المرضية لله تبارك وتعالى بوسيلة من جنسها، لا تحيد بنا عن الجادة، ولا تميل بأجيالنا عن الصراط السوي . . كيما تخلص النتائج، ولا تكون تلك الأجيال نهباً مقسماً لأولئك الذي استحوذ عليهم الشيطان، فباتوا من سدنته أبالسّة وشياطين، تحت المبهرج المعصفر من العناوين . . حتى أنهم لينخروا في كيان الأمة، ويقطعون أوصالها من هنا وهناك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ترى . . هل يمتد بنا الزمان فتكتحل الأعين بفجر جديد . . نبصر فيه بوعي وإشراق أن كل ما تهتف به الحناجر وترسمه الأقلام، لم يعد كلمات فارغة خاوية، ولكن أخذ مضموناته في الحياة الإسلامية من جديد، وهامي ذي



الألوف المؤلفة تنادي وتهتف في كل عام، على الجبال والآطام، وفي كل واد ومحنى «لبيك اللهم لبيك». والمطلوب أن يؤذن فجر جديد، فتكون العبودية في حياتنا -على اتساع آفاق الحياة- لله وحده حقاً وصدقاً استجابة لدعوته وعلماء وعملاً وجهاداً بالنفس والوقت والمال . .

مطلوب أن تكون «لبيك اللهم لبيك» هتافاً بالألسنة والحناجر، ودمماً دافقاً في كل شأن من شؤوننا، بحيث يرى الله هذه الأمة وهي في كل حركة وكل سكون تصدق هذا الهتاف الكريم والشعار المبارك . . عبودنة لله وخلعاً للأنداد والأضداد وتحكيماً لكتابه وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- في كل ما يشجر من أمر، والحكم على الأشخاص والأعمال من خلال ذلك وفي ضوء مقاييسه .

إن هذا التحول الذي يرد للأمة وجودها الإسلامي الحقيقي، ويعيد إليها أرضها وكرامتها في العالمين، مطلب عزيز غال ينشده ويسارع إلى الإسهام في تحقيقه أهل الإيمان الراسخ، والمجاهدون الصادقون الصابرون . . وإنه لأمانة غالية في أعناق كل القادرين على ذلك، ولسوف يندم القاعدون والمعوقون، والمعتلون يوم لا ينفع الندم، وخصوصاً أولئك الذين بيدهم من المقاليد ما يمكنهم من العمل أو لو أرادوا، ولكن الذين تغلب عليهم شقوتهم يفعلون غير ذلك والعياذ بالله . إن الأمة إذا صحت لما يراد لها واخلص العاملون النية في إرادة التغيير كان ذلك الخطوة الجادة على الطريق . . والأحق على هذه الأمة قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ .

الحقيقة والوجه الآخر^(١)

لعل من نافلة القول أن الذي عرفه أبناء هذه الحقبة الأخيرة من القرن الرابع عشر للهجرة عن الإسلام، إنما كان على الصعيد العملي من خلال واقع المسلمين في شتى بقاع العالم الإسلامي ذلك العالم الذي يعاني وقد مضى على الانهدام الكبير الذي تمثل في القضاء على الخلافة ما يزيد على أربعة عقود.

وواقع المسلمين هذا -على وجه العموم- صورة جارحة من التخلف المذهل عن مواكبة الإسلام كما هو في حقيقته، إذ ترى من خلاله كيف تكون المخالفة بين الحقيقة والواقع، وكيف تظلم الحقيقة حين يحسب الناس أنها الوجه الآخر للواقع.

ذلك أن المرء إذا نظر في هذا الواقع من أكثر وجوهه وقلب الأمور من هنا وهناك، ثم عاد إلى النصوص في كتاب الله وسنة رسوله -عليه الصلاة والسلام-، وسيرته العطرة وسلوك أصحابه الذين كانوا على نقاء المورد وسلامة العمل والجهاد، ثم تاريخ من كان على هديهم عبر القرون. . إن المرء إذا كان منه ذلك، أصابه دوار الحيرة من هذه الفجوة العريضة المرعبة بين واقع يعيشه المسلمون، وحقيقة تنطق بها مصادر الإسلام وينابيع هداه.

فالإسلام في الوحي المكتوب، والإسلام في البناء الحضاري والتاريخي،

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد العاشر، السنة التاسعة عشرة، ذو الحجة ١٣٩٨هـ، كانون الأول ١٩٧٨م.



والإسلام كما تجده في ثروة هذه الأمة على صعيد المعرفة والفكر والوجود الذاتي الحقيقي للإنسان، وكما تنطق به الوقائع في وجه المنصف وغير المنصف . . الإسلام كما هو على هذه الشاكلة -ليس هو الإسلام- عموماً- كما هو وجود المسلمين الذي يستم بما يتسم به من تخلف، ليس أقل مظهرة تمزق في الأرض، وتمزق في الفكر، وتطلع إلى فتات موائد الآخرين، وانهزام نفسي عند كثير من أولئك الذين يهدمون باسم البناء، وينحرفون تحت عنوان الاستقامة، ويتنكرون للأمة ومقومات وجودها باسم الانتماء إلى الأمة. أولئك الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وإنها لرحلة مضنية كفاؤها الكثير من الوعي في الريادة، والكثير من الصبر على تكاليف الطريق، تلك التي نريد من ورائها أن نحول الناس عن هذا الخلط بين الحقيقة والواقع، وأن نرتفع بالجيل إلى حيث النجاة من ظلمة تلك الدويهيّة النكراء، إلى نور الوضوح في الرؤية وسلامة الحكم على الإسلام والتاريخ.

ولكن مهما بلغ الضنى مبلغه في هذه الرحلة، فإن الذين يتوجهون شطر بناء التاريخ تهون أمام قصدهم المصاعب، وطول الطريق يكسبهم قدراً أكبر من التجربة، ويوفر على الأجيال من بعدهم كثيراً من العنق، كما أن كل شيء عند رب هذه الدعوة التي يصنعون تاريخها بحسبان، فهو الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة، والناس -كل الناس- واجدون عنده ما عملوا حاضراً ولا يظلم ---- أحداً.

ولقد كان من مصداق هذا الذين نقول ، ما شاهده كثير من أمصار العالم الإسلامي ، من أصوات ترتفع منادية بوجوب العودة إلى الإسلام كما هو في حقيقته التي حولت العرب ومن بلغته الدعوة من ورائهم من حال إلى حال ﴿اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴿كُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنْ نَّارٍ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ورأينا في الثلاثينات من هذا القرن ومع كل الظلام المرخي سدوله ما نعتبره واحدة من خوارق هذا الإسلام ، ومظهراً من مظاهر رحمة الله بعباده ، إذ لا يدعهم هملاً ، ويهيء لهم من يأخذ بأيديهم إلى ساحة الخير ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، فيوقظهم من غفلته ، ويسلمهم إلى الصراط السوي . . فأصبحت ترى عرضاً صحيحاً لمبادئ الإسلام ، ومحاولة جادة لتربية الجيل على حقائق الدين ، حيث الجمع --- شطري الدعوة من تبليغ للإسلام ، وتربية الشخصية الإسلامية عليه ، بحيث يتم إعداد الفرد المسلم لأن يكون لبنة صالحة في مجتمع منشود تتصل أسبابه بأسباب المجتمع الذي صنعه الهدي النبوي . . كل هذا مع الإفادة من معطيات العلم والوسائل التي توصل إليها الباحثون ، مما لا يتعارض مع الإسلام في ثقافته وأدابه .

وعلى هذا : كان لابد من متابعة الطريق ، ورصد ما يكون من صواب ليدوم الثبات عليه ، وما يكون من خطأ ليجتنب ، خصوصاً وأن الظروف



عرضة للتبدل والتغير، والدعوة إلى الله في طرقها ووسائلها ليست بمنجاة من تقلبات الطقس!! واختلاف المناخ!! وأو كان للحق من حرية القول والحركة ما للباطل في هذا الزمان، إذن لهان الأمر، لأنه مأمن عاقل يخامرهُ الشك عندئذ في نصرة الحق مهما طال الطريق، ولكن الأمر على العكس تماماً، إذ أن المتغيرات كثيرة وكثيرة، وتجريد المصطلحات من مضموناتها أكثر، ومعركة الإنسان مع أعداء الإنسانية تشتد ضراوة يوماً بعد يوم، ولذلك من الآثار ماله على طبيعة الرحلة في الدعوة إلى الله، فكان لابد من وضع ذلك في الاعتبار، من أجل أن يكون لنا مع الأمانة الوعي، ومع المعرفة الصدق في المواطن، ومع حسن الظن: النباهة والبعد عن الغفلة، ومع العمل: صدق اليقين بما عند الله عز وجل في وعده ووعيده، في عطائه ومنعه، وأن الحكيم الخبير سبحانه لا يصدر عنه إلا ما هو عين الحكمة والمصلحة، ونحن بالخير والشر مبتلون، والسعيد السعيد من لزم باب العبودية لله، فأقدم حيث طلب منه الأقدام، وبذل وأعطى من نفسه ووقته ما أعطاه الله، ما دام ذلك امتثالاً لأمر الله، وتحقيقاً للعبودية، حيث أن الله تعالى تعبداً في أن نعتقد، وتعبداً في أن نعبد، وتعبداً في أن نجاهد، وأن نكون في كل صغيرة وكبيرة عند حكمه جل وعز، وهدى نبيه -عليه الصلاة والسلام-.

وهذا الذي نكتفي عند عرضه والدعوة إليه بالاماحة التي قد لا نملك أكثر منها، هو الكفيل بعون الله، أن يجعلنا قادرين على صنع الجليل المنوط به

تلك المهمة الصعبة، ألا وهي ردم تلك الفجوة بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين . . تلك المهمة التي تقضي على خرافة الخلط بين واقع المسلمين وحقيقة الإسلام في الوجه الآخر، كيما يُغَلَّ هذا السلاح الذي يشهر في وجوهنا، بالقول والكتابة والإعلام، بجعل المسلمين في واقعهم المتخلف - على وجه العموم - حجةً على الإسلام، مع أن الذي تقتضيه المعادلة العقلية المنصفة، أن يُتخذ الإسلام حجةً على المسلمين فلا يصدر الحكم على الإسلام من زاوية مالت بانحرافهم، ولكن ينظر إليهم زاوية الإسلام ليقال: فيما يكون صواباً ذاكم هو الصواب، وفيما يكون غير ذلك ما يجب أن يقال فيه .

وإنما يكون الأمر على هذه الشاكلة في الجيل الذي نلمح إليه، والذي نواته الإنسان المسلم، لما أن هذا المسلم لا يني وقد صنعه القرآن وأدبه الهدي النبوي أن يكون صورة عمليه للإسلام عند ممارسة شؤون الحياة في إطار الفرد والجماعة والدولة والأمة، إذ أن كل حلقة من الحلقات مترابطة تمام الترابط مع أختها، وإذا حصل الانتعاش الإسلامي في أعماق الفرد، وأمكن تطويع السلوك من واء ذلك، رأينا تكاملاً في تلك الحلقات من هنا وهناك، وعندها نشعر أننا لا نضرب في جديد بارد، أو يعبث بنا التيه في صحارى من التيه . . ووظيفة العقول والإمكانات . . أن تضع لتحقيق مناهجها، وأن تلسك إليها أقوم السبل واضعة في حساباتها عوامل اليسر وعوامل العسر . . والله المستعان .



ولقد أتى علينا حين من الدهر، عمل فيه أعداء الإسلام -وعلى ألسنة بعض المنتمين إلى الأمة وبأفلامهم- على أن نحس من أعماقنا أننا لسنا بشيء، وأن واحداً من الأمور مهما عظم أو دق من شؤون الحياة، ليس للإسلام فيه نصيب، ورأيت من يعمل معموله ناقلاً كلام المستشرقين مدعياً لنفسه طعناً بأعجاز القرآن، وآخر ينكر عليك، فيما يدعي أنه علم وموضوعية، أن يكون في الإسلام نظام حكم أو دولة، وثالث يعجبه أن يتفصح ويترقق لينقذ المرأة -على زعمه- من العبودية ويخرجها إلى الحرية!! كل ذلك والإسلام هو المستهدف، ولم تكن العربية بمنجاة من هذه الحرب (اليهودية) أن صح هذا التعبير، لأن العربية -صانها الله من عبث البغاوات والأقزام- هي بيان الإسلام في كتاب الله وسنة نبيه -عليه الصلاة والسلام- وثروة هذه الأمة في جميع ميادين الفكر والبناء الحضاري، فاستهدفها استهداف للإسلام بلا ريب.

ولست الآن بسبيل الحوار أو الرد، ولكن الذي أعنيه ما ينبغي للرواد من أن يكون واضحاً كل الوضوح في تصورهم لأبعاد الغاية المرتقبة، والوسيلة أو الوسائل إليها، من أجل أن توظف كل الطاقات في هذا الميدان الذي لا اختيار لنا -بوصفنا مسلمين- في أن نعمل فيه أو لا نعمل، فالدعوة إلى الله واجب ومسؤولية، وأنها القلب الذي يمد الأمة بالحياة، ويضمن نها بعون الله أوبة صادقة واعية تعيد إليها ما انتقص من وجودها الحقيقي بمختلف أنواعه ومظاهره. ولقد يكون من تدعوه وتبلغه أقدر منك على فقه الدعوة

ونشرها، وهو نفسه قد يبلغ من هو أكثر منه فقها وقدرة على العطاء، والفقه هنا يحمل مدلول الفهم لدين الله وأنه عقيدة وشريعة وسلوك وجهاد. ولقد كان عليه الصلاة والسلام يتخطى أبعاد الزمن -وهو النبي المرسل- عندما قال: «نصر الله أمراً أسمع مقالتي فوعاها فأذاها كما سمعها قرب مبلغ -بفتح اللام- أوعى من سامع». وفي رواية «قرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» أرأيت إلى واحدة من دلائل النبوة، ما أعظمها، وأعظم أشراقها «قرب مبلغ أوعى من سامع». بلغ أنت وأدع إلى الله بما لديك من وسيلة وليكن ذلك على بصيرة، ولا تدري أين يكون الخير وفي أي قلب تحط الهداية رحالها، وإذا كان الإسلام والحمد لله في ذاته كما أوحى الله به إلى نبيه -عليه الصلاة والسلام-، يحمل عناصر بقائه واستمراره، وكان الإنسان قد فطر على التوحيد، فالدعوة إذن -على كثيرة المعوقات والعقبات- لبست عملاً سلبياً كما يحاول أن يوهمنا القاعدون، ولكنها --- عمل إيجابي تقتضيه طبيعة المسؤولية في الإسلام، والشعور الصادق بأنها واجب لا وظيفة بمرتب، كما أنها تتناول بحقها من الوجوب كل قادر عليها. . كل هذا في إطار التبليغ عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- كما أسلفت.

فإذا أرادت الأمة أن تجدد نفسها من جديد، وأن تكون الأحداث التي تنوشها على كثيرة أرضها مهماز حركة ومنطلق تغيير، إذا أرادت الأمة ذلك. . فما عليها إلا أن تعود إلى ربط أسبابها بأسباب هذا الإسلام الأمر الذي يتمثل بالاعتصام بحبل الله ضمن خطة مرسومة ونهج للدعوة



مستقيم، واضعة في الحسابان كل المتغيرات في رصد واع سليم لكل ما هو سلبي وكل ما هو إيجابي، وبهذه المقاييس من هم أعداء الأمة ومن هم أبنائها سواء أكان على صعيد الفكر والمصطلحات، أم على صعيد العمل وحركة الوقائع في وطننا الكبير.

والله الذي تولى هذه الأمة في الماضي، وجعل منها خير أمة أخرجت للناس، هو القادر على أن يتولاها اليوم.. فيشد من أزرها ويخرجها حين ترجع إليه من تيه الحيرة والضياع.. إلى حيث تكون القدرة على أن يكون أمرها لها، وأن تكون كلمتها كلمة الفصل فيما تريد، لا أن تكون في ثروتها المادية، وأرضها وموقعها الاستراتيجي، وطاقاتها البشرية، نهباً مقسماً لتجار الألفاظ وأعداء الإنسان، ووسائل إيضاح وأدوات عبث لمن يتلاعبون بمقدرات الشعوب.. نقول ذلك ونلح عليه، ويقوله معنا كل منصف يحمل بين جوانحه لوعة الصدق، وسلامة الانتماء إلى أمته في عقيدتها وتاريخها وحضارتها.. وتقول ذلك ونلح عليه بعد أن تعددت التجارب.

وثبت بما لا يقبل الشك أنه لا طريق إلا هذه الطريق.. وكل تحول عنها إلى غيرها نذير شر مستطير، واستمرارية عفة آئمة تحت مطارق الهلاك.

ألا وإن النسب متصل بين الوسيلة والغاية فيما نريد والتكامل قائم بين الدعوى والعمل وبين المعتقد والسلوك.. وحين تشرح الصدور ويستيقن العاملون بما عند الله تبارك وتعالى، تنقذ الأمة نفسها من الهلكة وتنقذ الإنسان في دنيا الإنسان.. وكل ذلك كائن بعون الله حين يبدو المسلمون

اغوذجاً حياً واقعياً لهذا الإسلام العظيم وتردم الفجوة المرعبة التي يراها
الناقد البصير بين واقع المسلمين وحقيقة الإسلام. وآخر دعوانا أن الحمد لله
رب العالمين.



عالمنا إلى أين..؟^(١)

ترى هل أنحصر دور العالم الإسلامي اليوم، في أن يتجرع الغصص من هنا وهناك، وأن يتلقى العاتي من الضربات التي تنهال شرقاً وغرباً ذات اليمين وذات اليسار؟؟ فلا تكاد تلتقط أنفاسك شيئاً من الوقت بين مرحلة ومرحلة من مأساتنا الدامية في فلسطين، حتى تطالعك أخبار ما جرى ويجري على أرض الحبشة من مجازر تزداد شدتها وشراستها يوماً بعد يوم مما كاد ينسيك أيام الطاغية السابق فيها، وحتى تذكر ما كان من تظاهر القوى الآثمة على أرض الصومال ضد الإسلام والمسلمين، وفي مواجهة الحق وأهله، قتلاً للأبرياء، وتشريداً للنساء والأطفال.

ولا تكاد تصل إلى أخبار الفيلبين حتى يروعك هذا الأصراد على أن لا يكون لمن يقول «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وجود في تلك البلاد، ويتصدع كبكده لاهول الإبادة الجماعية المتعمدة وكتم الأنفاس، وكم الأفواه، ليتحول المسلم الإنسان إلى أداة يعبث بها الطاغية كيف يشاء!! وجاءتك في هذه السلسلة من المآسي مشككة (بورما) حيث شرد بالطرد والملاحقة ما يزيد على مائتي ألف مسلم إلى بنغلادش، البلد الذي لا يصحو من متاعب الكفاية لأهله وأبنائه، وحملت الأنباء من قريب، أن أكثر من عشرين ألفاً من هؤلاء البورميين المسلمين، أطفالاً ونساء قد لاقوا حتفهم في المخيمات

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثاني، السنة العشرون، ١٣٩٩ هـ ربيع الآخر، ١٩٧٩ م آذار.

التي يتلعتها العراء، مرضاً فتاكاً وجوعاً قاتلاً. . وليست هذه هي النهاية فالمرض لا يعرف السّامة ولا يرحل أن لم يعالج، والجوع لا يني يسقط ضحاياه، وأين من يرون أو يسمعون!!

وهذا لا ينسينا ما يجري على أرض (تشاد) وغيرها مما يصيب الأكثرية المسلمة من حكم الأقلية غير المسلمة بمعاونة النصارى الغربيين، تحت سمع الدنيا وبصرها، لأن الذين يعبثون بخريطة العالم في أرضه وسكانه يريدون ذلك ولا يرضيهم غيره. والذي يجري في جنوب لبنان لا يحتاج إلى مزيد بيان!!

وما أقوله لا يعني استقصاء وحصرًا، ولكنها مؤشرات على أرض واقع أليم، وآلم منه وأشد، أن ينعدم إحساسنا به، حتى كأنه لا يعنينا، وأن نكون في مواجهة الحوادث جماداً لا ينفع لمصاب، ولا يتحرك لنكبة، وهذا ما أطعم ويُطعمُ فينا الأعداء أكثر وأكثر خصوصاً عندما تعطى النكبة -مع الأسف!!- عنواناً حضارياً، يصل إلى حد أسجداء اليهود الغاصيين الذين يعطون المتخاذلين درساً جديداً كل يوم، ولكن ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

ولست هنا بالمتشائم الذي تقوده المضحكات المبكيات إلى اليأس -لا سمح الله- لأن المؤمن لا ييأس من روح الله مهما استحرّت الفتنة وأطبق الظلام، ولأن لهذه الأمة من ينابيع القوة في عقيدتها وتاريخها، والعديد من تجاربها عبر هذا التاريخ، ما يحجز عن التشاؤم، ويحمل المؤمن على العمل



جهد الطاقة موقناً قبل هذا وبعده أن الأمر بيد الله ، وهو ناصر من نصره بلا ريب ، ولكن الذي هو أمنية كل من يحس مرارة الواقع بنبضات قلبه وحرارة إيمانه ، أن تصحو الأمة على صوت النذير ، وأن تستبدل الدعة والركون إلى ما تمليه عقدة الانهزام ، بالعزيمة الصادقة ، والمواقف التي تقطع ما بينها وبين الميوعة والاستخذاء ، كيما تتفجر الطاقات الكامنة ، وما أكثرها وأوفرها و أتيح لها أن تتخطى السدود والقيود ، وكيما تتحرك بواعث اليقظة من الأعماق ، فينهمر الغيث ، ويمد السيل الهادر مده من جديد ، مدا يزيح العقبات ، ويملي على التاريخ ، ويعيد الأمور إلى نصابها بعزة وأباء .

أكتب هذه الكلمات وفي العالم الإسلامي جديد يصلني بمعانيها ، ذلكم هو المؤشر الذي رسمته بنص الأحداث ؛ فدوئنا اغراق في التفاؤل ، تلوح في الأفق - كما يرى المراقبون - تبشير اصلاح للانحراف وتقويم للمعوج .

والمأمول في إطار التوجه الرشيد : أن يأخذ الإنسان على كل الأصعدة وجوده الحقيقي في دينه وثقافته وحريته ، لا أن يكون البقرة الحلوب في مزرعة الطغاة ، ولا ذلك الرقم الجامد في صندوق المستغلين والجشعين ، ناهيك عن تحويل قسط من ثرواته وخيرات بلاده إلى ألد أعدائه اليهود .

وفي إطار العلاقات الخارجية لابد من العودة إلى الوضع الطبيعي فيما يجب أن يكون عليه الأمر في مواجهة كل القضايا المصيرية للأمة في وطنها الكبير في ظل العقيدة وإخوة الإيمان بعيداً عن كل ما يعوق سبيل المجاهدين ، وفي مقدمة ذلك : الموقف من أعداء الإنسانية الغاصبين لمسرى

رسول الله ، والزاعمين افتراء وبهتاناً إن فلسطين أرضهم لأنهم شعب الله المختار الموعد بالقدس وما حولها ، وهو الموقف الذي تمليه العقيدة ويفرضه الإسلام ، ويدعو إليه حب الجهاد والاستشهاد ، وتلتزم به -أن لو انصفنا- وقائع التاريخ في القديم والحديث . . لكيلا يكون لهم ولا لأعوانهم في بلد من بلاد الإسلام مرتع يستعينون به على إنفاذ ما يدور بأذهان المكررة الجزارين من أحلام . ولهذا العالم الإسلامي من موقعه الاستراتيجي ، وعقيدته وتاريخه وطاقاته المادية والبشرية ، مايجعل لتحركه انعكاساً يرجي أن يكون من ورائه الخير .

هذا: وفي ظل هذا المنعطف هل يحق لنا أن نمني النفس بأن وطننا الكبير عازم على أن لا يكون دوره تجرع الغصص ، وتلقي الضربات ، وتلوين مظاهر الحزن والتأوه؟ ما أحسب أن من السهل اعطاء الأحكام الجازمة في هذا الموضوع الخطير ، ولكنه الأمل بفضل الله تعالى ، وصدق وعده بنصر من ينصره ، ثم في الطاقات الكامنة في طبيعة هذا الدين ، وقدرته الدائمة على العطاء تلك القدرة التي تظهر أكثر ما تظهر يوم يسعد أبناء الأمة بمن يقودهم بكلمة الإسلام ، وفي الأفق -كما أسلفنا- تباشير لا ننسى معها خطوة باكستان الأخيرة نحو الحكم بشريعة الله ، والعناية بالعربية لغة القرآن ، والعمل على صياغة الإنسان المسلم كما يجب أن تكون الصياغة .

يضاف إلى ذلك كله -في غير غفلة عن المعوقات- أن في عالمنا ---- على رحبه- ما لا يستهان به من المخلصين الواعين لدينهم وللحياة من



حولهم - لم تقعد بهم عن الانطلاقة الجادة عزائمهم ، ولكنها شركاء منصوبة ، وعقبات من الرغبة والرغبة موطأة ، وحرب من الشرق والغرب ، يتعاون الفرقاء على ---- أوارها ، مهما كان بينهم من اختلاف المصالح ، إذ أن القضاء على القيم الإسلامية في النفوس والحيلولة دون القدرة الإسلامية ودون أن تظهر من جديد ، من القضايا المتفق عليها اتفاقاً غير مقدس ، ليت شعري متى كان اتفاق الجناة مقدساً!! وفي كل يوم يبرز من الوقائع ما يعرض المسلم بنابه ، ويلوح في أفق القوم ما يؤكد هذه المسألة التي كان كل ما فيها ضرب وبلاء ، وما أجدر ذلك أن يكشف بما هو أكثر من الوضوح!! عن تفاهة وبله أولئك الذين يطلبون من الجزار -وسكينه تقطر دماً- أن يعاون في أنقاذ الضحية من الموت .

غير أن شيئاً من هذا لا يصح أن يلهينا عن الواجب ، ولا أن يعفينا من النقد الذاتي الصارم لأنفسنا ، والذي يبدأ من ملاحظة أن أمتنا في طول العالم وعرضه ، تعاني حتى على صعيد بعض ذوي المعرفة ، نوعاً من الجهل بحقيقة ما هي عليه ، بموقعها الطبيعي من العالم في التقديم والحديث وعوامل ذلك ، أين تقف الآن ، وكيف يمكن أن تفيد من الأحداث وتوظفها على طريق التغيير!! ما هي طبيعة الأرض التي يتحرك عليها المسلم ، ما هو دور الثقافة في تكوينه ووجوده كما ينبغي أن يكون ، ما هي مقاييس الانتماء إلى الأمة وعدم الانتماء ، ما هي القيم التي من خلالها يحكم بالصدقة أو العداوة ، بالقرب أو البعد ، أي شيء هي تلك المثبطات عما يجب أن يكون؟

ثم -هل من وظيفة المسلم أن يكون واقعه السيء هو الأصل، ثم تجري محاولة التأويلات الظالمة- بعد ترويض الشعوب- لتطويع الإسلام لهذا الواقع، كما فعل ويفعل من يؤولون قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ بعبث ما بعده عبث، لما أنه معارض لسبب النزول، ولدلالة كل آيات الجهاد الحاسمة في سورة التوبة التي نزلت بعد هذه الآية. أو ما صنع قبلهم من تأولوا قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ الآية، بعتو مستكره ما بعده عتو، حيث قلبوا الآية وطبقوها على كل أولئك الذين يتغنون لامتهم الخير والفلاح.

خطوط عامة لا أريد من ورائها توجهاً إلى التشاؤم، ولا حصر كل مظاهر الداء، ووعي الواقع، وأحكام التناسق بين واقع الأمة وبين الإسلام الذي ننتمي إليه، لكي تنجو من كابوس الانفصام بين العقيدة والسلوك في ممارسة شؤون الحياة، وذلك دون تجاهل لمعطيات العصر، والوسائل التي يملكها أعداء الإسلام في ظل المنهجية والعلم، ودون إغفال لظاهرة التأثير التي يصاب بها أولئك الذين لا يملكون رصيдаً من المعرفة بحقيقة الإسلام ولا خالطت ثقافته بأبعادها وعمقها فكرهم. ذلك أن أعداء الإسلام -يما يملكون من وسائل على صيعد التعليم والأعلام وعلم نفس الشعوب، لا ينفكون يلحون ويلحون على الأفكار التي يريدون، حتى يتأثر بها أولئك الذين حرموا مناعة تدفع عدوان المرض، ورصيдаً من أصالة الفكر يكشف زيف الوافد الدخيل.



وفي هذا ما يذكر بالتبعية على هذه الساحة، وفداحة المصاب بمن يقطعون الطريق دون من يريدون القيام بواجب تلك التبعية، والمعاذ الله من شر كل ذي شر .

إلا أن من سنن الله في هذا الكون، أن تكون المصائب والنكبات، مفاتيح يقظة، وعوامل أثارة الكوامن وتفجير الطاقات . والتحديات التي واجهتها أمتنا، وتواجهها اليوم جديرة أن تنقلها -إن شاء الله- النقلة المنشودة، فتنطلق تلك القدرات الحبيسة من عقلها، وينكفي الأعداء إلى حجورهم، ويرد كيدهم إلى نحورهم، حيث يأخذ الحق بمده وعنفوانه، كل أولئك الذين يقومون على حراسة الباطل والباسه لبوس الحق، وترتفع الراية التي ما كان لها أن تسقط وفي الأمة القلب المؤمن، والعقل المستنير، والساعد القوي .

ولقد يأخذك العجب -وما هو بعجب- إذا علمت أن أعداء هذه الأمة، وهم يدققون في واقعها الذي تعاني منه ما تعاني يرصدون حجم تحركاتها ويقتطعها ومقدار قربها أو بعدها عن حقيقة الإسلام في كل ما هو تحرك وفي كل ما هو يقظة أو بوادرها، ويحسبون لكل حركة بل لكل كلمة، حسابها، وتجدهم يدعون على لسان ما يتوهمون، أو يقدرّون أنه بادرة صحوة جديدة، ما كان للمسلمين في ظنهم أن يبلغوها . لقد قالوا الكثير يوم ما وقع بين تركيا وقبرص من الحرب التي ما زالت آثارها -على صغر حجمها- تطفئ على كثير من التصرفات، ويتحدثون اليوم بمرارة عن كل معارضة في

طريق ما تهوى إسرائيل التي تخشى يوماً يعلم فيه الإيمان عمله ، وتعلن كلمة الجهاد إعلانها . ولا تني بعض الصحف في الشرق والغرب تتحدث بمرارة وأسى ، عن خطوة باكستان في تطبيق الشريعة على أرضها ، وما لذلك من دلائل ومؤشرات .

وأحداث بعض البلاد : فيها ما يشغل بال الكثيرين من أصحاب المصالح ، وذوي الأهداف المعادية من هنا وهناك !! من الذين يضعون نصب أعينهم تاريخ الإسلام الماضي ومقومات وجوده ، وما كان لهذه الأمة من قوة ، ومكانة عالمية في ظل عقيدة الإسلام وشريعته ، حتى شرعت بعض الصحف الأجنبية في الكتابة عن مبادئ الشيعة والسنة ، محاولة بخبث موضوعي !! أن تنفذ إلى شيء يراد ، نفاذ الصديق للدود !!

وهكذا دواليك ، في كل يوم كلام ، ومع كل مناسبة تنبيه ودعوة إلى أن يكون الجميع في الشرق والغرب على حذر من ساحة الوعي الإسلامي وإتخاذ الحيطة ، ليكلا تتسع تلك الساحة فيكون من وراء ذلك مالا يحمدون .

أما ما يصاب به المسلمون : فليس من حسابهم في شيء ، بل هو أمر طبيعي يجب أن يكون وإلا خرج المارد الجبار من المقمقم - كما يقولون - وهم - بجانب افلاس الحضارة المادية الراهنة - يعلمون عن طاقات الإلام الكامنة في سلامة أصوله ، واتساقه مع الفطرة ، وعدم اهماله والجهاد وحب الاستشهاد . . يعلمون عن ذلك ما يعلمون عن واقع الأمة ، ومن أجل ذلك يرصدون الخطأ ، ويعملون على غرس العراقيل ، وكثيراً ما يسخرون من يحلو لهم أن يسخروه فيكون أداة التنفيذ في هذا المضمار .



وإذا كانت حقيقة الأمر كذلك ، ونحن على ما نحن عليه في كل الجوانب المضيء منها وغير المضيء ، فأجدر بالبصائر أن تتفتسح فيستبين الطريق ، وبالعزائم أن تتحرك بإيمان وأريحية فتقضي على الوهن . . كيما تكون المصائب على شدتها ، والأحداث على هولها ، معاول تهدم الباطل ، وتزيح الركام ، وتعلي كلمة الحق إن شاء الله .

ويومئذ لا تجدنا مهتدين في عقر دارنا من حلت عليهم لعنة الله وحق بهم غضبه ، كما لا تجد المسلمين في كثير من بقاع الأرض كالأيتام على مأدبة اللئام . بل تجدهم سادة أرضهم وديارهم يقفون على اليابسة في صدق الانتماء إلى أمة التوحيد والجهاد ، وفي عزمهم أن لا يعودوا إلى ما كسبت أيديهم ، مما أسهم في وجود ذلك المعترك من البلاء .

وليكن نصب الأعين وعلى كل المستويات ، ما جاء عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حين أمتدت يده إلى ساحة البناء ، وصياغة المسلم القادر - في مواجهة كل التحديات - على صياغة الحياة وفق المنهج الرباني ، من قوله -صلوات الله وسلام عليه- : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . . » إلا أنها الهداية التي تسلم للعزة والنصر ، تلك التي رسمت طريقها ، وذلت مسالكها وشعابها عزيمة هذا الرسول الكريم ، الذي ارتفع بالأمّة إلى مستوى القيادة في العالمين ، مما يحمل على المزيد من الاصرار على الاستضاءة بنورها ، والاهتداء بهداها ، وتعميق الصلة على كل صعيد ، بكل ما هو من منهجها بسبيل . . إيماناً وفكراً ، وعملاً متوائماً

مع الإيمان والفكر، وصبراً على كل ما يجمل بالرجال أن يصبروا عليه،
وأني لأشبه الرجال أن يكونوا من صانعي التاريخ، على الله قصد السبيل،
وربك يخلق ما يشاء ويختار، صلى الله وسلم على سيد الهداة وإمام النبيين
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



الكلمة... والبلاغ^(١)

لقد ربى الله هذه الأمة بالكلمة التي كانت مفتاح الإيمان والعمل ، فكانت رحلة الصياغة الأولى قائمة على الكلمة التي تنزلت وحيًا من الله على نبيه المصطفى وقام هو -صلوات الله وسلامه عليه- بأمانة التبليغ والبيان .

ومن هنا جاءت أهمية البلاغ وضرورة الدعوة ، بل وأخذت قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -امتداداً لموقع الكلمة- حجماً يليق بجلال هذه الدعوة ، وبنية المجتمع ، حيث الحراسة من الداخل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر صورة عن احساس كل فرد بمسؤوليته ، والحراسة من الخارجة بجهد أعداء الله والمرابطة على الحدود في سبيل الله . وتظل الكلمة نقطة البدء ، والعدد الذي تتولد عنه الأعداء بأرقامها وأبعادها .

والكلمة المعجزة في القرآن ، وتبيانها في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم- هي الكلمة القادرة بدءاً من قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وهي المنار الهادي ، فهي دلالة على الخير ، وضياء على سبيل الرشاد .

وفي ساحة الصراع بين الحق والباطل هي القوة التي تلوي عنق الانحراف وترد المزور عن الحق إلى سبيل هي الجادة «سيد الشهداء حمزة ثم رجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» . ومن هنا يتضح أننا لا نعني مجرد الكلمة -كائنة ما كانت- ولكن تلك الكلمة النورانية النابعة من أرومة الخير وكان

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثالث ، السنة العشرون ، ١٣٩٩ هـ جمادى الأولى ، ١٩٧٩ م نيسان .

من تكريم الله للكلمة النابعة من تلك الأرومة أن سمي بها «لا إله إلا الله محمد رسول الله». ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْذَنُ رَبُّهَا﴾ إلى أن يقول: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾.

وبحكمة الحكيم سبحانه، خلق الإنسان وعنده قابلية أن تأخذ الكلمة طريقها إلى نفسه إلا ما كان من أولئك الذين أطبق عليهم العناد، وقادهم الهوى من أنوفهم، ومن أجل ذلك كان زعماء قريش يخافون على الناس من قبيلهم أن يسمعوا للقرآن. . أجل يخافون من مجرد السماع خشية أن تعمل الكلمة عملها في القلوب والنفوس ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ﴾.

وعلى هدي ذلك كان على من أسعده الله بأمانة الدعوة إلى الله وتبليغ كلمته في الناس، أن يكون على ذكر من هذه الحقيقة. فالإنسان مولود على الفطرة، وقابلية الاستجابة للكلمة قائمة في نفسه كما خلقه الله، فليقل كلمته مؤدياً رسالته، ولا بد أن تؤتي أكلها ولو بعد حين.

ويارب كلمة نامت فترة قصيرة في احضان الزمن، ثم صحت لتخوض غمار التاريخ، والكثير لا يدري عن وجودها وبذرة الحياة فيها، والتألق الذي حباها الله به، فعملت عملها من جديد.

من أجل هذا -كما أسلفت- كان لابد أن تخرج الكلمة إلى النور. وكان لزاماً أن تلقى البذرة في تربة العمل، ولا على الرواد بعد ذلك، متى يتم



ظهور النبتة، وفي أي وقت تستوي على ساقها هنا أو هناك . ومنذا الذي ينسى أن الذين حكموا الهند بالإسلام بضعة قرون كان أسلافهم الأقربون غزاة للعالم الإسلامي مدمرين .

وهذا في نظري هي الإيجابية تطارد اليأس ، وتحول أن يكون له سلطان على النفوس ، فالمنطلق أن تأخذ الكلمة طريقها إلى الوجود، أن لا تظل حبيسة الصدر والفؤاد . أن لا تكتم عن الظامئين إلى المعرفة ، أقول هذا غير ناس ما يوضع على طريق الكلمة من عراقيل ، وما يتخذ لكي تظل حبيسة من وسائل ؛ ذلك أن للكلمة التي نعينها هيبة في صدور أهل الباطل أعداء الأمة ، أنهم يشخونها ، فيرتكبون ما شاء لهم الهوى من مآثم في ساحات الرغب والرهب لتموت الكلمة بموت الإنسان ولو على قانون «إنما الميت ميت الأحياء» . . وأولاً أن لها هذا الصدى ، ولولا أنها مركب فكر ، مصباح هداية ، وعنوان حركة ، لما هابها أولئك الأناسي -على ما لديهم من القوة- وراحوا قطعاً بعد قطع ، يتراقصون على مزار الشيطان .

ويسوقنا الحديث على استحياء ، لنذكر أن الكلمة غير مقطوعة الصلة لصاحبها ، فلنحسن بناء الإنسان ، ولتصدر عنه الكلمة القادرة بقدرة الله ، العاهرة بسلطان الله ؛ فإذا كان الإنسان آية من آيات الله في هذا الوجود ، إن الكلمة بدلالاتها وأبعادها -كما شاء لها الإسلام أن تكون- واحدة من آياته التي تصدر عن الآية الأولى ، وكأني بواقع الأمة الذي يقرح الأكباد . يصرخ في أعماق كل من له أدنى اهتمام بأمور المسلمين : نريد الكلمة التي تحركها

اللوعة ، الكلمة النابعة من القلب . . الموصولة بالسما . . ولا نريد الكلمة الميته الكلمة البتراء ، لأن النسب بينها وبين القلب مقطوع . .

إن الكلمة لاتي في مقدورها أن ترسم أبعاد التاريخ - بوصفها نقطة البدء - وإن تعمل عملها في أحاديذ الزمن ، هي تلك الكلمة المضيفة التي تفيض عن القلب ، فتخرج من اللسان أو يخيظها القلم مثقلة بندى الحياة ، وتنطلق فاعلة مؤثرة وبين يديها قدرتها على التغيير . . بعد أن تقطع المفاوز والقفاز .

وليس رجماً بالغيب أن نقول : ربما كان الكثير من أصحاب الكلمات التي عملت عملها في تاريخ الهداية ، جنوداً مجهولين . . شعارهم أداء الأمانة - مهما كان الثمن - وقد أدوها فكانت تلك الكلمات التي وضع الله لها القبول في الأرض . . لما أنها قيلت في سبيل الله وائتماراً بأمره - مقتحمة عقبات الرغب والرهب . ولا تسل كم هي ثقيلة في ميزان الله .

كما أنه ليس ضرباً من الفلسفة البلهاء ، ؛ والكسل العقلي ، أن نسمح لأنفسنا بتقرير أن عدم القدرة على تنفيذ ما تريده الكلمة ، وتحويلها إلى عمل لا يعقي من أداء أمانة الكلمة . . فنواصي العباد بيد الله ، وقلوبهم بين أصبعين من أصابع الرحمن . . فمن يدري !! لعل بضعة أحرف من نور تأخذ مكانها من هو أفقه لها وأكثر قدرة منك ومنه ، فتحقق بانية مؤثرة قدراً لا يستهان به من المأمول .

وأحسب أن هذا الذي نلمح إليه ، هو بعض من مدلول قول النبي - صلى الله عليه وسلم - كما جاء في الحديث الصحيح «نضر الله أمراً سمعنا



شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع» وفي رواية «فرب حامل فقه إلى من أفقه منه». وفي رواية «سمع مقاتلي فوعاها . .» .

إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في نظرات تتخطى حدود الزمن، و----- مكنون الإنسان يريد للكلمة المشرقة الهادفة، أن تأخذ طريقها إلى القلوب والعقول، فالتبليغ غاية في ذاته، والله تعالى يسمع من يريد أن يهديه فيشرح صدره للإسلام . . وخلق الهداية لا يكون إلا من الله . . حتى الرسل عليهم السلام، هدايتهم هي دعوة الخلق ودلائلهم على الطريق هي ما يرسمون للناس من معالم الخير، وما يوضحون لهم من سبيل ﴿إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ . ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ . ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ .

إن حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم -، -وهو المبين عن الله ما أراد- يحمل كل قادر على الدعوة تبعة التبليغ . . لأنك لا تدري أي تربة تتوافر لها خاصية الأنبات، فيكون لها العطاء والأكل الطيب .

وتحميل التبعة على هذه الشاكلة، ومن صورها ما رأينا من الدعاء بالنضرة، مع التعليل لوجوب الوعي عند السماع كما هو في بعض الروايات، وأنه رب مبلغ أوعى من سامع . . إن تحميل التبعة على هذا الشكل قد يكون -من بعض الوجوه- أكد مما لو جاء ذلك بأمر مجرد، وإن كان الأمر المجرد في العديد من النصوص منها قوله -صلى الله عليه وسلم: «بلغوا عني ولو آية . .» . والأمر في كلا الحالين يتجاوز الحدود الزمنية، فهو

ليس قصراً على أولئك الذين عاشوا متنزل الوحي ، وتلقوا مشافهته عن الرسول -عليه الصلاة والسلام ، ولكنه -كما أسلفنا- يتناول كل من كان قادراً من أبناء الأمة على ذلك في كل زمان .

ووعيد الذين يخلون بالكلمة ، فيكتمون ويتقاعسون ، وعيد يهز النفوس ويذهل القلوب ، انظره في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ صحيح أن الآية نزلت في بني إسرائيل وما كان من انحراف أبحارهم ولكن عمومها واضح في ألفاظها ودلالاتها ، وخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ ، وكان الكلمة الهادية تبعث الحياة في دنيا مخلوقات الله كلها بعد الإنسان ، وعند حجبها وكتمانها . . ترى أن كل هذه المخلوقات تلعن من كتم ، فأساء إليها ، وأسلمها إلى الموت ، فهؤلاء الكاتمون لما أنزل الله من البينات والهدى يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون . ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : «من سئل علماً وكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة» . مما يؤكد الذي قلناه من عموم الآية الكريمة وسعة من تطولهم دلالتها ، فهي غير مقصورة الحكم والوعيد على علماء بني إسرائيل ، بل هي تشمل كل من وقع منه هذا المتوعد عليه والعياذ بالله . ولقد يكون هذا الأمر أخص من الدعوة والتبليغ -على وجه العموم- ولكنها كلها ترد إلى أصل واحد .

صحيح أن العالم الإسلامي اليوم يموج بتيار طيب من الوعي الإسلامي المستنير رغم السدود والقيود . . ولكن ما يزال المسلمون هنا وهناك يعانون



من جهلهم بالإسلام والفقہ الحقيقي لدعوته . بإبعادها وحدودها والتزاماتها ، الأمر الذي يجعل من هذا الواقع سلاحاً يترد إلى مقاتلهم وكم هو فتاك ذاك السلاح .

فإذا أضفت إلى ذلك ما كان وما هو كائن من الغزو الفكري الذي هبت ريحه السموم من القرن التاسع عشر ، ذلك الغزو الذي يتساقط ضحاياه الألى ندعوهم بـ «المثقفين والمتنورين» رأيت واحدة من دلائل النبوة حين يعدو رسول الله إلى تعلم الكتاب الكريم وتعليمه ويجعل ذلك عنوان خيرية هي منتهى الآمال ويسلك في نفسه وفي الجماعة التي أعدها لحمل العبء العظيم هذا النهج القويم .

وغير خاف أن كل ما يقال حول هذا المحور لابد أن يوظف ضمن إطار مدروس يضع في الحسبان كل المتغيرات والاحتمالات ، ولا يغمض العين عن شيء من واقع الأمة سواء أكان ذلك في ذات نفسها ، أم في علاقاتها بالآخرين . ولقد طال انتظار هذه الزمة لجيل تبينه الكلمة الطيبة ، وتصدر عنه الكلمة الطيبة ، عنوان الخطوة المتقدمة التي تقود إلى إزاحة الركام ، ونفي الخبث ، ولكن حجازاً من الشك وعدم الوثوق يقوم بين الأمة وبين هذا الجليل ، صورة عن غبث العابثين بالعقول ، وما يكون من تسويل شياطين الأنس والجن حقداً دفيناً على الإسلام الذي يشكف مواقع المتبطلين وأهل الضلالة ، ولكم يغمر الرواد فضل الله ورضاه ، عندما ينذرونأنفهمس صادقين لرد الأمور إلى نصابها ، ووصل أمتهم بأسباب قوتها ومنعتها بعلم

ومنهجية وإخلاص ، كيما تتجاوز الصعاب بعون الله --- . وتتصر على أعدائها المتربصين ، ويعود لها دورها القيادي في العالمين . إلا أن وعد الله لا يتخلف وسنته ماضية في ربط النتائج بالمقدمات ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ والحمد لله في الأولى والآخرة وهو حسبنا ونعم الوكيل .



أرض الإسراء .. والمواجهة^(١)

هذه اثنتان وثلاثون سنة تمضي بما فيها من غصص وآلام، وأرض الإسراء ما تزال ترسف في أغلالها، وأمانة التحرير وإعادة الحق إلى نصابه، تثقل في الأعناق يوماً بعد يوم.

وفي كل عام ذكى الإسراء والمعراج العظيمة بدلائلها وأبعادها خطأً جديداً على طريق هذ الأمة، هو بمثابة عصا التنبية والتفريع، لو كانت هنالك عقول تعي، وقلوب تفقه!! ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

أقول ذلك، لأن الآية - كما هو واضح لكل ذي عينين - أحكمت الرباط بين المسجد الحرام وبين المسجد الأقصى - ويا نعم ما أحكمت - ليكون في أعماق المسلم ومنهجه في التفكير، إن حرمة المسجد الأقصى هي من حرمة المسجد الحرام قبلة المسلمين، وتلك هي حرمة الأمة وعرضها، فإذا انتهكت الحرمات: فبرهان الإيمان وصدق تحمل العقيدة وسلامة المنهج في التفكير، إن تهب الأمة هبة الرجل الواحد، في انطلاق من وحدة العقيدة، والقبلة، والحرمات، جهاداً وبذلاً وعطاء، لدفع الأذى عن حرمتها، ورد العادين على عرضها، وإلا فعلى هذه الأمة العفاء، حين تخالف عن أمر الله، فترضى بالهوان يدمغها، وبشرار الخلق يتراقصون على مقدساتها، وبهؤلاء الذين ضربت عليهم الذلة والمسكنة يسرحون

ويمرحون على أرض اغتصبوها وديار برجسهم دنسوها .

ولا يقيم على ضمير يراد به إلا الاذلان غير الحي والوتد

هذا على الحسف مربوط برمته وذاشج فلا يرثي له أحد

اثنتان وثلاثون سنة تمضي ، ويمضي معها ما تحفظ ذاكرة التاريخ من ألوان
العبث أو الجد ، واليقظة أو الغفلة ، وأن شئت فقل التغافل . ومن الرغبة في
الجهاد أو القعود والتشاقل إلى الأرض ، ثم النظرات التي تنسى الماضي
وتغفل المستقبل ، وأنها لآفة الآفات أن نواجه الحياة بلا ذاكرة ، فنحرت في
البحر ونبني طواحين في الهواء .

وهكذا تظل دلالة الكلمة القرآنية في سورة الإسراء ، وما حدث لرسول
الله -صلى الله عليه وسلم- من المعجزة في الإسراء والمعراج ، فكان
المسجد الأقصى أولى قبلي أهل التوحيد ، ومسرى خاتم النبيين محمد بن
عبدالله العربي القرشي الهاشمي ، يظل ذلك حجة قائمة على كل أولئك
الذين في مقدورهم أن يكشفوا عن الأمة غمتها ، وذلك بإتيان البيوت من
أبوابها بناء وإعداد ، فيستبدلون الاسترخاء والوجهة المناقضة ، بالعمل الجاد
والعزيمة الصادقة .

أجل : وعلى كل أولئك الذي حولوا حمل الأمانة فحادوا عن السبيل
ووضعت تحت أيديهم مقدرات الأمة البشرية والاقتصادية وغيرها ، فأهملوا
أو هدموا الإنسان وما وراءه من مقدرات .



وعندما نقول : حجة قائمة ، فهي حجة أمام التاريخ ، وأما الأجيال بلا ريب ، ولكنها قبل هذا وذاك ، أما الله الذي لا تخفى عليه خافية ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴾ . ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ . يوم يواجه العتاة - --- المستهترون بالحقيقة فيقولون : ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ .

إلا وأن ما حصل من المتغيرات في هذين العامين ، من رحلة العار إلى العدس المثقلة بالقيد ، ومؤامرة كامب ديفد ، ثم ما أعقب ذلك من صلح مشؤوم سيواجه اللعنات وساده ولحمته الاستخذاء أمام العدو المتغطرس ، والتنازل بمهانة عن الحقوق ، وبيع الأرض وما فيها ، خزي وضلالة لمن قام به ، وهو فيما صنع ، متجاوز ما لا حق له فيه البتة ، لا يمثل إلا نفسه !! ودع عنك تهريج المتنفعين المستغلين وتبطل العابثين اللاهثين .

وإنه لمنعطف خطير ، يفسح ما هو أشبه بالخيال ، للعدو الذي نعرف من مكره واحتياله ومطامعه وحقده الأسود الدفين ، الممتد أربعة عشر قرناً في أعماق التاريخ ، بدءاً من الساعة الأولى لمقدم النبي - صلى الله عليه وسلم - المدينة المنورة مهاجراً من مسقط رأسه مكة المكرمة . وما أفسح لهذا العود لن يتقصر على ميدان دون آخر .

أن تحرك الصهاينة على الصعيد الثقافي في العبث بمناهج الدراسة في الأرض المحتلة والعمل على غسل أدمغة الطلاب والطالبات ، وتزوير حقائق الدين والتاريخ بل والجغرافية في عقولهم ونفوسهم ، أمر معروف ومفصوح .

ولقد بدت بوادر سوء في مصر، تنذر بتطوير المناهج أيضاً: لتنسق مع المرحلة الجديدة يا لخبية!! وإذا حصل ذلك - لا قدر الله - فلا تسل عن العبث بالحقائق، والكذب على الله والتاريخ، والعمل على أن تصبح المناقشة في جانب، والتطلع إلى ساحات الجهاد، وطرده الغاصب، وتحرير مقدسات المسلمين في جانب.

ولا ندري ماذا هم صانعون بآيات القرآن التي تكشف عن حقيقة اليهود، وبأحاديث النبي - صلى الله عليه وسلم - التي تبين القرآن أفضل بيان، وبالسيرة التي ما تركت زيادة لمستزيد ترجمة لتحركاتهم، سلماً وحرماً، في مواجهة دعوة الإسلام وبين الدعوة - عليه الصلاة والسلام - . ثم ماذا هم صانعون بتاريخ يمتد من بعد وفاة رسول الله حتى يوم الناس هذا، بصفحات مشحونة بالدسائس والمؤامرات والكيد لهذه الأمة، تلك الصفحات التي بدأت بما صنع عبدالله بن سبأ اليهودي، ثم وليها ما وليها، ولن يكون آخرها ما نعانیه من أمرهم ومن أمر أذنبهم اليوم!

ليت شعري، كيف يغني مع ذلك كله زعم زاعم أن مملاتهم وموالاتهم - وهم أعداء الله ورسوله وشر أعداء هذه الأمة - هو التعامل الحضاري . . ترى هل فقد بعض الناس عقولهم حين استعاضوا عنها بالأهواء أم أنهم يفترضون أن الناس بلا عقول، . . ما داموا هم على كرسي الطغيان والسلطان؟؟

أما عن الاقتصاد والمال: فحدث ولا حرج، فأشداق اليهود تتحلب إلى



ثروات أمتنا في مختلف بلادها وأحصارها، وهم لا يغفلون لحظة عن المكر والتدبير المدروس، لعل ذلك يكون في خدمة ما يدعونه إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل، ومن قريب حملت الأنباء أسهام موزارة الصناعة الإسرائيلية مع مؤسسة صحفية في بلد أجنبي بإصدار كتاب عن الوضع التجاري للشرق الأوسط، نتيجة ما يسمونه معاهدة السلام مع اليهود، وقد وردت له أسماء ثلاثة الاف وخمسمائة شركة من شركاتهم، وقد طلب عدد كبير من الشركات اليهودية تزويده بتقارير عن البلد الذي وقعت معه المعاهدة، تمهيداً للمرحلة القادمة -وقد حانت تقريباً- التي يتوقع معها أن ترفع الحواجز التجارية بين البلدين.

والأخلاق!! وما أدراك ما الأخلاق!! كل شيء عند اليهودي، حتى العرض يجب أن يكون في خدمة المال والاقتصاد، ولهذا نصوص يزعم أحبارهم لها من التوراة وأنها لفتنة حالقة ماحقة والعياذ بالله، فإذا فتحت الحدود.. فلا حدود!!! ولم يعد خافياً ما صنعت هذه الفتنة في ميدان السلب واغتصاب الأرض وإشاعة الفاحشة والانحلال في الماضي القريب.

إلا أن هذا كله، يزيد من ضرورة التنبه واليقظة أكثر وأكثر، ويضع تعريفاً مناسباً لمرحلة المواجهة الجديدة في ضوء هذا الواقع الأليم، والأمر الذي يجب أن يأخذ مكن الصدارة على صعيد الأولويات والاهتمامات أن لا نكتفي بلعن الخيانة وأصحابها، بل أن تنتقل الأمة من المرحلة الوصفية لما -- هذا المنعطف في تاريخ القضية، إلى أحكام المواجهة بكل أبعادها وعمقها إما هو ضروري لها على كل صعيد.

وإنها لنقلة تقتضي - مع الإعداد المعنوي والمادي الآن - مسحاً عاماً لكل ما حملته السنوات العجاف بدءاً من ١٩٤٨ م - على الأقل - ليكون من وراء ذلك رصد للوقائع وصانعيها، وإدراك لطبيعة المقدمات التي أثمرت ما يحاصرنا من نتائج، فما سلبه العدو خلال كل المراحل، هو حق هذه الأمة وأرضها، ومقدساتها، ولا يملك أحد المساومة عليه، وإن فعل، فذلك عنوان انحرافه وضلاله. لا مشروعية ما فعل واجترح.

ومن الاخلاص للقضية والحيلولة دون أن يكون للاخطبوط ما يريد، أن تأخذ الطاقات كلها مسارها الطبيعي وبتخطيط مدروس. يضع كل مقومات الأمة وخصائص قدرتها المعنوية والمادية في حسبان، كيما يكون ذلك كله روافد منتجة للعمل والبذل والجهاد، وإذا كان الإنسان هو المحور قبل كل شيء، وهو الرصيد الأول في حياة الأمة، فمن الأهمية بمكان أن نغير هذا الإنسان كبير الاهتمام، فنفتح أمامه آفاق العطاء، ونهيئ له سبلها، ذلك لأن العلم التقني والسلام والتخطيط، كل ذلك لا يجدي إذا هدم الإنسان أو عومل معاملة منكوسة فأهدرت حرите وكرامته وكل عدوان على الإنسان مهما كان شأنه يفوت على الأمة خيراً كان يمكن أن يقدمه لو أنه أخذ حجمه الطبيعي في حرите وتطلعاته ضمن إطار الانتماء، وفي ضوء مقومات الأمة ومنابع وجودها الأصيل. أرأيت إلى رئيس وزراء العدو وهو يفاض!! كيف كان يعود في صغيرة وكبيرة إلى من يمثلون إرادة من يحكمهم.. وفي المقابل أرأيت إلى الطرف الآخر! أنها المأساة.. مأساة أن يتحول أربعون مليون من



البشر في نظر الحاكم إلى زرقام جامدة لدفع الضرائب، أو إلى أربعين مليوناً من الخلوقات التي تساق لتهتف في الميادين، أو تحمل إلى صناديث التأييد لتكون الحصيلة ما أريد من قبل فلا حو ولا طول، ولا رأي في قضية مصيرية تلامس الوجود الذاتي للأمة لكل أبعاده ومظاهره. وهكذا. . يوم تتحول حرية الإنسان لتكون حرية الطاغية في أن يفعل ما يشاء فهناك الخراب والدمار.

مرة أخرى: أن هذا المنعطف الطارئ انذار صارخ بمرحلة لها خصائصها ومميزاتها، تواجه فيها تحديات شرسة مأكرة، تستخدم لها طاقة الإنسان والعلم والاقتصاد والسلاح الحديث المتطور، ومشايعة من يمد العدو بالسلاح والمال، ومن يمد بالعلماء المهاجرين وغير المهاجرين ثم مصالح منظورة وغير منظورة لبعض الدول الكبرى في العالم. ولا ننسى ما يزعم من مقولات تورانية وغير فيما يسمونه حائط المبكى، وهيكلي سليمان، وأرض الميعاد، وإنهم شعب الله المختار، الموعود بهذه الأرض وإقامة الدولة عليها تلك المزاعم الدينية التي يجمعون شتات يهود الأرض عليها ويأتون بهم إلى فلسطين. ناهيك عن تلك الجيوب التي تحمل المخاطر فيما يصنعون في لبنان وفي غير لبنان من خلال أوضاع دولية وإقليمية هنا وهناك.

والمعتصم في مواجهة تلك التحديات - كما قلنا - جدية في التحرك، --
- بالأبواب على سلم الأولويات والاهتمامات، وصدق عزيمة في ميادين

التربية والعمل والجهاد، والاعتزاز بالإسلام. إننا إن سلكنا السبيل المرضية عند الله، كان لنا الخير في الدنيا والآخرة، وإلا فالله قادر على أن يستبدل بنا قوماً يعملون ويجاهدون، فيكون لهم شرف رد الكرامة المهدرة، والحق السليب. ذلكم قول الله تعالى في سورة التوبة التي فضحت المنافقين وهتكت أستار المتخاذلين والمعوقين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۖ﴾ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ.

ورضي الله عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حين قال: «وما ترك قوم ---- إلا ذلوا» إن هذا الركل العظيم كان يتجه -وهو يقول كلمته هذه- صوب بناء الإنسان المسلم إنسان العقيدة الذي تربي على العلم والمعرفة، وبني على حب الجهاد والاستشهاد وأن الآجال والأرزاق بيد الله، وكذلك كان صانعو تاريخنا الأبرار، -وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد إمام المجاهدين وعلى آله وصحابته ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.



ليست النائحة ... كالثكلي^(١)

ورقات من تاريخنا، أتمنى لو تقرأ بعناية وتدبر، تلك التي تقدم ثمرات الرحلة عبر الأيام، وتقدم الخطأ والصواب، دوغما محاورة أو مداورة، ودوغما عدوان على الحدود والقيم، وتلاحق حوادث التاريخ من منظور الأمة لا من خلال النزعات الفردية لتتخذ منها العبر النافعة، والدروس التي تغني طريق الأمة في مواجهة الزعازع والأعاصير!!

فلو قرأنا هذه الورقات -أو الفصول- قراءة جديدة واعية متدبرة، وبمرييات لا يشوبها ظل جائر من أحكام سبقت القراءة والتدبر. . . لكان لنا شأن آخر في الإفادة من الماضي بحلوه ومره، ولكان لنا من ذلك ضياء نتبين من خلاله جوانب من الحاضر؛ الأمر الذي له ما له من آثار على المستقبل.

أقول هذا الكلام وأمامي كلمات صيغ منها المثل العربي «ليست النائحة كالثكلي» وهذا المثل الذي يراودني ظله ولا تكاد تفارقني دلالتة، ويزداد إحساسي بمعناه ويزداد. . . كلما سمعت أو قرأت بياناً يصدره الغرباء عنا بشأن الأراضي المغتصبة والاحتلال، ويرثون ذمتهم أمام مرآة المداجاة لحاجة في نفس يعقوب، فيقولون كلاماً يفيدهم ولا يغني من الحق شيئاً، فالحال تسوء يوماً بعد يوم، إذ أن خبز اليهود اليومي -كما يقال- إن يضربوا جنوب لبنان ويلاحقوا المخيمات والقرى والمدن بمن فيها من أطفال ونساء ومسنين، وقد دأبوا على ذلك بحقد بروي غل صدورهم تحت سمع أذنياء حقوق الإنسان وبصرهم. . . وقد وصل ذلك إلى الحد الذي أدمن معه الناس

عل «سماع تلك الأنباء ، فلم يعودوا يفرقون بين النبأ المزعج المرهق ، وبين النبأ المفرح ، واستوى الماء والخشبة .

واليهود أيضاً متعتهم اليومية أن يزوروا مصر ، ومع كل خطوة شعور جديد بالانتصار المتعالي ، والشموخ الذي يزدري الآخرين ، ولكن المتعة الأكبر ، أن يصرخوا دائماً وهم ضيوف البلد الشقيق في ظل الاهرامات وعلى ضفاف النيل ، وتحت سماء القاهرة المعز والازهر والجامعات ، أنهم عند الذي أرادوا من أول يوم . . وهل من مزيد ، الطائرات تقصف بيوتنا وأهلينا هنا وهناك ، والتصريحات زاد يومي لا يمله المفاوضون على الحكم الذاتي !! بل يزيدهم كرمًا حاتمياً وتنازلات يوماً بعد يوم . .

هذا الحكم الذاتي كما يراه اليهود ، يتعلق بالبشر لا بالأرض ، ولا بد أن تعود الأمور بعد خمس سنين أشد وأقسى حيث تأخذ القبضة الحديدية تكييفها القانوني كما يشاء الصهاينة ويشاء صاحب الكرم الحاتمي والرائد الحضاري الجديد !!

والمستوطنات باقية وكل يوم هي في ازدياد ، وكل واحدة منها قلعة حصينة اثيمة بين ظهرائي أهلينا في الضفة الغربية حيث يسد اليهود عليهم - حتى منافذ الهواء - لو استطاعوا .

والقدس الطهور . . وما أدراك ما القدس الطهور . . القدس التي تنادي عمر ولا عمر ، وتستنجد من ظلم الغاصب وتهاون ذوي القربى ، نور الدين وصلاح الدين ، ولا نور الدين ولا صلاح الدين . . القدس هذه كل



تصريحات اليهود حولها لا تخرج عن ادعاء أنها عاصمتهم التي توحدت إلى الأبد. وهي حقهم الطبيعي لأنها من أرضهم التي وهبتهم إياها التوراة والتاريخ. . ويا قطع الله تلك الألسنة الفاجرة، ومعها كل الأعناق التي تنتفخ بالباطل، ومعها أيضاً كل الأنوف التي ورمت من كلمة الحق تقال، فراحت تعيث في الأرض فساداً، وتنزل باهل الحق أعتى الضربات وتذيقهم الويل والثبور.

أما عن إقامة دولة لأصحاب الحق الشرعيين: فهذا ما تعارضه إسرائيل - طبعاً- كل المعارضة، لأنه يتنافى مع الحدود الآمنة كما تراها، فقد انتقلت من الوطن القومي، إلى الدولة القومية، إلى دولة يجب على العائم أن يضمن لها حدوداً آمنة على حساب أهل الأرض وجيرانها، وإذا وصل اليهود إلى ما يزعمون أنه الحق فعلى الدنيا العفاء.

يرافق هذا كله ما أسموه تطبيع العلاقات المصرية الإسرائيلية -استغفر الله- لعلها الإسرائيلية المصرية، وكان قد صرح وزير الدولة للشؤون الخارجية المصري: من قريب أن لا تطبيع للعلاقات إلا بعد ثمانية شهور، ولكن رئيسة وافق في اليوم التالي على التطبيع وفتح الحدود بالرغم من ذلك، وشر من هذا أنه تم البدء في إعداد لجان التبادل الثقافي والحضاري بين البلدين، والأشد والأنكى من هذا كله أنه تقرر أن يعاد النظر في جميع مناهج التعليم المصرية لتتواءم مع طبيعة الصلح. ولم يكن موضع الغرابة عندنا الأسراع في فتح المجال الجوي بين كل من الطرفين -كي يستمتع توفيق

الحكيم ومن كان على شاكلته بألوان الجمال الفني في تل أبيب - والزيارات شبه الأسبوعية لكبار المسؤولين ، والتي كان منها ما طالعنا به الصحف يوم الخامس من حزيران أن دايان وزوجته كانا يضحكان تحت ظلال الإهرام !!

وفي مواجهة ذلك كله بما له من دلائل ومؤشرات ، وانعكاسات على مسيرة الأمة فيما يجب عليها من جهاد اليهود ، يظل المثل العربي يلاحق «ليس النائحة كالثكلى» . إن الأمة المصابة بأرضها وبينها ، والمنكوبة بتهاونها وسوء تقديرها للأمر ، والمبتلاة بعدو أكل الحقد قلبه وأعمى بصيرته وحوله إلى مخلوق من نوع آخر . هذه الأمة يفترض أن لا تكتفي بالوقوف عند المرحلة الوصفية للمشكلة وانزال الشتائم المقزعة بالأعداء وأذئابهم ، ولكن تنتقل نقلة جادة تكون أقوى من المعوقات والمثبطات ، لأنها هي التي تحس المصاب الأليم كما هو ، وتشعر بالعلقم الذي تتجرعه من هول الكارثة صباح مساء ، وهي هي صاحبة الحق أولاً وآخرأ ، والمسؤولة عن قطع الأيدي التي تلصص أصحابها لسرقة هذا الحق والعدوان على أصحابه ، وإذا لم تكن هي على هذا المستوى فمن يكون؟ على أن صدق الانتماء يفرض عليها أن لا تحول عن الطريق التي كان بها اسلافها خير أمة أخرجت للناس ، وأن لا تسمي الأشياء بغير مسمياتها ، فتستبدل التدحرج إلى القاع بالصعود إلى القمة الذي لم ييخل الأجداد بدفع ثمنه جهاداً بالأموال والأنفس كما هي توجيهات الكتاب الكريم وسيرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وأصحابه وكل أولئك البررة الميامين .



أجل : ولن يستقيم في ميزان العقل أن تكون النائحة كالثكلى ، المرأة
المأجورة - في الجاهلية - لتنوح على قدر الأجر الذي تتناوله بلا احساس من
أهل الفقيد ، ليست كتلك الأم الجريحة التي كان الميت فلذة كبدها ، وذوب
--- ، وحشاشة نفسها ، فإذا لم نرحم أنفسنا أن تجرد الأمة كل الإمكانيات
للمواجهة ، وتوحد الصفوف لخوض المعركة ، كيما تثبت وجودها بأنها
صاحبة الحق . فمن ذا الذي يرحمها من هؤلاء البشر التعاة الذين يعبدون
مصالحهم في مصانعهم ومزارعهم بل وقنابلهم ، وقل مثل ذلك في كل من
لا تربطه بالأمة وشيعة أو صالح عمل .

ولقد ننسى أبسط المعادلات التي يفرضها صراع الحياة في المعترك
الحضاري على الأقل ، حين نعطي العدو مقاتلنا ، وننام على حسك الفرقة
واهذار الطاقات التي تتسم بصدق الانتماء ، ونستيقظ على تشاؤب
اللامبالاة ، ثم نسترحم الجزار أو شريك الجزار أن يصب الرحمة على
رؤوسنا صبا . أليس هذا هو العجب الذي ما بعده عجب !!

والذي يقتضيه البر ، وتفرضه أمانة الكلمة ، ومسؤولية أبعادها في حياة
الأمة ، أن نستذكر بكثير من العمق والموضوعية ، إن الله تعالى شاء لهذه
الأمة أن تصاغ وتتعلم من طريقتين :

أولاهما - طريق نظرية تقوم على تلقي المعرفة من طرقها تلقينا
وتحملاً وتعلماً من دنيا القراءة والكتابة وكل الأساليب التي هي من ذلك
بسييل .

والطريق الثانية -طريق المعاناة والممارسة، طريق الحركة الدائبة على ساحة الحياة، صواب يداوم عليه، وخطأ يجتنب الوقوع فيه مرة أخرى، صياغة عملية لمنهاج الحياة من خلال الإنسان والوقائع على مقاييس الدعوة وفي ظل قيمها، والإفادة من تجارب الآخرين . . حتى كان من وراء ذلك بناء التاريخ، وأحكام صياغة المجتمع على النهج الذي دعت إليه رسالة محمد -عليه الصلاة والسلام- .

وهكذا كان يتنزل القرآن، يرافقه البيان النبوي، والحركة الدائمة، وخطوات البناء لا يعوقها شروق ولا غروب، والكل -مع تلقي المعرفة- يتحركون عاملين بما يعلمون، عازمين على صياغة تلك المعرفة واقعاً يروح ويغدو، وكأنهم في سباق مع الزمن .

ثلاثة وعشرون عاماً تنقضي من عمر الزمن، والوحي لا يني يتنزل بالخير والهدى، والعمل لا ينقطع . وجهاد النفس، وجهاد الأعداء من يهود ومشركين ومنافقين وغيرهم لا يتوقف ضمن حدود مرسومة ومناهج كلها حق وعدل وإحسان، وإخراج المبادئ والأفكار إلى حيز التنفيذ منهاج حياة يومي للفرد والجماعة والأمة، لا يعتريه ضياغ أو انفصام .

وانقضت سنوات الوحي وأكتمل معها البناء . . ولم يعن هذا أن تتوقف الخلايا عن الحركة لأن قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ . كان إيذاناً باستمرارية الواجب، وتحميل العهدة في نشر رسالة الإسلام في العالمين، والجهاد ماض إلى يوم القيامة، وما أكثر شعب الجهاد وطرائقه لمن عزم أن يكون من القاعدين .



واليوم ما أكثر التجارب والوقائع التي تغني ، سواء منها ما كان لنا وما كان علينا ، والمفروض أن يوظف ذلك كله على طريق التحرير لأرضنا ولأنفسنا ، ولا يعوزنا المنطق حين نقرر أن ما وقع لأمتنا من أحداث بعد الربع الأول من هذا القرن على الأقل كفيلاً بأن يحول التيار وأن يعود بنا إلى الصحو الكبرى .

كل هذا إذا تحولنا عن مقعد المشاهد العادي لمسرحية يصفق لمشهد أو مشاهد منها معجباً ، أو يزور مقطباً حاجبه ، فدور الأمة ليس دور النظارة المتفرجين ، ولكنه دور الإنفعال والفاعلية ، والتأثر والتأثير ، وأن شئت فقل : دور الاعتبار الذي يوظف الواقعة أو الحدث بمنهجية وموضوعية على طريق التحويل إلى الأفضل في ظل انتماء صحيح ووالء صادق لخصائص الأمة ومقومات وجودها ، وإذا رأيت انتفاعاً بالمصيبة يشد إلى تلافي الخطأ والتهاون ، وأحكام الربط بين الأمة وبين أسباب التمكين فأعلم أن الخير هناك ، وإذا رأيت آذاناً صمماً واعمياء عمياء ، وتمادياً فيما لا ينبغي والحال هي الحال ، فأعلم أن النار تريد أن تأخذ ما بقي كما أخذت ماسبق والعياذ بالله .

ولئن كانت آيات الله في الآفاق تملأ على الإنسان حياته ليزداد يقيناً بوجود الله ، إن آياته القائمة على سنن كونية في أسباب الضعف والقوة ، وعوامل التقدم والانهيال تملأ على المسلم أيضاً حياته ووجوده ، فللنصر أسبابه وعوامله ، وللخزي مداخله والطرق المؤدية إليه ، ومن سنن الله نصره لأهل الحق أن هم نصروه وأيدوا شريعته ، أجل تلك سنة ماضية ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ

اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿١﴾ . ﴿٢﴾ إِنْ تَنْصَرُوا اللَّهَ يَنْصَرِكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٣﴾ .

والمفروض أن يكون ذلك كله حين تستبدل الأمة الوعي بالغفلة، ومعاداتها للإسلام تصوراً وعملاً، بجفوته التي جعلت الكثيرين يهابونه فيعرضون ويدبرون أجل، وحين تفعل الأمة ذلك، يكون صنيعها إيذاناً باختيار غلط جديد من الحياة يتسم بحين التبصر والاقدام، وتحكمه عزيمة الرشد والثبات في الأمر، وأنها لأمنية غالية لا تبارح قلوب الأوفياء لهذه الأمة، الذين تقض مضاجعهم متاعبها، ويرهقهم أن ينالها من الأذى ما ينالها، وبخاصة عندما يكون ذلك على يد أولئك الذين طبع الله على قلوبهم، ووسمهم بميسم الضلال والاضلال، والله وحده العليم بما تكنه السرائر، إليه يرجع الأمر كله، وبيده الأمر كله وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله .



أولئك الذين يُغبطون^(١)

كلما استلهم المسلم المعاصر واقع الأمة كما هو في أبعاده التي تقربه أو تباعده عن الإسلام، ازداد يقينه - حين يكون عميق لإدراك - بسداد ما اتجهت إليه المرحلة الأولى من مراحل الوجود الإسلامي على أرض الجزيرة حين عنت أشد العناية بتحرير النفوس من الوثنية وما يدور في فلكها، وغرس الكلمة الطيبة كلمة التوحيد في أعماق تلك النفوس، ثم ضبط القيم، وتحديد طريقة التفكير في ضوء ذلك. كل هذا كيما يكون الإنسان الذي هو محور الحركة والعمل، وإخراج الأفكار إلى حيز الوجود الحقيقي، كفاء الانجاز الكبير الذي هو توجيه كل طاقة وجهتها، ووضع كل عنصر من عناصر الحياة موضعه، في تكامل وتناسق، بعيداً عن أي لون من ألوان التشتت والضياع.

فالدعوة الإسلامية شدت الإنسان من ساحة الوثنية إلى ساحة التوحيد، وفي الوقت نفسه لم تتركه بدون ضوابط وحوافز، ومنهجية في التفكير، وبعبارة أوضح: هي لم تنقل رقماً من جدول إلى جدول، وإنما حولت مجرى حياة هذا المخلوق الذي أهله الله للخلافة في الأرض، من طاقة معطلة، تتقاذفها الأهواء، وعبث الخرافة والمتسلطين، إلى طاقة فاعلة واعية، عرف الإنسان من خلالها موقع قدميه، والغاية التي يريد، وأنه لم

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العددان الثامن والتاسع، السنة العشرون، شوال - ذو القعدة ١٣٩٩هـ، إيلول - تشرين الأول ١٩٧٩م.

يخلق عبثاً، وعرف كذلك ضوابط تعامله مع الناس والقيم والكون . لذا كان أي عدول عن هذا الصراط السوي نزولاً إلى هاوية الضياع ولا رتكاس .

إنه جانب هام من جوانب بناء شخصية الإنسان ، كيف يفكر؟ ما هو الهدف الذي يرمي إليه ما هي الغاية التي يوظف فاعليته في طريقها؟ ثم ما هي القيم التي على أساسها يكون القرب أو البعد من الآخرين . . وبعد ذلك : أين هو المصباح الذي يتسنى له أن يحمله بكلتا يديه ، فيضيء له دياجير الظلم على دروب الحياة ، كيما يتبين الحق من الباطل ، ويكون قادراً على دفع عجلة الحياة بشكل لا يجعلها تلتهم الأحياء ، ولكن تصحبهم إلى حيث تكون الطاقات المبذولة ، والوقت الذي هو ظرف العمل والحركة ، في خدمة الوجود العملي للعقيدة في أحد وجهيها حين نفهم الإيمان تصديقاً بالقلب وعملاً صالحاً هو انعكاس هذا التصديق . . حين ينمو ذلك الوجود من خلال الوقت المنقضي دون توقف ، والجهد المبذول دون سآمة ، وحين تتعاضد كل القوى التي ترتفع عليها قواعد الحق ، وتستوي على سوقها - من خلال ذلك - البنية الحضارية .

وتبرز أهمية ذلك أكثر وأكثر يوم يكون احساسنا بواقع البعثرة والتآكل الذي نعاني منه صحيحاً يجعل من ألوان الهدم التي أصابت الأمة في هذا القرن ، وجعلت المسلم في كثير من بقاع الأرض مغلوباً على أمره ، يحكم بالتعسف والهوى . . منطلقاً إلى لم الشتات ، وإغناء المخاض الذي يسود



حاضر العالم الإسلامي اليوم، وتحرير الأسس التي يعتزم الرواد أن يستأنف عليها البناء، مما يوجب -بالضرورة- تصنيف قُدر الأمة وطاقاتها البشرية والمادية، وكيف توجه بعناية، وتوضع من خلال الدراسة والتقصي في ميادين العمل المثمر، ليكون الناتج في كفة الرجحان التي تضمن قوة متجددة تستطيع أن ترتقي بالعالمين إلى حيث يجب أن يكونوا.

والإحساس بالواقع الذي نشير إليه، لابد أن يصحبه تقويم ما أصاب الأمة من البله أو التباله -على يد بعض أبنائها- في تحديد موقعها من الآخرين. وموقع الآخرين منها، حين ضربت صفحاً عن واحد من مرتكزات التعامل مع فئام من الناس لا يكفون عن أذاها في الحاضر، كما لم يكفوا في الماضي، وجنت من وراء ذلك الصاب والعلقم، ذلك المرتكز هو قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. هذا المرتكز الذي قبح الله عمل من يخالفونه -لمرض في قلوبهم- بتعللات فاسدة باردة، هي خشية أن يصيبهم أذى. مما يحملهم على المساومة والعياذ بالله ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

وهذا الذي نقول لا يمكن أن يضطلع به على ساحة التصور والشعور، وفي ميادين العمل والبذل والجهد إلا أولئك الصفوة الذين تُعدُّهم الأمة

على نهج يصلهم بما كان عليه أولئك الذين تقدموا الركب في صناعة تاريخ الأمة وقال الله تعالى فيهم: ﴿رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظَرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ وذلك أثر من آثار بناء الإنسان، على النهج الرباني كما أسلفنا من قريب .

هذا: علماً بأن أعين الآخرين مفتحة، واليدان: يد على الراصد ترصد كل حركة من حركات الأمة في كل قطر من أقطارها وتزنها بميزان مصالحهم القريبة والبعيدة كما تطالعنا أنباء كل صباح، وما يخفى أعظم مما يظهر بكثير . . ويد على الزناد تطلق النار نار الموت بواسطة أو بغير واسطة، على كل من يمكن أن يقولوا في وجه الخسف يسامونه: «لا» ذلك أن إرادة الأقوياء -على زعمهم- هي الإرادة، أجل: إنها إرادتهم وكفى، فإذا أرادوا كان على العالم أن يريد، وبخاصة أبناء الإسلام الذين يأخذون حجماً كبيراً فيما يسمونه دول العالم الثالث، ومن خلال ذلك يصبح الوعي الذي يريده الإسلام لأبنائه جريمة . . أي جريمة!!

كما أن التاريخ يجب أن يكون واحداً، إنه تاريخهم وحسب، فإذا أشرق أشرق الدنيا، وإذا أظلم أظلم الوجود!!

من أجل ذلك يجب أن يكون الوجود وجودهم، ومهما تسلط على الآخرين من ألوان العنت والإرهاق بل والإفناء، فليس ذلك شيئاً يذكر، ما دام الذين يتلاعبون بمقدرات الشعوب على حال من الوجود الذي يرتضونه في ميادين السياسة والاقتصاد والفكر .



أي شيء في أن يموت الألوف أو عشرات الألوف!! أية مخالفة في أن تغتصب الأرض ويطرد أهلها، ويحكموا بسياط التصفية الجسدية والتمزق النفسي والضياع القاتل صباح مساء.. ما دامت شعارات الحرية الكاذبة وتماثيلها لم تصب بسوء، وما دام العتل الكافر في الغرب والشرق، يتمطى على أريكة الحكم المتجبر، ويرطن بلحن العبث العاثر هنا وهناك..

ولم كل ذلك؟ نقول لمن يعجب: أن الشعوب في نظرهم - ونحن نعني ما نقول - لم تبلغ سن الرشد، ولن تبلغ.. العالم إسلامي كله ولينا نعيها كما ينبغي - لا وزن له في نظر من يوالون إسرائيل وكل أعداء أمتنا في العالم، إلا بمقدار ما يحقق من أغراضهم السياسية والاقتصادية ضمن المؤشرات الدولية المعلنة وغير المعلنة!! لذا كان لزاماً أن تنصب خيرات هذا العالم في نهر حياتهم كيفما يشاؤون، وبالقدر الذي يطلبون، وأي التفاتة إلى غير ذلك، معناها الخروج على إرادة من لا يصح الخروج على إرادتهم، لأن ذلك يعني توقف عجلة الحياة!! ويا للنكبة..

أما اليهود ومن على شاكلتهم: فهم أناس متحضرون، جديرون بالحياة، لا يصدر عنهم إلا ما يليق بصحيح نسبتهم إلى القرن العشرين!! وأكثر من هذا، إنهم في صراعهم مع هذه الأمة يمثلون قمة الصراع بين حضارتين، إحداهما حضارة هذه الأمة المسلمة بما لها من وجود عبر التاريخ، يخابون أن يعود.. والأخرى حضارة الغرب.

وكان من نتيجة ما نقول بشأن هؤلاء وأولئك من الأناسي، إنهم يفعلون

كل الأفاعيل عدواناً على الإنسان والقيم، وتجاوزاً لأبسط أخلاقيات الشعوب، ويدعون ذلك حضارة وتقدماً، وإذا صدر عن أمتنا أي شيء، محاولة لاسترداد الحق أو الحقوق المغتصبة من قبل الأعداء، أو دفاعاً في وجه الظلم والطغيان، كان ذلك همجية على طريق أدعياء التحضير وعدواناً على حقوق الإنسان. نقول هذا والناس يكادون ينسون واحدة من مظاهر الرقي عند اليهود وهي حريق الأقصى قبل عشر سنوات!! أجل يكادون ينسونها في خضم ما يصنع هؤلاء اليهود كل لحظة على الصعيدين العسكري والسياسي. . وفي بحران ما تقوم به بعض الدول والهيئات الدولية من تأويلات كلها جناية على الحق وأهله، حيث تغط المبادئ والشعارات التي تملأ الملفات والكتب والنشرات في نوم عمق جد عميق!!

وعلى هذه الدروب الشائكة تطالعنا الضجة الكبرى من قبل الدول التي تقيم من نفسها وصية علي العالم، حول إمكانية امتلاك باكستان القنبلة الذرية، والعمل على الحيلولة دونها ودون أن تنتج هذه القنبلة، حتى بالتهديد والوعيد السافرين!! الأمر الذي لم يحصل هو ولا قريب منه لغيرها كما هو معلوم. . ولكن أليس من الغريب أن نعجب لهذا مع ما بين عبادة البقر والنار والشجر والحجر وبين عبادة الله الواحد من فروق؟

ومن قريب حملت الأنباء أن وزارة الخارجية الباكستانية استدعت السفير الأمريكي في إسلام آباد وأبلغته قلق حكومتها بشأن ما ذكر من أن الولايات المتحدة ستقوم بعرقلة برنامج باكستان النووي السلمي، وكان قد نشر أن



حكومة السفير ترمع القيام بعمليات تخريب للحيلولة دون أن تنتج باكستان قنبلة ذرية . كما حملت الأنباء تصريحاً لوزير الدفاع الباكستاني أن باكستان لن تدعن أمام أية ضغوط أجنبية فيما يتعلق ببرنامجها النووي . . ووصفت معارضة واشنطن بأنها من قبيل «التفرقة في المعاملة بين الدول» .

وفتش في هذه الواحدة من الخبائث أيضاً عن دور اليهود في تعزيز الضجة والتهويل ضد باكستان . . ولكن لم لا؟ والإسلام . . الإسلام هو العدو الأول لليهود وأعوانهم والكفر وسدنته . . وكل الذين يباركون جرائم يهود واغتصابهم، وما يرتكبون صباح مساء ومن مآثم . . يخشون من صلة باكستان بالدول ذات العلاقة بمشكلة فلسطين، لأنهم يعلمون موقع الدولة الإسلامية من هذه المشكلة، فالحقيقة أن في عنق كل مسلم على وجه البسيطة أمانة الجهاد بما يملك من وسائل الجهاد حتى تتحرر أرض الإسرائ وما حولها من رجس الصهاينة مخلب اليهودية الذي يسقى بالرجس في كل آن . . وما أكثر ميادين الجهاد إذا وجد المنقادون لأمر الله ورسوله بالجهاد .

وفي عود على بدء : أن الذي تنتظره الأمة جيل يرتفع إلى مستوى المواجهة حيث التحديات الشرسة المجنحة من هنا وهناك ، وإن الجيل لا بد أن يكون من أول مقوماته وخصائصه إقبال على الجهاد في سبيل الله حيث اليد التي تحمل السلاح بحرقة وشوق إلى الجنة ومن وراء اليد عقل مستنير وقلب مشرق بالإيمان والاخلاص وعبثاً نحاول أن نواجه التحديات بلا إنسان . . بلا إنسان -على صعيد عالمنا الكبير- يحس بحريته وكرامته، ويهرول إلى

المعركة بحافز الإيمان، مبتسماً للموت ابتسامة خبيب وقتيبة والمثنى، يضيء جبينه شعاع من قول الله الغالب على أمره ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

وقول إمام المجاهدين -صلوات الله وسلامه عليه- فيما صح عنه: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا ومع عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة، خير من الدنيا وما عليها». «ما أغبرت قدماً عبد في سبيل الله فتمسه النار». «ما من مكلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة، وكلمه يدمى، اللون لون الدم والريح ريح المسك».

وهنيئاً لأحباء الله المتقادين لأمره وأمر رسوله جهادهم في كل ميدان، وصبرهم على لأواء الطريق، ويا نعم ما يلقون في الجنة دار الكرامة من الرضى والفوز بلقائه سبحانه، في منازل الشهداء والمكلمين في سبيل الله.

وأحباء الله هؤلاء الذين يستبشرون ببيعهم الذي بايعوا به، إذ اشترى الله المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة. . إذا لم يغبطوا على جزيل العطاء وواسع الفضل، فمن هم أولئك الذين يغبطون؟ ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿. ولله الأمر من قبل ومن بعد والحمد لله رب العالمين.



بين الحقائق .. والأوهام^(١)

يدور الزمن ، وتطرح الحوادث نفسها على طريق الأمة هنا وهناك بأسباب منها القريب ومنها البعيد ، وتنشأ عن ذلك متغيرات قد تكون في صالح الأمة وقد لا تكون .

والمهم في الموضوع : إنه تبدو من خلال هذا كله - ما ظهر منه وما خفى - حقائق يجدر أن نتعامل معها بنظرات صائبة ووعي عميق ، فلا يضيع الناس في متاهات التخبط والتمزق ، ولا تقلب المفاهيم ، كما لا تفوت الفرص التي يفترض أن نغتنيها ، وتوظف على طريق المواجهة الذي طلق المهادنة طلاقاً لا رجعة فيه فيه .

إن التعامل مع الحقائق بشجاعة ووضوح ، هو الكفيل - بإذن الله - أن يدع الأمة تتبين أمرها فيما هو واجب على ساحة التصور والإعداد وتقويم القضايا بكلياتها وجزئياتها ، وما هو غير واجب . . وفيما يبدو لازماً أن تكون معه ويكون معها ، تصحبه وهي تعمل على رد الأمور إلى نصابها ، واستنقاذ وجودها الذاتي على أرضها من بين براثن الأعداء . . وعلى العكس فيما يبدو لازماً أن تجتثه من حياة أبنائها ، وأن تنأى عنه ، وتقطع ما بينها وبينه من أسباب صنعتها ظروف منكوسة ، وملابسات شبه لبعض الغافلين إنها تنتسب إلى الخير .

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثالث ، السنة الحادية والعشرون ، ١٤٠٠ هـ جمادى الأولى ، ١٩٨٠ م نيسان .

وبذلك تكون هذه الأمة على المحجة البيضاء ، فيما يلزمها من أعداد القوة -كما أمر الله- وحشد الطاقات في ظل راية الإسلام ، ومن أجل الوصول إلى الهدف في ضوء التعامل مع تلك الحقائق .

يرافق ذلك تدرج على سلم الأولويات يحكم صاحب العقيدة ، وموضوعية في تصنيف الاهتمامات يحسن بالمسلم أن يكون وقافاً عندها . .
علماً بأن أحداً لا يستطيع إيقاف عجلة الزمن ، وطلوع الشمس من مغربها علامة كبرى من علامات الساعة التي تؤذن بزوال هذا الدنيا .

أما الالتفات عن الحقيقة -أو الحقائق- طلباً للعافية من تكاليفها : أو تغاضياً نفسياً عما هو عكس المراد ، فأمر يجر المتاعب ، ويوقع في المصاعب ، وكثيراً ما يكون سلاحاً ماضياً يوجه إلى الصدر ، ذلك لأن الأمة في مثل هذه الحال ، تكون هنا . . وما تقتضيه مواجهة التحديات في أعبائها ومسؤولياتها هناك !! وهل بعد هذا الضياع من ضياع؟؟

أقول هذا ، لأنه كثيراً ما تطرح الرعبات العميقة في داخل النفس الأمارة بالسوء أموراً سلبية ، وأحكاماً تتشاءب ، ليس لها وجود حقيقي على الساحة ، ولكنها انعكاس تلك الرغبات ، فإذا سار التعامل مع الوقائع من هذا المنطلق كانت الطامة .

يستوي في ذلك ما يطرحه التفاؤل ، وما يطرحه التشاؤم ، لأن كل ذلك مصروف عن أن يكون من الحقيقة في شيء .



وأدع للقارئ الكريم أن يختار عينات من واقع المسلمين في ديارهم، أو حيث يكونون أقلية في بلاد الكفر، بدءاً من أوائل القرن الرابع عشر للهجرة وانتهاءً بما هو جار على الساحة هنا وهناك اليوم.

ولسوف يرى أن عنصر المخالفة بين الحدث على الصعيد الدولي أو غيره، وبين ما كان واجباً أن يصنع، إنما جاء في أكثر الأحيان من سوء التعامل مع الحقائق، أو استبدال أو هام مصنوعة بها.

وتصور معي ما يؤول إليه الأمر، حين تكون قضية مصيرية ما، تتعلق بكيان الأمة عموماً. أو بجانب من جوانب وجودها الذاتي في الفكر والأرض مثلاً، ولا يُعامل من أجلها مع الحقائق. الحقائق التي لا تنسى معها المواقف دولية كانت أو غير دولية، الحقائق التي لا تنسى معها العقائد وما لها من انعكاسات، الحقائق التي تعطي أن السلوك لا يتجزأ، وأن مواجهة الوقائع بلا ذاكرة خسران مبين..

ولقد يكون مفزَعاً حقاً: أن يحل محل الحقائق أو هام يطرحها حب العافية، أو نسيان أن الله ينصره -ومن أصدق من الله قليلاً- أو بعض الرغبات والرهبات المختزنة في اللاشعور، فيجري التعامل مع تلك الأوهام.. أو يحصل التعامل مع واحدة من الحقائق، ولكن دونما عين مبصرة، أو بصيرة مستنيرة بنور الله، أو دونما رغبة صادقة في العمل، وشجاعة في تحمل المسؤولية وما تفرض من مستلزمات وتكاليف.

إن كثيراً من النتائج التي أصبحت ركائماً على طريق الأمة في عالم الثقافة والفكر والتشريع، وأصول البنية الحضارية على وجه العموم، يكمن العديد

من مقدماتها في هذا الذي نشير رليه ، لأن الأمة تبدلت التبعية ، بالأصالة ومقومات الوجود الذاتي ، ورضيت بالقعود والاستخذاء . . وأين هذا الخزي من البذل والتضحية والجهد في سبيل الله . . وهل يستوي المتثاقلون إلى الأرض والذين ينفرون خفافاً وثقلاً ويجاهدون في كل ميدان !!

من أجل ذلك ترى على صعيد الواقع - وإن كان الضياء يزحف والحمد لله يوماً بيوم - أن الرواد في العديد من النماذج والصور ، بدلاً من أن يبنوا البنة تتقضى أوقاتهم في ترميم ما يحصل من انهدام ، ودرء ما يمكن درؤه من مفاسد جلبتها تلك المقدمات .

وهكذا يبدو في ضوء هذه المقولة التي لها من الواقع ما يشهد لها بعمق وأسى ، أن على الأمة ممثلة في الرواد من أبنائها ، والمخلصين المؤتمنين على رسالتها . . إن تواجه ما يبرز على الساحة في العالم الإسلامي ، أو في أية بقعة من العالم يوجد فيها مسلمون مستضعفون . . إن تواجه ذلك بشجاعة المؤمن المجاهد ، وأن تنظر إليه بعين واعية في ظلال المنهج الرباني . . وذلك من أجل أن يكون تعاملها مع الحقائق حيث تتضح الرؤية وتبين المسالك ، لا مع الأوهام حيث تشعب السبل ويؤول الأمر إلى الانتكاس والاستخذاء .

ومن أجل أن تحسن التعامل مع كل حقيقة نطق بها القرآن أو السنة أو استعلن بها الواقع من خلال التجربة والاستقصاء . وإلا ضاعت الفرصة ، وآلت واقعة الجارحة بل المدمرة أحياناً ، لتكون مقدمة بالغة السوء لواقعة أسوأ منها وهكذا دواليك . . ظلمات بعضها فوق بعض . . والله المستعان .



وإذا وضحت السبيل ، وسلمت المنطلقات . . فلن يكون هنالك تهوين من شأن ما يجري على أرض كذا ، أو ما أصيب ويصاب به جزء من عالمنا الكبير في بقعة كذا من أرض الإسلام ، فيضام المسلمون وإخوانهم عن ذلك غافلون . . أجل لن يكون ذلك بعون الله تعالى ، ولكن تقوم الأمور بحجمها وأبعادها ، ونسبتها من الوجود الحقيقي للأمة في ظل إخوة الإسلام التي عقدها رب العزة جل جلاله من فوق سبع سماوات . . كما تقوم بعد ذلك بما تأخذه على ساحة الواقع كما هو في حدوده وأبعاده .

وعند ذلك ، لن يكون هنالك بالمقابل اغراق في التشاؤم يوحى باستحالة القدرة على مواجهة هذا اللون من التحديات . . والجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة .

وهكذا بدلاً من الفرحة العابثة ، أو الحزن القاتل ، يملأ الوقت بالأعداد والاستعداد وتلكم هي أولى مهمات المؤمن بوصفه مؤمناً ، أعطى ربه الموثق من نفسه على الإيمان والعمل والجهاد ساعة استضاء قلبه لكلمة التوحيد « لا إله إلا الله محمد رسول الله » .

هذا : وما كان لي أن أقول الذي كنت بسبيله ، لولا أن كل الآيات والأحاديث التي كانت ترسم معالم الطريق للأمة في العهدين المكي والمدني للرسالة الخاتمة ، توضح بما لا يدع ريباً لمستريب ، أن على المسلم أن يتعرف على الحقيقة ويتعامل معها على هدي إيمانه بعيداً عن البله والغفلة ، أو الاغترار بما قد يطرح من زخارف وتمويهات .

كل ذلك من أجل أن يكون على الجادة فيما يريد أو لا يريد، ثباتاً على العقيدة، وانطلاقاً واعياً لا يحيد عن سبيلها ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ووضوحاً في الرؤية، وممارسة جادة لشؤون الرسالة على الصعيد الحضاري ومواجهة التحديات.

في خاتمة المطاف: أن اليقظة تطل تباشيرها من خلال المصاعب والحروب المعنلة وغير المعنلة على هذه الأمة، في فكرها وأرضها بل ووجودها. .
والحمد لله على كل حال.



عودة إلى رحاب البيت^(١)

لقد شاء الله -بعظيم حكمته- أن تكون أحكامه التي شرع لعباده طرائق للتقوى والفلاح ، وأن يكون هؤلاء العباد بما أبتعث فيهم من رسل ، وما أنزل من كتب ، على بينة من أمرهم في هذه الدار التي هي مزرعة الآخرة ، وميدان التسابق ؛ فكلٌ يعمل على شاكلته ، والفائزون الفائزون هم أولئك الذين يدركون حكمة الحكيم فيما خلقهم لأجله ، وهو سبحانه لا يظلم مثقال ذرة في الأرض والسماء ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ ١٨ ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ .

وكان الله جلَّت حكمته ؛ قد جعل من فريضة الحج بما تضم في ثناياها من شروط وأركان وواجبات ومندوبات ، عنواناً على أمانة هذه الأمة فيما ورثت من ملة التوحيد ملة إبراهيم -عليه السلام- ، وتعظيم الله العظيم في بيته الحرام الذي جعله مثابة للاس وأمنأ ، ومائدة من موائد الخير الإلهي ، حيث يتجلى المولى سبحانه -وهو غافر الذنب وقابل التوب- على حجاج بيته برحماته ، فيستجيب دعاءهم ، ويغفر خطاياهم ، ويعطيهم عطاء القدرة والفضل والإحسان ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعية، الأعداد الثامن والتاسع والعاشر، السنة الحادية والعشرون، ١٤٠٠هـ شوال - ذوالقعدة - ذو الحجة ، ١٩٨٠م إيلول - تشرين ١ - تشرين ٢ .

وإنك واجد في كل شعيرة من شعائر الحج وفي كل منسك من مناسكه، حلقة من حلقات البر، كأنها روضة من رياض الجنة يرتع فيها المؤمن، فلا يكاد يفرغ من واحدة هنا حتى يسعد بتالية هناك.. وهكذا دواليك؛ وعندما تقول: عطاء الكريم المنان.. فلا بدع ولا غرابة، وعندما تقول: إحسان ذي الجلال والإكرام: فحدّث ولا حرج، فالكل في رحاب بيته، ومن دخل بيته كان آمناً.

ولئن كان الحج فرصة نورانية يبث فيها المؤمن أشواقه وتطلعات قلبه التي يمدّها حب صادق لمولاه، بما يكون من دعاء خاشع مبلبل بالندى، ودموع حرّى يسكبها أهل المحبة الذين تذوب قلوبهم شوقاً إلى البيت حباً برب البيت.. لئن كان الحج بهذه المثابة من هذه الناحية، أن في كل لحظة من لحظات تلك الفترة الزمنية المباركة، عطاء إلهياً يحسّه ويتذوقه أولئك الذين تفتحت قلوبهم للنفحات، وانجلى عن بصائرهم ران الغفلة، وتسربلوا ثوب العبودية الخالصة لمولاهم في حقيقة الضرع والافتقار، كما تجردوا عن المخيط وتوشحوا ملابس الإحرام التي جاءت بها شرعة المصطفى -عليه الصلاة والسلام-.

وتنبئها على المعاني الرائعة، التي تأخذ بالحاج من نفسه وعاداته، ومألوفاته، وما كان من شهوات ومغريات وتطلعات تأخذه كليةً إلى مولاه، تستنقذه من الوهدة، تحرك مشاعره نحو ربه الكريم خالق الأرض والسموات، نقول: تنبئها على هذه المعاني جاءت الشرعة بذلك الشعار



السماعي العلوي : «لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك» وصحت النصوص بالحث عليه والدعوة إلى الإكثار منه مع رفع الصوت بهذا الاهلال ، والاعلان البالغ الفردي والجماعي ، وحملت إلى المسلمين الكثير من البشائر على ذلك . فعن أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- «أن رسول الله سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : العجَّ والثَّجُّ» . وعن سهل بن سعد -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : «ما من ملب يلي إلا لبي ما عن يمينه وشماله من حجر ، أو شجر ، أو مدر ، حتى تنقطع الأرض من ههنا عن يمينه وشماله» . وفي الحديث الصحيح عن جابر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : «ما من محرم يضحي لله يومه يلبي حتى تغيب الشمس ، إلا غابت بذنوبه فعاد كما ولدته أمه» .

كل هذا لما أن هذه التلبية التي تنطق بالإستجابة الخالصة معلنة واضحة لله عز وجل رب هذا البيت الذي يقصده المسلمون من كل فج عميق حجاجاً ، ومعتمرين ، من أعظم دواعي التأثير على النفس في تنبيهها إلى مقتضيات الإيمان ، وإيقاظها لمقاصد الحج التي من أجلها -والله أعلم- جعله الله ركناً من أركان الإسلام ، وتزويدها يزداد جديد من حرارة الإيمان ، وعزيمة التخلص من الشوائب ، والقدرة على تجاوز المعوقات ، التي تحول بين المؤمن ، وبين أن يكون حيث أراد الله له أن يكون ، عقيدة وعملاً وأخذاً بكل الأسباب التي فيها يقظة الفرد ، ومنعة الأمة وحصن الإسلام . ولك أن تقول

بدموعك ، أو تكتب بحرقك وأشواقك وحنانك ، إن المفروض بالمسلم عندما يهل بقوله : «لبيك اللهم لبيك» أن يصبح كأنه إنسان آخر ، فهو يخاطب سمعياً بصيرا ليس بينه وبينه حجاب ، يخاطبه خاشعاً لجلاله ، خاضعاً لسلطانه ، معترفاً بتقصيره وزلاته ، طامعاً بغفر الزلات ، وغسل الخطيئات ، فتثور الأشواق ويغلي فيها الدم والعروق ، ويفيض الحنان ، ويتحول الكلام إلى دموع ، ويزيد ما في القلب من هيمان ، حتى كان هاتفاً من الملاء الأعلى يرتل في أعماقه «يحبهم ويحبونه» يرتلها ويزيده من جمالها وروعتها وعدوبتها حتى يعيش في ظلها بل معها ، وذلك طبه ودواؤه ، ونواله إلى يوم يبعثون . وهذا الذي تراه أو تقرؤه في أعين أولئك الذين سعدوا بهذا الضياء الخاشع ، يجعل من الحاج إنساناً قادراً على التلقي في كل حركاته ، وتنقلاته وتصرفاته ، لما أنه مظلل بذاك الجو الروحاني الذي ملك عليه منافذ الرؤية والحس وأحاط به ، حتى غدا وهو من بشائر الجنة لأهل هذه الأرض .

وإذا كانت التلبية تبدو وفي بعض مضمونها هذا الخير الذي نشير إليه بالخاطف من الحديث ، أن كل منسك من مناسك الحج - كما أسلفت - روضة من رياض الجنة ، وطوبى لمن كان أهلاً لأن يرتع في رياض الجنة ، طوبى له وحسن مآب ، ويا حسرة على أولئك الذين يخسرون ما في جيوبهم ، ويؤوبون من تلك الديار وقد خسروا مع المال حسن المشوية ، فكأنهم لم يدروا لماذا حطوا ولماذا ارتحلوا . ونحن بهذا لا نتألى على الله



تعالى فهو الرحيم الرحمن ، وهو المعطي الغني القادر الذي لا تنفذ خزائنه من العطاء ، ولكن الذي تعطيه نصوص الشريعة أن رحمات الله لا بد للمرء من أن يتعرض لها ويفتح قلبه لتنزلاتها ، ويحمل نفسه على الصعود والمرتقى ، حيث المغفرة والرحمة والعطاء .

ولعل في تعدد تلك المناسبات والشعائر ، من طواف حول البيت ، وسعي بين الصفا والمروة ، ووقوف بعرفة ، ومبيت بمزدلفة ، ورمي للجمار ، وتلبية ، ونحر ، وشد الرحال إلى مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - والصلاة فيه وزيارته - صلوات الله عليه والسلام وعلى أصحابه ، والصلاة والدعاء في مواطن أجابة الدعاء ، وسفح العبرات حيث تسفح العبرات ، والتذلل والخضوع حيث يطلب التذلل والخضوع ، والصبر على تغيير العادات والمألوفات ، والتزام سبحانه . لعل في ذلك كله - وغيره كثير - باباً من أبواب التيسير على المسلم كيما يلج - في جو من حرمة الزمان والمكان - إلى ساحة المبرات والرحمات ، هذا المنسك هنا ، وذاك المنسك هناك ، خصوصاً إذا حرص على أن يكون الأداء على الطريقة التي أداها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم حج حجة الوداع وقال - صلوات الله عليه - وهو يقوم بالمناسك رسولاً مبيناً ، وإماماً معلماً : «لتأخذوا عني مناسككم» .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما على المسلم إلا أن يصدق الله نيته ، ويخلص إليه قلبه ووجهته ، كيما يكتب له أن يكون في عداد أولئك الذين يحفهم الرضا ، وتغمرهم محبة الله ، فكلما قام بعمل من أعمال هذا الركن

العظيم، خطا خطوة مباركة إلى ذلك المقصد المبارك الميمون، وهو في خير، بدءاً من عزمه على المسير، إلى أن يعود إلى بيته مقبول العمل مغفور الذنوب، عازماً على أداء ما عليه من حقوق العباد.

ففي الحديث الذي أخرجه الطبراني والبخاري من رواية ابن عمر -رضي الله عنهما- عن مجيء الرجلين الثقفي والانصاري إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو في مسجد منى، يقول رسول الله مجيباً الانصاري عما أراد سؤاله قبل أن سأل «فإنك إذا خرجت من بيتك تؤم البيت الحرام لا تضع ناقتك خفاً ولا ترفعه، إلا كتب الله لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام. وأما طوافك بين الصفا والمروة: كعتق سبعين رقبة، وأما وقوفك عشية عرفة: فإن الله يهبط إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة، يقول: عبادي جاءوني شعثاً من كل فج عميق يرجون رحمتي، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل -أو كقطر المطر أو كزبد البحر- لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفوراً لكم، ولمن شفعت له، وأما رميك الجمار: فلك بكل حصاة رميتها تكفير كبيرة من الموبقات، وأما نحرك: فمذخور لك عند ربك، وأما حلاقتك رأسك: فلك بكل شعرة حلقتها حسنة، ويحى عنك بها خطيئة، وأما طوافك بالبيت بعد ذلك: فإنك تطوف ولا ذنب لك، يأتي ملك بضع يديه بين كتفك فيقول: أعمل فيما تستقبل، فقد غفر لك ما مضى». وفي شأن استلام الركنتين الحجر الأسود والركن اليماني وتكفير الخطايا بذلك: أخرج الإمام أحمد والترمذي -واللفظ لأحمد- عن عبد الله بن عبيد بن عمير -رضي الله عنه-: أنه سمع



أباه يقول لابن عمر -رضي الله عنهما- : مالي أراك تستلم إلا هذين الركنين : الحجر الأسود والركن اليماني : فقال ابن عمر : إن أفعل فقد سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول : «إن استلامهما يحط الخطايا» .

وضمن عدد من الأحاديث في فضل ماء زمزم يقرأ ما رواه أبو ذر -رضي الله عنه- أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : «ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم» .

هذا قليل من كثير من الآثار الصحيحة الواردة في الباب ، ومبتغاناً من هذا الذي نشبته هنا ، أن يكون لنا -نحن المسلمين- من الأدراك لعظيم منة الله فيما أوجب ، ما يجعلنا على صعيد الفرد ، والأمة ، على تفاعل صادق مع الذي شرع الله من أحكام ، كيما يكون في ذلك العلاج الناجع للأسباب التي أودت بالأمة إلى ما هي فيه ، حتى سلط عليها أذل أهل الأرض . فالفرد -في تفاعله واستجابته الصادقة للشرعة والاحكام- يخرج من ابتلاء الالتزام والتطبيق وهو أكثر صفاء ، وأوفر قابلية لما فيه سعادة نفسه ، وتفتح قلبه ، لما أن أشواقه وتطلعاته قد صادفت موطنها الأمين ، ولما أن كأس حبه وحنانه قد فاض على الاعتبار في هاتيك الديار دموعاً لها ما لها في ميزان القبول .

فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال : استقبل النبي -صلى الله عليه وسلم- الحجر ، ثم وضع شفتيه عليه يبكي طويلاً ، ثم التفت فإذا هو بمعمر بن الخطاب يبكي ، فقال : «يا عمر ههنا تسكب العبرات» .

والفرد الذي يصقل هذا الصقال في ظل الأوامر والنواهي، يغدو، وهو أقدر بلا ريب، على أخذ مكانه من الصف في خدمة أمته، وسلوك ما به يكون لبنة صالحة في بناء الأمة المسلمة التي تبرهن في فكرها وعملها يوماً بعد يوم، على أنها جديرة بالخطاب القرآني قبل أربعمئة وألف عام ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

أما على صعيد الأمة: فلا والله لن يرد الله حجاج بيته خائبين إذا دعوه، ولن يعرض عنهم إذا أقبلوا عليه، ولا والله لن يطول الأمد حتى يمكن لهم الدين، وليبدلهم بعد الخوف أمناً، وبعد ضعفهم قوة وسلطاناً. ولكن الأمر يكمن في أن تكون الأكف الضارعة صورة لقلوب أيقنت بالإجابة، وشريكة أيد أسهماً بالعمل والأخذ بالأسباب. إن الذي ينقص المسلمين اليوم - في كثير من ظواهر المرض في جسم العالم الإسلامي - أن تفيض القلوب بتلك الحرقعة الصادقة مما حل ويحل بالأمة من كوارث تذيب الحجر الأصم، أن تكون العيون مؤرقة تستعصي على الرقاد مما يرى المسلم ويسمع، ويقرع قلبه ولبه صباح مساء، أن تتجافى الجنوب عن المضاجع، وتهزأ النفوس بالراحة، وتستعلي على طلب العافية، لوناً من ألوان تثبت الأقدام على أول الطريق، دوغماً مواربة أو محاورة أو مداورة.

وما كان للمسلمين أن يغفلوا، أو يتغافلوا عن الحقيقة التي يجب أن تأخذ حيزها الطبيعي من تصورهم وتفكيرهم، أل وهي عدم الانفصال أو التجزئة في نظرة المسلم إلى كيان الأمة في الفكر والزمان والمكان.



إن وفود بيت الله، في دعائهم وتضرعهم، وخشوعهم، يمثلون أصدق صورة لإذابة الفوارق أمام العقيدة، فالله تبارك وتعالى عندما يستجيب لا ينظر إلى صورهم وألوانهم، ما دامت لغة الإيمان لغتهم، وما دامت القلوب عامرة بالسكينة والنور، مشرقة بالطمأنينة لصدق وعده سبحانه في إجابة دعوة المضطر وإغاثة الملهوف، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾.

وإذا كانت كارثة الأقصى وما حوله، تنزل بكل كرها رهيب على صدر هذه الأمة أن رب البيت الحرام الذي تؤمه اليوم مئات الألوف، ملية داعية مكبرة، هو رب المسجد الأقصى، فليكن هذا في ضمير المسلم عندما يرفع كفيه بالدعاء، وأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عندما حدد أفضلية الصلاة في بيوت الله، جعل الأقصى ثالث ثلاثة بعد المسجد الحرام ومسجده. وهو -عليه الصلاة والسلام- دليل ما يجب من التكامل في نظرة المسلم إلى المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، على ما لكل منها من الفضل الذي نؤمن به في حدود توقيف الشارع. هذا إلى أن النظرة إلى البيت العتيق لا بد أن تشد المسلم إلى تذكر الأقصى مسرى رسوله الله ومعرجه.

وحرام أن تكون العبادة في نظر المسلم رسوماً وأشكالاً مقطوعة النسب عن الحياة التي أرادها الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. إن على المسلم التزام كل ما أمر به الشارع، مع تصور

سلامة التفاعل بين العبادة وما يمكن أن تؤديه في حياة الفرد والأمة، بما يكون من انعكاس آثارها العملية الطيبة على حياة الأمة وواقعها، كيما تكون هذه الأمة في حركة دائبة صاعدة، تنأى عن الجمود القاتل، والوقوف الذي لا يعني إلا الموت، ولعل هذا بعض أسرار قوله: ﴿يُحْيِيكُمْ﴾.

لقد كان مبكراً تنبه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى بلاد الشام وما فيها وما يمكن أن تؤديه رسالة الإسلام على أرضها، حين حمل عبء المسير بجيشه اللجب من الحجاز إلى تبوك، وخبر الرحلة القاسية العنيدة مأثور ومعروف. فإذا أضفت هذا إلى تجهيزه لجيش أسامة وعقد الراية له بيده، وما كان من قبل، من معجزة الإسراء والمعراج في ربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، أدركت كيف يجب أن يكون دعاء المسلم عندما يدعو رب البيت العتيق والأقصى، وأن الدعاء لا بد أن يرافقه العمل، وكيف يفترض أن يكون شعوره عندما يسلم على المصطفى - صلوات الله وسلامه عليه - الذي بلغ الأمانة، وأدى الرسالة، ونصح الأمة وكان من أمره ما كان مع يهود، ثم ما كان من يقظته النبوية بالنسبة إلى ديار الشام، بجانب إكرامه الله له بمعجزة الإسراء والمعراج، وعندما يسلم المسلم على الصديق أبي بكر لا بد أن يذكر صنيعه بجيش أسامة وحرصه على أن لا يحل راية عقدها رسول الله - مع ما كان من ليل الردة البهيم، وما تطلبت من معارك ورجال - حتى كانت واقعة اليرموك التي غادر الحياة رضوان الله عليه ولما تنته بعد.



وعندما يسلم على الفاروق عمر بن الخطاب ، جدير به أن يذكر ما كان من أرقه رضوان الله عليه ومعاناته حتى فتح الله على المسلمين ودخلوا الشام ، وليذكر أن الأرض التي صلى عليها هذا الخليفة أمام كنيسة القيامة حين لم يرض أن يعمل عملاً يمكن أن يؤول إلى ضياع معبد النصارى من أيديهم ، ليذكر أن المسجد الأقصى وأن هذه الأرض يسرح ويمرح في أرجائها صبية يهود .

إن أمراً على غاية الأهمية في إيمان المؤمن وصادق نسبته إلى هذه الأمة ، أن يكون له مع كل دعوة ذكرى ، ومع كل تلبية تجسيد للحقيقة الماثلة التي تقض بمرارتها مضاجع الرجال ، ومع كل دمعة لهفة على واقع المسلمين ، وعزمة إيمانية جديدة على العمل الصادق الصابر المثمر في سبيل الله عز وجل .

وإذا كان هذا على صعيد الفرد ، فهو على صعيد الأمة أكثر أهمية وأشد ضرورة . إلا أن الله سائل هؤلاء المؤمنين الآمين بيته الخاشعين في رحابه ، داعين ملين ، عن عمل في سبيله يحرر الأرض ويطرده الغاصبين ، ولن يكون ذلك إلا بالحزم الحازم والكلمة الواحدة ، والصدق الذي لا يشوبه خداع ، والمواجهة الواعية للحقائق بكل ما يمكن أن يكون ثمن هذه المواجهة . وأن عقد الخناصر في رحاب الطهر والقداسة حيث البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً ، وحيث مثوى رسول الله ، وأصحابه البررة الذين أضأوا للإنسانية طريقها بدمائهم وتضحياتهم ، عقد الخناصر هذا

جدير أن يعمل عمله ، وأن يؤتي ثماره إذا صدقت النيات ، واقتحمت عقبة الأغراض القريبة الفانية التي لا تزن عند الله مثقال ذرة ، خصوصاً إذا ذكرنا ، أن نكتبنا - في تقويم صادق ينبعث من العقيدة والواقع - هي نكبة الأمة جمعاء على تنائي الديار واختلاف الألسنة والألوان .

إلا أن النسب صادق كريم بين كل مسلم على وجه هذه المعمورة وبين تلك الرمال وذيالك الثرى على أرض مقدساتنا .

إن النسب الكريم إلى الرمال والثرى صورة عن النسب إلى المبادئ التي أثبتت وجودها على هذه الأرض التي أنبثق منها نور الهداية ، واندفعت من أرجائها مواكب الدعوة ، وانطلقت موجات العلم والمعرفة والحق . وما كان لمؤمن ولا مؤمنة أدركوا ذلك تمام الإدراك ، أن يكون لهم الخيرة في الموقف الذي تمليه العقيدة وأحكام الإسلام .

ولن يضير هذه الأمة قوة في الدنيا ، إذا هي استأنفت الطريق ، وراجعت صيدها بأمانة وثقة ، واستمسكت بالحق الذي نزل به الكتاب ، وأوضحه بياناً وتطبيقاً نبيها محمد - عليه الصلاة والسلام - .

إلا أن على المسلمين - من كتب لهم الحج ، ومن لم يقسم لهم ذلك - أن يتخذوا من هذا الموسم المبارك ، فيما يحمل من قدسية الزمان والمكان ، وفيما يمثل من فرضية سنوية للملة يتميز بها المقصر من المدرك ، ويتسم الجميع بمظهر العبودية والمغفرة ، وفيما يفيض به من شعائر كلها بر وخير ، نقطة بدء سليمة لاتجاه إيماني سليم ، أن يحزموا أمرهم على العمل بما تقتضيه المناسك



والتلبية، في فريضة هي خامس خمسة في أركان الإسلام، أن يتجهوا إلى الله صادقين مبصرين، ودليل صدقهم استقامة على الطريق وأخذ بالأسباب في إعداد صادق بعيد عن الشوائب. وأن الله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمنا، هو القادر أن يهب هذه الأمة اليوم، ما وهب أسلافها بالأمس يوم أنزل فيهم آياته ترسم للطريق البعيدة معالمها، وتضع لها منارها الهادي فقال: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

إذا لم تستحي فاصنع ما شئت^(١)

إن للتاريخ باباً عريضاً دخله نور الدين وصلاح الدين ودخله عدد من عباد الله الفراعنة والطغاة ويمكن أن يدخله -على شكل مناسب!!- واحد من المتقزمين لا يريد نور الدين ولا صلاح الدين وإنما يعشق بيغن وأبا إيبان . .

أقول هذا وقد تكسرت النصال عليالنصال ، فأنا لا أدري من أين أبدأ الكلام ولا على أي شكل أدير الحديث .

غير أنني -على شدة وقع النبأ نبأ معاهدة السلام ، وعميق ما فعله من جراح -لم أفاجأ به ، وإن كانت لكل فتنة لوعتها ، ذلك أنني - مرة أخرى - منذ الرحلة المشؤومة إلى القدس المغتصبة الجريحة الأسيفة ، بت أتوقع كل ما لم يكن متوقعاً ، لأن بداية تبلغ هذا المبلغ من السوء والشناعة ، لا بد أن تنتهي إلى ما هو أسوأ وأشنع ، وما ذاك إلا لأن تلك الرحلة كانت عنوان الذلة والمهانة ، والتمثيل الحضاري!! الذي توحد فيه الكاتب والمخرج ، والمصنفق وصاحب الإعلان . . ثم كان السقوط في كامب ديفد ، وجاء من بعده الفصل الثالث من المأساة -وما أكثر فصولها ونقول (الثالث) تجوزا- وما أسرع ما لحقت به زيارة رئيس وزراء العدو إلى القاهرة ، لأن كل أصحاب (الزفة) يخافون على هذا الزواج ، الذي كان بشاهد أشقر واحد يريد أن

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الرابع، السنة العشرون، ١٣٩٩ هـ جمادى الآخرة، ١٩٧٩ م أيار.



يربح الانتخابات في بلده . . وما أدراك ما هذا الزواج ، إنهم يخافون أن تنزل الأرض من تحتهم فلا يتم ، وإن كان انتهاؤه إلى ما انتهى إليه لن يجعله مشروعاً بحال من الأحوال .

ولقد بات جلياً أن هذا الزواج غير المشروع قديم الخطوبة ، وكان موضع العناية والتحضير بشكل واضح بدءاً من ١٩٦٧م وبات ذلك أوضح فيما حصل من العبور في حرب رمضان ، ليكون صاحب الصفقة بطلاً لا يرقى رليه الشك عندما يشرع في المساومة والاستسلام ، فمئذ بن غوريون في عام النكبة ، حتى ليفي أشكول في عام الهزيمة ، وحتى غولدا ماير في عام العبور المؤقت الموقوت ، أو كما قال أدوارد شيهان العبور المخطط له ، والأمور تحضر بعناية ، فرأيت بعد العبور المخطط نوعاً من الاسترخاء ، والتخلف عن حقيقة المواجهة ، وأصبحنا نسمع ونرى بأن هذا كان آخر الشوط ، مع أن منطق الأحداث لو أخذنا بظاهر ما جرى ، يعطي أن من استطاع العبور وكسر القيد ، وأزال وهم أن إسرائيل لا تقهر ، قادر على متابعة الطريق . ولكن ظهر فيما بعد لكل ذي عينين أن وراء الأكمة ما وراءها ، وأن جهات معينة مرنت على أن تصنع أبطالها كما يصنع الصانع صحننا من خزف !!

والحمد لله إن لم يكن قبر صلاح الدين في القاهرة المعز ، إذن لذهب إليه صاحب مدرسة الإرهاب والتشبيث اليهودي ، ليقول له : عدنا يا صلاح الدين . . ولكن لسان حاله وحال من معه من أوضار البشر قائل هذا لكل ذرة رمل على أرض الكنانة ، ولكل شهيد روى ثراها بدمه ، بل ولكل عالم عامل قضى في سبيل توجيه الأمة إلى الخير .

الحمد لله . . ثم الحمد لله إن لم يكن في القاهرة قبر صلاح الدين ولا نور الدين ، لأن النشوة قد أخذت من الضيف غير الكريم مأخذها حتى صرح لكثرة ما رأى من تمايل الراقصين المتفعين تحت نجمة داود وعلم إسرائيل : الآن علمت أن أصدقائي في مصر أكثر من أصدقائي في إسرائيل .

ولقد يضيف هذه اللحظات إلى لحظات سعادته الأخرى التي أعلن أنها : لحظات إعلان الدولة ، والاستيلاء على القدس من جديد ، ثم توقيع ما أسموه معاهدة السلام !! لقد غنى أبناء جلدتنا لأعدائنا ، وصفقوا للجزار وسكينه بقطر من دمنا واشلائنا ولم تعباً الاختاتونية بكل ما حمل التاريخ في الماضي . ولا بما حمل منذ واحد وثلاثين عاماً على الخصوص وشاء المستهتر لنفسه أن يحمل لعنة الأجيال والتاريخ . . وأين ما نحن فيه : من شموخ قال في ظله واحد من شعرائنا ، في صدره بقية من إباء :

يريدون مني أن أغني باسمهم وأي هضم باسم أعدائه غنى

والآن . . بعيداً عن كل التحليلات السياسية والنتائج المتوقعة ، تاركين ذلك لأربابه المتخصصين اليوم : إن هذا الذي وقع بكل ما فيه من خزي ، إعلان صارخ في عقل أمتنا وقلبها ومشاعرها ، أن المواجهة اليوم أصبحت ذات حجم جديد ، وأن قدراً كبيراً من التهاون كان عاملاً في ازدياد حجم هذه المواجهة ، كيف وقد أعطى واحد من أهل الدار مفتاحاً للعدو ، وصلى الله وسلم على نبينا محمد بن عبدالله حيث يقول : «إن مما أدرك للناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستحي فاصنع ما شئت» .



فأي سلام هذا الذي يتردد على السنة السوء، بل أي عبث هذا، أية أضحوكة هذه التي تلغي تاريخاً، وتقلب مفهومات، وتنتهك حرمانات، وتخالف أبجديات الإسلام الأولى فيما رسمت من طبيعة علاقتنا باليهود، وتتجاهل أعماق الحقائق وأوضحها في حياة الشعوب، فلا حقوق، ولا أرض، ولا مقدسات ولا تاريخ، بل ولا إنسان، وأين الإنسان من هذا الذي هو الاستهتار كل الاستهتار!!

العتل رئيس وزراء العدو، لا يقضي أمراً - وكل أموره غطرسة وتعال وعناد - دون النواب والوزراء واللجان والمستشارين، وفي الجانب الآخر: فتش عن الإنسان ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾. ﴿وَمَا أَهْدِيَكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرِّشَادِ﴾. ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾. ثم أين السلاح وأمريكا تتعهد لرببتها إسرائيل بكميات من الأسلحة المتطورة تفوق الخيال.

والانكى من ذلك: أن الشعب كان وسيلة (باردة) للمساومة، ومظلة استخدمت للعبث، فهو - على زعم الاختاتونية والرعمسيسية - جائع همه أن يأكل، متعب يريد أن يستريح، مثقل بالجراح لكثرة ما قدم من التضحيات لا يقوى على مواصلة القتال - وهذا كله بعد بطولات العبور!!

وفي الوقت نفسه يطلب من وضعته الليالي السود على مقدرات هذا الشعب، أن يكون شرطياً في المنطقة يرث الشاة الشقيق!! ولا بأس أن يكون هذا الشعب الذي مل الحروب وعضته المجاعة بناها، أن يكون وقود نار،

يمكن أن تتأجج بين المعسكرين في الشرق والغرب، أو نارهما يؤججانهما لغرض متفق أو مختلف عليه. وألحق أن هذا الشعب لو قيد بالإسلام لانقاد، ونعني هنا السواد الأعظم المسلم، الذي لم ييخل بالعطاء في كثير من مراحل التاريخ، ودع عنك -أخي القارئ- زفة المهرجين والمتفعين وأصحاب الأهواء الفارغين الذين لا هم لهم -دائماً- إلا تزيين الباطل للطفة، لأنهم هم من أهل الباطل واستمرارهم على ما هم عليه من مكاسب الدنيا وبضاعة أبليس رهن استمرار الطاغية ووجوده.

وماذا عن الأخذ والعطاء؟ في الواقع لم يكن أخذ وعطاء متبادل، وإنما يعطي بذلة وصغار، وآخر يأخذ ويستزيد بترفيح وعناد ومكر، في مواقف يحرص على أن تكون -على ما يزعم- مرتبطة بنصوص التوراة والتاريخ، والحقوق الأبدية لشعب الله المختار.

واللعب المسرحي الذي تقضى من خلاله الزمن الذي حدده شاهد عقد الزواج الأمريكي، إنما كان مشادة في الغزل، ليستمتع العدو المفاوض بلذة انتصار مع كل حرف من كلمات تنازل، ومعاودة وتفهم لحقيقة السياسة وواقع المنطقة، ويروي صدرأ بل صدوراً تغلي بأحقاد التاريخ وتغور بالغل الذي ضاع في الأعماق مداه.

لقد تصرف من يدعي العروبة والتمصر، وكأن القدس والجولان، والصفة الغربية المحتلة (بقالية أبيه وأمه) يعبث فيها كما يشاء، حرصاً على - --- من ضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله، ونزولاً عند



الرغبة العجلى لرئيس دولة يبتغي مصلحة بلده، ومصلحته في انتخابات الرئاسة المقبلة، حيث يحتل اليهود هناك عروشا تخيف في عالمي الاقتصاد والإعلام.

ولكن خسى من يسقط أمتنا من حسابه، فالقدس قدسنا. . أجل قدسنا وهي فيما بارك الله حولها من اسلا منا. . والأرض كل الأرض المغتصبة أرضنا، دوغما تفريق بين ما بعد ٦٧ وما قبل ٦٧ والعوبة الحكم الذاتي والدولة المصطنعة في ظل حراب اليهود وسيطرتهم على الإنسان والأرض والمقدرات، لن تنطلب على واحد في رأسه مسكة من عقل، وارتباط كل من نطق بالشهادتين وعمل بمقتضاهما، بالقضية التي حولها ندندن، ارتباط عقيدة، وشعور بواجب الجهاد، كيما يكون هذا المجاهد على طريق من أسعدهم الله بفتح الأرض المباركة، ثم أولئك الذين حرروها من نير الصليبين.

ولئن كان الوالغ في الاثم لا يرجى له صحوة من سكره وخباله، أن على كل من يزيفون الحقائق ويؤولون الوقائع على غير تأويلها، فيلبسون الحرام ثوب الحلال، والمعصية البلقاء في وضح النهار، ثوب الطاعة، أن على هؤلاء ومن يشدهم خطام القطيع، أن يعلموا - لا علمهم الله - أن صحوة الشعوب الإسلامية قادمة إن شاء الله، وإن العقيدة لا بد أن تعمل عملها، وأن الدم لا بد أن يعمل عمله، وإننا لأرض التي تسقى بالطاهر الزكي من دم الشهداء البررة جديرة أن تنبت الأبطال الذين يصلحون ما فسد، ويقومون -

بعون الله- ما أعوج . ولسوف يتحرك السيل الهادر -بإذن الله- ليأخذ من طريق الأمة كل الأوضار التي يسميها الفراغنة سياسة وحضارة . . وما هي في حقيقتها إلا خدمة لليهود أعداء الله وأعداء الإنسان ، وأضفاء للصفة الشرعية على الاحتلال والاعتصاب ، والأذى ، والتهجير !!

ليت شعري هل نتجوز فنقول مع القائل :

وظلم ذوي القربى أشد مرارة على النفس من وقع الحسام المهند

ولكن ماذا أنت صانع لمن أصم الله سمعه وأعمى بصره ، وران على قلبه ما كسب ، ناسياً أو متنسياً أن لكل صرخة أم ثمناً ، وأن لكل أذية طفل ثمناً ، وأن اليتامى والأيتامى وكل أولئك المعذيين ، سوف تكون جراحهم لعنات تنصب على الخونة والمتآمرين إلى أبد الآبدين ، ولا بدع أن تكون السجون والمعتقلات محصناً يلد الحركة الفاعلة التي تقتلع البغي وأهله من الجذور بإذن الله .

وإذا كان من الأغراض البارزة في توقيع الصلح ، عزل مصر عن العالم العربي والإسلامي ، كيما تستأثر بها إسرائيل ، ومرضعها فيما وراء البحار ، فإن لنا من القلوب المؤمنة ، والسواعد الفتية داخل الأسوار ، وما مر به المخلصون من تجارب ، وما لمصر المسلمة من وقائع تاريخ الإسلام ، ما يباعد بيننا وبين التشاؤم ويجعلنا نرثي لمن يدعونه (شيخ الأزهر) حين يرى -كما نقلت الأخبار عنه- أن يوم توقيع المعاهدة الذميمة المشؤومة ، هو من أيام مصر ، هكذا . . بطلاقة وإطلاق يدعوان إلى الرثاء والاشفاق !! ويرحم الله



علي بن أبي طالب حين قال : يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويرحم الله مشيخة الأزهر ، أيام كان يتولاها العلماء الرجال ، فيقودون الأمة بالإسلام إلى ساحات عزها وفخارها ، تزلزل العروش ، وتؤدب المنحرف ، وتقذف بالغازي إلى البحر . ونظرة إلى موقف إيران المسلمة من إسرائيل وإعادة الأمور إلى نصابها باسم الإسلام . ترينا الفارق بين موقف وموقف ، وتجعلنا نزداد رثاء لأولئك الذين يزينون الباطل باسم الدين ، ويزيفون الحقائق في ظل العناوين الرسمية . إيران التي كانت من أقوى القواعد لإسرائيل في الشرق تطرد باسم الإسلام إسرائيل ، ومصر تفتح ذراعيها لها ، وتعطيها البترول ، وتعمل على فتح الحدود وتبادل السفراء ، كيما يكون بلد الأربعين مليوناً لقمة سائغة في حلوق اليهود ، مع الباسهم ثوب الشرعية في --- . ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولكن لكل أجل كتاب ، والله من ورائهم محيط .

إن هذا الذي حدث في الصف من شرخ له ما له من انعكاسات ، تفرض ما تفرض من مواقف ، ما كان أجدرها أن تكون في مواجهة العدو ، وإن ما كان تحقق لهذا العود من أغراض في هذا المنعطف المرعب من تاريخ القضية ، حيث التخلخل المقيت ، وفتح الأبواب على مصاريعها لمن طال زحهم ، وتراكت أحقادهم ، وبرزت - حين خلا الجو واستنوق الجمل - كل خلائقهم التي يتسم بها الجبان الشحيح الماكر ، وأصبحنا في أخطار من الغزو الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والاخلاقي ، ذلك الغزو الذي كان

من أمضى الأسلحة في احتلال الأرض، وضياع الديار، وانتهاك الحرمات من قبل!

أقول: إن هذا الذي حدث، يو: د ما قلناه وأعلنه على صفحات هذه المجلة، منذ سنين وما نزال، من أنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. وكما يكون التحدي باعث أمل، وعامل تفجير للطاقات، وغيثاً ينهمر بالخير بعد طول ظمأ، وسيلا عرماً، يغسل أرضنا من حوبة الذل والاستسلام.. لا مندوحة -إذا كنا مخلصين- من أن نشد جيل المرحلة المقبلة إلى صدق الانتماء إلى أمته، وإلى ربطه ثقافياً وحركياً بكل عوامل القوة والبعد عن الخور والاسترخاء، أجل: لا مندوحة -إذا سلمت النيات وصدقت العزائم، من إعداد هذا الجيل إعداداً يرقى به إلى مستوى المواجهة في كل أوجهها الدينية والعلمية، والحضارية، لكون كفاء المرحلة التي ضاعف من نصبها ومافوزها، عدو جديد من داخل الدار، أعطى الأرض والمسالك للعدو الخارجي، وفي الإسلام إذا وعيناه وصحينا كما هو في منابعه الصافية غناء أي غناء، وإن كان هو لا يحول بيننا وبين أن نفيد مما عن دالآخرين شريطة الحفاظ على هويتنا وصدق انتمائنا وولائنا لامتنا ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

أجل: إن الإسلام العظيم، بما يربي على العقيدة والمعرفة، وحب الجهاد والاستشهاد، وبما يرفع الفرد والجماعة عن الاستسلام للأغراض القريبة التي تصرف عن الغاية، وبما يمكن لخلق الرجال من وجود عند التربية



والتكوين، ومسارات العمل، أياً كان ميدان العمل، وبما يملك من رصيد نسيجه معارك لا يبلى ذكرها على الدهر، وشهداء أملوا على التاريخ بدمائهم ما رفع أمتهم إلى سدة القيادة في العالم، وثروة حضارية هي عند المنصفين غاية الغاية في سموها وانسانيتها، وبما يكرم الإنسان، ويحركه من أعماقه، ويربط عقله وقلبه وحركته، وبما يحمله من طريقة في التفكير، تجعله على إدراك لغايته، ووضوح في الرؤية عند ممارسته الحياة في ظل رسالته، وبما يبعث في المسلم من اعتزاز بالعربية لغة القرآن، وبما يحمل من قدرة على الجمع بين الأصالة والتحديث، صورة عن تكامل نظرته إلى الإنسان والكون والحياة.

إن الإسلام العظيم -بما له من ذلك كله وهو الدين عن الله- جدير بأن يجتمع عليه القلوب، وأن تنهل من معينه العقود، فتأخذ مفهوماته الفكرية والحضارية مكانها اللائق في وجودنا الذاتي الأصيل، كميا يحمل هذا الجيل والأجيال من بعده راية الجهاد على بصيرة، حيث لا يبالي المسلم في ركضه إلى الله، أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، وعند ذلك نكون قد سلكنا الطريق الإيجابية البانية.

فالعُدو هو العدو . . واليهودي هو اليهودي . . يريد إسرائيل الكبرى، يريد أن يروي حقه وغله على أي شكل استطاع . . يريد أن يكون مخلب انقضاض حضارة على حضارة . . وأكثر من هذا: إنه يريد أن يشار من التاريخ --- تحركت معه يهود قبل أربعة عشر قرناً في الحجاز . ولا يتحقق

له ذلك إلا على حسابنا . ولك إنحراف في سلامة الإعداد للمواجهة يكون في خدمة أغراضه والعياذ بالله .

غير أن الذي لا ينبغي تجاهله ، أن القوة التي نراها للعود في هذه الآونة ، ليست قوة ذاتية ، وإنما قوة عارضة ، صنعها ضعفنا وفرقتنا وبعدنا عن عوامل التمكين التي دعانا إليها الإسلام ، وأوضاع دولية معروفة ، واجتماع أهل الباطل على باطلهم وتفرق أهل الحق عن حقهم مع الارتباط بما يزعمون إنه الدين والحق الالهي ، والتسلح بسلاح العلم ، وحين نعود نحن إلى وضعنا الطبيعي يبدو هو نشازا وجسماً غريباً في أرض الأمة وكيانها .

فلتكن الطريق أن تتجه الأمة صوب الإسلام عقيدة وعلماء وإعداداً ، وأن نعي التاريخ وعناصر القوة منه ، والحاضر وما له من أثر على المستقبل . . والله المأمول أن يجعلت من كارثة اليوم نقطة تحول تعيد الأمة إلى الصراط السوي ، فيستعلن الحق ، وترتفع الراية التي صنعت بدراناً والقادسية واليرموك ، وحطين ، والزلاقة ، وعين جالوت .

ويا ويح المستهترين بحقوق هذه الأمة وأرضها ومقدساتها من حكم التاريخ .

بل يا ويحهم من الأجيال المقبلة حين تصبح النكبة وقود حركة تدمر الخيانة والخونة بأمر ربها وليتهم يتعظون بما حدث في إيران ، ولكن إنها ﴿ لا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ﴾ .



بل يا ويحهم من غضب جبار السماوات والأرض ، حين يجاهرونه بالعدواة ، فيمدون أيديهم إلى أولئك الغاصبين المعتدين ، الذين سربلهم الله بغضبه ولعناته ، وأعلن أنه عدو لهم في كتابه العزيز ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ . نزلت هذه الآية حين قال اليهود عن جبريل -عليه السلام- هو عدونا .

مرة أخرى : يا ويحهم من العزيز الغالب على أمره حين يخالفون عن أمره فيوانون أعداءه ويعادون أوليائه وهو سبحانه الذي يقول : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ . ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ . اللهم إنا نعوذ بك من عمى البصائر وطمس القلوب ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون .

قراءة في تفسير (فتح القدير) للشوكاني^(١)

«فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير». من أبرز ما عرف من كتب التفسير في القرن الثالث عشر للهجرة. وهذا الاسم الذي سماه به مصنفه -رحمه الله- يدل على أن الغرض الذي توخاه من تأليفه وعلى المنهج الذي أراد أن يلزم نفسه به، إنما هو الجمع في مواجهة النصوص القرآنية بين الرواية والدراية، أو بين التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي المقبول كما هو اصطلاح الكثيرين.

ولقد كان من مصادر الكتاب عند المؤلف -بجانب كتب الآثار «أعراب القرآن» لأبي جعفر النحاس المتوفى ٣٣٧هـ، و«أحكام القرآن» للكنيا الهراسي الطبري المتوفى ٥٠٤هـ و«المحرر الوجيز» لابن عطية المتوفى ٥٤٦هـ، و«الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله القرطبي المتوفى ٦٧١هـ. ويكاد قدر كبير من هذا التفسير الجامع يكون منشوراً في «فتح القدير» ناهيك عما كتب الزجاج وغيره من علماء العربية والتفسير خصوصاً ما يتعلق بالجانب الأعرابي عند العمل على تبيان المعنى المراد.

(١) هو محمد علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني ثم الصنعاني، ولد -حسبما وجد بخطه- نهار الاثنين في الثامن والعشرين من ذي القعدة ١١٧٣ في بلدة (شوكان) وهي قرية من قرى السحامية إحدى قبائل خولان، بينها وبين صنعاء دون مسافة يوم. نشأ -رحمه الله- نشأة علمية جادة، وتفقّه على مذهب الإمام زيد -رضي الله عنه-، وأخذ عن الكثير من العلماء، ثم أخذ عنه تلامذة كثيرون. له العديد من المؤلفات النافعة في شتى العلوم الإسلامية منها هذا الكتاب الذي نحن بصددده وهو «فتح القدير» في التفسير، و«نيل الأوطار» شرح «منتقى الأخبار» للمجد ابن تيمية في الحديث و«ارشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول» في أصول الفقه. توفي -أجزل الله مثوبته- في صنعاء ليلة الأربعاء في السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة ١٢٥٠هـ.



وهكذا يتجلى لنا أمران هامان في الكتاب :

أولهما : الجمع بين الرواية والدراية في التفسير .

الثاني : الاكثار من النقل عمن سبق من أئمة هذا العلم .

ولقد أخذ المؤلف -رحمه الله- على نفسه - كما هو واضح في مقدمة كتابه- أن يكون على الجادة في تحري المقبول من الآثار، وأن يحرر الأقوال، يدلي برأيه عندما يفسح المجال للتفسير بالرأي، ذلك لأن المفسرين -كما يقول- تفرقوا فريقين وسلكوا طريقين :

الفريق الأول : اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية .

والفريق الآخر : جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاءوا بها لم يصححوا لها أساساً . . وكان -رحمه الله- يتكلم بلغة الواثق من صنيعة حين أختتم هذه المقدمة بقوله : «فهذا التفسير وإن كبر حجمه، فقد كثير علمه، واشتمل على ما في كتب التفاسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائد، وقواعد شوارد، فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة انظر تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم أرجع إلى تفسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يسفر الصبح لذي عينين أو يتبين لك أن هذا الكتاب هو لب الألباب، وعجب العجاب، وذخيرة الطلاب، ونهاية مأرب الألباب»^(١) .

(١) انظر : المقدمة من الجزء الأول .

وما من ريب في أن الشوكاني -أجزل الله مثوبته- قد أجاد وأفاد في هذا التفسير الذي بلغ خمسة مجلدات كبار، فقد جمع فعلاً بين الرواية والدراية أي بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المقبول -كما أسلفنا- حيث ينقل أقوال المتقدمين ثم يدلي برأيه عندما تسنح الفرصة ويطالعنا بالتحقيقات الرائعة في كثير من المسائل. وأختار لنفسه تيسيراً للقارئ أن يفسر السورة أو المقطع من الآيات ثم يتبع ذلك بالآثار المتعلقة بما فسر وبين.

ولك أن تقول: أن تفسير (فتح القدير) عدة تفاسير في كتاب واحد وانتفع ويتنفع به خلق كثير، وإن كانت كثيرة نقل الآراء، تستدعي من القارئ أن يكون أكثر دقة عندما يريد استخلاص الرأي المتخار أو القول الذي جنح إليه المؤلف بعد تلك الرحلة مع أقوال المتقدمين، سواء كان ذلك في بيان الآية عموماً، أو في اللغة، أو اختلاف القراءة واستنباط الحكم وما تدل عليه الآية.. وهلم جرا.

والحق أن الذي يخالط منهج المؤلف في الكتاب وطريقته في نقل الآراء واستخلاص ما يريده بعد ذلك: يفيد الكثير الكثير، ويخرج بقدر كبير من المعرفة بما يقفه المؤلف عليه من ساحة متسعة في النقل والبحث، يساعد عليها ما أشرنا إليه من تأخير المرويات إلى ما بعد الكلام في الآية والآيات. ولست بسبيل التفصيل في الكلام عن المنهج والطريقة، فذلك أمر له موطن آخر، ولكنني بسبيل بعض الاشارات السريعة التي لا يتسع لغيرها المقام، وليس ذلك بغاض من قدر هذا الإمام الكبير أو كتابه النافع (فتح القدير).



أ- ما أخذهُ المؤلف على نفسه من التزام المقبول من الرواية قد وفى به إلى حد بعيد، ولكن لم يخل الأمر من ثغرات أردنا أن ننبه إلى واحدة منها، فلعل من خدمة الكتاب والحر على الإفادة منه، العمل على الكشف عما يكون هناك من ضعيف أو أشد ضعفاً ونسأل الله العون والتيسير. جاء في أول الجزء الرابع عند بدء كلام المصنف في تفسير سورة النور: أخرج الحاكم وابن مردويه والبيهقي في (الشعب) عن عائشة مرفوعاً «لا تنزلوهن الغرف ولا تعلموهن الكتاب -يعني النساء- وعلموهن الغزل وسورة النور».

هكذا أورد الرواية دون بحث أو تمحيص، مع طول معاناته للحديث وتصانيفه فيه، والحاكم وفي «المستدرک»: (٣٩٦/٢) قد أورد هذا الحديث وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وذلك في تفسير (زاد المسير) عند تفسير سورة النور أيضاً. غير أن الإمام الذهبي -جزاه الله كل خير- تعقب الحاكم فقال عند قوله: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه: قلت: بل موضوع وأفته عبد الوهاب بن الضحاك، قال أبو حاتم: كذاب ولم يخرجاه وهذا الخبر رواه أيضاً ابن حبان في صحيحه، وفي سنده محمد بن إبراهيم الشامي منكر الحديث ومن الوضاعين.

وكان ذكر ابن الجوزي للحديث سهواً، لأنه ذكره في (العلل المتناهية في الأحاديث الواهية) وقال لا يصح. محمد بن إبراهيم الشامي كان يضع الحديث.

هذا وقد حقق العلامة المحدث شمس الحق عبدالعظيم أبادي في رسالته التي أسماها (عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان) أن أحاديث

النهي عن تعليم الكتابة للنسوان كلها من الأباطيل والموضوعات . قال رحمه الله : «ولم يصحح العلماء واحداً منها ما عدا الحاكم أبا عبد الله ، وتساهله في التصحيح معروف ، وتصحيحه متعقب عليه ، ولا يؤخذ كلامه في التصحيح إلا إذا وافقه الآخرون في تصحيحه^(١) .

إن القضية التي تعرض لها هذه الرواية الموضوعية قضية كبرى تتعلق بتعليم النساء والكتابة والمكان الذي نسكنهن فيه ، الأمر الذي يترتب عليه ما يترتب من الآثار إن سلباً أو إيجاباً ، خصوصاً إذا ذكرنا أن خطاب التكليف في الإسلام هو للرجل وللمرأة على السواء ، أما اختلاف الرجل عن المرأة في بعض الأحكام ، واختصاصه دونها ببعض الأمور والمهام ؛ فتلك مسألة أخرى اقتضتها طبيعة التكوين كما أرادها الخالق الحكيم ، والرسالة المنوطة بكل واحد منهما . ونحن دائماً من وراء النصوص ، ومعاذ الله أن تأتي الشريعة بحكم يتخالف مع المصلحة الحقيقية للإنسان كما فطره مولاه ، فخالق الإنسان أعلم بما يصلحه ويسعده ، من أجل ذلك كنا نتمنى لو أن الإمام الشوكاني محصّ الراية ولم يثبتها على عواهنها ، لكيلا ينسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما لم يقل ، وتستنبط مما نسب إليه هذه الأحكام .

ومن عجب أن القرطبي - وهو من يثكر الشوكاني النقل عنه - كما أسلفنا - قد أورد الرواية على أنها من كلام عائشة ولم يقل ذلك الشوكاني .

(١) انظر (زاد المسير) لابن الجوزي : (٦/٣-٤) مع التعليق .



ب- وفي أمر النقل عن السابقين من رجال التفسير، يفترض أن ينقل كلام المنقول عن واحد منهم برمته دون بتر أو اختصار مخل، وقد سلك الشيخ -رحمه الله- هذا المسلك فكان أميناً فيما ينقل عن الآخرين ولكن لسبب ما، قد يكون نسياناً أو غفلة من طالب كلف بمهمة الأخذ من كتاب فلم يأخذ النص بأكمله.. أو غير لك، أقول: لسبب ما وقع (فتح القدير)^(١). وعند تفسير سورة الأحزاب نقل مبتور عن القرطبي في كتابه (الجامع لاحكام القرآن). وكان ذلك عند الكلام على الآيات المتعلقة بقصة زيد وزينب -رضي الله عنهما-، في معرض قوله تعالى ﴿وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾.

قال الشوكاني: «قال القرطبي: وقد اختلف في تأويل هذه الآية، فذهب قتاده وابن زيد وجماعة من المفسرين، منهم ابن جرير الطبري وغيره إلى أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وقع من استحسان لزينب بنت جحش وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيد فيتزوجها هو، ثم أن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غلظة قول وعصيان أمر، وأذى باللسان، وتعظماً بالشرف قال له: اتق الله فيما تقول عنها وأمسك عليك زوجك، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إياها، وهذا الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب ن الأمر بالمعروف^(٢)».

(١) ج ٤ من ٢٨٤.

(٢) انظر (الجامع لاحكام القرآن) للقرطبي: (١٤/١٨٩).

وفي أعقاب هذا النص عن القرطبي قال صاحب (فتح القدير) في قوله تعالى: ﴿وَتَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾. وهو نكاحها أن طلقها زيد، وقيل: حبها (وتخشى الناس) أي تستحيهم أو تخاف من تعييرهم بأن يقولوا: أمر مولاه بطلاق امرأته ثم تزوجه (والله أحق أن تخشاه) في كل حال وتخاف منه وتستحيه، والواو للحال، أي تخفي في نفسك ذلك الأمر مخافة من الناس^(١).

وأنت ترى أن كلامه هنا يسير في ظل ما روي نقلاً عن القرطبي. إذا عرفت ذلك كان لابد من التنبيه على أن ما يلاحظ على هذا الموضوع برمته بدءاً من نقل الشوكاني حتى ختام كلامه هو في تفسير الآية ما يلي:

١ - يعجب الناظر المتأمل في هذا الكلام للشوكاني كيف نقل هذه الرواية التالفة عن القرطبي دونما تمحيص مع أنه - كما أشرنا من قبل - من أهل المعانة للحديث وعلومه، وتخريجه لأحاديث (منتقى الأخبار) للمجد بن تيمية وجمعه لطرق الحديث ورواياته المختلفة في كتابه (نيل الأوطار) الذي شرح فيه المنتقى - أمر معروف: وهو مذكور ومشهور، وله كتاب في الموضوعات، أسماه الفوائد للمجموعة في الأحاديث الموضوعية.

ثم أنه لا يخفى على الإمام الشوكاني وأمثاله من كبار العلماء أن رواية الطبري لا تعني الصحة، وكم في تفسيره (جامع البيان) وهو الكتاب الفذ في باب، والذي رسم فيه أبو جعفر معالم الطريق في هذا العلم العظيم لمن

(١) انظر (فتح القدير): (٢٨٤/٤).



جاء بعده من المصنفين أقول : كم في هذا التفسير من روايات ضعيفات وواهيات أو أكثر من واهيات .

وليس في ذلك غض من مكانة الطبري وأمامته -رحمه الله- ذلك لأنه :

أولاً- ما كان يأتي بهذه الروايات لتحكم على الآية وتحدد تأويلها، وإنما يأتي بها للاستئناس، شأنها شأن الشاهد من كلام العرب للمعنى المراد .

وثانياً- كان في صنيعه منتهى الأمانة على قاعدة (من أسند لك فقد أحالك) -ونحن نقدر ذلك حق قدره إذا علمنا أنه في عصر الطبري -رحمه الله- وقد توفي ٣١٠ للهجرة كانت لنقد الرواية والحكم عليها قبولاً ورداً راية مرفوعة، والحقبة الزمنية يومذاك حقبة ازدهار في هذا العلم وأمثاله من العلوم التي تخدم حديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما وراء ذلك من آثار، فهناك قدرة على التخريج والتثبت من صحة الرواية أو عدمها، من خلال السند الذي ذكره الراوي؛ فالطبري خرج من العهد بذكر السند . وهكذا كان حرياً بالشوكاني -رحمه الله- وأجزل مثوبته أن لا يحمل إلينا هذه الرواية التالفة ويشبتها مفسراً لكتاب الله دوغماً تمحيص وتحقيق، كيف وأنها رواية كشف العلماء المحققون شدة ضعفها . حتى أن الحافظ ابن كثير -رحمه الله- أعرض عن ذكرها وذكر أمثالها في هذا المقام لشدة ضعفها . لقد رأى ابن كثير أن لا يسود الور بذكرها لأنها تالفة سنداً ومتناً^(١) .

(١) انظر (تفسير القرآن العظيم) . (٣/ ٤٩٠ - ٤٩١) .

٣- وهذا كله كائن مع افتراض أن كلام القرطبي قد انتهى حقاً عند القدر الذي نقله (فتح القدير) غير أن الحقيقة غير ذلك ، فالنقل عن القرطبي مبتور ، والقارئ لكلامه كما ورد في كتابه يخرج بالفكرة المضادة لما أثبت الشوكاني . فقد ذكر القرطبي ما نقله الشوكاني عنه ثم تابع الكلام فيه وأورد ما روي عن علي بن الحسين من : «أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيداً يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تشكى زيد للنبي -صلى الله عليه وسلم- خلق زينب وأنها لا تطيعه ، وأعلمه أنه يريد طلاقها ، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- على جهة الأدب والوصية : «اتق الله في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه سيفارقها ، ويتزوجها ، وهذا هو الذي أخفى في نفسه ولم يرد أن يأمره بالطلاق ، لما علم أنه سيتزوجها ، وخشي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أمره بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له ، بأن قال : «أمسك» مع علمه بأنه يطلق . وأعلمه أن الله أحق بالخشية ، أي في كل حال^(١) .

وأنت واجد في كلامه تأكيداً الشديد لكون الذي أخفى رسول الله في نفسه ، إنما هو علمه أن الله مزوجه زينب وليس -كما تقول الرواية التالفة- حبها أو الرغبة في أن يطلقها زيد ليتزوجها هو ، وفعلاً كان الذي أبداه الله

(١) انظر (الجامع لاحكام القرآن) للقرطبي : (١٤/١٨٩-١٩٠).



هو تزويج الله رسوله بزینب ، وفي ذلك يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

ولعل مما يؤكد ضرورة تحرير المسألة بالنسبة للقرطبي وتصحيح ما نسب إليه ، أنه - رحمه الله - بعد أن أورد رواية علي بن الحسين - رضي الله عنهما - ، وأثبت أن الذي أخفاه رسول الله في نفسه علمه بأن الله مزوجه بها بعد أن يطلقها زيد . . أيد وجهته هذه بما ذهب إليه أهل التحقيق من العلماء ذلك قوله بعد ذلك : « قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وهذا القول أحسن ما قيل من تأويل هذه الآية ، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين ، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي ^(١) وغيرهم » .

وبعد أن أوضح معنى ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ قال رحمه الله : « فأما ما روي أن النبي - صلى الله عليه وسلم - هوي زينب امرأة زيد - وربما أطلق البعض لفظ عشق - فهذا إنما يصدر عن جاهل بعصمة النبي - صلى الله عليه وسلم -

(١) مما قاله أبو بكر بن العربي في كتابه (أحكام القرآن : ٣ / ١٥٣١) « فأما قولهم : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - رآها فوقعت في قلبه فباطل ، فإنه كان معها في كل وقت وموضع ، ولم يكن حينئذ حجاب ، فكيف تنشأ معه وينشأ معها ويلحظها في كل ساعة ، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج ، وقد وهبته نفسها وكرهت غيره ، فلم تخطر بباله ، فكيف يتجدد له هوى لم يكن حاشا لذلك القلب المطهر من هذه العلاقة الفاسدة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْدَمِ عَلَيْهِ عَيْنِيكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَفَتْنَاهُمْ فِيهِ ﴾ . والنساء أفتن الزهراء وأنشر الرياحين ، فيخالف هذا في المطلقات ، فكيف في المنكوحات المحبوسات » . انظر تفصيلاً أوفى هناك .

عن مثل هذا، أو يستخف بحرمته . قال الترمذي الحكيم في (نوادير الأصول) وأسند إلى علي بن الحسين قوله : فعلي بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهرًا من الجواهر ودرًا من الدرر ، إنه إنما عتب الله عليه في أنه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك ، فكيف قال بعد ذلك لزيد (أمسك عليك زوجك) وأخذتك خشية الناس إن يقولوا : تزوج امرأة ابنه ، والله أحق أن تخشاه^(١) .

ولقد أثرت أن أنقل كلام القرطبي برمته -على ما قد يرى فيه بعض القراء من طول- حرصاً على وضوح الأمر في هذه القضية ودفعاً لأي التباس محتمل ، خصوصاً وأن الأمر يتعلق بعصمة النبي -صلى الله عليه وسلم- من حيث الموضوع ، ويتعلق بقبول الرواية أو عدم قبولها من ناحيتي السند والمتن ، ويتعلق أخيراً بتحديد موقف صاحب (الجامع لاحكام القرآن) ، فمن خلال دراستي للموضوع ومعاناتي لتدريس مادة التفسير رأيت أن كل من يقرأ ما جاء في (فتح القدير) نقلاً عن القرطبي في (الجامع لاحكام القرآن) تتولد عنده القناعة الكاملة بأن ما ذهب إليه القرطبي هو الرأي المرتبط بتلك الرواية التالفة ، ولكن بعد الاطلاع على يكلامه كما هو وارد في كتابه نجد القضية -كما أوضحنا من قريب- على العكس تماماً ، وللقارئ عذره ، فليس كل قارئ يفكر في العودة إلى المصدر المقول عنه حتى لو توافر له ذلك .

(١) (الجامع لاحكام القرآن): (١٤) / ١٩٠-١٩١).



مرة أخرى: جزى الله الشيخ الشوكاني كل خير، وأعلى مقامه في
الآخرين، وأكرم مثواه بما بذل في خدمة الكتاب والسنة، وآخر دعوانا أن
الحمد لله رب العالمين.

لا تحزن إن الله معنا^(١)

كلما دار الزمن دورته، وأطلَّ على الأكوان هلال ربيع الأول . . غمر الكون عطر جديد، لما أن هذا الشهر المبارك، يحمل في ناظم ذكرياته مولد سيد العالمين محمد بن عبدالله -صلوات الله وسلامه عليه-، كما يحمل هجرته -صلى الله عليه وسلم- من مسقط رأسه ومربع صباه مكة المكرمة، إلى يثرب (المدينة المنورة). ولو كان للزمان أن يقول ما ينبغي أن يقوله، لأسمى يوم مولد هذا النبي الهادي (يوم الإنسان) لأن فيه قد ولد من أعلن برسالته تحرير الإنسان.

ولو كان للإنسانية المكدودة -التي يبعث بمقدراتها ومعاني وجودها، أكلة لحوم البشر، ولصوص الدماء- حرية أن تختار . . لاختارت أن يكون يوم مولد أبي القاسم -فداه أبي وأمي- في جبين أيامها المذكورة على مدى التاريخ، ولأزاحت من طريقها هذا الغشاء الذي يلبس لبوس العلم حيناً، ويكتسي طيلسان العدالة حيناً آخر، فيجعل من الناس مخلوقات تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، وتنظر إلى الأمور بمنظار تلونه الأغراض القرية، والعصبيات المقيتة، والكثير من تسويغ الانحراف والضلالة والتضليل.

نقول هذا، وقد عانت البشرية في رحلتها الطويلة على الأماد ما عانت، وتمثّلت من التجارب ما تمثّلت وما تزال . .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الأول، السنة العاشرة، ١٣٨٩هـ ربيع الأول، ١٩٦٩م حزيران.



نقوله ، ونحن أبعد ما نكون عن إغلاق المنافذ التي تُطلُّ على الواقع ، وعن الانحسار إلى حيث تصلُّب الفكر دون الوعي والإفادة من عظات التاريخ ، مهما كان لون المسرح الذي درجت على مرابعه الأحداث ، وتحركت الوقائع .

إن نظرة واحدة تتسم بمنهجية لا تغطي عليها همجية ، وعلم لا يخضعه سلطان جاهل أوبغي ظالم ، وتجرد لا تنحط بكرامته العصبيات والأغراض والأهواء . . إن نظرة واحدة على هذه الشاكلة ، تجعل من مولد الرسول وأذان رسالته - كما هي الحقيقة - عنوان ضياء يحمل كل ملامح الفجر الجديد لما تعانية الإنسانية في ظلامها الدامس الطويل .

فإذا توفرت هذه النظرة المجردة من أعدائنا ، خلية عما قد يشوب من حقد السنين ، وخطرسة السبق المادي والانتصار ، فلا بد - لتستقيم الأمور - إن يرافقها أمر هو أكثر منها أهمية ، وأشد منها خطراً في ميزان القلق على مصير الأمة ، والحرقة على أن تستأنف طريقها من جديد . . ذلكم هو الاعتزاز الذاتي من قبل أنفسنا بكل مقومات الرسالة التي جاء بها صاحب هذا المولد - عليه الصلاة والسلام - ، ذلك الاعتزاز الذي أن توفّر بحق ، حال دون الانهزام الداخلي في تصورات الفرد وسلوك الجماعة ، وحمل على العمل الجادّ المثمر في ظل مبادئ الأمة ومنهج رسالتها القويم .

وإذا كنا نقول هذا عن يوم المولد ، فلما أنه قد شرف بشرق من أكرم الله الإنسانية به ، فكان رحمة للعالمين - صلوات الله وسلامه عليه - ، ولكن يظل

يوم المولد -على شرفه وكرامته السامية الرائعة- فاتحة الخير لما كان على الساحة العملية الايجابية في حياة أمتنا، التي أسعدها الله برسالة، كانت رسالة الحياة والإيجابية والبناء، على طريق تنطلق من الإيمان والصبر والجهد، وتنتهي بالفوز الكبير في الدنيا والآخرة.

وتستبين معالم الخير ويأتي يوم الهجرة الذي كان الحلقة الكريمة -التي تمثل حركية الدعوة بأجلى معانيها وأعلى مظاهرها- بعد سابقتها الأولى التي كانت يوم بدء الوحي، وتقليده -صلى الله عليه وسلم- أمانة النذارة والتبليغ.

ولا نعني هنا -الهجرة من حيث هي- فقد ضحى المسلمون من قبل، وهاجروا بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- في سبيل الله تاركين ديارهم وأموالهم وذويهم أكثر من مرة، ولكن نعني الهجرة التي كان هو -صلى الله عليه وسلم- على رأس المهاجرين فيها، تلك التي كانت من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، والتي هي المرادة عند الإطلاق.

وكون الهجرة بهذه المثابة، إعلان حركة، وحلقة بارزة من حلقات سير الدعوة في طريقها الشائك الصاعد الميرير. . . وعنوان تحوُّل إلى أرض كانت أصلح للغرس. . . سنين من الهول في مكة، ورحلة صابرة باكية إلى الطائف. . . أقول إن كون الهجرة بهذه المثابة، في أذهان أولئك البررة من أصحاب النبي -صلوات الله وسلامه عليه-، هو الذي دعا إلى بدء تاريخ الإسلام بالهجرة، وسعد العالم بالتاريخ الهجري، حيث أعلن ذلك الخليفة



الثاني عمر بن الخطاب -رضوان الله عليه-، وأجمع معه المسلمون . ولولا ذلك : لرأينا البدء بالمولد مثلاً، ولكن الأمر منوط بما كان من وعي تلامذة الوحي، للحركية التي تتمثل في الهجرة من بلد الكفر حيث يفتن المسلمون عن دينهم، وتوضع كل العقبات في طريقهم، وتسلك كل السبل الكافرة، لإفنائهم والقضاء عليهم، إلى البلد الذي استطاعوا أن يتجمعوا على أرضه، ويغرسوا في منابته بذرة الهدى والخير، وأن يشكلوا مجتمعاً كان خير صورة لخير دولة عرفها بنو الإنسان، لما أن شريعة الله هي التي تحكمه، ويد محمد بن عبدالله الصانع ثم أصحابه من بعده هي التي تقوده، وتقدم إلى الدنيا كلها، أنموذجاً يحتذى، وعنوان خير يستضاء بنوره، وتسير قوافل الحق والخير على هداية.

وإذا كانت كل مرحلة الهجرة بدءاً من أسبابها الحركية الإيجابية، إلى نتائجهما الواقعية العملية في تثبيت دعائم الإسلام، وتأمين انطلاقته في العالمين . . مع غاية تقطع دونها الأمانى . . إن الأمانة تقتضي هذه الأمة التي تربطها بهذا الحدث الفريد في روعته وجلاله، أكرم أو أضر النسب والقربى، أن تكون على مستوى الفهم العميق، والإدراك الواعي لمدلولات كل الوقائع التي تنظمها الهجرة، خصوصاً ما كان منها على صعيد المعاناة البشرية، وانعكاسات صورة الإنسان -كما أراد الله له أن يكون- على العمل الذي يكاد يكون فوق طاقة البشر.

وحسبك أن تصيخ بسمعك، إلى قول الله تعالى في سورة التوبة-

والحديث يهدي إلى ذلك -بمزيد من التأكيد والوضوح- قول النبي -صلى الله عليه وسلم- ، مخاطباً الصديق : «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما» .

والنهي عن الحزن في «لا تحزن» ليس عبثاً، إنه دليل أن هنالك استعداداً لهذا . فهو من صفات هذه النفس البشرية . ولأمر ما جاء القرآن الكريم في عديد من المواطن على إكرام الله لعباده الصالحين يوم القيامة بأنه ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ ، وإن كان مبعث حزن أبي بكر هنا -كما أسلفنا- خوفه على صاحبه الحبيب أن تطوله يد الظلمة أعداء دعوة الحق ورسالة الإسلام . ورسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- وهو الناصح الأمين -على معرفة بهذا الواقع في نفس الإنسان، وإنه بما علّمه الله، لذو علم بالكيفية التي يرتفع فيها بأبي بكر صاعداً في معارج الرقي الذاتي والصفاء النفسي، فتراه يأخذ بيده من ذلك الواقع إلى رحاب أوسع وأشمل، فلماذا الحزن والله معهما بعونه وتأييده ونصره، والله معهما بما يهب النفس من الطمأنينة، وما ينزل في القلب من السكينة، ولماذا القلق والله ثلاث المهاجرين، سيد الأنبياء وصاحبه الصديق . . إنها وأيم الله نقلة علوية رائعة، وصلت أسبابها، تلك اليد الصانع التي مدّها رسول الله -صلوات الله عليه- لأب بكر أخيه وصاحبه، فأسباب الحزن متوفرة، والشدة الشادة تضرب بكلّكها هنا وهناك، وليس بين سيد العالمين وصاحبه وبين الخطر الداهم إلا أن ينظر واحد من المشركين الذين دهموا الغار إلى أسفل قدميه .



غير أن ذلك كله لا يضير، فالأمر أوسع من أن يوزن بالكفاءة المادية والأخذ بالأسباب الظاهرة وكفى، إنه وراء ذلك وفوق ذلك، فكون العدو المشرك ربيب اللائ والعزى، وعابد هُبل ومناة، قد تجمعت له عوامل البطش والتكيل، وتوفرت تحت سلطانه، كل أسباب الصد عن دعوة الحق، وفتن المؤمنين عن الدين، لا يعني بحال من الحوال، أن يلقي المؤمن عصا الجهاد عن عاتقه، ويستسلم لليأس، فالله معه، والله في عون ما كان مستقيماً على الطريقة، صادقاً فيما عاهد الله عليه.

ولقد يحسب حاسب أن هذه دعوة تقلل من شأن العمل والأخذ بالأسباب، وليس الأمر كذلك، فسياق الآيات - كما سبق - دعوة إلى الجهاد-، وتحريض على القتال، وعتب على المتثاقلين عن النصر خفافاً وثقلاً في سبيل الله، فإن لم يستجيبوا لذلك فالله ناصر نبيه، دون حاجة إلى هؤلاء المتثاقلين، إذا سعد القلب بصدق «أن الله معنا».

لقد كان رسول الله يخاطب الذات في أعماقها، في كينونتها وفي وجودها. إن نفس أبي بكر البشرية تحمل استعدادها للتعب والحزن، ولكن ذات الإنسان في أعماقها. وكما خلقها الله مؤهلة لأن ترتفع على الطين وتسمو إلى حيث تستشعر عظمة الله، وسلطانه القاهر، وكونه أكبر من كل المعوقات، ومن كل رغبة أو رهبة.

لقد كان أبو بكر الصديق على مستوى البناء الذي عانى تكوينه محمد - صلى الله عليه وسلم - بكلتا يديه. وكان على مستوى تلك الرحلة العظيمة

التي كانت في ظاهرها قطع مسافة بين مكة والمدينة ، وعلى طريق مقفرة موحشة يسترها ظلام الليل ، وتختبئ من ضوء النهار . . ولكنها في حقيقتها مرحلة من مراحل نصر الإنسانية العظيم .

وكم هي مأساة حاجة أمتنا اليوم لشعار «لا تحزن إن الله معنا» ، وهي تعاني من ذلك الدبيب العاتي على النفوس ، يرهقها ويحاول تجريدها من مقومات الذات ، وعناصر الوجود والتكوين .

كم هي مأساة حاجة أولئك الحداة على طريق الجنة ، في ضوء ذلك الشعار ، أن يتأهبوا للتمحيص يصقل النفوس ، ويشعر بأصالة الذات ، ويحرق من طريق الداعية كل العوائق الترايبية ، التي يلقيها أفعوان حب السلامة بين يديه .

«لا تحزن إن الله معنا» ليس -أيها الرواد- لأبي بكر وحده . . ولكننا لكم جميعاً في قافلة أمسك بزمامها أبو بكر وراء رسوله الله ، ويه بعون الله وتأيوذه تتابع المسير ، والله معكم ولن يترككم أعمالكم .



وقائع خالدة^(١)

لقد كان من إكرام الله لهذه الأمة أن جعلها على محجة بيضاء نقيّة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، وكان من معالم هذه المحجة ذلك الجسر الكريم الذي يربط بين الفكر والعمل في حياة الفرد والجماعة ، فأنت واجد في كتاب الله عز وجل ، وبيان النبي -صلى الله عليه وسلم- في سيرته وجميع تصرفاته ما يوضح هذه العلاقة في كل الوقائع التي حفل بها تاريخ البعثة ، بدءاً من الجهر بالدعوة وحتى لقي الرسول ربه بعد ثلاثة وعشرين عاماً من العمل الدائب والجهاد المستمر ، في تحويل جذري عميق ، ووضع للمعالم الخيرة التي سارت على هديها أمتنا ، فكانت خير أمة أخرجت للناس .

ولقد ينسى الكثيرون من أبناء جلدتنا ، أو يتناسون مدى قدرة ذلك الماضي البعيد على التأثير في ساحة الواقع القريب ، أو رسم خطوط مستقبل تنشده الأمة ولو على المدى المتطاوّل المرتقب .

وألحق أن الأمر بالنسبة لذلك الماضي ، ليس مجموعة من الأحداث التاريخية مقطوعة عن المبادئ ، ولا وقائع جرتّها المصادفة بعيدة عن التوجيه الرشيد ، والدروس التي تثبت وجودها في ظل دعوة الإسلام . ولكنه عنوان الحركة التي تجعل العمل انعكاساً صحيحاً للفكر ، وصورة صادقة لكل ما

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة العاشرة، ١٣٨٩هـ شوال، ١٩٦٩ - ١٩٧٠م كانون الأول - كانون الثاني .

تستلزمه العقيدة، وما يفرضه الالتزام.

فكل شيء في ميزان الدعوة بمقدار؛ الصواب له مكانه من الحسبان والتقدير، والخطأ ينال حظه من التقويم والتسديد؛ فلا وقوف ولا جمود، ولا تراجع ولا انتكاس، ولكن حركة دائبة يبدو على ساحتها التكامل، ووضع كل واقع فردية كانت أو جماعية موقعها من البناء.

خذ على سبيل المثال معركة أحد التي وقعت في شوال للسنة الثالثة من الهجرة؛ ما كان فيها من الشورى والموقف الحازم الذي وقفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ما كان فيها من التضحيات التي تعز على النظر في تاريخ أي أمة من الأمم، كالذي تراه من موقف أبي دجانة وطلحة وأبي بكر وغيرهم. . ما كان فيها من موقف النفاق وأهله تخذيلاً وتثبيطاً حيث انسحب ابن سلول مع كل من يلوذ به ويوائمه في الجيش، ما كان من حال الرماة حيث ضعف فريق أمام إغراء الغنيمة، وخالفهم من يصرون على البقاء في مواقعهم حرصاً على إنفاذ أمر رسول الله - عليه الصلاة والسلام - ثم ما كان من العاقبة التي ولدها عدم التزام البعض، وخطأ المخالفة، وما حلصل من الإرجاف، وزلزلة بعض القلوب باشاعة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد قُتل. والموقف الذي وقفه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع الثلة الكريمة التي أستجابت لندائه حيث الخطر المحقق في ذروته، ذلك الموقف الذي ازدان به تاريخ الإنسانية، وقدم الفرق الواضح بين النبوة والملك، وكيف أن محمداً - عليه الصلاة والسلام - كان خير داعية



وخير من يجاهد في سبيل الدعوة أخذاً بالأسباب وربطاً للنتائج بالمقدمات ،
بعد الاستعانة بالله عز وجل .

خذ ذلك كله ، وانظر ماذا أنزل الله في قرآنه من آيات تتلى في شأن تلك
الوقائع . وأضرب في أرجاء تلك النصوص يمينة ويسرة ، فإنك واجد إن
فعلت ذلك ، ببصيرة نافذة وعقل متفتح مدرك ، أن الدروس التي تعطيها
المعركة بمقدماتها ونتائجها ، وما ضمت بين جناحيها من وقائع ، هي دروس
للخلود والاستمرار ، لا عرض تاريخي للوقائع مقطوع عن المبادئ والقيم
والمفاهيم . ولسوف ترى أن الارتباط بين الفكر والعمل ، بين العقيدة
ومستلزماتها من المنطلقات الأساسية التي زحزحها القرآن الكريم بصرامة
وحزم .

فمن تذكير بنصره للفئة المؤمنة القليلة ببدر ، وأن مرد الأمر كله إليه ،
لتكون سمة المؤمن صدق التوكل عليه ، جلَّ وعز ، عسى أن يكون ذلك
طريق شكره اللائق بنعمه التي لا تحصى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ
فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

إلى توجيه يحمل كل المعاني التي تتسق مع رسالة هذه الأمة في العالمين ،
وطول الطريق التي عليها أن تقطعها في سبيل تحقيق هذه الرسالة على تقلُّب
الليل والنهار ، تلك المعاني التي قوامها : واقعية هذه الدعوة ، والحرص على
تثبيت أفئدة المؤمنين ، وتقوية صلتهم بالله عز وجل ، وتمتين أواصر الإيمان
في نفوسهم ، وأن السعيد من ينجح في امتحان التمحيص والابتلاء ،

فيعيش سعيداً، أو يتخذه الله شهيداً عنده، وما أسعد من يجعله الله في هذه
المنزلة ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

إلى توجيه يحمل كل المعاني التي تتسق مع رسالة هذه الأمة في العالمين،
وطول الطريق التي عليها أن تقطعها في سبيل تحقيق هذه الرسالة على تقلب
الليل والنهار، تلك المعاني التي قوامها: واقعية هذه الدعوة، والحرص على
تثبيت أفئدة المؤمنين، وتقوية صلتهم بالله عز وجل، وتمتين أواصر الإيمان
في نفوسهم، وأن السعيد من ينجح في امتحان التمحيص والابتلاء،
فيعيش سعيداً، أو يتخذه الله شهيداً عنده، وما أسعد من يجعله الله في هذه
المنزلة ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٩) إِنْ يَمَسُّكُمْ
قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوَلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ
الْكَافِرِينَ .

هذا إلى الرد الحاسم على كل أولئك الذين أصاب قلوبهم الهلع -بعد
ترك الرماة مواقعهم وإرجاف المرجفين بموت رسول الله -صلى الله عليه
وسلم- فحسبوا أن العمل حده الزمني حياة الرسول الكريم، وعلى كل
أولئك الذين جاءوا من بعد أو يجيئون، يود أحدهم أن يفر من مسؤوليته
بحمل أعباء الدعوة فكراً وعملاً، ويلتمس لذلك المعاذير. وإلى كل هؤلاء
وأولئك، نسوق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ
اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ .



فرسول الله هو المبلغ عن ربه هذا الدين ، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل ، غير أن حمل هذه الرسالة ، ليس محدوداً بزمان أو مرهوناً بوقت ، إن الإسلام هو المحور الذي يجب أن يدور من حوله الناس ، والناس يقربون أو يبعدون ولكن الإسلام باق كما شاء الله له أن يبقى ، ومن هنا كان لزماً على من أراد مقنعاً في أن كلمة الله هي التي يجب أن تعلو في الأرض ، أن يفرق بين انحراف بعض المسلمين عن الإسلام ، وبين الإسلام في ذاته ، وإنه لبله ما عبده بله ، أو خبث ما عبده خبث ، موقف أولئك الذين يجعلون من أخطاء المسلمين مسوغاً لتخليهم عن الإسلام أو حكمهم الأرعن : بأن الإسلام لا يصلح للحياة ولقد كانت عزيمة جداً كلمة أبي بكر بعد انتقال رسول الله إلى الرفيق الأعلى حيث أخذ الحادث الجلل من النفوس ما أخذ «من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي باق لا يموت» .

والانقلاب على الأعقاب . . يا خسارة أولئك الذين ينقلبون على أعقابهم في رياحين الترغيب ، أو تحت مطارق الترهيب . . أكاد أحسُّ أن الكلام - على عمومته مع خصوص سبب النزول - لنا نحن الذين قُسم لنا أن نكون في هذه الفترة العصبية من الزمن ﴿ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

إنه لا بد من الانسجام بين الفكر والعمل لكيلا نقع في الذي يوحيه مضمون هذا الكلام الرباني العظيم . ولقد تكون النكبة أدهى وأمر حين

يبيض سوء التصور ويفرّخ في أذهان بعض الناس ، حتى ترى الديار بلاقع ،
ودنيا الفكر موحشة ، فلا فكر ولا عمل والعياذ بالله .

وهذا ما تجده عند ضعفاء النفوس ، الذين أدمنوا على جفوة الإسلام
واستمدوا تصورهم من انحرافهم الآسن الذي يعيشون فيه ، أو من فكر
أولئك الذين ملكوا عليهم زمام الحركة والاتجاه حتى إنك لتقع عينك على
أحدهم فلا تذكر إلا قول الله جلت حكمته : ﴿ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ
يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ﴾ .

وإنا إذ نترك تفصيل القول في المعركة ودروسها إلى مظانه ومراجعته ؛ لأن
هذا ليس موطن التفصيل ، حسبنا أن نذكر بأن الأمة التي تريد الحياة ، لا بد
أن تعود إلى ما به قوام الحياة .

ففي الأيام العصيبة ، والليالي التي تزمجر بالندر ، كم يبدو الواجب
محتماً ، على هذه الأمة خصوصاً الفئات الواعية فيها ، المتطلعة إلى نصر
الأمة وتحقيق غاياتها ورسالتها للعالمين ، أن تراجع رصيدها من الفهم
التكويني المثمر لتلك الوقائع الخالدة ، والإدراك الحركي الواعي لطبيعة
التوجيه القرآني ، الذي كان يرسم - من خلال تلك الوقائع - الطريق
الراشدة ؛ ذلك أن أشخاص تلك الوقائع مع ما أكرمهم الله به من الفضل ،
في أن كانوا تلامذة النبوة وأصحاب رسول الله ، والممتعّين بجلال الوحي
ونور السماء ، لم يعدوا أن يكونوا بشراً من البشر ، فيهم من حاز قصب
السبق تسليماً لحكم الله ، والتزاماً لأمر رسول الله ، وبذلاً للنفس والمال



والولد في سبيل الله، وفيهم من غلبه ضعف الإنسان، فوقع في يسير من المخالفة، وفيهم من كان وسطاً بين ذلك، والجميع على خير، وقد ابتلوا رضوان الله عليهم بالمنافقين، وبمن وراء المنافقين من اليهود وأهل الشرك. فكان من واقعية الإسلام، ما رأيت من انطلاق التوجيه القرآني الحكيم، من الواقع بوصفهم بشراً، ووضع كل أمر موضعه، صواباً كان أو خطأ، ما دقَّ منه وما جلَّ، وربط ذلك كله بخط الهداية العام الذي جاء به الكتاب، ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ناهيك عن جعل هذه الأمة وسطاً، وربطها بالمحور العالمي للإنسان، والدعوة إلى الاعتبار بسنن الماضين، وما كان من سنة الله في هذه الأرض، ونواميسه في هذا الكون، وما هي عاقبة المتقين، وكيف كانت عاقبة المكذبين، وفي ذلك ما فيه من أشعار بعالمية التحرك بالنسبة لهذه الأمة. ولا يدع ذلك إلا بما يصحبه من الدخول إلى أعماق النفس الإنسانية، في رغبها، ورهبها، في رجائها وخوفها، في أشواقها وتطلعاتها، مع حسابان للفطرة والعاطفة والعقل والشعور، وما كان من غرائز وميول، ولم تكن هنالك أي غفلة عن الرواسب الموروثة، وما يكون من واقع هو حصيلة تاريخ طويل، لا بد من إعارته ما يلزم من طرائق المعالجة كي يمكن استنقاذ الأمة من الوهدة، والأخذ بيدها إلى مرايع الخير والنور.

على أن هذا الطابع المميز للتوجيه القرآني، الذي يعطي الوقائع سمة الخلود والبناء، وينأى بها عن أن تكون محدودة بالزمن والأشخاص، إنما

تكون له إيجاءاته المثمرة، حين يصادف تلك القلوب المشرقة بنور الإيمان، والنفوس المتطلعة إلى المعرفة بصدق وتجرد، وعزائم الرجال التي تحركها الحسرة على واقع الأمة، ولهفة الحرص على استئناف الطريق الصاعدة من جديد.

ولقد يكون ذلك مطلباً عسيراً على أولئك الذين يلهون بالمزاعم ويحلمون بالأماني، ولكنها سنة الله في البناء والتكوين، ولعل الذين في مقدورهم أن تمتد أيديهم إلى اللبنة تحركها لتأخذ موقعها من ذلك البناء، هم مطالبون أكثر وأكثر بمراجعة ذلك الرصيد الذي ألمحنا إليه، وإنَّ ساحات كثيرة خالية تنتظر عمل العاملين وصدق الصادقين. وكلما ثقلت مسؤولية المسلم شعر بفضل الله عليه أن أدعٍ لحمل هذا العبء، لأن معنى ذلك أنه قد اختاره لذلك، والخيرة فيما يختاره الله. وذلك عنوان ريمان واصطفاء ﴿وَلْيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. ثم: أترى عزيزاً على الله أن تكون تلك الخيرة فاتحة أن يتخذه الله شهيذاً. أن يتخذه لنفسه، ليكون «شهيداً». (فعليل صيغة مبالغة من شاهد). يشهد على هذا الحق الذي بعث به محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وكم يبدو ذلك عظيماً في هذا العصر الذي تجنَّد فيه الصوارف عن الإسلام على النطاق العالمي، وعلى كل المستويات، لا تجد بين الأعداء على تنافرهم فيما بينهم أي اختلاف عليه. حتى وصل بهم الأمر إلى محاولة تحريف أي القرآن الكريم، تجربة ناطح الصخرة، وتهديد الذبابة للجبل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.



إن الطاقات كلها، في الفكر، والعلم، والجسم، والمال، وكل ما يمكن أن يجده المسلم، مدعوة لاقتحام العقبة، والفوز برضى الله الذي ليس عنه إلا الخير، ومن يدري: أي أولئك يكون صاحب الهدية الغالية وهي الشهادة في سبيل الله.

وشتان بين من يرى في ثقل العبء مسوغاً للانفلات فينقلب على عقبه وبين من يراه الفرصة المواتية للعمل الجاد في سبيل مرضاة الله عز وجل. وإذا كانت مرضاة اله مبتغى ينفق فيه المؤمن ساعات الليل والنهار، وكانت الجنة عنوان ذلك الرضا في الآخرة، إن علينا أن نسلك الطريق وأن نصبر على ما يستلزمه ذلك المبتغى، ذاكرين أبداً قول الله تبارك وتعالى في ثنايا الحديث الخالد عن وقائع أحد: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

وكان فضل الله عليك عظيماً^(١)

في مستهل هذه السنة من عمر المجلة ، وعلى شذى فاتحة شهورها ربيع الأول محتوى المولد والهجرة ، نذكر قول الله تعالى مخاطباً نبيه الكريم - عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ .

نذكر ذلك موقنين بأن لزماً على المؤمن أن يبصر طريقه الموحشة في يوم الناس هذا من خلال الفهم الواعي لهذا النداء العلوي وأمثاله من معالم الكتاب العزيز ، وكل ما في الكتاب شفاء ورحمة ، يهدي للتي هي أقوام . فبمقدار ما يكون من حسن تصورنا لفضل الله على نبيه محمد - صلوات الله وسلامه عليه - واختياره أن يكون موضع هذا الفضل ، وأبعاد ذلك في حياته وفي حياة الأمة ، بل في حياة الإنسان على وجه العموم . . يمكن لنا أن نتصور عظيم فضله سبحانه على هذه الأمة ، بأن جعلها في موطن النسبة إلى هذا الرسول الكريم ، وما أثمر ذلك من اختيارها لتكون عنوان الاستجابة لرسالته ، والصورة الحية الصادقة لدعوته ، ذلك أن لهذا التصور البعيد عن الغش والتمويه ، و ماله من دواعي اليقظة والتنبه إلى معنى الابتلاء في حمل تلك الرسالة والالتزام بأعبائها ، وأن الأمة إذا تخلت عن أن تكون على مستوى ذلك الفضل ، فقد قضت على نفسها بسوء العاقبة وشقاء الدارين .

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العددان الأول والثاني ، السنة الثالثة عشرة ، ١٣٩٢ هـ ربيع الأول والثاني ، ١٩٧٢ م أيار - حزيران .



والشواهد على هذا الذي نقول ماثله في الماضي والحاضر، لا ينكرها إلا جاهل أو مكابر.

وإنما ندعو إلى وضوح الرؤية في هذا المجال بعيداً عن العيش والتمويه، لكيلا تنطلي علينا الحيلة من شياطين الأنس والجن، فنسقط ضحايا الأحابيل والأضاليل، وليكون بالإمكان نفض الغبار الذي أثقل الكواهل، وجلاً الظلمة التي رانت على كثير من القلوب، حتى استحالت النسبة إلى الرسول -عليه السلام- نسبة تاريخية عند أفواج مبرقة من بني جلدتنا، وضاعت في عقولهم القيم، فغدوا يصعدون نازلين وينزلون صاعدين، يصدق عليهم مثل الحجلة والغراب.. ويابئس المصير مصير قوم، يستعلي الهوى على الحقيقة في نفوسهم، وتبيض الشهوة وتصفّر في ضمائرهم -إن كانت لهم ضمائر- وتبدو أفتتهم نتيجة الأعراض والبعد عن الالتزام بما تفرضه النسبة -وهي هواء خاوية إلا من أوهام لا تسمن ولا تغني من جوع.

فنبينا عليه وعلى آله أفضل التسليم، قد اختاره الله تعالى -وهو أعلم حيث يجعل رسالته- ليكون خاتم المرسلين، وائتمنه بوحى من عنده على الرسالة التي كانت جماع الخير، وعنوان الهدى، والمنهج الرباني الكريم، فنسخت شريعتها ما سبقها من الشرائع.. حتى لو كان أي واحد من الأنبياء حياً، لما وسعه إلا ابتاه -صلوات الله عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين.. وواضح أن الله شهد لدينه بما لم يشهد لدين قبله، إذ شهد له بالكمال وأنه أتم به النعمة، وجعله هو المرضي عنده، وذلك بما أنزل عليه في

الموقف في حجة الوداع ما نتلوه من سورة المائدة ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ وأوحى إليه بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي حفظ من كل تغيير وتبديل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. هذا مع كونه -عليه السلام- أمياً، لم يكن يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه.

وقد رفع الله ذكره في العالمين، وأعلى قدره، وفضله على خلق الله أجمعين فأنت واجد أن الله جعل له ذكراً في الأولين بما أثبت من أسمه في التوراة والإنجيل من أسمائه ونعوته، والأكثر على أن أبرز ما فعلت يهود من تحريف الكلم عن مواضعه، إنما كان بكذبهم وانكار ذكر النبي -عليه السلام- وصفاته فيما بين أيديهم من كتاب. وعلى لسان سيدنا عيسى -عليه السلام- يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وأكثر من هذا. فقد نص القرآن على صفة أصحابه في التوراة والإنجيل وذلك قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾.

أما ذكره في الآخرين -عليه صلوات الله وسلامه-: فقد قرن الله بينه



وبين أسمه الكريم في كلمة التوحيد ، الكلمة الطيبة التي لا يكون المرء مسلماً إلا بها ، والتي هي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر ، فلا يجوز قنطرة الكفر إلا بها . كما جعل المناداة باسمه جزءاً من الأذان الذي هو إعلان التوحيد والدعوة إلى الصلاة التي هي عماد الدين ، فهو يرتفع كل يوم خمس مرات نداءً مستعلياً إلى هذه الفريضة فوق رؤوس الأشهاد ، ودعوة إلى العبادة الجامعة ، ناهيك عما يحمله وراء ذلك من المعاني البعيدة العميقة في حياة الفرد والجماعة . . وهذا في الأذان فضلاً عن الإقامة .

ونرى أن الله سبحانه قد قرن طاعة الرسول بطاعته ، وجعل معصيته - والعياذ بالله - معصية لجبار السماوات والأرض ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ كما جعل محبته واتباعه من محبته ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ . بل جعل بيعته من بيعته ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وما أكثر النصوص الدالة على هذه المعاني مجتمعة ومفترقة .

ولقد كان من مظاهر الفضل والتكريم : أن ذكره في كتابه على عدد من الأحوال والصور ، فجاء ذكره باسمه الصريح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ . وذكره بوصف النبوة كما ذكره بوصف الرسالة إخباراً ، وفي حالة الغيبة والخطاب ، ولكل حالة من الإخبار والخطاب بالاسم الصريح أو وصف النبوة أو الرسالة ، معنى أشرنا إليه في موضع آخر من هذا العدد عند الكلام عن فواتح سورة (الأحزاب) . ترى ذلك في مثل قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ . ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ . ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ . كما ذكره بوصف العبودية الخالصة لله الواحد سبحانه ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ . ومما يستوقف الناظر في كتاب الله أنالمولى عز وجل ذكر الرسول -عليه الصلاة والسلام- بعظمة خلقه حين قال : ﴿وَأَنْتَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ . وأي فضل وراء هذا الفضل ؟ كما ذكره موصفاً بالرافة والرحمة للمؤمنين ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ . وبرحمته للناس أجمعين وأن ذلك مرتبط بالرسالة الموحاة إليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ . وجاء القرآن على ذكره بوصفه مزكياً للنفوس معلماً للكتاب والحكمة . . والمنصفون المنصفون من الدين عانوا من أمور الإصلاح ربما قدروا هذه القضية قدرها ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ . كما ذكره بوصفه مخرجاً للناس من الظلمات إلى النور . وهو -عليه السلام- الشاهد والمبشر والنذير والسراج المنير . وذكره وأن المسلم من وراء النصوص ، فهي المتبوعة لا التابعة لعقل زيد أو عمرو ، ولا لهوى فلان أو علان . .

وللناظر في أعلام نبوته وما كان من معجزاته في المظان من السيرة والحديث يجد الوقائع التي تحملها الروايات الموثقة ، ونحن تحتزئ بالإشارة إلى بعض من ذلك :

فقد نبع الماء من بين أصابعه ، فشرب منه العسكر كلهم وهم عطاش وتوضأوا كلهم ، كل ذلك من قدح صغير بلغ من ضيقه أن النبي -صلوات



الله وسلامه عليه - لم يتمكن من أن يبسط يده المكرمة فيه . وأطعم النفر الكثير في منزل جابر وفي منزل أبي طلحة - رضي الله عنهما - يوم الخندق . وحن إليه الجذع الذي كان يخطب إليه ، إذ عمل له المنبر حتى سمع منه جميع الحاضرين مثل صوت الإبل ، فضمه إليه ، فسكن . ودعا اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم أنهم يتمنونه ، فحيل بينهم وبين النطق بذلك ، وهو ما نص عليه القرآن بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوَيْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ . وأنذر بأن عثمان تصيبه بلوى وله الجنة . كما أخبر بأن الحسن بن علي رضوان الله عليهما سيد يصيبه بلوى وله الجنة . كما أخبر بأن الحسن بن علي رضوان الله عليهما سيد يصلح الله به بين فئتين عظيمتين ، فكان كل ذلك . وأتبعه سراقه يوم الهجرة فساخت قدماً فرسه في الأرض ، وأنذر بأن ستوضع في ذراعيه سوارا كسرى فكان ذلك . وأخبر أصحابه يوم بدر بمصارع صناديد قريش ، ووقفهم على مصارعهم رجلاً رجلاً ، فلم يتعد واحد منهم ذلك الموضع . وأخبر - عليه السلام - بأن طوائف من أمته يغزون في البحر ، وقال لأُم حرام بنت ملحان : أنت منهم ، فكانت منهم ، وصح غزو طائفة من الأمة في البحر . ومسح ضرع شاة فدرت فكان ذلك سبب إسلام عبدالله بن مسعود ، وحصل ذلك مرة أخرى في خيمتي أم معبد الخزاعية وهو في طريقه ومعه أبو بكر مهاجرين إلى المدينة . وأخبر فاطمة أخته - رضي الله عنها - بأنها أول أهله لحاقاً به فكان الأمر كذلك . وأنذر الناس بمرت النجاشي ، وبين الحجاز والحبيشة ما بينهما

من البحر الملح ومسيرة أيام في البر وخرج هو وجميع أصحابه إلى البقيع فصلوا عليه فوجد أنه قد مات في ذلك اليوم نفسه إذ ورد الخبر بذلك ، غير ذلك . . ولسنا هنا بسبيل الاستقرار .

ولكن الذي وراء ذلك ما كان من عظيم توفيق الله تعالى بأن كان النبي - عليه السلام - على مستوى القيام بحق فضل الله عليه ، فقد قام بأعباء دين عجزت البشرية أن تقوم بأعبائه وتفي بالتزاماته إلا مجتمعة . فقد انهزمت أمام إيمانه وارا دته - فداه أبي وأمي - كل المعوقات والصوارف ، وكل ما اعترض سبيله من رغب ورهب ، تجذ ذلك على نسق واضح المعالم ، في العهدين المكي والمدني حتى أدى الأمانة خير ما يكون الأداء وبلغ الرسالة على أفضل وجه وأكملها ، ونصح للأمة وأمسك الزمام بلكتا يديه ، فرسم للإنسانية معالم سعادتها في الدارين أن لو استقامت على الطريقة ووضعت كل طاقة من طاقات الإنسان في مكانها الطبيعي منطلقة من الإيمان بالله وإخلاص العبودية له .

أما بعد : فقد كن من حفظ الله لكتابه - على ما لهذه الكلمة من أبعاد - أن حفظ لها حديث النبي وسيرته - عليه السلام - ، وذلك واحد من النداءات التي يجب أن تضيخ الأمة لها السمع ، حازمة أمرها على تحويل الشراع واستئناف الطريق استجابة لله وللرسول .

والخطوة الأولى في هذا الاستجابة أن تذكر أن الله تبارك وتعالى حين أكرمها بأن جعلها خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر



وتؤمن بالله، وأقام منها أمة وساطا ليوكن أبنائها شهداء على الناس ويكون الرسول عليهم شهيدا. . إنما كان ذلك بنسبتها إلى هذا النبي الكريم، واستجابتها لدعوته الصادقة الخيرة في إيمانها وعملها وسلوكها. وامتحان الصدق في هذا أن تنعكس هذه الأمور على التربية والاعداد والخضوع لقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾. وعندما نقول: نسبتها إلى الرسول -عليه الصلاة والسلام- فإننا نعني ما نقول، فإذا كان الله جلت حكمته قد أكرم عبده ونبيه محمداً بما لا يسع واصفاً وصفه أو تحديده، إننا بمقدار ما ندرك ذلك، يمكن أن نكون على اليابسة في إدراك عظيم فضل الله على هذه الأمة حين وصلها بأسباب النسبة إلى خاطبه بقوله ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. وعنوان شكر الأمة لهذه النعمة أن تنظر إليها من وجهيها البارزين اللذين أولهما -التكريم وثانيهما- الشرعة والإلزام. فتكريم الله تعالى لهذه الأمة بخصائص لم تحظ بها أمة في الدنيا، لا يعني أن يعقب ذلك نوعاً من المفاخرة الجوفاء العارية عن العمل وحمل النفس على الالتزام، كما لا يعني ما نحن مبتلون به في أكثر أصقاع عالمنا الكبير من الرضا بذلك النسب التاريخي بعيداً عن تقديم أي برهان على صدق دعوى النسب، مع أن أبسط القواعد التي يؤمن بها العقل السليم تشير إلى صدق قول القائل: والدعاوي إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدياء. فهما خطان متلازمان: التكريم والإلزام، ولكل منهما مقتضياته ومستلزماته على صعيد الفرد والجماعة، وعلى كل ميدان من ميادين الحياة، ومن الانصاف

أن تسخر المعرفة والطاقات والكفاءات في هذه السبيل لنكون أحق بالمكرمة وأهلها، وإلا كنا كحاطب ليل، أو كمن يخطط خطب عشواء، وحق علينا قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.

هذه كلمات نزجها لقرائنا الأحبة في فاتحة السنة الثالثة عشرة في «حضارة الإسلام» راجين من الله تبارك وتعالى توفيقه للعمل، وأن يجمعنا دائماً على مرضاته ويسلك بنا سبيل من يحبهم ويحبونه. وإنا لنأمل أن نكون على العهد -إن شاء الله- بالكلمة المؤمّنية الصادقة والفكرة البانية الواعية مستعينين بالله عز وجل، ثم بمعاونة أولئك الإخوة الذين يمدون المجلة بالثمرة الطيبة من فكرهم وانتاجهم، وما يبذلون من جهد، وما يتأجج في صدورهم من رغبة صادقة في أن تتابع المجلة طريقها بقوة واستمرار. شكر الله لهم وأجزل لهم المثوبة. وشكر الله لكل أولئك الذين يؤدون حقوق المجلة الأدبية والمادية، والهم الخير من لا يذكرون المجلة إلا عندما تصل إليهم على استحياء بعد أن أضنتها وأخرتها عن موعد الوصول عقبات الصدور ومشقات الطريق. وإننا في تفاؤل واثق مطمئن نعد قراءنا أن نعمل -حدود مقدورنا- على أن تصدر المجلة في موعدها المحدد، في ثوب قشيب يضم القديم الأصيل والجديد النافع. وذلك كائن بعون الله وتوفيقه.

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً وأنت تجعل الحزن سهلاً إلا شئت، والحمد لله رب العالمين.



العهد الكبير^(١)

وأي عهد هو . . إنه العهد الذي يظلنا جلاله في ذكرى مولد محمد - عليه الصلاة والسلام - عهد العمل على أن نكون مع صابح الذكرى في هديه وكمال شرعته، علماً وعملاً وجهاداً، واعتزازاً بما جاءنا به من الهدى والخير، وما أوحى إليه من الحق الابلج والنور المبين ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ .

إننا بوصفنا مسلمين مأخوذ علينا - والعهد مسؤول - أن نكون - مهما جاءنا من رغب أو رهب - على خط الالتزام الواعي، وقوفاً عند الحدود التي دعا إليها صاحب الذكرى - صلوات الله وسلامه عليه -، وجمع الناس عليها، وصبر وصابر، في سبيل أن تكون راسخة الجذور، متينة الأواصر، يعم نورها أرجاء الأرض، ويضيء هداها في العالمين، فكان خير قدوة في تاريخ الإنسانية لمن يدعو إلى الحق، ويجاهد في سبيله، ولا ييخل بالعطاء مهما كان جلال العطاء، ولا يقعد عن الجهاد مهما كانت تكاليف الجهاد. ولعل من أوليات المسائل والواجبات، أن نحاول تطويع هذه النفوس النافرة، والقلوب القاسية، لتذكر ذلك كله في شهر ربيع الأول الذي كان خيراً على الأيام وإلى المدى . . لأنه الشهر الذي ولد فيه محمد - عليه

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الأول، السنة الحادية عشرة، ١٣٩٠هـ ربيع الأول، ١٩٧٠م أيار.

الصلاة والسلام - .

ولسنا نريدها - وأيم الحق - كلمات ترتسم ليزدان بها وجه القرطاس ولكنها الأمانة . . ولكنها صدى النبكات المتعاقبة على هذه الأمة ، والفتن التي أتت تقطع الليل المظلم ، وصرخات التاريخ الذي لا يني يجيل الطرف بين ماضٍ وحاضر ، ماضٍ يزدان بالعزة التي تملي والقوة التي تحرس شريعة الحق ، وحاضر يطوقه الأسى وتعلوه كآبة والانحراف .

وإذا كنا نذكر بالعهد والالتزام ، إنما كان ذلك لأن صدق ما عاهدنا الله وعاهدنا رسوله عليه ، هو المنطلق الصالح المؤيد لنهضة الأمة من عثارها ، وما يكيد لها أعداؤها ويعدُّون من أسباب الهوان ؛ ففي غمرة الأحداث التي تتصاعد إلى مداها عدوانا على الأرض والكيان والوجود ، جدير بها أن تستمسك بتلك الأصلة من منابع القوة وموارد الخير ، وتسلك إلى ذلك سبل العمل الذي يقوم على العقيدة والمنهج ، وينأى عن الفوضى والاستهتار .

ومع ذكر يمولد سيد العالمين محمد - صلى الله عليه وسلم - لابد من الإشارة إلى بعض الأمور : فبنظرة فاحصة يفترض أن تولدها مرارة النكبة ، لا مندوحة عن تقويم هذه الهزة التي تعتري العالم الإسلامي في تلك الذكرى ! ما هو مدلولها الحقيقي وإلى أي مدى تبدو ذات صلة بمفاهيم الأمة عن الرسالة التي ابتعث بها من أرسله الله رحمة للعالمين وإلى أي حد تنعكس على المقاييس التي بها يوزن الرجال وأعمال المصلحين . ثم ما هو



الجسر الذي نعبر عليه إلى عام الفيل قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، حيث ولد سيد الكائنات في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول يومذاك، ليكون ذلك المولد إيذاناً بحمل رسالة جاءت على رأس الأربعين من عمر مبارك ميمون وتقدمها ما تقدمها من الارهاصات، فكانت بدء تحويل جذري في حياة الإنسانية جمعاء، والنور الذي أضاء جنبات لأرض ومسح عن جبين البشرية ليلها البهيم، فشرح الله برسالته صدوراً آمنت وعملت وجاهدت، وضلّ أقوام فخاب فألهم وظلوا في جاهليتهم يعمهون، حتى توضحت معالم الطريق، وقامت في المعمورة صُوى الحق، ونادى مندي الجهاد، وإذن مؤذن الحياة حيّ على الفلاح، وتقدّم أولئك الذين أمتحن الله قلوبهم للتقوى، فدقوا حصون الضلالة بمطارق العقيدة والمعرفة، ورسموا لقافلة الإيمان طريق المتابعة والاستمرار وربطوا قلوب أبنائها بالله عز وجل وبهدي رسوله -عليه الصلاة والسلام- وستظلُّ هذه القافلة أمانة على العهد وفيه للأمانة حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وإنه لا بد من التساؤل عن حقيقة لا تخفى على الواعين من أبناء الأمة إلا وهي: إلى أي مدى تجاوزت تلك الهزّة السطح الخارجي لتدخل إلى الأعماق فنقوم بعملية التحويل الجذري عن الغفلة التي تغط في مستنقعاتها الأمة، وتتمرغ في أسائها هنا وهناك، على مختلف الساحات والمستويات. إنه بقدر ما يكون صدق تصورنا عن كما الحقيقة المحمدية في رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وكمال الرسالة التي جاء بها وحيا من عند ربه -نستطيع أن

نتحرر لنمسك عاتق الميزان باخلاص ، ونشير بجرأة الرجال إلى مكن الداء ونقطة الضعف ، بل وموارد الهلكة التي تقف على شفاها هذه الأمة .

وإنما كان ذلك في يقيننا لأن الهزة ما دامت نشوة عابرة تلمس السطح العاطفي من حياة الأمة فتبدو قاصرة على احتفال ظاهري يعم اقطار العالم الإسلامي فلن يكون ذلك وحده كافياً لأن يعمل عملاً يلامس الجذر ويوجه القضية من الأعماق .

وليس المهم الآن أن نسرح ونمرح في بحر من النذب والنواح ، أو أن نسبح في مثله من المفاخرة واللهو والطرب وازياء الأنوار . ولكن المهم أن تمسك اليد الأمانة بالسراج لتعثر على مكن الداء في جسم الأمة وترى إلى أي حد كان هذا الجسم متأثراً بالإغراض عن مضمونات تلك الرسالة ، خصوصاً والتجارب والنجسات كلها تقوم إدلة صارخة على أن الإسلام هو المنتجع الصادق الذي لا غنى للبشرية عن أن تفيء إلى ظله ولو بعد حين .

إننا -والعقيدة تحرك مشاعرنا- لابد أن نلظر بحدرد بالغ إلى أي ظاهرة تكون حاجزاً عن الحقيقة ، بحيث يحسب الغافلون أنها تكفي لأن تكون جسراً نعبر عليه زاعمين أن هذا هو الإسلام وتلك هي الصلة بنبي الإسلام ، بينما يهدم الصرح لبنة بعد لبنة .

وهكذا . . فإن الانفعال مع جلال هذه الذكرى يكمن في تجاوز السطح إلى الأعماق ، والنظر إلى اعمل بمضمونات الرسالة التي جاء بها صاحب الذكرى -عليه الصلاة والسلام- ، نظراً أكثر جدية وحزماً وقوة . ويوم



نحمل أنفسنا على مركب الصدق ، وتنقلنا إلى الحقيقة أقدام الجرأة الأدبية العارمة ، نجد أن الاحتفال بذكرى مولده في الحدود التي ترضاها الشريعة ، يجب أن يكون صورة عن الاحتفاء بهديه -صلوات الله وسلامه عليه- ، وكم نكون على حافة الخطر حين تكون الملامسة القشرية عملية تفريغ لشعور الأمة واجهاض لطاقتها ، تحس معه أنها قد فعلت شيئاً وفاء بذكرى مولد الرسول -عليه السلام- وأنها -مع الأعراض عن شريعته وحكمه- تحسب نفسها على الجادة فلا دعوان على الدين ولا انحراف عن طريق المسلمين .

ألا وإنها لطامة كبرى بعد هذا أن تقع في حمأة التهاون بهذا الهدى الذي كان عنوان الحياة ، وطامة أشد وأعتى أن نستبدل به شيئاً آخر من أراجيح هذا العصر ، فنعظم ما حقر الله ، ونرفع ما وضع الله ، ونبدو وكأننا من عبدة الأوثان ، حين نستخدم للحكم على الرجال والمصلحين مقاييس غير مقاييسنا وموازن نستعيرها من هنا وهناك فنعرض عن تعظيم صاحب الرسالة قولاً عملاً وسلوكاً ، ونجنح جنوح الأغبياء في تعظيم من لا تطول رؤوسهم أخمص قدميه ، بل غبار نعليه وهو الذي أنقذنا الله به من الهلكة وأخرجنا برسلته من الظلمات إلى النور .

إلا أن يد محمد الصنّاع التي استطاعت بإذن الله أن تهزّ أرض الإنسان في الماضي ، فتنبت فيها من معاني الخير والحضارة والحق كل زوج بهيج ، هي القادرة اليوم وكل يوم أن تعيد الحق إلى نصابه ، وأن تزيج من طريق الأمة ركام الأذى وأوضار الباطل ، والمهم أن تمد إلى هذه اليد الكريمة تلك الأيدي

الواعية المدركة وفاء للعهد الكبير ، مؤمنة أن من حق الأمة عليها أن تلوذ بالإسلام من جديد . ذاكرة أن الله لا يضيع عنده مثقال ذكرة ولا تخفى عليه خافية ، وأنه قد خلد في قرآنه صنيع أولئك الذين صدقوا ما عهدوا الله عليه في آية تتلى في محاريب المسلمين ، ويتداولها أهل الحق جيلاً بعد جيل ، وأنها لآية جديرة أن تخشع لها حتى قلوب الجبابرة والحجارة الصم ﴿ رَجَالَ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

إننا إن عللنا ذلك ، فجددنا العزيمة على الوفاء وحكمنا بمقاييس الإسلام بالعمل وبمن يعملون ، كنا على جادة الفوز والقدرة على تغيير واقع الأمة ، وإلا حقت علينا تلك العقوبة الزاجرة المرعبة التي نادى بها الكتاب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ﴿ ٢ ﴾ كِبَر مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .



وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين^(١)

حطام هنا وركام هناك . . والأيام تحبو . . وليل الإنسانية يثقل ويتناول . .
والعقول تهرب من ذاتها لتبايع الخرافة على عبادة الوثن . . والانحناء على
عتبة الانصباب . . والكهانة آمرة ناهية لا تفتأ تعبت مقبلة . . وتثير مدبرة دوغما
رقيب أو عتيد . . والطاقات نائمة تحت كابوس التقليد الأعمى . . والطواف
حول موروثات جاهلية ليس أقلها التعظيم بالآباء . . والمكاثرة حتى بالموتى . .
ومن حاول العدوان على هذه التركة المثقلة بالأوضار . . حلت عليه غضبة
الشعر . . وكان حظه «فنجهل فوق جهل الجاهلينا» .

وتطل الحقيقة من وراء الأفق البعيد . . ويبتسم غار حراء . . وتنزل بالخير
العميم رسالة السماء . . قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله
الأمّة . . أدركنا أي أهمية كان يعطيها النبي -صلى الله عليه وسلم-
وصحابته لهذا الخط الموازي من المسؤولية في مقابل إرساله -عليه الصلاة
والسلام- رحمة للعالمين .

وهذا الإدراك يكون طريقنا إلى وعي الأبعاد الحقيقية لبناء الجماعة المؤمنة
القادرة على تحمل عبء تلك الرسالة، تلك الجماعة التي تشكل القاعدة
المصلبة علماً وعملاً وأمانة واستعداداً للبذل والتضحية من أجل أن تؤتي
الرسالة أكلها في الناس، وتحمل إليهم سعادة الدارين، بما تنير من عقولهم
وقلوبهم، وبما تقدم لهم من النظم الخيرة الدقيقة الشاملة .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الخامس، السنة الرابعة عشرة، ١٣٩٣ هـ رجب،
١٩٧٣ م آب .

ليس في مقدورك أن تتصور واحداً من رجال تلك المدرسة، تبارحه - وهو يغدو ويروح - فكرة التبعة والمسؤولية في مواجهة نعمة الله بالإسلام، ورحمته ببعثة النبي - عليه الصلاة والسلام - .

ولقد كانت الممارسة اليومية ، بل التمحيص الذي يزاوهم في كل ساعة من ساعات حياتهم ، هو العنوان لالتزامهم الصادق ، وشعورهم بالتبعة انسجاماً مع إيمانهم وبمايعتهم رسول الله على الإسلام .

وكان ذلك هو ضمان الاستمرار للعقيدة أن تعمل عملها في الأجيال اللاحقة ، وللإسلام بكل أبعاده أن يفرض وجوده في كل بقعة أظلتها راية التوحيد ، حتى بت ترى كأن كل مسلم منط به أن يشارك في عبء ما يدل عليه قوله تعالى ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ ذلك لأن جانباً من هذا المدلول يظل شديد العلاقة ، بالجماعة المؤمنة التي يجب أن تبنى قلباً وعقلاً وسلوكاً وقدرة على الجهاد من أجل تحقيق كلمة الله .

أن قدراً كبيراً من الأمل في استئناف الطريق إلى هدي النبوة يتوقف على مدى ردراك مسلمي هذا العصر للتبعة التي ليقوها على كواهلهم ارتباطهم بالرسالة ، التي ما تزال ولا تزال غضة طرية بمنابعها الأصيلة الأولى كما أرادها الله ، حتى يكون ذلك شغلهم الشاغل ، والمحور الذي يقيمهم ويقعدهم ، والغاية التي تشدهم إلى حياة الجد ، والممارسة التي لا تعرف التهاون ، والاستعداد للمحيص الذي هو سنة الله في أحبابه الذي يأتمنهم على كلمته ، ويجعلهم على ميراث من النبوة «أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأمثل



فالأمثل» وصدق الله العظيم ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ .

إن العهد الذي يقطعه المسلم على نفسه -بشكل تلقائي- حين يرضى أن يجعل من الإسلام عنواناً لعقيدته وتصوراته وسلوكه فيشمر عن ساعد الجد، ويركب الصعب والذلول، مسارعة إلى ما به يكون كفاء هذا العهد، وموطن رحمة الله، ولكنها الغفلة في زحمة الحياة، وحب الدنيا الذي يوقع الناس في مهواة التناقض، فيكون المعتقد بجانب، وما يقتضيه هذا المعتقد بجانب، وما يقتضيه هذا المعتقد بجانب والعياذ بالله .

تري أي سحر هذا الذي نجده في تلك الكلمات السهلة المحببة التي كان يلقيها -عليه الصلاة والسلام- فتفعل فعل الغيث العميم في الأرض الطيبة العطشى، كلمات هي صفوة القول في هذا الذي حوله نندن ولم يترك فيها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- باباً من الخير إلا أعطى مفاتيحه لهذه الأمة أن لو عقلت أمرها .

جاء في الحديث الصحيح عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة، فعجب لها أبو سعيد فقال : أعدها علي يا رسول الله، فأعدها عليه، ثم قال : وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين ما بين السماء والأرض، قال : وما هي يا رسول الله؟ قال : الجهاد في سبيل الله .

هكذا تجب الجنة لمن رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً . .

والرضا يعني الكثير الكثير وترجمانه في العقيدة والتصور والتشريع والسلوك هو الكيان الكامل للأمة في حياة الفرد والجماعة . . وطريق ذلك الجهاد بكل شعبه وميادينه بدءاً من لانفس بين جنبيك . . يا سبحان الله . . ما هذا الذي يكمن في الرضا . . وأي ساحات من الحياة والعمل والالتزام يجب أن تملأها مدلولاته العريضة . . وما هذا الذي يرفع الله به العبد مائة درجة في الجنة . . لقد آن للأمة أن تذكر ما يعنيه هذا الكلام ، وما برهان صدقها في دعواه . . فتضع أقدامها على الطريق ، بوعي لا تشوبه رغبات جامحة ، ولا أهواء شاردة ، وبثبات لا يعكره ارتجال ، ولا تذهب بريجه فرقه ، ولا يثين عن الماضي فيه استعجال الثمرة وابتطاء ما وعد الله .

اللهم يا مقلب أنت القادر - ونواصينا بيدك - أن تجعلنا عند الذي يعنيه الرضا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً وصلاة الله وسلامه على من أرسله الله رحمة للعالمين ، وأوحى إليه في محكم كتاب ﴿ مِنْ كَانَ يَرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴾ ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ .



الرسالة والرسول^(١)

ليس عجبياً أن تكون بعثة رسولنا الكريم محمد - صلى الله عليه وسلم - أقوى وأوضح منعطف في تاريخ الإنسانية، نقلها من حال إلى حال، وبدل ما كان شبيهاً بالموت في حياتها، باليقظة التي أوجدت الإنسان الصالح للبناء وفجرت ----- حتى اهتزت الأرض في دنيا الناس وربت، وأنبتت في ميادين الروح والقلب والفكر من كل زوج بهيج .

ليس عجبياً أن يكون الأمر كذلك، والرسالة التي جاء بها وحيّاً من عند ربه عز وجل، تحمل فيما تحمل عقيدة متوائمة مع فطرة الله التي فطر الناس عليها عقيدة هي من البساطة ذروتها، ومن العمق أدقه وأغلاه، تصل العبد بخالقه موحداً، وتحمله إلى ساحة من الحرية الواعية حين تخرجه من عبادة العباد إلى عبادة الله فكانت عنواناً لميلاده، بعد أن ضرب عليه الطغيان بالأسداد، وعانى ما عانى من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . . وبعد أن كبته الخرافة والتقليد الأعمى ومجافاة العقل السليم، بقيوم جعلته وكأنه ركام من هذا الركام المضروب عليه، فكان كل ما كرم الله به هذا المخلوق وفضله به على كثير ممن خلق، محجوب بالسدود والقيود، حتى فتح الله فتحه، وأشرقت جنبات مكة وطيبة، وانحلت العقدة الكبرى، وخرج الإنسان الحبي الرازح تحت الطغيان بشتى ألوانه ليستنشق عير الحياة، ويبدأ مسيرته

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الأول، السنة الخامسة عشرة، ١٣٩٤هـ ربيع الأول، ١٩٧٤م نيسان.

الحضارية المؤمنة من جديد، بذلاً وعطاءً، وتفجر طاقات ومواهب زانه الله بها يوم تأذن سبحانه أن يجعله في الأرض خليفة .

وحملت الرسالة فيما حملت -شريعة تنبثق من تلك العقيدة فيها كل عناصر الإيجابية، والشمول والإنسانية والبعد عن الحرج، فهي قول وعمل ومواجهة لكل متطلبات الإنسان في الحياة، وهي لسعادة هذا الإنسان أياً كان . . . في تخطي حدود الزمان والمكان والجنس واللون، هذا بجانب المنهج الخلقي الذي ربط الأخلاق البريئة من النسبية والتلون ربطاً وثيقاً بإيمان .

وبهذا كله وكثر من ملامح الإلام تحول التاريخ ليقلو كلمة الخير بعد طول ضياع وشقاء، وطبعت أمتنا على وجهه سمة رسالتها الجديدة، التي كان من بعض جوانبها ذلك الاكتشاف الهائل لإنسانية الإنسان وذلك المد الحضاري، الذي تلقت مدارس العصور الحديثة منه ما تلقت، وأخذت ما أخذت مع نكران الجميل .

وهذا الحديث في شهر ربيع الأول شهر مطلع النور في مولد محمد -عليه الصلاة والسلام- وبعثته وهجرته يسوقنا إلى الحديث عن اليقظة المنشودة في عودة المسلمين إلى المورد الأصيل الذي به صنعت أمتنا تاريخها وتربعت على عرش المعلم لأمم الأرض .

إننا لنبعد المرمى أكثر مما ينبغي حين نحسب أمر الإسلام اليوم ينحصر في كشف القناع لغير المسلمين عن حقيقة فيكون همنا أن نقدم الأدلة والبراهين على أنه الدين الذي له كل مقومات الحياة . . وما إلى ذلك والواقع أن هذا



واحد من جوانب الموضوع في نظري ، وربما كانت فائدته في مجال الأبحاث العلمية (الأكاديمية) كما يقولون ، وهناك ترد تهمة ، وتقرر حقيقة ، ويكشف عن زيف ، وتجلى واقعة من الوقائع مما يتطلبه الموضوع المطروح . فليقم بهذا أهل الاختصاص . وقد يكون ذلك من الواجبات الملحة في ساحة إبعاد أذى الأعداء وتشكيكهم أبناء الإسلام في إسلامهم بكل ما يملكون من حيلة ووسيلة .

غير أن جوهر المشكلة هو في هؤلاء المسلمين اليوم ، هو فينا نحن الذين أصبحنا وكأننا بحاجة إلى (الأسلمة) من جديد . . لا أقول : أسلمة ، أقصد من ورائها إلى تكفير الناس ولكن أقول : أسلمة تحمل على العمل ، وإنجاز مقتضيات الإيمان . . بعيداً عن التأثير بما تسوله الشياطين ، ثم تطويع السلوك نحو الأمثل والأفضل ، على النهج الذي يمليه المنهج الرباني ، وتلزم به عقيدة التوحيد ، حيث الإيمان بالله ربا واحداً لا شريك له في العبادة ، والاستعانة ، والحكم والعطاء ، سبحانه ، وحيث التصديق العملي بأن محمداً رسول الله الموحى إليه المبلغ عن ربه رسالته ، وأن طاعته من طاعة الله « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

ولقد صنعت أمتنا التاريخ من قبل بمبادئ الإسلام والروح التي أضاء قبسها محمد -عليه الصلاة والسلام- فلم تكن حاجة الإنسانية وحدها يومذاك كافية للابداع وصناعة التاريخ ، لولا تلك المبادئ التي جاءت وحيّاً من عند الله عز وجل وهي الرسالة ، ولولا تلك لامست القلوب والنفوس

بما صنعه محمد -عليه الصلاة والسلام- وهو الرسول، حيث غير المفاهيم، ووضع سلماً جديداً للقيم ورسم النظام لسعادة الدنيا والآخرة وكان ملاك ذلك قوله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. نزل عليه الوحي، فكان هو الصورة لما دعا إليه الناس، وكان سلوكه التطبيق العملي لكل جوانب الرسالة التي ائتمنه الله على ابلاغها، وصدق في ذلك قول عائشة -رضي الله عنها- «كان خلقه القرآن» فكان الرباط بين الرسالة والرسول. . رباطاً كشف عن صدق هذا المنهج الرباني، وإنه صالح لواقع الإنسان والرسول. . رباطاً كشف عن صدق هذا المنهج الرباني، وإنه صالح لواقع الإنسان كما خلقه الله، دون وقوف عند حدود الزمان والمكان. . ومن بعد فهو منهج لا يعيش على التجريد حبيس الأذهان والخيالات. . وإنما هو منهج مهياً لأن يعمل به البشر، ويحققوه في دنياهم كما خلقهم الله، بحاجاتهم وتطلعاتهم وأشواقهم، وغرائزهم. ولم يكن تحقيقه بالأمني وطلب العافية، وإنما كان بالإيمان العميق والجهد الصابر، والعطاء الذي يستعصي على القيود، في إطار من الالتزام الواعي الذي لا ينقصه الرضا ولا يخضع لسلطان الغفلة. ودليل ذلك، أنه كما كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الصورة المثلى والتطبيق العلمي لرسالته -عليه الصلاة والسلام-. استطاع في الوقت نفسه أن ينشئ المجتمع الإسلامي الذي تمارس فيه الحياة وشؤونها، وتنظم على صعيده أوضاع البشر وحاجاتهم هنا وهناك، وكان قوام ذلك تلك القاعدة الصلبة من أولئك الناس الذين خلقهم الله من لحم ودم وحمل إلينا التاريخ من أخبارهم في حالات الحرب والسلام



والغنى والفقر، ما لا يكاد يصدقه الغارقون في المخالفات، الوالغون في الاثم، المجافون للفطرة. وكانت طريقة النبي في إنشاء هذه القاعدة، تعليم أفرادها الإسلام، ثم تربيتهم عليه ساعة بعد ساعة يوماً بعد يوم، وكان التمحيص جزءاً من المنهج ولبنة من أغلى لبنات البناء، ولقد كان عليه السلام قادراً على التربية بالأسوة الحسنة كما كان قادراً عليها بالكلمة والتوجيه. وذلك ما يجب أن يسلكه الرواد والمصلحون اليوم.

وهكذا. . تبدو المشكلة ومفتاح حلها بأيدينا -نحن المسلمين- من هذه الناحية. فالإسلام بمبادئه، والروح التي حركت أعماق الضمير الإنساني، فأنتج وأبدع وولد ما ولد من قيم حضارية في ظلال الإيمان. . وحمل العبء فيه ومارس أحكامه ممارسة جدية واقعية في مختلف بقاع الأرض، وعلى مختلف الألوان والاجناس، بعد أن جاء بلسان عربي مبين رجال صدقوا واستقاموا. . الإسلام كما هو في مبادئه، وكما هو في واقعه التاريخي، وكما هو في الشحنة الحضارية عبر القرون. . والتراث الناطق بهذا الذي نقول. . إن الإسلام وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده والنعمة التي أنعم بها على العالمين هو حجة الله على الناس عموماً وعلى هذه الأمة بخاصة. . أن تعود إليه، أن تستلهمه بناء الإنسان من جديد.

ولقد يحلو لبعض المتحذلقين بعقولهم المتنكرين للأمة وتراثها بافكارهم. . أن يقولوا هذه دعوته إلى الانقطاع عن الحياة. . والبعد عن معطيات العصر الحديث، وأغماض العين عن كل ما تجود به حضارة القرن العشرين. من علم تقني ومنجزات.

ولسنا بسبيل أن نرد على هؤلاء في هذه العجالة من القول -ولكننا نقول :

أولاً: إن الإسلام هو دين الحياة بل هو الذي بنى الإنسان الذي يصلح لأداء رسالة الحياة، ولكن على أساس من الإيمان والبعد عن الميكيفيلية وأن الغاية تبرر الوسيلة بحيث يستخدم العلم ليُجعل من الناس سادة وعبيداً فأصحاب العلم التقني هم السادة وغيرهم عبيد. فعندنا إيمان وخلق وعلم وعمل ووسيلة نظيفة مشرقة، لغاية مثلى في ظل طاعة الله الذي خلق الإنسان والكون وأودع هذا الكون خصائصه وسخره للإنسان.

ثانياً: أن الأمة التي جعلها الله خير أمة أخرجت للناس وكانت من بناء أعظم حضارة في التاريخ، مهمتها اليوم أن تحافظ على أصالتها مع الاستفادة من معطيات العصر الحديث، فحينما ندعو منهج القرآن فإنما ندعوا إلى الذاتية والأصالة، بحيث نجمع بين الحفاظ على وجودنا وبي التجديد والتحديث، ولكن التحديث -كما أشرت في كلمة سابقة- سيء -وضياع هوية الأمة والتنكر لأصالتها شيء آخر- على أنه لابد من فهم الإسلام كما أنزله الله وكما هو في منابعه الأولى بعيداً عما ينسب إليه الجاهلون أو الغافلون أو أعداؤه المبطلون.

إلا أن الذي تتطلع إليه قلوب المخلصين -وبوادر اليقظة واضحة والحمد لله- وتهفو لتحقيقه نفوس الرواد ومسؤوليتهم كبيرة أمام الله ثم التاريخ. . تلك النقلة من وهدة التشكك إلى ميدان القناعة، ومن ضياع الانبهار بما عند الآخرين دون وعي ولا تمحيص. . إلى الفهم الواعي لما حولنا ولمن حولنا،



إلى الإفادة من طاقتنا وقدراتنا ووضعها موضع البناء، إلى أن نأخذ ونعطي بيقظة ووعي والحياة أخذ وعطاء. . إلى العزة الإيمانية التي كانت السمة المميزة لأولئك الذين صنعوا تلك الأمجاد. وقبل ذلك وبعده ومعه. . نريد تلك النقلة من ظلام الجفوة والطواف حول النفوس والأهواء. . إلى نور الحب، حب الله وسروله حباً يحرك أعماق الأعماق، ويسمو بالمسلم إلى ما هو أعز من متاع الدنيا فهو سبحانه واهب الوجود والحياة، والأرذاق والأجال بيده سبحانه وكل شيء دون مرضاته هباء، إلى حيث نكون قادرين على استشعار ما يعنيه قول بعضهم وجراحاته تثغب دماً. . إنها الجنة أني لأجد ريحها دون أحد. وذلك بعض من حلاوة الإيمان «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

فلكم كسر الحب من قيود، وأضاء من ظلمات، ولكم فك أسارا وحطم من حواجز، ولكم خرج بصاحبه من ضيق الشقاء إلى سعة الطمأنينة والسعادة أو لم يكن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يكثر أن يدعو بقوله: «اللهم أرزقني حبك وحب من يحبك وأجعل حبك إلى من الماء البارد».

إن هذا الذي قد نسميه اليوم مدنية، وتأقلماً مع الحضارة الحديثة في السلوك، هو في بعض حالاته انقطاع عن الله وبعد عن رسوله -عليه

الصلاة والسلام-، والممارسة الحضارية الواعية إنما تكون في غير هذا الذي تجاوز القشرة إلى القلوب والنفوس . وإنا ونحن نذكر محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم- رسولاً هادياً وشفيعاً رحيماً، ونذكر رسالته نوراً مبيناً وهدى للعالمين . ندعو أنفسنا وأمتنا إلى هذه النقلة في الفكر والعمل والسلوك وحب الله ورسوله والجهاد في سبيله فذلك برهان صدق الدعوى، وعنوان الإرادة، وإعلان الخطوة الحازمة لبناء أنفسنا وتاريخنا من جيد والله المسؤول أن يجعلنا من الذين قال فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ صلى الله وسلم على نبي الهدى والرحمة كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون . . والحمد لله رب العالمين .



من المنهج النبوي^(١)

كانت حلقة واضحة من حلقات المنهج النبوي في الدعوة إلى الله، أن رسولنا عليه الصلاة والسلام كان يبلغ رسالة ربه بكل أمانة ووضوح، وفي الوقت نفسه يعمل جاهداً على إعداد أولئك الذين يبلغهم إعداداً يكفل تحمل تبعات الدعوة، وحراسة أفكارها ومقتضياتها في النفس وفي العالم الخارجي بوعي وإخلاص. فلم يكن الاهتمام مقصوراً على التبليغ اللساني فحسب، وإنما كان يتعدى ذلك إلى التربية الفذة التي قدمت للبشرية نماذج فريدة تمثلت في جيل قرآني حوّل المبادئ إلى حركة تسعد الإنسان وتحيي موات القلوب، وتبني الحضارة على أفضل الأسس وأقواها. ولم يكن بدعاً بعد ذلك أن تكون سمة القاعدة التي بناها محمد -صلى الله عليه وسلم- وحملت كواهلها المجتمع الإسلامي الأمثل، سلامة التصور دائماً وسلامة التطبيق. وإنك واجد في الفرد -وهو لبنة الجماعة الأولى- صورة حية لتلك الدعوة بأفاق فكرها، وميادين عملها، وواقعيتها في التطبيق والالتزام. ولم يكن ميدان ذلك الرجال فحسب، وإنما كان ميدانه الرجال والنساء على حد سواء كل على الشكل الذي أهله الله له، وما يكون في مقدوره حسب التكوين، من تحمل عبء الرسالة والتزام أحكامها.

وإذا كانت سيرة الرسول -صلوات الله عليه- في تبليغ الدعوة وتربية

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الرابع، السنة الخامسة عشرة، ١٣٩٤ هـ جمادى الآخرة، ١٩٧٤ م تموز.

الجيل الذي يحملها حافلة بالشواهد والأمثلة لما نقول، أن تلك الطريقة كانت تأخذ أبعادها في ظل المنهج القرآني الذي ابتعث الله محمداً -صلوات الله وسلامه عليه- به وائتمنه على بناء أمة تكون بالإسلام خير أمة أخرجت للناس.

وبذلك تميزت هذه الدعوة المحمدية عن كل ما عرف العالم من اتجاهات وفلسفات تظل أفكار أصحابها حبراً على الورق، أو تموت حبيسة أذهانهم لا تجد صورتها الحية الواقعية على الأرض.

وعلى مدى التاريخ... إنك واجد من الظواهر المرضية في جسم العالم الإسلامي انحسار هذه التربية عن مبادئ الإسلام علماً وعملاً، واقتصار ذلك على تلقين المعرفة دون أن تأخذ هذه المعرفة طريقها إلى أن يكون الإسلام وجوداً حياً يعطي ويملي ويحكم، آخذاً بزمام المجتمع في كل ميادين البناء والتنظيم.

ولسوف ينظر التاريخ غير المزور نظرة إكبار وتقدير إلى كل أولئك الذين تتسم نظرتهم بالشمول والربانية، فيدعون إلى الله، ويربون من يدعونهم على التزام أحكام الدعوة، عقيدة وعملاً وجهاداً في كل منطلقات الفكر والسلوك... . ولسوف يذكر أيضاً أن أعداء الإسلام لا تداخلهم رهبة كرهبة أن يستأنف المسلمون هذه الطريق، ويكرم الله الأمة بمن يحملون الدعوة ويعملون على صياغة الجيل عليها صنيع محمد -عليه الصلاة والسلام-، وإن من أجل ذلك يظهر أعداء هذه الأمة -على اختلاف العناوين- على



حرب هذا المنهج وأهله وإعطائه تعريفات وعناوين ما أنزل الله بها من سلطان، فتسمع من ذلك وترى العجب العجاب . . وتكاد تضحك من بلايا القرن العشرين، وشر البلية ما يضحك .

إننا إذ نلحُّ على التذكير بهذه الحلقة من المنهج النبوي، فإنما ذلك لأن حاجتنا إليها اليوم في يقظة الأمة، وتبصيرها بالإسلام، حاجة ملحة تتعلق في نظرنا بالأمور المصيرية لهذه الأمة، فالصراع الذي تعانيه أجيالنا بين الأخذ بالإسلام، أو التصفيق ببله لكل ما ينبو عنه ويجفوه . . هذا الصراع لا ينهيهِ إلا الأخذ بما كان من المنهج النبوي في الدعوة إلى الله . يوم أتى ذلك المنهج ثمراته الطيبة عبر قرون متطاولة، وفي مواجهة تحديات فكرية وعملية على كل صعيد . . بل يمكن القول بأن كثيراً مما هو بالخوارق أشبهه، في تاريخنا من حاكم يعدل، وبطل يستشهد، وأم تضحى، وعالم يجهر بكلمة الحق، وإنسان يقول إذا سيم الخسف: لا بملء فيه . إنما كان مرده تلك الصياغة إلى الفكر الذي تفتح له القلب وقنع به العقل فأصبح صاحبه في عمله وجهاده والتزامه بما أمر الله وكأنه هو الفكر نفسه والعقيدة ذاتها . .

أو لم يكشف القرآن -على الصعيد العام- عن زيف أولئك الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها وشبههم بذلك الحيوان الأعجم الذي يحمل أسفاراً . . تذكيراً لهذه الأمة أن لا تقع فيما وقعت فيه يهود من جعل الكتاب المنزل كلمات تتردد على الألسنة فحسب، وكم هو مروّع بالغ الإنذار قوله تعالى بعد هذا التذكير . ﴿بئسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ﴾ .

ولقد يكون من الخير أن نؤكد على أن من ثمرات تربية الجيل على ما ندعوه إليه أنه بالإضافة إلى تحقيق ذاته وإبراز الوجود الحي للإسلام في فكره وعمله وسلوكه ، تتكون عنده الملكة التي بها يزن الأمور بالقسطاس المستقيم ، ويعطي للأحداث والوقائع قيمها الحقيقية لا المزورة ، ويدرك بحسّه الإيماني والعملي ، وتفتح المرتبط بقيمه وموازينه . . حقيقة ما يجري من حوله هنا وهناك ، فهو بان الحياة الذي يحمل رسالة الحياة التي هي رسالة الخير والحق وسعادة الإنسان في الدنيا والآخرة .

وعلى الرواد أن يكونوا على يقين بما عند الله وأن يعلموا أن الإيمان والابتلاء في سبيل الله تأمان ، ومن الغفلة الغافلة أن يكون في حسابهم غير هذا وإنما عليهم العمل المخلص والصبر . . ﴿لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَمِ الْأُمُورِ﴾ .

أما أولئك الذين لم يذوقوا للإيمان طعماً ، وراحوا يتمرغون على فراش الغفلة والمهانة ، مولين ظهورهم لدعوة الخير ، من ضل سعيهم في الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا . . فحسبك من شأنهم قول الله جلّت قدرته : ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ .

وإنه لما يثلج الصدر ويبعث على الطمأنينة بوعد الله دائماً ، ما ترى من مظاهر الوعي عند الأمة التي يجب أن تذكر في صراعها الطويل مع الأعداء وما يكلفها ذلك من تضحيات قول الله تباركت أسماؤه : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ



غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مَهْطِعِينَ
مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَتْهُمْ أَسْوَاءُ ﴿٤٣﴾
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين . .

من معالم التنزيل^(١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا
﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ وَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾ .

بين يدي السورة :

هذه السورة المباركة سورة مدينة ، وتعدد آياتها سبع وستون . وقد سميت
«سورة الأحزاب» نسبة إلى غزوة الأحزاب «الخنندق» المشهورة ، والتي
وقعت سنة خمس أو أربع للهجرة على شيء من الاختلاف بين العلماء .
وقد أخذت هذه الغزوة مع غزوة يهود بني قريظة حيزاً لا بأس به من الآيات
الكريمات .

والناظر في مجموع أي السورة يجد أنها تتناول جانباً هاماً من حياة
الجماعة المسلمة في الحقبة الممتدة من بعد «بدر الكبرى» أكرم المشاهد والتي
وقعت يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان للسنة الثانية للهجرة ، إلى ما
قبل «صلح الحديبية» الذي عقد بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين
كفار قريش في ذي القعدة للسنة السادسة .

وإنه لوجه من وجوه واقعية القرآن الكريم ، فيما يرسم للجماعة المسلمة ،
وفيما يعمل من تربيتها واعدادها لحراسة دعوة التوحيد والعمل على أن
تكون الحاكمية لله تعالى في هذه الأرض : ما نرى من التصوير الواقعي



للأحداث حتى كأنك تلمسها وتعيش في ظل جزئياتها ، وتنسم باحساسك وشعورك وقائعها . . ثم ما نبصر من وضوح المنهج الرباني في إعداد النفس الإنسانية لحمل العبء ، والربط بين الأحداث وبين تكوين الفرد في أعماق نفسه وتصرفاته من جهة ، ثم ما يكون من تشريعات يراد لها أن تحكم المجتمع المسلم من جهة أخرى ، تلك التشريعات التي تنبثق من عقيدة التوحيد والتزام ما جاء به الوحي بعيداً عن كل المعوقات والصورارف ، وتنظم شؤون الحياة ، في استجابة طبيعية لحاجات التي أحاط بعلمها العليم الحكيم سبحانه .

وفي سبيل ذلك -والله أعلم بمراده- افتتحت السورة بأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بالتقوى والثبات عليها ، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، والتزام أن يتبع ما يوحى إليه ، وأن يجعل الله حسيبه فيتوك عليه في جميع أموره ، وكفى بالله وكيلًا .

وكان ذلك هو المنطق لإبطال ما يكون من موروثات الجاهلية الجاهلاء كالنبي وغيره ، ثم إخضاع المجتمع الجديد -كما أراده الله- لضوابط الشريعة الجديدة المباركة ، وتبيان أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ، وترى من بعد حمل المسلمين إلى ساحة الفهم العميق لما حصل في «الأحزاب» و«بني قريظة» وما كان من مواقف المنافقين واليهود ، والتحالف الوثني الماكر بين هاتين الفئتين الخبيثتين وبين المشركين .

وكان ما كان من إيضاح السمات التي يتسم بها بيت النبي -صلى الله

عليه وسلم- الذي شاء الله له أن يكون قدوة البيت المسلم والأسرة المسلمة إلى قيام الساعة.

وهذه السمات كما نبصرها من خلال ما ورد في آيات تخيير أزواجه - صلى الله عليه وسلم- بين الله ورسوله والدار الآخرة وبين الدنيا، والأمر بالالتزام الصارم والاستقامة التي لا تجارى في النساء . سمات توضح الفارق الأصيل بين بيت النبوة وبيت الملك ، فالنبوة شيء والملك شيء آخر . وأنت واجد في مدلول الآيات بعد ذلك ما يدل على أن الرجل والمرأة متساويان في خطاب التكليف ، وكيف أن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر وأنثى وأنه أعد للمؤمنين والمؤمنات . . الذين تنعكس عقيدتهم على سلوكهم مغفرة وأجرًا عظيمًا . وهذا لا يتعارض مع الفوارق التي قررتها الشريعة في بعض الأمور كالقوامه وغيرها ، تلك الفوارق التي كانت - بحكمة الحكيم- بناء على الأهلية والاستعداد والتكوين .

ولقد جاءت الآيات -فيما بعد- على تثبيت واحد من الأسس الإيمانية- بمناسبة زواج زيد بزینب -رضي الله عنهما- هو أنه ليس لمؤمن ولا مؤمنة خيرة أمام ما يقضيه الله عز وجل ورسوله .

وبلمسات علوية كريمة أتت بعض الأي على قصة زينب وزواج النبي - صلى الله عليه وسلم- بها بعد أن طلقها زيد ، وكيف أن الله تعالى هو الذي أراد ذلك من فوق سبع سماوات ، وأنه ما كان للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن يخفي إعلام الله إياه أنه مزوجه بها ، خشية أن يقول الناس إن



محمداً تزوج بمن كانت زوجاً المتبناه - الأمر الذي كانت تستنكره الجاهلية .
وأبطل الله لذلك عادة النبي ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ .

وفي هذا الاطار العام ، أنت واجد - بعد ذلك - بعض الأحكام المتعلقة
بالمرأة من حيث الطلاق والعدة وما إليها . وبعض الأحكام الخاصة بالنبي -
صلوات الله وسلامه عليه - في شأن الزواج والطلاق .

وكان من مظاهر التكوين الحقيقي للفرد والجماعة تكويناً يتسم بالأدب
والذوق الرفيع : ما كان من تذكير المؤمنين بالأدب مع بيوت النبي - صلى
الله عليه وسلم - إذا دعاهم إلى طعام ، لما أن البعض كانوا على شيء من
الغفلة في هذا الباب . ثم كان النص على حجاب أزواج النبي - صلى الله
عليه وسلم - وكان ذلك فيصلاً بين حقتين من الزمن ومن موافقات القرآن
لعمر - رضي الله عنه - .

ومن بعد : كان تحريك قلوب المؤمنين بندى الصلاة على النبي - صلى الله
عليه وسلم - ، وإن واجباً عليهم أن يصلوا ويسلموا عليه .

وفي لسمة واقعية جاءت بعض الآيات على ذكر المنافقين ، وتوعدتهم
على ما يكون من الأرجاف والأذية للمؤمنين والمؤمنات . وبعد التذكير
بالساعة وهول يوم القيامة والحكم على الكافرين باللعن ، وعذاب السعير ،
والخلود في جهنم ، كان تذكير المؤمنين بأن لا يقعوا فيما وقعت فيه يهود من
إيذاء موسى عليه السلام ، مبينة أن خير معتصم لهم هو تقوى الله والقول
السديد .

وفي خاتمة المطاف كان من حكمة من إليه يرجع الأمر كله سبحانه، أن تختم السورة بالحديث عن الأمانة التي أشفق من حملها السموات والأرض والجبال، وحملها الإنسان. ومن أجدر من المسلم الذي يصوغه القرآن من مراعاة الحق والصدق في حمل تلك الأمانة. . ومدلول ذلك واسع المدى بيد الغور. وهكذا يبدو الترابط واضحاً بين خاتمة السورة في الحديث عن الأمانة. . وبين فاتحتها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ..﴾. الأمر الذي يشعر بوحدة السورة في بنيتها، وأن التكامل واضح بين المضمونات التي أشرنا إليها بإيجاز - لا يتسع لأكثر منه المقام - وبين نقطة البدء وهي أن الحاكمية لله، وأن المحور تحقيق العبودية له سبحانه، وبناء على ذلك فلا بد -بعد المعرفة- من أعداد النفس وتركيتها ليستشعر القلب جلال الله وعظمته، ويكون من العبد ذلك الاستسلام المطلق لإرادته، والرضا بخيرته وحكمه، في طمأنينة صادقة يجدها من ذاق حلاوة الإيمان، وأدرك ثقل الأمانة التي أريد للمسلم أن يحملها في هذا الوجود.

هذا: وبعد تلك السطور الموجزة نتقل إلى آيات السورة لنعيش معها مقطعاً بعد مقطع في صفحات مباركة إن شاء الله غير زاعمين الاستيفاء زو ما يقاربه. . ولكنها محاولة الفهم والتدبر. . والله المستعان.

قال الله جل وعز ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾ (١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.



هذا نداء من الله تعالى لنبيه -عليه الصلاة والسلام- بأن يتقي الله،
والتقوى -على عدم انقطاعها عن المعنى اللغوي- في وضع الوقاية،
أصبحت تطلق ويراد بها ذلك المعنى الاصطلاحي الذي يقوم على وضع
المرء وقاية دون عذاب الله تعالى وذلك بالطاعة والاقلاع عن المعاصي. قال
طلق بن حبيب: التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب
الله، وأن تترك معصية الله على نور الله مخافة عذاب الله.

ولقد كان من تشريف الله تعالى وتكريمه لنبيه -صلوات الله وسلامه
عليه- والتنويه بفضيلته ومحله، أن ناداه هنا بوصفه دون أسمه فقال تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ كما قال في موطن آخر ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ علماً بأنه نادى
غيره من الأنبياء والرسل باسمه، كقوله: يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا
داود، يا موسى، يا عيسى... إلخ.

على أن من الملاحظ أنه في حالات الأخبار عنه بأنه رسوله نودي نبينا -عليه
الصلاة والسلام- باسمه أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وقوله
﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾. وذلك تعليماً وتلقيناً للناس
أن يسموه بذلك ويدعوه به، وفي حالة عدم القصد إلى الاعلام بذلك
جاءت الآيات على ذكره على الطريقة التي جاءت في النداء، نجد ذلك مثلاً
في قوله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ وقوله جل وعلا ﴿وَقَالَ
الرَّسُولُ يَا رَبِّ﴾ وقوله سبحانه ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وغير ذلك
من الآي.

ومما لا شك فيه أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- متلبس بالتقوى، ناطق في أقواه وأعاله وسلوكه بها، فهو أخشى عباد الله لله، وأمام المتقين الأبرار من قبل ومن بعد. فداء الله له بأن يتقي الله ويخافه أمر بالديمومة على ما هو فيه من التقوى، وأن يظل متلبساً بها، يتقلب في نورها وظلالها في كل حركاته وسكناته، ولقد يكون في ذلك أيضاً بيان لمنزلة التقوى وبيان لعظيم شأنها ومكانتها من عمل المسلم في هذا الدين القويم.

وجميل ما فهمه العديد من المفسرين بأن في هذا النداء تنبيهها بالأعلى على الأدنى، فإذا كان عبدالله ورسوله محمد -عليه الصلاة والسلام- قد أمر بهذا، فغيره -عليه السلام- من أفراد هذه الأمة أولى وأحرى بهذا الأمر^(١) وإذا أحسنا تصور المهمة الملقة على عاتق الأمة وما يجب أن يكون عليه الفرد الذي يشكل اللبنة الأولى في البناء، كان بمقدورنا أن ندرك عظيم مكانة التقوى في ذلك البناء، فتقوى الله -كما يقول صاحب الظلال- واستشعار جلاله هي القاعدة الأولى، وهي الحارس القائم في أعماق الضمير على التشريع والتنفيذ، وهي التي يناط بها كل تكليف في الإسلام وكل توجيه.

ثم نهى الله نبيه -عليه الصلاة والسلام- عن طاعة الكافرين والمنافقين بقوله ﴿وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فغير جائز أن يستشيرهم في صنع القرارات الجوهرية أو أن يستمع لآرائهم وما يقدمون من توجيه أو اقتراح. وإذا كان من أسباب ذلك ما كان من واقع المدينة ووجود الكافرين والمنافقين

(١) انظر (البحر المحيط). (٧/٢١٠). وتفسير ابن كثير: ٤٦٥/٣.



فيها، فإن خصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، فالتوجيه باق للمسلمين في كل زمان وفي كل بيئة يتوافر فيها هذا المناخ، وخصوصاً ما يكون من أمر الكفرة والمنافقين في الأمور التي تتعلق ببنية الأمة وكيانها في العقيدة والتشريع وما إليها. والله تعالى عليم بالصواب من الخطأ، والمصلحة من المفسدة، وعلمه محيط بعواقب الأمور، حكيم في أقواله وأفعاله لا يضع الأشياء إلا مواضعها على ما يرى من الحكمة وما فيه خير العباد، فهو سبحانه أحق أن تتبع أوامره وأن يطاع ويوقف عند حدوده. وذلك قوله جل وعلا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(١).

قال الله عز وجل ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وبعد التوجيه إلى التقوى والاستدامة عليها، والتنبيه إلى موضعها من كيان الأمة، والنهي عن طاعة الكافرين والمنافقين، وعدم الانخداع بما يمكن أن يكون منهم من صور المشورة والتعاون وما إلى ذلك. . أمر الله نبيه -

(١) هذا وقد ذكر الواحدي وغيره أن الآية نزلت في أبي سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبي الأعور عمر بن سفيان، حيث نزلوا المدينة على عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين بعد أحد، وقد أعطاهم النبي -صلى الله عليه وسلم- الأمان على أن يكلموه، فقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وطعمة بن أبيرق -فقالوا للنبي -صلى الله عليه وسلم- وعنده عمر بن الخطاب- أرفض ذكر الهتنا اللات والعزى ومناة، وقل إن لها شفاعة ومنفعة لمن عبدها، وندعك وربك. فشق على النبي -صلى الله عليه وسلم- ما قولاً. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي في قتلهم. فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: «إن قد أعطيتهم الأمان». فقال عمر: اخرجوا في لعنة الله وغضبه. فأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يخرجوا من المدينة، فنزلت الآية. وانظر (البحر المحيط): (٢١٠/٧)، (القرطبي): (١١٤/١٤).

عليه الصلاة والسلام- باتباع ما يوحى إليه من ربه ؛ وذلك بأن يعمل بما ينزل الله عليه من وحيه وأي كتاب : فالقرآن شفاء ورحمة وهدى ، وهو مصدر العطاء الجدير بالاتباع ، والذي يُتلقى عنه التوجيه ونظام التدبير . . ذلكم قوله تعالى ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ .

والله سبحانه خبير بما يعمل النبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه استجابة لموقفهم من هذا القرآن ، وغير ذلك من أمورهم ، وأمور عباده عامة ، لا يخفى عليه شيء من بواعث العمل وما تنزع إليه النفوس . وإذا كان الأمر كذلك : فهو مجازيهم على عملهم بما وعد من الجزاء ^(١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ ^(٢) وفي ذلك ما فيه - كما يرى القرطبي - من زجر عن اتباع مراسم الجاهلية ، وأمر بجهادهم ومناذهم . كما أن فيه دليلاً على ترك اتباع الآراء مع وجود النص ^(٣) .

ثم قال تعالى ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ إن صعوبة الطريق الإيمانية التي رسمتها الآياتان السابقتان ، وما يمكن أن يقف في وجه سالكها من عقبات ، كل ذلك يستدعي اعتماداً صادقاً على الله ؛ قاعتمد - يا محمد - عليه ، وفوض أمورك إليه في جميع شؤونك وأحوالك ، فهو

(١) وانظر (جامع البيان عن تأويل القرآن) لأبي جعفر الطبري : (٢١/٦٧) ، (زايد المسير) لابن الجوزي : (٣٤٨/٦) .

(٢) راجع (الجامع لاحكام القرآن) للقرطبي : (١٤/١١٥) ، وانظر (البحر المحيط) لأبي اسحق ، (يعملون) بالياء على الخبر .

(٣) قراءة الجمهور (تعملون) بالتاء على الخطاب . وقرأ السلمي وأبو عمرو وابن أبي حيان : (٢١٠/٧) .



ناصرك وعاصمك . ولا يداخلنك الغم من عداء من يعادي وخذلان من
يخذل ما دمت على الحق وما دام الله معك .

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾^(١) فحسبك الله فيما يأمرك ويكلا وحفيظا بك ،
وكافيا فيما يقع في خلدك من أعداء دعوتك . ومن يتوكل على الله فهو
حسبه .

ولا تسل عن الطمأنينة التي يبعثها التوكل الصادق في قلب المؤمن ، تلك
الطمأنينة التي تزري بالجبال الرواسي ، لأن الأمر قد ترك لصاحب الأمر ،
ولأن التدبير - بعد الأخذ بالأسباب - قد أحيل إلى صاحب التدبير سبحانه .

وواضح - كما أشرنا في صدر هذا الكلام - أن أمر النبي - صلى الله عليه
وسلم - باتباع الوحي والتوكل على الله ، أمر لأتمته ؛ فهم مأمورون باتباع
القرآن ، وصدق التوكل على بارئهم ، كما هو - صلوات الله عليه - مأمور
بذلك . قال العلماء : ومن أجل هذا ، جاءت الآية الكريمة بخطابه في قوله :
﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على ما قرأ الجمهور ، إذ لم يقل : (بما تعمل) .

هذا : ومن خلال الآيات الثلاث في مطلع هذه السورة (سورة الأحزاب)
التي تحفل بالتوجيهات والأحكام ، وعناصر البناء والتكوين ، في اطار التميز

(١) الصحيح أن (كفى) فعل ، وفاعله اسم الله ، والباء زائدة ، وقد دخلت لتدل على معنى الأمر ، إذ
التقدير : اكتف بالله . وقيل : الفاعل مضمّر وهو ضمير الاكتفاء ، والتقدير : كفى هو أي الاكتفاء
بالله ، وتكون الباء غير زائدة ، وعلى هذا : يكون (بالله) في موضع نصب مفعولاً به . و(حسيباً)
منصوب على التمييز ، وقيل : على الحال . و(كفى) هنا متعد إلى مفعول واحد وهو محذوف
والتقدير : وكفاكم الله حسيباً . وقد يأتي بغير هذا المعنى فيتعدى إلى مفعولين كما في قوله تعالى
﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ .

الواضح للشخصية المسلمة والمجتمع المسلم . . من خلال ذلك . . نرى - مع صاحب الظلال رحمه الله - أن تقوى الله ، واتباع وحيه ، والتوكل عليه ، مع مخالفة الكافرين والمنافقين - هي العناصر التي تزود الداعية برصيد من الخير لا ينتهي ، وتقيم الدعوة على منهج الواضح الخالص : من الله ، وإلى الله ، وعلى الله ، وكفى بالله وكيفا .



من معالم التنزيل^(١)

قال الله تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ لَحْدِيثٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ .

هذه الآيات من سورة الأحزاب وهي سورة مدنية، تجدد فيها لونا من الخلق القرآني في إعداد الجماعة المسلمة وصياغتها لتكون على المستوى المطلوب في بناء المجتمع الإسلامي من حيث العلاقات الاجتماعية والتزام الأدب الرباني مع رسول الله -عليه الصلاة والسلام-؛ فقد نزلت في فريق من الناس كان فيهم شيء من الإثقال على الرسول -عليه السلام- في وقت راحته وحق أهله . كما نجد فيها تقرير الحجاب لزوجاته -عليه الصلاة والسلام-، والتأكيد على تحريم الاتيان بأي شيء يكون من شأنه أذيته -صلى الله عليه وسلم- .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الرابع، السنة الخامسة عشرة، هـ- - - - -

وقد ورد في سبب النزول عدد من الروايات كان في مقدمتها ما أخرجه البخاري وسلم والترمذي - واللفظ له - عن الجعد أبي عثمان عن أنس ابن مالك - رضي الله عنه - قال : « تزوج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فدخل بأهله فصنعت أم سليم أمي حساء فجعلته في تور - أناء - وقالت لي : يا أنس : أذهب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقل : بعثت به إليك أمي ، وهي تقرئك السلام وتقول لك : أن هذا لك منّا قليل يا رسول الله . قال : فذهبت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقلت : أن أمي تقرئك السلام وتقول لك : أن هذا قليل يا رسول الله . فقال : ضعه ، ثم قال أذهب فادع لي فلاناً وفلاناً ومن لقيت - وسمى رجالاً - فدعوت من سمى ، ومن لقيت قال : قلت لأنس : عددكم كانوا ؟ قال : زهاء ثلاثمائة . فقال : قال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : يا أنس هات التورا ، قال : فدخلوا حتى امتلأت الصفة والحجرة ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ليتحلقة عشرة وعشرة ، وليأكل كل إنسان مما يليه ، قال : فأكلوا حتى شبعوا قال : فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم قال : قل لي يا أنس - أرفع . قال فرفعت^(١) ، فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت قال : وجلس منهم طوائف يتحدثون في بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ورسول الله جالس وزوجته موليه وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس على نسائه ثم رجع فلما رأوا رسول الله قد رجع ظنوا أنهم قد

(١) هذا من لفظ مسلم .



ثقلوا عليه بابتدروا الباب وخرجوا كلهم وجاء رسول الله حتى ارخى الستر، وأنا جالس في الحجرة فلم يلبث إلا يسيراً حتى خرج عليّ وأنزل الله هذه الآية فخرج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقرأها على الناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ إلى آخر الآية. قال أنس: أنا أحدث الناس عهداً بهذه الآيات، وحجب نساء النبي -صلى الله عليه وسلم-^(١).

وقد جاء في الصحيحين. عن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- قال: «وافقت ربي عز وجل في ثلاث؟ قلت: يا رسول الله لو أتخذت من مقام إبراهيم مصلى». فأنزل الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾. وقلت: يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فنزلت آية الحجاب وقلت لأزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- لما تملأن عليه في الغيرة «عسى ربه أن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن» فنزلت كذلك.

وقد ثبت أن الحجاب نزل يوم البناء بزینب -رضي الله عنها- كما سيأتي والوليمة التي دعا القوم إليها كانت يوم ذاك، حيث نزل ما نزل فيما بعد من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾^(٢) الآية وهكذا ترى أن للآية أكثر من سبب نزول، ولا مانع من ذلك.

(١) انظر (جامع البيان) للطبري: (٢٢/٢٢) فما بعد. (أحكام القرآن) لابن العربي: (٣/١٥٦١-١٥٦٢).

(١٥٦٢). (تفسير ابن كثير). (٣/٥٠٣-٥٠٤).

(٢) وانظر (جامع البيان) للطبري: (٢٢/٢٤) الطبعة الميمنية (تفسير ابن كثير): (٣/٥٢٦-٥٢٧).

(فتح القدير)، للشوكاني (٤/٢٩٦).

وهناك روايات ضعيفة والصحيح ما أثبتناه^(١).

هذا وقد نقل القاضي أبو بكر ابن العربي رواية عن مسعود يقول فيها: «أمر نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - بالحجاب فقالت زينب بنت جحش: يا ابن الخطاب إنك تغار علينا والوحي ينزل علينا فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. ولما كانت آية الحجاب نزلت يوم زواج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بزينب فقد حكم - رحمه الله - ببطالان هذه الرواية وذلك قوله:

وأضافة البيوت بصيغة الجمع إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - كانت للتخصيص. وذلك باعتبار تعدد أزواجه - صلوات الله عليه -، وسكنى كل واحدة منهن منفردة في بيت من البيوت.

هذا: وفي العبارة على إطلاقها - ما يدل على أن البيت بيت الرجل، ويحكم له به لأن الله تعالى جعله مضافاً إليه في قوله: ﴿بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾.

ولقد يرد على هذا أن الله تعالى أضاف البيوت في مكان آخر إلى زوجات النبي - عليه السلام -، وذلك قوله تعالى في هذه السورة نفسها: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

(١) وقد واصل الكثيرون ومنهم ابن العربي الأقوال في سبب النزول إلى ستة كان الأول والسادس فيها ما جاء في الصحيح وذكرناه، وقد حكم على الأقوال الأخرى بالضعف حيث أنه قال بعد أن أتى على ذكرها جميعاً: هذه الروايات ضعيفة إلا الأولى والسادسة. انظر (أحكام القرآن) لابن العربي: (٣/ ١٥٦١ - ١٥٦٣) فتح الباري، شرح مبهم البخاري للحافظ ابن حجر. باب التفسير: (٨/ ٤٠٥) فما بعد.



والجواب على ذلك : أن إضافة البيوت إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- إضافة ملك ، وإضافتها إلى الأزواج إضافة محل ، يدل على ذلك أمران : أولهما أنه جعل فيها الأذن للنبي -صلى الله عليه وسلم- والأذن إنما يكون للمالك^(١) والثاني ، قوله : أن ذلكم كان يؤذي النبي -صلى الله عليه وسلم- . وكذلك يؤذي أزواجه ، ولكن لما كان البيت بيت النبي -صلى الله عليه وسلم- والحق حقه -عليه السلام- أضافه إليه .

ومما جرى فيه بحث العلماء واختلفت فيه أنظارهم ؛ هل بيوت النبي -صلى الله عليه وسلم- ملك لأزواجه إذ كن يسكنن فيها أم لا؟

فقال طائفة : كانت ملكاً لهن ، واستدلوا على ذلك بأنهن سكن فيها بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى وفاتهن ، وذلك أنه -عليه السلام- وهب لهن ذلك في حياته . والمرويُّ عن عائشة أن ذلك لم يكن لهن هبة من النبي -عليه السلام- وإنما كان اسكاناً كما يسكن الرجل أهله وتمادى سكنانهن بها إلى الموت لأحد وجهين : أما لأن عدتهن لم تنقض إلا بموتهن ، وأما لأن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما يقول ابن العربي -استثنى لهن ذلك مدة حياتهن كما استثنى نفقاتهن بقوله : «ما تركت بعد نفقة عيالي ومؤنة عاملي فهو صدقة» . فجعلها النبي -عليه السلام- صدقة بعد نفقة العيال ، والسكنى من جملة النفقات ، فإذا متن رجعت مساكنهن إلى أصلها من بيت المال لرجوع نفقاتهن .

(١) انظر (أحكام القرآن) لابن العربي : (٣/١٥٦٣) . (الجامع لأحكام القرآن) . للقرطبي (٢٢٥/١٤) .

قال القاضي أبو بكر مؤيداً هذه الوجهة: والدليل القاطع لذلك أن ورثتهن لم يرثوا عنهن شيئاً من ذلك، ولو كانت المساكن ملكاً لهن لورث ذلك ورثتهن عنهن، فلما ردت منازلهن بعد موتهن في المسجد الذي تعم منفقته جميع المسلمين، دل ذلك على أن سكناهن إنما كانت متاعاً لهن إلى مماتهن ثم رجعت إلى أصلها في منافع المسلمين^(١).

قوله ﴿أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. في معنى الظرف تقديره وقت أن يؤذن لكم.

أما الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾. فليس استثناء عادياً ولكنه عند الكثيرين استثناء مفرغ من أعم الأحوال أي لا تدخلوها في حال من الأحوال إلا حال كونكم مصحوبين بالأذن لكم، على تقدير بقاء المصاحبة، أي إلا بأن يؤذن لكم. وقيل: الاستثناء من عموم الأوقات أي لا تدخلوها في وقت من الأوقات إلا وقت الأذن، وقد جنح الزمخشري - رحمه الله - إلى أن الاستثناء واقع على الوقت والحال معاً كأنه قيل: لا تدخلوا البيوت إلا وقت الأذن ولا تدخلوها إلا غير ناظرين^(٢).

ولم يرتض ذلك صاحب البحر واعتبره مخالفاً لمذهب الجمهور^(٣).

(١) (ابن العربي): (٣/ ١٥٦٣ - ١٥٦٤).

(٢) (الكشاف): (٣/ ٢٤٤) الطبعة التجارية.

(٣) وقد رد ذلك بقوله: وأما أن الاستثناء وقع على الوقت والحال معاً فلا يجوز على مذهب الجمهور، ولا يقع بعد إلا في الاستثناء إلا المستثنى أو المستثنى منه أو صفة المستثنى منه، وأجاز الاخفش والكسائي ذلك في الحال، أجازا ما ذهب القوم إلا يوم الجمعة راحلين عنا، فيجوز ما قاله الزمخشري في الحال. (البحر المحيط): (٣/ ٢٤٦).



وقد قرأ الجمهور ﴿غَيْرَ﴾ بالنصب على الحال من الفاعل في قوله جل وعلا: ﴿لَا تَدْخُلُوا﴾. وقرأ ابن أبي عبلة ﴿غَيْرَ﴾ بالخفض على أنها صفة لطعام. ولم يرتض الزمخشري ذلك، فهو ليس -في رأيه- بالوجه لأنه جرى على غير ما هو له، إذ من حق ضمير ما هو له أن يبرز إلى اللفظ فيقال: غير ناظرين إناه إنتم، كقولك: هند زيد ضاربتة هي^(١). ومن أيد قراءة الخفض، الكسائي الذي قال: سمعت العرب تقول: يدك باسطها، يريدون: أنت. وهو كثير في الكلام، قال: فعلى هذا يجوز خفض ﴿غَيْرَ﴾، ولعل مما يطمئن إليه القلب ما ذهب إليه شيخ المفسرين أبو جعفر الطبري من التفريق في ذلك بين الكلام والقراءة، فأجاز الخفض في الكلام لأبيات ذكرها، ومنعه في القراءة هنا، محتجاً لذلك بما وقع من اجماع الحجة من القراءة على النصيب، وذلك قوله -رحمه الله-: والصواب من القول في ذلك عندنا: القول بإجازة جر في ﴿غَيْرَ﴾ في ﴿غَيْرَ نَاطِرِينَ﴾ الكلام لا في القراءة، لما ذكرنا من الأبيات التي حكيناها. فأما في القراءة: فغير جائز في ﴿غَيْرَ﴾ غير النصب لإجماع الحجة من القاء على نصبها^(٢).

هذا: وقد أتضح من دلالة الآية أن الإذن بالدخول لا يكفي لمن أذن له بإتيان الطعام، بل لابد لذلك من الدعوة إليه؛ لذا يرى العلماء أن الجار

(١) انظر (الكشاف): (٣/ ٢٤٤).

(٢) وراجع (جامع البيان): (٢٢/ ٢٥) ومن الأبيات التي ذكرها أبو جعفر قول الأعشى:

فقلت له هذه هاتها إني بأدماء مقتادها

فجعل المقتاد تابعاً لأعراب بأدماء بمنزلة قولك: بأدماء تقتادها. وانظر ما نقله عن بعض نحويي الكوفة وشواهد أخرى في (جامع البيان): (٢٢/ ٢٥ - ٢٦).

والمجرور في ﴿إِلَى طَعَامٍ﴾ متعلقان بفعل ﴿يُؤْذَنَ﴾ وتعدية الفعل بحرف الجر ﴿إِلَى﴾ بدلاً من ﴿فِي﴾ لتضمينه معنى الدعوة، وذلك اشعاراً بهذا الأدب، وتوجيهها إلى التزام عدم الاقدام على الطعام إلا بادعوة كما أسلفنا. وأنى الطعام أدراكه ونضجه ويقال: أنى الطعام، يأنى إني وأيناً وأناء كقولك (قلاه قلى) ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾. أي بالغ إناء.

ومنه أيضاً قوله الشيباني:

وكسرى إذ تقسّمه بنوه

بأسياف كما اقتسم اللحم

تمخضت المنون له بيوم

إني ولكل حاملة تمام

يريد تمخضت المنون له بيوم ادرك وبلغ. وقال الخطيئة:

وأنيت لأعشاء إلى سهيل

أو الشعري فطال بي الإناء

وعلى هذا يكون المعنى: غير منتظرين نضجه وإدراكه، وهو المنقول عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم^(١). وقيل: أناء. وقته -عنى الظرفية-

(١) انظر (جامع البيان) للطبري: (٢٢/٢٢). (تفسير غريب القرآن) لابن قتيبة. ص ٣٥٢.



أي غير منتظرين وقت الطعام . وساعة آكله كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَنْاءِ اللَّيْلِ فَسَيَحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ . وهذا ما رجحه ابن العربي ^(١) .

وقد استنبط العلماء من الآية تحريم التطفل . قال الحافظ ابن كثير : وهذا دليل على تحريم التطفل وهو الذي تسميه العرب الضيفين وقد صنف الخطيب البغدادي في ذلك كتاباً في ذم الطفيليين وذكر من أخبارهم أشياء يطول أيرادها ^(٢) .

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ﴾ . أمر بالدخول على وجه الأدب وحفظ الحضرة الكريمة للمصطفى - عليه السلام - من المباشطة المكروهة وفيه استدراك من الذي رأيناه في صدر الآية من النهي عن الدخول بغير إذن ، وهذا يدل - كما أشرنا من قبل - على أن المراد بالآذن إلى الطعام الدعوة إليه ، فيكون تقدير الكلام : إذا دعيتهم فإذن لكم فادخلوا وفي ذلك ما فيه من التأكيد أن الدعوة وحدها لا تكفي فالدعوة نفسها لا تكون أدناً كافياً في الدخول ويبيّن بعد ذلك أن المعنى : ولكن إذا دعاكم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله ^(٣) . وقد وقع الرازي على لطيفه في هذا التعبير هي أن في العادة إذا قيل لمن كان يعتاد دخول دار من غير اذن : لا تدخلها إلا بإذن ، يتأذى وينقطع بحيث لا

(١) أحكام القرآن : (٣/ ١٥٦٥) .

(٢) (تفسير ابن كثير) : (٣/ ٥٠٥) .

(٣) راجع (جامع البيان) . (٢٢/ ٢٣) .

يدخلها أصلاً ولا بالدعاء . فقال : لا تفعلوا مثل ما يفعله المستنكفون بل كونوا طائعين سامعين إذا قيل لكم لا تدخلوا فلا تدخلوا ؛ وإذا قيل لكم ادخلوا فادخلوا^(١) . وعلى أية حال فهذا غير مشروعية إجابة الدعوى التي تنص عليها الآية الكريمة ، وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما في صحيح مسلم : «لو دعيت إلى ذراع لأجبت ولو أهدي إلى كراع لقبلت» .

وفي قوله جال وعلا : ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أمر من الله تعالى بالتفرق بعد الفراغ من الطعام . فإذا فرغ هؤلاء المدعون من المقصود الذي دعوا من أجله فعليهم أن يتفرقوا ولا يثقلوا على رسول الله - عليه الصلاة والسلام - . وفي الآية - كما يقول العلماء - دليل على أن الضيف يأكل من ملك المضيف ، لا على ملك نفسه : لأنه قال : ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ﴾ فلم يجعل لهذا الضيف أكثر من الأكل ، ولا أضاف لهم سواه ، وبقي الملك على أصله .

وكما نهى القرآن عن المكث في بيت رسول الله انتظاراً لنضج الطعام أو لوقته وساعة أكله كذلك منع من المكث بعد الأكل استئناساً لحديث . وذلك قوله ﴿وَلَا مُسْتَسْنِينَ لِحَدِيثٍ﴾ أي ولا مستأنسين لحديث ولا متحدثين بعد فراغكم من أكل الطعام انياساً من بعضكم لبعض لأن الاستئناس طلب الأنس وما قلناه هو المروي عن الحسن ومجاهد وغيرهما .

(١) (التفسير الكبير) : (٢٥ / ٢٢٤) وانظر حاشية الجمل على الجلالين : (٣ / ٤٧٢) .



و ﴿مُسْتَأْنِسِينَ﴾ معطوف على قوله ﴿نَاطِرِينَ﴾ بالجر. أي: غير ناظرين ولا مستأنسين «كما يقال في الكلام أنت غير ساكت ولا ناطق»^(١).

وفائدة العطف على ما تقدم أن استراحة الدخول دخول، فعطفه عليه. وفعل ﴿استأنس﴾ يتعدى بنفسه، وعليه يكون في اللام من كلمة ﴿لَحْدِيثٍ﴾ وجان: فإما أنها للتعليل، ومع هذا يكون التقدير: ولا مستأنسين لأجل استماع الحديث ويكون المعنى: لا تمكثوا مستأنسين بالحديث كما فعل من فعل في وليمة زينب -رضي الله عنها- من أولئك الثلاثة الذين استرسل بهم الحديث أو أنها المقوية لطلب اسم الفاعل للمفعول فنوها أن يستأنسوا حديث أهل البيت، واستأنسه تسمعه وتوجه^(٢).

ومما يفت النظر أن الحديث جاء مطلقاً دون بيان من هو صاحبه، مما يدل على أن الأدب الذي أراده القرآن في هذا النهي كما أشرنا -هو عدم المكث بعد الطعام مطلقاً، سواء أكان الاستئناس لحديث بعضهم بعضاً أو لحديث غيرهم، كما لو تسمعوا حديث أهل البيت، وترك هذا أولى وأحرى.

(١) وفيه احتمال النصب أيضاً. قال أبو جعفر الطبري: وقد يحتمل أن يقال: (مستأنسين) في موضع نصب عطفاً على معنى ناظرين لأن معناه إلا أن يؤذن لكم إلى طعام لا ناظرين إناه، فيكون قوله: (ولا مستأنسين) نصباً حينئذ، والعرب تفعل ذلك إذا حالت بين الأول والثاني، فترد أحياناً على لفظ الأول وأحياناً على معناه. وقد ذكر القراء أن أبا القحقام أنشده:

أحبك لست الدهر رائئ رامد ولا عاقل إلا وأنت حبيب
ولا مصعد في المصعدين لمنعج ولا هابطاً ما عشت هضب شطيب

فرد مصعد على أن رائئ فيه باء خافضة، إذ حال بينه وبين المصعد بما حال بينهما من الكلام. (جامع البيان): (٢٦/٢٢). وانظر (تفسير أبي السعود): (٢١٧/٤).

(٢) راجع (البحر المحيط): (٢٤٧/٧).

ويبلغ الأمر غايته حين يأتي تعليل هذا النهي ، فيقول جل وعلا ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ . واسم الإشارة ﴿ذَلِكُمْ﴾ راجع إلى الاستئناس أو إلى ما نهوا عنه من الدخول على غير الوجوه التي أوضحتها الآية ، والذي رجحه أبو السعود -في تفسيره- عودة الضمير إلى الاستئناس فقط ، وذلك قوله عند ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ﴾ : أي إلى الاستئناس الذي كنتم تفعلونه من قبل ^(١) .

والإذاية كل ما تكرهه النفس في ظل قيم الإسلام وآدابه ، وهو محرم على الناس ، لا سيما آذاية يكرهها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، فكيف إذا كانت أخلاق الإسلام تلزم الخلق أن يفعلوا ما يرضي رسول الله لو كان ما أمروا به من العفل هو مما كرهه نفوسهم ؛ فاذيته -عليه الصلاة والسلام- محرمة ، بل أن الخلق ملزمون أن يفعلوا ما يكرهون ، ارضاء للرسول -صلى الله عليه وسلم- ^(٢) .

فالمعنى : نهيناكم عن ذلك ، لأن النبي كان يتأذى منه ، بسبب ما يكون من الاحراج له ولأهله والتضييق عليهم ، وتحدثكم بما لا يريده -صلى الله عليه وسلم- ويثقل عليه من تضييق المنزل عليه وعلى أهله وإيجابه للاشتغال بما لا يعنيه وصدّه عن الاشتغال بما يعنيه ^(٣) ، فحكم المنع -كما ترى- معلل

(١) (تفسير أبي السعود) : (٢١٧/٤) .

(٢) وراجع (أحكام القرآن) لابن العربي : (١٥٦٦/٣) .

(٣) وانظر (روح المعاني) للألوسي : (٧١/٢٢) . (مجالس التأويل) ، للقاسمي : (٤٨٩٣/١٣) .



بهذه العلة وهي الأذية، وهكذا جعل المنع وهي الأذية، وهكذا جعل المنع من الدخول بغير إذن والمقام بعد كمال المقصود محرماً فعله لأن فيه إذاية للنبي - صلى الله عليه وسلم - .

وتعبير ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ هو على تقدير مضاف، أي فيستحيي من اخراجكم، أو من منعكم عما يؤذيه فيمسك عن كشف مراده لكم، فيتأذى باقامتكم، وهذا من المجاز لأن الاستحياء على وجه الحقيقة لا يكون من ذواتهم^(١) بدليل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ ومعناه أن إخراجهم حق ما ينبغي أن يستحيا منه .

وفي معرض استحياء النبي - صلى الله عليه وسلم - منهم قال الزجاج : «كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يحتمل اطاتلهم كرمأ منه فيصبر على الأذى، فعلم الله من يحضره الأدب فصار أدباً لهم ولمن بعدهم»^(٢) وجميل ما ذهب إليه الفخر الرازي من أن في قوله: ﴿كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ إشارة إلى تحمل النبي - عليه الصلاة والسلام -^(٣) .

ولما كان ذلك يقع من البشر لعل الاستحياء، جاء نفيه عن الله عز وجل

(١) وقد جاء ابن العربي لأكثر من وجه للمجاز في (فيستحيي منكم) فقال : ومعناه ههنا : فيمسك عن كشف مراده لكم، فيتأذى باقامتكم، على معنى التعبير عن الشيء بمقدمته وهو أحد وجوه المجاز، أو بفائدته وهو الوجه الثاني، أو على معنى التشبيه وهو الوجه الثالث . (أحكام القرآن) : (١٥٦٦/٣) .

(٢) راجع (البحر المحيط) : (٢٤٧/٧) .

(٣) انظر (التفسير الكبير) للرازي : (٢٢٥/٢٥) .

في الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا زجركم ونهاكم؛ فهو سبحانه يرحم عباده، ولا يترك أن يبين لهم الحق في جميع الأمور، وعلى كل الأحوال، خصوصاً وأن الأمر هنا يتعلق بصياغة الجماعة التي يراد لها أن تحمل أمانة المجتمع الجديد والتأدب بأداب دعوته ورسالته، وهو جل وعلا إذ يبين ذلك لا يمعنه منه مانع لا يحجزه عنه حاجز^(١)، ومن هذه الأمور أمر إخراجهم ليكونوا -كما أسلفنا- على غاية الأدب مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الذي كان خلقه القرآن^(٢). والتعبير عن ذلك بعدم الاستحياء للمشاكله^(٣).

هذا: وقرأ الجمهور ﴿فَيَسْتَحْيِي﴾ بكسر الحاء مضارع استحي وهي لغة بني تميم^(٤).

(١) قال أبو حيان: واختلفوا ما المحذوف أعين الكلمة أم لامها، فإذا كان العين فوزنها يستعمل، وإن كان اللام فوزنها يستفع، والترجيح مذكور في النحو: (البحر المحيط): (٢٤٧/٧).

(٢) في الصحيح عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- فقالت: يا رسول الله أن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتملت؟ فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «إذا رأيت الماء». وانظر (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي: (٢٢٧/١٤). (زاد المسير) لابن الجوزي: (٤١٥/٦).

(٣) وانظر (تفسير ابن كثير): (٥٢٧/٣) و(تفسير أبي السعود): (١٢٧/٣).

(٤) وراجع (فتح القدير) للشوكاني: (٢٩٨/٤) أما صاحب البحر فذكر أن بين قوله تعالى ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ وقوله ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ مقابلة أوضحها بقوله: ولما كان الحياء مما يمنع الحي من بعض الأفعال قيل: ﴿لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ بمعنى لا يمتنع وجاء ذلك على سبيل المقابلة لقوله: ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ (البحر المحيط): (٢٤٧/٧). وقد روي عن عائشة وابن عباس -رضي الله عنهما-: حسبك في الثقلاء أن الله لم يحتملهم. وقرئت هذه الآية بين يدي إسماعيل بن أبي حكيم فقال: هذا أدب أدب الله به الثقلاء. المصدر السابق: (٢٤٧/٧).



من معالم التنزيل^(١)

قال الله تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ حَدِيثٌ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ .

بعد الانتهاء من أمر الأدب في الطعام والجلوس جاءت الآية على أمر حجاب زوجات النبي -صلى الله عليه وسلم- ، لأن الأمر بالحجاب نزل في يوم النبأ بزینب -كما أسلفنا- وقد أتينا في صدر الكلام عن سبب النزول على ما ثبت في الصحيحين من حديث عمر -رضي الله عنه- وفيه «وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلوا حجبتهن ، فنزلت آية الحجاب» ، ولهذا قال الحافظ ابن كثير في صدركلامه عن هذه

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الخامس، السنة الخامسة عشرة، --١٣هـ---،
--١٩م-----.

الآية: هذه آية الحجاب وفيها أحكام وآداب شرعية وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- كما ثبت ذلك في الصحيحين^(١) كما روى البخاري عنه أنه قال: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فانزل الله الحجاب^(٢) وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله بزينب بنت جحش التي تولى الله تزويجها بنفسه. وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما^(٣) وقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي واللفظ للبخاري عن أنس قال: لما تزوج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بزينب بنت جحش، دعا القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي -صلى الله عليه وسلم- ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم أنهم قاموا فانطلقوا، فجئت فأخبرت النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية. وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت: «كنت أكل مع النبي -صلى الله عليه وسلم- حيساً في قعب فمر عمر فدعاه فأكل فأصابته أصبعه أصبعي فقال: حسن لو أطاع فيكن ما رأته عينا فنزل الحجاب» وعلى أية حال: فتعدد أسباب النزول لا يضر.

(١) (تفسير ابن كثير): (٣/ ٥٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير.

(٣) قال ابن كثير في التفسير: (٣/ ٥٢٥): وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى وخليفة بن خياط أن ذلك كان في سنة ثلاث فإله أعلم.



وواضح أن الضمير في قوله ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ عائد إلى نساء النبي -صلوات الله عليه وسلامه عليه- أخذاً من ذكر (بيوت النبي) في صدر الآية، فإن ذلك دل على أنهن المصودات بهذا الضمير .

وفي المقصود من (المتاع) اتجاهات عدة أوصلها بعض المفسرين إلى أربعة أقوال: تشمل: العارية، والحاجة والفتوى وصحف القرآن. والواقع أن المتاع يطلق على كل ما يتمتع به. فهو عام في جميع ما يمكن أن يطلب ويستمتع به على عرف السكرن والمجاورة من المواعين وسائر المرافق في أمور الدين والدنيا وذلك ما جنح إليه أبو حيان ورجحه القرطبي حيث قال: والصواب أنه -أي المتاع- عام في جميع ما يمكن أن يطلب من المواعين وسائر المرافق، للدين والدنيا) وتابعه على ذلك الشواكاني الذي قرر أنه لا وجه لما قيل من أن المراد به العارية أو ---- أو الصحف^(١).

وقوله: ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾. أي كما نهيتكم عن الدخول عليهن كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ولا يسألهن متاعاً إلا من وراء حجاب^(٢). والحجاب: الستر، وأنت واجد أنه بعد الذي تقرر من أن مساءلتهن ما يريد الرجال من متاع حسي كالماعون وغيره، أو معنوي كالفتوى، يجب أن يكون من وراء

(١) انظر (البحر المحيط): (٢٤٧/٣). (الجامع لأحكام القرآن). للقرطبي (٤/٢٢٧). (فتح القدير للشواكاني). (٤/٢٩٨).

(٢) وانظر (جامع البيان) للطبري: (٢٢/٢٨). (تفسير ابن كثير): (٣/٥٢٧). (محاسن التأويل) للقاسمي: (١٣/٤٨٩٤).



ويستدل من هذا الأدب القرآني ، أنه ينبغي على المؤمن أن يكون حذراً في مثل هذه الأمور ، وأن لا يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له ، فإن مجانبه ذلك أحسن لحاله ، وأحصن لنفسه ، وأتم لعصمته ، وأبعد عن الوقوع في حبالل الهوى والشيطان^(١) .

هذا : وقد استنبط العلماء من الآية إذن الله تعالى فس مساءلة أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- من وراء حجاب ، في حاجة تعرض ، أو مسألة يستفتين فيها . ولقد ثبت ذلك من فعلهن رضوان الله عليهن ، خصوصاً السيدة عائشة التي كانت كثيراً ما تستفتي فتفتي ، أو يبلغها أمر ترى فيه بعداً عن الصواب . فتستدرك على قائله ، سواء كان مع محارمها أم مع غيرهم^(٢) .

على أن للقاضي عياض مذهباً في هذا يقوم على أن فرض الحجاب مما اختصصن به -يعني نساء النبي- عليه الصلاة والسلام- فهو فرض عليهن بلا خلاف في الوجه والكفين . فلا يجوز لهن كشف ذلك في شهادة ولا غيرها ، ولا أظهار شخوصهن وأن كن مستترات إلا ما دعت إليه ضرورة من

(١) وانظر (البحر المحيط) لأبي حيان : (٧/٢٤٧) .

وراجع (أحكام القرآن) لابن العربي : (٣/١٥٦٧) . (فتح القدير) . للشوكاني (٤/٢٩٨) .

(٢) وذلك كالذي حصل لها مع ابن اختها عروة في شأن السعي بين الصفا والمروة ، والذي حصل لها مع زيد بن الأرقم -على بعض الروايات- في شأن بعض صور البيع . وقد ألف الأمام بدر الدين الزركشي كتاباً جمع فيه استدراكات عائشة على الصحابة أسماء : (الإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة) أورد فيه عدداً كبيراً من الوقائع في هذا الباب وانظر : (السنن الكبرى) للبيهقي : (٥/٣٢٠ - ٣٣١) . (الجواهر النقي) لابن التركماني (٥/٢٣١) (جامع بيان العلم وفضله) : لابن عبد البر : (٢/٩١) .

براز وغيره، ثم استدل بما في (الموطأ) أن حفصة لما توفي عمر سترها النساء عن أن يرى شخصها، وأن زينب بنت جحش جعلت لها القبة فوق نعشها ليستر شخصها.

ورد الحافظ ابن حجر هذا التعميم بأنه ليس فيما ذكره عياض بدليل على ما ادعاه من فرض ذلك عليهن، ثم احتج بأنهن كن بعد النبي -صلى الله عليه وسلم- يحجن ويطنن، وكان الصحابة ومن بعدهم يسمعون منهن الحديث وهن مستترات الأبدان لا الأشخاص، ثم أشار الحافظ إلى قول ابن جريج لعطاء لما ذكر له طواف عائشة: أقبل الحجاب أو بعده؟ قال: قد أدركت ذلك بعد الحجاب^(١).

وفي توجيه يؤكد وجوب البعد عن كل ما يؤدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أياً كان مبعث ذلك الإيذاء ولونه، ويشعر بالعلة التي كان من أجلها النهي فيما مضى من الأفعال، ويؤكد ذلك الحكم قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي ما صح ولا استقام لكم أن تقوموا بأي تصرف يؤدي رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أو يكون من شأنه اذيته، أياً كان نوع هذه الاذية، وذلك يشمل -فيما يشمل- دخول بيوته

(١) وقد جمع الحافظ بين الروايات الواردة حول أية الحجاب وما ذهب إليه الكرمانى من محاولة التوفيق فقال: والحاصل أن عمر -رضي الله عنه- وقع في قلبه نفرة من اطلاع الأجانب على الحرم النبوي حتى صرح بقوله له -عليه السلام-: أحجب نساءك وأكد ذلك إلى نزلت آية الحجاب، ثم قصد بعد ذلك أن لا يبدن أشخاصهن أصلاً ولو كن مستترات، فبالغ في ذلك، فمنع منه، وأذن لهن في الخروج لحاجتهن دفعاً للمشقة ورفعاً للحرج. (فتح الباري) للحافظ ابن حجر: (٤٠٨/٨ - ٤٠٩) وانظر: (محاسن التأويل) للقاسمي: (٤٨٩٦/١٤ - ٤٨٩٧).



بغير إذن منه ، والمكث فيها على غير الحال التي يرتضيها ، وتكليم نسائه من دون ستر بينكم وبينهن . وإطلاق الفعل في ﴿تَوَدُّوا﴾ مما يعطي هذا الشمول ، وكأن الله تعالى بعد أن علم المؤمنين الأدب أكد بما يحتملهم على المحافظة عليه فين لهم أنه ليس من شأنهم وهم المؤمنون أن يؤذوا رسول الله .

ثم قال تعالى : ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ . أي من بعد وفاته أو فراقه ، وهذا أمر شديد الاتصال بموضوع الأذية ، وهو نهى صريح في تحريم نكاح أزواجه -عليه الصلاة والسلام- من بعده ، فالنص محكم في دلالته على ذلك لما اقترن به من التأييد ، إلى جانب كونه قطعي الثبوت بكونه قرآنا . وهذا الحكم من تحريم الزواج بواحدة من زوجاته -عليه السلام- من بعده ، هو مما اختص به -عليه السلام- وكم له من خصائص ومكارم -لا يشركه فيها أحد ، إيجاباً لحرمة حياً وميتاً ، وتشريفاً لقدره ، وتنبهاً على كريم منزلته عند الله عز وجل .

وقد ورد في سبب النزول ما أخرجه ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً هم أن يتزوج بعض نسائه بعده ، فنزل قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية . قال رجل لسفيان : أهى عائشة؟ قال : قد ذكروا ذلك . وروى أنها عائشة عن ابن عباس وبعض الصحابة أيضاً . قال الحافظ ابن كثير : وكذا قال مقاتل بن حيان وبعده الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبد الله -

رضي الله عنه-، حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك^(١)، كذلك حكى مكى عن معمر أنه قال: هو طلحة.. غير أن ابن عطية نفى ذلك وقال: هذا عندي لا يصح على طلحة-رضي الله عنه-^(٢). وممن استمسك برواية أنه رجل-هكذا مطلقاً- دون النص على من هو: أبو بكر بن العربي الذي قال: وروي أن رجلاً قال: لئن مات لا تزوجن عائشة، فانزل الله هذه الآية، وصان خلق نبيه، وحقق غيرته، فقصرهن عليه، وحرمن بعد موته^(٣). ولم تخل بعض الروايات من ذكر أن بعض نسائه-عليه الصلاة والسلام- من بعده^(٤) فنزل التحريم وجعل لهن حكم الامهات ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾^(٥).

على أية حال ومهما تعددت الرواية في سبيل النزول، كان حكم التحريم للزواج بواحدة من زوجاته-عليه الصلاة والسلام- حكماً قطعياً يحمل صفة التأكيد، وتأكيداً على ذلك-والله أعلم- شدد القرآن النكير متهدداً

(١) انظر (تفسير ابن كثير): (٢٥٧/٣)، (الجماع لأحكام القرآن) للقرطبي: (٢٢٨/١٤)، (فتح القدير) للشوكاني: (٣٠٠-٢٩٩/٤).

(٢) راجع (أحكام القرآن) لابن العربي: (١٥٦٧/٣). وفي (الجماع لأحكام القرآن) للقرطبي: (٢٢٩/١٤). قال شيخنا الإمام أبو العباس: وقد حكى هذا القول عن بعض فضلاء الصحابة وحاشاهم عن مثله، والكذب في نقله، وإنما يليق مثل هذا بالمنافقين الجهال.

(٣) على أن هناك رواية أنه بعد أن نزلت الآية تاب وأعتق رقبة وحمل على عشرة أبعة في سبيل الله وحج ماشياً. وانظر (البحر المحيط): (٢٤٧/٧)، (ابن العربي): (١٥٦٧/٣).

(٤) راجع (أحكام القرآن): (١٥٦٧/٣).

(٥) قال أبو حيان: وروي أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله-صلى الله عليه وسلم- أم سلمة بعده أي بعد أبي سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة: ما بال محمد يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه. (البحر المحيط): (٢٤٧/٣).



متوعداً لبيان انكاره هذا الأمر وقبحه ، فاعتبره ذنباً عظيماً وخطباً هائلاً جسيماً ، بل كبيرة من الكبائر وذلك قوله تعالى في ختام الآية : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً ﴾ وواضح أن الإشارة هنا إلى الرسول -صلى الله عليه وسلم- أو إلى نكاح أزواجه من بعده . ولقد كان ذلك من جهة أخرى واحداً من أعلام تعظيم الله لرسوله -صلى حياً وميتاً- كما أشرنا من قبل - وإعلامه بذلك مما طيّب نفسه وسر قلبه ، فإن نحو هذا مما يحدث به المرء نفسه ولا يخلي منه فكره^(١) . ويلاحظ أن عطف ﴿ وَلَا أَنْ تَكْحُوا ﴾ على قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ -صلى الله عليه وسلم- من عطف الخاص على العام وفي ذلك ما فيه من التأكيد ، لأن ذلك يكون أعظم الأذى فكان تحريم نكاح أزواجه بعد وفاته . من أجل هذا كان مدلول الكلام في غاية الظهور عند العلماء قال الإمام الشافعي في كلامه عن الآية : « فحرم نكاح نسائه -من بعده- على العالمين وليس هكذا نساء أحد غيره »^(٢) . بل نقل القرطبي عنه تكفير من يستحل ذلك^(٣) .

وقال ابن كثير : « ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول

(١) قال الزمخشري : ومن الناس من تفرط غيرته على حرمة حتى يتمنى لها الموت لثلاث تكح من بعده ، خصوصاً العرب فإنهم أشد الناس غيرة . (الكشاف) للزمخشري : (٣ / ٢٤٥) . وقارن به (البحر المحيط) : (٣ / ٢٤٧ - ٢٤٨) .

(٢) انظر (أحكام القرآن) للشافعي جمع أبي بكر البيهقي : (١ / ١٦٧) وراجع (السنن الكبرى) للبيهقي : (٧ / ٧٣) .

(٣) جاء في (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي : (١٤ / ٢٢٨) : قال الشافعي : « وأزواجه -صلى الله عليه وسلم- اللاتي مات عنهن- لا يحل لأحد نكاحهن ومن استحل ذلك كان كافراً لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ﴾ » .

الله - صلى الله عليه وسلم - من أزواجه أنه يحرم على غيره من بعده، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمّهات المؤمنين كما تقدم^(١).

ومن قبل صدر عن الصحابة رضوان الله عليهم ما يدل على عظيم استنكارهم لهذا الزمر الذي أكدت الآية على حرمة، فقد جاء في بعض الآثار أنه لما توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وارتدت العرب ثم رجعت، تزوج عكرمة بن أبي جهل قتيلة بنت الأشعث بن قيس وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد تزوجها ولم يبن بها، فصعب ذلك على أبي بكر وقلق، فقال له عمر: مهلاً يا خليفة رسول الله أنها ليست من نسائه أنه لم يبن بها، ولا أرخى عليها حجاباً، وقد أبانتها منه ردتها مع قومها فسكن أبو بكر.

وفي رواية: أنها لم يخبرها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يحجبها، وقد برأها الله منه بالرده التي أرتدت مع قوقها، فاطمأن أبو بكر - رضي الله عنه - وسكن^(٢).

هذا وقد عرض العلم لحكم من دخل بها ثم طلقها في حياته فهل كان يحل لغيره نكاحها؟ اختلفت المذاهب في هذا، وصحح القرطبي الجواز^(٣).

(١) (تفسير ابن كثير): (٣/ ٥٢٧).

(٢) وانظر (جامع البيان) للطبري: (٢٢/ ٢٤) (البحر المحيط): (٧/ ٢٤٧).

(٣) واستدل لذلك بالكعبة التي فارقتها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتزوجها بعضهم - على خلاف فيمن تزوجها - فقيل: عكرمة بن أبي جهل، وقيل الأشعث بن قيس الكندي، وقال القاضي أبو الطيب: الذي تزوجها مهاجر من أمية، ولم ينكر ذلك أحد فدل على أنه اجماع. انظر (الجماع لأحكام القرآن) للقرطبي: (١٤/ ٢٣٠).



أما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها، فلا نزاع في حلها لغيره - عليه الصلاة والسلام - والحالة هذه، ويؤيد ذلك قصة قتيلة بنت الأشعث المتقدمة^(١).

وبناءً على الحكم السابق هل بقين أزواجاً بعد موته - صلوات الله وسلامه عليه - . أم زال النكاح بالموت؟ وإذا قلنا: زال النكاح بالموت، فهل عليهن عدة أم لا؟ لقد كان للعلماء في ذلك أكثر من قول: فقل عليهن العدة، لأنهن زوجات توفي عنهن زوجهن وهي عبادة.

وقيل: لا عدة عليهن، لأنها - كما قالوا - مدة تربص لا ينتظر بها الإباحة. وقد جنح ابن العربي وآخرون إلى بقاء الزوجية لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - : «ما تركت بعد نفقة عملي ومؤنة عاملي صدقة». وأكد أبو بكر هذا الاستدلال بما ورد في بعض الفاظ الحديث «ما تركت بعد نفقة أهلي» إذ أن هذا اسم خاص بالزوجية، لأنه أبقى عليهن النفقة مدة حياتهن لكونهن نساءه. ولسائل أن يسأل عن معنى بقاء النكاح هنا؟ والجواب على ذلك: أنه بقاء أحكامه من تحريم الزوجية، ووجود النفقة والسكن؛ إذ جعل الموت في حقه - عليه الصلاة والسلام - بمنزلة المغيب في حق غيره، لكونهن أزواجاً له قطعاً بخلاف سائر الناس^(٢).

(١) وراجع (تفسير ابن كثير): (٣/ ٥٢١).

(٢) وجاء تعليل ذلك في (أحكام القرآن): (٣/ ١٥٦٨)، بقول القاضي ابن العربي: لأن الميت لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة، فربما كان أحدهم في الجنة والآخر في النار، فبهذا الوجه انقطع السبب في حق الخلق، وبقي في حق النبي - صلى الله عليه وسلم - . وانظر (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي: (١٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠).

وبعد تلك المجموعة من الأحكام وخصوصاً أقرب المذكور منها وهو تحريم الزواج بنسائه -صلى الله عليه وسلم- من بعده يأتي قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾. فمهما تكنه الضمائر، وتنطوي عليه السرائر، فإن الله يعلمه -جل وعلا- وهو المتصف بجميع صفات الكمال، لا تخفى عليه خافية، فهو عالم ما بدا، وما خفي في ذات الصدور وخفايا النفوس، وما ظهر على الجوارح، وما كان وما لم يكن. وفي ذلك ما فيه من وعيد لأولئك الذين حدثتهم أو تحدثهم أنفسهم بأي لون من الإذابة لرسول -عليه الصلاة والسلام-، كما أن فيه إرشاداً ربانياً كريماً إلى دوام مراقبة الله عز وجل الذي لا يخفى عليه ماضٍ يمضي، ولا مستقبل يأتي.

وقد خص ابن العربي الآية بما أكنوه من نكاح أزواج النبي -صلى الله عليه وسلم- فحرم ذلك عليهم حين اضمروه في قلوبهم، وأكنوه في أنفسهم، وقد اعتبر ذلك قول المفسرين، وبناء على ذلك صارت الآية -في نظره- منقطعة عما قبلها مبينة لها^(١).

غير أنا نميل إلى التعميم، ويدخل في ذلك أمر نكاح أزواجه دخولاً أولاً. وتكير ﴿شَيْئًا﴾ يدخل في الوعيد ما يؤذيه -عليه الصلاة والسلام- من هذا الأمر وغيره وهو صالح لكل ما بدا وكل ما خفي، من أجل ذلك رأينا صاحب (البحر) يقرر أن في قوله جل وعلا: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تَخَفُوهُ﴾. وعيداً لمن

(١) انظر (أحكام القرآن): (٣/١٥٦٨) وراجع (تفسير ابن كثير): (٣/٥٢٥ - ٥٢٦). تفسير أبي السعود: (٣/٢١٨)، (محاسن التأويل) للقاسمي: (١٣/٤٨٩٣ - ٤٨٩٤).



تقدم التعريض به في الآية من أشير إليه بقوله: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ﴾. ومن أشير إليه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا﴾. فقول: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا﴾. على السنتكم ﴿أَوْ تَخَفُوهُ﴾ في صدوركم مما يقع عليه العقاب فالله يعلمه^(١).

وهذا ما سبق إليه الزمخشري حين وجه عند تفسير الآية إلى عموم ﴿شَيْئًا﴾ وأنه إنما جيئ به على أثر ذلك عاماً لكل باد وخاف ليدخل تحته نكاحهن وغيره، ولأنه على هذه الطريقة أهول وأجزل^(٢).

ومهما يكن من أمر، فإن ارتباط الآية بسابقتها، وسياق الآيات وسباقها، يدل على أن هنالك تهديداً ووعيداً لمن تقدم التعريض بهم من قبل، فهو سبحانه يعلم كل شيء بدا وكل شيء خفي، وفي جملة ذلك ما تخفونه في شأن أزواج رسوله، أو تفيض به ألسنتكم. وإحاطة عمله سبحانه تستلزم المجازاة إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وفي التذكير برقابة الله سبحانه على عباده، تنمية لمشاعر الإحسان في نفس المؤمن وفي ذلك ما فيه من الحراسة الكريمة من داخل النفس لتلك الأحكام والآداب، وهي واحدة من خصائص المنهج الرباني الكريم.

(١) (البحر المحيط) لأبي حيان: (٢٤٨/٧).

(٢) (الكشاف): (٢٤٥/٣).

من معالم التنزيل^(١)

قال الله تبارك وتعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسْنِينَ حَدِيثٌ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾ لَا جَنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ .

في أعقاب ما مرَّ من توجيهه إلى الأدب مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، وحجاب نسائه -عليه الصلاة والسلام- ، وتحريم إيذائه ، والزواج من بعده بنسائه تجبىء هذه الآية الكريمة ، فبعد أن أمر الله أمهات المؤمنين بالستر عن الخلق ، وضرب الحجاب بينهم بين الناس ، جاءت هذه الآية ليرفع الله بها ذلك عنهن عند هؤلاء المذكورين ، فلا جناح عليهن في رفع الحجاب عندهم^(١) .

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد السادس ، السنة الخامسة عشرة ، --١٣هـ -- ، --١٩م -- .

(٢) قال أبو جعفر الطبري : وعني بـ ﴿إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ﴾ ، أخوتهن وأبناء أخوتهن ، وخرج معهم جمع ذلك مخرج جمع فتى إذا جمع (فتيان) ، فكذلك جمع أخ إذا جمع (أخوان) وأما إذا جمع إخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع أخوة فذلك نظير جمع فتى إذا جمع (فتية) انظر (جامع البيان) : (٢٧/٢٢) .



وفي هذا النص الكريم - مع التفريق بين الأجانب وبعض أنواع القرابة - رفع للخرج الذي هو من خصائص التشريع القرآني^(١)، فأية الحجاب دلت علي وجوب احتجاب نساء النبي - صلى الله عليه وسلم - عن الرجل وأن من أراد أن يسألهن متاعاً فليسألهن من وراء حجاب. والخطاب بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾. عام لا تفريق فيه بين قريب وغيره، ففهم من العموم أن النهي يتناول - فيما يتناول - الأقارب أيضاً، وفي ذلك ما فيه من العسر والخرج المتتبعين عن شريعتنا المباركة. وقد جاء في بعض الروايات: أنه لما نزلت آية الحجاب، قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب؟ فنزلت هذه الآية^(٢). فدل ذلك على الاحتجاب. إنما هو من الأجانب أما الآباء والأبناء والإخوة، وأبناء الإخوة، وأبناء الأخوات فلا يجب الاحتجاب منهم فلا حرج ولا إثم ويرجح هذا أن هذا الكلام جاء بعد آية الحجاب^(٣).

(١) وقد جاء النص على ذلك في أكثر من موطن، فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وفي آية أخرى يقول جل وعز: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾.

(٢) انظر (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي: (٢٣١ / ١٤).

(٣) وذلك ما رجحه الطبري وآخرون: فبعد أن ذكر أبو جعفر قولين في هذا: أحدهما عن مجاهد أن المراد لاجتنب عليهن في وضع جلايبهن عندهم. والثاني عن قتادة أنه ترخيص في هدم الاحتجاب عندهم، بعد أن ذكر ذلك قال: «وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال: ذلك وضع لاجتنب في هؤلاء المسمين أن يحتجن منهم وذلك أن هذه الآية عقيب آية الحجاب وبعد قول الله: وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب فلأن يكون قوله: لا اجتنب عليهن في آبائهن استثناء من جملة الذي أمروا بسؤالهن المتاع من وراء الحجاب إذا سألوهن ذلك أولى وأشبه من أن يكون خبراً مبتدأ عن غير ذلك المعنى». (جامع البيان): (٢٧ / ٢٢).

هذا: ويلاحظ أن الآية لم تذكر من المحارم الأعمال والأحوال. وقد اختلف تأويل ذلك عند العلماء.

ف قيل: إنما لم يكذر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الأبوين، وقد يسمى العم أبا كما في قوله تعالى: من سورة البقرة ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ وإسماعيل كان العم وأسماء القرآن أبا.

وقيل: ربما كان الأمر اكتفاءً عن ذكرهما بذكر أبناء الأخوة وأبناء الأخوات فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهما وبين الفريقين، عين ما بينهما وبين العم والخال من العمومية والخطوة، لما أنهن عمات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الأخوات^(١).

وفي قول ثالث علل ذلك بأن العم والخال ربما يصفانهم لأبنائهما، لأن المرأة تحل لابن العم وابن الخال، وقد نسب هذا الرأي إلى عكرمة والشعبي؛ فقد روى الطبري أن داود بن أبي هند قال لهما: ما شأن العم والخال لم يذكر؟ قالا: لأنهما ينعتانها لأبنائهما، وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها^(٢). وقال بهذا القول الزجاج أيضاً. وقد رد المحققون أن يصف العم

(١) وراجع (أحكام القرآن) لابن العربي: (لابن العربي): (٣/١٥٦٩)، (محاسن التأويل) للقاسمي: (١٣/٤٨٩٨).

(٢) انظر (جامع البيان): (٢٢/٢٧).



والخال لأبنائهما، جار في النساء كلهن ممن لم يكن أمهات محارم، فلا معول على ذلك .

وقد نقل الشوكاني كلام الزجاج وجنح إلى ما جنح إليه المحققون، واعتبر هذا الرأي في غاية الضعف، لأن تجويز وصف المرأة لمن تحل له -كما قلنا- ممكن من غيرهما ممن يجوز له النظر إليه، ولا سيما أبناء الإخوة وأبناء الأخوات، واللازم باطل، فالمزوم مثله، وهكذا يستلزم أن لا يجوز للنساء الاجنبيات أن ينظرن إليها لأنهن يصفنها واللازم باطل فالمزوم مثله^(١).

ويبدو أن الراجح هو القول بأن العم والخال يجريان مجرى الأبوين في معهود الخطاب عند العرب، بالإضافة رلى أنه اقتصر ههنا على بعض ما ذكر من المحارم في سورة (النور) اكتفاءً بما تقدم^(٢).

ومما يؤيد ذلك ما روي البخاري من طريق عروة «عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: استأذن علي أفلح أخو أبي القعيس، بعدما أنزل الحجاب، فقلت: لا آذن له حتى استأذن فيه النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أَرْضِعَنِي، ولكن أَرْضَعْتَنِي امرأة أبي القعيس، فدخل عليّ

(١) وراجع (فتح القدير): (٤/٢٩٨-٢٩٩).

(٢) والآية هي قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ بُعُولَتِ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يُضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقلت له: يا رسول الله إن أفلح أخا أبي القعيس استأذن، فأبيت أن أذن حتى استأذنتك، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: وما منعك أن تأذني؟ عمك. قلت: يا رسول الله إن الرجل ليس هو أَرْضَعَنِي، ولكن أَرْضَعْتَنِي امرأة أبي القعيس، فقال: ائذني له فإنه عمك، تربت يمينك.

قال عروة: فلذلك كانت عائشة تقول: حرّموا من الرضاعة ما تحرمون من النسب^(١).

وأنت ترى في قوله -صلى الله عليه وسلم-: «ائذني له فإنه عمك». مع قوله في حديث آخر: «العم صنو الأب»^(٢). القول الفصل في الموضوع.

كما أن الحديث يدل أيضاً على أن العم والخال من الرضاع يستوي حكمهما مع حكم العم والخال من النسب^(٣).

(١) أخرجه البخاري في: ٦٥ - كتاب التفسير، ٣٣ سورة الأحزاب، وأخرجه مسلم في: ١٧ كتاب الرضاع.

(٢) أخرجه مسلم في: ١٢ كتاب الزكاة.

(٣) وانظر (البحر المحيط): (٢٤٨/٧). (الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي: (٢٣١/١٤)، (فتح القدير): (٢٩٨/٤ - ٢٩٩). (محاسن التأويل): (٤٨٩٨/١٣ - ٤٨٩٩). (محاسن التأويل): (٤٨٩٩/١٣). هذا وفي الكلام عند قوله تعالى: ﴿وَلَا نَسَاءَهُنَّ﴾ عند ذكر من يجوز ابداء الزينة أمامهم رجح ابن العربي أن المراد عموم النساء وأن الإضافة للاتباع وذلك قوله: والصحيح عندي أن ذلك جائز لجميع النساء، وإنما جاء بالضمير للاتباع، فإنها آية الضمائر، إذ فيها خمسة وعشرون ضميراً لم يروا في القرآن لها نظيراً، فجاء هذا للاتباع. (أحكام القرآن): (١٣٦٠/٣).



هذا: وفي مدلول قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَاءَهُنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ﴾ جرى اختلاف العلماء؛ ففي معنى ﴿وَلَا نِسَاءَهُنَّ﴾ قولان: أحدهما: أن المراد عموم النساء بلا فرق بين مسلمة وكافرة، وعلى هذا تكون الإضافة في ﴿نِسَاءَهُنَّ﴾ للاتباع والمشالكة، وعليه فجائر عدم احتجاجهن من المسلمة والكافرة على حد سواء.

الثاني - أن المراد خصوص النساء المسلمات، وعليه فالإضافة للاختصاص في الإيمان، ويكون المراد بـ ﴿نِسَاءَهُنَّ﴾ النساء المختصات بهن في الإيمان والإخوة والصحبة، وبناءً على هذا القول: لا يحل لأمهات المؤمنين رفع الحجاب أمام الكافرة. وهذا ما ذهب إليه ابن زيد ومجاهد وجنح إليه ابن كثير^(١).

أما قوله جل وعلا: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾. فقد ذهب قوم فيهم ابن عباس وعائشة إلى أنه يشمل العبيد والإماء، وجنح سعيد ابن المسيب وغيرهما إلى أن المراد بالذين ملكت الإيمان: الإماء لا العبيد، ويترتب على ذلك ما إذا كان الواحد ممن ملكت الإيمان يعتبر محرماً أو أنه كالأجنب.

وقال النخعي: يباح للعبد النظر إلى ما يواريه الدرع من ظاهر بدنهما، وإذا كان للعبد المكاتب ما يؤدي فقد أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بضرب الحجاب دونه وفعلته أم سلمة مع مكاتبها نبهان^(٢).

(١) وانظر تفصيلاً أوسع في (البحر المحيط): (٢٤٩/٧) وقد رجع العلماء على أن يوسعوا القول في هذه المسألة والتي قبلها: أي النساء وما ملكت الإيمان عند تفسير الآية الحادية والثلاثين من سورة النور - وقد أثبتناها في حاشية قريبة - فليُنظر مزيد من الاستيفاء هناك عن المفسرين.

(٢) المصدر السابق (٢٤٨/٧).

وعلى طريقة القرآن بختم الآية الكريمة بما يتناسب مع مضمونها، ختمت هذه الآية بقول الله جل وعلا: ﴿وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾. وفي قوله: ﴿وَأَتَقِينَ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب وذلك أقوى في الدلالة على التشديد في الأمر والحرص على التزام التقوى، وجميل ما قاله الزمخشري: اتقين الله فيما أمرتن به من الاحتجاب وأنزل فيه الوحي من الاستتار واحططن فيه وفيما استثني منه ما قدرتن واحفظن حدودهما وأسلكن طريق التقوى في حفظهما، وليكن عملكن في الحجب أحسن مما كان وانتن غير محجبات ليفضل سركان علنكن^(١). ولنا أن نفهم الأمر بالتقوى على عمومته: أي اتقين الله في كل الأمور التي من جملتها ما هو مذكور هنا فلا تتعدين ما حدّ لكن فتبدين زينتك بما ليس لكن أو تتركن الحجاب فيراكن أحد غير هؤلاء. هذا مع الذي ذهب إليه أبو حيان حين قال: وكأن في الكلام جملة حذفت تقديره: اقتصرن على هذا وأتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره^(٢).

ومهما يكن من أمر فإن في التذكير بالتقوى تأكيداً على ربط القلوب بالله، وإثارة المشاعر لمراقبته كيما يكون للمؤمن والمؤمنة حارس لحكم الله من داخل النفس، وإذا كان نساء النبي -صلى الله عليه وسلم- مأمورات بهذا، فغيرهن من المؤمنات أولى وأحرى بذلك، وأن كان أمهات المؤمنين رضوان

(١) (الكشاف): (٢٤٥/٣).

(٢) (البحر المحيط): (٢٤٨/٧).



الله عليهن في موضع القدوة . وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الله تعالى خص بالخطاب هنا النساء ، وعينهن في هذا الأمر بالتقوى ، نظراً لقلة تحفظهن ، وكثرة استرسالهن ولا شك أن الأمر بالتقوى -هنا- يعني فيما يعني أخذ الحذر من الوقوع في حبائل شياطين الإنس والجن ، وعدم الخضوع بالقول لئلا يطمع الذي في قلبه مرض^(١) .

ثم جاء الوعيد بقوله جل وعز : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ . من السر والعلن وظاهر الحجاب وباطنه وغير ذلك لا تتفاوت في علمه الأحوال ، فهو شاهد على ما تفعله عموماً ومنه ما يكون من أمر احتجاجك وتركك الاحتجاب عن أبيع لكن تركه ، وغير ذلك من أموركن ، فأحذرن أن تلقينه سبحانه ، وهو شاهد عليكن بكل مخالفة لأمره ونهيه فتلهكن . وإذا كان فيما سبق من الآية إشارة إلى جواز الكشف لمن استثناهم الله تعالى من الاحتجاب عندهم ، إن هذا التذييل بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشمل فيما يشمل -إن الله شاهد عند الخلوة والتكشف فلتكن التقوى هي المعتصم^(٢) .

وهذا في نظرنا من مزيد إكرام الله لنساء النبي -صلى الله عليه وسلم- ، والدلالة على عظيم قدرهن ، إذ كان التحذير على قدر منزلتهن وكونهن أمهات المؤمنين وقدوة المؤمنات .

(١) وانظر (أحكام القرآن) لابن العربي : (٣/ ١٥٦٩) . (الجامع لأحكام القرآن) : (١٤/ ٢٣١) .

(تفسير أبي السعود) : (٣/ ٢١٨) . (روح المعاني للآلوسي) : (٢٢/ ٧٣) .

(٢) راجع (روح المعاني) : (٢٢/ ٧٣) . (محاسن التأويل) : (١٣/ ٤٩٠٠) . وانظر حاشية الجمل

على الجلالين) : (٣/ ٤٧٢ - ٤٧٣) .

ولقد خوطب في عدد من الآي بالتقوى وأخذ الحيلة وسلوك سبيل الحذر، فكان ذلك - مع التذكير - تكريماً لهن، ودرساً للبيت المسلم عامة، لأن بيت النبوة هو المثل الذي يجب أن يحتذي، والامؤذج الذي لا بد أن يكون واحداً من المعالم يشد الأسرة المسلمة إلى الاستقامة والتزام شريعة الله.

وفي خاتمة المطاف: نود أن نعيد إلى الذاكرة أن الآيات التي كانت مدار الحديث في هذه الصفحات قد جاءت بمجموعة مباركة من الآداب التي كان لزاماً على المؤمنين أخذ أنفسهم بها مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، من حيث الدعوة إلى بيته، والاستئذان، والمكث... وما إلى ذلك، وهي آداب لا يمنع تعلقها بالرسول - عليه الصلاة والسلام - إن تكون نبراس المؤمنين في كل عصر، تحكم علاقاتهم ببعضهم ببعض، كي تكون العلاقات الاجتماعية في المجتمع المسلم مطبوعة بطابع أدب القرآن وأخلاق النبوة.

ثم جاءت الآيات على تحريم أي لون من ألوان الأذية للنبي - عليه الصلاة والسلام - ومن ذلك الزواج بنسائه من بعده - صلوات الله عليه -، ورأينا من بعد شرعة احتجاب أمهات المؤمنين وتحيد ذلك، ومن استثنى من الأقارب في جواز وضع الخمار عندهم، وما كان من التذكير برقابة الله تعالى والأمر بتقواه... وفي ذلك كله كان واضحاً أن التزام الأحكام صورة عن الإيمان فهو القاعدة التي قوم عليها البناء، لذلك كان لا بد بجانب السلطة التنفيذية، من تنمية مشاعر الإيمان وصدق مراقبة الله عز وجل، ووصل حبل المسلم بالتقوى، كي تضمن دائماً حراسة الالتزام من داخل النفس وتلك هي الضمانة الأولى لتطبيق شرعة الإسلام في أحكامها وآدابها والله ولي التوفيق.



الامة.. وقراءة جديدة للسيرة^(١)

كان عليّ أن أتجاوز كثيراً من العقبات النفسية - والحال هي الحال - قبل أن أمسك بالقلم لتكون هذه الكلمات في ذكرى مولد الرسول المصطفى - عليه الصلاة والسلام - . وأعترف أن (لا تردي ما أحدثو بعدك) لا تني تزاولني وتأخذ عليّ قلبي ومشاعري . . ولكنها الأمانة . . أمانة الكلمة . . ومسؤولية الوأب والله المستعان .

وذلك لأن نبينا - صلوات الله وسلامه عليه - كما هو اليقين ومدلول العقيدة ومنطق الواقع العملي في تاريخ هذه الأمة ، ليس في حياته وسيرته - وإن كانت الحال اليوم هي الحال - رجلاً فذاً في حياة الإنسانية وكفى . . ولكنه الرسول الموحى إليه أولاً - والله أعلم حيث يجعل رسالته - وخاتم الرسل ثانياً . . ثم إن رسالته على صعيد أمتنا ، هي الأمانة التي لا يصح أن يبارح الحرص عليها والعمل بها قلباً من القلوب أو عقلاً من العقول ، فطاعته - صلى الله عليه وسلم - من طاعة الله ، ودين الله الذي بلغه وربى العصبه المؤمنة عليه قولاً وعملاً وتصوراً ومعاناة لشؤون الحياة هو امتحان هذه الأمة اليوم في أن تأخذ أو تذر . . وعندما تعصف الرياح الهوج . . بفرنيها نذر السوء والتفلت ، ترغيباً أو ترهيباً تظهر حقيقة الإيمان ، وما إذا كان هنالك وضوح في الرؤية عند هؤلاء الذين تربطهم بسيرة هذا الرسول - عليه الصلاة والسلام - أصرة العقيدة ، وتشدهم إليها ملامح الصدق وعزمات الرجال .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٥هـ ربيع الأول، ١٩٧٥م آذار.

وإن أمر هذه السيرة عجب من العجب ، فإذا توفر وضوح الرؤية ، وصدق العزيمة . . رأيت كل حلقة من حلقاتها شاهد صدق على قوله تباركت أسماؤه ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ ، فقبل الأربعين لم يعهد عنه -صلوات الله عليه- إلا الصدق والأمانة وسلامة السلوك ، حتى إن الله حفظه من أن يقع في أي من تلك اللوثات التي وقع بها أقرانه وأبناء جيله . . وفي خلال ثلاثة وعشرين عاماً بعد أن أشرقت شمس الوحي واهتزت الأرض بالحقيقة لكلمة السماء . . كان شغله الشاغل في حياته المباركة . . أداء الأمانة . . والصدق في تبليغ الرسالة . . في نفسه وأهله وقومة والناس . . يستوي في ذلك حالاً الشدة والرخاء . . والسلم والحرب . . في إطار من الاخلاقية الفريدة في حياة الإنسان . . حتى لقي الله وقد استوى الإسلام على سوقه ، واستبان الصبح لكل ذلك عيين . ولقد كان الصبر على الأذى . . والريادة الأمانة في تعبيد الطريق الموحشة المقفرة سلاحاً يقاتل . . ولساناً يطلق كلمة الحق . . ولئن كانت فرضية الجهاد الجماعي قد كتبت على المؤمنين بعد الهجرة . . فإن لوناً من الجهاد قوامه الجهر بالحق ، واحتمال الأذى . . والصبر على وعورة الطريق . . كان ضيياء التاريخ في مكة المكرمة . . حتى عرف القاصي والداني أن صبر النبي -صلى الله عليه وسلم- ، وصنوف الأذى تنصب عليه وعلى صحبه يومذاك . . لم يكن صبر الذلة والاستكانة . . ولكنه صبر المجاهد المدركين لدلول كلمة (لا إله إلا الله) المعتزين بما عند الله . . إنه الصبر على تبعات تغيير الواقع . . وريادة الطريق . . الصبر على حمل التبعة بأمانة . . والاطمئنان إلى الواجب بعمق ويقين . . ثم عدم التملل تحت ثقل المسؤولية



مهما بدت صعبة ومرهقة . . إن صبر الأذلاء المستكينين ليس من هذه السيرة
المباركة في قليل ولا كثير ، ولكنه الفكر المدسوس . . والزيف الذي لا يصح
أن ينطلق على المؤمن متفتح البصيرة .

حتى إذا جاء العهد المدني رأيت بناء مجتمتع العقيدة . . والاحتكام إلى
المنهج الرباني . . والنزول على كلمة الله ورسوله في كل صغيرة وكبيرة من
شؤون الحياة، فإذا الذين كانوا تابعين بالأمس . . أصبحوا هم المتبوعين لأُم
الأرض اليوم . . وإذا ميادين الاجتماع . . والاقتصاد . . والسياسة . .
والعلاقات الفردية . . والاجتماعية . . والدولية، هي من هذا النظام الذي قام
على العقيدة، بحسبان . . وإذا الإنسان الذي كان طاقة مهددة بالأمس . .
يصبح اليوم حامل رسالة . . وحمل الرسالة . . وما أدراك ما حمل الرسالة . .
قول وعمل . . وعقيدة . . وجهاد . . وسولك وحسن ممارسة للحياة . . ضمن
منهج منضبط المقدمات والنتائج . . وسلوك وحسن ممارسة للحياة . . ضمن
منهج منضبط المقدمات والنتائج . . ونظرة موضوعية إلى الأمور من خلال
سلم للقيم لا يحيد ولا يريم . . وعندما نقول الإنسان . . فالرجل والمرأة كل
منهما في المكان الذي يحقق التكامل . . ويستنفذ الطاقات فيما خلقه الله
لأجله حسب تكوينه ومؤهلاته ؛ فخاطب التكليف بحمل ارسالة والعمل
بأحكامها لهما جميعاً . . ولكن تختلف بعض الأحكام - لحكمة أرادها الله -
اتساقاً مع الأهلية الاستعداد والتكوين الجسمي والنفسي . . ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ
اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا

وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٦٠﴾ .

وإذا كان الأمر كذلك فالرسالة امتحان للرجل والمرأة على السواء ، والجهاد ماض إلى يوم القيامة . . والله لا يضيع عمل عامل منكم من كدر أو اثنى بعضكم من بعض . .

نقول هذا والعبث العابث . . حول الحقوق والواجبات هنا وهناك . . يلهي بعض الغافلين . . حتى يكادوا أن يصدقوا الكذب . . ويستحسنوا الافتراء . . نعم يلهيهم عن العمل الجاد البناء لتحقيق ما أمر الله به . . والوقوف بوعي عند الذي يعنيه قول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَغِيرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ ﴾ . في خطاب للرجال والنساء على السواء .

ذلك لأن أمر هذه الرسالة التي شاء الله أن تكون سيرة الرسول -عليه الصلاة والسلام- الصورة الناطقة بصدقها واتساقها مع واقع الإنسان كما خلقه الله . . ليس أمراً منوطاً بحياة النبي الموحى إليه وحسب . . ولكنها دعوة الله إلى عباده حتى يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

ليت شعري . . أي نذارة . . هذه النذارة . . وأي شيء هو هذا الانقلاب على الاعقاب اليوم . . حيث الأفئدة هواء . . والانبهار بما عند الآخرين بالغ المدى . . والانهاز الداخلي مفخرة عند انصاف المتعلمين . . وعنوان حصاري عند البلهاء والزائفين .



على هدي هذه الإشارة العبارة التي يوم المؤمن -والقلوب تدمى- أن يكون فيها شيء من الذكرى . . وفي ضوء الحقائق التي لا تخفى على ذي لب . . نرى لزماً على أمتنا وهي في مواجهة الامتحانات القاسية، في أيام تطاول ليلها . . واستنسر فيها البغات . . أن تعود إلى سيرة نبيها المصطفى -عليه الصلاة والسلام- تقرأ من خلالها -بتبصر وإدراك- مقومات وجودها الحقيقي، وعناصر ذاتيتها التي يجب أن تكون.

إنها قراءة جديدة ندعو إليها . . وأسمح لنفسي أن أقول: أنها القراءة الخضراء المثمرة . . وليست القراءة الجافة الجرداء حيث القلب مغلق، والعقل مضروب عليه بالأسداد . .

إن كل الأحداث والوقائع . . وعلى صعيد الفكر بخاصة . . توجب حتمية أن تواجه الأمة هذه السيرة -ومن خلال القراءة الجديدة- بالقلوب والعقول والمشاعر . . تعطيها مكانها من صدق الإرادة فيما يجب أن يكون أو لا يكون . . سواء أكان ذلك على ساحة المبادئ . . أو على ساحة البطولات التي حققت هذه المبادئ . . واستطاعت أن تخرج منتصرة ظافرة بعد صراع مرير - في ميدان النفس والبيئة - مع الواقع الجاهلي الذي تجاوزته إلى غير رجعة، وصراع قد يكون أشد منه مع أعداء الرسالة هنا وهناك . .

وإذا سلم ذلك للأمة على أصول منهجية تربط الأمور على تشعبها بالعقيدة . . تخلصت من هذا الدوار المقيت الذي هي واقعة فيه في تطلع إلى التخلص من القيد . . وتشوف إلى النصر المرتقب على الأعداء .

لقد أعطى النبي -صلى الله عليه وسلم- هذه الأمة مفاتيح الكرامة والقوة . . وأرسى القواعد التي تكفل لها -أن لو أفادت على الالتزام- متبواً القوة ومكان القيادة في العالمين . . فمن العجب العاجب أن نستجدي وعندنا مفاتيح العطاء . . وأن نضرب في صحارى الغفلة والتهيه . . وبين يدينا النور المبين . . والسيرة التي قدمت البرهان الخالد . . على أن رسالة الإسلام هي لواقع الإنسان . . وللحياة . . ولسعادة الدنيا والآخرة .

ترى . . هل هو الاستسلام لوسوسة الشياطين . . أم هو قابلية الاستمرار في هذه المرحلة ريثما يؤذن فجر جديد . .

أن العبرة في أولئك الذين حملهم رسول الله دعوته في تربية ماجدة عليها، وجعلهم في طليعة صنائع التاريخ . . إن العبرة في هؤلاء الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه . . وفي الذين هاجروا معه في سبيل الله . . إن العبرة في هذا الرعيل الذي لم يخل بالعطاء . . قائمة تدعو هذه الأمة إلى الحق . . وتثير فيها كوامن الوعي كي تكون عند الذي يدعوها إليه الرواد الأماء الذين هم ضميرها . . ومؤشر الحياة في كيانها . . وذلك من أقرب نتائج القراءة الجديدة لسيرة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- .

ولكن تكون بادرة اليقظة صحيحة ومشرقة . . عندما نواجه السيرة لنحتكم إليها، ونستلهمها . . لا لنحكم عليها بأفكار عداتها . . وما أوهمنا دعاة التغريب أنه من المسلمات .

إلا ما أكرمه عنواناً . . أن تكون المعاناة لوقائع السيرة برواياتها الموثقة



الصحيحة . . معاناة الأوفياء . . الذين يرون في الأوبة الصادقة وقوفاً عند
عهد الإيمان . . وموثق الدعوة مع الرسول -عليه الصلاة والسلام- .

ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه^(١)

مهلاً رويدك أيها الحادي!! فنحن الذين بأمتنا أشرق التاريخ، وبكتابنا عرفت الإنسانية معنى وجودها.. وعلى هدي مبادئنا لمت الحضارة شعثها وشقت طريقها من جديد.

ولكن.. إذا مر بنا التاريخ من جديد فلسوف يعجب أن يرى من بقايا الطلول أن الدهر قد قلب لنا ظهر المجن.. فانقطع ما بيننا وبين أولئك الذين أشرق بهم التاريخ وسعدت بهم الإنسانية.. وقامت على مبادئهم حضارات، ولسوف يراجع نفسه مرات ومرات.. أصحيح أن هؤلاء الذين يلهو بهم الزمن اليوم هم أحفاد عمر وخالد ونور الدين وصلاح الدين؟! أتراهم على نسب صحيح لأولئك الذين مادت الأرض تحت سنابك خيولهم في بدر والقادسية.. وعلموا الدنيا معنى حماية الحق والإيمان في اليرموك وحطين؟! وحطين؟!

أصحيح أن الذين كانوا على النبع السلسبيل يسقون الواردين عبر القرون يقفون اليوم بهلع يسألون ويستجدون!!

أصحيح أن الأمة التي كانت على خط الريادة، قافلة تحمل الراية، وقيادة توجه الركب، وقلوباً تحرس الخلق، وعقولاً تبني حضارة السعادة والخير..

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد السابع والثامن، السنة الثانية عشرة، ١٣٩١ هـ رمضان - شوال، ١٩٧٢ م كانون الثاني.



أصبح أن هذه الأمة أخنى عليها الدهر فأصبحت لا حول لها ولا طول . .
مستباحة الحمى ، مهذرة الحقوق ، يعبث بمقدراتها سفهاء العالم فيما يسمونه
هيئة الأمم المتحدة ، انعكاساً للحقد العفن في أدمغة يهود!! ومن هم على هوى
يهود!!

ولقد ينتهي العجب إذا ملكنا شجاعة القول بأن الرزية التي تضرب بكلها
على هذه الأمة -وهي رزية ذات وجوه وألوان وعناوين- ليس أقلّ وجوهها
ضراوة تلك الغفلة القاتلة التي تنسي الغالبية العظمى من بني جلدتنا معنى
نسبتهم إلى (الإسلام) وطبيعة الروابطة التي تربطهم برسالته وحضارته بعيداً
عن السطحية وضحالة الفكر والعمل ، وأن مما يطرب له العدو ويسعى له من
زمن ليس بالقصير أن يبلغ مراده في هذا النسيان أو التناسي من أبناء الأمة ، بله
المحاربة وإعلان العداء ممن مرجت عهودهم وفتحتهم مراهقة الفكر ، وختم
على قلوبهم بالتخنث الخارج على كيان الأمة ، المتنكر لأصالتها ودورها
الحضاري في خدمة الإنسان .

ولسوف نكون مع الحقيقة والواقع حين نقرر أن هذا الوجه من وجوه
الرزية ، كان باباً لكثير من الرزايا التي تعاني منها أمتنا حيث تجرّجها
الأحداث في فتن كقطع الليل المظلم كل واحدة منها تدع الحليم حيران .

فالإسلام عهد الله إلى هذه الأمة ، وموثقه الذي واثق به عباده ، رسالة
حملها إليهم الصادق المصدوق محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ،
ومن قبل كان الميثاق الذي أخذه الله على النبيين -عليهم الصلاة والسلام-

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

ولقد تعاقدت الخناصر على البيعة الصادقة ، واثلت القلوب على اتباع الرسول الكريم واتحدت ، وأنشأ الكل يرمون عن قوس واحدة ، لما نظم الله من الفتهم وجمع من كلمتهم ، وأماط عن حياتهم ما كان من التباغض والتحاقد ، وأبدلهم تحاباً وتواداً ، فهم يحبون في الله ويبغضون في الله ، وتأيدت الدعوة بصدقهم ووفائهم وجهادهم في مواجهة عدو لا يألو في النيل منهم وإيقاع الأذى والفتنة بين صفوفهم ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٦) وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

وفي ظل هذا المفهوم الذي يجعل من الإيمان -مع التصديق والعمل- موثقاً وعهداً وبيعة ، وضحت بنية الفرد المسلم ، وجاء تكوينه انعكاساً صادقاً لمتطلبات الإيمان وصدق العهد ، فدخل نطاق المسؤولية من أوسع أبوابه ، وشعر بوجوده وذاتيته أصدق ما يكون الشعور ، واعتز بدينه أقوى ما يكون الاعتزاز ، ولبس لبوس الجد والإيجابية والبناء بعيداً عن اللهو والضياع ، منقطعاً عن كل ما يضعف الفرد أو يكون طريقاً لتوهين كيان الأمة . وللعهد مع الله سلطانه على القلوب ، وبيعة الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- هديرها في أعماق النفس المؤمنة الخاشعة . صحيح أن طريق الوفاء صعب



المرتقى ولكنه طريق الرجال الواثقين بفضل الله المترسين في مخالطة الخلائق الإيمانية، المستعلين على صوارف العبث والهوان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ أَجْرٍ عَظِيمٍ﴾. صحيح أيضاً أن الآية نزلت على سبب خاص معروف ولكن مدلولها في شأن البيعة والوفاء بالعهد الذي لا يحده زمان ولا أشخاص واضح لكل ذي عينين.

ولقد كان من مستلزمات ذلك كله - مع السمع والطاعة - إسلام الوجه لله تعالى والتبرؤ من كل الأضداد والأنداد، وتجنيد القلوب والعقول للدعوة، ووضع كل الطاقات في ساحة الوفاء لعهد الله ودينه، واتسعت ميادين العمل الجاهد لصدق الموثق مع رسول الله - عليه الصلاة والسلام - . فإذا رأيت ثم رأيت الحياة قطاراً يحمل أبناء الأمة إلى مراحب السعادة والخير، والمنعة التي تستعصي على عوادي الزمن .

والأمة التي تسوقها إلى مراحب الخلد عقيدة وعهد لن يكون ذلك أمراً على هامش حياتها، أو همهمات روحية مترفة لا تمت إلى الإسلام بصلة، أو عنواناً يوضع على فئة معينة بما تعفي الأمة نفسها من مسؤولية العمل والجهاد . لا . . إن الأمة كلها على صعيد العمل في ظل إسلامها، وبوحي من شرعته منهاجه . . ولعل ذلك ما يفسر الكثير من الأسئلة التي حفلت بها أي القرآن الكريم «يسألونك . . يسألونك . . يسألونك» وما جاء من أمثال ذلك في حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، دليل الحرص على أن تضبط كل

التحركات بمقاييسه ، وأن تخضع كل التصرفات لأحكامه ، كما يفسر الحرص على التسابق إلى ميادين الجهاد والموت في سبيل الله ، كيما يكون السلوك صورة صادقة لمعتقدهم أن الله قد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون . . . » .

ولقد كان القرآن للجماعة التي فقهت دين الله على أنه عهد وموثق بالمرصاد ، يدفعها سعداً على سلم المجد ، وكل ما فيه سعادة الدنيا والآخرة .

وواحدة من هذه اللفتات القرآنية - وما أغزرها وأشملها - نجدها في شأن بعض من تخلفوا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يوم «تبوك» تبوك . رحلة الإيمان المستعلي على كل المشقات والصعوبات ، رحلة الغنى بطاعة الله ورسوله عن كل ملاذ الحياة ومغرياتها ، رحلة الصبر الذي أملى على التاريخ سطوراً لا ينتهي مداها ولا يخبو نورها على الأيام .

ففي أعقاب الحديث عن الثلاثة الذين خلفوا وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية الواقفي ، وما كان من صدق موقفهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وتميزهم عن المنافقين الذين تسلحوا بالكذب والمواربة ، جاءت الدعوة العامة لكل مؤمن ومؤمنة بأن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين في إيمانهم من أهل السابقة فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ثم قال في شأن من تخلف من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ولم يكن لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ولا أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ



اللَّهُ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ .

إن أهل المدينة الذين حملوا عبء الدعوة مع إخوانهم المهاجرين والذين آووا رسول الله ونصروه، وكانوا بعد البيعة المثل الصادق للوفاء، والقاعدة الإيمانية الصلبة للدفاع عن حوزة الإسلام، وكذلك القبائل الضاربة حول المدينة وقد أسلمت وصدق إسلامها، ليس من حق هؤلاء أن يتخلفوا عن رسول الله، ولا أن يؤثروا الراحة فيرغبوا بأنفسهم عن نفسه، إذ لا ينبغي أن تكون أنفسهم أعز عليهم وأعلى من نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الذي كان دائماً في مقدمة الركب وفي مواجهة المخاطر - عليه الصلاة والسلام - . فحين يخرج في الحر أو البرد، مع اللاأواء والضر وفي اليسر والعسر ليقود القافلة في مواجهة أعداد الدعوة، غير متململ تحت الأعباء، ولا متضجر من ثقل التكاليف . . لا ينبغي للرجال الذين أكرمهم الله بعهد الإسلام من أهل المدينة ومن حولها أن يقع منهم ما وقع، فيشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - راضياً مرضياً . وإذا كان الأمر كذلك . . إن عليهم أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين أهل السابقة الذين لم يتخلفوا، وكانوا في ساعة العسرة رجالاً أمناء، مستعلين على كل الصعوبات ؛ لم يتزعزع إيمانهم، ولا تحولت قلوبهم، وصدق فيهم أنهم ممن

رضي عنهم روضوا عنه . وإنه لتأنيب أي تأنيب ، فليس أوقع على النفس ولا أوجع على الضمير من أن يقال . إن صاحب رسول الله رغب بنفسه عن نفس رسول الله .

ولقد جاء التعليل في أعقاب النهي عن التخلف . . تعليلاً واضحاً يرسم الطريق ويوضح والمنهج ، ففي كل حركة أجر ، وفي كل نيل من العدو عمل صالح ، مما يوسع ساحة العمل ، ويفتح أبواب الجهاد ، ويتيح لكل اختصاص في الأمة أن يأخذ مداه في حرب الأعداء .

وفي الظماً مثوبة ، وفي النصب مثوبة ، وفي الجوع مثوبة ، وفي كل موطن قدم يفيظ الكفار جزاء من الله تبارك وتعالى . . وكل نيل من العدو مهما كان شأنه يكتب الله لصاحبه العمل الصالح . . ذلكم هو الجهاد . . وذلكم هو كفاء ما يقدمه المجاهدون . . لقد شاء الله فضله ورحمته أن يوسع لهم في العطاء على كل حركة وعمل يكل عمل . . وعلى النفقة صغيرة كانت أو كبيرة . . بل على كل خطوة ولقطة وسبحان من لا يضيع أجر من أحسن عملاً ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

أرأيت إلى هذا الذي يلفت إليه القرآن !! إن في هذه الواقعة وما نزل بسببها لإشارة إلى كل جل من أجيال أمتنا هذه حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، أنه ليس من حق واحد ينتسب إلى هذه الأمة ، وهو على طريق العهد والميثاق أن يرغب بنفسه عن دعوة رسول الله ، زاعماً أنه من أهل هذه الدعوة ، وعلى نسب متصل بمفهوماتها والخط الذي رسمه رجالها الأولون بدمائهم ،



وصاغوا لبناته من أشلائهم/ إن الآيات في شأن التخلف عن رسول الله والرغبة بالأنفس عن نفسه تأخذ مداها عبر القرون ، لتضيء لنا نحن الطريق كما أضاءته لمن قبلنا، لتشعرنا بما نحن فيه من جفوة لدعوته -عليه الصلاة والسلام- ، حتى كأننا نرغب بنفسنا عن نفسه -صلوات الله وسلامه عليه- .

إلا إنها إشارة جديرة -إذا فتحنا لها القلوب- أن تغنينا بالعطاء فتضعنا على الطريق وفي اطار الوفاء للعهد والموثق ، مما يوقظ غافلنا ، ويذكى روح الحياة في أرضنا ، فندرك معنى ارتباطنا بهذه الدعوة بعيداً عن الجفوة واللامبالاة ، وأين يجب أن يكون اعتبارها في ميزان الحياة ، وما هي ضوابط القرب والبعد منها ، والصدق والكذب في الانتماء إليها .

وهذا الذي نقول كفيل -مع المنهج المدورس والتربية البناءة- أن يقفنا على اليابسة أمام التحديات . . إن تلکم الومضات الإيمانية التي يوقد مصباحها موثق الله الذي واثق به هذه الأمة هي التي تضيء ظلام النفوس إذا جنَّ ليل الفتن ، وتحرك كوامن القلوب إذا أدلهمت الخطوب ، ولن تجد بديلاً لهذه الومضات مهما عملت على أن تجد البديل . ولن ينفع الأمة إلا تذكر أنها بإيمانها بمحمد وبرسالة محمد هي على بيعة معه -عليه الصلاة والسلام- ، وللببيعة مستلزماتها وواجباتها واتعكاساتها ، فیس الإيمان بالتمني ، وليس الإيمان بعريض الدعاوي وفارغ القول ، ولكنه التزام الطريق ، وصدق الاتجاه ، وبذل ما يوجب الإسلام بذله -على أساس من التصديق- يوم تقف الأمة في وجه التحديات ويراد لها أن تقول كلمتها أمام الكوارث والنكبات .

لنذكر دائماً أنه لم يكن عبثاً أن يفصح القرآن عن رضا الله عن الذين بايعوا تحت الشجرة ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ . وأن يقول الرسول في أهل الحديبية «أنتم اليوم خير أهل الأرض» وأن يقول في شأن أهل بدر «لعل الله أطلع على أهل بدر يوم بدر فقال أعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم» إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد، ولله عاقبة الأمور .



الذكرى .. والاعتبار^(١)

في كلام موصول بالذي دعونا إليه في العدد الماضي ، من القراءة المثمرة للسيرة . . القراءة التي تنطلق من وضوح الرؤية ، وحسن التطلع إلى الغاية . . والتي تتوافر لها يقظة القلب والعقل والمشاعر . . مما يجعل السيرة حكماً يحتكم إليه لا محكوماً عليه بقالة الفجرة ، ودعاوى الذين في قلوبهم مرض . . أولئك الذين همهم تقمم ما يتوهمون أنه مثالب . . والحكم علي تصرفات الرسول -صلى الله عليه وسلم- من خلال أنفسهم الهابطة . . وما هم فيه يعمهون .

في كلام موصول بذلك . . نود -ونحن ما نزال في ظلال شهر المولد- أن نشير من جديد إلى أن هذه القراءة الجادة الصادقة ، هي الكفيلة أن تنقل المسلم من ساحة أن تكون السيرة للمعرفة وحسب ، إلى ساحة أن تكون السيرة للعمل والبناء .

إن الإيمان بنبوة محمد -صلى الله عليه وسلم- ، وإن طاعته من طاعة الله ، قمين -إذا صدقت الوجهة- أن يحمل المؤمن تلقائياً إلى حيث سلامة التصور . . ومن بعد إلى سلامة التطبيق . . وهذا كائن في الحدود النظرية للموضوع . . والذي يخرج به إلى الطور العملي التنفيذي على صعيد السلوك والممارسة ، أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- فداه أبي وأمي -صاحب

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثاني ، السنة السادسة عشرة ، ١٣٩٥ هـ ربيع الآخر ، ١٩٧٥ م نيسان .

كلام مقطوع عن السماء . . مطبوع بطابع الفلسفة التي تدعو الناس إلى نظرية أو مبدأ، دون النظر إلى معنى قدرة صاحب الدعوة على إخراج ما يقول إلى حيز الوجود ليكون واقع الحياة . . وإعطائه الصبغة العملية في نفسه، وفي كل من ولاه الله أمرهم، . . بل كان الأمر على العكس مما جعل ذلك برهان الواقعية في دعوته . . واقعية الإنسان في فطرته واستعداداته، وواقعية صلته بالكون والحياة . . وأن الأفكار بالنسبة إليه . . ليست ترفاً من الترف . . ولا مسلاة يتقضى معها الليل والنهار . . بل إنها منهج بناء الإنسان . . الإنسان . . بوصفه إنساناً قبل أن ينتسب إلى جنس أولون . . ومنهج البناء لنظام الحياة . . الحياة بكل آمادها وأبعادها . . غير مقيدة بزمان أو مكان .

من أجل ذلك كانت قراءة السيرة للمعرفة من أصحاب البصائر . . هي الجسر الطليعي عند المؤمن، إلى ما وراء ذلك من الحركية والنباء . . لما أن صاحب السيرة - صلوات الله وسلامه عليه - . . وهو القدوة والأسوة . . كان في حياته كلها . . وحتى في خاصة نفسه وأهله . . يروح ويغدو على صعيد البناء فيما يسعد الفرد والجماعة في الدنيا والآخرة، ولعل هذا واحد من مظاهر قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ .

فإذا توافرت لذلك الأمر أسبابه، وأفسح المجال دون تحقيقه . . استقام الطريق، وتطامنن الترهات، وكان بالإمكان أن نرى من خلال وقائع السيرة، كيف أن أولئك الذين استجابوا لدعوة النبي الأُمِّي . . قد وجدوا ذاتهم عند تلك الاستجابة . . وجدوا ذاتهم على الشكل الذي يحقق إنسانية



الإنسان . . بعد أن كان كابوس الضياع والتمزق . . هو الأمر الناهي في حياة الفرد والقبيلة آنذاك . .

وعندما وجودا ذاتهم استطاعوا أن يعطوا جديداً للإنسانية . . وأن يقدموا روافد الإبداع للحضارة . . لقد كان العطاء وفيراً، ثمرة اعتناقهم من العبودية للعباد، والتقليد الأعمى . . والأوثان التي تصنعها أيديهم . . ولولا الانعتاق والتحرر . . لم يكن في مقدورهم، أن يفكوا أغلال الإنسانية، وأن يحرروها مما ألم بها من تمزق وضياع.

وشيء آخر وراء ذلك . . إنه إذا وجدت القراءة التي تنقلنا من المعرفة إلى الحركة والنباء . . ومن القراءة التاريخية العابرة إلى صناعة الجيل والمجتمع . . وجدنا من خلال معاناة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه للحياة في العهد المكي والعهد المدني كليهما، كيف يكون ارتباط جزئيات الحياة بلكيات الرسالة، وكيف يأخذ التخطيط عند مواجهة الحق للباطل موقعه من تطبيق تلك الرسالة .

إن الصراع مع الوثنية في مكة . . رافقه صراع مع النفس وحملها على الجادة . . وأن الصبر والشعور بالمسؤولية والطمأنينة إلى تحمل تبعة الرسالة، وإعداد العدة المستطاعة، والأخذ بأسباب النصر . . كل ذلك كان يرافقه دائماً اللجوء الصادق إلى الواحد الأحد سبحانه، والطمأنينة إلى ما عنده، والرضا بقضائه، في المنشط والمكره . . فالمعركة دائماً في ميدانين :

أولهما : ميدان النفس لتكون عند المؤمنين كفاء المسؤولية والثبات .

والثاني : ميدان المجتمع الغارق بموروثات الجاهلية كيما يتحقق التغيير إلى ما هو انعكاس الرسالة وصورتها العملية في واقع الحياة .

وعندما تفتحت آفاق المناخ الجديد بعد الهجرة . . وبرزت تبعات المجتمع الجديد الذي أريد له أن يكون النموذج الأسمى لتحكيم شريعة الله عقيدة ، وعبادة وسلوكاً . . عندما وقع ذلك . . وتبعه بروز خصوم جدد للدعوة ، في اليهودية والنفاق . . رأيت حبل المراس يزداد متانة وقوة . . والأنابة إلى الله لا يفتأ المؤمنون أن تكون مثابتهم في حالات السلم والحرب ، دون أن يكون ذلك على حساب الأخذ بالأسباب . . مما جعل كل الطاقات توظف في سبيل القضية الكبرى قضية الأمة في رسالتها المحمدية . . وتحولت المدينة المنورة وما حولها . . إلى مصنع للحياة الكريمة بشتى فروعها وألوانها . . وكان ذلك فتحاً جديداً في دنيا الناس على هذه الأرض . . في ناظم مبارك من المنهج الرباني تحت راية دعوة الله وفي سبيل إعلاء كلمته .

صحيح أن العلم الحديث قد أضاف إلى قدرة الخصوم شيئاً كثيراً في صراعهم مع هذه الأمة . . واليهود . . ضمن هذه السلسلة البشعة الحاكمة يفيدون من معطيات العلم والاقتصاد ، في حربهم الشرسة ضدنا وعدوانهم علينا . . ولكن تظل المنطلقات هي المنطلقات . . والعلم قدر مشترك بين الناس في دنياهم العريضة . نعم المنطلقات هي في علاقتنا بأعداء الإنسانية هؤلاء . . بدءاً من مواقفهم من النبي - صلى الله عليه وسلم - ودعوته . . ثم ارتحال آخر يهودي من الجريرة بأمر من عمر - رضي الله عنه - . . وحتى



فشلهم فيما حاولوا مع آخر أقوى رجل في بني عثمان . . إلى أن كان ما كان من بعد .

انظر إلى المشكلة من ناحية العقيدة والفكر . . من ناحية الحقوق الدولية في السلم والحرب . . من ناحية المناجزة والمواجهة في ميادين القتال . . من ناحية خلائق يهود في التعامل على كل ساحة وصعيد . .

انظر إليها من أي زاوية شئت - ولا نقصد من التعداد الحصر - تجد أن في سيرة المصطفى - عليه الصلاة والسلام - اليد الأمانة التي تشير إلى مكنن الداء بموضوعية وعمق . . وتنصح بناجع الدواء الذي لا دواء غيره . . حيث الحكمة حين تنفع الحكمة . . والسلاح حيث لا ينفع إلا السلاح . . دائماً وضع الأمور في مواضعها بذاتية وأصالة ضمن منهج مدروس تمليه طبيعة الرسالة ، ومسلك قتلة الأنبياء في معاملة الآخرين . كل ذلك بالأرقام الناطقة ، والوقائع التي لا تدع زيادة لمستزيد .

وليس ترسم الخطى التي تملئها وقائع السرية بمقصينا - كما أسلفت - عن الإفادة من معطيات العلم في ظل قوله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ .

فليس من المتعذر على هذه الأمة أن تغترف من هذا البحر الزاخر بضياء النبوة ، بأداة حديثة يصنعها العلم ، في الوقت الذي نجد القرآن حثيث الدعوة إليه . . حافلاً بالكشف عن مسالك اليهود وانحرافاتهم . . وتاريخهم مع الحقيقة ، ومع الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - . . وهل السيرة إلا تحرك في

ضوء مفهومات القرآن ودلالة آيه!!! .

لقد واجه رسول الله مشكلة العنف والحرب النفسية عند اليهود حين حاولوا اغتياله وتدبير كل ما شأنه الإيذاء وأحداث الرعب -على زعمهم- في النفوس . وواجه مشكلة الكراهية والحقد التي هي من أبرز خلالهم حتى حرفوا نصوص التوراة وابتدعوا جديداً من عند أنفسهم ، بينما كانوا يستفتحون في الماضي على أعدائهم بنبي يبعث من العرب مذكورة صفاته عندهم في التوراة . كما واجه افتراءهم وقلبهم للحقائق ، وشهوتهم إلى المال مراباة وتجارة حتى بالأعراض ، صورة عن الانحلال الخلقي ، واستخدام المرأة سلاحاً لتنفيذ ما إليه يتطلعون .

ولم تكن مواجهته لذلك كله بمغنية عن الحوار الفكري مجادلة بالتي هي أحسن في حالات السلم ، ومواجهة قتالية في حالات الحرب ، وما كان من نقضهم للمواثيق وخيانة العهود . . والتمتمات الآثمة في الظلام ، في تحالف حاقد مع النفاق وأهله والشرك وسدنته هنا وهناك .

واليهودي هو اليهودي . . فقد ملأت الدنيا . . مظاهر ما ذكرناه لتحقيق أغراضهم في بناء ما يريدونه دولة لهم تمكنهم من الانقضاض على هذه الأمة بدءاً من وعد بلفور المذووم إلى اليوم . . حتى بلغ من تعميقهم لفلسفة الحقد والكراهية -بجانب كل العدوان على الاخلاق والقيم- أن صرحت اذاعتهم بعد اغتيال الملك فيصل -رحمه الله- «إن إسرائيل لا تأسف على موت الرجل الذي بلغ من عدائه لإسرائيل حد عدم التمييز بين الصهيونية والشيوعية» .



والذي تقتضيه طائع الإشياء، والاعتبار بدروس التاريخ.. وعلاقتنا لهؤلاء الاناسي ردحاً من الزمن.. حيث نعاملهم بأخلاق الرجال.. ويعاملوننا بالدرس والخيانة والعنف.. إن طريقة الرسول -صلى الله عليه وسلم- هي الطريقة المثلى حين قاد الأمة إلى وقاية نفسها والإنسانية شرورهم وأذاهم.. حينما كان يتصرف في ضوء ما كشف عنه القرآن الكريم عن منطلقاتهم وخلائقهم خلال تاريخهم غير النظيف.. ولذلك بات من العدا لهذه الأمة.. في معركتها معهم، أبعادها عن منارات هداها.. ومصادر قوتها وتجريتها في سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

إننا -ما تعاقب الليل والنهار- مدعوون لاستئناف التوجه شطر تلك الالتماعات التي أضاعت دروب الإنسانية على الزمن.. في كل خطوة خطاها محمد -صلى الله عليه وسلم- على أرض التاريخ.. كيما نحدد في ضوئها مفهوماتنا.. ونجد ذاتنا.. فنتحرر في حاضرننا.. ونبني بالأيدي الأمانة والعقول المفتوحة والقلوب المؤمنة مستقبلنا.

إننا حين نتوجه شطر تلك المعالم.. نذكر أن سيرة الرسول -عليه الصلاة والسلام-.. عنوان خير لا يقادر قدره.. وبحر زاخر من العطاء لا يدرك له ساحل.. ونقطة البء أن تكون لدينا القناعة الإيمانية بوجوب التأسيسي.. والتوجه -قدر المستطاع- نحو المثل المطلوب.. وأن يتاح للرواد من أبناء الأمة صنع التيار الذي يصنع جيل السيرة وأن يكون كل قادر على ذلك عند الأمانة التي ائتمنه الله عليه.. حسب موقعه والطاقة التي بين يديه.. غير ناسين أن

التمحيص دائماً رفيق الإيمان على الدرب الطويل . . وأن الابتلاء غير منفك عن العقيدة . . فما أعد لأهل الإيمان المجاهدين من جنة عرضها السموات والأرض . . ومن الشهادة في سبيل الله حين يقضون نجبهم على الطريق . . إن هذا الذي أعد لهم . . هدية غالية لا يصلح لها البطلة والعاثبون . . نقول هذا في ظل خطاب الله لنبيه - عليه الصلاة والسلام - . . فيما هو درس للأمة وتوجيه لها حتى تقوم الساعة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (١٠٨) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ والله المحمود على كل حال .



إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به^(١)

الجزيرة العربية وما حولها في ترقب للذي يمكن أن يحدث في أعقاب إرسال الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى عدد من الملوك والأمراء، يدعوهم إلى الإسلام ويحملهم -إن لم يسملوا- مسؤولية انحراف رعاياهم عن كلمة الله .

وفي هذا الجو من الترقب، والاحساس بأن روحاً جديداً يسري في كيان تلك الديار وقعت غزوة مؤتة، وذلك في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة بعد عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر، فقد تجاوز شرحبيل بن عمرو الغساني أحد عمال الروم على الشام كل قواعد العرف الدولي يومذاك، وكل أخلاق الرجولة وما تقتضيه معاملة الرسل من حسن الوفادة والاكرام . . مهما اختلفت الاتجاهات والأفكار . . تجاوز شرحبيل ذلك كله ووقع في حماة الشذوذ المخزي حين قتل الحارث بن عمير رسول رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى أمير بصرى . . حيث لقيه فسأله عن وجهته، فلما عرف أنه من رسل محمد، أمر به فأوثق رباطاً ثم قدمه فضرب عنقه .

وإذا كان لهذا الحادث دلالاته من حيث كونه عدواناً على السلطة الإسلامية، مع خروجه على قاعدة أن الرسل لا يقتلون . . أن وقعه كان شديداً على المسلمين الذين كانت الدعوة إلى الله حياتهم ووجودهم . .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالث، السنة السادسة عشرة، ١٣٩٥ هـ جمادى الأولى، ١٩٧٥ م أيار .

فانتقاص أي عروة من العرى المرتبطة بها . . انتقاص لكرامة المجتمع المسلم . . والرضا به عقبة في طريق تلك الدعوة أن يشتد منها الساعد ، وتسير في طريق التمكين .

أضف إلى ذلك أن طبيعة المرحلة التي كانت تمر بها الدعوة . . تقتضي الحفاظ بدقة بالغة ، وأكثر من أي وقت مضى . . على هيبة الإسلام أن تنتقص في النفوس وعلى الطمأنينة إلى سلامة وجهته أن تنزعزع في القلوب . . وتلك حلقة تأتي مكملة لما حصل من التوسع في ساحة التبليغ حين أرسل الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى ذلك العدد من الملوك والأمراء يدعوهم بدعاية الإسلام . . في وقت دخل الإسلام فيه كثير من المتربصين الذين تحكمهم الرغبة والرغبة والذين يصدق فيهم قول الله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَزِمُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ كما يكشف عن حقيقة أمرهم قوله سبحانه ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ﴾ من أجل هذا . . كان السكوت عن جريمة شرحبيل غير متصور . . لأنه لا يستق مع المنهج الذي لا بد من التزامه في نشر الدعوة . . والحفاظ على كرامة من يحملونها إلى الناس . . وحراسة طريقها بسياج من الهيبة الاخلاقية القادرة على الحماية والانتصار . .

ولقد كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- على خير ما يكون استجابة لمشاعر الإيمان الصادقة عند المسلمين . . فأرقه أن تنتهك الحرمه . . ويسفك دم رسوله . . فعلم من يتولون أمور الرعية كيف يحفظون للأمة حرمتها . .



ويستجيبون لرغبتها في مقارعة أهل الباطل . . ويعبئون قواها المادية والمعنوية في ظل الحداء الخالد: «حيَّ على الجهاد» . . فندب -صلى الله عليه وسلم- المسلمين إلى القتال في سبيل الله . وسرعان ما تجهز الناس في جيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل .

وعلى طريقته -صلى الله عليه وسلم- في حسن التنظيم . . والحرص على سلامة القيادة . . بأن توضع الأمور مواضعها . . ويأخذ الأكفاء مكانهم في الصف . . أمر على الجيش زيد بن حارثة . . وقال: إن أصيب، فجعفر ابن أبي طالب . . فإن أصيب جعفر، فعبدالله بن رواحة . . فإن أصيب فليرتض المسلمون من بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم . . وعقد لواء أبيض ودفعه إلى زيد بن حارثة . . وفي شعور غامر بمسؤولية الجهاد . . ورد كرامة الدعوة . . وللدفاع عن حياض الإسلام . . خرج المسلمون يودعون جيشهم منادين: صاحبكم الله بالسلام، ودفع عنكم، وردكم صالحين غانمين . . وبصورة معبرة عن فرح المقاتلين بهذا الشعور العارم من اخوانهم قال عبدالله بن رواحة رداً على هذا الوداع:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة	وضربة ذات قرع تقذف الزبدا
أو طعنة بيدي حزان مجهزة	بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا
حتى يقال إذا مروا على جدثي	يا أرشد الله من غاز وقد رشدا

وأمر -صلى الله عليه وسلم- المجاهدين أن يتتهوا إلى مقتل الحارث بن عمير . . وكان من توجيهاته التي تدل على ربانية هذه الدعوة وأخلاقيتها

المطلقة في السلم والحرب . . وعلى إنسانية الحضارة التي تبنيها . . ما كان من وصيته للمقاتلين أن لا يغدروا، ولا يغلوا، ولا يقتلوا وليداً ولا امرأة، ولا كبيراً فانياً، ولا يغرقوا نخلًا، ولا يقطعوا شجراً، ولا يهدموا بيتاً، ولا يتعرضوا لرجل في الصوامع معتزلين للناس . . وأين هذا من الذي تحمله حضارة أقوىاء اليوم . . الذين همهم العدوان على الحرمات . . والقضاء على الوجود الإنساني عند غيرهم . . واستنزاف خيرات الشعوب لحسابهم . . والأخذ بيد المعتد الغاصب خدمة لمصالحهم وأغراضهم عند تقليب ميزان القوى في العالم . . كل ذلك ضمن مقاييس السيد والمسود . . ولقد سقونا من ذلك الصاب والعلقم . . ولا يزالون . . ويريدون منا بعد ذلك كله أن نرضى، بل أن نحمد لهم سكين الجزار . . وسوط الطاغية . . وكل يوم يطالعوننا في معاونتهم لليهود بأذى من لون جديد . . ويرحم الله من قال :

يريدون مني أن أعني بأسمهم وأي هضم باسم أعدائه غنى

والأنكى من ذلك - وهو ما يغفل أو يتغافل عنه بعضنا - أن من أسلحتهم التي يقاتلون بها . . محاولاتهم الآثمة، وبكل الأساليب الظاهر منها والخفي . . أن يشككونا بذاتنا، وبأصالة أمتنا . . وأن يحولوا بيننا وبين المنابع الأولى لهذا الدين الذي كناهه خير أمة أخرجت للناس . . كل ذلك كي يضمنوا وصولنا إلى مرحلة اللاعودة إلى تلك المنابع . . وكفراننا بالقيم التي حفظنا بها إنسانية الإنسان على مدى العصور . . وأن تكون منا وقفة المستخذي المستجدي أمام --- يريدون . . في الوقت الذي لا يغني غناء



العودة الجادة إلى تلك القيم الربانية أي من تلك السبل التي يراد لنا اتباعها . . . مولين ظهرنا للحق الذي به نزل الكتاب . .

وتوجه الآلاف الثلاثة من المقاتلين إلى حيث وجههم رسول الله . . يرسمون بخطاهم ملامح التغيير في خريطة العالم الذي كان يئن من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . . سار الآلاف الثلاثة لم يخرجهم من المدينة إلا جهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته . . ولو كان للأرض التي ركضوا عليها خيلهم بين الحجاز والشام أن تنطق . . لنطقت مزغردة لمقدمهم الذي سوف يسهم في تحرير الإنسان من كل ألوان الوثنية والخرافة .

ووصل جندنا إلى مشارف الشام . . وعندما نزلوا (معان) بلغهم ما لم يكونوا يتوقعون . . من أن هرقل نزل في مآب من البلقاء ومعه مائة ألف من الروم ومائة ألف من نصارى العرب ، عليهم رجل من بلي يقال له مالك . .

وكان من رأي البعض أن يكتب إلى رسول الله بالأمر . . ليرد جنده أو يزيدهم رجالاً . . لأن مواجهة المسلمين بعددهم القليل . . لمائتي ألف من أبناء الأرض العارفين بمدخلها وشعابها - وهو العدد الذي لم يكونوا يحتسبون - ومن ورائهم دولة الرومان بغناها وغطرستها . . ليس بالأمر السهل حسب المقاييس التي تعارف عليها البشر في الحروب . . ولكن كان لابد من الاختيار الصعب . . والإقدام الذي قضى على كل تفكير بالأحجام . . ثم تجاوز عقبات الأرض إلى التمسك بأسباب السماء . . وعبدالله بن رواحه الذي أرهبته فكرة الأحجام أو التردد . . لما يترتب عليها

من آثار سلبية في المستقبل البعيد . . أكثر مما أربه ثقل جيش العدو . . كان منه -رضي الله عنه- تحريك كوامن العقيدة والهباب العزائم . . والتذكير بسلاح المعركة الحقيقي وبالغاية التي من أجلها كان الخروج في سبيل الله . . ودعا إلى اتخاذ الموقف الذي سيكون له ما بعده . . وكان مما قاله : والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد، ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول، إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به . . انطلقوا . . والله لقد رأيتنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد فرس واحد، فإنما هي إحدى الحسينين : أما ظهور عليهم، فذاك ما وعدنا الله ووعد نبينا، وليس لوعده خلف، وأما الشهادة . . فنلحق بالأخوان نرافقهم في الجنان . . فتشجع الناس ومضوع إلى مؤتة .

وكلمات عبدالله -أعلى الله مقامه عنده- جديرة أن تستوقف كل باحث وناظر في تاريخ هذا الإسلام . . يريد تفسيره بتجرد وموضوعية قيمة أن تكون -واليهود شر غاصب في جوار مؤتة- سبيلنا لإراك طبيعة المقاتل المسلم، وسلامة تصوره للرسالة التي يجاهد في سبيلها، ومدلول الراية التي يبذل روحه تحتها . . وافادته من وقائع السيرة . . ووعيه لكل خطوة يخطوها عندما يلبي نداء الجهاد . . فهو إنسان واع بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى . . تحكم تصرفاته في كل المواقف مقاييس وقيم حددتها تلك الرسالة . . فكان التزامه لتلك المقاييس . . وتطلعه إلى تحقيق تلك القيم صورة عملية لما آمن به . . فلا تزيده الوقائع -مهما كان لونها- إلا إيماناً وتسليماً . . إنه لا يهن لما يصيبه في سبيل الله، ولا يضعف، ولا يستكين . . بل يصبر على لأواء



الطريق في تحقيق ما أمر به . . والله يحب الصابرين . . ومن هنا كانت قدرته على العطاء . وبعد أخذ العدة المستطاعة . . لا مندوحة عن التسليم المطلق . . والطمأنينة إلى أن النصر من عند الله . . والمؤمن بمقتضى إيمانه قد باع نفسه وماله لله عز وجل بأن له دار الكرامة عنده سبحانه وعد الله والله لا يخلف الميعاد . . وهذا الذي نقول بعض مما يوحيه تذكير ابن رواحة إخوانه بأنهم إنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به . . نعم إن هذا الدين بالمفهوم الذي يفهمه حتى قليل البضاعة في العربية أن لو كان منصفاً، من قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ .

ولشد ما كانت الاستجابة سريعة وصادقة لما قاله عبدالله ، وكان لكلامه كبير الأثر في النفوس . . وأقدم القوم على التقال واثقين مطمئنين ، لما أن المؤمن يقاد من عقيدته فينقاد ، ويذكر بالجلّى فيتذكر . . وذلك ما يهون عليه الشديد من الأمر . . ويرقى به إلى حيث يستعلي -بمعونه الله- على كل المعوقات . .

والتحم الجيشان . . وحمي الوطيس . . وقاتل المسلمون بعددهم القليل القليل . . قتالاً مذكوراً قالت من خلاله عقيدة التوحيد كلمتها . . واستشهد الأمراء الثلاثة كل بعد صاحبه وفق الترتيب الذي رسمه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، عندما ولاهم الأمانة -رضي الله عنهم وعن إخوانهم أجمعين- .

لقد استشهدوا وهم في موضع المسؤولية يبلون البلاء الحسن في هول هائل

من الشدة، حيث كانت رحي الحرب تطحن بلا هوادة.. وذهبوا إلى ربهم، الواحد منهم تلو الآخر صابرين صادقين مستبشرين بعد أن أظهروا في مجالدة الأعداء -على ما كان من شدة الكرب- ما دل على أن العقيدة إذا أفسح لصاحبها المجال، ووضعت في مكانه الطبيعي من الصف تصنع الأعاجيب، وتزري قدرتها الفاعلة بكل الصعاب.

وبعد أن قتل عبدالله بن رواحة سقط اللواء، فاختلط المسلمون والمشركون.. وكانت ساعات من ساعات الخطوب التي لا تنسى في تاريخ أولئك الغر الميامين من أبطال الإسلام.. بما صنعوا على أرض الشام.. وكان المقاتلة آنذاك بأمس الحاجة إلى الحزم الذي يحول دون الفوضى وتعريض الجيش لمهلكة محققة.. ويعمل الإيمان علمه.. إذ السيوف مشرعة والقلوب تهفوا إلى الله.. هذا ثابت بن الأقرم يأخذ اللواء -بشجاعة المؤمن وثباته- ويصيح: إلي أيها الناس.. ويجتمع المسلمون عليه من كل وجه.. فلما نظر إلى خالد بن الوليد قال: خذ اللواء يا أبا سليمان.. ويجيبه خالد بأدب المجاهد الوثاق بما عند الله، المتجاوز حدود النفس والهوى.. لا آخذه، أنت رجل أحق به.. وعلل هذه الأحقية بقوله: أنت رجل لك سن وقد شهدت بدرًا.. غير أن ثابتاً يجعل فيصل الأمر كفاءة خالد في هذا الموقف الحرج فيقول: خذه أيها الرجل، فوالله ما أخذته إلا لك.. فأخذه خالد.. وتولى القيادة.. وظل هذا الحوار الفريد بين خالد وثابت -رضي الله عنهما- ومثار النقع يتعالى ويتعالى فوق المقاتلين.. والموت فاغرفاه يريد أن يلتهم فلا



يذر . . ظل هذا الحوار الفريد دليل أن هؤلاء الرجال قد صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وأن الذي كان يقود خطاهم على طريق الريادة للإنسان ، إنما هو التمكين لكلمة الله في الأرض ، وأن يكون ذلك في موضع القبول عنده سبحانه .

ولا تسئل عن الحنكة العسكرية والاخلاص في أداء الواجب وحق الأمانة . . فقد بدا خالد -رضي الله عنه- وهو سيف من سيوف الله- في الذروة من الكفاءة القتالية ، والاحتياال لما فيه مصلحة جيشه ، والخلوص به من مأزق غاية في الحرج والعسر ، من طريق الانسحاب وفق صورة هي أشبه بدحر العدو . . وإنها لوقفه قد لا تتكرر في المعارك ، ولكن يترتب عليها ما يترتب من الآثار . . وتفضي إلى العديد من النتائج التي لم تكن في الحسبان . . والانسحاب مع سلامة الجيش . . وإيهام العدو غير ما أراده مدبر الانسحاب . . وتغيير الملامح التي تلقي الرعب في قلوب الآخرين . . ليس بالأمر السله كما يعلم ذلك المتمرسون بفنون القتال . . ولكن خالداً كان -بعون الله- كفء الوقفة التي ندب إليها ، فقد قاتل قتالاً اتسم بكل سمات الاقدام والحذر ، وكان أن أعاد تنظيم قواته القليلة بعد الصبح ، فجعل المقدمة ساقه والميمنة ميسرة . . وهكذا صنع ما أوهم الأعداء أن نجدات كثيفة قد وصلت إلى جيش المسلمين . . وأفلحت خطته بعد ذلك في مناوشة الرومان . . فلم يصل إلى انقاذ جيشه فحسب . . بل استطاع أن يلحق بهم أفدح الخسائر بعد أن انكشفت بعض فرقهم وولت الأدبار وقد انسحب خالد

بقواته دون أن يدع للعدو فرصة التفكير بالانقضاظ عليه ، نتيجة الخطة التي سلكها معه وبعد أن شفى صدور أهل الإيمان بما أعمل في أهل الكفر من القتل والتشريد . يقول -رضي الله عنه- : «لقد دُقَّت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف ، فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية» .

إنها عناية الله . . والاحلاص في الوقفة الماجدة المجاهدة . . ولئن انتهت غزوة مؤتة هذه النهاية . . لقد كانت في حقيقتها نصراً مبنياً للدعوة الإسلامية وكان لها كبير الأثر في كل الانتصارات التي حصلت فيما بعد . . ذلك أنها أشعرت الرومان ومن معهم من أعوانهم يومذاك أن قوة جديدة تقوم على عقيدة التوحيد قد ألقت بثقلها في هذه الديار . . وأن عليهم أن يحسبوا ألف حساب حين يوغلون في موضوع حربها والقضاء عليها . . لقد ولد في دينا الناس إنسان جديد . . لقد تحرر الإنسان بالإسلام . . ولعل من أجل هذا أصلح النبي -صلى الله عليه وسلم- مقالة الناس بأن رجال مؤتة فرار بأن قال : «ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى» . وأعظم بهذه الكلمات من شهادة .

إلا أن غزوة مؤتة . . وقد وقعت على أرض من أرضنا . . وعلى بقعة من ديارنا -هي اليوم بقدماتها ووقائعها . . وما تحقق خلالها من المثل ، وما التزم من القيم ، وما أشرقت به وقائعها من سلامة التصور للرسالة وحسن التطبيق لاحكامها والصدق عند الجهاد . . إن غزوة مؤتة بحرارة عطائها وإيمان أبطالها . . تظل أمانة في عنق هذه الأمة . . وحجة عليها أمام الله . . على



مسيرة التاريخ في صراعها مع يهود . . وهم اليوم الغاصب الأثيم على أرض
هي امتداد لها . . تلك الأرض التي باركها الله . . وأسرى بنبيه -صلى الله
عليه وسلم- إلى مسجدها الأقصى . . . وإذا كان الاختيار الصعب اليوم
يحملنا على أن نصنع التاريخ من جديد . . أن أبطال مؤتة كانوا بدمائهم
واخلاصهم من صناع هذا التاريخ . . وإذا أردنا حقاً أن نمسك بزمام حركة
التاريخ فلا بد أن يكون لنا من مؤتة وغيرها موئل جديد لانطلاقة . . لها من
الرسالة فكرها ودمها الدافق . . ومن زيد وجعفر وابن رواحة وخالد وثابت
روح العطاء والبذل في سبيل الله . . مع الجهد الجاهد أن يكون في الحسبان
دائماً إعداد العدة في بناء الفرد، ثقافة قلب وعقل ومشاعر . . والإفادة من
معطيات العلم، ووضع الكفاءة موضعها لتعمل وتجاهد . . وعندها يكون
العطاء هو العطاء . . وترفد النهر الكبير كل روافد القوة . . والطاقة . . حيث
يوظف كل ما لدى هذه الأمة من امكانات في سبيل قضايها من خلال
العقيدة . . العقيدة التي أعطت العالم كله زيد بن حارثة وجعفر بن أبي
طالب . . جعفر الذي قال فيه أحد اخوانه المجاهدين معه: لكانني انظر إلى
جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، وقاتل القوم حتى قتل وهو
ينشد:

يا حبذا الجنة واقتربها طيبة وبارداً شرابها
والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها
علي أن لاقيتها ظرابها

وجاء في بعض الروايات أنه قاتل بعد أن عقر فرسه راجلاً واللواء يمينه، فلما قطعت يمينه أخذ اللواء يساره، فلما قطعت يساره أخذ اللواء بعصديه حتى قتل .

وأعطتهم ابن رواحة الذي أقبل يتسم للشهادة ويقول :

يا نفس إن لا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليت

وما تمنيت فقد أعطيت أن تفعلي فعلمها هديت

. . ثم تقدم . وجاء ابن عم له بقطعة لحم فناوله إياها وهو يقول : شد بها صلبك ، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت ، فما كاد يقطع منها مضغة حتى سمع الحطمة في ناحية من الجبهة استعرت بها الحرب ، فقال لنفسه : وأنت في الدنيا؟ ورمى بالطعام من يده ثم انتضى سيفه وتقدم حتى قتل .

ترى أي شيء هذا الذي صنعه الرسالة المحمدية في النفوس . . وأي هزة خيرة هي التي غير المعالم وأصلحت مسيرة التاريخ . . ورضى الله عن رجال مؤتة أجمعين وألحقنا بهم في دار كرامته . . وآخر دوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الدعوة .. والذكرى^(١)

ترى . . أي شيء يتألق به الكون عندما تتفتح القلوب على ندى الخير .
وأي شيء هذا الذي ينجاب من طريق العاملين . . عندما تثوب النفوس إلى
رشدها . . وتعي أمر ربها . . وتستأنف الطريق .

وعلى النقيض من ذلك . . أي ظلام مطبق هذا الذي يلف الأمة حين
تستحكم الغفلة . . ويستعلي الظلم ، ويضرب على الآذان وقرها عن كلمة
الله . . أي نذير صارخ هذا الذي يلقي به العبث والتماوت القاتل في مواجهة
التاريخ . . حين تذكر هذه الأمة فلا تتذكر . . ويدور الزمن دورته ليشدها إلى
معالم الطريق فلا تستجيب . .

هذه أيام من أيام الله تعود إلى ربوعنا التي كاد يأكلها الجفاء . . فتحمل إلى
دنيا الناس بكثير من الوضوح والتبيان ذكرى مولد يتيم آواه الله واعد له حمل
الرسالة . . ثم ابتعثه على فترة من الرسل شاهداً ومبشراً ونذيراً، وداعياً إلى
الله بإذنه وسراجاً منيراً . . فأدى الرسالة وبلغ الأمانة، وصح الأمة وهاجر من
مكة إلى المدينة، وجاهد في الله حق جهاده، وظل على أمر مولاه، حاملاً
لواء الحق والخير . . متبعاً ما يوحى إليه . . مستقيماً على الطريقة التي بها أذن
الله، حتى أتاه اليقين . . ولكن نكون أوفياء لهذه الذكرى إذا نحن جددنا
العهد مع صاحبها -عليه الصلاة والسلام- . . أن نستأنف الطريق فلا تغرنا

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الأول، السنة السابعة عشرة، ١٣٩٦هـ ربيع
الأول، ١٩٧٦م آذار.

الأماني . . وأن نعيد سيرة الرعيل الأول صادقين ، فلا نبخل على هذه الدعوة بشيء مستطاع .

إن رسولنا -عليه الصلاة والسلام- قام بأمر الدعوة بالكلمة والعمل . . وفتح لها مغاليق النفوس بالسلوك وحسن الأسوة . . ومكن لها في الأرض بالجهاد في سبيل الله . . ولم يقف عند هذا الحد . . فسيرته -عليه الصلاة والسلام- بين ظهراني الناس دعوة عملية واضحة المعالم مشرقة الآفاق . . بدءاً من عهده بالرسالة وإن شئت من قبل ذلك . . ومروراً بحياة حافلة بالعمل والصبر والمصابرة وممارسة الحياة بشتى ألوانها الاجتماعية والسياسية ، وانتهاء بارساء القواعد التي تكفل لهذه الأمة أن لو التزمت بها وعملت بمقتضاها . . سعادة الدنيا والآخرة وقيادة العالمين . . حيث تملك ما به تنقذ البشرية من وهدة لا يعلم أمادها إلا الله .

إن أمانة الكلمة في الحديث على الذكرى تقتضينا أن نذكر بالوفاء الذي تومئ إليه الذكرى ، ولهذا الذي لا مندوحة عن وعيه والتزامه على طريق الدعوة إلى الله . . كيما نكون -كما أراد لنا رسول الله- استمراراً للقافلة الخيرة التي تحمل عبء الدعوة -كما أسلفت- بكل شعبها قولاً وعملاً وسلوكاً . بالبيان . . بالكلمة . . بحسن الأسوة عملاً بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . وإذا سرنا مع الجمهور القائلين بأن «من» هنا بيانية فعنى ذلك أن القيام بشأن الدعوة واجب على هذه الأمة بمجموعها



وجوباً كفاً إذا لم تقم به ، كان كل فرد منها آثماً مقصراً في الاستجابة لكلمة الله . . كما أن فرض عين على الأمة أن يكون منها طائفة متخصصة للقيام بشؤون هذه الدعوة . . وعلى هذا فإن صدق الاحتفاء بذكرى مولد الرسول - عليه الصلاة والسلام- إنما يكون بمتابعة الطريق . طريق -عليه الصلاة والسلام- الذي عاش للدعوة وكان لها طول حياته التي وسعت الإنسانية كلها .

وما من شك أن عنوان الإضاءة في أي فترة من فترات تاريخنا إنما كان ذلك الحرص على الدعوة وتبليغ رسالة هذه الأمة التي تتمثل في قول الله تعالى خطاباً لنبيه -عليه الصلاة والسلام- : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . ذلك لأن الدعوة -كما تعطيها الآية- كما أنها وظيفة النبي -صلى الله عليه وسلم- على طريق المرسلين من قبله ، فهي أيضاً وظيفة أولئك الذي يصدقون في انتسابهم إلى طريقه - صلوات الله وسلامه عليه- ، لذا كان الاهتمام بشأنها عنوان صدق الاتباع ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ وختم الآية بالتنزيه وإعلان التوحيد ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ . خط مؤشر إلى أن الأمر يبدأ من هنا . . نعم يبدأ من هنا !! من الإيمان بوحداية الله وأن بيده الآجال والأرزاق ، فلا تداخل المسلم -وهو يقوم بشأن الدعوة- قولاً ، عملاً ، كتابة ، اتقاناً للعمل بوصفه مسلماً ، سلوكاً وأسوة ، حسن صلة بالناس ، وعياً لما يدور حوله ، ممارسة للحياة من خلال تصوره الإسلامي النقي . . لا تداخله أي لوثة من لوثات الوثنية في أمر الرزق أو الأجل لأن كل

ذلك بيد الله جلّت قدرته ، كما لا يصيبه الوهن في اتخاذ الانداد لأن العبودية لله القادر القاهر .

ولعل ما نشير إليه دائماً من سيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- حيث تمثلت كل معالم الضياء الذي يوحى به ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿ لعل ما تشير إليه يعطي سعة الساحة التي يمكن أن يكون ميدان الدعوة ، فهي ليست مقصورة على أولئك الذي يفقهون شيئاً من أحكام الإسلام ولكنها قدر مشترك في الجميع كل بقدر ما يعلم وما يستطيع ، وكم من طبيب ، أو مهندس أو متخصص في أي علم من العلوم يستطيع بالالتقان ، والنصح للأمة ، والاخلاص في العمل بعد أن يكون على قبضة من المعرفة إلى الله ويكون لدعوته الأثر البالغ أكثر من أي إنسان يتخذ هذا الأمر حرفة وكفى .

إن اللوعة التي كانت تخالط قلب الرسول -عليه الصلاة والسلام- على أمته أن تكون دائماً على مورد السعادة هي التي يجب أن تخالط قلوبنا اليوم في صدق الدعوة إلى هذا الإسلام الذي جفاه أبنائه وتنكبوا طريقة غفلة حيناً ، وانهمزاً داخلياً آخر ، وعمداً في كثير من الأحيان والعياذ بالله .

ويلاحظ أنه في الوقت الذي ربط الله فيه خيرية هذه الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله أنذرنا في حديثه عن أهل الكتاب أن كتمان ما أنزل الله مجلبة للعن والطرده من رحمة الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾ .



فانظر أي شيء هذا، وقف عند كل كلمة من هذا النهج الرباني الذي لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أوضح جوانبها.

من أجل هذا كانت كلمة عمر بن عبدالعزيز لواليه الذي أبلغه نقص موارد بيت المال لكثرة الذين صاروا يدخلون في الإسلام «إن الله أرسل محمداً هادياً ولم يرسله جابياً» إنها الكلمة التي اختصرت الموضوع الكبير ووضعت الأمة على طريق الواجب من خلال فهم الحاكم المسلم الصادق في انتمائه إلى هذه الأمة الخيرة.

والصدق في هذه الدعوة هو الذي جعل من المحكوم انساناً يصدع بالحق ومن ولي الأمر للأمة يرحب بذلك، روت كتب التراجم أن رجلاً قال لعمر بن الخطاب في كلام دار بينهما «اتق الله» فانكر عليه بعض الحاضرين الذي يرى عمر في عدله وحسن تأسيه بالرسوله -عليه الصلاة والسلام-، وقال له: أفتقول لأمر المؤمنين «أتق الله» وما كان من عمر العادل المنصف الحنيف الذكي إلا أن قال لذلك المعارض: «دعه فليقلها لي، نعم ما قال، لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها». أرأيت إلى هذه الخيرية؟؟ ثم أرأيت إلى هذا الخط النوراني الذي يربط بين عمر وبين الفرد العادي من أفراد الرعية، على أي مورد التقيا، وكيف كانت طبيعة الدعوة إلى الله وثقافة الإسلام الحقبة قدراً مشتركاً بينهما!!

وفي هذا الجانب من القول لا يخفى على ذي بصيرة أن ما يواجهه المسلمون من تحديات على الصعيد العالمي، وما نراه من فشل الحضارة الغربية في اسعاد

الإنسان بجانب الوجوب الذي المحنا إليه في أمر الدعوة، كل ذلك يعطي مزيداً من التأكيد على القيام بهذا العبء كل في ميدانه والثغر الذي أقامه الله عليه . . نقول ذلك والعين غير مغمضة عن النذر والعوائق والصوراف، ولكن هنا . . وفي هذا الميدان من طلب مرضاة الله تعالى، يكون برهان الصديق في متابعة الطريق . . طريق القافلة التي قادها محمد بن عبدالله - صلوات الله وسلامه عليه -، الذي كرم الله البشرية بمولده قبل أربعة عشر قرناً من الزمان، وانبعثه على رأس الأربعين، فأصلح دورة التاريخ ورسم للإنسانية معالم الحق، ومهد لخريطة جديدة للعالم تزينها سمات العقيدة، ويصلح أمرها منهج الإسلام الرباني، هاجر على رأس ثلاثة عشر عاماً -وفي ربيع الأول أيضاً- إلى المدينة وأقام الدليل على أن الحق لا بد له من القوة، وأن التكامل أمر أساسي في حياة الأمة. فكان المسجد -بمفهومه النير الأصيل- منطلق الحياة الإسلامية بأوسع حدودها ومثلها، وكانت المؤاخاة، وكان الجهاد، وكانت الدعوة هي المحور لتلك الحياة الحافلة بالنشاط والحيوية والحركة على أساس من قاعدة التوحيد والحكم بما أنزل الله . . وإذن . . فالبرهان على صدق الانتماء اليوم إنما يكون بتلك الأوبة الصادقة إلى طريق تلك القافلة، دون تعلل بالمعاذير، ودون جنوح إلى العافية تحت وطأة المخترع من العناوين .

ولقد أصبح من مكرور القول أن كل ما يتتاب بعض النفوس من استثقال الكلام على النقلة إلى طريق تلك القافلة إنما مرده خلل في داخل النفس أو



خضوع لافكار لم تنبت في محاضن الإسلام ولم تحضر في تربته الأصيلة، فكان الأعراض صورة عن هذه الذبذبة بين هنا وهناك، عنواناً على أن ما يقال أو يفعل ليس أمراً ذاتياً وإنما هو ترديد الببغاوات وصنيع من لا يعقل .

وفي خاتمة المطاف : أرجو ونحن في مفتتح هذا العام الجديد لمجلة حضارة الإسلام وفي ظلال شهر ربيع الأول شهر مولد سيد العالمين -عليه الصلاة والسلام- . . أن أكون مع الإخوة القراء على وعي كامل لمعنى القضية التي تضعنا الدعوة في مواجهتها . ومما يمكن للدعوة في النفوس ويفتح لها مغاليق القلوب أن يكون مع العلم العمل وأن يكون الداعية في سلوكه صورة عما يدعو إليه ذاكراً أن شعبياً -عليه السلام- قال : «وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه أن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب» .

ثم أن نعي -وراء ذلك- دورنا نحن المسلمين على صعيد أنفسنا وأمتنا بل والإنسانية جمعاء . . وصلى الله وسلم على صاحب الذكرى نبينا محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، الرسول الذي أنزل الله فيما أنزل عليه قوله جل وعلا : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

بين الحقيقة والضياع^(١)

لقد كان جديراً أن يشد إليه القلوب - كل القلوب - التي تحمل شيئاً من ندى الخير . . لقد كان جديراً أن يعبد بصدق دعوته . . وصبره على تبليغها . . ولوعته على الإنسان أن يهتدي . . كل الطرق التي يمكن أن توصل هذا الإنسان إلى الله فتهد به سعادة الدنيا والآخرة .

إنه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . . إنه أبو القاسم . . رجل الإنسانية ومعلمها . . إنه الإنسان الذي وقف على بطاح مكة يدعو بالذي أوحى إليه فحول تاريخ العالمين من حال إلى حال . . لما أنه كان بعمله وصبره وراء كل كلمة تتحرك بها شفتاه . . ومع كل خطرة يختلج بها قلبه .

ولن تستطيع أن تدرك ذلك إلا إذا كنت على حسن تصور في أن تضع سيرته في الموضع الذي وقفت فيه على عين الله في تاريخ الإنسان . . فتبصر أي شيء كان عليه الناس قبل دعوته لا في جزيرة زلعراب وحدها ولكن في دنيا هذه الغبراء بأكملها . . ثم أي شيء أصبحت عليه بعده دعوته . .

أي حال كان عليها هذا الإنسان . . وكيف أصبح بعد أن أشرقت سمش الدعوة . فهي ثلاثة مواقع لا بد من حسن تصورها بكثير من الإحاطة والعمق بعيداً عن السطحية التي قد تكون أقرب إلى طلب العافية والبعد عن تحمل التبعات .

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثاني، السنة السابعة عشرة، ١٣٩٦هـ ربيع الآخر، ١٩٧٦م نيسان.



أولها- ما كان قبل البعثة -ثانيها- الأعوام الثلاثة والعشرون بعد البعثة وثالثها- ما آل إليه الأمر في حركة التاريخ وأبعاد الخريطة الجديدة على أكثر من قارة في الأرض . . ثم معالم حركة الإنسان ما هو في ذاته . . ما هي أبعاد طاقاته في أداء رسالته . ثم معالم حركة الإنسان ما هو ذاته . . ما هي أبعاد طاقاته في أداء رسالته . . ثم ما هي البواعث التي بدأت تدفعه إلى ميادين الحياة دفعاً أثمر ما أثمر للحضارة . . وأعطى ما أعطى للبشرية في مختلف العصور .

وهذه الخطوط العامة كثر الحديث عنها قولاً وكتابة في هذه السنوات الأخيرة من هذا العصر . . والمطلوب اليوم أن توظف في طريق العمل . . أن ينقذ الزناح فتحدث النقلة وتتفجر الطاقات . . ويتحول الحديث عن صاحب الرسالة -عليه الصلاة والسلام- إلى أن يكون نهجه -صلوات الله عليه- في شتى فروع الهداية التي حملها ، طريقة للتفكير ومنهجاً للعمل . . فالباحث يبحث من خلال هذه الطريقة . . والمفكر يفكر في ضوئها وإذا غدت الممارسة العملية صورة صادقة لهذا الفكر المطبوع بطابع هذه الطريقة نكون قد سلكنا طريق الجادة . . سواء في أنفسنا ونتاجنا . . وسواء في بناء الجيل المسلم الذي نريد له أن يكون موصول الحبال بالهدى النبوي لصاحب الرسالة -عليه الصلاة والسلام- . ومن هنا كان علينا أن نكون على سعة في الأفق . . وتفتح في البصيرة عندما نواجه قوله تعالى في شأن نبيه -صلى الله عليه وسلم- ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي أقوال وأي أفعال وأي سيرة كانت أداة

هذا الاخراج من الظلمات إلى النور وأي أبعاد تلك التي يحددها مدلول الظلمات والنور في الآية .

وأمر آخر في هذه العجالة ونحن نلمح إلى أن يكون المنهج النبوي القاعدة النيرة لطريقنا في التفكير وتحديد المطلب الذي نريد . . أمر آخر هو النظرة الواعية لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . إن الساحة التي تحرك عليها من حضروا متنزل الوحي ، ومن كانوا هم الأداة المباشرة لتنفيذه تعطي بشكل لا يقبل اللبس ، أن مدلول الأسوة لديهم كان أشمل مما يمكن أن نصوره اليوم فالمنهج النبوي ، والسيرة المحمدية ، وما يكون من رسول الله بين ظهرائهم كل ذلك صاغ أسلوب تفكيرهم ، وصاغ تصوراتهم ، وصاغ طريقة العمل وممارسة شؤونهم الخاصة والعامة . . حتى كان كل واحد منهم يمثل في تصوره وسلوكه دوحة النبوة العظيمة الكريمة وذلك قوله تعالى في شأن أصحابه عليه الصلاة والسلام : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمِثْلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْكِهِ لْيُعْجِبَ الزَّرَّاعُ لِيَغِظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ ﴾ انظر إلى قوله : ﴿ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ ﴾ أن كل واحدة من هذه الفسائل تمثل الشجرة الأم ولسوف تكون بسقيا الإسلام مصدر نماء وخير على طريقة تلك الشجرة الكبيرة المعطاء .

وإذن فعندما ندعو إلى النقلة الحقيقي التي يتحول معها الكلام إلى طريقة



في التفكير ومنهج للعمل يصدر عن تلك الطريقة وتحدده أبعادها ومنطلقاتها، لابد من تحديد المصطلحات في اذهاننا تحديداً يبعد عن اللبس والاشتباه، من أجل هذا كان لونا من ألوان الخطأ الذي تتسع بعده الشقة هو قصر الأسوة على صورة من صور السلوك والتعبد أو حصرها في المجال الأخلاقي فحسب . . مع أن الكلمة ذات أبعاد أوسع وأشمل حين ترتبط بالرسول -صلى الله عليه وسلم- بوصفه رسولاً يبلغ عن الله وبوصفه إماماً يحكم الناس بشريعة الله وقاضياً يقضي بينهم بالحق . . وقائداً يقودهم في ميادين الحرب والسلام . . ثم بوصفه إنساناً يمارس كل ألوان الحياة في البيت والمسجد والسوق -وكل ساحات العمل فيم يكن العطاء بالنسبة إليه مقصوراً على شيء دون شيء - فيما خلا- تلك الأمور التي متعلقها جبلة الإنسان بوصفه إنساناً دونما علاقة بالرسالة . . وفيما خلا تلك الأمور التي تثبت بالدليل المقبول أنها من خصوصياته -عليه الصلاة والسلام- .

وإذا رجعنا البصر في كل الميادين التي خاضها . . وكانت وسيلتنا عقلاً يدرك وقلباً يعي وبصيرة تتفتح للخير الفينا كيف كان -عليه الصلاة والسلام- الغيث الهتون الذي أمرعت الأرض به واهتزت وربت بعد جفوة طال أمدها وأصبحت مصدراً بعد أن كانت جذباء هامدة .

واليوم ونحن نضرب في أرض يتعاون علينا فيها جهل المسلمين باسلامهم وتوجههم وجهة غير وجهة نبيهم والسلف الصالح من أهل سنته ما يطرق أبوابنا من مطاق الفتنة والتحديات من هنا وهناك . . اليوم والمسلمون على

هذه الحال . . يتضح لكل من يحمل بين جنبيه شئاً من اللوعة لهذه الدعوة وطريق صاحبها -عليه الصلاة والسلام- أن المنجاة من الهلكة بل استئناف المركز القيادي في العالمين إنما يكون بتلك النقلة الواعية إلي الذي دعا إليه محمد -صلوات الله وسلامه عليه- ، دونما اخلال بالإفادة . من كل معطيات العلم وما قطع العقل البشري من مراحل . . فلتكن طريقة التفكير وأسلوب العمل ووسائل التنفيذ والتطبيق بنية كاملة في ظل المنهج النبوي الكريم كيما يتحقق لنا صدق التأسّي في فترة حالكة طال فيها على أمتنا الليل وتداعى عليها الأُم وأثبتت الوقائع أن الفكر يسبق العمل وأن سلامة التطبيق رهن سلامة التصور؟ ومن أكرم ما أنعم الله به على هذه الأمة ما مهد لها من الفكر القائم على عقيد التوحيد وبما جعل من سيرة نبيه -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه ومن تبعهم باحسان صورة صادقة عن المبادئ تتحول إلى عمل ، وعن العقيدة تقود مسيرة الإنسان فإذا شاءت أمتنا الحقيقة بطريقتها ومنهجها وأبعادها فتلكم هي الحقيقة بما يؤيدها من الحجة والواقع الإسلامي وإلا فذلك هو الضياع بظلامه وما يسوق إلى العبودية للآخرين . . ولله الأمر من قبل ومن بعد وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



قَبْسٌ مِنْ أَحَدٍ^(١)

هذه المعركة التي أيد لها أن تكون في تاريخ هذه الأمة صورة واضحة لتمييز المؤمنين من المنافقين، والمثل الناطق العميق للمنهج الرباني في بناء الجماعة المسلمة على بصيرة وإدراك لسنن الله في الحياة، وإعدادها بالقيم والممارسة العملية لحمل الرسالة التي أنيطت بها يوم تأذن الله فأوحى إلى عبده ونبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ما أوحى .

ولعل من أوضح ملامح البناء والإعداد ذلك التركيز على وجوب سلامة التصور عند المسلم، وتقويم المعوج فيما حصل، وإعطاء كل جزئية قدرها من الحكم، وبيان موقعها من الكلية العامة في الموضوع، ثم ربط الأمور كلها بقواعدها الثابتة التي تجعل المسلم على صلة دائمة بمنطلقاته الأولى عملاً على تنقية الصف من الدخيل، وطاعة القيادة المؤمنة الراشدة، وأخذاً بالأسباب بوعي وتكامل، مع صدق التوكل على الذي لا رب غيره ولا خير إلا خيره، وسلامة اتصال بالقيم التي أوحى الله بها إلى نبيه - عليه الصلاة والسلام - . كل ذلك حيث مستلزمات الإيمان ومقتضيات العقيدة التي حملها المؤمن بين جنبه يوم رضي بالله ربا، وبالإسلام ديناً، وبمحمد - صلى الله عليه وسلم - نبياً ورسولاً .

هذه مدينة الرسول يلف كلي بيت فيها ترقب ما يمكن أن يكون بعد أن

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة السادسة عشرة، ١٣٩٥ هـ شوال، ١٩٧٥ م تشرين الثاني .

عسكرت قریش وأحلافها من الأحابیش وغيرهم في ثلاثة آلاف مقاتل أو يزيدون ومعهم النساء، قريباً من «أحد» في خطة زحف على المدينة بعد عام واحد من معركة «بدر» التي كانت الدولة فيها للمسلمين، وتركت ما تركت عند أهل الشرك من الآثار العميقة الغائرة في النفوس.

وتداول المسلمون الرأي ومعهم النبي -عليه الصلاة والسلام-. وكانت الرغبة في الخروج إلى العدو وقتاله خارج المدينة جامحة عن الكثيرين وفيهم الشباب الذين لم يحضروا بدرأً حتى قال نعيم بن مالك: يا رسول الله لا تحرمنا الجنة، فواللذي نفسي بيده لأدخلنها. فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: بم قال: بأني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف، فقال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: صدقت واستشهد يومئذ. ونزل الرسول على رأيهم مع أنه كان ومعه بعض الصحابة أميل إلى البقاء في المدينة وقتال العدو فيها. وصحا الراغبون في الخروج على أنهم استكروها الرسول على رأيهم، فقالوا: يا رسول الله ما كان لنا أن نخلفك فاصنع ما بدا لك! فقال لهم: ما كان لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه. وكانت هذه واحدة من وقفاته -عليه الصلاة والسلام- حزمًا في أعقاب المشورة وتوكلاً على الله بع العزم فالمشورة تأخذ طريقها حتى إذا انتهى إلى رأي فلا بد من العزم والتوكل، وتأيد ذلك بقوله: قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتُم إلا الخروج فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس، وانظروا ما أمركم الله به فافعلوا.



وكانت ظاهرة التمييز بين الإيمان والنفاق حين نغرت على عبدالله بن أبي غائلة النفاق فانحاز عن طريق المؤمنين وانحسب مع من سمعوا لقوله عائداً إلى المدينة بحجة أن الرسول ترك رأيه إلى الآخرين في شأن القتال من داخل المدينة!! ولو كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان لعلم أن مقتضى العقيدة غير هذا، وأن طاعة رسول الله من طاعة الله، خصوصاً وأن رسول الله رأى - كما يبدو - أن الحفاظ على سنة الشورى هي الخير، وأنها - على العموم - أسلم عاقبة وأقوم طريقاً.

ولكنها حكمة الله في أن يميز الخبيث من الطيب، ويقع التمحيص الذي يظهر كلا على حقيقته دون غش أو زيف، وما كان مخبوءاً في النفوس يستعلن بالعمل والسلوك، مصداق قوله جل وعلا: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾.

وحين لحق عبدالله بن حرام بالعائدين أهل الخبيبة يدعوهم إلى الثبات ومتابعة السير في ركب الجيش المسلم، وأن عليهم الدفاع عن المينة ضد المغيرين دفاعاً - على الأقل - عن أموالهم وأعراضهم. أبى عبدالله بن أبي - ولله الحمد - أن يعود، وفيه وفيمن تبعه نزل قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

ورسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطوط المواجهة بقيادة عبدالله بن جبير شديد حرصه على أن يلزموا أماكنهم ولا يدعوها مهما تكن

الأسباب!! ثم أذن -صلوات الله عليه- لأصحابه ببدء القتال . . والتحم الفريقان على غير تكافؤ في العدد ولا في العدة . . وأعلنت العقيدة إعلانها . . وسرت في جو المعركة روح من التضحية الفذة ، والبذل السخي ، والعطاء الإيماني الرخاء ، حيث الجود بالنفس أقصى غاية الجود . . مما أذهل المشركين وجعلهم يولون الأدبار لا يلوون على شيء . . ويسقط اللواء من الأيدي التي تعاورت عليه . . حتى تكون عمرة بنت علقمة الحارثية هي التي ترفعه من التراب بعد أن صرع جامله وسقط على الأرض .

وكان حمزة عم رسول الله كالجمل الأورق ، يهدد المشركين فيلقي في قلوبهم الرعب . . ويزلزل مع إخوانه صفوفهم لما أنه يقاتل كالليق المهتاج ، فلا يقوم له شيء ، وقد صمد لحملة اللواء من بني عبدالدار ، وأنزل بهم ضربات كادت تؤدي بهم أجمعين . . لولا أن وافته المنية -رضي الله عنه- وأرضاه ، واستشهد بحربة وحشي الذي فعل فعلته ثمناً لحريته عند جبير بن مطعم .

وأبلى المجاهدون أكرم البلاء حتى رأيتهم -وقد وجدوا ريح الجنة دون أحد ، واستشرفوا منازل الشهداء هنا وهناك -يرسمون بدمائهم على أرض التاريخ عنوان القوة والاستمرار لدعوة التوحيد . . ويصوغون من أشلائهم معالم انتصار العقيدة . . قال عبدالله بن جحش في ذلك اليوم : «اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غداً ، فيقتلونني ثم يبقرؤا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني ، ثم تسألني فيم ذلك؟ فأقول : فيك!!» . وقال عبدالله بن عمرو بن حرام : «رأيت في النوم قبل أحد مبشر بن عبدالمنذر يقول : أنت قادم علينا في



أيام . فقلت : وأين أنت؟ قال : في الجنة نسرح فيها حيث نشاء . قلت له : ألم تقتل يوم بدر؟ فقال : بلى ، ثم أحييت ؛ فذكرت ذلك لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال : " هذه الشهادة يا أبا جابر " .

وبينما الأمور تسير على هذه الشاكلة ، والمنايا تصبها أسنة المسلمين على أعداء الله ورسوله ، فتجندل منهم من يتجندل ويولي فراراً من يولي . . إذا بشيء جديد يغير وجه المعركة لغير صالح المسلمين ، ذلك أن الرماة ضعفوا عن استدامة الامتثال . . وتركوا مواقعهم التي أمرهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أن يلزموها ولو تخطفتهم الطير . . وظنوا أن ليس للمشركين رجعة --- أن أوقع بهم . . وكان الفاعلة الأليمة حين أدار خالد رأس فرسه وعاد إلى الميدان ، وصعد الجبل فاحتل بجنده الثغر الذي أخلاه الرماة . . وأقبل المنهزمون من جديد ، فالتفوا حول خالد وأحاطوا بالمسلمين إحاطة أثقلت كواهل الفئة المؤمنة ، ووقع ما لم يكن في الحسبان من اضطراب الصف ، وكثرة القتل ، حتى استشهد عدد كبير من أولئك الصلاة الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . وانطلق الكثير يصعدون ولا يلوون . .

ولم يكن رسول الله في نجوة مما حصل ؛ فقد استهدف -صلوات الله عليه- بصورة ملحّة وإصرار عنيد من المشركين . . فكسرت رباعيته اليمنى في الفك الأسفل ، وهشمت البيضة على رأسه ، وسقط -صلوات الله عليه- في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق قد حفرها وعطاها يكيد بها المسلمين ، وشج في وجهه ، ورمي في وجنته حتى غاصت فيها حلقتان من

حلق المغفر . . ونزع أبو عبيدة السهم الأول عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فندرت ثنيته معه . . ثم نزع السهم الثاني فندرت معه الثنية الأخرى .

وكان أبو دجانة يترس بظهره على رسول الله والنبيل يقع فيه وهو لا يتحرك ولا يكشف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- . وفي صحيح مسلم أن -عليه الصلاة والسلام- أفرد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش . . فلما وهقوه قال : «من يردهم عني وله الجنة»؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم وهقوه فقال : «من يردهم وله الجنة وهو رفيقي في الجنة» . فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول -صلى الله عليه وسلم- . «ما أنصفنا أصحابنا» . ثم جالدهم طلحة بن عبيدالله الذي كان يثوب سريعا إلى رسول الله ويقف دونه وحده حتى يصرع . . جالدهم حتى أجهضهم عنه .

وقد بلغ الأعياء برسول الله أنه وهو يصعد الجبل والمشركون يتبعونه أراد أن يعلوا صخرة فلم يستطع لما به . . فجلس طلحة -رضي الله عنه- تحته حتى صعداها . وحانت الصلاة ، فصلى بهم جالسا .

وفي هذه الساعة العصبية حيث الهول يشد والأخطار تحرق . . صاح صائح إن محمداً قد قتل !! وسرت الكلمة السوداء سريان النار في الهشيم فكانت القاصمة التي زلزلت البقية الباقية في بعض النفوس . . فراح أصحابها هائمين صوب المدينة ، وفتر البعض عن التقال مما أصابهم من اليأس ، واعتراهم من الكلال ، لما أن رسول الله -كما نفي إليهم- قد قتل وانتهى الأمر .



غير أن التماعة تتمثل في أنس بن النضر الذي لم ينهزم أضواء في حومة هذا الضياع . . حين قال لثلة من هؤلاء : فما تصنعون بالحياة من بعده ، قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

كل هذا والوقف الصابرة المستميتة دون رسول الله والاستجابة لنداءاته المتكررة تعمل عملها في تقرير المصير ؛ فقد انكسرت حدة العدو في محاولة قتله - فداه أبي وأمي - وبدأ أصحابه يثوبون إليه من هنا وهناك . . وبقطة إيمانية استطاعوا إنفاذ أمر رسول الله باجلاء المشركين عن القمة التي احتلوها في الجبل ، إذ حصبهم بالحجارة حتى انكشفوا عنها .

وكان من كريم فضل الله أن أنزل السكينة على هذه الفلول التي راحت تتجمع حول رسول الله بدافع من إيمانها . . وأعاد إليها بعد ذلك التشتت والاضطراب قدراً كبيراً من الطمأنينة والثقة . . حتى بدأ النعاس - والحال هي الحال - يخالط العيون والكرى يداعب الأجفان ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ .

كان ذلك . . وكان معه - فيما يبدو - شعور غالب عند قريش . . أن ما حصل هو صورة النصر وليس حقيقته . . وأن جولة تكسبها فئات تجمعت على سلبيات وردود فعل وارترجال لا تعني تجاوز السطح إلى الاعماق في مواجهة قوة سداها ولحمتها العقيدة التي أثمرت فيما أثمرت حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والبذل كدونه مهما غلا الثمن . . والغفوة العابرة - حاشا أن تعني الموت . . والأيام دول .

هذا أبو سفيان، يشرف على الجبل فينادي: أفيكم محمد فيقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «لا تجيبوه». فيقول: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه. فيقول: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه. ولم يسأل إلا عن عؤلاء الثلاثة. فقال مخاطباً قومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم. فلم يملك عمر -رضي الله عنه- نفسه أن قال: يا عدو الله: إن الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقي الله لك ما يسؤوك! فقال: قد كان في القوم مثلة، لم أمر بها ولم تسؤني -يشير بذلك إلى ما صنعت زوجه بجثمان حمزة رضي الله عنه- وقوله أبي سفيان هذه لها دلالتها فيما أشرنا إليه. ثم قال يلتمس واهماً أن يقنع نفسه بما حوله يتجمعون من الوهم: أعل هبل!! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألا تجيبونه؟ قالوا: بماذا نجيبه؟ فقال لهم -وهو سيد المعلمين والمرين- قولوا: الله أعلى وأجل. قال: لنا العزى ولا عزى لكم!! فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ألا تجيبونه؟ قالوا: بماذا نجيبه؟ قال -ودماء الشهداء تلتمع أمام ناظره، والاشلاء المتناثرة تنبي جدار التاريخ- قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قالها في أعقاب المحنة، يشدهم إلى الكلمة التي جمعته من أول يوم. . وإلى الحق الذي من أجله كان العطاء السخي، وكان البذل العارم في سبيل الله. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال!! فقال عمر: -واسمعه من عمر- لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. نعم لا سواء وألف مرة لا سواء. . ولقد كان أبو سفيان من الذكاء بحيث لم يفته مدلول هذه الوقفة التي عبرت عنها كلمات هي فيصل الطريق بين قريش وبين رسول الله من أول يوم دعا فيه قومه إلى الحق. . لم يفت زبا سفيان ذلك



وخصوصاً أنها تقال وما تزال سيوف أعداء الله تقطر دماً من جراح المسلمين وضحاياهم . . لقد كانت قریش مع كل التبدل الذي حصل على أرض المعركة عاجزة عن أن تنال أي غنيمة باردة دون أن تدفع الثمن غالياً، وكان يزاولها ما يزاول انساناً قام في ظل جدار يريد أن ينقض . وأمام هذا كله رضي القوم من هذا التبدل بالاياب . . إذ لما انجلت المعركة حنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، وتوجهوا إلى مكة ، بعد أن وقع في روع المسلمين أنهم لابد قاصدو المدينة لينالوا من الديار والأموال والأعراض .

ولم يكن بدعاً أن يقف رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بعد المعركة على جثمان حمزة بعد أن مثل به فيتأثر تأثراً شديداً ويقول : «لن أصاب بمثلك أبداً . وما وقفت قط موقفاً أغيظ لي من هذا» وباشراقة نبوية كريمة أمر النبي -صلى الله عليه وسلم- أن يدفن شهداء أحد في مصارعهم مما يذكرنا بقوله فيما بعد : «أحد جبل يحبنا ونحبه» .

ووقف -صلوات الله وسلامه عليه- يدفن الرجلين والثلاثة في اللحد الواحد ، وعلى خط متكامل في الاعداد والربط بمصدر الرسالة كان يسأل : أيهم أكثر أخذاً في القرآن؟ فإذا أشاروا إلى رجل ، قدمه في اللحد . . أرأيت إلى هذه الأفضلية هنا . . في هذا الموقف!!

والحب في الله أيضاً . . لا يزال يمد المتحايين بالعطاء حتى في حالة الدفن بعد الموت ؛ فقد دفن رسول الله عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فقال : «ادفنوا هذين المتحايين في الدنيا في قبر واحد» .



وليُعلم المؤمنين^(١)

في حديث موصول مع وقائع معركة أحد . . وما حملته سحابة يومها من معاني العطاء . . تقفنا الآيات القرآنية على مواجهة فريدة للمعركة ليست من أرض السرد التاريخي بسبب . . ولكن الحديث عن الوقائع طريقها إلى البناء في احاطة دقيقة وعميقة بكل ما أزدانت به تلك الساعات الفاصلة في تاريخ دعوة الإسلام . . ذلك لأننا لو أخذنا النسبة العددية أولاً ثم ما كان من النتائج بالمقياس العسكري ثانياً لوجدنا الأمر على غير المدى الذي قد تتصوره من خلال المبادئ . . ولكنه بناء القاعدة المؤمنة . . ورسم المعالم التي تتجاوز حدود أرض أحد وزمان أحد . . والاشخاص الذين تحركوا على أرض المعركة في أحد .

لقد كانت مواجهة الكتاب الحكيم للمعركة بكل ما غنيت به من عطاء مواجهة نقلتها - مع الاحاطة بها - من لقاء قتالي مع المشركين إلى صفحة كريمة بالغة الأهمية ، في ميدان الرسالة واعداد أبنائها اعداداً يتجاوز بهم حدود الخطأ والصواب إلى أن يكون كل من الخطأ والصواب مفتاحاً لنقلة عملاقة لا يعوقها فرح غامر أو يأس مقيت . .

كان ذلك وكان معه سلامة التلقي ، وحسن الأسوة ، والحب الصادق للرسول عليه الصلاة والسلام ، حتى بات يوم السبت في الخامس عشر من

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد السادس ، السنة السادسة عشرة ، ١٣٩٥ هـ ذو القعدة - ذو الحجة ، ١٩٧٥ - ١٩٧٦ م كانون الأول والثاني .

شوال للسنة الثالثة للهجرة . . معبراً إلى ميدان فسيح تتحرى فيه اليد الحانية
الأمينة كل عوامل القوة في مكان العقيدة وسلامه التصور . . إلى ما يلزم
من وضوح الرؤية والحركة الملتزمة هنا وهناك بدءاً من دالخ النفس وحتى
أقصى ما يكن أو يكن أن يكون من الممارسة والسلوك . . مما يكن للتمييز
الواضح بين المؤمن في كل سماته الخيرة وضيائه وبين المنافق في كل ما يرين
على قلبه من ظلمات تعكس ما يكن من فلتات اللسان والانحياز عن
مسالك الخير . . كما يقف أبناء الدعوة على اتساق النتائج مع سنن الله
الكونية في هذا الوجود وربط المسببات بالأسباب ربطاً لا بد أن يزينه صدق
توكل المؤمن على الله القاهر فوق عباده . . واستدامة التعلق بأهداب
الرسالة .

وعلى خط زمني متصل بالعام الثالث للهجرة . . تبدو الضرورة ملحة
لأن يكن مع الخط الزمني خط من نسب العقيدة والعمل والعبرة!!
فالآيات التي تنزلت على أحداث «أحد» هي من حيث أسباب النزول خاصة
بتلك المعركة بما كان فيها من وقائع وما سبقها من مقدمات ما أعقب من
أمور . . ولكنها من حيث الدلالة ومنهجية البناء، عامة لأمة القرآن في كل
زمان ومكان . . على أرض الصراع بين الحق والباطل . . والمقومات التي
لا بد من توافرها لحملة الرسالة . . تلك المقومات التي يأخذ التمحيص دور
الأولية في وجودها وصقلها . . والتحيص أمر البد منه كيما يتحدد الفيصل
بين الإيمان والنفاق .



لقد رجع رأس المنافقين ابن أبي بن سلول قبل الوصول إلى أحد بحجة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - عدل عن رأيه إلى رأي الشباب . . وكان رجوعه تعلقة النفاق في واقع الأمر . . ولكن كان في انحيازه عن طريق المؤمنين خير كثير . . إذ بدا هذا الرجل على حقيقته ليحذر في زمن مبكر على رأس أعوام ثلاثة للهجرة وصدق في ذلك قوله الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ . والتمحيص هو الذي يكشف عن المعادن ويظهر الصادق من المدعي ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ ١٦٦ ﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ﴾ .

خذ هذه واطرحها على طريق الريادة اليوم . . لترى أي أفضل من الله . . وأية رعاية من لدنه سبحانه تطوق أعناق العاملين عندما تقع أسباب التمحيص ويصدق عليهم في رحلتهم الطويلة الشاقة : ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ .

ثم أرأيت إلى ذلك الذي ينبغي أن يخالط العقيدة ويشاطرهما ميدان النفس والشعور !! ذلكم هو الأخذ بالأسباب مع صدق التوكل على الله عز وجل . . هذا رسول الله يظهر بدرعين اثنين ، وينظم صفوف المقاتلين أحكم تنظيم . . ويضع كلا مكانه حسب كفاءته . . وحين تقع الكارثة يناله في نفسه وفي أقرب الناس منه ما لم ينل واحداً من المقاتلين عليهم الرحمة والرضوان . . فلا أولئك الذين قضوا نحبتهم تحت الراية . . وهو - صلوات

الله وسلامه عليه - ثابت لا يريم . . تتزحزح الجبال الرواسي ولا يتزحزح . .
وكان لثباته أثره العميق في نفوس أصحابه . . إذ جمعهم بعد شتات . .
وطمأنهم بعد لهفة واضطراب . . كما كان له أثره في نفوس المشركي !! لما
أنه كان سلاحاً نفذ إلى أعماقهم وأقنع الكثرة منهم بأن رجل العقيدة وحامل
لوائها . . وباني تلك القاعدة الصلبة من الأبطال الذين يحبونه أكثر مما
يحبون أنفسهم . . طود شامخ ، ليس سهلاً مناله أو تخطيه . . فدون ذلك
صدور هؤلاء الأبطال وتفانيهم في طلب الاستشهاد وافتدائه - عليه الصلاة
والسلام - . . ولقد استطاعت هذه الظاهرة أن تقتحم على أولئك المعاندين
عقولهم وقلوبهم وتزيل الفشاوة عن أعين ما كانت لتبصر النور لولا ذلك
الخير العميم .

ترى . . أوليس من بعض الوفاء أن نذكر تلك البطولات الفاذة في تاريخ
الإنسانية بدءاً من مرحلة الهجوم العارم المظفر الذي كسب الجولة أول
النهار . . وانتهاء بمرحلة الاستماتة بين يدي الرسول - صلى الله عليه
وسلم - حماية بالصدور المشرقة بالإيمان أن يصيب الأعداء منه متقلاً ،
والتفافاً حول الراية العملاقة من جديد . .

أن هذه البطولات . . وهي معالم على الخط الذي يصلها بمعاني (أحد) من
حيث صلاحية هذا الإنسان لحمل العبء حين تصنعه الرسالة على عين
الله . . جديرة بوقفة متأنية عميقة تحمل النفوس الوانية اليوم . . والقلوب
التي تكاد تذوب تحت مطارق الفتنة وظلمات اليأس . . إلى حيث تدرك



بواعث تلك الفرائد في حياة الرجال . . والمقومات الحقيقية التي نقلت أولئك الناس من حماة الجاهلية الغائرة في الضياع . . إلى ذلك الميدان المشرق الفسيح حيث البذل والعطاء . . وقيادة الأمم والشعوب .

والذي يشك إلى الحقيقة شدا . . أن القرآن الكريم على ما كان من تلك الوقائع التي يعز نظيرها في التاريخ . . لم يدع أن يبين أجلى بيان، ويذكر أوضح تذكير . . ويكشف عن المخبوء هنا وهناك . . ولكن بالحكمة التي يعلمها الرحيم الرحمن سبحانه . . لما أن المعركة على الأرض تبدو سهلة إذا ما قورنت بالمعركة الكبرى مع النفس ، لاتزام المنهج الرباني كما أراد الله . . من أجل أن تكون الضوابط والمقاييس صورة تنعكس عليها ظلال ذلك المنهج بتوازنه وتكامله وشموله . . فمعركة أحد بما حصل من خلال التحضير لها من تنوع الرأي عند المشورة ، وما أصاب الجيش بصنيع عبدالله بن أبي بن سلول . . ثم ما كان من الجولة الظافرة ، والطاء السخي بذلاً واستشهاداً ، وما رسمه الدم الزكن من سيد الشهداء حمزة واخوانه عليهم الرضوان . . ثم ما قلب ميزان القوة في لحظة من لحظات الضعف البشري التي أغرت الرماة بالمخالفة متأولين أمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأنه يقف عند حدود النصر . . حتى حصل ما حصل من اضطراب الصف . . وأفراد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا من أولئك البررة الذين أكرم الله أكثرهم بالشهادة . . ومن بعد ما كان من قاصمة الظهر في شائعة مقتله - عليه الصلاة والسلام - وما تبع ذلك من صحوة إيمانية تشكفت - كما أشرنا

من قريب- عن طاقات هائلة لم تعفَّ عليها غفوة عابرة . . حتى أثمرت . . وفجرت في أعقاب المعركة ما فجرت . . مما حصل قد كان . . فالله أعلى وأجل . . وليس القتلى سواء . . أن قتلانا في الجنة شهداء . . وقتلاهم في النار جيف .

كل أولئك كان من التوجيهات القرآنية بحسبان دوغما بخس أو شطط . . ذلك لأن الأمر كما أسلفنا -والله أعلم بمراده- أمر أعداد هذه الأمة من خلال الوقائع أعداداً يغني المبادئ والقيم برصيد ضخمة من التجربة والممارسة . . وعظيم جداً أن ينزل في رسم المعالم ورصد كل خطوة، قرآن يتلى على مر الأجيال والعصور . . فالله سميع عليم شاهد منذ اللحظة الأولى حيث كانت الشورى ثم العزم على الخروج ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ . . وحين ذر قرن الخيانة من سادن النفاق الذي قال مع من نكصوا على أعقابهم معه : ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أدركت عناية الله بني حارثة وبين سلمة ، فكان من تينك القبيلتين الثبات بعد أن كادت القدم تنزل ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا...﴾ . قال : نحن الطائفتان : بنو حارثة وبنو سلمة ، وما نحب ، أو «ما يسرني» إنها لم تنزل لقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ .

ألا وأنه ليس للمؤمنين سند وملجأ لا والله عز وجل ، فلا توكل إلا عليه ، ولا معونة إلا من لدنه جل وعلا ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ .

ولم يغفل القرآن أن يعاتب أولئك الذين ضعفوا عن الثبات حيث أمرهم



الرسول أن يثبتوا، وأصر قائدهم فلم يمتثلوا!! فسنة لاله ماضية في أنه لا بد من الأخذ بالأسباب على الوجه المستطاع دوغما تهاون أو تفريط فالانتصار الذي كان ببدرا لا يعطي قاعة تتجاوز الأخذ بالأسباب . . كما أنه لا بد من حسن الامتثال للقيادة الراشدة المؤمنة . . مع صدق التوكل على الله الذي لا نصر إلا من عنده . . وحين يفعل المؤمنون ذلك ، فالله معهم بتأييده ونصره ، كالذي حصل في «بدر» . أما إذا خالفوا سنة الله في ذلك كانت العاقبة على العكس ، وذلك ما حصل في الجولة الثانية في «أحد» لقد كانت الآيات وراء كل حركة من داخل النفس أو من خارجها . . ذلك قول الله تعالى ذي الفضل على عباده المؤمنين : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا بَعَدَ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . . ولكنه العقاب الذي تلمس فيه ندى الرحمة والفضل ، فأنت ترى أن حكمة الحكيم سبحانه اقتضت أن يكون العتاب في شأن أخذ الأسرى في أعقاب «بدر» بحرف أشد منه هنا حيث قال الله تعالى هناك : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَبْخَسَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . . بينما رأينا في شأن أحد - وحسب المصاب ما أصابه - ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يَرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وعلى ما أصاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الغم حين لاذ المقاتلون بالفرار مضطربين نتيجة التفاف المشركين على الجيش المسلم وتجمعهم من جديد، وهو - عليه الصلاة والسلام - ينادي . . إلى عباد الله . . إلي عباد الله . . جاء العتاب القرآني مع المؤاخذه - غماً بغم - فيما نراه من قوله جل وعلا: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلَوْنِ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لَكِيلاً تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . ولكن عناية الله هي الغالبة، فهؤلاء الذين بدر منهم بعض الخطأ هم في ساحة العمل ويدان الجهاد في سبيل الله . . ولكم يغسل الدم من أوضار . ولكم يمسخ الصدق من أوزار . . فليكن أمدادهم بالعطاء الرباني في أخرج الساعات وأشدها على المقاتلين: ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ ﴾ ونعمة النعاس في مثل هذه الساعات العصيبة لا يقدرها حق قدرها إلا من ذاق مثل الذي ذاق أولئك الأبرار .

وأنت واجد بديع صنع الله في هذا المنهج الرباني من مزج رقيق العتاب ببليغ الدرس ونافعه، حيث استعداد النفوس وتطلع القلوب إلى ما يمكن أن يكون . . مما باعد عن القنوط، وسلك بأهل «أحد» سبيل الاستعلاء على المعوقات من جديد . . وانظر بعد هذا إلى العفو والمغفرة والحلم . . بعد الكشف عن الخطأ لكيلا يعود إليه المسلمون مرة ثانية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ وكل الذي حصل لا يجوز أن يثلم مبدأ الشورى، ورسول الله -



صلوات الله عليه - مدعو إلى أن يرفق بجنده - وهذا درس للقادة - ويعفو عنهم . . فالسلطة لا تكون حجازاً بين القائد وبين كمال الأخلاق في الدعوة ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ .

وعلى هذا الدرب المضيء بالفكر بتبعه العمل ، والعقيدة يوطد لمستلزماتها حسن التمرس بالجهاد في كل ميدان من ميادين الجهاد . . تطلع علينا قاعدة أنه لا بد من العمل الدائب ، واليقظة المستمرة . . كيما تبلغ الأمة أهدافها في أداء رسالتها في العالمين . . أما الاغترار بالنصر . . والاستسلام للدعة تحت عنوان القرب من الله ، أو الصلة به ، فذلك ما ينبغي أن يتجنبه المؤمنون . . لأن أحباء الله يسعدهم أن يكونوا عند الذي أوجب الله أن يكونوا عنده وهم بذلك الاعلون المكرمون . . وإذا وقعت الغفوة أو مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون . . وسنة الله ماضية في مثل هذه القواعد لا تتخلف ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ ﴿١٢٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

وعلى جند الله المؤمنين أن يكونوا على تذكر أن سلعة الله غالية - وسلعة الله الجنة - لا بد لنيلها من الثمن جهاداً وصبراً على الشدائد . . وصدقاً في المواطن . . والكفار ينالهم في الحرب ما ينال المقاتل . . ولئن أصيب المؤمنون في أحد . . فقد أصيب الكفرة في «بدر» ولكن شتان بين العاقبتين . والأيام

دول ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيَمَحَّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ .

ولقد كان تأكيد القرآن واضحاً في وضع المسلمين على مكمن الضعف تجاه شائعة مقتل النبي - صلى الله عليه وسلم - . فلم لا يموتون على الذي قاتل دونه - عليه الصلاة والسلام - . مع أنهم كانوا يتمنون الموت في سبيل الله - وذلك ما تنبه إليه بعض الانصار - ثم أن صلتهم بالإسلام يجب أن تكون صلة المبادئ والقيم . لا تعلقاً بأشخاص . فلقد جمعهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - على الحق واکان واجباً عليهم أن يحبوه أكثر مما يحبون أنفسهم . لما أنه عبد الله ورسوله ، فإذا مات رسول الله أو قتل ، فإن الذي أرسله وأوجب طاعته ومحبته حي لا يموت . . وعلى هذا فقد كان موضع المؤاخذه أن ينقلبوا على أعقابهم حين أذهلهم النبأ ، وكان عليهم أن يقفوا الوقفة الصابرة المؤمنة ، ينافحون عما نافح عنه ، ويزودون عن الراية التي التفوا بقيادته حولها - عليه الصلاة والسلام - ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ . ومع السبب الخاص لهذه الآيات - كما أسلفت - لا أجدني بحاجة إلى مزيد من الكشف عن عموم لفظها وأنها



تضع المنطلق الثابت الذي لا يحيد عنه إلا من سفه نفسه مهما تطاول الزمن . . . وتعددت ألوان الصراع بين الوثنية والتوحيد . . .

ترى هل تشرق شمس حياتنا من جديد . . . فنقف الوقفة التي يملها صدق الرسالة ، على خط يتجاوز الخط الزمني بحيث نتصل عقيدة وعملاً وتذكراً بكل الذي أكرمتنا به «أحد» من دروس وعبر . . . ونستلهم المنهج الرباني فيما وجهت إليه أي الكتاب ، وما رسمت من معالم . . . وما أشعرت بندى الرحمة الإلهية؟؟ . . . كيما ننعم ببوارد يقظة جديدة تضيء ظلمات الطريق . . . وتجمع أمر هذه الأمة بعد شتات . . . فتبصر من خلال قيمها . . . وتتمرس بالحياة في ضوء مقاييس الإسلام؟؟ . . . إنا لنرجو . . . ونرجو . . . وكلنا ثقة بفضل الله وعونه ، وكريم تأييده . . . ذاكرين قوله تعالى فيما هو جماع ما حصل للمسلمين يوم أحد على كل ما قدموا من شهداء وما بذلوا من تضحيات ﴿أَوَلَمْ أَصَابَكُمْ مِصْيَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وفي أعقاب هذه الكلمات التي طال استعصاؤها على القلم أني مذكر ببعض ما دعا به النبي -صلى الله عليه وسلم- يومذاك فيما رواه الإمام أحمد « . . . اللهم إني عائد بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا . اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا ، وكره إلينا الفکر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين . اللهم توفنا مسلمين والحقنا بالصالحين غير خزي ولا مفتونين . اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك . وأجعل عليهم رجزك وعذابك . . . » . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دعوة على بصيرة^(١)

على بركة الله ورجاء المزيد من توفيقه تفتتح المجلة عامها الجديد بشهر ربيع الأول الشهر الذي كان من خصائصه التي ميزه الله بها أن جعله شهر مولد رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-، وهذا يحملنا ونحن في ظلال رحلة أمتنا عبر تاريخ خلف أربعة عشر قرناً أشفت على التمام، أن نستذكر المهمة الأولى التي كان يضطلع بها سيد العالمين في أداء رسالته للناس عندما كان يقول لهم: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

إنها مهمة الدعوة.. الدعوة إلى الله على بصيرة، والدعوة إلى الله على نور من كتاب الله الذي أنزل الله عليه شفاء ورحمة للمؤمنين.. فكانت هذه الدعوة اليد الحانية التي حولت الإنسانية من حال إلى حال، وسلكت بالعرب مسلك القيادة في العالمين على هدي منهج رباني لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من لحات الفضيلة ولك ما فيه تحقيق إنسانية الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة لا ازدان بها واحتواها. وهي دعوة إلى الإسلام كما هو في منابعه ومصادره، كما هو في صفائه وشموله، كما هو في حقيقته كما أراد الله وأثبت واقع التطبيق.

ولسنا بسبيل أن يأخذنا السرد التاريخي لأمر تتعلق بأمر هذه الدعوة من أجل التاريخ وكفى، ولكن بسبيل أن نستذكر وقد لفتنا غمرات من التخلف

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٧هـ ربيع الأول، ١٩٧٧م شباط.



ردحا من الزمن ، ولكن بسبيل أن نستذكر وقد لفتنا غمرات من التخلف
درحاً من الزمن ، وتباشير انطلاقة واعية تحاول أن تشق جيوب الظلام . أن
نستذكر صنيع الداعية الأول -صلوات الله وسلامه عليه- . ذلك الصنيع
الذي لا تزيده الأيام جدة وصفاء ، لا تمر بالأمة نعمة أو نقمة لإلا بدت
الحاجة ملحة أكثر وأكثر إلى حسن تمثله وترسم خطاه دونما تحرف أو ازورار .
إن نبينا -صلى الله عليه وسلم- هو الداعي إلى الله بإذنه على بصيرة-
كان على يقين أرسخ من الجبال الرواسي بما يعدو إليه ، فهو يعرف ما يريد
ومؤمن بما يريد ، والغاية من وراء الدعوة ماثلة أمام ناظره منذ اللحظة
الأولى بعد أن أوحى إليه ، فخطا الخطوة الأولى على تلك الطريق .

وهو -فداه أبي وأمي- عالم كل العلم -بما أشرق قلبه من ضياء الوحي
وبما أهله الله لحمل الرسالة- بطبيعة الأرض التي يتحرك عليها وحنايا
النفوس التي يدعوها إلى الله ، فكان واقعياً كل الواقعية ، في استجلاء
مكامن الفطرة ، ومخاطبة العقول والقلوب ، والاستعانة بشمرات تجارب
الماضين ، والإفادة من كل الدروس والعبر التي يمكن أن تؤثر في أولئك
الذين يريد حملهم على الجادة ، وانقاذهم من الوهدة ، واخراجهم من
الظلمات إلى النور ، ولم يقتصر ذلك كله على الجزيرة العربية بحدودها ،
ولكن التبليغ أخذ طابع العالمية بما أرسل من رسل حملوا كتبه إلى هنا وهناك
من أرجاء المعمورة عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا
وَنَذِيرًا ﴾ . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٤٥﴾ وداعياً إلى الله
بإذنه وسراجاً منيراً .

ولم تكن المهمة سهلة ميسورة بالقدر الذي يتصوره البعض بإزالة الركام عن العقول والقلوب، وتخطي الموروثات الآخذة بخناق الناس يومئذ من أجل بناء الإنسان من جديد هو المهمة العسيرة. إن أي بناء مادي في المجتمع قد يكون أقل صعوبة من بناء الإنسان وخصوصاً عندما يكون هناك ستار من المتناقضات، وحجب هي نسيج الخرافة والتقليد الأعمى، وأوهام العزة والفخر.

وبقدر ما نكون على تصور صحيح لهذه النقطة ندرك أنني منجزات حققتها الرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما بنى القاعدة الصلبة التي أخذت على عاتقها حمل الراية الإنسانية لكل بني الإنسان، حين أعلنت كلمة التوحيد، وبذلت في سبيلها كل شيء، وواجهت الحياة بشرعة العليم الخبير، ووضعت بمعطيات العقول والقلوب والتضحيات أسس الحضارة الإسلامية الماجدة والحمد لله.

وهذا الذي فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبني عليه تلك القاعدة المباركة. كان عماده إلى جانب كل الأسباب أنفة الذكر، حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، فالدعوة دعوته، والعمل في سبيله، والمبتغى مرضاته «إن لم يكن بك شخط علي فلا أبالي».

ومن أجل هذا: كان -عليه الصلاة والسلام- الصورة الناطقة العملية لما يدعو إليه فهي دعوة بالقول والتبليغ، ودعوة بحسن الأسموة وفضائل السلوك، إلى إنسانية في التوجيه، وحزم في القيادة، وترفع عن كل ما يقع



به زعماء التراب والشهوة لأنه رسول الله ومجتباه والمبين عنه سبحانه ما أراد .

ولا تسل عما أعطاه الله من قدرة على مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، سواء أكان المخاطب فرداً أم جماعة ، أم واحداً من تلك الوفود التي كانت تفد عليه ، فكما أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ووسع لهجات العرب في معهوداتها بالخطاب ، شاءت حكمته سبحانه أن يكون المبين للكتاب المعجز على أهلية لهذا البيان وتبليغ الناس على اختلاف أحوالهم وشؤونهم وظروفهم مابه يدخل إلى نفوسهم ويوصل الدعوة إلى قلوبهم وعقولهم . . وهذا في كل من أكرمه الله بالهداية وشرح صدره للإسلام ، أما أولئك الذين اختاروا طريق الضلالة والصدود عن الحق . . فلهم شأن آخر . فلقد خرجت صدورهم بالخير ، وعموا وصموا عن كلمة الهدى وراى على قلوبهم ما كونوا يكسبون .

وليس من مكرور القول أن نستذكر -ونحن نذكر أمام الدعوة -صلى الله عليه وسلم- أن من أعظم ما تميز به طريقه في الدعوة ، أنه كان يدعو ويبلغ ويربى من يدعوهم على المنهج الذي يدعوهم إليه ، فلم تكن القضية بالنسبة إليه قضية تعليم مجرد للكتاب والحكمة ، ولكنه التعليم الذي تنضم إليه التزكية وتربية النفوس لتكون الاستجابة وجوداً جديداً لأمة الاستجابة حتى ترى أن معنى ابلاغ الدعوة بناء هذا الوجود . . وهكذا بنى الإنسان الجديد على هذه الدعوة ، فكانت الأسرة ، وكان المجتمع ، وكل أولئك صورة البنية الجديدة التي أرادها رسول الله لهذه الأمة .

أن تدعو الإنسان إلى الإسلام وتتركه يهيم على وجهه هنا وهناك ، وتتنابه الأفكار النابية الجافية شيء . . وأن تدعوه وتعمل على تربيته وتكوينه على ما تدعوه إليه شيء آخر .

إن الطريقة الثانية هي الطريقة المثلى التي سلكها رسول الله ، وكانت ديدن رجاله وتلاميذه من الدعاة . . حتى كان - كما ذكرت - ذلك الوجود الحقيقي للدعوة فكراً وتصوراً واعتقاداً وممارسة لشؤون الحياة وقوة دافعة للمجتمع . وكل ذلك هو الذي وضع الأمة في موقعها اللائق من البناء الحضاري لاذي كان أفضل معلم من معالم هداية الإنسان في رحلة كادت تشفي على ألف وأربعمائة عام من الزمان .

وهذا لا يعني التحلل من عهدة الدعوة إذا لم تيسر الطريقة الثانية ، بل أن الوجوب قائم ، والعهدة في الأعناق ثابتة ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ . وقد أثبت القرآن أن عنوان الاتباع الصادق لرسول الله هو الدعوة إلى الله على بصيرة - ومدلول البصيرة متسع عريض - حيث نقرأ في هذا الكتاب الكريم : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .

واليوم والمسلمون على عتبة أصاخة جديدة لنداء الحق ، واستشراف إلى ما به يستأنفون طريق العودة إلى الله ، ليخلصوا من أضرار ما حاق بهم من الأذى عبر السنين الأخيرة من تاريخهم الحديث ، وليسلم لهم تكامل البناء على أسس سليمة في ظلال المنهج الرباني . . اليوم والمسلمون على هذه



الحال مدعوون إلى أن يضعوا نصب أعينهم هدي النبي -صلى الله عليه وسلم- في شؤون الدعوة، على مراعاة للسبل المناسبة، واللغة المناسبة، والإفادة من معطيات العلم والتجربة، ومراعاة كل ما يلزم الداعية في نفسه وفكره وقدرته على ما يعهد إليه من عمل فيكون الداعية بالتبليغ والسلوك.

غير أن الذي لا يغني عنه الإشارة والامح، إنه مهما أتخذت الوسائل الظاهرة للدعوة، وروعت طبيعة الأرض، والمناخ والظروف، واستخدمت معطيات التاريخ، وتجارب الأيام. . فلن يعطي ذلك ثمرته أو يعمل عمله ما لم تتوافر للداعية اللوعة الصادقة، والحرقة التي لا تداني، على هذا الإسلام ودعوته، بحيث يكون أولئك الرواد على حال تتجافى فيها جنوبهم عن المضاجع، ونفوسهم عن لذائذ الدنيا وشهواتها، لوعة على كلمة الله أن تتحقق في هذه الأرض، وحرقة على هذا الإنسان أن يستنقذ من وهدهة فتتحقق إنسانيته بهذا الإسلام.

وكما جاء في المثل العربي «ليس النائحة كالشكلى» إن المرأة المأجورة لتنوح -صنع الجاهلية- ليست كتلك المرأة الشكى التي لوعها الأسى وأصطلت بنار افتقادها لولدها، وأخذ الحزن من قلبها كل مأخذ. . فشتان شتان بين الداعية إلى الله، يعدو على بصيرة ليرضى الله عنه وبين المحترف المأجور. . الحياة هناك. . والموت هنا.

إلا أن الدعوة ليس صناعة، وليس كلمات تتردد على الألسن، أو كسطر على الورق بلا حياة. . وإنما هي -مع المعرفة والاستنارة والأخذ بالأسباب-

صدق مع الله ، وحرص على هداية الآخرين ، وتقلب على الجمر صورة عن الألم لما وصلت إليه حال المسلمين ، والثقة بنصر الله تبارك وتعالى إن نحن نصرناه وأسلمنا وجوهنا صادقين إليه . والله المسؤول أن يربط عل يقلوبنا ويثبت أقدامنا ، ويجعل أسبابنا موصولة بحبله المتين لا نغير ولا نبذل . .



ولكن الله ألفَ بينهم^(١)

في حديثي إلى الأخوة القراء في العدد الأسبق ألمحت إلماحة لم يتسع حجمها - إلى أن من أهم ما كان يفعله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على طريق الدعوة، أنه كان يبلغ الناس ما يوحى إليه ويعلمهم حقائق الدين، ويربيهم على ذلك، وكان من عناصر هذه التربية ما كان من أمامته - عليه الصلاة والسلام - في تطبيق ما يدعو إليه الناس . . فكان هذا التكامل تبليغاً وتربية، بحيث يصاغ المسلم على أنه هو الصورة العملية المتحركة لما دعاه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

والحاجة اليوم ملحة إلى أن تكون على خط المتابعة لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في شأن أسلوب الدعوة . . فتعليم حقائق الإسلام واجب لا مناص منه . . ولكن صياغة المسلم لابد أن يجتمع لها التعلم مع التربية . . والعلم بالإسلام قد يشترك فيه المسلم مع غير المسلم أحياناً ولكن تطويع السلوك لما عرف المسلم عن دينه هو المأمول دائماً في هذا السبيل . . وهو العنوان الحقيقي لصدق الإيمان .

ولعلنا لا نبتعد عن التحويم حول هذه النقطة، إذا قلنا: إن التربية على

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثالث، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٧ هـ جمادى الأولى، ١٩٧٧ م أيار .

حقائق الإسلام تعني -فيما تعني- أن يكون للمسلم طريقة في التفكير على النسق الذي حملته إليه الدعوة، وهذا أمر بالغ الخطورة في عصر أصبحت سمته المميّزة الصراع الفكري.. فعندما تبلغ حقائق الإسلام، ويربى عليها المدعوون تربية صحيحة سليمة يستقيم لهم السلوك وتستقيم لهم طريقة التفكير الذاتية التي تنبع من تلك الحقائق، وعندها يسلم التصور ويحسن الإنسان المسلم بوجوده وذاتيته.. لأنه يمارس الحياة وشؤونها في ساحة العقيدة والفكر، وفي ساح العمل والسلوك ضمن مخطط واضح المعالم.. متصل الأسباب بالمنهجة الرباني والحمد لله. ويحس أحساساً عميقاً بأن وجوده الذاتي يكمن في تحقيق هذا المنهج.

وليس من الأغراب في شيء أيضاً أن نقرر بأن أولئك الصفوة الذين دعاهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ورباهم عليه.. عندما خرجوا إلى الدنيا يبلغون الدعوة حملوا أول ما حملوا طريقة تفكير جديدة تنبع من العقيدة وتمتد فروعها إلى كل جنبات الحياة.. تعطى من خلالها القيم، وتوزن بموازينها الأمور.

وتنظر من الجهة المقابلة إلى واقع المسلمين اليوم لنجد أن تمزق الصفوف هو من داخل النفس قبل أن يكون من خارجها، لأن ليالي سوداء قد حملت المطارق الكفارة لتهدم ما بين المسلم والمسلم من أواصر الترابط.. والقيم التي على أساسها وتحت راتبيها خرج العرب من الجزيرة وبلغوا الدنيا دعوة الإسلام. واستطاع رجال هذه الدعوة في كل صقع خفقت عليه راية



الإسلام، أن يثبتوا -وبجدارة- صلاحية هذا الدين لسعادة الدنيا والآخرة في كل ميدان من ميادين الحياة، سواء منها التشريعي، أو الأخلاقي والسلوكي. وثروتنا في ذلك من الوقائع والكتب خير شاهد لما نقول.

ولقد مرت بهذه الأمة نكبات تزول لها الجبال الرواسي، ثم كانت النجاة -بعون الله- من طريق ذلك الإطار الذي كان يلف المسلمين هنا وهناك --- وطريقة تفكير وقاعدة حكم على الوقائع. . ومعركة عين جالوت وأمثالها مشاهد صدق لهذا الذي نقول. . حيث قال الإسلام كلمته للغزاة وكان المسلمون عند الذي أراده الإسلام.

وإذا وليت وجهك شطر الحروب الصليبية وما كان من ويلاتها سواء من حيث البواعث والغايات، أو من حيث الرجال الذين قدموا حاقدين تحت رايتها. . إذا وليت وجهك كذلك. . وكانت الصورة المحزنة ماثلة أمام عينيك من تمزق الحكام وتفرقهم وكثرتهم هنا وهناك. . رأيت العجب العجيب؛ لقد تحرك نور الدين الزنكي ثم صلاح الدين -رحمهما الله- ضمن ذلك الإطار من طريقة التفكير واستطاعوا أن يجمعوا المسلمين ويقودوهم بإسلامهم. . فكان ما كان من النتائج الطيبة والثمرات والحمد لله، واستبان لكل صف أن الاختلاف في قمة الهرم لا يمنع القاعدة من التحرك والنصر إذا كانت ما تزال على المورد العذب من حقائق الإسلام. .

بل أن أحفاد الغزة التتار ممن دمروا وفتكوا ديار العالم الإسلامي انتصر

عليهم الفكر الإسلامي وحولتهم العقيدة تحويلاً جديداً بدل معالم الشخصية وقيمها . . فكان أن حكموا الهند بالإسلام بضعة قرون .

من أجل ذلك كان حرص العلماء العاملين على أن تكون هذه الحقيقة ماثلة للعيان مضيئة في كل قلب . . أن يجتمع المسلمون على طريقة نورانية يفسرون في ضوءها التاريخ ، ويحللون الوقائع ، وتكون هي ضابط التصرف والسلوك . . وعندها يكون العطاء حيث الحاجة إلى العطاء . . ويكون الانتماء حيث بذل المهج والدم . . يدركون الغاية التي يتحركون من تحقيقها ، ويكشفون الزيف مهما لبس وشبه عليهم فيه . . ومهما تكن الحيل في طريقة عرضه ومحاولة الاقتناع بزخرفه . . فهو كله زخرف وغرور .

ولا عجب بعد هذا أن نرى واحداً من كبار المفسرين المغاربة هو ابن عطية -رحمه الله- . . يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ﴾ .

أن الأمر أوسع مما قد يتبادر إلى الذهن من ظاهر الآية . . فلا أحد أظلم ممن يقف في وجه الدعوة إلى الله ، ويعلم على ابعاد الناس عن الإسلام يوسيلة ما . . أو وسائل . . سواء أكان ذلك في المسجد أو في غيره . . فما معنى أن نبني المسجد ونربي الأجيال على البعد عنه . . ذلكم هو مدلول الاظلمية لمنع ذكر اسم الله في المساجد -وهذا يشمل العبادة والعلم والتربية عند ابن عطية -رحمه الله- . . وهذه في نظرنا ضمانات أي ضمانات لأن يظل المسلمون على صلة بأسباب الخير الذي أتاهاهم به محمد بن عبدالله -صلى



الله عليه وسلم - . . وضمانة أي ضمانة . . لأن يكونوا على طريقة في التفكير تعصمهم إذا حزب الأمر من الفرقة ، وتجمع كلمتهم بعد شتات . .

ولقد كانت تجربة أمتنا في هذا المضمار مرة قاسية ولكنها تعذب لو أفدنا منها وكنا عقلاء في تفسير التاريخ والحكم على وقائع التاريخ . .

إن هذه أمة تعلم الراية التي جمعتها في أكرم حقبة من حقب التاريخ ، تعلم كيف كانت حالها قبل هذا . . وكيف حالها اليوم وهي تمر بشيء من الجفوة لتلك الراية . . والكيس من أفاد من العلم وحركته مواطن الاعتبار .

إلا ما أكرمه موقفاً أن يدرك المتنورون من أبناء هذه الأمة الماجدة أن اليقظة الحقيقية تكمن في الالتفاف حول الراية التي جمع الله هذه الأمة في ظلها . . وأن تدرك أن الدعوة إلى تمزيق هذه الراية . . والتجني على كل المفهومات من حولها . . تنفيذ لما يريده أعداء الله والإنسان . . أن المحاولة الحادة لاقتحام العقبات والسدود قيمنة بأن تقفنا الوقفة الواعية التي نستلهم فيها قول الله تعالى : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ﴾ وقوله جل وعلا خطاباً لنبيه - صلى الله عليه وسلم - وتنبيهاً لأبناء الأمة على مدى الحياة واختلاف الظروف ﴿ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ . نعم : ولكن الله ألف بينهم بدعوته ، وهذه واحدة من معالم طريقة التفكير .

وفي ظلال الخطوة الأولى لرحلة شاقة عسيرة تحقيقاً لهذا الذي يجب أن

يدركه المتنورون والرواد . . نذكر مرة أخرى ضياء المنهج الذي سلكه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتبليغ حقائق الإسلام وتربية النفوس عليها . .
ليعلم أولئك الذين أكرمهم الله بالمرابطة على الثغر الذي هو من ميراث ---
أنالله لا يضيع عنده مثقال ذرة ، وإنه موفي الصابرين أجرهم بغير حساب . .
وفي الأزمات التي تمر بالأمة يظهر الرجال . . وعندها ينحسر أشباه الرجال
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .



الأسوة في بعديها الإيماني والعملي^(١)

الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو الأسوة الحسنة المباركة الهادية للمسلم، أوجبها رب العزة تباركت أسماؤه. هذه حقيقة قرآنية لا يرتاب فيها إلا أمرؤ زائغ عن الحق، أو ضائع عن ساحة المعرفة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

والحقيقة الثانية. هي أن اتخاذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو المبلغ عن الله - قدوة يتأسى بها، هو عنوان صدق الإيمان، وسلامة الارتباط بين المسلمين وبين دينهم الذي ارتضاه الله لهم، والجنوح عن ذلك جنوح إلى ما ترتضيه الشياطين. . شياطين الأنس والجن.

أما الحقيقة الثالثة في هذا الباب: فهي أن خطاب الأسوة في القرآن، ليس مقصوراً على فرد أو أفراد، وإنما هو لجماعة المسلمين عموماً، يدخل في ذلك ما ينبغي أن يكون عليه الفرد والمجتمع والدولة والأمة.

ومن وراء ذلك كله: لابد من أن نستذكر بكثير من الموضوعية والادراك، أن ساحة التأسي ليس مقصورة على جانب من جوانب التعبد في ذات الفرد المسلم، وإنما هي ساحة متسعة الأرجاء، تشمل - فيما تشمل - شؤون الحياة، في كل كلية وجزئية مما تناوله الإسلام الحنيف بالعناية والتدبير.

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثامن، السنة الثامنة عشرة، ١٣٩٧ هـ شوال، ١٩٧٧ م تشرين الأول.

وهذا الذي نقوله ، ليس بدعاً يتدعه المرء من عنده نفسه ، ولا تخمينات عنّ لهذا القلم أن يدعيها ، ولكنه قضية كبرى واضحة - لكل ذي بصيرة - وضوح الشمس في رابعة النهار يراها المؤمن في الآية الكريمة وسبب نزولها ، والواقائع التي أحاطت بها .

الآية التي جئنا على ذكرها في صدر هذا الكلام ، واحدة من آيات سورة الأحزاب ، وسورة الأحزاب سورة مدنية ، تحدثت - فيما تحدثت - عن غزوة الخندق - الأحزاب - التي وقعت في السنة الرابعة أو الخامسة للهجرة ، حيث تمالأ الأعداء من يهود ومنافقين ومشركين على دعوة الله والمسلمين ، وجمعوا جموعهم من كل حذب وصوب ، وكان في تقدير من خططوا للمعركة وأعدوا لها ، أن تكون القاضية على الدعوة وجند الله في الأرض ، إذا لم تنحصر المناجزة بين المسلمين وقريش ، وإنما كانت الجموع من الأحابيش وكثير من القبائل . . ولكن الله خيب فآلهم وكفى الله المؤمنين القتال .

ولقد رأينا الآيات لا تطيل الوقوف عند الواقعة التاريخية من حيث هي ، بل لم تعرج على كثير من الوقائع الجزئية . . ولكنها تقف موضحة موجهة عند المعالم الأساسية فيها . . مابه قوام النصر عند المؤمنين . . حقيقة ما كان عليه المؤمنون في مواجهة العدو الذي يفوقهم بنسبة كبيرة عدداً وعدة والذي جاءهم من فوقهم ومن أسفل منهم . . حقيقة ما كان عليه المنافقون فيما صنعوا . . وفيما تأمرون وكذبوا . . دعوة المسلمين إلى أن يكونوا دائماً على



الخط الهادي المشرق بقيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في مواجهة التحالف الآثم بين المشركين واليهود والمنافقين .

وفي هذه الغمرة من صنيع القوى الكافرة، والخطر المحدق بدعوة الله وجندها، وما يمكن أن يترتب على ذلك من نتائج، وكيف كان المسلمون مدعوين إلى الصبر والمصابرة، وأن الله معهم بالعون حين يكونون كذلك . . من خلال هذه الغمرة حيث الشدة الشادة، وظلام الوقائع الحالك . . نقرأ فيما تنزل من آيات الأحزاب قول الله تبارك وتعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ .

فرسول الله - وهو إمام المؤمنين والمجاهدين - خطط، وأعد، ونقذ، وأسهم مع جنوده بكل ما يستطيع بحفر الخندق حتى ذلل لهم كل صعب من صلد الصخور خلال الحفر والتهيئة .

وفيما رسم وأعد - عليه الصلاة والسلام - كان الإنسان المؤمن قيمة كبيرة، وثروة غالية، لا يمكن خوض المعركة بدونها، وحين يكون الإنسان، ويقول الإيمان كلمته مع الإعداد الصادق . . حدث ولا حرج .

إذا ذكرنا ذلك كله من صنع رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وذكرنا كل ما أحاط بالآية الكريمة من النصوص والوقائع فيما قبلها وفيما بعدها . . ولم يكن يرهبننا التأسى لكيلا ينكشف العوار ويفتضح الزيف . . أدركنا - وبكثير من الوضوح - أن الآية في بعدها الإيماني والعملية تدل على أن حس

التأسي برسول الله سمة الإيمان . . وأن ذلك لا يقتصر على فرد أو أفراد، كما لا تحده زاوية من زوايا التعبد وإنما هي دعوة لالتزامه في كل شأن من شؤون الحياة، ولا بد أن توظف كل معطيات العلم والتجربة، وما وصل إليه العقل البري على ساحة الإعداد في خدمة هذه الطريق . . كيما يكون المنهج النبوي العملي -الذي حكم الحياة في كل شؤونها وعلاقة الإنسان بها- نبراساً للأمة ينهض بها من عثار، ويحلمها لاء قيادة العالم من جديد . . لأن عنوان لعمل بهذا المنهج تأسيساً وقدوة، ستراه عقيدة وعملاً واخلاصاً وسلامة غاية واخلاقاً تباعد عن الأثرة والظلم وتحول دون الاستعلاء والطغيان، وتحول دون التهاون بحقوق الأمة . . خصوصاً إذا ذكر المسلمون- دوغما حصر ذلك بفئة دون أخرى- أن ذلك أمانة الله في أعناقهم، وأمتحان الصدق في إسلامهم وإيمانهم . . من خلاله ينظرون إلى الحياة، وبقيمه يقدررون الرجال، غير عابئين بالزخارف والتمويه . . وعلى هديه يتعاملون مع الآخرين في السلم والحرب .

وإذا كان الأمر كذلك . . أن الذي ابتليت به أمتنا من عدوان يهود، لا بد عند النظرة إليه ومعاناة دفعه والقضاء عليه من أن يكون في الحسبان منهج رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهو الأسوة الحسنة- ولقد كان من بلائنا وحسن حظ العدو الماكر . . أن الأمة لم تنظر اليهم وهي تواجه عدوانهم الظاهر والباطن -متأسية بالرسول عليه الصلاة والسلام-، وإنما جربت مسالك أخرى ضربت عليها دنأ من التيه في هذا العصر الحديث ما نزال نعاني من آثاره على كل صعيد، ولا تنس الصعيد الفكري .



والمفروض أن تكون خلائقهم كما فصلها القرآن، في الحسبان . . وأن يكون سلوكهم مع الرسول -صلى الله عليه وسلم- والمسلمين في الحسبان . . وأن تكون كل واقعة منذ وطئت قدما رسول الله المدينة وحتى يوم الناس هذا في الحسبان . .

فهم المغضوب عليهم، ومن أشد الناس عداءً لنا، وهم المضروب عليهم الذلة والمسكنة، فقوتهم ليست ذاتية وإنما هي على حساب تمزقنا، وجفوتنا لمنابع القوة الأصيلة أولاً، وسعيهم لهدف مرسوم بمعاونة الدول الاستعمارية والأخذ بأسباب القوة ثانياً.

لقد قاد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بنفسه معركة الصراع بين الحق والباطل ثلاثة وعشرين عاماً على اختلاف وجوه المعركة وتعدد أهل الباطل والرايات الشيطانية التي قاتلوا تحتها.

وكان من أطراف الصراع في هذه المعركة: اليهود، وكانت له معهم جولات غنية بالعطاء في ميادين السلم والحرب . . وهي جولات تمثلت فيها اخلاقية المسلم وقوته، ثم انطلاقه على هدي عقيدة يحملها بين جنبيه وغاية كريمة يهدف إلى تحقيقها . . فترى الأمور توضع موضعها، حيث الحفاظ على العهد وأمانة الوفاء، واستخدام القوة حيث يجب أن تكون، كل ذلك في يقظة تجعل المسلمين على ذكر من خلائق اليهود الذين هم أشد الناس عداوة لنا ومعهم المشركون، تلك الخلائق التي أوردتهم غضب الله ولعناته، وكانت تحكم علاقاتهم مع أنبيائهم، ومع أصدقائهم وخصومهم،

وعرفت البشرية من ذلك نماذج قد تكون موضع الكثير من الدهشة والاستغراب . . ولكنها أصبحت طبيعية لأنها من سمات يهود .

وبعد انتقال الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى الدار الآخرة، كان اليهود في علاقتهم بأمتنا يضيفون كل يوم جديداً، يعمق في النفوس قناعتها بالحقائق القرآنية، ووقائع السيرة معهم، وما أحسب أن شمس يوم من الأيام طلعت على أمتنا خلال أربعة عشر قرناً لم يكن لليهود فيها واقعة عداء ظاهرة أو مستخفية، بدءاً من السبئية، ومروراً بنفثات الهدم والتدمير من يهود الدوغما، وانتقالاً إلى قضية فلسطين وما نحن عليه اليوم من حال تنقطع لها الأكباد وتذوب القلوب .

إن الأعراض عن أن يكون الرسول -صلى الله عليه وسلم- وهو قائد ركب الحق في صراعه مع الباطل، أسوة هذه الأمة في سلمها وحربها كان سلاحاً يقاتل مع العدو ويرتد إلى صدورنا لما أنه سلاح ذو حدين . أما أحدهما : ففي الميدان العملي، وأما الآخر : ففي الميدان الفكري . أن لا نتأسى ونعترف بالأهمال وسوء الأحداث والتطلع إلى العودة، أمر قد يقبل إلى أمد ريثما يستأنف الطريق، ولكن الخطر الماحق أن يرافق هذا البعد قناعات فكرية هي من أغلى ما يتمنى العدو أن تتربى عليه أجيال الأمة بحيث تتنكر للسلاح الفعال -ولا أعني به السلاح المادي- الذي استخذى أمامه اليهود . . أن تولية الوجوه شطر قناعات تنافى مع الذي كان قوام وجودنا وانتصار اتنا نذير شؤم ودمار لا يقضي على مخاطره إلا الأوبة الصادقة



الواعية إلى حسن التأسي بالنبى الكريم بسلوكه ونهجه ومعالم صدقه وقوته
فى السلم والحرب .

إن اتساع آفاق المعرفة اليوم وتشعب طرق التثقيف لا يقوم عذراً فى
الإعراض عن المنابع الأولى وأصول المعرفة والسلوك كما هى فى كتاب ربنا
وسنة نبينا وسير من ساروا على هديه فى التاريخ . . بل على العكس ، عندما
تؤذخ المعرفة ومعالم السلوك على بصيرة ، يكون تمتين الأواصر مع الأصول
الأولى ظاهرة الوعى وسلامة الاختيار . . ونحن اليوم نرى بأى أعيننا ونقرأ
ونسلم كيف أن أعداءنا اليهود يصرون على مفهومات توراتية - كما
يزعمون - وأنه لابد أن تكون دلالات ما يريدون مأخوذة كما هى فى
العبرية ، ولك واقعة من تاريخهم مكانها الطبيعى فى تحريك تاريخهم
الحديث وبنائه . . فى الوقت الذى تراهم يبنون قصوراً من دخان يزعمون
أنها حقوق وأنها تاريخ .

نريد أن تنهزم تلك المقولة الفارغة . . مقولة أن العودة إلى الأصول ،
والتطلع الصادق إلى حسن التأسي عودة بالتاريخ إلى الوراء ، والسير باتجاه
معاكس لمعطيات العلم . . وأى خدمة للعدو تقدم ببله أو سوء نية تكون
أشنع من هذه !!

ومقولة أخرى قد تكون فى خدمة سابقاتها وشريكها فى المساءة تلك التى
تحاصر الرغبة فى العودة إلى الصراط السوي ، والتماس الأسوة الحسنة . .
تحاصرها لتجعلها سمة فريق خاص من الناس هم عل يحد زعم أصحاب

المقولة من يسمون بالمتدينين ، حيث اختاروا لأنفسهم هذه الطريق ، فهي رغبات شخصية يُسكت عنها إذا لم تقف عائقاً في طريق التقدم الحضاري !!

لست بسبيل تنفيذ هذا الغشاء وأمثاله من العداء لهذه الأمة ، ولكنها اللمحة العابرة التي قد تغني عن الكثير مع طول التجربة ورحلة الشقاء والعناء ، بعد أن تحوّل الشراع إلى حد كبير إلى وجهة غير الوجهة التي ارتضاها سيد العالمين محمد -عليه الصلاة والسلام- ولم نجن من وراء ذلك إلا الصاب والعلقم في صدام واضح مع مدلول قوله تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

وإذا كانت عشر سنوات أو ثلاثون سنة لا تقرر مصير الأمة مادام في الأمة روح يحرك أعماقها ويشدها إلى معالم الطريق ، وينزع بها صعوداً إلى حيث النقد الذاتي ، والبذل والعطاء ، وإعطاء الأعمال أقدارها في ضوء القيم التي تؤمن بها تلك الأمة . . أقول : إذا كان الأمر كذلك وكان مع هذا كله إدراك للأسوة في بعدها الإيماني والعملية . . إن الأوان لم يفت كيما تعود الأمة إلى سواء الصراط ، فتكشف زيف كل الخطى الآثمة التي تحاول الغاء وجودها ، وإعطاءها هوية التخاذل والاستسلام تحت عنوان الرغبة في السلام والتمنطق الحضاري . . في نسيان أو تناسي لحقيقة العود الذي نواجهه ، ولكل التجارب التي خضناها معه تحت راية العقيدة وقيم الإسلام . . بل في اهمال عمدي للإنسان الذي أراد له الإسلام أن يكون في وجود كريم يقدره على الاضطلاع برسالة السماء . نعم إن الأوان لم



يفت . . وعند ذلك تعود القضية إلى وعضها الطبيعي وأنها قضية أمة لا قضية أفراد، وإن العقدة القاسية لن يحلها إلا سيف محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وسلم - .

إن نبينا -صلى الله عليه وسلم- وأكرم به من أسوة- واجه الباطل بكل صنوفه وأحاييله ما ظهر منها وما بطن، بيهوديته وشركه ونفاقه على صعيد الفكر والسلوك وفي ميادين القتال . . واجهه بالإنسان الذي بناه على عقيدة التوحيد والمعرفة، وحصنه بالعبادة وسلامة السلوك، فحمل راية الجهاد مقاتلاً صادقاً يطلب الموت ابتغاء مرضاة الله، وفي يمينه طريقة تفكير ومنهج عمل واعتزاز بالدين الذي آمن به . . وهذا الإنسان هو الذي شرعت له أبواب بلاد الشام ومنها فلسطين . . لقد دخلها الإنسان الذي صاغته اليد المحمدية ومهد السبيل وأنشأ الحضارة، ثم دخل الأعداء من الباب الذي خرج منه خضوعنا للإسلام . . فإذا شئنا أن نظهر تلك الأرض من رجس اليهود وأن تكون لنا الكلمة الأولى في هذا الصراع التاريخي بين الحق والباطل؛ فلنعد إلى حقيقة التوحيد، ولنبن الإنسان على الطريقة التي بناها محمد -عليه الصلاة والسلام-، مفيد من معطيات العلم والتجربة بعيداً عن العبث وضلالات يهود ومن هم على شاكلة يهود . . نوالي في الله أحبابه وأنصاره، ونعادي بطاعته من خالفه وعصاه، نصدق العهد مع الله في حب الجهاد والاستشهاد . . لا نُؤادُ من حادَّ الله ورسوله ولو كان أعز الناس وأقرب الناس، ولله الأمر من قبل ومن بعد والحمل على كل حال .

أو أهلك دونه^(١)

لم يعد عجباً من العجب اليوم أن ترى أحكاماً فكرية أو عملية تطلق ببله أو خبث على المسلم أو الإسلام نفسه من قبل مخلوقات هنا أو أناسيَّ هناك دونما دليل ظاهر أو حجة قائمة، فمرد ذلك في كثير من الأحيان إلى هؤلاء وأولئك من مرضى القلوب يريدون للمسلم أن يتحاكم إلى مصطلحاتهم ابتدعوها من عند أنفسهم أو أخذوها من غيرهم ليست من الإسلام ولا من تراث الأمة في شيء؛ فهذه قضية تدخل ضمن الذوق الحضاري وتلك لا تدخل!! وهنا تقدم وهناك تخلف!! إيمانك بالغيب يخرج مسارك الفكري عن نطاق العلم، وانكارهم الغيب في تنكر لرسالة السماء تتزحلق بمسارهم الفكري إلى رياض العلم!! هذه إيجابية وتلك سلبية!! وهكذا دواليك. . .

يبتدع المصطلح من عند نفسه أو يستورده ثم يصدع الحكم من خلاله على المسلم والإسلام بل وعلى تاريخ الأمة وعناصر وجودها.

إن الاحتكام إلى طواغيت مصطلحات من هذا النوع لا تتسق -على الحقيقة- مع العلم، ولا مع منطق التاريخ، بل ولا مع الواقع. . . واقع الأمة عندما أقامت وجودها الثقافي والعملية على ركائز هي في مقياس هذه المصطلحات أمر لا يعجب عباقرة القرن العشرين!

والذي يهمننا في الموضوع: أن من هذه المصطلحات اليوم: السلبية

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثاني، السنة التاسعة عشرة، ١٣٩٨هـ ربيع الآخر، ١٩٧٨م آذار.



والإيجابية؛ حيث يتهم المسلمون دائماً بالسلبية وإذا أخذت من القاعدة التي ألمحنا إليها بطرف، وجدت أنت أنهم يريدون من المسلم أن يكون إيجابياً مع كل شيء يرونه لا مع الحق الذي يرى أنه الحق.. وقمين بمن يحمل دعوة الحق أن ينظر إلى الحياة من خلالها، وبهذا المنظار يحكم على الأشياء والوقائع والأشخاص، فالسلبية ليست على إطلاقها وكذلك الإيجابية.

ولو أن كل أحجام عن مسابقة الركب مهما كان شأنه سمي سلبية، لا تقضى تاريخ الإصلاح في العالم ولما رأيت حقاً يناهض باطلاً. وإن كانت السلبية كما هي عند أهل الحق مطلوبة في بعض الأحيان.

إن الإيجابية كل الإيجابية أن تكون مع دعوة الحق، وأن تكون مع المقاييس التي كانت بها أمتنا خير أمة أخرجت للناس، وإذا كان هم الداعية المسلم أن يساهم في تغيير واقع الأمة إلى ما هو الأفضل، فجدير به أن لا يرضى لأمته إلا ما يرى أنه الحق، وألا ما يرى أنه الخير حسب القيم التي تفرضها دعوته، تلك الدعوة التي تؤيدها النصوص الصحيحة المكتوبة، والبيان العملي من حياة الرسول وأصحابه ومن نهج طريقهم عبر التاريخ، ثم من تجارب الأمم والشعوب، التي تنادي نتائجها وثمراتها أن الخير كل الخير في الانضواء تحت الراية التي رفعها محمد بن عبدالله بكلتا يديه ونادى الإنسان - بوصفه إنساناً - مهما كان جنسه أو لونه أو لسانه أو الزمن الذي سيوجد فيه إلى التحرك تحتها لأنها تعني كل شيء هو حق، وكل شيء هو من كرامة الإنسان، وكل شيء هو من سعادة الدنيا والآخرة.

وأسوة الداعية المسلم اليوم وكل يوم: هذا النبي الكريم، الذي وقف من الوثنية وكل أمر هو من الجاهلية بسبيل، موقف المناهضة وإزالة الركام، وكانت الايجابية أنه -وكما هو المنهج القرآني- شرع في هदन الضلال بشتى أضوله وفروعه ومظاهره، ووضع مكانه لبنات الهدى في بناء سامق كريم لا تجد خصلة من خصائل الخير إلا ولها مكانها الطبيعي فيه.

واليوم لا على الداعية المسلم الواعي الذي يجمع إلى العقيدة الصحيحة المعرفة الواعية، والسلوك العملي الذي هو صورة عن المعتقد والمعرفة، ثم الإدراك الحقيقي لطبيعة الأرض التي تبحرك عليها والمناخ الذي تتحرك في ظلاله الدعوة.. لا عليه أن يقال: سلبي أو إيجابي فهو سلبي من الباطل وإيجابي مع الحق، وكذلك سمة الصراع بين الحق والباطل، وكذلك حركة التغيير سواء أكانت من داخل النفس أو من المجتمع.. وهي أحكام لا تهتز عند المسلم لأنها قائمة على أسس سليمة ثابتة.. أما أولئك فمن يدرى.. علام قامت آيabilitهم وسلبيتهم؟؟

وعندما يراد لنا أن نتحاكم إلى مصطلحات مبتدعة أو غير مبتدعة، فذلك دليل جديد على أن ما نحن عليه هو الحق، وأن ركائز الفلاح التي قامت عليها نهضة الأمة من العثار في الماضي، هي التي يجب أن نعمل على التزامها والاستمساك بها، كيما نستضيء بوهجها، وكيما تتحرك عزائمنا بوقه انطلاقها، وكيما تكون لنا القدرة على تجاوز منحنيات الاسترخاء والدعة، وتجفيف تلك المستنقعات الآسنة من حياة الأمة، التي ابتليت بالأعراض عن ذكر الله، فأعطت للباطل وأهله مقاتلها.



إن واحداً من أي من تلك المصطلحات التي يتنافس من خلالها أعداء الإسلام، لن يرهب المسلم الحق، المؤمن بدينه، ألوانق بقدرة أمته على العطاء أن هي عادت إلى ساحة الاستجابة لله وللرسول من جديد. وليقل أعداء الأمة والجاهة على تاريخها والمتأولون لمعالم حضارتها ما يقولون.

وصرخة الحق الصادقة المخلصة التي هدمت تاريخاً وبنيت تاريخاً وأمة «والله يا عماء لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه». صرخة الرسالة هذه لا بد أن تكون النبراس الهادي والكلمة التي تحفر في جنبات الحياة لتبني تاريخنا من جديد.

وعندما يترجم هذا الذي نقول، إلى وعي وحركة ومعرفة وصدق في المواطن، تعمل هذه الكلمة عملها وهي من سيد العالمين - صولات الله وسلام عليه -، وكيف وأنه لم يقلها حروفاً ضاعت في كتب الفلسفة والمفلسفين، وإنما كانت كلمة برهانها معها، وضاع على مدلولاتها رجالاً حملوا لعبء واعطوا لمن بعدهم كل الدروس النافعة في هذا المضمار.

وفي خاتمة المطاف: أن الذي تقتضيه طبيعة الصراع بين الحق والباطل - والدعوة إلى الله حقُّ كلِّها - أن يقال عن الإسلام كذا وعن المسلمين كذا، وبذل السلبية لا يوم قيل عن بعض رسل الله سحرة وشعراء، وأتَّهموا بالكذب وقول الباطل والجنون، ولكن ذلك كان دليل حماقة من يقولون، والجاهلية التي تحت مطارقها يترنحون. وفرعون قال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي ﴾ وأكذبت الحقيقة.

أن يُلبسكَ عدوُّكَ الثوبَ الذي يهوى ، ويطلقَ عليك الحكم الذي يريد ، تلك قضية تحمل بذور كتبها وهدمها ، وشاهد صدق على أن ما أنت عليه هو الحق .

على أن هذا لا يناهض أن تكون على يقظه من كل كبيرة وصغيرة على الطريق ، فتكون شجاعاً تقبل النقد البناء البعيد عن الهوى ، وتحاسب نفسك ويتعاضم الخطر .

والكن القضية الأولى تظل في أن تكون على مثل الجبال الرواسي فيما أنت فيه من قضية هي وجودك الحقيقي ، ينصرها الدليل ويدعمها سلطان الحجة مهما تنوعت السبل في ثنيك عنها أو ابعادك عن ساحتها ، كيما تُستَجَرَّ إلى عاجلة لا تغني من الحق شيئاً ، أو توهم قناعة لا تلبث أن تتبدى لك سرا باخاداً وعندها تندم ولات ساعة مندم ، وتذكر بكثير من الأسى ما أنسيته من قبل . تذكر قول الله جلّت حكمته ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

أرأيت !! أنه الاعجاز الذي يشعرك بوافر من الوضوح أن الآية التي تنزل بها الوحي قبل ألف وأربعمائة عام تبدو كأنها تنزل اليوم غضة طرية من أجلنا نحن ، من أجل واقع الأمة كيما نكون أقوى من سلطان الغفلة عن حقيقة من نحن ، وبأي شيء يكون وجودنا ، وما هي المصطلحات التي يجب أن نحتكم إليها ؛ تتنزل مستعلية على حدود الزمان والمكان . . من أجل أن تكون الحارس الأمين لكل المراحل التي تمر بها الأمة . . كيما يُسلم



الراية جيل إلى جيل . . بعيداً عن التميع واختلاط المفهومات
والمصطلحات . . والالتباس المضني بين الحق والباطل . . حيث يلبس كل
لبوس الآخر . . حيث تضرب الغفلة بجرانها رؤوساً فارغة، وحيث الافتدة
هواء ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .
وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

في السيرة.. والمنهج^(١)

على صعيد العلاقة بين الأمة وبين القيم التي مكنت لها عبر التاريخ، وأسلمتها إلى حيث الريادة والقيادة، وانجازُ البناء الحضاري الفريد بإنسانيته وشموله . . على صعيد هذه العلاقة وعدم الغفلة عن الواقع والمتغيرات التي ترفده يوماً بعد يوم . . تزدحم الصور في ذهن المرء وهو يعيش هذا الواقع الضارب بجرائه على الأمة، وما يكتنف وجودها من مصاعب ومتاعب، ويتحسس الطريق إلى ما به يكون التحول إلى ما هو الأفضل والأقوم . . ثم يجد أن القضية التي تطرح نفسها على الساحة دائماً هي : إلى أي حد يبدو التخلف أو التوافق بين مسلك الأمة في شتى المجالات والميادين . . وبين منهج الحياة الذي تقدمه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ثم إلى أي حد كان انعكاس ذلك على طريقها في الماضي وفي الحاضر، وما هو أثر ذلك كله على المستقبل .

ذلك : لأن المنهج الرباني يستعلي - كما هي طبيعة رسالة الإسلام - على حدود الزمان والمكان ؛ فهو للحاضر كما كان للماضي، وهو للمستقبل كما تراه البصيرة للحاضر، وفي الوقت نفسه، ليس تجربة تحتل الخطأ والصواب ولكنه صواب وخير كله .

أما منحنيات الضعف : فمردّها إلى الناس حين تقعدهم عزائمهم الوانية

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الثاني ، السنة الثانية عشرة ، ١٤٠١ هـ ربيع الآخر ، ١٩٨١ م شباط .



عن الصعود إلى المرتقى الذي كفاؤه صدق في المواطن، وبذل لا يعرف التواني، وأقدام على مخالطة الحياة بروح المؤمن الذي لا يعرف اليأس إلى نفسه سيلاً، ما دام يتعامل مع الله الذي لا يضيع عنده مثقال ذرة.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ . ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ .

أقول هذا وتبشير (ربيع الأول) تنشر أعلامها، شهر مولد رسولنا -عليه الصلاة والسلام-، ومن أرسله إلى الناس كافة، وائتمنه على وحيه، فأدى الرسالة، وبلغ الأمانة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين.

وإنما قلت ذلك، لأن هديه -صلوات الله وسلامه عليه- وهو المبين عن الله عز وجل وطاعته من طاعة الله- لا بد أن يكون في الحسبان دائماً على صعيدي التصور والتطبيق، سواء أكان ذلك في رصد الواقع ومقدار قربته من منهج الله أو بعده عنه، أم كان في تلمس المخرج المناسب الذي ينقذ من الوهدة، ويتجه بالأمة وجهة الذاتية، والبرهان على صدق الانتماء، وسلامة المنطلق في الموالاتة والمعاداة. . كيما يكون من وراد ذلك تحرير الأض والنفوس والعقول، واستئناف لمسيرة الخير، وعودة ظافرة إلى المستوى اللائق -علماء وعملاً وجهاداً- بأمة اجتباها الله لحمل الرسالة الخاتمة وجعل منها أمة الشهادة على الناس يوم القيامة في أخطر قضية من قضايا الإنسان، وهي تبليغ رسالات السماء ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ .

بل جعل منها - بما تحمل من عقيدة التوحيد، وبما تلتزم به من ترجمة مدلولها وأبعادها إلى وجود ذاتي متحرك على صعيد الفرد والجماعة والأمة في كل ميدان من الميادين - جعل منها خير أمة أخرجت للناس كل الناس ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

والناظر في سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو يقود معركة الحياة - لا يعوزه الدليل على ما نقول، فقد أدى - صلوات الله وسلامه عليه - أمانة البلاغ، وربى المسلم على عقيدة التوحيد، ونظم فكره وسلوكه، وارتقى به - بعد جاهلية جهلاء - إلى حيث وضوح الرؤية في الغاية والوسيلة، والتطلعات التي لا يحكمها الهوى أو النزعات الضيفة الهابطة..

ومن خلال ذلك وكل ما هو منه بسبيل.. خاض بالمسلمين معركة الوجود الحضاري السليم الذي سلمت أسسه ومنطلقاته من التناقضات، وحفلت بكل ما يعود على الإنسان بالخير في الدنيا، والفوز بمرضاة الله يوم الحساب..

ساعد على ذلك نظرات شمولية أملت بها طبيعة الرسالة الخاتمة من كونها رسالة الحياة، بكل ما تحمل الحياة من أبعاد ومجالات، فمع الجانب الإيماني والفكري، لم تكن المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بمعزل عن المسيرة الرائدة التي استهدفت الإصلاح الجذري، وإقامة البناء على صيغة



متكاملة لا تشكو ضموراً في ناحية، وتضخماً على حسابها في ناحية أخرى.

والعظيم في الموضوع: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو الأسوة الحسنة - لم يكن وهو يرتاد الطريق، ويخوض بجنده المؤمنين معارك الحياة في الداخل والخارج، ويواجه التحديات المتمثلة في المشركين والمنافقين واليهود، ورواسب الجاهلية بالإضافة إلى ما يكون من داخل النفوس. . لم يكن - وهو يرتاد ويقود - صاحب فكرة فلسفية يلقيها صاحبها على دروب أتباعه، صلحت للحياة أم لم تصلح. . وفي الوقت نفسه تبدو مبتورة عن شخصيته وسلوكه لأنه لم يمارس الحياة من خلالها. ولا أهمه أن يعان على تطبيقها في المجتمع.

أجل لم يكن رسول الله كذلك ومعاذ الله أن يكونه، بل العكس هو الصحيح، فقد كان - عليه الصلاة والسلام -، لا يني وهو يبلغ ويربي ويعلم ويصوغ - بعون الله - الإنسان المسلم كما ينبغي. . لا يني يمارس شؤون الحياة بصورة عملية بالغة الدقة والتناسق بين العمل والسلوك وبين المبادئ التي حملها إلى الناس.

ترى ذلك في نفسه وفي بيته، وفي علاقاته الاجتماعية مع الناس، الذين خالطهم في العسر وفي اليسر وفي المنشط والمكره، وقاد المجتمع مصلحاً بانياً مجاهداً في حالات السلم والحرب.

وما من قيمة من القيم التي طرحها الإسلام على طريق الإنسان، إلا ولها

في حياته - صلى الله عليه وسلم - الصيغة الحية المتحركة ، التي جعلت من سيرته ترجمة عملية للرسالة الموحى بها إليه . . كما جعلت من هذه السيرة العطرة إعلاناً يعكس إيجابية هذه الرسالة وأنها تتسع بشمولها وعمقها وإنسانيتهما لميادين الحياة كلها دونما وكس أو شطط ، وتفسح رحبها للإنسان كما خلقه الله ، وكما شاء سبحانه أن تكون علاقة هذا الإنسان بالكون والحياة ، وأن يكون سعيه على صورة متكاملة للدنيا والآخرة ، تلك الصورة التي تجعل سعي الدنيا حين يقوم على الإيمان وصدق النية ، من عمل الآخرة ﴿وَأَنْ لِّسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٩) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يَرَى﴾ (٤٠) ثمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ . وفي الحديث الصحيح «الإيمان بضع وستون -أو بضع وسبعون شعبة- أعلاها كلمة (لا إله إلا الله) وأدناها أمأطة الأذى عن الطريق» .

هذا : والمنهج الذي أتخذه -عليه الصلاة والسلام- في سيرته وسلوكه وقاد الأمة به ، لا تخفى آثاره فيما صنع لهذه الأمة من حضرة ، وفيما حملها إلى سدة القيادة والريادة في العالمين .

وإذا كان الأمر كذلك : فالعودة بمنهجية وموضوعية إلى إحكام الصلة بين الفرد والمجتمع وبين سيرته -عليه الصلاة والسلام- . . تعني أول ما تعني التحرك الواقعي الطبيعي بالنسبة إلى الأمة ، والبرهان العملي على صدق الانتماء ، كما تعني أن استئناف المسيرة على هذا الهدى الخير ، ليس ضرباً في حديد بارد ، أو حرارة في البحر ، ولكنه سير واع يتسم بالمنهجية والحرص



على الذاتية والاصالة، ويتعد بالامة عن السيلية والتبعية، ويشفيها -بإذن الله- من التافض بين دعوى الإيمان وبين السلوك .

ولكنها -والحق يقال- تبعات كفاؤها إيمان عميق، ووعي لطبيعة الرسالة الخاتمة والظروف المحيطة، والتحديات التي تواجه الأمة من اليهود، ومن يظاھرهم . . خصوصاً وأن ميادين التحدي تشمل -فيما تشمل- مع ميادين القتال والسياسة والاقتصاد، ميادين الثقافة والاعتقاد . وصلى الله وسلم على من أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فأدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الداعية المربي ﷺ (١)

على بركة الله ورجاء المزيد من توفيقه تفتتح المجلة عامها الجديد - مع مطلع القرن الخامس عشر الهجري - بشهر ربيع الأول الشهر الذي كان من خصائصه التي ميزه الله بها أن جعله شهر مولد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ، وهذا يحملنا ونحن في ظلال رحلته أمتنا عبر تاريخ خلف أربعه عشر قرنا، أن نستذكر المهمة الأولى التي كان يضطلع بها سيد العالمين في أداء رسالته للناس عندما كان يقول لهم : «قولوا لا إله إلا الله تفحلوا» .

إنها مهمة الدعوة . . الدعوة إلى الله على بصيرة ، والدعوة إلى الله على نور من كتاب الله الذي أنزل الله عليه شفاء ورحمة للمؤمنين . . فكانت هذه الدعوة اليد الحانية التي حولت الإنسانية من حال إلى حال ، وسلكت بالعرب مسلك القيادة في العالمين على هدى منهج رباني لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من لمحات الفضيلة وكل ما فيه تحقيق إنسانية الإنسان وإسعاده في الدنيا والآخرة : إلا ازدان بها واحتواها . وهي دعوة الإسلام كما هو في منابعه ومصادره ، كما هو في صفائه وشمائله ، كما هو حقيقته كما أراد الله وأثبت واقع التطبيق .

ولسنا بسبيل أن يأخذنا السرد التاريخي لأمر تتعلق بأمر هذه الدعوة من أجل التاريخ وكفى ، ولكن بسبيل أن نستذكر صنيع الداعية الأول - صلوات

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الأول ، السنة الثانية والعشرون ، ١٤٠١ هـ ربيع الأول ، ١٩٨١ م كانون الثاني .



الله وسلامه عليه- . ذلك الصنيع لازي لا تزيده الأيام الأجرة وصفاء ، ولا تمر بالأمة نعمة أو نقمة إلا بدت الحاجة ملحّة أكثر وأكثر إلى حسن تمثله وترسم خطاه دوغما تحرف أو أزورار .

إن نبينا -صلى الله عليه وسلم- وهو الداعي إل يالله بإذنه على بصيرة- كان على يقين رسخ من الجبال الرواسي بما يدعو إليه ، فهو يعرف ما يريد ومؤمن بما يريد ، والغاية من وراء الدعوة ماثلة أمام ناظره منذ اللحظة الأولى بعد أن أوحى إليه ، فخطا الخطوة الأولى على تلك الطريق .

وهو -فداه أبي وأمي- عالم كل العلم- بما أشرق قلبه من ضياد الوحي وبما أهله الله لحمل الرسالة- بطبيعة الأرض التي يتحرك عليها وحنيا النفوس التي يدعوها إلى الله ، فكان واقعياً كل الواقعية ، في استجلاء مكامن الفطرة ، ومخاطبة العقول والقلوب ، والاستعانة بثمرات تجارب الماضين ، والإفادة من كل الدروس والعبر التي يمكن أن تؤثر في أولئك الذين يريد حملهم على الجادة ، وانقاذهم منالوهدة ، واخراجهم من الظلمات إلى النور .

ولم يقتصر ذلك كله على الجزيرة العربية بحدودها ، ولكن التبليغ أخذ طابع العالمية بما أرسل من رسل حملوا كتبه إلى هنا وهناك من أرجاء المعمورة عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ﴿٤٥﴾ وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ﴿٤٦﴾ .

ولم تكن المهمة سهلة ميسورة بالقدر الذي يتصوره البعض؛ فإزالة الركام عن العقول والقلوب، وتخطي المورثات الآخذة بخناق الناس يومئذ من أجل بناء الإنسان من جديد: هو المهمة العسيرة. إن أي بناء مادي في المجتمع قد يكون أقل صعوبة من بناء الإنسان، وخصوصاً عندما يكون هناك ستار من المتناقضات، وحجب هي نسيج الخرافة والتقليد الأعمى، وأوهام العزة والفخر.

وبقدر ما نكون على تصور صحيح لهذه النقطة: ندرك أي منجزات حققها الرسول -صلى الله عليه وسلم- عندما بنى القاعدة الصلبة التي أخذت على عاتقها حمل الريادة الإنسانية لكل بني الإنسان حين أعلنت كلمة التوحيد، وبذلك في سبيلها كل شيء، وواجهت الحياة بشرعة العليم الخبير، ووضعت بمعطيات العقول والقلوب والتضحيات أسس الحضارة الإسلامية الماجدة والحمد لله.

وهذا الذي فعله رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبني عليه تلك القاعدة المباركة. كان عماده إلى جانب كل الأسباب آنفة الذكر، حسن الصلة بالله تبارك وتعالى، فالدعوة دعوته، والعمل سبيله، والمبتغى مرضاته: «إن لم يكن بك سخط علي فلا أبالي».

ومن أجل هذا: كان -عليه الصلاة والسلام- الصورة الناطقة العملية لما يدعو إليه فهي دعوة بالقول والتبليغ، ودعوة بحسن الأسوة وفضائل السلوك، إلى إنسانية في التوجيه، وحزم في القيادة، وترفع عن كل ما يقع



به زعماء التراب والشهوة لأنه رسول الله ومجتباه والمبين عنه سبحانه ما أراد .

ولا تسل عما أعطاه الله من قدرة على مخاطبة الناس على قدر عقولهم، سواء أكان المخاطب فرداً أنزل على سبعة أحرف ووسع لهجات العرب في معهوداتها بالخطاب، كان من حكمته البالغة سبحانه: أن يكون المبين للكتاب المعجز على أهلية لهذا البيان وتبليغ الناس على اختلاف أحوالهم وشؤونهم وظروفهم: ما به يدخل إلى النفوس ويوصل الدعوة إلى قلوبهم وعقولهم .

وهذا في كل من أكرمه الله بالهداية وشرح صدره للإسلام، أما أولئك الذين اختاروا طريق الضلالة والصدود عن الحق: فلهم شأن آخر . فلقد خرجت صدورهم بالخير، وعموا وصموا عن كلمة الهدى وراى على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

وليس من مكرور القول أن نستذكر -ونحن نذكر إمام الدعوة صلى الله عليه وسلم- أن من أعظم ما تميز به طريقه في الدعوة، أنه كان يدعو ويبلغ ويربي من يدعوهم على المنهج الذي يدعوهم إليه، فلم تكن القضية بالنسبة إليه قضية تعليم مجرد للكتاب والحكمة، ولكنه التعليم الذي تنضم إليه التزكية وتربية النفوس لتكون الاستجابة وجوداً جديداً لأمة الاستجابة حتى ترى أن معنى إبلاغ الدعوة بناء هذا الوجود . .

وهكذا بنى الإنسان الجديد على هذه الدعوة، فكانت الأسرة، وكان المجتمع، والدولة، وكل أولئك صورة البنية الجديدة التي أرادها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لهذه الأمة .

السيرة.. ولغة العصر^(١)

بين الأمة وبين أن تبلغ ما تريد، مسافة تطول أو تقصر، حسب افادتها من الماضي وتوظيفها تلك العبر على طريق التغيير، وبمقدار التزامها في الحاضر بعوامل القوة بمختلف أبعادها على صعيد الفكر والعمل كما أراد الله.

ونحن أمة أكرمها الله برصيد من الفكر لا نظير له عند أم الأرض، وبتاريخ حافل بمآثر الحق ونصرة قضايا الإنسان، وجعل منها أمة وسطاً ترتقي إلى مستوى الشهادة على الناس سابقهم ولحقهم، ومكن لها برسالة الخير والهدى: أن تكون خير أمة أخرجت للناس.

وإذا كان الدهر قد قلب لها ظهر المجن ردحا من الزمن نتيجة توليها وأعراضها أولاً، وتأمّر الأعداء على اختلاف الألوان والعناوين ثانياً. فإن ذلك لا يعني أن تستلم لرقدة الموت، ولكن يعني أن تثوب إلى ما به كانت خير أمة أخرجت للناس، فتستعلي بالإيمان والعزيمة على أشواك الواقع كي تكون أقدر على تجاوزه إلى ما هو الأفضل والأكرم، وأن تحرص على أن تكون المسافة بين هذا الواقع وبين بلوغ ما تريد. أقصر مسافة متصورة في حياة الأمم والشعوب.

ومما ينبغي أن يكون في الحساب: أن رصيد القرن الرابع عشر للهجرة في حياة أمتنا، ما له وما عليه، قيمة على صعيد التحرك الجديد، لا بد أن تأخذ

(١) حضارة الإسلام: مجلة فكرية جامعة، العدد الثاني، السنة الحادية والعشرون، ١٤٠٠هـ ربيع الآخر، ١٩٨٠م آذار.



أبعادها وحجمها الطبيعي ، كي تصحب العاملين وهم يتابعون الرحلة عبر القرن الذي بدأت تباشيره تظلل الخطأ وكل آت قريب .

نقول هذا . . ونحن نعني ما نقول في تصور للمنهج والتطبيق . . نقوله ونحن مستيقظون أن الأعداء لن يكتفوا هذه الأمة -لو استطاعوا- من أن تلتقط أنفاسها ، كي تستأنف رحلتها الحضارية من جديد بعد تجارب مريرة ، ومعارك ضارية على كل صعيد ، وألوان من المؤامرات التي لا يغفل عنها إلا غافل . . وكم للأخطبوط من أيد وكم له من أرجل . . والمعاذ بالله .

أجل لن يمدعوها تلتقط أنفاسها -لو استطاعوا- خصوصاً بعد المتغيرات التي تحدث أخبارها في العالم الإسلامي .

ومن أجل هذا كان لزاماً على الأمة ممثلة بأهل الريادة على ساحات التغيير ، أن تأخذ حذرهما -كما هو أمر الله- وأن تكون على يقظة تامة في شأن مواقعها ومنطلقاتها ، ومواقع أعدائها ومنطلقاتهم .

ولقد يكون ذلك أمراً بالغ العسر من منظور المنهج والتطبيق ، لما يتطلب من إيمان عميق ، وحس دقيق ، وصبر ومصابرة هما من أخلاق المجاهدين . . ولكنه الواجب الذي تحتّمه طبيعة المرحلة ، وهو في الوقت نفسه استجابة لما يفرضه موثق الولاء لله ولرسوله ، وصدق الانتماء إلى هذا الدين القويم ، وأن صفة المجاهد هي الصفة المميزة للمسلم قبل أي شيء .

إنهما عينا لا بد أن تكونا على بصر جديد . . عين على زيادة الإيمان .

ومضاعفة الجهد والعطاء، وشحن النفوس بالوعي الشامل، والاقبال على الجهاد وحب الاستشهاد. . وعين على ما يصنع الأعداء - في إطار التعريف الذي لا يدهن ولا يماري - ورصد الأسباب والتتائج القريبة والمتوقعة. . وليس سراً ما يصنعه هؤلاء الأعداء في دنيا العالم الإسلامي هنا وهناك. . وإن كان ما يخفى منه أشد وأنكى.

وفي هذا الشق الثاني من الموضوع، تمدنا الوقائع يوماً بعد يوم بما يؤكد إن المشكلة الأولى في نظر من يركبون متن الضلالة في مواجهة الحق هي الإسلام ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

كون المسلمين مسلمين، هو جريمتهم الأولى التي ترشحهم للإبادة والتصفية الجسدية وانتهاك حرمتهم في أرضهم وديارهم، بل في وجودهم من حيث هو.

ولقد ثبت بما لا يقبل الشك: إن كل القيم التي تجعل من الإسلام ذلك المنهج الرباني الفريد الذي يتسق مع فطرة الإنسان، ويحول دونه ودون التناقض مع سنن الله في الكون والحياة، ويتفادى كل الثغرات ونقاط الضعف في الأنظمة الأخرى. . ثبت بما لا يقبل الشك أن هذه المكرمة - وما أكثر مكارم الإسلام - هي نفسها سبب جوهرى من أسباب العداء للإسلام، ناهيك عن علاقته - عبر التاريخ - باليهودية والصليبية والاحاد والملحدين.

إن أعداء الحق - على الصعيد الفكري - يرون فيه نظاماً يصعب اقتحامه،



لأنه نظام شامل للحياة بعمق واتساق ، وتوازن وشمول ، وعلى الصعيد العملي ، يرون فيه القدرة على تحريك الأمة -مهما طال الرقاد- كي تعود سيرتها الأولى وتتسلم راية القيادة من جديد .

وتراهم في سبيل الحيلولة دون الشعوب الإسلامية ودون التحرك واستمرارية اليقظة يرتكبون كل موبقة ، ويتجاوزون -بلؤم وخسة- حتى أبسط ما يسمونه أصول التعامل الدولي ، ولا تسأل عن دعوى حقوق الإنسان ، فتلك مهزلة المهازل في القرن العشرين .

ترى هل هو التمييز العنصري الذي يعجز الفكر عن ملاحقته ليل نهار؟؟

أقل من خمسين إنساناً يحتجزون بتهمة التجسس فتقوم الدنيا وتعقد لأنهم ينتسبون إلى دولة كبرى ، وعشرات الألوف من المسلمين الصادقين المجاهدين تنتهك حرمااتهم وتحتل أرضهم وديارهم ظلماً وعدواناً ويتعرضون للإبادة ، فلا تتخذ خطوة جادة بشأنهم!!

ترى هل هي الحضارة التي يصعب فهم أسرارها وسبر أغوارها ، أم أنها مبادئ العدل والانصاف!!

إنه مسلك يحكي دائماً قصة الحمل مع الذئب ، فالمسلمون هم المعتدون ولو اعتُدي عليهم ، وهم الظالمون ولو ظُلموا ، وهم المتخلفون أعداء الإنسان ، ولو كان الغاصب لا يعرف في معاملتهم إلا الوحشية التي لا ينزلق إليها وحوش الغاب!!

والانكى من ذلك أنهم يذبحون بسيف الحرية والشعارات الإنسانية، وترى أن موجه التهمة والقاضي والشاهد ومن يتولى التنفيذ واحد . . فيكفي أن يقولوا في الإسلام ما يشتهون وفي المسلمين ما يشاء لهم الهوى حتى يكون ذلك مسوغا لكل ما يصنعون . . ويصنعون .

ولقد آن للمسلمين أن يرسموا -على مستوى الإدراك- خطأً بيانياً يبدأ من ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ . ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ . ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ . ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ . وير عبر التاريخ بالوقائع تلو الوقائع، ويحط رحاله مؤقتاً عند هذا الذي هو حاصل اليوم في عالمنا الكبير عموماً وفي قطر من أقطاره بشكل خاص .

إنهم إن فعلوا ذلك استطاعوا -من هذه الناحية- أن يتخطوا مباءة الغفلة، وأن يتجاوزوا مرحلة حسن الظن بمن يُفلسف هذا الخطُّ البياني طبيعة علاقتهم بنا من خلال الوقائع الناطقة عبر القرن الرابع عشر للهجرة الذي حفل بما حفل به من العناوين المزوقة، والخداع الفكري الذي يُخفي وراءه السمُّ الزعاف .

وإذا كنا نعيش هذه الأيام ذكرى مولد محمد -صلى الله عليه وسلم- وبدء دعوته وهجرته، فحريُّ بنا -وفي العالم الإسلامي من المآسي ما يذوب له القلب وتنفطر له الأكباد . . - أن نتذكر . . أن نتذكر أمتنا وهي تحمل عبء نفسها وعبء الإنسانية : أن اللغة التي تصلح لهذا العصر ولكل



عصر هي لغة سيرة المصطفى -عليه الصلاة والسلام- .

أجل : إن لغة السيرة هي اللغة العصرية لنصرة الحق والإنسان في كل عصر ؛ ذلك أن الرسول الكريم ، بلغ الدعوة وقام بإعداد أبنائها لمواجهة التحدي ، وهاجر من مكة إلى المدينة ، وفي مجمع المدينة : كانت مصاحبةُ العمل الميداني جهاداً وحكماً وعملاً ، للعمل الفكري التربوي سمةً واضحة من سمات السيرة النبوية .

دع عنك الكلمات المعسولة التي تُكسي ثوبَ الفلسفة والفكر ، وانظر صنيع أصحابها بهذه الأمة . . ولليكن في الحسبان دائماً تكامل الحركة في حياته -عليه الصلاة والسلام- ، إماماً للناس في المحراب وداعية يدعوها إلى الإسلام وخطيباً يبين لهم أمور دينهم ويعالج مشكلاتهم ، ويصرخ على المنبر بأعلى صوته كأنه منذر جيش يقول : صبحكم مساكم ، وانظر إليه -صلى الله عليه وسلم- وهو يقود معارك الجهاد في بدر وأحد الأحزاب والحديبية والفتح وحنين وتبوك وغيرها ، ولا يدع أن يعد العدة المستطاعة ، ذاكراً من بيده النصر سبحانه .

تلك هي لغة عصره والتي يجب أن تكون اللغة التي يتعامل المسلمون من خلالها مع الآخرين عقيدة وعلم ، وتعلم ، وجهاد وإعداد للجهاد ، ذاكم هو حصن الأمة من الخارج ، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حصنها من الداخل .

وحين تعد الأمة أجيالها على هذه الصورة من التكامل ، تسلم لها بنية

المجتمع ، تسلم لها الهيبة في صدور أعدائها الذين تراهم دائماً جادين في حربها على كل صعيد بشتى الألوان والأساليب .

لست هنا بسبيل أن أصرف الأمر كله إلى النعمة على إعداد الحق ، وتناس ما هو واقع بالأمة من الأدبار عن أعداد القوة والمنعة ، والفتور في نصرة دينها وكتابها . . سيما وقد أشرت إلى هذا في صدر الحديث ، ولكنني بسبيل كشف اللثام عن بعض الحقائق التي قد تخفى على بعض المتغافلين أو من يضعون حسن الظن في غر موضعه ، قاعدين عن إدراك الأبعاد التي حملها التهاون فيما مضى ، ونتجرع علقم نتائجها اليوم .

والأمة إذا وعت سيرة نبيها -عليه الصلاة والسلام- في منطلقاتها وأهدافها ، وطبيعة الحركة فيها ، والأطر التي تحدد المسار في وضع مفهومات القرآن موضع التطبيق . . كان لها من ذلك بعون الله قوة في بنية الفرد وقوة في بنية الجماعة ، وكانت أخوة العقيدة صرحاً منيعاً يحول دون أن يضام بلد مسلم فيقابل ببلادة الحس ، وضمور المشاعر ، الأمر الذي نبصر اليوم فيه واحدة من نتائج التمزق الفكري وعفن التصورات المستوردة من هنا وهناك .

مرة أخرى : أن لزاماً على خير أمة أخرجت للناس ، أن تستقبل القرن الخامس عشر للهجرة -حين تستقبله- وهي أصدق عزيمة على أن تصحبه غير اصطحابها القرن الذي سبق ، وأن تكون أكثر وفاء لسيرة نبيها وأمامها محمد -عليه الصلاة والسلام- : فتعامل الأحداث والوقائع باللغة التي تكلمت بها تلك السيرة وبالنهج الذي نهجه سيد المجاهدين -صلوات الله



وسلامه عليه-، حين لم يدع قضية لحساب أخرى، وجعل الجهاد ذروة سنام الدين. ففي الحديث الصحيح «وذروة سنامه الجهاد» و«رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها».

اللهم يوماً من أيامك تجمع فيه القلوب على الحق، وتوحد كلمة جنك على الهدى، تُعز فيه أولياءك وتُخزي أعداء الإنسانية أعداءك. . اللهم ساعةً من ساعات نصرك وتأيدك يُدال فيها لأهل التوحيد من أهل الضلال والفساد، وترتفع راية دينك الذي أرتضيته من جديد.

السيرة .. والعقود^(١)

في شهر ربيع الأول : نذكر مولد سيد العالمين محمد -صلوات الله وسلامه عليه- ، الذي كان إيذاناً بنعمة سابعة على الناس في دينا الناس ، ونذكر مبعثه الذي كان فجر الأمل للإنسانية التي طال عليها ليل العماية هنا وهناك . ونذكر هجرته -جزاه الله عن الأمة كل خير- التي كانت عنوان الخروج بالدعوة من حيزن التبليغ إلى حيز التطبيق ، حيث قامت الدولة امتداداً للدعوة واتضحت معالم المجتمع المسلم القدوة ، تبنيه في المدينة يد النبوة وتشارك في بنائه سواعد المؤمنين ؛ وذلك بعد ثلاثة عشر عاماً في مكة عزّ على التاريخ أن يجد لها نظيراً في وضوح الرؤية ، والتزام الحق ، والصبر على المصائب التي ما زادت المؤمنين إلا إيماناً وتسليماً ، كماذهب النصار ، يعرض على النار فيخرج أكثر تألقاً ونضارة .

ومن خلال ذلك كله ، وفي ظلال الوقائع التي تحكي قصة الهداية والجهاد . . نذكر السيرة العطرة -التي كانت وما زالت ولن تزال- لامتنا بخاصة- نبراس هدى ، ومعالم طريق ، وبرهان التزام بالأمانة ، وصدق في تحمل التبعات الجسام ، ومنهج رشد لا يزيغ عنه إلا من سفه نفسه ، وسلطاناً ما بعده سلطان حمل القناعة لمن أراد مقنعا ، بأن رسالة الإسلام هي رسالة الحق والصدق ، وهي الرسالة التي وجد الإنسان فيها نفسه بعد الضياع ،

(١) حضارة الإسلام : مجلة فكرية جامعة ، العدد الأول ، السنة العشرون ، ١٣٩٩ هـ ربيع الأول ، ١٩٧٩ م شباط .



حينما أخذت بيده ووجهته وجهة الفطرة، حيث التوازن والتكامل، ففطرته وعقله، وأشواقه وقلبه، وغرائزه وميوله، وحاجاته ورغباته، كل ذلك من تلك الرسالة بحسبان؛ فلا تمزق ولا تشتت، ولا تنمية لجانب على حساب جانب آخر. . ناهيك على الحفاظ على كرامته، والعناية الفائقة بكل ما فيه تحقق إنسانيته ووجوده، وذلك ما وفر له أن يعمل في صنع التاريخ بثقة وطمأنينة، وأن يدرك حقيقة موقعه في هذا الوجود، وأن يتعامل مع الله خالقه، ومع الآخرين، بل ومع الكون كله، على سلم من القيم التي وضعته على الخط الفاعل الباني، بإيجابية وفسحة أمل، ففي الدنيا سعادة أي سعادة، وفي الآخرة رضوان من الله وفوز عظيم.

ولقد أكرم الله الإنسانية -فيما أكرم- حين أوحى إلى نبيه المصطفى -صلوات اله وسلامه عليه- برسالة الإسلام وجعل سيرته الكريمة ترجماناً ناطقاً لتلك الرسالة، ثم حين حفظ جلت قدرته الكتاب كما أنزله، وحين وفق من أهل السعادة من حفظوا على الأمة سنة نبيها وسيرته.

أما وقد صان الله كتابه عن أي تحريف أو تبديل، وحفظ بجهود أئمة الهدى بيان هذا الكتاب من سنة رسول الله وسيرته؛ فإنني أعيد نفسي، وأعيد أخي القارئ من أن يكون حديثاً مما نذكر في شهر ربيع الأول، حديث المتعة نخرج بها من السامة إلى شيء من البهجة الموقوتة وكفى، أو حديث الأعجاب العبر أو غير العابر، شأن الناقد الأدبي يغريه ما يعجب!! هكذا. . . وينتهي الأمر. . .

نعم أعيد نفسي وأعيد أخي القارئ من أن يكون ذكرنا لسيرة البشير النذير على هذه الشاكلة . لما أن ذلك هو ظاهرة المسخ في النظرة إلى السيرة، وعنوان الجهالة فيما يطلب من وضع الأمور مواضعها، وأنها لجهالة يُسلم إليها ما يخترعه الغافلون وأهل الأهواء من مفهومات، هي صورة عمّاهم فيه ومقيمون عليه، ليست من عمل السلف الصالح ولا منهج السلف الصالح في قليل ولا كثير .

وبعيداً عن عاطف فائرة ثائرة، ما أحسب أن عاقلاً منصفاً يماري في أن سيرة الرسول -صلوات الله وسلامه عليه-، أبرز مرحلة مضيئة في تاريخ البشرية، لما أنها التاريخ الذي أزدن به الزمان في ضوء الرسالة المحمدية؛ وقد أطاع من أطاع، وصبر من صبر، وقاتل من قاتل، واستشهد من استشهد، بناءً وعملاً وتثبيتاً لدعائم الحق وسلطانه في الأرض، تحت راية تلك الدعوة التي اقتحمت أسوار الجاهلية وآذنت بوجود إنساني جديد، وأعلنت ميلاد حضارة تقوم على مفهومات الإسلام وتحملها العربية لغة القرآن .

من أجل ذلك كان رسول الله -فداه أبي وأمي- هو الأسوة الحسنة، والقدوة الهادية الخيرة، وما صح من سيرته هو النبراس، والقضية على صعيد ما يطلب من الأمة -وهي تدين دين الحق- ليست في حدود النافلة والاختيار، ولكنها برهان الإيمان، ودليل الصدق في دعوى التوحيد ومحبة الله ورسوله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ



الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا ﴿١٠﴾ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

فالذي ابتعثه وقرن الشهادة برسالته ، بالشهادة بوحدانيته سبحانه ، هو الذي جعل منه الأسوة الحسنة كما هو صريح القرآن ، كيف لا وحياته - صلى الله عليه وسلم - في أقواله وأفعاله وسلوكه وتصريفه لشؤون الحياة في ضوء ما أنزل عليه ، هي الترجمان الناطق العملي لرسالة السماء .

والواقعة المتبدرة عن آية الأسوة تزيد الومنين يقينا بهذه الحقائق ، لما أن الآية نزلت في عدد من الآيات من سورة الأحزاب وكانت بشأن غزوة الخندق ، حيث الصبر والمصابرة ، والصدق في المواطن ، واستعلاء المؤمنين بإيمانهم ، وانكشاف المنافقين حين أشتد البلاء وبلغت القلوب الحناجر .

وإنه لفهم إبله أو متباله ، ذاك الذي يقصر التأسي على بعض الجوانب التعبدية أو الاخلاقية ، بل هو عام - كما هي دلالة الآية في جوها وسياقها - يتسق مع طبيعة الرسالة ، إذ لا انفصام بين الرسالة والرسول ، ومع البنيان العظيم المتكامل الذي قضى رسول الله والذين معه ليهم ونهارهم ، حتى أخرجوه إلى حيز الوجود ، البنيان الذي قامت على التوحيد قواعده ، وارتفع سامقاً بإذن الله ، شريعة ونظماً للحياة ، ومنهجاً للسلوك ، لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في علاقة الإنسان بربه ، وعلاقته بالآخرين ، وعلاقة الحاكم بالمحكوم ، والدولة بغيرها في حالات السلم والحرب . . إلى آخر ما يصور من ركائز المجتمع وعناصر وجوده ، وكل ما به تتحقق الغاية من

وجود الإنسان . . أجل لم يغادر صغيرة ولا كبيرة في ذلك كله، إلا وضعها موضعها، وأبرزها ومعها برهانها الواقعي بجانب النص المكتوب، آخذة مكانها الطبيعي على الساحة العملية في تطبيق الشرعة والحكم بما أنزل الله .

وهل هذه هي النهاية؟؟ إن العقيدة والتاريخ وواقع الأمة وما يجب أن تكون عليه، ليزول ما ران حياتها من الهوان . . إن كل ذلك يقول لا، فالأمة بكل فنائها كائنة ما كانت الصفات والملابسات، مدعوة بحكم إيمانها، والموثق الذي قطعته بالتزامها، أن تكون على خطأ التأسّي بصنيع رسول الله -عليه الصلاة والسلام- في كل جانب من جوانب الحياة، تهتدي بنورها حيث التيه يضرب بكلكله هنا وهناك، وتنقذ نفسها من خطوب تنتقص أرضها ووجودها الذاتي بين أم الأرض .

ولعل حالات السلم والحرب من أبرز الأمور التي تستدعي -على الصعيد العام- تبصراً حقيقياً بسيرة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وطريقته في إدارة الأمور ومواجهة الظروف، ليكون حسن التأسّي في ضوء جوهر التصرف ومركزاته الأساسية، والغاية المتوخاة من السلم أو الحرب . وليس ذلك بحائل دون ما يجوز من اجتهادات تمليها طبيعة ما يجدُّ من وقائع دون عدوان على الأصول، والخطوط العريضة التي رسم أبعادها القرآن وبيتها قولاً وفعلاً سنة الرسول -عليه الصلاة والسلام- .

هذا: ومن الحلقات ذات الدلالة في السيرة -على صعيد السلم والحرب- ما كان من أمر رسولنا الكريم مع اليهود، أولئك الذين بداهم بالأحسان، وقابلوه بالمساءة، وأية مساءة هي!!



فمنذ وطئت قدماه -صلوات الله عليه- أرض المدينة، أفسح لهم -وهو النبي المطاع- في الحقوق، وأعطاهم من الفرص ما يمكنهم من الحياة الكريمة الحرة، أن لو تخلوا عن الكراهية والحقد والكذب على الله وعلى الناس؛ ولكنهم كانوا في سلوكهم وتعاملهم على نقيض ما يمليه الوفاء والحق الذي يزعمون!! لقد ضاقوا ذرعاً بالمجتمع الجديد ينحسر عنه سلطانهم، وساءهم ما تلقى الدعوة من استجابة ورضى، وما يملك لها من سلطان على القلوب والعقول؛ فلم يحجموا ساعة من ليل أو نهار، عن الدس والغدر، والخديعة والمكر. ومغردات الانحراف تطول وتطول.

ولا تنس مما لآتهم للمشركين -حتى ظاهروهم على رسول الله ودعوة الإسلام.. وكذبوا على ربهم حين قالوا العبداء الأوثان: أنتم أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، لقد جفت في نفوسهم منابع الخير، ولم يرعوا عن أن يركبوا أي مركب للأذى يحقق آمالهم الشيطانية الحاقدة.. وأغلقوا بما صنعتهم أيديهم كل نافذة سلم بينهم وبين المسلمين.

فلما لم يكن غير القتال -وحالهم هي الحال- حكماً يُحتكم إليه، كانت لرسول الله معهم معارك بني قريظة، وبني النضير، وخيبر.. إلخ. وتوالت الأحداث، حتى أخرجوا من جزيرة العرب.

وفي نظرة تمليها العقيدة عند تحديد المواقف: ينبغي أن نذكر أن الذي فعله اليهود من قلب ظهر المجن لرسول الله، ومقابلة الاحسان بالإساءة حتى وصلوا إلى تدبير الاغتيال في سلسلة من سيئات ما مكروا، إنما كان من

دلالاته مصداقاً لما دلت عليه أي القرآن في الكشف عن خلائقهم، وحقيقة نواياهم، وما تنطوي عليهم صدورهم من كل مستقبح مستكره.

ولكم عاثوا فساداً في ديننا هذه الأمة.. فكانت السيئة.. وكان ما كان من بعدها، إلى أن وقع التآمر من يهدو الدنما على الخلافة، والقضاء عليها، ولا تنام مطارق الأذى والفتنة، فيلغوا البلاء الأسود بكارثة فلسطين.. وتتطور المشكلة حتى تصل إلى صورتها التي تنصدع لها الأكباد، وليس سرّاً ما تعانيه الأمة من هذا الخطب الجلل على كل صعيد..

ولكن.. أما لهذا الليل من آخر؟؟ أن معادلة عقلية تضع في حسابها تكامل حلقات التاريخ، وتأثر الحاضر بالماضي، وطبيعة العلاقة بين أمتنا وبين اليهود والبواغث التي حركتهم في الماضي، وعبر التاريخ، وتحركهم في الحاضر، والمسلمات التي أوردتها القرآن عنهم، وزادنا تصرفهم وسلوكهم يقينا بهم على يقين.. أن معادلة عقلية تضع في حسابها ذلك كله بتجرد وموضوعية وحرص على كيان الأمة ومستقبل أجيالها تقول: هذه العقدة الصماء لا يحلها إلا حسن التأسّي برسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما صنع، والتبصر في علاقتنا بالمغضوب عليهم من خلال القواعد التي رسمها فاليهود هم اليهود، لم يكن الزمن المتطاوّل في الماضي بقادر، ولا هو اليوم بقادر كذلك على أن يغيّر أياً من طبائعهم وأخلاقهم، أو يزحزحهم قيد أنملة عما هم فيه من عداوة الله والإنسان خصوصاً لنا نحن المسلمين، وهم يسخرون العلم وما يصلون إليه ويسرقونه من المنجزات الحضارية لما يهدفون إليه من غايات كلها شر وعدوان.



ولقد كان من معجزة القرآن أنه خاطل اليهود المعاصيرن للنبي -عليه الصلاة والسلام- وكأنهم الذين حرفوا وبدلوا، وكتبوا ما أنزل الله، وقتلوا الأنبياء واحتالوا على أحكام الله وشريعته، وكانوا مع موسى -عليه السلام- على أشد محالات التعنت. أجل خاطبهم، متخطياً قروناً متطاولة من الزمن، ليدل -والله أعلم- على أن الطينة واحدة، وبؤرة الأذى في النفوس واحدة، وعلى أن الشر المتأصل في أعماق واحد؛ فالحاضرون اليوم راضون كل الرضا عما صنعه أجدادهم -قبل قرون- بالأمس.

أرأيت إلى صنيعهم اليوم!! إنهم وبعد كل الذي حصل خلال الأعوام التي أربت على الثلاثين، يتبخثون في دينا الباطل، ويلعبون على حبال العدوان والمكر، ويحاولون أن يملأوا دائماً شروط الباغي المعتدي، وكأنهم أصحاب الحق، والوارثون للأرض ومن فيها وما فيها..

وتبرز هنا صورة مرعبة مفزعة هي صورة العقوق.. ولا أعني به عقوق الآباء والأمهات، ولكنه عقوق سيرة المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- فيما صنع -وهو سيد الرحماء- يوم حملة هؤلاء الطغام على ركوب المركب الخشن.

فهل سمعتهم أو رزيت أو علمتهم، عقوقاً أشد وأظلم من هذا العقوق، حين نسقط التاريخ من حسابنا، ونولي وجوهنا شطر الذي هو نقيض ما صنع رسول الله الأمر الذي هو الاستسلام كله، والاستخذاء كله!

---كتب هذه الكلمات بعد الذي حصل في كامب ديفيد، ولا أدري

متى توقع معاهدة الصلح . . ولكن بعيداً عن توقيع هذه المتوقعة ، ألم يأخذ الأعداء في هذه المفاوضات -وبكثير من التنطع والعناد- ما لم يكونوا يحلمون به من قبل ، بل ولا حصل في تاريخ الحروب والمفاوضات !! لقد أعطي الآثم المصرُّ على الاغتصاب والاستيطان . . وما أدراك ما الاستيطان والمستوطنات . . ما لا سند له من قانون دولي أو عرف معمول به في دينا العلاقات الدولية ، أن لو كان أهلونا مصرحين بالاعتراف !! هذا فضلاً عن الخالفة الصريحة لنصوص القرآن والسنة ، والمنطلقات التي يفترض أن ننطلق منها حين نحارب أو نسالم .

ودع عنك تأويلات فارغة ظالمة لقوله تعالى : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ . فالمعاذ لله أن تكون الآية من هذا الانحراف الظالم في نسب قريب أو بعيد . ولا تسل عن مجافاة هذا الصنيع لمصلحة الأمة ، والإساءة إلى التاريخ والعبث الذي ما بعده عبث إلا أن يكون شراً منه . . حين يعدو الفرد على الشعوب فيضعها الموضع الذي لا يليق . . يقولها ما لم تقل ، ويلبسها لبوساً هي في عقولها وقلوبها له منكرة ، ولكنها مصادرة الإنسان ، وإبعاد الأمة عن حقيقة الإسلام ، لتغيب عن الساحة روح الجهاد ، والبذل بلا حدود في سبيل الله .

اللهم إنا نبرأ إليك من هذا العقوق . . فسيرة رسول الله أمانة في أعناق أبناء هذه الأمة ، وهي آكد وأكد في حق من بيدهم مقاليد الأمور على صعيد الفكر والتنفيذ . .



تري أي داهية هذه التي تضيف إلى عدوان اليهود، عدواناً على قيم الأمة وأصالتها، وتهاوياً مبتذلاً بحقوقها، ورضى بما هو بالذلة والصغار أشبه، تحت عناوين حضارية يا لها من عناوين، ولافتات سلمية يا لها من لاقتات. . الأمر الذي يذكرنا بوقل الله تعالى على لسان فرعون فيما زعم لنفسه ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ .

ولله الأمر من قبل ومن بعد، والله من روائهم محيد، ولا حول ولا قوة إلا بالله .